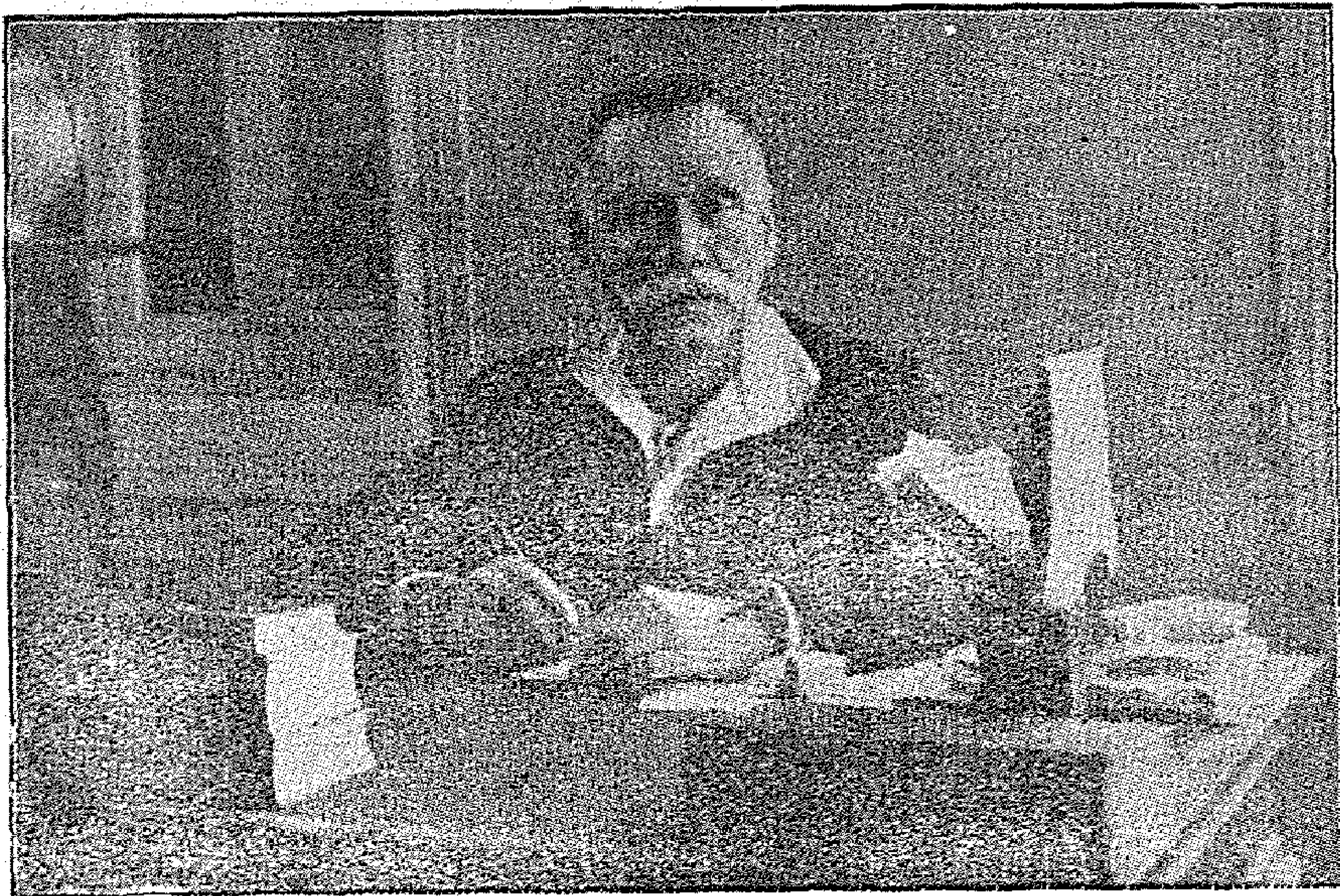


مذكراتي في نصف قرن

بقلم



الحاج احمد شفيق باشا

رئيس الديوان الخديوي ووكيل الجامعة المصرية الأهلية سابقا
وخريج مدرسة العلوم السياسية وكلية الحقوق بباريس

الجزء الثاني

عباس حلمي الثاني

القسم الثاني من يناير سنة ١٩٠٣ الى سنة ١٩١٤

الطبعة الأولى

مطبعة مصر - شركة مساهمة مصرية

١٣٥٥ هـ - سنة ١٩٣٦ م

مؤلفات صاحب هذه المذكرات

الرق فى الاسـلام : باللغة الفرنسية وترجمته باللغتين العربية والتركية

قنـاة السـويس : باللغة العربية وبه خريطة وصور وثمنه ٥ قروش

مصر الحديثة ونفوذ الأجنبى فيها : « الفرنسية وبه كثير من الصور والخرائط وثمنه ٢٥ قرشاً

حوليـات مصر السـياسية فى عشرة أجزاء

منها الثلاثة الأولى تمهيد والسبعة حوليات

التمهيـد الأول : فذلكة من محمد على إلى نشوب الحرب . الحماية وتولية السلطان حسين . تأليف الوفد ونفى سعد وصحبه إلى مالطة . ثورة ١٩١٩ . إطلاق سراح سعد وصحبه وسفرهم لباريس . لجنة ملنر ومقاطعتها . مفاوضات سعد وملنر . الاعتداءات . (٨٧٢ ص و ٤١ صورة وأربع خرائط وثمنه ٥٠ قرشاً)

التمهيـد الثـانى : الاتحاد المقدس . انقسام الوفد . سعد وعدلى يختلفان . المظاهرات وقمعها بالقوة . الوفد الرسمى بلندرة وإخفاقه . سعد وصحبه فى سيشل . اعتقال أعضاء اللجنـة المركزية للوفد . ثروت وألنبى . (٩٢٧ ص و ٣٢ صورة وثمنه ٣٠ قرشاً)

التمهيـد الثـالث : تصريح ٢٨ فبراير ورجوع المنفيين . لجنة تحضـير الدستور . تعويض الموظفين الأجانب . تأليف حزب الأحرار الدستوريين . (٧٣٤ ص و ١٧ صورة وثمنه ٣٠ قرشاً)

الحوليـة الأولى : الانتخابات . وزارة سعد . الخلافة . البرلمان . السودان . الاعتداء على سعد . مفاوضات سعد مع مكدونالد . مقتل السردار . الانذار البريطانى . حل البرلمان . (٦١١ ص و ١١٩ صورة وثمنه ٣٠ قرشاً)

الحوليـة الثانيـة : الوفد والعرش . تأليف حزب الاتحـاد . إخلاء السودان . الانتخابات الثانية . افتتاح البرلمان وحله . استقالة ألنبى النضال بين الأحزاب . الحكم فى قضية مقتل السردار . محاكمة الشيخ على

عبد الرازق . الدعوة إلى عقد مؤتمر وطنى عام . تسليم جغبوب لايطاليا . (١١٠٤ ص و ٧٤ صورة وثمنه ٤٠ قرشاً)

الحولية الثالثة : الأحزاب المؤتلفة . الانتخابات الثالثة . عدلى يخلف زيور . عيد الجهاد الوطنى . (٧٠٦ ص و ١٩ صورة وثمنه ٣٠ قرشاً)

الحولية الرابعة : القضية المصرية والأحزاب . ثروت يخلف عدلى . زيارة جلالة الملك رسمياً لايطاليا وفرنسا وانجلترا وبلجيكا . مفاوضة ثروت وتشمبرلن . وفاة سعد . افتتاح البرلمان . الامتيازات الأجنبية . (٧٨٢ ص و ٦ صور وثمنه ٣٠ قرشاً)

الحولية الخامسة : ملك الأفغان فى مصر . أعمال البرلمان . ولى عهد إيطاليا فى مصر . النحاس يخلف ثروت . حالة الائتلاف بين الأحزاب . مشروع اتفاق ثروت مع انجلترا . وفاة حسين رشدى . النزاع الحزبى . محمد محمود يخلف النحاس . تعطيل البرلمان . النحاس فى الأقاليم . مشروعات الرى الكبرى فى مصر والسودان . وفاة ثروت . النضال بين الوفد والوزارة . محاكمة النحاس . (١٥٢٦ ص و ٢٤ صورة وثمنه ٥٠ قرشاً)

الحولية السادسة : الاتفاق على مياه النيل زيارة جلالة الملك لألمانيا وفرنسا وسويسرا وانجلترا . مفاوضات محمد محمود وهندرسون . تفتيش بيت الأمة . عدلى يخلف محمد محمود . عودة الحياة النيابية . الانتخابات الرابعة . (١٦٠٠ ص و ٢١ صورة وثمنه ٥٠ قرشاً)

الحولية السابعة : النحاس يخلف عدلى . افتتاح البرلمان وأعماله . مفاوضات النحاس وهندرسون . اسماعيل صدقى يخلف النحاس . تأجيل البرلمان . موقف الانجليز . تغيير الدستور وقانون الانتخابات . تأليف حزب الشعب . (١٦٠٠ ص و ١٣ صورة وثمنه ٥٠ قرشاً)

وتتضمن هذه المجموعة الخطب والمحادثات السياسية وتعليقات الصحف على اختلاف نزعاتها ؛ فهى دائرة معارف سياسية جامعة

الجزء الأول من مذكراتى فى نصف قرن من سنة ١٨٧٣ إلى وفاة توفيق فى يناير سنة ١٨٩٢ (٥٢٧ صفحة و ٣٥٥ صورة وثمنه ٣٠ قرشاً)

القسم الأول من الجزء الثانى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٣ (٤٥٦ صفحة و١٧٦ صورة وثمنه ٢٥ قرشاً ومن أول يناير سنة ١٩٣٧ ثمنه ٣٠ قرشاً)

فهرس القسم الثانى من الجزء الثانى

عهد عباس حلمى الثانى

سنة ١٩٠٣

سنة ١٩٠٤

سنة ١٩٠٥

سنة ١٩٠٦

سـنة ١٩٠٧

سنة ١٩٠٨

سنة ١٩٠٩

سنة ١٩١٠

سنة ١٩١١

سنة ١٩١٢

سنة ١٩١٣

سـنة ١٩١٤

الحـرب العظمى

فهرس الأعلام

الواردة فى القسم الثانى من الجزء الثانى من « مذكراتى فى نصف قرن »

فهرست الصــــور

الواردة فى القسم الثانى من الجزء الثانى من « مذكراتى فى نصف قرن »

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

اهداء

الى مصر . .

الوطن الذى فيه نشأت وإياه أحببت وله أخلصت ووفيت أقدم هذه المذكرات لأشهد أبناء الجيل الحاضر صفحة من أعمال الجيل الغابر فى غير تزييف ولا التواء وما أخشى غير الله هو حسبي **احمد شفيق**

فى الصباح [illegible] وركبنا العربة وتوجهنا الى محطة [illegible]

[illegible]

السيد البكرى والشيخ على يوسف [illegible] وغيرهم

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] Amiens [illegible]

[illegible]

منقول من إحدى مفكراتى على مقامها الأصلى



عباس حلمي الثاني

سـنة ١٩٠٣

بيني وبين حسن عاصم باشا . رسائل رشيد بك عن سياسة المابين . تذمر مختار باشا من الخديو . فوضى الرتب . اخفاق مؤامرة في مصر لخلع عبد الحميد . رحلة الخديو الى الاستانة وأوربا . زيارته غير الرسمية للندرة والتفاهم بينه والانجليز . عباس في دبفوند للاستشفاء . مهمتي في طاشوز . العودة الى الاستانة . العود الى مصر . الشيخ علي يوسف في لندرة وباريس . هدية الخديو للملجأ اللقطاء . الزبرجد في البحر الأحمر . شقيقة ملك الانجليز في مصر وكبار الزوار الاجانب . افتتاح دار الآثار المصرية . مسألة صندوق التوفير .

بينى وبين حسن عاصم باشا . لما أحيل محمود فهمى باشا رئيس الديوان العربى إلى المعاش ، وخلفه حسن عاصم باشا ، أراد أن يسيطر على جميع الأقلام العربية والأفرنجية والتركية ؛ وكان يصدر أوامره إلى الموظفين الذين هم تحت رياستى مباشرة ؛ فاستأت للاعتداء على اختصاصى . . وصارحته بذلك ، طالباً منه استصدار أمر بهذه السلطة ؛ إذ أننى لو فرطت فى حقوقى التى منحنى إياها الخديو ، وهى الاستقلال فى عملى ، والتوقيع على كل ما يصدر من المعية باللغة الفرنسية ، كنت مقصراً فى الواجبات الملقاة على عاتقى . ولما لم ينته الأمر بيننا إلى حل ، عرضت المسألة على الخديو ؛ وبعد أيام جاءنى دومرتينو باشا وقال لى : « إن سموه لا يحب أن تمس وظيفتك فيما يختص بالأعمال الخصوصية لسموه ؛ وأما التوقيع على ردود المكاتبات الرسمية فتكون من حسن عاصم باشا إذا كانت باسمه ؛ أو بتوقيعك إذا كانت باسمك . » وأبلغنى أن سموه قال لحسن عاصم باشا عند تعيينه . « إن شفيق وعزت قد اكتسبا شبه استقلال فى أعمالها ، فيجب مراعاة ذلك . »

وقد تبين لى أن عاصم باشا كان يعتقد أننى غير مرتاح لتقلده رياسة الديوان الخديوى ، ويستدل على ذلك بأنى لم أهنئه ؛ ولكنى لم أتأخر عن التهنئة إلا لأعذار طارئة ، ولم يخرج الأمر عن سوء تفاهم عادى ؛ ثم تقابلنا بعد ذلك وتفاهمنا ، وسارت الأمور بيننا على وفاق ، وأصبح ميالا إلى أخذ رأيى فى الأعمال العامة ، وفى نصوص الخطب التى يلقيها الخديو فى الاحتفالات الرسمية ، وغيرها .

رسائل رشيد بك عن سياسة المابين . رشيد بك من رجال تركيا الفتاة ؛ وقد حضر لمصر ، ورحب به عباس حتى إنه وظفه فى الخاصة ، وأخيراً توسط له سموه وأعاده إلى الاستانة . وهو ينتمى إلى أحمد جلال الدين باشا « السر خفية » ؛ وقد استخدمه الخديو للوقوف على بعض المسائل من الباشا المذكور ، فوردت منه عدة رسائل فى سنة ١٩٠٢ ، تكلم فيها عن مسألة يالى جبوقلى . وشكوى مالكه من عدم دفع السلطان ثمنه الذى اشتراه به ؛ وتكلم كذلك عن حضور البرنس حسين كامل باشا للاستانة (*) ، ونزوله ضيفاً عند احمد جلال الدين باشا ، وبأن شركة هافاس عللت سفر البرنس تعليلا قد يؤدى إلى استيائه ، وان البرنس لديه من الأسباب ما يجعله يعتقد بأن التلغراف موحى به من منير باشا ، وأن احمد جلال الدين باشا يؤكد أن سفر البرنس ليست له

(*) راجع ص (٣٦٤) من القسم الأول

أية صلة بمسألة طاشوز ؛ ويظن — رشيد بك — أن المسألة من تدبير جماعة تركيا الفتاة .

وقال مستر سندوز مدير شركة هافاس إن هذا التلغراف خطأ ، ولم يرسل إلا على سبيل الاستطلاع وجس النبض استجلاء للمعلومات المعطاة من أناس هم على صلة بمنير باشا ، وقد أدلى سندوز بكثير من المعلومات فيما يتعلق بالدسائس التي يدسها حزب أبي الهدى ؛ وقد أذاع هذا الحزب في الأقطار الاسلامية منشوراً ضد الخديو(*) ، ووعد سندوز بالسعي للحصول على نسخة من هذا المنشور .



رشيد بك

وفي ٦ ديسمبر سنة ١٩٠٢ أرسل رشيد بك يقول إنه سأل نوري باشا من رجال المابين عن مسألة تعيين شفيق بك في منصب القبوكتخدا ، فصرح بناء على ما جاء في تذكرة الصدارة ، بأن العرف المتبع يقضي بعدم تعيين أحد في هذا المنصب من غير موظفي الاستانة ، وأن رشيد بك أعرب عن أسفه لذلك واطلع على الرسالة الموجهة من الصدر الأعظم إلى الخديو ، على أثر إعرابه عن رغبته في تعيين شفيق بك ، فاذا بها تنص على أن هذا المنصب لا يمكن أن يشغله غير موظف تركي ، وأنه ترك للخديو حق اختيار الشخص الذي يريد أن يشغله . وقد جاء من رشيد بك في ٣ فبراير بهذا الخصوص أنه لا يبعد أن يعين شفيق بك بعد أن أقيل الصدر الأعظم من منصبه وحل آخر محله ، ويعرب عن رغبته في مخاطبة الخديو في شأن هذا المنصب ، مبيناً لسموه أنه ليس من مصلحته تركه خالياً إلى ما شاء الله ومستصوباً إسناده إلى شفيق .

وجاء في إحدى رسائله أيضاً أن الخاصة السلطانية باعت مناجم طاشوز إلى أحد الألمان بمبلغ سبعة عشر ألف جنيه .

(*) راجع ص (٣٦٨) من القسم الأول .

تذمر مختار باشا من الخديو . فى فبراير أقيمت الحفلة الراقصة السنوية فى سراى عابدين فاستوقفنى الغازى أثناء الحفلة وسألنى سؤالا علمت منه أن الخديو تحدث معه بما لم يرضه عن تقرير رفع من ولده إلى المابين بخصوص الأوقاف الخديوية فأجبته بما أعلم (راجع صفحة ٤٠٩ من القسم الأول) .


محمود مختار باشا

فقال لى الغازى : « وإن الخديو يقول إنك رأيت هذا التقرير بعينك . » فأجبته نفيا .

وعقب الحفلة علمت أن الخديو اتفق مع النظار على أن يكون استقبال مختار باشا فى المقابلات بعد البرنسات ، وأن السبب فى ذلك استياء سموه من تصرف الدولة فى مسألة طاشوز ، والاستقبال الفاتر الذى قوبل به فى الاستانة ؛ وأما وشاية نجل الغازى فليست بذات أهمية فى هذا القرار . وقد أخبر الغازى الدولة بذلك فأرسل فريد باشا الصدر الأعظم برقية شديدة اللهجة لعباس يطلب فيها إرجاع الغازى إلى مكانه فى التشريفات ، لأن آداب سموه لا تسمح باهانة رجل كالغازى فى العمر والمقام . وقد خشى مختار باشا أن يرد الخديو على هذا منتقداً أعماله فى مصر فتكون هذه نقطة سوداء له فى الاستانة فوسط محمود شكرى باشا فى الأمر ، فحادث الخديو فى ذلك وعلم أن سموه لا يحمل شيئاً لمختار باشا شخصياً ، ولكنه يعمل ذلك رداً على أعمال السلطان .

وقد كان المتبع أن يعطى للغازى قطار خاص عند سفره . أما فى هذا العام فقد منع ذلك ؛ ولما حان موعد سفره لقضاء فصل الصيف بالاسكندرية وعرف أن النية متجهة إلى حرمانه من القطار الخاص ، وسط محمود شكرى باشا فى الأمر فسمح الخديو بذلك على شرط أن يستأذن المعية ففعل .

وكان المظنون أن العلاقات تعود كما كانت ، ولكن لما سافر الخديو بعد ذلك بأيام إلى الاسكندرية ، لم يكن الغازى بين مستقبليه كعادته ، وقد أثار عمله هذا استياءاً فى السراى ولوماً من هيئة القناصل ، فخشى الغازى عاقبة ذلك وأرسل مصطفى كامل بك ليتوسط فى الصلح ، وقد أرسلنى عباس مع عزت بك إلى بطرس غالى باشا ناظر الخارجية

لأخذ رأيه فى الموضوع ، فكان من رأيه أنه لا مانع من استقبال الغازى إذا حضر بنفسه ، ولكن لاداعى إلى دعوته .

وقال لى مصطفى كامل بك عقب مقابلة له مع الخديو والغازى : « إن الغازى سيكتب برقية مطولة بالشفرة يقول فيها للسلطان ها هو ذا الخديو لم يشأ التوجه إلى انجلترا ، قبل أن يقدم فرائض العبودية لجلالته ويطلب منه أن يحسن استقباله » وكان الغازى يرمى بهذا المسعى إلى إرجاع امتيازاته . وانتهت المسألة بصلح ظاهرى ؛ غير أن هذه الامتيازات لم ترجع إلى ما كانت عليه .

فوضى الرتب . كانت مسألة الرتب منذ حين موضعاً للمساعى والمساومات المختلفة ؛ وقد لوحظ هذا العام أن المسألة بلغت حداً عظيما من الفوضى ، وأن الرتب أصبحت كالسلع السهلة ؛ وكان لهذه التجارة وسطاء كثيرون : منهم الشيخ على يوسف وحسين بك زكى وأحمد بك العريس وابراهيم بك المويلحى ومصطفى الحصرى — وهو مقيم بالاستانة ويأتى كل شتاء لأخذ بضاعة من مصر — وأحمد شوقى بك الشاعر ومصطفى كامل الذى كان ينفق ما يأخذه فى الدعاية لقضية مصر ؛ وكان لكل رتبة سعر مخصوص يدفعه الطالب ، فالرتبة الثالثة يدفع عنها ٢٥٠ جنيهاً والثالثة مع لقب بك ٣٠٠ جنيه والثانية ٤٠٠ جنيه والمتمايز ٥٠٠ جنيه .



احمد شوقى بك

وكثيراً ما كان يعتدى بعض الوسطاء على بعض ، ويختلس البعض ثمرة جهود الآخر . ولقد جاءتنى عدة رسائل من احمد شوقى بك يشكو فيها الشيخ على يوسف وحسن بكرى بك ، وقد أفهما أحد الذين أنعم عليهم بواسطته أن هذه الرتبة لم تكن إلا بمجهود الشيخ على يوسف !

ولما كثر الانتقاد على ذلك حتى من رجال المعية ؛ مثل احمد خيرى باشا وعزت بك وغيرهما ؛ ونظراً لما كان بينى وبين بطرس غالى باشا من صداقة فقد تحادثت معه بصفة

خاصة فى إحدى زياراتى له ، وأشرت إلى بعض المسائل التى تؤخذ على الخديو ، وفى مقدمتها مسألة الرتب ، وأن الواجب على النظار أن يبذلوا النصح لسموه باخلاص فى ذلك ، فقال بطرس باشا : « ولكن المحيطين بالخديو هم الذين يزينون له ذلك . » فقلت له : « إن هؤلاء يعملون ذلك لمصالحهم الشخصية ، وإن الواجب ألا يترك المخلصون للخديو من أمثالكم هذه المسألة حتى يستفحل أمرها . » ولما لم يقم بطرس باشا بسعى فى ذلك السبيل تشجعت وعزمت على أن أقوم به بنفسى ؛ وفاتحت سموه فى مسألة الرتب ، فأجابنى قائلا : « ياشيخ أنا عارف ما أفعله فليس لأحد فى المعية ولاغيرها دخل ؛ وأنا لى فئة خاصة يبحثون على مستحق الرتب ويعرضون علىّ بعضاً منهم وأنا أمنحهم !! »

ولما تفاقم الأمر أصبحنا نخشى أن يتدخل الانجليز فينتهزوا فرصة منح رتبة لشخص محكوم عليه فى تزوير أو غيره — كما حدث ذلك — ويشهروا بالخديو ؛ ولولا حسن التفاهم القائم الآن بينه وبين الانجليز لما تأخروا عن ذلك ، ومن الحوادث التى تدل على استفحال هذه الفوضى أنه أريد مرة إعطاء رتبة لعمدة ؛ وبما أنه معتبر موظفاً فى الحكومة ولا تعطى له الرتبة إلا بطلب منها ، وهذا ما يتعذر وقوعه ، فقد أوعز إليه بأن يستعفى ، وأوعز لمأمور المركز أن يؤخر إرسال استعفائه للمديرية بضعة أيام ، منح فى خلالها الرتبة ثم استرد استعفاءه !!!

اخفاق مؤامرة فى مصر لخلع عبد الحميد . فى ٧ يوليو سنة ١٩٠٢ أثناء مأدبة فى يلدز أمر السلطان بألا يقدم الخديو مساعدة إلى اسماعيل كمال بك وزملائه من رجال تركيا الفتاة الموجودين بأوربا لأن حالتهم ساءت ، فرد الخديو بأن أحداً منهم لم يتقدم إليه بطلب مساعدة .

غير أنه فى شتاء هذا العام حضر كمال بك لمصر وقدمه عبد العزيز عزت باشا للخديو فرحب به ، وتقابلا مراراً وتكلما سوياً فى أمور تختص بالسياسة التركية ؛ ويظهر أن اسماعيل كمال أخبر سموه بوجود جمعية غرضها الحصول على خلع السلطان ، وطلب مساعدة مالية من سموه ، فأجابه إلى ذلك وأعطاه أربعة آلاف جنيه بتحويل على أحد مصارف انجلترا ، والمحول هو عبد العزيز عزت باشا . ثم إن سموه أجرى النفقة عليه مدة إقامته فى مصر .

وفى ذات يوم أرسل لى سموه ولعزت بك وعبد العزيز عزت باشا للحضور للقبة ، ولما اجتمعنا علمنا منه أن صالح بك سكرتير الداماد حضر وطلب مقابلة سموه

فلما قابله عرفه بأن الجمعية أرسلته ليعرض عليه مشروعاً لخلع السلطان دبره رجب باشا مشير الفيلق العثمانى فى طرابلس الغرب ، وقد كان بعيداً عنها . فانه اتفق مع هذه الجمعية بواسطة مندوبين أحدهما انجليزى والآخر تركى هو رشيد بك بالسفارة العثمانية بلندره . على أن ترسل له باخرة ترسو بالقرب من طرابلس بحجة تعليم العساكر يستقلها ويتوجه لمدينة طرابلس . ثم يبحر عليها إلى الاستانة ، ويضم إلى هذا الاتفاق كبار الضباط فى جناق قلعة وفى الاستانة ومن ضمنهم قومندان قشلاق السليمية باسكدار وآخرون فى نفس يلدز . وقال صالح بك أيضاً إن صباح الدين بك النجل الأكبر للداماد مستعد للحضور لعرض التفاصيل إذا رغب الخديو ؛ وفعلا حضر لمصر متنكراً يلبس قبعة .



صباح الدين بك

ولزم الفندق فلم يخرج منه إلا قليلا حيث قابل عباساً فى سراى القبة مرتين ، وطلب من جنابه العالى إما أن يشترى أو يؤجر لهم باخرة من جيبه الخاص . فلهذا طلبنا الخديو لمعرفة رأينا وقد رأينا منه أنه يميل نوعاً لتصديق قول ابن الداماد واحتمال تنفيذ مشروع الجمعية ، ولكننا نحن الثلاثة ، اتفق رأينا على أنه لا يمكن تنفيذه لوجود صعوبات ، وربما كان صباح الدين يرمى فقط إلى اقتناص بضعة آلاف من الجنيهات من سموه ، وأن مركز سموه على أى حال يقضى عليه بالابتعاد عن فتنة كبيرة كهذه ، لأنها لو اكتشفت لكانت العاقبة شراً ، ولو شكى السلطان من سموه للدول لألحت عليه باللائمة . ومن حسن الحظ أنه اقتنع بهذا الرأى ، وصمم على الابتعاد عن هذا العمل . وفى هذه الأثناء علمنا منه أنه أحضر لمصر اسماعيل كمال ورتب له ٥٠ جنيهاً ، ولكنه لم يصرح لنا بأمر الأربعة آلاف جنيه التى تحولت له بواسطة عزيز باشا لانجلترا ، وإنما علمت ذلك من محمد بك عرفى لأن صباح الدين لما فهم عدم اهتمام الخديو بكلامه

وسط البيك المذكور ، فحضر وقابل سموه وأراد إقناعه فكلفنى الخديو أن أذهب إلى عرفى بك ، وأقول له أن يفهم ابن الداماد أن انتظاره فى مصر لا يجدى نفعاً ؛ وعندئذ عرفنى بمسألة الأربعة آلاف جنيه ، وقال : « إن اسماعيل كمال صرف منها ٢٥٠٠ جنيه ؛ وإن سموه حجز فى البنك بانجلترا ما تبقى ، وإن صباح بك يطلب رفع هذا الحجز . » وقد تقابل عرفى بك بعد ذلك مع الخديو ولا أعلم ماذا كانت النتيجة . والظاهر أن سموه ارتاب فيما بعد فى مزاعم اسماعيل كمال .

وقد علمت عند زيارتى للندره أن اسماعيل كمال تمكن من سحب مبلغ الألفى جنيه ، رغم اشتراط سموه عند الايداع أن يكون السحب باذن عبد العزيز باشا عزت . ولما ارتاب الخديو فى الأمر أمر بوقف الصرف . وطالب بالمبلغ كله ، ولكن وجدت صعوبات دون استرداد المبلغ المسحوب وكان فى نية سموه أن يتخذ الاجراءات القضائية ضد البنك الذى قام بالدفع ، ولكنه عدل فيما بعد خشية التشهير والفضيحة .

رحلة الخديو الى الاستانة وأوربا . تقرر السفر إلى الاستانة ومنها إلى لندره ثم الذهاب لديفون والرجوع عن طريق الاستانة ؛ وقد أمر الخديو أن أكون برفقته باستمرار فى هذه الرحلة ، ماعدا المدة التى سيكون فيها بالاستانة فيكون مع سموه على عبادى باشا قومندان المحروسة وعزت بك .

وتقرر أن يرافقنا أولا زكى باشا من الاستانة إلى فينا وفيها ينضم إلينا الدكتور كاوتسكى وفى باريس دومرتينو باشا وعبد العزيز عزت باشا ومحمد ياور بك ، وأن يتوجه بروستر بك إلى لندرة قبلنا ، وأن ينزل الخديو فى لندرة ضيفاً على السير ارنست كاسل بناء على دعوته .

السفر : فغادرنا الاسكندرية يوم ٣ يونيو . وفى ٦ منه وصلنا إلى الكلازومين ومنها أرسلنا برقيات إلى مصر والاستانة بالوصول فجاء الرد من السلطان نفسه مما جعلنا نستبشر خيراً ؛ وقد بلغنا أن مصلحة الصحة بالاستانة أرسلت لرئيس الحجر الصحى فى أزمير لتحية الخديو عند وصوله ، فكان هذا الرئيس وجميع الموظفين فى خدمة سموه ؛ وكانت هذه دلائل تحسن الجو بين الخديو والسلطان .

وفى ٩ منه غادرنا مكان الحجر الصحى ، وأرسل الجناب العالى برقية بذلك للمابين والتهنئة بالمولد النبوى فجاء الرد من السلطان مباشرة أيضاً .

وقد احتفلنا نحن بليلة المولد على ظهر المحروسة ؛ وفى أثناء حديثى مع الخديو

فى مساء ذلك اليوم قال لى سموه إنه يريد حفظ حقوقه فى كل ما حصل فى السنة الماضية من الاهانات ، وكذا ماحصل فى الشتاء الماضى حتى قال إنه سيمتنع من قبول حسنى باشا لأنه يعتبره جاسوساً — مع أنه فى الحقيقة أفضل من غيره — وقال سموه أيضاً : « إن هذا السلطان سيىء السريرة ، لأنى لو كنت دونت ما كان يقوله فى حق إخوته من إدمانهم على السكر (*) وخصالهم الذميمة وامتداحه لنفسه وما كان يرويه عن حريمه لكنت ملأت كتاباً . » وقال : « إننا نحن الذين أفسدنا الأمور ، فشتان بين استقبالنا فى أول زيارة واستقبالنا الآن . »

فقلت : « نعم لو كنا تباطأنا فى الزيارة على السلطان بعدها عامين أو ثلاثة لكنا حافظنا على مركزنا . » قال نعم . وانتهزت هذه الفرصة وقلت : « حقيقة إن الأتراك مقصرون ولا يخافون إلا عند المعاكسة ، فلو كان أفندينا فى الصيف الماضى بعد الاستقبال السيىء الذى لقيه عند حضوره للاستانة ، زار انجلترا وقابل الملك كما سبق عرضته على أعتاب سيدى ، لكانت المقابلة عند رجوعه لدار السعادة أحسن بكثير مما وقع » فأجابنى : « كان السلطان يعتبر زيارتى لانجلترا نكاية به . » فقلت : « حقيقة إن أفندينا يراعى خاطر جلالته فوق اللازم . »

وفى ١٠ يونيو وصلنا الدردنيل ، فلاحظنا أن العساكر العثمانية والطوابى تؤدى التحية بمجرد ظهور اليخت بدون أن يرفع العلم .

الخديو فى الاستانة : وعند الوصول إلى جناق قلعة شاهدنا نفس الاهتمام والاستقبال ؛ ثم واصلنا السير حتى وصلنا الاستانة فى صباح اليوم التالى . وكان فى الاستقبال المشير شاكر باشا وحسنى باشا فابلغا الخديو تحية السلطان ، وحضر الترجمان الأول لسفارة انجلترا بالنيابة عن السفير . ثم توجهنا إلى يلدز حيث استقبل سموه ابراهيم بك السرتشريفاتى ونورى باشا المابينجى الأول ؛ وبعد الاستراحة قليلا تناولنا الغداء . وقد كان الخديو معتزما رفض الأكل إذا كان مع غير السلطان ، ولكنه غير فكرته لما لقيه من مظاهر الترحيب . ثم دعى سموه لمقابلة السلطان ومكث بحضرته نحو ثلثى الساعة .

وبعد خروجه استدعانا السلطان فمثلت بين يديه مع زكى باشا وعزت بك فخاطبنا

(*) وبهذه المناسبة أقول عن علم أن هدايا الخليفة لأخيه مراد السلطان المعزول الذى كان معتقلا فى سراى جراغان ، كانت عبارة عن مشروبات روحية من أجود الأصناف وغرضه من ذلك أن ينغمس فى السكر باستمرار .

معرباً عن سروره بمقدم الجناب الخديوى ، وتمتعنا جميعاً بالصحة ؛ وكان يتحدث بصوت خافت ويرتدى معطفاً يغمر وجهه .

وقد علمنا أن الحديث بين عباس وعبد الحميد دار عن سياحة سموه ثم عن تعدد الزوجات وعدم استحسان جلالته له ، وكانت هناك مسألة شراء يالى جبوقلى من طرف السلطان وإهدائه للخديو ، فاعتذر الخليفة لسموه عن عدم إتمام الصفقة لتشدد أصحاب اليالى .

ولما انصرفنا توجهنا إلى ببك لتحية الوالدة ، وما كدنا نستقر حتى حضر شاكر باشا ، وعرض على الخديو كتاباً من الصدارة بأنها لم تتمكن نهائياً من شراء يالى جبوقلى وأن الصدر يرى إخلاءه ؛ فقال الخديو لابأس ، وأراد عزت بك أن يعترض فقال له شاكر باشا : « إن الواجب تنفيذ أوامر الجناب العالى . » وعلى أثر انصراف شاكر باشا ، استدعانا سموه وهو فى كدر شديد ، وتباحثنا فى الموضوع ثم استقر الرأى على مفاوضة أصحاب اليالى ، ومنهم أمر الله بك التابع لدولة الروسيا ، فى استئجاره على حساب الخديو . وبعد مفاوضات كثيرة اتفقنا معهم على ذلك ودفعنا الأجرة . وأبلغنا أمر الاتفاق للسراى ؛ وفى الوقت ذاته استأذن الخديو للسفر يوم ١٦ منه . ولما عرض الأمر على السلطان أمر برد الأجرة التى دفعناها وطلب تأخير السفر . وقد حصل تزاور بين الخديو والسفراء كالمعتاد بين يومى ١١ و١٣ يونيو .


فريد باشا

مأدبة بقصر يلدز : وفى ١٤ منه دعا جلالة السلطان سموه إلى مأدبة عشاء رسمية تقام فى الغد للوداع .

وفى ١٥ يونيو ذهبنا إلى السراى وصعدنا إلى كشك شاليه ، فوجدنا هناك الصدر والوكلاء ورجال معية السلطان ؛ وبعد قليل طلب الخديو لمقابلة جلالته فدخل ثم جاء الطلب لنا ، وأخبرنا بكراسينا المخصصة لنا ، فدخلنا إلى غرفة المائدة وجلسنا بعد قدوم السلطان ، يصحبه الخديو والصدر فريد باشا . وكانت المائدة

مستطيلة وقد جلس السلطان وعن يمينه الخديو وعن يساره الصدر ويقابلهم ثلاثة من أنجال السلطان . وبعـد الطعام ، خرج السلطان والخـديو والصدر ، وجلسوا فى غرفة على حـدة ؛ وجلسنا نحن فى صالون كبير . وقد حضر الصدر أثنـاء استراحتنا فلاطفنا كثيراً ، ومما لاحظته أن بقيـة النظار لا يحفلون به ، وعنـد الخروج ودع عباساً إلى آخر درجات السـلم ؛ وقد أبدى سموه سروره من الترتيب فى هـذه المأدبة وحفاوة السلطان به ، وعناية الصـدر براحته ، وإن كان قد أبدى رأيه فيـه بأنه رجل لا يليق لمنصب الصدارة .

Diner	اقشام طعامی
du 19 Reb-ul-evel 1321	فی ۱۹ ربیع الاول سنه ۱۳۲۱
et du 2/15 Juin 1903	وفی ۲ حزیران سنه ۱۳۱۹
Consommé Sévigné,	طاوق ارمغی چورباسی
Petites bouchées et beureks,	ایکی نوع بورك
Bar sauce Joinville,	صالچه لی لورك فیلهسی
Filet de bœuf Royale,	سغر فیلهسی
Suprême de volailles truffées,	ترومانلی طاوق فیلهسی
Homard en bellevue,	استاقوز
Asperges,	قوشقونماز
Punch,	پونچ
Poulets de grain rôtis,	پلیچ کباب
Pilaw,	پلاو
Ananas à la créole,	ananas طاتلیسی
Bavaroise à la vanille,	وانیلیا قرم
Glaces.	دوندرمه

قائمة الطعام فى مأدبة قصر يلدز

سفر الخديو إلى فينا : وفى ١٦ يونيو جاء شاكر باشا لوداع الخديو من قبل السلطان ؛ وكان السفر قد تقرر على الوابور الرومانى . ولما وصلنا إلى ميناء قسطنجة ، كان فى الانتظار محافظ البلد فتقدم للجناب الخديوى مرحباً ؛ وكذلك عدد عظيم من الأهالى المسلمين . ثم نزلنا جميعاً بين صفين من البوليس حتى وصلنا للقطار الذى تحرك بعد منتصف الليل إلى بخارست فوصلها فى الصباح ؛ وقد حضر مندوبون عن الحكومة الرومانية لتحية سموه ولكنه كان نائماً فاعتذرت لهم ، وشكرتهم حسب تعليمات سموه لى منذ أمس .

وفى ١٨ منه وصلنا إلى فينا ونزلنا بفندق أمبريال وقد زار سموه وزير الخارجية ثم الماركيز دى رفرسو سفير فرنسا بفينا .

السفر إلى باريس : وأمضينا فى فينا يومين ثم سافرنا إلى باريس فوصلناها صباح ٢١ منه . وكان بانتظارنا محمد ياور بك . وقد حضر السفير العثمانى منير باشا للسلام على الخديو فرد له سموه الزيارة .

زيارة غير الرسمية للندره والتفاهم بينه والانجليز . كان الخديو قد عزم منذ العام الماضى على زيارة لندرة ولحضور حفلة زواج السير الدون جورست التى ستكون يوم ٢٥ يونيو .

فى ٢٤ يونيو تقرر أن أسافر مع ياور بك ومعنا الخدم إلى لندره ولما وصلنا إلى محطتها جاء دومرتينو باشا وبروستر بك ، ثم أبرقنا للخديو بتمام الاستعداد للمقابلة ؛ ولما وصل سموه فى نفس اليوم إلى محطة شارنج كروس ، كان فى استقباله السير كوندى استيفن نائباً عن جلالة الملك وحاملا سلامه ، وقد تعين مهمنداراً للخديو ، والسير بارنجتون نائباً عن وزير الخارجية ،



اللورد أرثر بلفور

والسير أرنست كاسل والسير الدون جورست ، والمستر ماتشل مستشار الداخليــة المصرية ، واسكندر فهمى باشا العضو الوطنى بمصلحة السكك الحديدية المصرية . وبعد أن صافحهم ركب سموه مع مضيفه السير كاسل إلى منزله الذى أعد لنزولنا .

وفى اليوم التالى توافد الكثيرون من الكبراء ورجال المعيـة الملكية للسلام ، فقيـدوا أسماءهم ، وحضر مندوب من قبـل اللورد أرثر بلفور رئيس الوزارة يدعو سموه إلى مأدبة عشاء ، ثم حضر اللورد نفسه للتحية ، ثم السفراء إذ أن الخديو يعامل فى لندره كأمير مستقل ، فيحضر السفراء أولا للسلام عليه ، ثم يرد لهم الزيارة ، بخلاف الزيارات فى الاستانة .

في قصر بكنجهام : وعند الساعة الثالثة جاءت عربة ملكية ركبها الخديو يرافقه السير كوندى استيفن ودومرتينو باشا ، إلى سراى بكنجهام حيث استقبلهم الملك والملكة وكريمتهما الكبرى ، وكانت المقابلة عائلية لأن سموه كان فى هذه الزيارة بصفة غير رسمية .

الخديو يشهد الاحتفـال بزواج جورست : وفى ٢٥ مـنه خرج سموه توا إلى منزل عروس السير الدون جورست الذى احتفل بقرانه فى هـذا اليوم ؛ وقد ذهبت مع عبد العزيز عزت باشا وياور بك ، فحضرت الاحتفـــال فى الوقت الذى جاء فيه الجناب العالى ؛ وكان المنزل غاصاً بكثير من المدعوين وبينهم وزير الخارجيـة وكانت الهدايا التى وردت للعروس مرتبة فى غرفة كبيرة ، ومن بينها هدية الخديو وهى قرط وأساور وعقد وخاتم كلها من الزبرجد المحلى بالماس ، وكانت أثمن هدية قدمت للعروس . وقد أخذت صورة لسموه بين العروسين فى حديقة المنزل . وعند رجوعنا بعد الحفلة ، وجدنا بطاقات لجلالة الملك والبرنس دوجال والدوق أوف كنوت وبعض الأمراء .

حفلة الاستعراض بمناسبة عيد جلوس الملك : وفى صباح ٢٦ منه اشتد الزحام فى منزل السير كاسل الذى نزل به الخديو ، ووفد كثيرون من كبار الانجليز من الأعيان والموظفين الذين كانوا بمصر ومارشالات مثل روبرتس وجنرالات وغيرهم لا ينقطع سيلهم ، وقد قابل الخديو بعضهم كما قابل السيد محمد توفيق البكرى والشيخ على يوسف وكانا قد وصلا إلى لوندره فى اليوم السابق .

وعندما كان الخديو مع جلالة الملك أمس ، دعا سموه لحضور حفلة استعراض

عسكرى لمناسبة عيد جلوسه (*) فى هذا اليوم ، فبعد انتهاء الزيارات وحوالى الساعة العاشرة صباحاً حضرت عربتان ملكيتان ؛ ركب فى إحداها الخديو ومهمنداره ودومرتينو باشا ، وفى الثانية عبد العزيز عزت باشا وضابط كان فى خدمة الجيش المصرى برتبة ياور للسردار للذهاب إلى مكان الاستعراض ؛ وكان سموه يرتدى بذلة فريق ونيشان الامتياز المرصع ونيشان فيكتوريا ؛ وبعد الاستعراض دعى سموه لمأدبة عائلية فى قصر بكنجهام ؛ وقد أمر الملك بعد الطعام بقهوة تركية للخديو فقدمت لسموه وصانعها مصرى فى السراى الملكية .

وفى المساء ذهب سموه لمأدبة اللورد بلفور الرسمية ، وقد شهدها كثيرون من الأمراء الانجليز ؛ وكان عن يمين رئيس الوزارة ولى العهد وعن يساره الخديو .

وبعد عودة سموه كلفنى بكتابة رسالة إلى مصطفى فهمى باشا عن رحلته فكتبتها ووقع عليها سموه بخطه ، وأرسلناها . وفيها أن الحفاوة التى لقيها من السلطان كانت حسنة ، والحفاوة التى استقبل بها فى لندره كانت أعظم سواء من الملك والأمراء ورئيس الوزارة وكبار الانجليز فى لندرة والموظفين منهم فى الحكومة المصرية .

مشاهدة معرض زراعى : وفى صباح ٢٧ منه ركبنا القطار من لندرة إلى ضاحية أقيم بها معرض زراعى ، فشاهدنا بعض نواحيه ، ثم توجهنا إلى كشك معد للملك والأسرة الملكية ، وكانت به موسيقى عسكرية حيت الخديو عند وصوله ؛ وقد وجدنا ولى العهد فى الاستقبال . وبعد الاستراحة ذهب بنا إلى مدرج ثم سرح أمامنا عدد من الثيران المعروضة من مختلف الأجناس الانجليزية ومن بينها ثور بيع بمبلغ ألف وخمسمائة جنيه . وبعد ذلك ودعنا ولى العهد وعدنا بالقطار إلى لندرة .

دعوة الأمراء للخديو : وقد لبى الجناب العالى بعد العودة ، دعوات من شقيق الملك والدوقة أوف كنوت ، والبرنسيس أوف باتنبرج أخت الملك ، ثم رد سموه الزيارة للأمراء .

الخديو فى المسرح : وبعد تناول العشاء دعانا السير ارنست كاسل لحضور إحدى الروايات فى تياترو « لاجيتيه » ، وقد بلغنا أن ثمن كل كرسى خمسة جنيهات فعجبنا لغلاء الأسعار فى هذا المسرح .

(*) الحقيقة أن يوم ٢٦ يونيو ليس يوم التولية ولكنه فى يناير ، ولما كان ذلك الشهر فى العادة شهر الأمطار والبرود والثلوج ولا يمكن عمل استعراض فيه لذلك حددوا يوم ٢٦ يونيو لهذا الاحتفال فى انجلترا فقط ، وأما فى الرسميات فالتهانى من الملوك تأتى فى اليوم الحقيق للتولية .

مأدبة الخديو للسير إرنست كاسل : وفى مساء ٢٨ يونيو أعد الخديو فى محل نزوله مأدبة للسير إرنست كاسل وأخته وابنته وقرينها ، ودعى اليها المهمندار والدكتور سيمونسن .

فى قصر وندسور : وفى ٢٩ منه ركبنا قطاراً خاصاً إلى وندسور حيث السراى الملكية وهناك كان فى الانتظار عربتان ملكيتان كل منهما بأربعة جياد ؛ وبمجرد وصولنا وضع سموه إكليلا من الزهور على قبر الملكة فيكتوريا ؛ ثم طفنا فى السراى التى صارت متحفاً للأسلحة التاريخية ، ومما شاهدناه علم نابليون الأول وسيفه ، وعلم التعايشى ومصحف كبير من مخلفات المهدى ، وكثير من أثار الدراويش . وفى المتحف كثير من الصور الزيتية والصينى النادر ؛ وبعد إتمام الزيارة تناولنا شيئاً من المرطبات ثم ركبنا العربات إلى كنيسة السراى الملكية ، وبها مقابر بعض الأسر الملكية الانجليزية. ثم عدنا بعد ذلك إلى لندره فزار سموه وزير الخارجية ، إجابة لدعوة سابقة منه إلى مأدبة غداء ، وكان اللورد قد دعا ، إكراماً للخديو، كثيرين من عظماء الانجليز ، وجلس سموه عن يمين الماركيزة والدوق دى بورتلاند عن يسارها ، وكان فى المدعوين السير توماس ساندرس ابن عم اللورد كرومر ، والسير واللادى رينل روود ، والسير فرانك لا سلس قنصل جنرال انجلترا فى مصر سابقاً .

وبعد الظهر قام الخديو بعدة زيارات من بينها زيارة لسفير فرنسا .

مأدبة شبه رسمية فى قصر بكنجهام : وكان من المدعوين رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، وبعض كبار الانجليز فى مصر ، وقد استقبل سموه من رجال التشريفات استقبالا فخما ، ثم استقبله ولى العهد بعد ما صدحت الموسيقى بالسلام الخديوى .

وعلى المائدة جلس الملك وعن يمينه الخديو ، ثم اللورد بلفور ؛ وعن يسار الملك الدوق أوف كنوت وأمامهم ولى العهد وعن يمينه الدوق أوف كمبردج وعن يساره الماركيز أوف لانسداون وزير الخارجية ، ثم باقى المدعوين حسب درجاتهم وفى آخر الحفلة وقف الملك والمدعوون وشرب نخب صحة الجناب العالى قائلا ما ترجمته : « إنى مسرور بوجودكم وأهتم بمصالح سموكم الشخصية ، وبصالح مصر ، وإنى آمل أن أرى سموكم بيننا فى غالب الأوقات . » ثم شرب قدحا وشرب الجميع معه ، وجلس . وقد انتظر الملك برهة منتظراً أن يرد سموه على كلمته ، ولكنه لاحظ أن سموه كان ذاهلا فتكلم مع الدوق أوف كنوت ، وهذا حادث دومرتينو باشا ، فأومأ إلى الخديو فانتبه من

غفلته . واعترته الحيرة لأنه لم يكن ينتظر وقوع هذا المنظر ، وأخيراً وقف ورفع قدحه قائلا : « إنى أشرب فى صحة جلالة الملك . » ثم التفت اليه وتمتم بصوت خافت كلمات لم يسمعها أحد .

وقد كان الخديو فى هذه الحفلة موضع إكرام الأسرة المالكة وكبار رجال الحكومة . وبعد الانتهاء قال الملك لعبد العزيز عزت باشا : « ها أنت ذا قد سمعت دعوتى للجناب الخديوى لتكرار زيارته للندره فعليك تذكيره . » وربما كان الغرض من ذلك تشجيع سموه على قطع زياراته للاستانة والاكتفاء بزيارة العاصمة الانجليزية ، وذلك ما كان يدور بيننا بعد الحفلة .

الخديو عضو شرف فى نادى السباق : وفى ٣٠ يونيو أجاب الخديو دعوة السير إرنست كاسل للتوجه إلى نيوماركت وتمضية ليلتين فى قصره هناك ، ومشاهدة المسابقات التى ستحصل فيها ، فذهب فى صباح ذلك اليوم مع المهمندار ودومرتينو باشا والسير إرنست كاسل الى المحطة ، وركبوا قطاراً خاصاً . ولما وصل سموه توجه إلى القصر؛ وهو واقع وسط حديقة غناء شاسعة وفيها أنواع من خضر وفاكهة نادرة المثال ومعتنى بها غاية الاعتناء ، وهناك أيضاً خيول السباق ملك السير وعددها أربعة وأربعون منها ٢١ مضمونة تنزل السباق ، ولها اسطبل بديع جداً والأمكنة التى توضع بها مؤونتها عند الأكل فى غاية النظافة .

وكان السير إرنست كاسل قد دعا كذلك جلالة الملك لضيافته والمبيت عنده هذه الليلة ، فأرسل جلالته يدعو الجناب العالى للغداء معه فى ساحة السباق ، وقد قضى جنابه فى هذه الضيافة يومين ؛ ولما عاد علمت تفاصيل هذه الرحلة ، وذلك أن سموه بعد حضور السباق اقترح جلالة الملك تعيينه عضو شرف فى النادى المسمى « جوكى كلوب » فاجتمع مجلس إدارة النادى فى الحال وقرر ذلك باجماع الآراء ؛ وكان هذا شرفا عظيما لدى كبراء الانجليز لأن هذا النادى لايضم سوى المعروفين منهم لدى الملك وليس به من الأجانب إلا امبراطور ألمانيا . ولذلك سارع الأعضاء إلى تهنئة سموه بهذا الشرف العظيم وأبلغوه أنه فى العام المقبل سيقام سباق باسم جنابه ، فشكر لهم سموه جميل عواطفهم . وبعد انتهاء المآدب التى أقيمت قال الملك للخديو عند وداعه للعودة إلى لندره : « إنى أقول لك الى الملتقى . » وكررها ثلاثا .

الخديو وجمعية مسلمى لندره : وقد عاد الخديو إلى لندره فى ٢ يوليو وكان قد

حضر لزيارته قبل عودته الكاتب والمشرع الأشهر السيد أمير على أحد أكابر قضاة الهند وصاحب كتاب « روح الاسلام » فأسف لعدم لقاء سموه . وترك بطاقة ؛ ولما أخبرت الخديو بذلك أبدى أسفه وبعد الغداء حضر وفد من « جمعية مسلمى لندره » مؤلف من السيد على بلكرامى وزير المعارف بحيدر آباد الدكن سابقاً ، وأستاذ بعض اللغات الهندية بكلية كمبردج ، والسيد عبد الله المأمون السهروردى ، وعبد الرحيم خان من رؤساء طائفة الافريديين وغيرهم ، وقد ألقى رئيس الوفد خطبة بين يدى سموه عرفه فيها بأغراض الجمعية من اتحاد المسلمين ونشر الاسلام ورفع كلمته ؛ ثم رحب بسموه وأظهر سرور المسلمين من عنايته بالأمور الدينية ولا سيما بالأزهر الشريف ؛ فرد سموه عليه شاكراً ، ثم وجه أنظارهم إلى قلة عدد الطلبة الهنود بالأزهر ، وأنه عند زيارته الأخيرة له لم يجد به غير سبعة فقط ، وحثهم على إرسال أكبر عدد ممكن من الطلاب إليه .

وأشار سموه أيضاً إلى شعوره بالمشاق التى يعانيها الحجاج ، وأن أمير الحج المصرى يبذل جهده فى حماية الحجاج الهنود وغيرهم من البلاد الأخرى أسوة بالمصريين ؛ وقال سموه : « إن الحج ركن من أركان الدين الاسلامى ، وإبطال هذه الفريضة بسبب هذه المشاق والمتاعب يكون ضربة قاسية وخطراً كبيراً على الاسلام الخ . » وتبرع سموه للجمعية بمبلغ خمسين جنيها مصرياً ؛ وانصرف الوفد شاكراً بعد أن أهدى إلى سموه فهرساً بكلمات القرآن ، يدل المطالع على موضع كل كلمة ، وفى أى آية ومن أى سورة ، وكذلك ترجمة كتاب « تمدن العرب » لجوستاف لوبون وقد ترجمت التيمس الخطاب ورد سموه عليه .

حديثى مع السير إرنست كاسل : وقبل السفر تحدثت الى السير كاسل معرباً عن إعجابنا بكرم ضيافته لنا، فمنزله وعرباته ومائدته وغيرها كانت كلها ملكا لنا وكانت على خير حال ؛ وبعد ذلك قلت له : « إننى مع احتفاظى بذكرى هذه الضيافة أريد تذكاراً خاصاً لى ، ذلك هو إفهامى السر فى الربح من الأوراق المالية . » ففكر هنيهة ثم قال : « تشترى الأوراق عند انخفاضها وتبيعها عند ارتفاع أثمانها . . » قلت : « إن هذه هى العقبة فكيف أعلم أنها منخفضة اليوم وسترتفع غداً ، ولو علمت ذلك لاكتشفت السر بنفسى . » فضحك وقال : « هذا مرجعه إليك . » وضحكنا .

الخديو ومستر بلنت : والشيء الوحيد الذى كدر الخديو فى لندره ، هو أن

المستر بلنت المعروف بصداقته للعرابيين كان قد اتصل بسموه بصلات الود فى العهد الأخير بواسطة الأستاذ الشيخ محمد عبده ؛ وقد كتب لسموه من ضيعته القريبة من لندره ؛ يرجو تشريفه بها لمشاهدة الخيول العربية التى يعنى هو بتربيتها وإنتاجها ، فأمر سموه بروستر بك باجابة ملتمسه وتحديد وقت لهذه الزيارة ؛ ولكنه لما تحادث مع السير إرنست كاسل فى هذا الموضوع أشار عليه بعدم الزيارة ، لأن مستر بلنت مكروه من الملك ، فتألم الخديو لذلك وقال فى أثناء حديثه لنا : « عجباً للانجليز ، كيف يدعون حرية الفكر ، ويحجرون علىّ فى بلادهم ! »

وفيما عدا هذا الحادث كانت زيارة لندره فاتحة عهد جديد فى صلة سموه بالانجليز .

نتائج هذه الزيارة : ويمكن تلخيص أثر زيارة الخديو للندره فيما يلى :

التعارف ـ فانه عرف كثيراً من الانجليز وعرفوه كذلك ؛ وقد علمت أن بلفور رئيس الوزارة أعجب بسموه ، لما هو عليه من جميل الخصال ، وأبدى إعجابه لكثيرين .

كانت الزيارة فى غاية المودة والمحبة ، وظهر من تسابق كبار الانجليز لزيارته ودعوته والاحتفال به ، أنهم يرغبون اجتذابه إليهم ، وقد كان الاحتفاء به عاماً ، حتى إن التيمس قالت فى مقالة افتتاحية : « إن العظماء قلما يستطيعون الانزواء بأنفسهم والتخلص من مراقبة العيون الناظرة إليهم ليتمتعوا بالعزلة التى كثيراً ما يتحسرون عليها ويتلهفون إليها ، ولقد تحولت زيارة الخديو المعظم الخصوصية إلى زيارة شبه رسمية ، لا ينقصها إلا ما استراح منه سموه من مشاق الرسميات التى تقتضيها هذه الزيارات ؛ ولما زار سموه بلادنا فى المرة السابقة لم يحسن استقباله فى هذه الديار كثيرة التقلب ، ونال من المرض ما أثر تأثيراً كبيراً على الحماس الذى دب فى جسم الأمة احتفاء وترحيباً بسموه . وأما فى هذه المرة فقد كان الجو صحواً بهيجاً ، وشهده سموه فى أحسن مظاهره وأرق حالاته ، وبذلك مهد له الوقوف على أحوال الأمة الانجليزية على حقيقتها ؛ وسواء أكانت زيارات جنابه رسمية أم غير رسمية فهو دائماً لدينا ضيف كريم ترحب به الأمة ؛ وربما كانت زيارة عادية كهذه أحب إلى مجموع الأمة وأقرب إلى ميول قلوبها ، لأن مثل هذه الزيارات تبرهن على ارتياح قلبي للوجود بيننا ، وتدل على الثقة أكثر مما تدل الزيارات الرسمية . »

وقد كتبت معظم الصحف كذلك ، حتى الصحف الصغيرة التى تنشر فى الأقاليم ونشر بعضها صورة سموه .

كانت العلاقات بين عباس والانجليز قد تحسنت منذ زيارته الأولى للندره ؛ وها قد وضح مقدار الحفاوة التى قوبل بها من الأمراء خاصة والشعب عامة ، والمودة التى أظهرها الملك له ،وتمنياته تكرار الزيارة فى وقت كانت سياسة السلطان قبله غير مرضية .كل ذلك زاد التحسن ،وشعر عباس بسروره بوجود الثقة بينه وبين الانجليز. فهل استمرت هذه الثقة؟(*)

الرجوع إلى باريس : وفى صباح ٣ يوليو ودعنا السير كاسل وكثيرون غيره . ثم رافقنا المهمندار حتى دوفر . وقد أرسل الخديو قبل مغادرته لانجلترا برقية يعبر بها عن شكره وعظيم امتنانه للملك . وكان قد كلف السير كاسل بمثل هذه التشكرات .

وصلنا إلى باريس فى المساء ؛ وفى اليوم التالى ذهبت مع سموه الى سراى الأليزة وتركت بطاقة باسمه ، وكذلك فى وزارة الخارجية ؛ وقد رد مسيو دلكاسيه الزيارة فى فندق بوسيت الذى نزلنا به .

عباس فى ديفون للاستشفاء . وبقينا فى باريس إلى ١٠ يوليو ؛ ثم سافرنا إلى ديفون لأخذ الحمامات حسب المعتاد .

وفى ١٢ منه جاء خطاب من عزت بك بالاستانة يقول فيه : « طلبت أمس إلى المابين بالتلغراف . فلما قابلت الباشكاتب أعطانى صورة مقالة مترجمة عن التيمس ، ومرسلة من سفارة الدولة بلندره ، عباره عن رد الخديو على خطبة وفد الجمعية الاسلامية بلندره . وقال عزت بك ولما أتممت قراءتها قال الباشكاتب : « إن جلالة السلطان يأمركم بتبليغ الخديو أسف جلالته كثيراً من الجملة المختصة بالحجاج ، مع وجود مجال أوسع للكلام فى ذلك الصدد نحو الاسلامية والاسلام ؛ وجلالته لم يقبلها قطعياً ، ويرغب معرفة ما إذا كانت هذه الجملة حقيقة صدرت من فخامته أو هى من محرر الجريدة ؛ وإن كان صحيحاً ، فما سبب ذكرها ، وما هى المشاق التى عاناها الحجاج ؟ مع أن السلطان لا يصدق صدورها من سموه فى بلاد أجنبية ، وفى وسط الأجانب . وجلالته منتظر الجواب بالتلغراف الرقمى ، ويطلب أيضاً إرسال صورة من خطاب الخديو للاطلاع عليه . » وقد أبدى الخديو استياءه لسفير الدولة فى باريس عند وجوده بها ، وطلب منه التحرير للمابين قائلا : « كيف يغضب السلطان من ذكرى لأشياء أعلمها حق العلم ؛ وأنا لا أغضب من طلب جلالته عمل شبه تحقيق معى بهذا الخصوص ؟ » فلبى السفير الطلب ، وجاء الرد بأن السلطان تناسى هذه المسألة ؛ وعلى الخديو ألا يفكر فيها .

(*) تراجع سنة ١٩٠٦

لطيفة ، السمك الطازة » . وكان يصحب الخديو بديفون عادة الطبيب كاوتسكى بك . وترنيزون باشا « الميراخور » ، والسكرتير (وهو فى الغالب أنا) . وفى مرة خرجنا ، نحن الثلاثة ، بصحبة الخديو ؛ وركبنا عربة بأربعة جياد للرياضة على جبل « جورا » ، وصعدنا إلى مكان مرتفع . ومكثنا حتى جاء موعد الغداء ، فذهب ترنيزون باشا إلى مطعم هناك ، وكان هو الذى يتولى عادة إعداد قائمة الطعام . وكان يميل إلى التظاهر بالاندماج فى البيئة الشرقية ، فيتكلم بالعربية العامية ، ويتفوه بألفاظ أولاد البلد ، ويأتى ببعض حركاتهم ، كأن يتجشأ بصوت مسموع . . . الخ .

فلما ذهب للمطعم وعاد ، ذكر أصناف الأطعمة به ، وخص بالذكر السمك ، فنوه بجودته ، وقال إنه « طازة » . وقد اختار الخديو أكلة السمك ؛ ولكن ما كاد يحضر حتى تبينا أن له رائحة كريهة لطول مكثه ، فسأله الخديو « أهذا هو السمك الطازة ؟ » وهنا قال ترنيزون : « أنا ظننت يا سمو الخديو أنه أطيز من كده ! » عندئذ أغرقنا فى الضحك على هذا الاشتقاق العجيب ، ثم سألناه : « من الذى علمك اسم التفضيل هذا ؟ » فأجاب : « أستاذى فى العربية محمود شكرى باشا ! »

مهمتى فى طاشوز . ثم بقيت فى ديفون حتى يوم ١٥ اغسطس حيث كلفنى الخديو بالسفر الى طاشوز ؛ لمعرفة حالتها وكتابة تقرير عنها بمساعدة مسيو هكسيوس مدير معمل الزيوت ، على أن أعود بعد رحلتى الى فينا حيث ألحق بسموه هناك .

وسبب ذلك أنه تم إنشاء معصرة الزيت بهذه الجزيرة بمعرفة هكسيوس بعد صعاب كثيرة ، ولكن هذا المشروع لم ينجح تماماً لعمل السلطة التركية على عرقلة أعماله ، وتحريضها الأهالى على عدم بيع محاصيلهم من الزيتون إلا بثمن مرتفع ، حتى فكر هكسيوس فى وقفه فى العام الآتى ، ليعلم الأهالى مقدار الخسارة التى تنالهم .

ونظراً لهذه الصعوبات أراد الجناب العالى استبدال مدير الوقف محمود رفعت بك بالكونت سورمانى الموظف بالديوان الخديوى ، لأنه قد يكون أقدر على تلافى الحالة . وفى أثناء استعداده للسفر لطاشوز ، جاء بلاغ من السفارة الايطالية فى الاستانة الى قنصل جنرال ايطاليا بمصر ، بمنع الكونت من السفر ؛ لأنه لو توجه فسيمنعه قنصله فى قوله . وقد كان هذا من جراء تهاون الخديو فى الاسراع بهذه المسألة ، حتى تمكنت تركيا من السعى لدى إيطاليا . وقد كان هذا سبباً فى استياء الخديو ، وتوتر العلاقات بينه وبين الاستانة ، وما ترتب عليه من توتر فى علاقة سموه بالغازى احمد مختار باشا

كما سبق التنويه عنه فى مسألة نجله محمود مختار باشا .

غادرت جنيف فى ٢٥ أغسطس إلى برنديزى ، ثم ركبت البحر إلى بتراس ، ومنها بالسكة الحديدية إلى بيريه حيث أقلتنى باخرة صغيرة اسمها « طاشوز » تابعة للأوقاف الخصوصية ، إلى الجزيرة . وهذه المرحلة الأخيرة من سفرى كانت شاقة جداً لأن البحر كان هائجاً وكانت الأمواج تتقاذف الباخرة حتى طغت المياه على غرفة الربان ، وخيل إلى أنى على وشك الهلاك ولا سيما أنى لم أذق الطعام مدة ٢٤ ساعة . وقد قابلت بالجزيرة مسيو هكسيوس وفى اليوم التالى لوصولى اضطررت للسفر على نفس الباخرة سالكا طريق قوله لتفقد حالة عمارة محمد على الخيرية ، وقد استغرقت هذه الرحلة أربع ساعات ذهاباً وإياباً ولكنها كانت رحلة موفقة باعثة على الارتياح .

وفى اليوم الثالث تجولت فى بعض قرى الجزيرة بصحبة مسيو هكسيوس وشاهدت معصرة الزيت ، وفى اليومين التاليين فحصت الدفاتر ، وحالة الأوقاف وهى فرصة اغتنمتها لأخلد إلى الراحة ، لأن التعب كان قد أخذ منى مأخذه ، ثم عدت فاستأنفت السفر مستقلا الباخرة ومعى مسيو هكسيوس إلى جبل أتوس الشهير المعروف باللغة التركية باسم « أيناروز » ، وهو فى جزيرة ليس فيها أنثى حتى الدجاجة ! ويقيم فيها جماعة من الرهبان والنساك من يونانيين وروس وصربيين وبلغاريين وغيرهم ولهم أملاك وكثير من أشجار الزيتون فى جزيرة طاشوز . ثم زرنا دير فاتوبيدى وهو أقدم أديرة جبل أتوس وأحفلها بالتحف وبه مكتبته الأثرية القديمة التى تحوى مؤلفات نفيسة بينها مؤلفات سترابون المصورة ، وهى فيما يزعم أمين المكتبة النسخ الوحيدة من نوعها . والدير واقع فى جوار الترعة التى عمد « أكسرس » إلى شقها اجتناباً للمرور بالرأس الأرضى الممتد فى الجزيرة وهو الرأس الذى تحطم عليه جانب من أسطوله ؛ ورهبان الدير يشتغلون فى الزراعة والصيد ، ويعيشون عيشة النساك . وكثيراً ما يطرق الجزيرة زائرون من كل جهة ، وفى السجل المعد لتدوين أسماء الزائرين اسم ملك إيطاليا الحالى وفوكيه وروتشيلد وغيرهم من عظماء العالم .

وفى جبل أتوس نحو عشرين ديراً للروم والروس ، وأغلب الرهبان من الروس وهم يمتلكون أهم الأديرة وأغناها ، ويبلغ مجموعهم نحو الخمسة عشر ألف راهب .

ولما عدنا إلى طاشوز استأنفنا التجول حول الجزيرة منذ مطلع الشمس ثم تركناها وسافرنا بحراً إلى دده أغاش فوصلناها الساعة السادسة مساء ، فى جو صاف



دير ايفيرون بجبل أتوس

بديع ، وغادرناها متأخرين عن الموعد المقرر المعتاد ، وكان القطار غاصاً بالجنود والضباط والركاب غير أنى تمكنت بواسطة « البقشيش » من تدبير ديوان خاص لى ورفيق هكسيوس ، ولاحظنا فى أثناء السفر أن الجنود قائمون على خفارة الطريق . وفى منتصف الساعة التاسعة وقف القطار فجأة فى مكان بعيد عن إحدى المحطات فسأل الركاب الكمسارى عن السبب فأجابهم بأن الحرارة التى اعترت القاطرة لثقل القطار وازدحامه تقضى بهذا الوقوف . وبينما نحن فى هذا الحديث إذا بشرذمة من الفرسان تدنو منا بسرعة ، فكانت الظلمة حالكة فلم نبصرها ولكن وقع حوافر الخيل طرق آذاننا فزاد ذلك فى رعبنا وحسبنا له ألف حساب لأننا ظننا أنهم أفراد إحدى العصابات البلغارية وكان كلما اقترب الصدى زاد قلقنا ، وما زلنا نضرب أخماساً فى أسداس حتى أبصرنا الفرسان فاذا بهم فرسان أتراك مقبلون علينا من الجبل على خيول بيضاء ، وتقدم الضابط إلى سائق القطار سائلا عن سبب وقوفه ، ثم أمر أحد الفرسان بالعودة إلى زملائه لتطمينهم وكان ذلك من بواعث التطمين للركاب فهدأ روعهم . على أن هذا الاطمئنان كان وقتياً وكان القلق الذى استحوذ علينا مقدمة لقلق آخر أشد وقعاً ، ذلك أنه ما كاد القطار يسير بنا مدة حتى عاد فوقف بنا قبل محطة قللى بورغاز ثم عاد

القهقرى إلى أوزون كوبرى ، وحينئذ دب الرعب فى القلوب مرة أخرى .

وبعد أن وقفنا نحو ثلاث ساعات وعوامل الخوف تنازعنا ، تلقينا الأمر بعدم النزول فى تلك المحطة ومتابعة السفر إلى أدرنة . ولا يخفى أن محطة قللى بورغاز ملتقى الخطوط الحديدية التى تتقابل فيها القطارات الآتية من أوربا والقادمة من الاستانة إلى أوربا أو من سلانيك ودده أغاش ، وقد أثر فينا هذا الأمر القاضى بعدم النزول فى هذه المحطة « قللى بورغاز » لركوب القطار المسافر من الاستانة إلى فينا ، فأردنا أن نستطلع جلية الأمر وبعد إلحاح شديد اضطر الكومسارى أن يصرح لنا بالحقيقة فقال : « إن بلغارياً من رجال العصابات وضع آلة جهنمية فى طريق القطار ، فانفجرت تحت مركبة الطعام ، فى محطة قللى ، فقتل رئيس الخدم وثلاثاً من النساء التركيات وثلاثة أشخاص آخرين مع عدد من الجرحى . » والذى تحققناه أن الآلة كانت قد وضعت تحت المركبة فى محطة فليبوبولى بعد أن أديرت الآلة المركبة فيها بحيث تنفجر حين وصول القطار إلى الجسر المقام على نهر ماريتزا وراء محطة قللى بورغاز فتدمره وبذلك لا يعود فى إمكان الجنود والركاب أن يعبروا الضفة الثانية من النهر .

وقد شاهدنا فى المحطة المركبة المحطمة ، وجثث القتلى وهى مغطاة بأقمشة بيضاء ، وكان المنظر محزناً للغاية . على أن تأخيرنا بسبب وقوف القطار ، كان باعثاً على إحباط سعى الثوار البلغاريين الذين دبروا هذه المكيدة . وكان رحمة وسلاماً إذ لولاه لرحنا ضحية تلك الجريمة !

وتأخر القطار بنا ثلاث ساعات ولذلك لما وصلنا إلى صوفيا كان القطار البلغارى غادر المحطة إلى فينا فقضينا هناك أربعا وعشرين ساعة ، وأخيراً وصلنا عاصمة النمسا بخير وأخبرنا الخديو بكل ما تقدم وأطلعته على تقرير مفصل لرحلتى . وسلمته بعد رجوعنا لمصر إلى أحمد خيرى باشا .

فمن ذلك كانت رحلتى هذه شاقة حافلة بالمتاعب والأخطار . والغريب أنى لما ركبت القطار فى دده أغاش حدثتنى نفسى بأن حادثاً ينتظرنى فى الطريق وخطر لى أن أعهد إلى مسيو هكسيوس فى إيصال أوراقى المحفوظة فى حقيبتى إلى المنزل ، وقد وقع هذا الحادث فعلا ولكنه وقع فى قطار آخر . ومن المصادفات الغريبة أنه فى أثناء سفرى من جزيرة طاشوز رأيت طائفة من الدرافيل تسابق الباخرة وتداعبها ودنا منى أحد سكان الجزيرة وأنا أنظر إلى هذه الدرافيل وقال : « إن هذا فأل حسن . » وفى الواقع إنه كان مصيباً .

وقد نشرت جريدة « جورنال دى جنيف » فى عدد ٢ سبتمبر نبأ هذه الرحلة فى رسالة ضافية بقلم المسيو هكسيوس لا تختلف عما تقدم .

العودة الى الاستانة . وقد بقينا فى فينا حتى يوم ١١ سبتمبر ثم غادرناها على قطار السكة الحديدية الرومانية إلى ثغر قسطنجة على البحر الأسود ومنها بالبحر للاستانة فوصلناها يوم ١٤ منه . ولما ألقت الباخرة مراسيها أمام جبوقلى كان فى الانتظار المشير شاكر باشا واللواء حسنى باشا وضابط من الياوران ، يحملون تحية السلطان . ثم ركبنا الزورق رهبر إلى ضولمه بغجة ، ومن هنـاك أقلتنا العربات إلى سراى يلدز ، فحضرنا مأدبة شاهانية . وبعد الغـداء دخل الخديو عنـد السلطان وظل معه نصف ساعة حدثه فيها جـلالته عن ثورة حدثت فى بلاد البلغار ، وعن إشاعات خلاصتها أن الثوار سينشرون الطاعون فى أنحاء تركيا بواسطة عشرين زجاجة من باسيل الطاعون ؛ وكذلك كان جلالته متخوفاً من أن يسمموا مياه الاستانة المعدة للشرب ! ! وبعد انتهاء الزيارة ذهبنا للسلام على الوالدة ثم عدنا إلى جبوقلى .

خطأ ينيل رتبة : وفى ٢٠ سبتمبر جاءنى اللواء حسنى باشـا متألماً ، وقص علىّ حكاية غريبة ملخصها أنه دعى للمابين ببرقية أرسلت إليه بعنوان « الفريق حسنى باشا » ، وكان يترقب الانعام عليه بهـذه الرتبة الكبيرة . فظن أنه أنعم بها عليـه فعلا ، وأذاع ذلك بين إخوانه فرحاً مسروراً . ولكنه لمـا ذهب إلى المـابين ليقدم شكره على هذا الانعام أخبره الباشكاتب أن هنـاك خطأ فقط وقع من كاتب البرقيـة ؛ وأنه لذلك حائر متألم لا يدرى ماذا يصنع ، وكيف يدارى خجله أمام أصدقائه الذين أخبرهم بالنبأ ، وهم كثيرون !

فأبلغت ذلك للخديو ، وانتهز سموه فرصة وجوده مع السلطان فى اليوم التـالى لتناول طعام الغداء على المائدة السلطانية ، وذكر له الواقعة ملتمساً الانعام بهذه الرتبة على الرجل ، فصدرت الارادة السلطانية فى الحال بهذا الانعام ! !

العود الى مصر . وقد بقينا فى الاسـتانة حتى ٢٨ سبتمبر ، ثم غادرناها بعـد مأدبة وداع فى يلدز يوم ٢٧ منـه قاصدين الاسكندرية فوصلنـاها يوم ٢ اكتوبر . واستقبل الخديو فيها كالمعتاد .

الشيخ على يوسف فى لندره وباريس . كانـ الشيخ على يوسف من

المنتمين للسراى ، فانتهز فرصة زيارة الخديو للندره وسافر اليها ليتتبع أخبار هذه الزيارة كيما ينشرها فى المؤيد ، ثم بارحها الى باريس وتقابل مع بعض السياسيين فيها ، وتكلم معهم بخصوص المسألة المصرية ،كما سيجىء ، ثم أرسل الينا من لندره فى ٥ يوليو خطابا يقول فيه : « كانت مأدبة المستر موزلى — وقد كان قاضياً بمصر — فى « نيو سان استيفان كلوب » وهو كلوب المحافظين ، مساء أمس وأجاب الدعوة اثنان وعشرون شخصاً بينهم عضوان فى البرلمان ومديرو جرائد استاندرد والديلى تلغراف والديلى نيوز وغيرهم من الكتاب والأعيان ، ومع أنى كنت سمعت من المستر موزلى نفسه أنه لا خطب ولا كلام بل حفلة تعارف وسمر بسيط ، فقد جر الطعام إلى المدام ، والمدام إلى الكلام ، وانتهى الأمر بالقوم أن كانوا فى حلبة خطابة فخطب منهم سبعة منهم عضوا البرلمان ، وأصحاب الجرائد الثلاثة وشخص اسمه المستر ديسى مؤلف كتاب « الخديو فى مصر » والمستر موزلى واضطررت أن أتكلم أيضاً . وكان مدار الخطب كلها مظاهرة للجناب العالى الذى شربوا نخبه مراراً ، وحيوه مراراً بكلمة « هورّا . »

وأضاف إلى ذلك أنه رد عليهم بالشكر ، وبسط القضية المصرية ، وما للخديو من منزلة بين أمته .

ووردت لنا منه أيضاً رسالة من باريس يصف فيها احتفاء الصحفيين الفرنسيين به ؛ وما تبادلوه من الأحاديث بخصوص مصر وسياسة فرنسا .

ثم أرسل لنا رسالة أخرى جاء فيها : « سيذهب وفد من مجلس النواب الفرنسى إلى لندره ليجتمع مع مندوبين من برلمان انجلترا للمفاوضة فى المسائل المختلف عليها بين الدولتين . وقد طلبت مقابلة مسيو اتيين وكيل مجلس النواب الفرنسى بواسطة دولونكل لأعرف منه إن كانت مسألة مصر من جملة المسائل التى يجرى الكلام فيها أم لا ، وقد كتبت لصاحب لى فى انجلترا ليعرف شيئاً من ذلك أيضاً حتى إذا كان هناك قسط من الكلام لمصر عدت إلى لندره لاعرف ما يمكننى الوقوف عليه من أسرار المخابرات فى شأن مصر خصوصاً إذا كان من أعضاء البرلمان ، الذين نعرفهم ، من يكون فى اللجنة المخصصة لذلك ولعل هذا هو السبب فى كثرة الأسئلة التى تتوارد علىّ من لندره فى المواضيع المصرية . »

وكتب لنا بعد ذلك ما يأتى : « عاد النواب الفرنسيون ، وقد قابلت دولونكل وهو منتفخ بالآمال الكبار . ويقول إن المسألة المصرية لابد أن تعرض أول المسائل

على مجلس التحكيم الذى يراد عقده ، وقد كان فى المأدبة البرلمانية على يسار المستر تشمبرلن وعلى يمين السير شارل ديلك وتكلم مع الاثنين فى المسألة ؛ ومن رأيه أن تشمبرلن لا يبقى طويلا بل الوزارة كلها ستغير وتأتى وزارة الأحرار ، ولما خطب قال لا بد من عرض المسألة المصرية فى مقدمة المسائل ولكنه لم يرد أن يتعمق معى فى الكلام حتى يعرض ما لديه رأساً على الجناب العالى ، وهو مسافر غداً إلى البلدة التى بها مسيو اتيين وكيل مجلس النواب وبعد مقابلته يتوجه إلى ديفون ، وربما اقتضى الحال تأخير سفره إلى يوم الخميس أو الجمعة التاليين . »

هدية الخديو لملجأ اللقطاء . تفضل سمو الخديو فنح ملجأ اللقطاء الذى أسسته جمعية مكارم الأخلاق بالاسكندرية مبلغ ألفين وثمانمائة جنيه تصرف له كل عام . وقد حضر للسراى وفد مكون من المحافظ بصفته رئيس شرف الجمعية ، وقاضى الثغر ومحمد بك سعيد رئيس جمعية العروة الوثقى ، والشيخ عبد الفتاح شريف رئيس جمعية مكارم الأخلاق وعبد القادر الغريانى بك وخليل بك حماده وكيلاها لشكر الخديو على هبته .

وقد افتتح هذا الملجأ يوم ٢١ اكتوبر وكنت ممن رافقوا سموه وبعد الاحتفال رسمياً تفقد جنابه غرف الملجأ ، وسأل عن نظمه وأوصى القائمين بأمره بزيادة العناية بأمر هؤلاء البؤساء الأبرياء .

الزبرجد فى البحر الأحمر . أخذ الخديو بعد عودته من الاستانة يعنى بمسألة استخراج الزبرجد من جزيرة الزبرجد بالبحر الأحمر ، بعد ما انتهى أمر طاشوز إلى انتزاعها من الادارة الخديوية .

وقد كلفنى أن أخاطب مسيو هكسيوس فى الموضوع ليوافينا بأخبار استخراج الزبرجد وبيعه ، وقد جاء الرد منه يوم ٥ نوفمبر أنه قد وصلته أنباء من باريس ولندره بأن تجار الزبرجد غير مرتاحين إلى أثمانه لكثرة ما يعرض منه عليهم من جهات مختلفة وبأثمان رخيصة ويقول فى بيانه بأنه لا بد أن يكون هذا الزبرجد مسروقاً .

وبوصول هذا الرد اهتم الخديو بالأمر ، وبعث محمد سعيد بك رئيس نيابة الاسكندرية إلى الجزيرة لتحقيق الأمر ، فقام ، وبعد رجوعه قرر أن نصف الزبرجد قد امتدت اليه أيدى السارقين وأنه قبض على من اشتبه فيهم ، وقد أبلغنى الخديو بعدئذ

أن هكسيوس يسعى لدى شركة انجليزية لشراء امتياز الزبرجد بهذه الجزيرة بخمسين ألف جنيه .

شقيقة ملك الانجليز فى مصر وكبار الزوار الأجانب . فى ٢٣ ديسمبر وصلت إلى القاهرة البرنسيس دى باتنبرج شقيقة ملك الانجليز ، فاستقبلها على المحطة من قبل الخديو البرنس محمد على باشا وكذلك اللورد كرومر وقنصل جنرال ألمانيا ، ونزلت فى فندق الجزيرة .

وفى اليوم التالى لوصولها زارها عباس فى الفندق . وكانت هذه البرنسيس قد أقامت مأدبة للجناب العالى عند وجوده بلندره كما ذكر ، وقد أدب لها سموه يوم ٢٨ مأدبة فخمة فى سراى عابدين ، حضرها اللورد كرومر والنظار والمستشاران ، ورؤساء المعية ، واستمرت الحفلة حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل .

وبعدئذ حضر الدوق أوف كنوت وقرينته واللورد تشمبرلن عند مروره ببور سعيد أثناء سفره إلى الكاب وقد جاء إلى العاصمة وزار الخديو وشاهد الخزان .

وزار مصر ولى عهد ألمانيا وشقيقه بصفة غير رسمية ، وقد مرضا ولكن لم يمنعهما المرض من مشاهدة بعض الآثار المصرية ، خصوصاً آثار الأقصر ثم رؤية خزان أسوان .

وقد قدم إليهما الجناب العالى إحدى سفن الركائب الخديوية لهذا الغرض ، وأعد لهما مأدبة عشاء فى عابدين ورافقهما إلى زيارة القناطر الخيرية ، فتركا مصر شاكرين ، وتبادل الخديو مع والدهما البرقيات بخصوصهما ، وأظهر ابتهاجه بهذه الزيارة التى عوضت ما كان ينويه الأمبراطور من زيارة مصر فى السابق ، فجاء الرد منه لطيفاً ، وأنعم على بعض الحاشية بنياشين .

وكذلك حضر الدوق دوساكس فأولم له الخديو وليمة غداء فى عابدين ، وكنت من ضمن المدعوين وقدمنى سموه إليه كباقى أفراد الحاشية التى حضرت الوليمة ، ولذا أنعم علىّ بنيشان فيليب من الدرجة الثانية .

وزار مصر أيضاً الأرشيدوق فرانسوا فرديناند ولى عهد النمسا (*) بصفة غير رسمية ، وبينه وبين الخديو مودة عظيمة ، فرحب به سموه وخصص له يختاً لزيارة الآثار القديمة

(*) وهو الذى قتل فى البوسنة وكان قتله سبباً فى نشوب الحرب العظمى .

فى الصعيد ، وتنزه معه نزهة بديعة فى القناطر الخيرية ، وتغدى معه فى القبة وكانت تصحبه قرينته . وملكة البرتغال ونجلها ولى العهد وقد زارا الصعيد على وابور خديوى . زارها الخديو فى فندق سافوى ، فاستقبلت سموه عند مدخل الفندق وبعدئذ ردت له الزيارة فى سراى عابدين ، وزارت والدته وكذلك الحرم . وأعدت لها وليمة فاخرة فى سراى عابدين . وبعدئذ توجهن معاً إلى الأوبرا ؛ ولما سافرت الملكة ونجلها ودعها الجناب العالى على المحطة ؛ ولما عادت إلى مملكتها أبدت شكرها وممنونيتها ، وأعلنت ذلك فى جريدة اللواء ، فان صاحبه زارها وتكلم معها ، وكتب خلاصة الحديث بعد استئذانها ؛ ومن حوادثها فى مصر أنها حضرت الليلة التى أقامها صالح باشا ثابت فى منزله بجوار نزل سافوى لمناسبة زفاف ابنته ، فدخلت الحريم ورأت العروس وتكلمت معها ، ثم خرجت وجلست مع ابنها بين المدعوين من الرجال وافتتحت المقصف .

افتتاح دار الآثار العربية . فى صباح ٢٩ ديسمبر كان احتفال ديوان الأوقاف بافتتاح دار الآثار العربية فى ميدان باب الخلق ، وقد حضره البرنس محمد على باشا والبرنس فؤاد باشا ، والغازى مختار باشا ورياض باشا والنظار واللورد كرومر وقناصل الدول الجنرالية ، والشيخ حسونة النواوى والسيد عبد الخالق السادات والسيد محمد توفيق البكرى والشيخ محمد عبده ، وكثير من أعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وأصحاب الصحف . وعدد عظيم من الأعيان الأجانب مع قريناتهم .

واجتمع المدعوون فى سرادق فخم مواجه للدار فى انتظار الخديو . فلما قدم حياه المنتظرون وصدحت الموسيقى بالسلام الخديوى . وبعد أن استقر به المقام ألقى عبد الحليم عاصم باشا مدير عموم الأوقاف خطبة الافتتاح . والتمس من الجناب العالى فتح الدار . وقد رد سموه عليه بخطبة قصيرة جاء فيها : « إذا كان لمصر أن تفتخر ببقايا أول مدنية قامت فى العالم ، فمن حقها كذلك أن تتباهى بالجانب العظيم الذى وصل إليها من مدنية العرب وحضارتهم . »

ثم تقدم سموه فدخل الدار وكان هذا إعلاناً بافتتاحها رسمياً ، ثم تفقد حجرها وخلفه المدعوون حتى انتهى وسر بنظامها . ثم عدنا مع سموه للسرادق فتناولنا شيئاً مما فى المقصف الفاخر الذى أعده الديوان ، وبذلك انتهى الاحتفال .

مسألة صندوق التوفير . كاد هذا العام ينقضى على وفاق بين الخديو والانجليز ،

ولكن حدث فى ديسمبر خلاف جديد بين الخديو واللورد كرومر على مسألة صناديق التوفير بالبوسته (*) .

ذلك أن اللورد أوعز إلى النظار أن يهيئوا مشروعا أوسع من مشروع الصندوق الذى كان موجوداً ، ولم يقبل الأهالى عليه لاعتقادهم مخالفته للشريعة لأنه نص على فائدة وهم يعتبرونها ربا محرما . وكان اللورد يعتقد أنه لو تم إقبال الفلاحين على إيداع أموالهم فى صناديق التوفير ، لقلت حوادث السطو والسرقات فى الأرياف وأهم أسبابها الحصول على الأموال المخزونة فى المنازل .

ولم يكن الخديو يعلم بايعاز اللورد ولا بالمشروع حتى جاء ذكره فى جلسة مجلس النظار فعارض الخديو فيه لأنه لم يستوف صبغته الشرعية ولم تستبدل كلمة « فائدة » التى هى حجر عثرة فى المشروع القديم ، فقام اللورد وقعد لهذا الاعتراض من جانب الخديو ، ولذلك رأى سموه أن يدعم موقفه بآراء العلماء من الوجهة الدينية فأحضر عدداً منهم لسراى القبة وفى مقدمتهم الشيخ محمد بخيت والسيد محمد توفيق البكرى ، ولم يكن الشيخ محمد عبده المفتى من المدعوين نظراً لسوء تفاهم بينه وبين سموه ، واستدعانى جنابه عند وجود العلماء بالسراى وانتهينا إلى تقرير المشروع الآتى :

المادة الأولى : كل من أراد أن يضع شيئاً من ماله فعليه أن يقدم طلبه على استمارة مطبوعة تشتمل على ما يأتى :

أولا — توكيل الطالب لمدير البريد توكيلا عاما باستعمال ما دفعه الطالب فى أنواع التجارة الجائزة شرعا .

ثانياً — إذن الطالب لمن يكون مديراً عاماً للبريد بأن يخلط ماله المدفوع منه بمال غيره من المشتركين .

ثالثاً — قبول الطالب الاشتراك مع باقى أرباب الأموال المدفوعة فى الربح بقدر ما يقابل ما دفعه .

المادة الثانية : لكل واحد من أرباب الأموال المذكورة أن يسترد ما دفعه ويطالب بما خصه من الربح عند انتهاء السنة وتسوية حساب الربح بنسبة مقادير الأموال وعلى مدير البريد إجابة طلبه .

المادة الثالثة : بخصوص ضم الربح على رأس المال .

(*) صندوق التوفير أنشىء فى أول يناير سنة ١٩٠٠

المادة الرابعة : فى حالة وفاة أحد من أرباب الأموال فلورثته الحق فيما دفعه أو تجديد الاشتراك .

المادة الخامسة : تكون جميع الأموال المودعة بالصندوق تحت مراقبة الحكومة المصرية وحفظها .

ولما كان الخديو فى يوم هذا الاجتماع على أهبة السفر للاسكندرية ، كلفنى أن أقدم نسخة من المشروع لمظلوم باشا وأخرى لدومرتينو باشا لتسليمها إلى اللورد كرومر ، وكلف السيد محمد توفيق البكرى أن يتفق مع محمد بيرم بك (*) القاضى بالمحاكم المختلطة ليفهم مستر بويل السكرتير الشرقى للورد بكل ما عمله الخديو . وأمرنى سموه أن أطلع قاضى مصر أولا على المشروع وأعرف رأيه وكذلك الشيخ حسونة النواوى ، حتى إذا عرض هذا المشروع على مجلس شورى القوانين — وهما عضوان به — لا يعارضانه . فذهبت للشيخين أولا . فلاحظ القاضى أن يضاف إلى جملة « فى أنواع التجارة الجائزة شرعاً » جملة « الخالية عن معاملة الربا بوجه من الوجوه » وقد خط هذه الزيادة بقلمه وكتب أمامها : « عن القاضى » فاستغربت فى نفسى لهذه الزيادة التى لا تأتى بشىء جديد ، أما الشيخ حسونة فقد رأى أن يغير عقد الشركة الوارد فى البند الثانى من المادة الأولى فيكون : « أشركت فلاناً صاحب هذه القسيمة مع الموكلين لى المشتركين فى صندوق التوفير . » ثم نقح بعض أشياء فى الأسلوب .

ولما أطلعت البكرى على هذه الاضافات والتنقيحات وسألته إن كان يرى ضرورة إضافة شىء آخر أجاب بالنفى ووافق على التنقيح .

وبعد ذلك توجهت بنصوص المشروع إلى مظلوم باشا فلاحظ على ما جاء منه بأن فى انتظار المودع لآخر السنة حتى يمكنه سحب شىء من ماله المودع تشديداً وصعوبة تحول دون نجاح المشروع . وقد عدت إلى العلماء وناقشتهم فى هذه الملاحظة وانتهينا إلى أن يكون النص كما يلى : « لكل واحد من أرباب الأموال المذكورة أن يسترد ما دفعه ويطالب بما خصه من الربح متى أراد . »

ولما انتهت هذه الاجراءات كتبت نسختين سلمت إحداهما لمظلوم باشا وطلبت منه أن يطلع عليها وكيل المالية المستر متشل أينس . والثانية لدومرتينو باشا ، وكان

(*) وهو من عائلة مغربية وكان أبوه من كبار العلماء ومن المقربين لكرومر .

ناظر المالية قد اقترح تحديد الفائدة باثنين ونصف فى المائة ليكون ذلك أسهل فى العمل ، ولكن العلماء لم يرتضوا ذلك .

وقد أخبرت الخديو أولا فأولا بما تم فى هذا الموضوع ، وكان يريد إنهاء المسألة قبل عودته من الاسكندرية ، وقد سألنى فى إحدى البرقيات عمن كان له الفضل فى إنهاء نصوص المشروع فأجبته بأنه الشيخ محمد بخيت .


محمود باشا الداماد السابق ذكره فى سنة ١٩٠٢

وكان سموه يرى من وراء إيجاد النصوص الجديدة إلى إظهار أن المفتى ضعيف فى المسائل الشرعية ، لأنه أشار بابقاء النص الأصلى ، ليكون ذلك ذريعة إلى فصله كما كان يرغب سموه ، وفاته أن المفتى مؤيد من اللورد كرومر .

ولما عاد سموه زاره كرومر وحادثه بحدة فى أنه يعرقل مشاريعه . فقال له عباس إنه لم يعلم برغبته حتى يحتاط ويجعل النص موافقاً للشرع قبل عرضه على المجلس .

وقد كان ذلك سبباً فى سوء التفاهم بينهما ، لأن الخديو ظهر بمظهر المحافظ على الشرع ضد المحتلين وهو ما يتحاشونه كثيراً .


قصر بكنجهام ص ١٧

سنة ١٩٠٤

دسائس البكرى فى الأزهر ضد المفتى . محاولة أخرى للسيد البكرى . مدام جولييت آدام والانجليز . الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا . فضائح فوضى الرتب . فى العائلة الخديوية . سخط الخديو على حسن عاصم باشا . يوسف طلعت باشا ووالده . سفر الخديو الى أوربا ثم الاستانة وسفرى مع الحرم . علاقات الخديو مع الانجليز . تركيا والحدود الغربية . قطع العلاقات بين مصطفى كامل وعباس . قضية زواج صاحب المؤيد . قاضى مصر التركى وديوان الأوقاف . تعيينى رئيسا للديوانين العربى والافرنجى .

دسائس البكرى فى الأزهر ضد المفتى . كان الخديو قد استمع إلى نصح الشيخ محمد عبده فى العمل لاصلاح الأزهر كما قدمنا ، وفوض للشيخ أمر السير بحركة الاصلاح ، معتقداً أن الشيخ فى مقابل ذلك لا يعارضه فى تصرفاته ورغباته ؛ ولكن الخديو خاب ظنه فى تقدير صلاته بالشيخ واستقلاله ؛ فقد انحلت كسوة من الدرجة الأولى من كساوى التشريف العلمية بموت أحد كبار العلماء ، فأرسل الخديو لشيخ الأزهر يبلغه أمر سموه الشفوى بتوجيه هذه الكسوة إلى الشيخ محمد راشد مفتى المعية ، فلم ينفذ الأمر وأسندت الكسوة إلى شخص آخر، فلما اجتمع العلماء عند سموه فى التشريفات النصف الشهرية قال الخديو لشيخ الأزهر غاضباً: « ألم آمرك بتوجيه كسوة فلان إلى فلان؟ » فتلعثم الشيخ معتذراً ، فرد الشيخ محمد عبده قائلا : « إن الذى قرره مجلس إدارة الأزهر إنما هو التنفيذ لأمر أفندينا وهو ما نص عليه القانون المتوج باسم سموكم ؛ وأما الأوامر الشفوية فلا يعتمد عليها المجلس ، فاذا شاء أفندينا أن تكون كساوى التشريف العلمية

بمقتضى إرادته الشخصية ، فليصدر بذلك قانوناً آخر ينسخ هذا القانون ، أو مادة قانونية نصها : كساوى التشريف للعلماء توجه بأمر منا . » فلما سمع الخديو هذا الرد احمر وجهه ووقف إيذاناً للحاضرين بالانصراف .

وعلى أثر ذلك طلبنى الخديو فرأيته فى غاية الكدر وبادرنى بقوله محتداً : « تعرف إيه اللى حصل النهارده ؟ » فأجبت سلباً ، فأخبرنى بما حصل ملوحاً بالانتقام من الشيخ محمد عبده .

وقابلت الشيخ بعد ذلك فلمته على هذا الرد الجاف ، وقلت إن الواجب يقضى عليه بأنه يحسن القول فى الرد ، وأفهمته أننا بهذا الأمر قد خسرنا كل ما قمنا به من الجهود وفقدنا الخطوة الأولى فى سبيل إصلاح الأزهر .

وزاد فى غضب الخديو على الشيخ محمد عبده ما كان من توثق العلاقة بين الشيخ واللورد كرومر ؛ فقد كان اللورد يجله ويقدره قدره ويستشيره فى بعض المسائل الحكومية الهامة . ولما ذاع أمر هذا الحادث قام المشاغبون الناقمون على الاصلاح بالأزهر ، بتعضيد من الخديو ، ضد الشيخ .

وأكثر السيد محمد توفيق البكرى من التردد على سموه فى هذه الأيام ، وكان يعمل على إيذاء الشيخ المفتى لأنه عدوه وعدو الخديو كما يعتقدان . وفى ذات يوم طلبنى سموه لقصر القبة ، وجمعنى مع البكرى قائلا : « يا سيد أنا لا أثق إلا بشفيق بك ، فليكن هو الواسطة فى مخابراتنا . »

وفى ٩ يناير حضر السيد عندى وطلب مقابلة الخديو وكان على وشك السفر إلى المنتزه . وبعد المقابلة ، قال لى سموه إن السيد البكرى سيحضر لى أوراقاً أتسلمها منه وأعطيها لحسن عاصم باشا باعتبار أنها واردة له من الخديو . وبعد ذلك حضر الشيخ على يوسف وتحادث مع سموه فقال له : « اتحد مع شفيق فيما أمرته بخصوص السيد البكرى . » وأمرنى أن أعرض على سموه برقياً كل ما يحصل .

وقد علمت منهما بعد سفر الخديو أن الغرض من هذا المسعى الذى دبره البكرى والشيخ بخيت عضو المحكمة الشرعية . هو حمل بعض أعضاء مجلس إدارة الأزهر على الاستقالة وهم : الشيخ ابو الفضل الجيزاوى ، والشيخ سليمان العبد ، وشيخ الحنابلة ، ليستبدلوا بالشيخ بخيت والشيخ محمد راشد وثالث يكون من خصوم الشيخ محمد عبده ، وبذلك يكون فى مجلس الادارة حزب قوى لمعارضة نفوذه .

وكان الشيخ على يوسف يعترض على هذا العمل وينوه بخطورته إذا انكشف ، وقد ذكرته بهذه المناسبة بأنه هو السبب فى اتصال السيد توفيق بالخديو بعد مجافاته ، لأنه سعى فى صفح الخديو عنه .

وبينما نحن نتحدث عن هـــذا الموضوع فى إدارة المؤيد إذ حضر الشيخ المفتى وقال إنه بلغه أن هناك مؤامرات فى الأزهر ، وأنه عالم بالغرض الذى ترمى اليه ؛ وأن الحكومة لا بد أن تعلم ذلك . وأضاف على ذلك أن الأعضاء المطلوب استعفاؤهم لا يفعلون ذلك إلا بطلب من الخديو نفسه .

وكنت قد فكرت فى حل لهذا المشكل ، وذلك أن يأتى المفتى إلىّ فى عابدين ويطلب منى أن أرسل إشارة برقية للخديو خلاصتها : « أن الشيخ محمد عبده بلغه ما يجرى فى الأزهر ، وإنه يعرض على أعتاب الخديو استقالته من عضوية مجلس إدارة الأزهر ، وأنه مسافر إلى المنتزه لهذا الغرض . »

وكان غرضى بهـذا الحـل أن يعرف الخـديو أن المفتى علم بالدسائس التى تدبر فيحذرها ، وفى الوقت نفسه حينما يرى خضوع الشيخ يتنازل عن خصومته له ، فينتهى المشكل بذلك . فلما عرضت هذا الحل على الشيخ محمد عبده قال إنه سيفكر ثم يخبرنى برأيه . وفى اليوم التالى قابلنى وقال لى : « إن متشل أينس وكيل المـالية علم بالمناورات الواقعة فى الأزهر ، وإنه ربما طلب منى الافصاح عن أسـباب استقالتى فماذا أقول ؟ » فأجبته بأن خير حل لذلك هو أن يتوجه للمنتزه فى الغد ويعرض الاستقالة على الخديو ، محتجاً بأنه لا يريد إحداث متاعب لسموه ببقائه فوافقنى .

وأرسلت للخديو فى ١٠ منـه رسالة بأنه لم يستقل أحـد ممن فاوضهم البكرى . وجاءنى الشيخ المفتى مساء وقال إنه عازم على السفر غداً ، فأرسلت لسموه برقيـة بأن البكرى لم يفلح فى مسعاه ، وأن الشيخ محمد عبده رأى من نفسه أن يقدم استقالته إراحة لخاطر الخديو ، وسيحضر للمنتزه لهذا الغرض وذلك تصرف حسن منه ومسلك طيب نحو سموه .

وقد ذهب الشيخ المفتى وقدم استقالته فلم يقبلها الخـديو ؛ ولـكنه قدح أمام سموه فى حق البكرى مما جعل عباساً يزيد تمسكا بعلاقتـه واعتماداً على سعيه فى الدس للشيخ محمد عبده .

وقد جاءتنى برقية من المنتزه فى ١٢ منه فيها : « إن الشيخ المفتى حضر أمس وتشرف

بالمقابلة ولكنه لم يحصل على نتيجة بالمرة . ولذا يجب مقابلتكم لشيخ الأزهر وتفهيمه ذلك ، إذ ربما يدخل المفتى بتمويهات لا أصل لها ، ومن جهة أخرى يجب مقابلة توفيق البكرى وتفهيمه أن يستمر فى إتمام المشروع المكلف به وهو إنهاء مسألة الشيخ أبى الفضل لحين عودة سموه . »

أما مسألة الشيخ أبى الفضل فقد كان البكرى يصرح بأنها من أيسر الأمور ، لكنه حضر لى وأفهمنى أن شيخ الأزهر يماطل ويصانعنا فى الظاهر ثم يوعز فى الخفاء لزملائه بعدم الاستقالة ووصفه بأنه « جزويت » أى شديد المكر . ثم أبدى لى مايفيد عجزه حتى يحضر الخديو ويحادث كرومر فى الأمر . فأرسلت لسموه برقية بذلك ، وبأنى قابلت الشيخ الكبير فنفى لى ما قاله البكرى ، وقرر خضوعه للجناب العالى ؛ ولكنه يرى أن الدسائس زادت فى الأزهر ، وأن المتوسطين لم يحسنوا الخطة ، فانكشفت الدسائس بشكل غير مستحسن .

وفى ١٣ يناير حضر عندى السيد البكرى وحادثنى طويلا فى هذه المسألة ، فنصحت له بأن يكتب للخديو بما يريد ويسلمه لى لارساله لسموه . وكنت أرمى بذلك إلى أن يعلم سموه بجهل البكرى سفر المفتى ، ويطلع على فكرته فى طلب المساعدة من كرومر وهو الأمر الذى يكرهه عباس ، وبذلك يغضى عن السيد توفيق محور هذه الدسائس فتنقطع أسبابها ؛ ولم أخبره بأن الخديو سيحضر للقاهرة اليوم حسبما أعلم لئلا يمتنع عن الكتابة . فوافق السيد وكتب ما نصه : « مولاى أدام الله ملكه — أخبرنى محمد بيرم بك أمس بخبر ، ولكنه يقبل قدم أفندينا بأن لايسمعه أحد فانه إن سمع لغط ؛ وذلك الخبر هو أن الشيخ محمد عبده توجه أول أمس إلى اللورد كرومر وقال إن سمو مولانا الخديو يريد رفتى ورفت مجلس الادارة جميعه ، وطلب منه أن يتداخل فى الأمر ؛ فقال اللورد بأنه لا يمكنه التداخل . ولما يئس الشيخ محمد عبده منه قال له : إئذن لى حينئذ أن أتوجه للاسكندرية وأتكلم مع سمو الخديو . فقال له اللورد : أنا لا أمنعك بان تتوجه ، ولكن الأليق أن ننتظر سموه إلى أن يحضر ، فخرج الشيخ محمد عبده ، وقابل بطرس باشا غالى فأشار عليه بالسفر إلى الاسكندرية ، فقال الشيخ محمد عبده لكثير من أصحابه ، بأنى سأسافر فى هذا المساء إلى الاسكندرية لمقابلة ولى النعم ، فأشيع الخبر فى مصر بأنه سافر حتى أنه كتب فى بعض الجرائد ، ولكنى طلبت مقابلة الشيخ محمد عبده أمس فحضر عندى فسألته عن المسألة بوجه الاجمال لأعرف فكره ، فوجدت أنه خضع وغير الموضوع حيث قال بأنه لا يوجد أدنى توقيف منا فى تغيير

مجلس الادارة ، ولكن لم نفهم قصد سمو أفندينا تماماً فنحن ننتظر مقابلته بالذات لنفهم الغرض فننفذه ، وكذلك شيخ الجامع قال لشفيق بك صباحاً بأن المشايخ مستعدون لتقديم الاستعفاء ، ولكن لسمو أفندينا بالذات ، وهذا كله غير ما كانوا يقولونه قبل مقابلة الشيخ عبده لكرومر ، ورأى عبدكم أن سموكم لا تظهرون لهم أدنى غضب ، ولكن حيث إنهم لم يفهموا أو لم يثقوا بأن أكون أنا واسطة بين سموكم وبينهم ، فسموكم تفهمونهم المسألة وتأمرونهم بتنفيذها فى الحال وقبل صدور الأمر بالتنفيذ تتكلمون مع اللورد كرومر فيها من باب حسن المعاملة .

هذا وعندى أشياء كثيرة سأتشرف بعرضها عند تشريف الركاب العالى إلى هنا أدام الله مولاى ولى النعم مؤيداً بالعز والنصر دوام الدهر ؟ العبد الخاضع

إمضاء — محمد توفيق البكرى

حاشية — المبدأ الذى يتخذه مولاى فى هذه المسألة هو هذا : إنى أريد إصلاح الأزهر لأنى أعتقد أنى باصلاحه أصلح حالة الأمة الدينية والأدبية ، ولكن لجنة الادارة الحالية لا يمكنها أن تنفذ الاصلاح ، لسبب هو أن أعضاءها قسمان : قسم ضعاف جداً لا يصلحون لعمل ، وقسم أذكياء ولكن الثقة الدينية مفقودة منهم ، فلجنة بهذه الصورة لا يمكن أن علماء الأزهر يقبلون لها أمراً ولا نهياً ، وكل إصلاح منها يقابل بالرفض والهياج ، فأحببت أن أبقى الأذكياء ، وأبدل الضعاف بآخرين حائزين للاقتدار والثقة ، فيكون من مجموع الكل لجنة مقتدرة ذكية فيها ثقته فيمكنها أن تقنع العلماء بقبول الاصلاح .

أما الأعضاء فعندنا أسماء كثيرة منها الشيخ النجاتى مفتى الأوقاف الذى شمله مولاى بعنايته أخيراً ؟ العبد الخاضع

١٣ يناير سنة ١٩٠٤ إمضاء — محمد توفيق البكرى

ووصل الخديو فى المساء عائداً من المنتزه ، فانتظرته فى المحطة وركبت معه القطار إلى القبة ؛ وفى أثناء الطريق قرأت عليه رسالة البكرى فلم يستحسن ما جاء بها من الآراء ولا سيما مسألة استشارة كرومر .

ولما لم يفلح السيد توفيق البكرى فى مهمته التى التبعة أمام الخديو على شيخ الأزهر وقد استغربت حينما حادثنى سموه فى الأمر ، وردد أمامى كلمة « جزويت » وصفاً للشيخ ، وهى الكلمة التى قالها البكرى ، فكان الخديو يردد حتى ألفاظه لا أفكاره فقط

وكان من جراء ذلك الشغب أن استاء الشيخ الأكبر ، وطلب الاستقالة . ولكن بطرس باشا أشار على الخديو بعدم قبولها ، لأنها أتت فى وقت حرج ، فأرسلنى سموه للشيخ لاهـدىء خاطره ؛ ثم قابل الخـديو بناء على نصحى فى مسجد المطراوى حيث كان يؤدى فريضة الجمعة ، فنال عنايته ودعاه لتناول طعام الغداء معه فى القبة .

وقد انتهت الدسائس ضد المفتى ، بأن صرح اللورد كرومر يوم ١٤ يناير أثناء مقابلتـه للخديو ، بأنه مهما كانت الأحوال فانه لا يوافق على فصـل الشيخ المفتى من الافتاء ما دام موجوداً .

ولكن ذلك كله لم يثن الخديو عن خطته ، فأثار على الشيخ جريدتى اللواء والظاهر وعلى الأخص فى فتوى صدرت منه رداً على سؤالين من بعض مسلمى الترنسفال وهما :

(١) بقر يضرب على رأسـه بالبلطة حتى تضعف مقـاومته ، ثم يذبح قبل أن يموت بدون تسمية . هل يجوز أكل لحمه ؟

(٢) يوجد أفراد فى هذه البلاد (الترنسفال) يلبسون البرانيط لقضاء مصالحهم وعود الفوائد اليهم . فهل يجوز ذلك أم لا ؟

فأفتى الشيخ المفتى بالاباحة فى الحالتين فقـام العلماء وقعـدوا بخصوص الفتوى الأولى على الأخص يحرمون فيهـا أكل لحوم هذه الأبقـار باعتبار أنهـا موقوذة ، ويطعنون على الشيخ . فرد عليهم الشيخ بأن الموقوذة هو ما ضرب بغير محدد كالخشب والحجارة حتى انحلت قواه ومات .

لم يكتف الخـديو بذلك ، بل حرض العلماء عليـه ، فرموه بأنه وهابى كما رموه بالزندقة لعدم أخذه بآراء شيوخ المذاهب ؛ فرد عليهم الشيخ بما يدحض فريتهم .

وزاد خصوم الشيخ على ذلك بأن لفقوا صورة شمسية له مع بعض نساء الافرنج وحملوها إلى اللورد كرومر وأفهموه أن هذا فى عرف المسلمين إزراء بالشيخ ومنصبه ، وأنه ينبغى إقالته مراعاة لشعورهم . فتبسم اللورد سـاخراً من هـذه السخافة ، وأبدى ريبة فى صحة هذه الصورة ، وقال لهم : « إن الأستاذ يزورنا هنا وتحضر مجلسه ليدى كرومر وغيرها من عقائلنا ، فهل يصح أن نعد هذا إهانة له أو لنا ؟ » وبذا خاب مسعاهم لدى كرومر . وكنت أنظر إلى هذه الدسائس بعين التوجس لأنها لا تجدى الخديو نفعاً بل تشجع الدساسين على غيهم .

وقد نشرت هذه الصورة فى جريدة « حمارة منيتى » كما نشرت جريدتا « البابا جللو المصرى » و « الأرنب » صورة وقحة أثارت دهشة الجمهور وكانت سبباً فى قضية جنائية حكم فيها فى ٦ فبراير على عبد الحميد كامل افندى صاحب الجريدة الأولى بالحبس ستة أشهر وحسين توفيق افندى صاحب الجريدة الثانية بالحبس أربعة أشهر لانتهاكهما حرمة الآداب فى حق فضيلة المفتى بواسطة إشهار رسمه وتصويره واقفاً مع امرأة بلباس الرقص بحالة شائنة ، ثم القذف فى حقه بأنهما أسندا اليه الكفر وتحليل المحرمات، وغير ذلك من الأمور الموجبة احتقاره عند أهل وطنه .

وفى ٢٥ فبراير قرأت فى بعض الصحف العربية أن المفتى قابل بطرس غالى باشا وقال له : « يظهر أن الجناب العالى اتفق مع الانجليز على إبعادى من منصبى . فاذا كان هذا الخبر صحيحاً فانى مستعد لتقديم استقالتى . »

ولما سألت بطرس باشا عن هذا الخبر أجابنى : « إنى سمعت من الخديو أن المحتلين عرفوا خبث المفتى وأنهم غير راضين عنه — وإن كان سموه لم يسمع ذلك من كرومر نفسه — ولكنه كان يعلم أن اللورد قال مرة بأنه مهما قيل عن هذا الرجل فانه لا يمكن تعويضه فى كفاءته . ولذلك فانى أستبعد جداً موافقتهم على فصله . »

وكانت لدسائس الأزهر ذيول أخرى ؛ فقد قام الشيخ محمد الرفاعى والشيخ محمد راشد وآخرون بتقديم مذكرة ضد الشيخ الكبير والمفتى ولكنها حفظت لرضاء الخديو عن الأول وعجزه عن تنفيذ ما يريد ضد الثانى(*) .

محاولة أخرى للسيد البكرى . وقد كان من الآراء التى عرضها السيد البكرى على سمو الخديو فى هذه الأثناء العمل على استمالة المستر بويل ، السكرتير الشرقى للورد كرومر ، وأصحاب جريدة المقطم للمعاونة فى هذا النضال .

أما الأول فقد قال عنه السيد : « إنه مستشار اللورد المطاع ، وإن استمالته سهلة بواسطة بيرم بك . » ولكنى شرحت للخديو ما تنطوى عليه هذه المحاولة من الخطر إذا علم بها اللورد ، وأنه من المرجح أن يرفض بويل نفسه هذا العرض .

ومع ذلك فقد جاءنى السيد يوما وقال إنه يريد إبلاغ كرومر بواسطة بويل أن من مصلحته الاتفاق مع الخديو ، الذى تقف الأمة من ورائه تؤيده ، ثم تحدث فى

(*) راجع هذا الموضوع فى سنة ١٩٠٥ من المذكرات .

مسائل أخرى ، فلم أستحسن شيئاً من ذلك فانصرف وأرسل لى كتابا يقول فيه : « حيث إنكم لم تستحسنوا ما عرضته عليكم فلا داعى لعرضه على الخديو ، ولكن على كل حال أرجو أن تعرفوا أن أهم سلاح لنا هو أن الأمة كانت ثائرة على الحكومة فى مسألة صندوق التوفير ، وأن الخديو هو الذى أسكتها وهدأها . وأنه إذا رفع يده عن إسكاتها عادت إلى ما كانت عليه ، وكانت المتاعب على الحكومة وأنصارها . وهذا أمر سيعلم لهم أى الانجليز من جملة طرق . »

وقد تكلم معى أيضاً فى أنه يستطيع ضم أصحاب المقطم للخديو ، فقلت له أن يصنع مايريد . فحدثهم فى ذلك ، فأجابوه بأنهم يلقون من الخديو إعراضاً على الرغم من الخدم التى قاموا بها لسموه . فقال لهم السيد إن سموه لم يغض الطرف عنهم ، وإنه يقدر خدماتهم وينوى إظهار ذلك التقدير بالانعام برتبة على صديقهم أخنوخ فانوس افندى ، فشكروا لسموه ووعدوا بالمساعدة .

ولم يمض يوم واحد على ذلك حتى طالعت فى المقطم مقالا فيه طعن على الخديو والحاشية . فلفتّ نظر السيد إلى ذلك ، وأن الاتفاق لم يمض عليه أكثر من يوم . ولكنه اعتذر بأن المقال كان معداً من قبل الاتفاق ، وأنه لن يحدث شىء من ذلك فى المستقبل .

مدام جوليت آدام والانجليز

وقد حدث احتكاك جديد بين الخديو والمحتلين بسبب قدوم مدام جوليت آدام الكاتبة الفرنسية الشهيرة إلى مصر؛ وكانت قد تقابلت مع سموه فى العام السابق بباريس ، وعرفها قبل ذلك بأعوام على يد مصطفى كامل ، فدعاها لزيارة مصر على نفقته الخاصة لتقضى بها فصل الشتاء . ولما كانت معروفة بخصومتها للانجليز ، فقد تقرر أن يتولى دعوتها مصطفى كامل باشا فقدمت وأقامت أياماً فى القاهرة شهدت خلالها



مدام جوليت آدام

عدة مآدب أقامها مصطفى كامل باشا وحسين واصف باشا والبرنس حيدر بك وغيرهم وحضرت أنا بعضها ، ثم سافرت إلى الصعيد مع مصطفى كامل باشا والبرنس حيدر بك وهنالك خلال رحلتها دعاها كثير من الوجهاء إلى مآدب أخرى . ولما عادت أدب لها سموه مأدبة فى سراى القبة ، ثم عادت بعد ذلك إلى فرنسا شاكرة مسرورة .

وبعد قليل ظهرت مجلتها الشهرية « نوفيل ريفو » وفيها فصل طويل عن مصر تنتقد فيه سياسة فرنسا التى أدت إلى احتلال الانجليز لمصر ، وتقول فى ختامه : « إن كل الاصلاحات التى تمت بمصر وضع أساسها الفرنسيون ، ثم ادعاها الانجليز لأنفسهم . » ولقد ثار اللورد كرومر لنشر هذا المقال وكتب إلى وزارة الخارجية الانجليزية ، فأرسل وزيرها يطلب فى لطف بيانات عن زيارة مدام آدام واحتفال الخديو بها مع العلم بأنها تخاصم انجلترا . وحضر اللورد إلى السراى وتحادث مع سموه وأطلعه على رسالة وزير الخارجية ، فأجابه بأنه يعرف مدام آدام منذ سنوات ، وكانت قد دعته لمأدبة أثناء زيارته لفرنسا فرأى من باب المجاملة — وقد حضرت لمصر — أن يرد لها الدعوة وإن الدعوة كانت خالية من كل معنى سياسى .

وطلب سموه من كرومر أن يكتب الرد بطريقة يقنع بها وزير الخارجية . فسر اللورد بهذا الطلب لما يشف عنه من تقرب الخديو من الانجليز والعمل على رضائهم .

وقد قال لى الخديو إنه ورد فى رسالة وزير الخارجية جملة مفادها أن الجناب العالى لاينسى مركز انجلترا فى مصر ، وهو سيكون عما قريب أقوى مما هو الآن ، وأن سموه يبدى شعوراً طيباً نحو انجلترا ، ولكنه يجب كذلك أن يعلم العالم أن هذا الشعور حقيقى لا ظاهرى .

الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا . فى ٨ أبريل من هذا العام وقع حادث سياسى خطير له علاقة وثيقة بمستقبل مصر ، وذلك هو عقد الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا .

وكانت السياسة الفرنسية ترمى إلى مناوأة السياسة الانجليزية فى مصر بعد أن فازت انجلترا دونها باحتلال وادى النيل ؛ ولكن فرنسا لقيت فى ذلك الحين مصاعب جمة فى مراكش ، وخشيت أن يؤدى فشل إدارتها إلى تدخل الدول ولا سيما انجلترا وأسبانيا فى مصالح مراكش ؛ ولكن أسبانيا كانت مشغولة بمتاعبها فى المنطقة الأسبانية (الريف) ، وكانت انجلترا هي التى يخشى منها ، ولهذا كان من الواجب أن تحصل

فرنسا على حياد انجلترا ، وكان الثمن الطبيعي لذلك هو أن تحصل انجلترا على حياد فرنسا في شئون مصر . وبدأت المفاوضات بين الدولتين على هذا الأساس منذ سنة ١٩٠٣ ، وانتهت بعقد الاتفاق الودى بينهما ، ووقعه اللورد لانسدون وزير خارجية انجلترا ومسيو كامبون سفير فرنسا فى لندرة .

وتنص مواد هذا الاتفاق الخاصة بمصر على حرية الحكومة المصرية فى المسائل المالية ، وعلى موافقة انجلترا على اتفاقية قنال السويس التى عقدت عام ١٨٨٨ خاصة بحيدة القنال . وقد انتدب السير الدون جورست ، نظراً لالمامه بالأحوال المصرية عامة والمالية خاصة ، لوضع ما يختص بمصر فى هذا الاتفاق . وهذا هو أهم نص فيه :

« تعترف الحكومة الانجليزية أنها لا ترغب فى تغيير نظام مصر السياسى وتعترف الحكومة الفرنساوية من جانبها أنها لا تعرقل أعمال انجلترا فى مصر بسؤالها أن تحدد موعد الجلاء عن مصر أو بأية طريقة أخرى . » وبعبارة أخرى اعترفت فرنسا بالاحتلال الانجليزى لمصر وتركت لانجلترا حرية أكثر مما كان لها قبلا فى الشؤون المصرية . وقد وافقت ألمانيا والنمسا وإيطاليا على هذا الاتفاق .

وفى ٢٨ نوفمبر صدر ديكريتو يؤيد هذا الاتفاق .

وكان من نتيجته فضلا عن فشل فرنسا فى مسألة فاشودة أن تحقق المصريون أنه لا يمكن الاعتماد على فرنسا فى أى أمر يتعلق بالمسألة المصرية .

وكان عند الشاب المصرى المملوء وطنية والذى كان يسير وراء الخديو المتحمس لبلاده أمل فى مساعدة فرنسا لمصر ضد الاحتلال ولكن عندما وقعت مسألة فاشودة قل هذا الأمل وتوجس من فرنسا حتى إذا ما كان إتمام هذا الاتفاق أفقنا كلنا من سباتنا وعلمنا أن لمصر أن تعتمد على نفسها فقط دون مساعدة أى دولة أخرى لأن كل دولة تضحى بكل مصلحة لأى بلد آخر ، ولو كانت على حق . مقابل مصالحها الخاصة .

فضائح فوضى الرتب . لم تكد تنتهى مسألة مدام آدام حتى عادت مسألة الرتب تثير فى الجو سحباً كثيفة .

ولقد تحدثت عن فوضى الرتب فيما تقدم ، وذكرت ما كنت أخشاه من تحرك الانجليز لمخاصمة الخديو فى شأنها . وقد حدث ما توقعت هذا العام ؛ ذلك أن الخديو

ظل يدون فى مذكرته أسماء المرغوب فى الانعام عليهم ، حتى انتهى شهر مارس ، فأخرج مذكرته وأخذ يملى على عزت بك بعض أسماء من بينها نديم افندى الذى كان موظفاً فى ديوان الأشغال وفصل بسبب الاختلاس ، وطلب له الرتبة عبد القادر حلمى باشا ، مع أن القرار الذى يقضى بفصله أصدره مجلس النظار وبرياسة الجناب الخديوى . فلم يفطن الديوان الخديوى إلى ذلك فنشر اسمه فى الوقائع الرسمية فثار السير جارستن وكيل الأشغال وأبلغ الأمر لكرومر الذى كلف بطرس غالى باشا بالغاء الرتبة ؛ وكان الخديوعندئذ يثق به كثيراً ويشاوره فى كل أمرهام ، وبعد البحث تقرر أن تلغى الرتبة بطريقة خفية ، وذلك بأن يعلن أنه حدث خطأ فى الأسماء ، ويعاد نشرها مع حذف اسم نديم ، وقد تم ذلك !

وما كاد يسدل الستار على هذه الفضيحة حتى تلتها أخرى من نوعها تماماً ، تلك أنه أنعم على أشخاص من بينهم ابراهيم افندى لمعى الذى كان موظفاً فى « الضربخانة » دار السك ، وفصله وكيل المالية لتداخله فى مسألة المطبعة العثمانية ، فقصد الوكيل إلى كرومر شاكياً ، فطلب اللورد سجل هـذا الموظف ، وطلب من دومرتينو باشا أن يتفاهم مع الخديو فبعث إلى المنتزه بالأمر فأرسل الخديو برقية بالانتظار مساء ، وبأن يكون بطرس باشا فى القبة ؛ ولما اجتمعنا تباحثنا فى الأمر ، وتقرر إلغاء بعض الرتب ؛ وعلمت أثناء الحديث أن الانجليز يستغربون أن يكون هذا خطأ فقط ، ويشيرون إلى أن فى إمكانهم أن يقدموا تقريراً عن الأموال التى دفعها العمد وغيرهم لنيل هذه الرتب على يد الوسطاء ، ولمحوا إلى سحب امتياز إعطاء الرتب إذا تكررت هذه الأخطاء .

وكان من جراء ذلك أن أخذت الصحف المعادية كالمقطم والبروجريه تنشر فصولا شديدة اللهجة ؛ وكانت فضيحة أكبر من الأولى .

فى العائلة الخديوية . منذ ثلاثة أعوام حدث بين البرنس جميل طوسون وقرينته البرنسيس نعمت الله هانم افندى شقاق أدى إلى الطلاق فعادت البرنسيس من الاستانة إلى مصر ؛ وقدم البرنس فى هذا العام اليها بعد أن عرف من وكيله بها أن البرنسيس تميل للرجوع اليه ، ولا سيما بعد أن أخذ ابنه منها بمجرد بلوغه السابعة فبرح بها الألم لفراق نجلها .

وكان البرنس يعتقد أنه بمجرد حضوره إلى مصر مع الصبى ورؤية والدته له ،

فانها تقبل العودة اليه مباشرة .

وكان الخديو وقت قدوم البرنس فى المنتزه ، فأرسلت دولة الوالدة تخبره بحضوره والتماسه ؛ وعندئذ استدعانى جنابه حيث وجدت معه عزت باشا وألماس الباش أغا ، فأمرنا بالتوجه للقاهرة ومقابلة البرنس والمفاوضة معه فى هذه المسألة وأن نطلب اليه الموافقة على الشروط الآتية :

(١) أن تكون العصمة بيد البرنسيس .
(٢) أن تكون دائرتها منفصلة عن دائرته .
(٣) ألا تقيم معه فى أوربا .
(٤) أن ينشر فى الجرائد خبر رجوعه اليها ، لمحو ما كان قد كتبه قدحا فيها .

ولما عرضنا على البرنس هذه الشروط ، قال إنه يرغب الرجوع إلى البرنسيس بدون شرط ، فأفهمناه تعذر ذلك ؛ واقترحنا عليه أن ينتظر ريثما يحضر الخديو إلى القاهرة فيقابله ويطلب منه الصفح . وكان قد طلب الزيارة فى الاسكندرية فرفض الخديو لأن البرنس لم يزر سموه فى فينا وقت أن كان بها فى صيف العام الماضى ، وأخيراً أرسل البرنس إلى الخديو برقية يطلب فيها الصفح والموافقة على الزواج وتعهد بقبول الشرط الرابع وهو النشر فى الصحف ، وأعد ثلاث برقيات لذلك وقد أردنا أن نعرف رأى البرنسيس ، ففهمنا أنها ميالة إلى العودة دون الشروط المذكورة ؛ ولكن الخديو رفض وفقط عدل الشرط الأول بأن تكون العصمة فى يد سموه ؛ فأبلغنا ذلك للبرنس ؛ وبعد قليل حضر وكيله وقال إنه سيقابل البرنسيس شخصياً . فذهبنا اليها ؛ وسألها عما إذا كانت حقيقة تريد أن تكون العصمة بيدها أو بيد سمو الخديو ؛ فأجابته : « نعم أطلب أحد الأمرين » وعندئذ قال بلهجة جافة : « إن البرنس جميل يرفض . »

وقد كان هذا الرد سبباً فى استيائنا جميعاً ؛ وقالت البرنسيس : « ولماذا إذاً كان السؤال ؟ . » وبذلك انقطعت المفاوضات .

سخط الخديو على حسن عاصم باشا . غضب الخديو على حسن عاصم باشا وذلك لاعتقاده أنه غير حريص على المصالح الخديوية ، وأنه بالعكس يعرقلها ؛ وسبب ذلك أن بيت زرفوداكى فى الاسكندرية ، اشترى من الحكومة حديقة وسراى الجيزة

وجزءا من الأرض الزراعية التى أمامها على النيل ؛ ثم اتفق أن يستبدل أرض الوقف الواقعة بجوار الكوبرى الأعمى ، بتفتيش الخديو بمشتهر ؛ وكان سموه يرغب فى هذه الصفقة من ناحيتين : الأولى بيع تفتيش مشتهر والثانية الاشتراك مع زرفودا كى فى الأراضى التى تشترى من الوقف ؛ فطرحت المسألة على مجلس الأوقاف الأعلى وكان حسن عاصم باشا عضوا فيه بصفته رئيساً للديوان الخديوى ؛ وكان بيت زرفودا كى يقدر أرض الوقف بمبلغ مائة وثلاثين ألف جنيه وتفتيش مشتهر بمبلغ مائة وخمسين ألف جنيه ؛ ولكن حسن عاصم والشيخ المفتى طلبا العكس فى تقدير ثمنى الوقف والتفتيش وقال المفتى: « إن الأنفع للوقف فى مثل هذا إنما يعرف بتقدير الثمن لا بالغلة السنوية فلا بد من تعيين لجنة من أهل الخبرة برياسة باشمهندس الأوقاف لتقدير ثمنها وثمن أرض مشتهر. » وقرر المجلس الأعلى أن يدفع زرفودا كى مبلغ ٢٠ ألف جنيه زيادة حتى يكون ثمن التفتيش مائة وثلاثين ألف جنيه فقط فاغتاظ الخديو لذلك ، وزاد فى غضبه ما بلغه من دومرتينو باشا من أن كرومر قال إنه يحمد الله على وجود أشخاص ذوى مقدرة ونزاهة فى حاشية الخديو مثل حسن عاصم باشا ؛ ومن هذا اليوم أصبح الخديو والمتملقون فى الحاشية يتناولونه بالذم الشديد.

أما عذر حسن عاصم فى ذلك فهو أن الخديو لم يخبره برغبته حتى يعمل لتحقيقها من جهة ؛ ومن جهة أخرى فان المحتلين كانوا واقفين بالمرصاد لقرار المجلس ، ولو تم الأمر كعرض زرفودا كى ، فربما كانوا يطلبون نقضه . وهم يعتقدون فى الوقت نفسه أن الخديو يستخدم نفوذه لمصالحه الخاصة ؛ أما الآن فقد عرفوا نزاهة سموه ونزاهة رجاله ؛ ولكن هذا العذر لم يقبل لدى الخديو .

ومن هذا الوقت أحال الخديو علىّ كل الأعمال والمخابرات التى تحدث بينه وبين النظار وغيرهم .

ومما زاد العلاقات توتراً بين عباس وعاصم باشا أنه وردت برقية من الاستانة بالشفرة ، فأمر عاصم باشا بحلها ، وكان ذلك يوم الجمعة ، فبدلا من أن يذهب بها إلى السراى اكتفى بارسالها داخل ظرف للخديو ؛ فغضب سموه واستدعانى وهو محتد وقال : « كان عليه أن يرسلها مع أحد الموظفين حتى يتلقى الأوامر إذا كان هو لا يتنازل بالحضور بنفسه . » ثم أمرنى أن أتسلم أعمال القلم التركى وأعرضها على سموه ؛ فصرت أتلقى الأوامر بهذا القلم وأنفذها ؛ وأذكر أن سموه قال لى ذات يوم : « سبحان الله ؛

كان حسن باشا عاصم يريد أخذ الأشغال من يدك ، ولكنك قد أخذتها أنت منه ، ولم يبق عنده شيء يذكر . » وقد علمت أنه ذكر مثل ذلك لآخرين من رجال المعية .

ومع هذا فقد لبثت علاقاتي الودية مع عاصم باشا ؛ ولم أتجنب مقابلته أو الجلوس معه كما فعل كثيرون غيري ؛ وقد سلك احمد خيري باشا مسلكي معه .

يوسف طلعت باشا ووالده . رفع يوسف طلعت باشا شكاية من والده أحمد طلعت باشا رئيس الديوان الخديوي في عهد اسماعيل لأنه يريد حرمانه من الميراث في أمواله ، بالاتحاد مع شقيقه أحمد طلعت بك ووكيل الدائرة مختار بك ؛ وذلك بوقف أملاكه غير الموقوفة ، وإخراجه منها وإقامة أحمد طلعت بك ناظراً عليها ومن بعده شقيقة له ومن بعدها أولادها من عبد اللطيف باشا ، فكأن ثروة بيت طلعت ستنقل إلى بيت عبد اللطيف .



يوسف طلعت باشا



احمد طلعت باشا

ولما علم يوسف باشا اتحد مع شقيقته الكبرى وعزما على طلب الحجر على والدها حتى لا يتمكن من وقف أملاكه . ولما علم الخديو بذلك لم يسترح إلى فكرة الحجر لما فيها من المساس بكرامة هذه الأسرة الكبيرة .

وكلفني بالمخابرة مع المحافظ لعمل ما يلزم لحفظ أموال طلعت باشا لأبنائه مع

حفظ كرامتـه كذلك ؛ وأمر عزت بك أن يذهب للقاضي ويرجوه عدم الموافقة على الوقفية إلا بعد التحقق من وجود الباشا فى صحة تؤهله لعملها ؛ وبذلنا مسعى لدى أحمد طلعت بك لاستبدال الوكيل ، وهو صاحب فكرة الوقفيـة . ولكن هذا المسعى لم يفلح ، وانتهى الأمر بادخال يوسف طلعت باشا بالوقفية بشروط .

سفر الخديو الى أوربا ثم الاستانة وسفرى مع الحرم . سبق أن سافرت الوالدة إلى الاستانة ومعها عزت بك ، وقد انتظرنا الأخبار التى يرسلها ليتخذها الخديو أساساً لخطة سفره . والقيام بالزيارة إذا كان الجو ملائماً لها .

وفى أوائل يونيو جاءنا منه أنه حادث الباشكاتب فى شأن يالى جبوقلى ، فأخبره بأن عقود الملكية تحت يده ، ولا ينقص إلا إذن السلطان بتسليمها . وأن سبب تأخير صدور أمر السلطان هو تكدر خاطره من الخديو ، بسبب مسلك الصحف التى تصدر فى مصر نحو جلالته ، ولما بلغه من أن الخديو يقدح فى الادارة التركية بالحرمين ، ويقول بأن هناك صعوبات فى سبيل الحجاج ، وكذلك لأجل مسألة سكة حديد مريوط التى ينوى الخديو مدها وبيعها للانجليز .

فلما وردت هذه الأخبار ، سألنى سموه عن رأيى فى مسألة السفر فاستحسنت عدم زيارة الاستانة هذا العام ؛ وعلمت منه أن دولة الحرم تريد قضاء الصيف بالاسكندرية فأجبته بأن لا مانع من ذلك ، إذا وافق رأى سموه . وظننت بادىء الأمر أنه موافق على ذلك ، ثم تبينت بعدها أنه مصمم على السفر . ولكن جاءت رسالة من عزت بك يقول فيها إنه يستصوب عدم السفر للاستانة ، وأن الصدر الأعظم أفهمه ذلك وهنا قال سموه : « كيف أتأخر ، وقد علم النظار بالأمر وكذلك اللورد كرومر ؟ وفى تأخرى ما يفيد أن العلاقات بينى وبين السلطان ليست مرضية وهذا ما لا أريده بحال . » ثم كلفنى بالتفاهم مع بطرس غالى باشا فى حل مناسب دون أن يعلم بذلك أحد غيره ، فقلت لسموه : « إن الأفضل أن بطرس باشا نفسه لا يعرف فكر سموكم . » وأيدنى فى فكرتى محمود بك صادق أحد موظفى السراى . وكان حاضراً ؛ فقال الخديو : « إذاً ماذا أصنع وأنتم لا تشيرون علىّ بحل؟ » ففكرت قليلا ثم عرضت على سموه أن يقول بأن أخبار الاستانة تفيد أن جلالة الخليفة دعا أمير البلغار للزيارة ، وقد يتفق وجوده مع وجود سمو الخديو ، ويؤثره السلطان بحفاوة أكثر ، وهذا مالا يريده الجناب العالى ، ولذا عدل عن الزيارة . فاستحسن سموه هذا الحل وكلفنى باخبار رئيس النظار وبطرس باشا

فذهبت إليهما، وسألنى الرئيس عما إذا كنا قد أخبرنا يلدز بالعزم على السفر قبل الآن، لأنه لو كان الأمر كذلك فلا يحسن التخلف. فأجبته بالنفى، فوافق على الفكرة وكذلك بطرس باشا.

سفرى مع الحرم: وقد تقرر بعد ذلك أن تسافر دولة الحرم إلى الاستانة، وأن أكون برفقتها. وفى يوم ١٨ يونيو نزلنا إلى المحروسة؛ وبتنا بها وفى الصباح أقلعت بنا بعد تلقى التعليمات من الخديو؛ وخلاصتها أن المحروسة حينما تدخل الاستانة تهدىء السير أمام ضولمة بغجة، ويؤدى البحارة التحية، وإذا حضر أحد من السراى للاستقبال على زورق أو حضر زورق الوالدة، فلا تقف المحروسة بل تستمر فى السير حتى جبوقلى خوفا من أن يلدز ترسل أخيراً بعدم النزول فى اليالى والنزول فى ببك، وأمرت كذلك بأن أقابل الصدر الأعظم فريد باشا وأبلغه تحيات سموه وشكره على إحساسه نحوه.

هدية الخديو للسلطان: وأرسل الخديو معى جمجمتين للحيوان المسمى «جاموس البحر» فى صندوقين، ومنبراً مطعما على الطراز العربى، هدية من سموه للسلطان. وقال لى إنه عند سؤال تحسين بك عن السبب فى تخلفه أجيبه بأن السبب هو الدسائس الأخيرة التى كثرت ضد سموه.

سفر الخديو لأوربا، ووصولنا الاستانة: وأما سموه فقد سافر بعدنا بيوم واحد إلى ديفون لأخذ الحمامات.

وقد وصلنا إلى جناق قلعة يوم ٢٢ منه؛ وفى صباح اليوم التالى وصلنا الاستانة ومنها إلى جبوقلى، وحضر القزلر أغاسى والباشمصاحب فأبلغا دولة الحرم تحية الوصول من قبل السلطان. وبعد قليل خرجت دولتها ونزلت فى الزورق رهبر مع الأنجال إلى ببك، للسلام على الوالدة ثم عادت لجبوقلى.

وبعد الغداء توجهت مع عزت بك إلى يلدز لمقابلة تحسين بك فلم يتح لنا ذلك، مع وجوده فى غرفته، فنزلنا إلى دائرة المابين فوجدنا نورى باشا. فرجوته أن يعرض على السلطان إخلاص الخديو، ثم عدت إلى ببك وأبلغت الوالدة تقبيل الخديو ليديها.

الوالدة والحرم فى التياترو الخصوصى: وفى ٢٥ يونيو دعا السلطان الوالدة والحرم، فقابلتا جلالته وأمر لهما بدخول التياترو الخصوصى، ولكنه لم يسألهما عن الخديو إلا

عرضاً ، مما دل على تكدر خاطره بسبب الدسائس ؛ وقد كتبت الحرم بذلك خطاباً إلى عباس .

مقابلتي لتحسين بك : وفي ٢٦ منه حررت مذكرة صغيرة ، بعثت بها إلى الباشكاتب وقلت فيها : « إن حضوري للمقابلة كان لمهام رسمية لا لاحراجه بشيء . » وذلك لكي أبلغه أولا — أنني معين لمرافقة دولة الحرم . ثانياً — إبلاغ جلالة السلطان تحية الجناب العالي وإخلاصه . وثالثاً — للاتفاق معه على ما يجب إجراؤه في تقديم هدية من الخديو للسلطان .

فجاءني الرد منه بطلب المقابلة ، فقابلته يوم ٢٧ منه فاعتذر بأنه كان مشغولا ، ثم اتفق معي على إرسال الهدية في عربة إلى سراي يلدز ، ففعلت .

سفري لفينا : وفي ٨ يوليو دعيت لمقابلة الخديو في فينا ، فسافرت إليها ووصلت في العاشر منه ، فقابلته وحدثته عن الحالة في الاستانة بما تقدم ، وكان سبب استدعائي هو السفر إلى مصر لمعرفة حالة العمل في سكة حديد مريوط والأدوات اللازمة خصوصاً الفلنكات التي كان يعتزم سموه شراءها من تركيا .

رجوعي للاسكندرية : فسافرت من فينا إلى باريس ، ثم أبحرت من مرسيليا فوصلت إلى الاسكندرية يوم ١٩ بعد رحلة مكدرة فأبلغت تحية الخديو لفخري باشا نائب القائمقام ، ولبطرس غالي باشا ومظلوم باشا وعباني باشا ، وكانوا بالاسكندرية .

وقد بقيت بمصر أباشر الأعمال في سكة حديد مريوط ، وشغلتني عن كل أمر آخر ، فلم أقيد مذكراتي مدى شهر أغسطس ومنتصف سبتمبر .

رجوعي إلى فينا : وفي ١٧ سبتمبر سافرت من الاسكندرية إلى تريستا ، فوصلتها يوم ٢١ منه وقضيت بها بضع ساعات مع صديق سوسيك بك أحد موظفي المالية السابقين ، وتجولت في المدينة . ثم ركبت القطار إلى فينا فوصلتها صباح ٢٢ سبتمبر ، وتقابلت مع الخديو في الفندق ، فسألني عن نتيجة الأعمال الجارية وعن مجرى الشئون في مصر ، ومن بينها دعوة محمود فهمي باشا إلى الاحتفال يوم ٣١ أغسطس الماضي بعيد جلوس السلطان مع أنه ليس من المقيمين في الاسكندرية ، وعما إذا كان حسن عاصم هو الذي وجه إليه الدعوة لتدخله معه واتفاقه ، فأجبت سموه بأني أنا الذي دعوته على مسئوليتي ، وعندئذ قال لي سموه إذا كان الأمر كذلك فلا بأس .

وكان سمو الخديو قد كلفنى أن أقابل خيرى باشا ، وأكلمه بشدة فى شأن اتصاله بعاصم باشا ، كما بلغ الخديو ذلك ؛ وأن سموه مستاء لوجود رجال فى معيته يصاحبون من يغضب سموه عليهم .

وقد كانت مأموريتى شاقة ، لأن خيرى باشا صديق ، ولكننى تلطفت فى إبلاغه ملاحظات الخديو ، فطلب منى أن أجتهد لدى سموه فى نفى ما علق بنفسه من جهته ، وأن أذكر لجنابه أنه ليس غبياً ، حتى يميل لحسن عاصم ، ويترك الخديو صاحب الأيادى البيضاء عليه .

وقد قمت بتبليغ ذلك للخديو ، ونجحت فى تطييب خاطره من ناحية خيرى باشا .

زيارة الخديو للغازى مختار باشا : وفى ٢٣ سبتمبر أرسل الغازى احمد مختار باشا — وكان وقتئذ فى فينا — بطاقة كتب عليها أنه طريح الفراش ، فهو يتأسف لعدم تمكنه من زيارة سموه .

وعندئذ أوفدنى الخديو إليه للسؤال عنه ، وقال لى : « إنه إذا كان الغازى مريضاً حقيقة ، فانى أتوجه لزيارته . »

وقد ذهبت إلى الغازى ، فوجدته مريضاً طريح الفراش ؛ ولما أخبرت الخديو بعد رجوعى قام بزيارته ، وأنا بصحبته ؛ وقد تأثر لحالة الغازى وأظهر عطفه عليه ، فقبل دولته هذا العطف بالشكر .

وقد مكث معه نحو نصف ساعة ، وأخبره بأنه سيصحب معه إلى الاستانة بطرس غالى باشا ، وكان قد حضر إلى فينا صباح اليوم .

وكان الغرض من إخباره أن يبلغ المابين بذلك أن يكون معلوماً للسلطان أن بطرس باشا سيكون بمعية الخديو ؛ وكانت هذه هى أول مرة يصحبه فيها للاستانة .

سفر الخديو للاستانة : وكان سموه قد استدعى عزت بك من الاستانة إلى فينا فى أثناء غيابى ، ثم كلفه عند عودته أن يراقب الحالة ، ويفيده عما إذا كان الجو مناسباً للزيارة . وبعد رجوعه بعث برسالة يقول فيها بأنه لا مانع من الزيارة ، وأنه تفاهم مع الصدر الأعظم والباشكاتب فى ذلك .

وفى يوم ٢٥ سبتمبر ، ركب الخديو قطار العصر إلى بودابست ؛ وأرسل إلى

قنصل جنرال الدولة فى بودابست برقيـة يرجوه أن يبقى فى القنصلية مساء ، حتى يقوم بالتأشير على جوازات السفر ، ثم أرسلت إليه الجوازات .

رسالة ودية من ملك الانجليز للخديو : وفى أثنـاء الطريق أخبرنى الخـديو أنه كان قد كتب رسالة للملك الانجليز ، فجاءه رد رقيق ، وفى ديباجته : « صديقى العزيز » ، وقال جنابه : « إن هذا شيء يدعو للألفة التى يعمل لها الانجليز . » وكان يلوح عليـه السرور وهو يحدثنى بذلك ، وقال : « إنهم حقيقة يبذلون الجهد فى اجتذابى إليهم . »

الوصول للاستانة : وصلنا إلى الاستانة يوم ٢٧ قبيل الظهر ، وكان على المحطة ابراهيم باشا التشريفاتى والفريق حسنى باشا ، من قبل السلطان ، وعزت بك وقومندان المحروسـة وكاوتسكى بك وغـيرهم . فركبنا العربات إلى يلدز ، وكان بانتظارنا فى « شاليه كشك » الحاج على باشا الباشمابينجى وسعيد باشا رئيس شورى الدولة ، وقد جلس أمام سموه على المائدة .

الخديو والمعية فى حضرة السلطان : وبعد الغداء طلب الخديو لمقابلة السلطان ، ومكث عنده ثلاثة أرباع الساعة ، وخرج مسروراً من حسن استقبال جلالته لسموه وحفاوته به .

ثم طلب السلطان تقديم الحاشـية ، فدخل ثانية وقدم بطرس باشا قائلا إنه من عبيد مولانا المخلصين . فقال السلطان لبطرس باشا : « إننى سمعت بمدحك وممتن من زيارتك للاسـتانة . » ثم قدمنـا أنا واحمد زكى باشا السر تشريفاتى وعزت بك ، فقبلنا الأعتاب .

وبعد ذلك خرجنـا إلى ببك ، وقد أمرنى الخـديو أن أبقى فيـه للمبيت مع بطرس باشا ، وعاد هو والمعية إلى جبوقلى ، بعد أن شكر ابراهيم باشا ؛ وقال إن وجوده فى استقباله دليل رضاء السلطان .

حديث السلطان والخديو فى هذه الزيارة : وقد علمت من الجنـاب العـالى أن السلطان تحادث معه فى مسألة مقدونيا ، وأن الثوار بها أخذوا يتحركون بتشجيع بلغاريا ، وأن هذه الدولة تستعد خفية للقتـال ، فتشترى المدافع السريعة وغيرها ، ولـكن الدولة واقفة على حركاتها وتدابيرها ، وتتخذ احتياطاتهـا لكل الطوارىء ، وتشترى السـلاح والذخيرة . وقال السلطان أيضاً إنه أوصى على جملة مراكب « طوربيدو » ؛ لأن المراكب الـكبيرة لا تنفع فى الحرب مثل الخفيفة السريعة ، كما تبين من الحروب الأخيرة .

وتكلم مع سموه أيضاً فى مسألة موت السلطان مراد ، ودحض ما قيل من أنه توفى مسموما ، وأنكر كل ما أذيع عن سوء معاملته له ، وبالاختصار تبرأ من كل ما نسب إليه فى ذلك .

وفى صباح ٢٩ منه أرسل السلطان ابراهيم باشا للسؤال عن الخديو ؛ وحدث التزاور كالمعتاد بين سموه والسفراء .

الانعام على كريمتى الخديو : وفى ٣٠ منه كانت دولة الحرم مدعوة للسراى ، وقد ذهبت معها الأميرتان عطية الله هانم وفتحية هانم كريمتا الخديو بناء على رغبة السلطان ، فأنعم على كل منهما بنيشان شفقت من الدرجة الأولى ؛ ولم يرض الخديو أن يرسل ولى العهد ، لأنه لا يرغب أن يمنح شيئاً وهو صغير لئلا يتوهم أنه أصبح عظيما ، فيأخذه الغرور .

مأدبة عشاء فى يلدز : وفى أول أكتوبر دعى الخديو إلى مأدبة عشاء فى يلدز ومعه بطرس غالى باشا واحمد زكى باشا وعزت بك وأنا ، فتوجهنا بالكساوى والتشريفة والنياشين إلى كشك شاليه ؛ فدخل الخديو لدى الخليفة ؛ ووقف كل منا أمام كرسيه حتى حضر السلطان والخديو ، فجلس عن يمين جلالته والصدر عن يساره ، ودعى رئيس شورى الدولة ومستشار الصدارة والحاج على باشا وعزت باشا ونورى باشا وتحسين بك وفائق باشا الميراخور وقائمقام بحرى أمريكى الجنس ورجال التشريفات ؛ وكانت الموسيقى تعزف أثناء الطعام وبعده .

وقد لاحظت فى هذه المأدبة أن غطاء المائدة والمناشف والفوط ، لم تكن مكوية ، وبها بعض القذر ، وأن بعض الشوك والملاعق اعتراها شىء من الصدأ ؛ وكان الطعام عادياً غير معتنى باعداده ؛ وعند الخروج قال السلطان للخديو إنه سيدعوه إلى التياترو غداً . وفى ٧ منه سيعمل له استعراض للجيش التركى ؛ ولما كان سموه ينوى السفر يوم ٥ منه فقد تكدر لذلك واحمر وجهه .

بين بطرس باشا وناظر خارجية الدولة : وتحادث بطرس باشا مع الصدر فريد باشا وناظر الخارجية ، وفى أثناء حديثه مع الأخير ، سأله بطرس باشا عما إذا كان قد زار مصر فقال الناظر : « إننى أمضيت عمرى فى السفارات الاوربية ولم أعرف آسيا . » كأنه يحسب أن مصر فى آسيا !

مأدبة ثانية فى يلدز ومشاهدة التياترو : وفى ٣ اكتوبر دعينا لمأدبة فى السراى وبعدها دعينا للتياترو ؛ ثم خرج الخديو فجلس مع الصدر ؛ وحادثه الصدر فى أنه عمل كل ما يجب لتصفية العلاقات بين جلالة الخليفة وبين سموه ؛ فشكره على حسن مسعاه. ثم حضر ابراهيم باشا وسأل الخديوعما يريد أن ينعم به السلطان على رجال معيته ، لأن ذلك من حق جنابه ؛ فطلب المجيدى المرصع لمصطفى فهمى باشا وبطرس غالى باشا ، والجران كوردون مجيدى لأحمد زكى باشا ولعزت بك ولى ؛ وطلب ثمانين مدالية فضية وعشر مداليات ذهبية لبحارة المحروسة .

فذهب الصدر للخليفة ، ثم عاد فأعلن موافقة جلالته على هذا الطلب ، وصدور أمره بهذه الانعامات .

وشاية ضد الباشكاتب : وفى صباح اليوم التالى توجهت بناء على طلب الباشكاتب فقال لى : « إن السلطان متكدر جداً لما بلغه من أحد الواشين أنى لم أقابلكم مقابلة حسنة وأنى رفضت رؤيتكم ؛ فأرسلت لك اليوم لأعاتبك على ذلك . » فأكدت له أنه لم تصدر منى أية شكوى فى حقه ، وطلبت منه عرض ذلك على السلطان . وبالفعل توجه ، وبعد ساعتين عاد فقال لى : « إن الخليفة لم يصدقنى فأرجوك أن تكتب معلوماتك فى هذا الموضوع . وقد فهمت من حديثه أن الذى ألقى هذه الوشاية هو حسنى باشا مهمندار الخديو ، وكنت أعلم أن الخديو ميال إلى تغييره فقلت لتحسين بك : « ولماذا لم تعينوا بدله فى مهمته . » فقال: « لأنه تعرف بالخديو وربما لا يود سموه تغييره . » فأجبته : « ما دام قد تحقق لكم كذبه فلا داعى لوجوده حتى تنقطع الدسائس . »

وكتبت مذكرة قصيرة تتلخص فى : « أننى لما حضرت للاستانة فى معية الحرم الخديوى لم أحضر عند الباشكاتب إلا مرتين : الأولى ، كان دولته فيها مشغولا فلم أتمكن من لقائه . وفى الثانية قابلنى بلطف وإننى أعترف بأنى لم أجد من دولته إلا كل معاملة حسنة . »

وقد ترجم هذه المذكرة بالتركية وأبدى لى سروره وارتياحه ، وتوجه للعرض على السلطان وبعث لى بأن لا داعى للانتظار .

ثم أخذت النياشين والمداليات وذهبت بعد أن أعطيت — كالأمر — الخدم الذين حملوها مكافأة ، وعدت إلى الخديو فحدثته بما جرى فاستغرب هو وبطرس باشا من أن الباشكاتب مع مكانته السامية فى المابين يحتاج لمثل هذه الشهادة لدى الخليفة .

مأدبة الوداع وهدية السلطان للخديو : وفى اليوم الخامس من اكتوبر ذهبنا إلى يلدز للوداع وحضرنا مأدبة للغداء ، وقد أهدى السلطان للخديو أزرارا للقميص من البرلنت وأهدى إلى بطرس باشا علبة سجاير من الذهب نقش عليها بالبرلنت الحرفان « ع . ح » بشكل زخرفى رمزاً لاسم عبد الحميد ، فجهر بالدعاء لجلالته . وتحدث الخديو مع السلطان فى مسألة دير الأقباط بالقدس وهى مسألة تهم بطرس باشا ، ولما خرج أخبره بذلك ، وبأن الخليفة وعده بأنه سيكون دائما مع الأقباط فشكر لجلالته ذلك العطف .

العودة إلى مصر : وبعد ذلك رجعنا إلى جبوقلى ثم ركبنا المحروسة عائدين إلى مصر فوصلنا الاسكندرية فى صباح ٨ اكتوبر .

وقد كان فى الاستقبال فخرى باشا وعبانى باشا وابراهيم فؤاد باشا والمحافظ محمود صدقى باشا .

علاقات الخديو مع الانجليز . أسرعت المحروســـة فى السير بين رودس والاسكندرية بناء على نصح بطرس باشا للخديو ، وذلك بقصد الوصول الى مصر قبل مصطفى فهمى باشا — وكان عندئذ فى طريق العودة من أوربا الى مصر — حتى يستطيع بطرس باشا أن يقابل اللورد كرومر قبل رئيس النظار ، لأنه كما قال بالنص يريد أن « يوضبه حسب المرغوب . » ولما حضر مصطفى فهمى باشا يوم ١٠ اكتوبر قابل الخديو فابلغه إنعام السلطان عليه بالمجيدى المرصع ، ثم أخبره بأنه ، أى سموه ، غاضب على مصطفى كامل باشا لطعنه الجارح على الحكومة ، وزاد بأنه لا يزال يذكر الحفاوة التى لقيها فى لندره ، وأنه سيزورها كل عام . فخرج وهو مسرور بحديث الخديو .

وكان ذلك كله بقصد أن يبلغ رئيس النظار هذا الكلام إلى اللورد عندما يقابله ؛ وفى ١١ اكتوبر عاد بطرس باشا من القـاهرة وقص علينـا نبأ مقابلتـه للورد ، وأنه حكى له ما حدث فى الاستانة أثناء زيارة الخديو ، والاستقبال الفخم الذى لقيه والانعام عليه هو ورئيس النظار وهدية السلطان له قال : « وكنت أتوقع أن يغضب اللورد لذلك . ولكنى على العكس وجدت منه ارتياحاً للحديث . » ثم قال : « إن مصطفى فهمى باشا أبلغ اللورد حديث الخديو فسر منه . وبالأخص لما علم من سخطه على مصطفى كامل ؛ ولكن قال له اللورد إنه علم أن الخديو لا يعود للقاهرة إلا فى منتصف نوفمبر ، وربما أول الناس ذلك بأن سموه لا يرغب حضور استعراض الجيش الانجليزى يوم ٩ نوفمبر لمناسبة عيد ميلاد الملك . » وبعد المباحثة فى هذا الموضوع تقرر أن يرجع الخديو قبل الاستعراض ،

وأن يطل من شرفة عابدين كما كان يفعل والده .

بين الخديو وكرومر : وفى ١٢ منه جاءت برقية من اللورد كرومر يطلب موعداً للمقابلة ، فعرضت على سموه أن يدعوه للغداء يوم حضوره فوافق ، وبذلك كتب له زكى باشا برقيـة بأنه مخير فى الحضور يوم ١٥ اكتوبر أو يوم ١٧ منـه ، وأنه مدعو للغداء مع الجناب العـالى فجاء منه الرد بالشكر والقبول وأنه سيحضر يوم ١٧ منه على أن يعود فى نفس اليوم .

وفى اليوم المذكـور حضر اللورد وكنت فى الانتظار مع زكى باشا فى محطة سيدى جابر . وحضر مستر جولد قنصل انجلترا بالاسكندرية ؛ وقد ركب اللورد معنا فى القطار الخديوى الخاص بعد أن قدمنى زكى باشا له ولبثنا نتحدث حتى وصلنا المنتزه ، وكان الخديو بالسلاملك عنـد وصولنا فصافح اللورد باشاً . وبعد الاستراحة تناولنا طعام الغـداء ثم اختليا مدة سـاعة ؛ وعلمنا أن الحديث دار فيهـا حول زيارة الخديو للاستانة والحفاوة التى لقيها ؛ وبعد ذلك ركبا عربة وطافا ببعض جهات المنتزه وبعض أراضى التفتيش ؛ وقد سر اللورد من هذه الرياضة . وقال : « الآن علمت لماذا يحب الخديو الاقامة فى الاسكندرية . »

وأخيراً استأذن شاكراً وودعه فى المحطة دومرتينو باشا .

مسألة استعراض الجيش الانجليزى : وفى ٢ نوفمـبر تقـابلت مع بطرس باشا فحدثنى فى مسألة حضور الخـديو للاستعراض وأخبرنى بأن اللورد اتفق مع قومندان الجيش الانجليزى على أن يحضر سموه فى ساحة عابدين يوم ٩ نوفمبر عيد الملك ، ويستعرض الجيش أمامه ثم ينزل من عربته ويقف بجوار العـلم الانجليزى ؛ وعندما تنتهى الحفلة الرسمية يركب الخديو جواده ويمر على الجنود فتحييه بالسلام الخديوى . ثم يعود إلى جوار اللورد كرومر تحت العلم وتستعرض الجنود أمامه مرة أخرى وأخيراً تتقدم الجنود صفاً واحداً وتعزف السلام الملكى ثم السلام الخديوى .

وقد سألته : « ولـكن الخديو بنـاء على ذلك سيقف تحت العـلم الانجليزى وهو مالا تخفى دلالته . » فهز كتفيه وسكت .

ولمـا أخبرت الخديو بهـذا الترتيب فـكر برهة ثم قال بدون ارتياح : « طيب النزول من السراى والوقوف بجانب العلم أخف من رفع العـلم على عابدين . » فقلت لسموه : « إن بطرس باشا لمـا يعلمه من عدم استحسان سموكم الوقوف فى الشرفة لأنه

لامعنى له رأى أن الترتيب الأخير أفضل وربما أنه هو الذى أوعز به .» فقال: «ولكنى عندما أقابله سأقول له إنه هو الذى خسر المسألة !»

ولكن جنابه عاد فى ٣ نوفمبر فقال لى إنه بعد التروى رأى أن عمله سيكون موضع انتقاد من الشعب إذ سيقول عنه إنه صار انجليزياً ، ولا سيما بعد سوء التفاهم بينه وبين مصطفى كامل باشا ، وطلب منى أن أطلب بطرس باشا لمقابلته عند حضوره للاسكندرية .

وفى ٦ منه حضر بطرس باشا ، فقابلته على المحطة ، وفى الطريق حدثته عن أفكار الخديو . فقال إنه لم يكن ينتظر أن يهتم الانجليز إلى هذا الحد بمسألة وجود الخديو فى الاستعراض ، لأن اللورد أخبره أنه استأذن جلالة الملك فى أن يأخذ الضباط السلام للجناب الخديوى فأذن ؛ ثم قال : «ومع ذلك فاذا أراد سموه الوقوف فى الشرفة فقط فلا مانع ؛ ولكن كرومر لايستحسن ذلك بعد ما تقرر .» ثم فكر برهة وقال : «وهذا هو الذى كان يريده مصطفى فهمى باشا منذ أعوام فلم يحصل عليه ؛ وما دامت المسألة قد وصلت إلى هذا الحد فلنعمل ذلك اليوم مختارين قبل أن نعمله غداً مرغمين ؛ وإذا أراد الخديو فى المستقبل أن يغير خطته فلا مانع عند اللزوم .»

واختلى بطرس باشا بالخديو نحو ساعة وبعد خروجه سألته عما تم فقال لى : «لقد استحسن الخديو كل شيء .»

وعدنا إلى القاهرة يوم ٨ منه وفى يوم ٩ حصل الاستعراض فى الساعة التاسعة والنصف صباحاً فى ميدان عابدين على التفصيل المتقدم .

وكان هذا أول حادث من نوعه فى عهد الخديو عباس حلمى .

تدخل الانجليز فى مسألة أمير الحج : وكان سموه قد كلفنى بمقابلة بطرس غالى باشا ليتحدث مع كرومر فى أن جنابه يرغب فى تعيين محمود حسنى بك — وهو بالمعاش — أميراً للحج هذا العام ، وأنه تكلم مع السردار فى ذلك فوافق . ولما قابلت بطرس باشا علمت منه أن اللورد يرغب أن يكون أمير الحج عارفاً باللغة التركية ليستطيع التفاهم مع السلطات فى الحجاز اتقاء للشاكل ، وطلب منى أن أقابل محمود بك حسنى لأعلم ما إذا كان يعرف التركية ، وعما إذا كان أصله تركياً فقابلته وعلمت منه أن معرفته بها قليلة وأن أصله من الأكراد .

فأخبرت بطرس باشا بذلك فسألني عما إذا كنت أعرف رجلا مستكملا هـذه الشروط فذكرت اسم محمود فهمي باشا فوافق عليـه وأردفه باسم محمود شكري باشا ، وبعـد ذلك عرضت على الخـديو ما حصـل فوافق على أن يكون محمود فهمي باشا مع محمود حسني بك وقد ذهبت لاخبـار الباشا بذلك فقبـل شاكراً ، وتم تعيينهما الأول أميناً للصرة والثاني أميراً للحج .

تركيا والحدود الغربية . وبعد ذلك أرسلني الخديو إلى بطرس باشا لأخبره أنه بينما كان سموه فى سيدى عبد الرحمن القريبة من مرسى مطروح ، حضر عنده المأمور وأخبره أن الأتراك بنوا فى السلوم التابعـة لمصر مخزنين للمؤن بحجة أنه يصعب عليهم أن يصعدوا بها على الجبـل المشرف على الميناء حيث تقع النقطة التركية ، وأن مأمور العشور التركى نزل فى الأراضى المصرية على بعد يوم ونصف من هذا الجبل الذى يعتبر حداً فاصلا بين مصر وطرابلس وجبى العشور من العربان مع أنهم فى أرض مصرية.

وأمرني سموه أن أعطى مذكرة بذلك لبطرس باشا ليخابر اللورد كرومر فيها وأن رأى سموه أن ترسل مراكب تابعة لخفر السواحل لاحتلال بنـاء السلوم ، وأن ينبه على سفن خفر السواحل بزيادة المرور على الميناء المذكورة ، وأن تقام نقطة مصرية على مسافة يومين من مرسى مطروح تتألف من ملازم ثان وستة عساكر قبل أن يضع الأتراك يدهم على هذه الأراضى ، لأنهم يعتبرون أن الحدود هى فى أم الرخم التى لاتبعد عن مرسى مطروح بأكثر من ثلاث ساعات بالهجين ، فمن اللازم الاسراع بعمـل الاحتياطات لحفظ حقوق مصر ، ولو أخذت الدولة السلوم لخسرت مصر ميناء حربية هامة ، هذا فضلا عن أنها أقرب طريق إلى واحة سيوه .

واقترح سموه إرسال هنتر باشا مدير عموم خفر السواحل والقائمقام دومريكر لعمل مشروع للحدود ، يرسل لـكرومر بعد الاتفاق عليه .

وقد تقابل بطرس باشا مع اللورد وحدثه فى ذلك فشكر الجنـاب الخـديوى ، ووافق على ذلك .

ثم أبلغني بطرس باشا أن الحكومة المصرية احتجت لدى تركيـا على هذا الاعتـداء ، وأن كرومر أوعز إلى سـفير انجلترا فى الاستانة بالاحتجاج لأن الضابط العثماني قال للمندوبين المصريين إنه عمـل ذلك بنـاء على أوامر الدولة غير أن مصر احتلت أرضها .

قطع العلاقات بين مصطفى كامل وعباس . كانت أسباب الخلاف تشتد بين الخديو ومصطفى كامل شيئاً فشيئاً (١) . ولما ثارت قضية زواج صاحب المؤيد ، وعمل الخديو لتأييده من وراء الستار ، زاد نفور مصطفى كامل من خطة الخديو . فلما سافر سموه إلى ديفون هذا العام زاره هنالك مصطفى كامل ، وصارحه برأيه فى مضار هذه الخطة ، وبين له أن الرأى العام لا يعطف على الشيخ ، ثم حدثه فى أمور أخرى من هذا القبيل وكان حديثه للخديو بلهجة شديدة ، فغضب الخديو وغضب مصطفى كامل أيضاً . فلما عاد الثانى إلى مصر ، اعتزم قطع العلاقات بينه وبين الخديو فأرسل لى الخطاب التالى لتسليمه للخديو (٢) :

« مولاى . تشرفت فى ديفون بالمثول بين يدى سموكم يوم ٢٧ أغسطس الماضى ورفعت إلى مقامكم السامى أن الحالة السياسية الحاضرة تقضى على بأن أكون بعيداً عن فخامتكم وأن أتحمل وحدى مسئولية الخطة التى اتبعتها نحو الاحتلال والمحتلين منعاً لتكدير خاطركم الشريف ودفعاً لما عساه يقع من الخلاف والنزاع وقد رأيت يامولاى بعد التفكير أنه صار من المحتم على القيام بهذا الواجب وأنه أول عمل يلزمنى تاديته عقب عودتى إلى الوطن العزيز لأن الانجليز أظهروا فى خلال السنوات الأخيرة من التضييق على جنابكم العالى ما يجعل وجود رجل ينتقد سياستهم فى الصباح والمساء بجانب سموكم داعياً لاعتدائهم على حقوق ذاتكم السنية وحجة لتداخل جديد غير محمود .

وإنى ، بعد أن رأيت احتجاجهم على جنابكم الرفيع بمناسبة المقابلة التى تفضلت جلالة ملكة البرتغال بمنحى إياها ، ومعارضتهم العنيفة لفخامتكم بسبب الاستقبال الودى الذى نالته مدام جولييت آدام من لدنكم ، وتصريحهم بأن انجلترا لا تسمح لجنابكم العالى باكرام من يعاديها ، وادعائهم بأن كل ما يكتب أو يقال ضدهم موعز به من سموكم ، أعد نفسى مقصراً تقصيراً حقيقياً فى تأدية الواجب نحو مقامكم الرفيع إذا بقيت صلتى بسموكم على حالها وفضيلة نعمة التقرب منكم على القيام بواجب تدعو اليه الوطنية والسياسة .

وإنى أرجو أن يعتقد مولاى ، حفظه الله ، أنى لم أقصد إلا محض خدمته بما قلته لسموه بشأن أولئك المفسدين الذين يلتصقون بالمعية ويضرون بها أكثر من أعدائها

(١) انظر صفحة ٣٤٧

(٢) وقد دامت الحال على ذلك حتى كانت سنة ١٩٠٦ حيث وقعت حادثة دنشواى فرجعت الصلات بينهما بوساطتى .

الظاهرين ويدخلون اسمكم الكريم فى كل حادث غير حاسبين للرأى العام حسابا غير ذاكرين أن عرش الخديوية هو البقية العزيزة لاستقلال البلاد وأنه يجب أن يكون على الدوام محاطا بالاحترام التام والاجلال التام ليقاوم القوتين المحاربتين له ألا وهما الاحتلال والزمان .

وإنه يحلو لى أن أبقى إلى آخر لحظة من حياتى خادما لتلك المبادىء الوطنية العالية التى كنتم سموكم أول الداعين اليها والمنادين بها وأن تزداد كل يوم اتساعا الهوة التى بينى وبين الذين ادعوا خدمة الوطن ليخدموا مصالحهم ثم انقلبوا عليه بلا خجل ولا حياء . وإنى أتشرف ياMولاى بأن أرفع إلى سدتكم العلية واجبات الشكران على جليل التفاتكم وسامى رعايتكم وأقدم إلى المقام الرفيع أسمى ما يليق من التجلة والاعظام .

مصر فى ٢٤ اكتوبر سنة ١٩٠٤ — مصطفى كامل

قضية زواج صاحب المؤيد . كان من أهم حوادث هذا العام قضية زواج صاحب المؤيد . فى آخر ربيع الثانى سنة ١٣٢٢ عقد عقد السيدة صفية السادات على الشيخ على يوسف بسراى الخرنفش بمنزل السيد محمد توفيق البكرى وتولى الوكالة عن الزوجة الشيخ حسن السقا ؛ فلما علم والدها السيد عبد الخالق السادات بذلك ، رفع دعوى بالتفرقة بين كريمته والشيخ على يوسف بعدم أهليته لها ؛ وتحدد لذلك جلسة ٢٥ يوليو بمحكمة مصر الشرعية ، ورأس الجلسة فضيلة الشيخ احمد أبى خطوة وحضر عن الشيخ على يوسف ، حسن بك صبرى المحامى ، وعن زوجه ، الشيخ محمد عز العرب بك ؛ وحضر عن السيد عبد الخالق السادات ، الشيخ عثمان الفندى .



السيد عبد الخالق السادات

وفى هذه الجلسة قضت المحكمة بالحيلولة بين الزوجين فاحتجت السيدة صفية على ذلك بعريضة أرسلتها لقاضى قضاة مصر ، وأرسلت صورة منها إلى ناظر الحقانية وفيها تقول : « إنها لا يمكن أن تقبل

تنفيذ حكم الحيلولة لبلوغها سن الرشد ، ولأنها تزوجت من الشيخ على باختيارها وكفاءتها. »

وفى ٢٧ يوليو صدر قرار المحكمة بوقف السير فى الدعوى حتى ينفذ أمر الحيلولة السابق صدوره .

وتوجهت السيدة صفية إلى منزل الشيخ الرافعى ؛ وفى الوقت نفسه طلب الشيخ على منه أن يتوسط لدى زوجته بالعودة إلى منزل والدها ؛ ولكنها أبت ذلك رغم ماعرضه الشيخ الرافعى من أنه سيتوجه معها بمرافقة شيخ الأزهر والمفتى والشيخ حسونة النواوى ليضمنوا لها الراحة عند والدها .

فلم ترض بذلك قائلة إن والدها بعد أن قبل مكثها عند الشيخ الرافعى أشاع أنه لم يوافق على ذلك .

وفى ٢٨ منه اجتمع وكيل الحقانية وعثمان بك مرتضى والشيخ محمد بخيت والشيخ احمد أبو خطوة وقرروا تعديل قرار الحيلولة من ضرورة إرسالها عند والدها إلى إبقائها مع الحيلولة عند رجل مؤتمن ؛ وحيث إن الشيخ الرافعى الذى هى عنده رجل مأمون ؛ لهذا لم يروا مانعاً من بقائها طرفه . وبهذا حل الاشكال .

وكان يوم أول أغسطس محدداً للسير فى الدعوى فعقدت الجلسة برياسة الشيخ احمد أبى خطوة ؛ وترافع الخصوم وكان النزاع قائماً فى هذه الجلسة على كفاءة المتداعين حتى يكون الزواج صحيحاً ، أو عدم كفاءة الشيخ على يوسف حتى يكون فاسداً ، وقررت المحكمة تكليف كل من المدعى والشيخ المدعى عليه . أن يثبتا بالطريق الشرعى ما يدعيانه فقرر وكيل المدعى عليه أن اسم موكله مقيد بدفاتر الاستحقاق فى أوقاف نقابة الأشراف فى سنة ١٨٩٧ ، ثم تأجلت الجلسة بعد ذلك الى ٦ أغسطس ، لسؤال السيد على الببلاوى عن أساس قيد الشيخ على يوسف بدفاتر الأشراف .

وفى جلسة ٨ أغسطس حضر نقيب الأشراف بسوهاج ، وقرر أن الشيخ على يوسف شريف علوىّ ينتهى نسبه إلى سيدنا ومولانا أبى عبد الله الحسين ، وقال إنه عرف ذلك البيت من الشهرة العامة .

وأخيراً تقرر تأجيل الجلسة إلى ١١ أغسطس للتأمل وتقرير ما يرى ، وفى هذه الأثناء ردد كثير من الصحف بأن الشيخ على يوسف والشيخ الرافعى لا ينفذان قرار الحيلولة وأن الشيخ على يتوجه فى ساعة متأخرة من الليل لمنزل الشيخ الرافعى ويخرج منه فى الصباح المبكر ، وأن الملابس تؤخذ يومياً من منزل الشيخ الرافعى ويستحضر

بدلها من منزل الشيخ على ؛ وقد كتب وكيل السيد السادات خطاباً بهذا المعنى للشيخ الرافعى ، فاغتاظ الشيخ لذلك وثار ، وبلغ السيدة صفية ذلك فتأثرت وعوّلت على الخروج ؛ فكتب الشيخ إلى قاضى مصر الكتاب الآتى : « همت السيدة صفية بالخروج من المنزل فدافعتها ، ولكنها مصممة على الخروج متى تمكنت من ذلك ؛ وبما أنه لا يمكننى إقامة الحيلولة فأطلب من سماحة القاضى أخذها من منزلى . »

وفى جلسة ١١ منه صدر الحكم ببطلان عقد الزواج لأسباب ذكرت فى حيثيات الحكم ، أهمها قيمة نسب الشيخ على يوسف ، والفارق بينه وبين السيد عبد الخالق السادات من حيث المنزلة .

ولما كان السيد عبد الخالق السادات يركن فى هذه المسألة إلى الشيخ راضى الكبير توصل الشيخ على يوسف إلى استرضاء الأخير حتى أقنع الأول بقبول العقد ثانية للشيخ على يوسف على السيدة صفية السادات وقد تم ذلك .

قاضى مصر التركى وديوان الأوقاف . كان قد وقع خلاف بين قاضى مصر التركى وديوان الأوقاف لأنه قرر فى جلسة المجلس الأعلى محاسبة نظار الأوقاف فرأت المحكمة الشرعية أن ذلك من حقها فكتب القاضى إعلانا فى الوقائع الرسمية بأن نظار الأوقاف الخيرية والأهلية عليهم أن يقدموا الحساب فى آخر العام الهجرى لقاضى افندى فتدخلت الحكومة وكرومر فى المسألة خشية أن يعتبر القاضى حكومة داخل حكومة ، ولأنه ادعى أن له الولاية العامة الشرعية فى مصر ؛ وأرسل الخديو عزت بك إلى القاضى فأقنعه بسحب إعلانه ، ووعده بأن ينظر سموه فى الأمر ويسويه على ما يرضيه ، فقبل وكتب إعلانا آخر يسحب به إعلانه الأول فى ٢١ نوفمبر .

وفى هذه الأثناء أراد القاضى أن يقدم استقالته ، وكان فى عزم الحكومة واللورد كرومر قبولها وانتهاز هذه الفرصة لتغيير التقليد المتبع ، وتعيين قاض مصرى بدله ، وخوطب الخديو فى ذلك فقال إنه يرشح الشيخ حسونة النواوى ، فقيل له إن الشيخ عبد القادر الرافعى أهل لهذا المنصب فقال سموه نعم ولكن بعد الشيخ حسونة .

ولما رأى القاضى هذا الجو لم يقدم استقالته واكتفى بسحب إعلانه .

وقد أوقعت الحكومة مسئولية هذا العمل على الشيخ محمد بخيت . لأنه عاون القاضى فى إعلانه الأول ، فاتفق الرأى على فصله ، وأقنع بطرس اللورد بذلك فوافق

عليه ؛ وكان فى هذا إرضاء للخديو وقد كان يسخط على الشيخ بخيت لأنه كان المحرك لمسألة الشيخ على يوسف وزواجه بنت السادات بحجة أنه ليس أهلا لها رغم علمه بأنه من رجال الخديو .

تعيينى رئيساً للديوانين العربى والافرنجى . فى ٢٧ ديسمبر حضر إلىّ زكى باشا وأخبرنى أن الخديو عازم على إحالة حسن عاصم باشا إلى المعاش فى هذا اليوم ، وأنه يأمرنى مع عزت بك أن نبحث عما إذا كان من المعتاد فى مثل هذه الحالة أن يصدر أمر عال أو لا .

وقد اتضح لى أنه لابد من الأمر فأخبرت زكى باشا بذلك وعرضه على الخديو ؛ وبعد الافطار بسراى القبة — وكنا فى رمضان وكان عاصم باشا ضمن الموجودين — أحضر الخديو حمزة بك رئيس القلم العربى وأعطاه الأمر بالاحالة وكان من إملاء بطرس باشا وأرسل لحسن عاصم باشا بعد عوده لمنزله ، وهومختصر وجاف وفيه يقول الخديو مامخلصه : « اقتضت إرادتنا إحالة سعادتكم على المعاش ولذا لزم إخطاركم بذلك .» وكان هذا نتيجة لما كان منه فى نفس الخديو منذ مسألة تفتيش مشتهر وما ترتب عليها .

وبهذه المناسبة أذكر أن عباساً عندما كان يأمر بفصل أحد الموظفين اعتاد أن يقول لرئيس القلم العربى: « طرطره » .

وقد دافعت جريدتا اللواء والأهرام دفاعاً شديداً عن حسن عاصم باشا وعرّضتا بالخديو فى مطامعه المالية التى هى سبب غضبه عليه .

وظل منصب عاصم باشا خالياً حتى يوم ٣١ ديسمبر ، حيث حضر إلىّ زكى باشا وأخبرنى أن الخديو — بعد مخابرات بينه وبين بطرس باشا — عزم على إسناد منصب رئيس الديوانين العربى والافرنجى إلىّ وأن يعطى لعزت بك منصب رئيس الديوان التركى .

ولم يبارح الخديو سراى عابدين فى هذا اليوم حتى وقع الأمر بتعيينى وتعيين عزت بك رئيساً للديوان التركى . وهذا نص الأمر الذى صدر بتعيينى : « سعادتلو أحمد شفيق بك — بناء على ما نعهده فيكم من الصداقة وحسن الادارة والدراية اقتضت إرادتنا تعيينكم رئيساً لديوانينا الأفرنجى والعربى ابتداء من أول يناير سنة ١٩٠٥ وأصدرنا أمرنا هذا لتباشروا أعمال وظيفتكم بالهمة والنشاط . »

سنة ١٩٠٥

الخديو وأصحاب المقطم . الدسائس فى الأزهر أيضا . السير ارنست كاسل فى مصر . شركة للزبرجد والنحاس . لجنة الاحتفالات الخديوية . غارة تعمل على استمالة عباس . رحلة الخديو للاستانة وأوربا . وفاة الشيخ محمد عبده . الخديو وحسن عاصم باشا . بعد العودة . قاضى مصر وطلبه السفر للاستانة . منصب القبوكتخدا . تعيين مفتٍ جديد .

الخديو وأصحاب المقطم . فى ٢١ يناير جاءنى الدكتور فارس نمر أحد أصحاب المقطم ثم قابلنى مصطفى فهمى باشا ، وطلب منى كلاهما أن أرسل إلى المطبعة الأميرية بألا تنشر إنعام الخديو على فارس نمر برتبة المتمايز . وقد صرحا لى بأن الغرض هو بقاء أصحاب المقطم أحراراً غير مقيدين بجهة معينة ، وربما كان السبب الحقيقى هو استصغار شأن هذه الرتبة . وبناء على ذلك أرسلت إلى المطبعة بعدم ذكر اسمه فى كشف اليوم .

وفى ٢٣ منه تحادث مصطفى فهمى باشا مع الخديو بشأن هذه المسألة ، فغضب سموه ؛ وعندما قابلته مساء فى قصر القبة وجدته متهيجاً لذلك ، لأنه فهم من حديث مصطفى فهمى أن المعية هى التى تسعى إلى استمالة أصحاب المقطم بالرتب ، وأن فارس نمر لا يقبل أية رتبة كانت .

ثم قال لى : « وهذا نتيجة تسرعك يا شفيق ! » فدافعت عن نفسى بأن فكرة استمالة أصحاب المقطم لم تكن فكرتى ، وأنى لم أعمل شيئاً لتنفيذها . ثم تقرر أن يتحدث أحمد شوقى أفندى مع فارس نمر فى هذا الخصوص ، على أن يتوسط مصطفى فهمى باشا

فى إزالة ما وقع فى نفس الخديو من سيء الأثر ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وكان ألم الخديو لذلك عظيما .

السير ارنست كاسل فى مصر . فى ٢١ مارس أقام عباس مأدبة بسراى القبة للسير ارنست كاسل . وكان قد حضر إلى مصر مع شقيقته ؛ وفى أثناء الحفلة لفت نظرها حجر جميل من الزبرجد فى رباط رقبتى فأبدت استحسانها له ؛ وفى الغد أرسلته لها مع رسالة صغيرة قلت فيها : « أرجو ألا ترفضى قبول هذه الهدية الصغيرة التى أسعدنى الحظ بتقديمها إليك إذ رأيت أنها وقعت من نفسك وقعاً حسناً ، وأنا موقن أنها متى كانت على صدرك صار لها من الرونق ما ليس لها فى رباط عنق ؛ وقد تركت لك صياغة هذا الحجر ، على أمل أن تختارى له الصياغة التى تلائم ذوقك ، وإننى أنتهز هذه الفرصة لأعرب لك أيتها السيدة العزيزة عن أسمى شعائر إخلاصى واحترامى . »

فجاءنى منها فى اليوم التالى رد رقيق نصه : « سيدى العزيز — لا أدرى فى الحقيقة كيف أعبر لك عن شكرى على ما أظهرته لى من العطف والمودة . وفى الواقع أنك ذهبت فى تكريمى ومجاملتى الى أبعد مدى فى إهدائك هذا الحجر الجميل الىّ ، ولقد أخجلتنى مجاملتك هذه ، وخيل الى أن إشارتى اليه هى التى أوحت اليك أن ترسله الى وهذا ما زاد فى خجلى ؛ على أنى أؤكد لك أن هذا العطف من جانبك وقع من نفسى أحسن موقع ، وسأحفظ هذا الحجر الجميل تذكاراً للمجاملة التى رأيتها من الذى أهداه إلىّ ، فشكراً لك ألف مرة واقبل أزكى تحياتى . »

الدسائس فى الأزهر أيضا . ذكرت ما وصلت اليه الدسائس فى الأزهر فى العام الماضى ، ثم تلت ذلك فترة ساد فيها النظام فى الأزهر ولكنها ما لبثت حتى قامت حركة جديدة من المدرسين ، وشكوى من قانون الأزهر وشيخه وقعها المتظلمون . وكان القائمون بهذا الشغب يدخلون فى روع الآخرين أن هذه الشكوى كرغبة الخديو ؛ وفى هذه الأثناء ثارت مسألة زواج الشيخ على يوسف من كريمة السيد عبد الخالق السادات كما أسلفت ، وكان الشيخ على يوسف يدعى أن المفتى هو الذى يحرض السيد السادات ، فأراد الخديو أن ينتقم من المفتى بتغيير مجلس الادارة ، وإخراج الشيخين محمد عبده وعبد الكريم سلمان ، فلم يرق ذلك فى عين شيخ الأزهر السيد على الببلاوى ، ففكر فى تقديم استقالته ، إلا أنه قبل رجائى ورجاء المفتى فى البقاء فى منصبه ، ولكنه

علم أخيراً بأن الشيخ سليم البشرى والشيخ المنصورى توصلا إلى الحصول على مرتب فى الأوقاف العمومية دون علمه ؛ فعزم على الاستقالة لما كان يعرفه من أن هذين الشيخين هما روح الشغب فى الأزهر ؛ وحضر الى السراى فى يوم ١٥ مارس ، وقدم استقالته إلىّ بصفتى رئيس الديوانين العربى والافرنجى ، فقبلت وأرسلت اليه خطاب قبولها مشفوعاً بالشكر الرقيق .

وفى ٢١ مارس استقال الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان من عضوية مجلس الأزهر وخلف السيد البلاوى فى مشيخة الأزهر الشيخ عبد الرحمن الشربينى فى ١٩ منه . وقد خلع عليه الخديو الخلعة المعتادة فى حفلة بسراى عابدين حضرها كثير من العلماء وذلك فى ٢٤ مارس ، وبهذه المناسبة ألقى الخديو كلمة قال فيها : « إن الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية تنشر علوم الدين الحنيف فى مصر وجميع الأقطار الاسلامية ؛ وأول شىء أطلبه أنا وحكومتى أن يكون الهدوء سائداً فى الأزهر الشريف ، والشغب بعيداً عنه ، فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقى العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الأفكار ، لأنه هو مدرسة دينية قبل كل شىء . » ثم قال : « وقد قبلت استقالة الشيخ البلاوى لأننى منذ اثنتى عشرة سنة أسير على قاعدة قبول استقالة كل من يقدم لى استقالته . وقد أسندت وظيفة مشيخة الأزهر للأستاذ الشيخ الشربينى المعترف له من جميع الطبقات ؛ أزهريين وغيرهم ؛ بالعلم والتقوى والصلاح ، وأطلب منكم أيها العلماء أن تكونوا بعيدين دائماً عن الشغب وأن تحثوا إخوانكم والطلبة على ذلك . » وهكذا فشلت الخطوة الأولى لاصلاح الأزهر .

شركة الزبرجد والنحاس . فى ١٤ فبراير عقد بناء على الأمر الخديوى اتفاق بين مسيو شارل هكسيوس وعبد الرحمن كامى بك من أعيان السويس وشريكه حنا عنصره اللذين كانا يبحثان عن المعادن فى جزر البحر الأحمر وفى طورسينا ؛ والغرض من هذا الاتفاق أن ينصرف عبد الرحمن كامى بك وشريكه الى شراء اللؤلؤ والأحجار الكريمة ويرسلانها الى هكسيوس فى جنيف ، ليبيعها على أن يقسم الربح مناصفة بين الفريقين شهراً فشهراً . وقد جعلت مدة هذا الاتفاق خمس سنوات وعهد الىّ فى حفظ العقد الخاص به . وكذلك وقع بين الطرفين اتفاق آخر مؤداه ، أن يتعهد عبد الرحمن كامى بك وحنا عنصره لمسيو شارل هكسيوس بأن يرشداه الى الأماكن التى وجدا فيها مناجم نحاس من النوعين الأصفر والأحمر ، على أن يفحص مسيو هكسيوس هذه المناجم

ويتصرف فيها بما يراه ملائماً بحيث يتولى هو بنفسه طلب امتياز باستخراج المعدن والبحث عنه ، ويكون له أن يستثمره هو بنفسه أو بواسطة شركة يؤلفها لهذا الغرض ، ويكون لعبد الرحمن بك وحنا عنصره ثلاثون فى المائة من الأرباح الصافية ، بشرط أن يقوما بالرحلات التى يستلزمها العمل ، ويقدما إلى هكسيوس كل ما يجدانه من القطع المعدنية فى خلال مدة الاتفاق مهما كان نوعها ، تاركين له الحرية فى استثمار الأرض التى توجد فيها المعادن ، وألا يعقدا اتفاقاً آخر مع سواه قبل مضى خمس سنوات .

وعهد إلىّ كذلك فى حفظ العقد المحرر بينهما ، والحكم فيما يشجر بين الطرفين من خلاف . وبعد ذلك أرسل إلىّ عبد الرحمن كامى بك رسالة عن نتيجة مباحثه وخريطة عن الأمكنة المرغوبة ، وبعض نماذج من النحاس فأرسلتها لمسيو هكسيوس فى جنيف ؛ ثم جاءتنى رسائل أخرى من كامى بك بها تفصيلات عن الأحجار التى وجدها ، وذكر لى أيضاً أنه علم أن جماعة من الانجليز ذهبوا إلى الطور للبحث عن المعادن ، مزودين بجميع التوصيات والتسهيلات . ولما علم الخديو بذلك ، قال إن هذه التوصيات هى من صنائع الانجليز فى مصر . ولم يستطع أن يقدم إليه التوصيات التى طلبها نظراً لوجود الانجليز المشار إليهم .

لجنة الاحتفالات الخديوية . ألفت فى القاهرة لجنة للاحتفال بالخديو فى أعياده وعند سفره واستقباله ، وأخرى كذلك فى الاسكندرية . فلما سافر الخديو فى هذا العام إلى الثغر فى أول مايو استقبلته اللجنة هناك بحفاوة كبيرة فشكر سموه أعضاءها شفوياً ثم أمر بارسال كتاب لهم بشكره .

ولما كانت لجنة القاهرة هى صاحبة الفكرة ، ولم تنل هذا الشرف والعناية من جانب سموه ، فقد تذمر أعضاؤها وتحدث بعضهم أمام الشيخ على يوسف بذلك ، فبعث برسالة لسموه يعلمه فيها بذلك وإلى أن لجنة القاهرة قد تفتر عزيمتها إذا لم تنل ما تستحقه من الرعاية .

وقد أجاب عباس على ملاحظة الشيخ على يوسف فكتبت المعية إلى اللجنة خطاباً رقيقاً .

غادة تعمل على استمالة عباس . كانت مدام الكسندرا أفيرينو ملتيادى ، وهى سيدة يونانية متمصرة ، تصدر مجلة « أنيس الجليس » بالاسكندرية ، وقد حاولت الزلفى بجمالها عند الخديو مراراً ، وحامت حوله سنوات ، ولكنه غض النظر عنها فأرسلت

لسموه الرسالتين التاليتين ؛ الأولى بتاريخ ١٧ مايو نصها : « لقد تعودت أن أفتتح كتابى بالثنـاء والدعاء اللذين لا أبرح عن تقديمهما على الدوام بالسر والجهـر ، ولـكن بلغنى من سعادة حسين بك زكى ما جعلنى أن أفتتح كتابى بالشكوى والاسترحام بشأن تلك المقابلة التى ضاق فى التماسها صـدرى وذهب كل صـبرى ؛ وحقاً إنه ليست الصاعقـة تنقض علىّ فتريحنى بأشد عندى من الخبر الذى رواه لى حسين بك بشأن تأجيـل تلك المقابلة إلى بعد عودة مولاى المعبود بالسلامة من رحلته المباركة وذلك لـكثرة شغفى بها واضطرارى اليها وطول انتظارى إياها ، إلى أبعد مما يتحمله فؤادى وأكثر مما تطيقه نفسى ، مع أننى أعهد ذاتى ملتمسة تلك المقابلة من سيدى الرحيم الشفيق ، فضـلا عن أن سموه لا يعـدم على كل حال فرصـة لذلك ، لأن الفرص تحت أمره وطوع يديه . وقد آن أن يكون لى حق فى إحداها بمـا يتفق جبراً لخاطرى الـكسير وإجابة لالتماسى الذى طال عليه الأمد ونفد معه الصبر . آه يامولاى من يصف الآلام التى تحرق فؤادى واليأس المستحوذ علىّ ؛ أشعر بأنى مدفوعة بيد القضاء إلى وهدة الشقاء ومنها الى وهدة الفنـاء ؛ وإن حسين بك لو كان يروى لسموه ما شهده من قلق وسوء حالى حين بلغنى ذاك الخبر بالتأجيل ، لتيقن ما ينطوى عليه فؤادى وعرف مبلغ ما أنا فيـه من التلهف الشديد لتلك المقابلة السنية التى هى طوع إرادة مولاى فى كل حين يريدها فيه ، وفى أى مكان يعينه لها ؛ وإننى لقد أكثرت من إظهار الأسى والحزن مضطرة بسبب ما يعلمه مولاى ، فلعل كرمه يريحنى من عناء المدة الطويلة المستقبلة فقـد كفانى ما قاسيت من أطول منها قبلا ، وعسى أن يكون هذا الرجاء كأنه آخر اليأس المتصل بأول النجاح ، وتكون تلك المقابلة أتعلل بها مدة تلك الرحلة . ولقد عهدت مولاى يمنح السعادة لكل من يطلبها منه ، ولهـذا صرت فى جانب الأمل الـكبير بأن هـذه التعيسة المخلصة تنـال تلك السعادة التى صارت تستحقها بكثرة ما بذلت لها من الصبر الوافر والقلق الطويل ، ولا شك أن كرم مولاى وانعطافه يكونان ضامنين لهذا الأمل إذ هو بعد الله على كل شىء قدير وبكل دعاء من هذه المخلصة جدير .

عبدة سموكم التعيسة
الـكسندرا أفيرينو »

الاسكندرية فى ١٧ مايو سنة ١٩٠٥

وهذا هو نص الرسالة الثانية وتاريخها ٢٣ مايو :

« ولىّ نعمتى ومعبودى — أفتتح كتابى بتقديم واجب الاخلاص والتكريم مع الدعاء لله تعالى بأن تـكون السلامة مرافقة لمولاى فى رحلته السعيدة باذن الله ورجوعه المبارك . وبعد فقد تقابلت مع سعادة حسين زكى بك فوجدت من رقة حديثه ما اتخذته

كنسخة من حديث مولاى ورقته ولطفه ، حتى ابتهج بذلك فؤادى المضطرب ، وسرّ خاطرى القلق ، وانتعش أملى الذابل ، ولا سيما بعد حرمانى من تلك المقابلة التى كنت أنتظرها انتظار الأرض العطشانة لندى الصباح ؛ ولكننى أسلى نفسى عن كل ذلك بسلامة مولاى ، وأعزّيها بأنى قد صبرت عدة سنوات فلأصبر عدة أشهر ، وإن كانت علىّ أطول من سنين ، حتى يمن الله ويعطف المولى المحبوب على عبدته التعيسة . . . ثم إننى مرسلة مع سعادة حسين بك الرواية التى علم سيدى بها ، وقد كتبتها بخط يدى لتكون كأنها عيون تنظر إليه بالنيابة عنى ، ولعل مولاى يشرفنى بتلاوتها فى أثناء رحلته السعيدة وأوقات فراغه ، فيجد فيها لأول وهلة ما ينطوى عليه مضمونها من حكاية حال « أميليا » التى أرجو أن تكون عاقبتى شبه عاقبتها مع ذاك الأمير ، كما أن مولاى يدرك بلا شك تلك العواطف والوجدانات التى أملت علىّ تلك الرواية ، وعباراتها المؤثرة ، مما كنت فيها لسان حال نفسى ؛ فعسى أن تصادف هذه الرواية من عند مولاى ما رجوته من وضعها فى هذا القالب ، الذى صورت فيه حالتى تصويراً تاماً بشخص أميليا مع ذاك الأمير ، بل غاية ما أرجوه قبولها وتشريفها بالنظر العالى فان ذلك حسبى وكفى .

ثم إننى قد تعودت رجاء مولاى على الدوام فلا عدمته مرجواً ولا عدمنى راجية فضله ، وسائلة إسعافه ومعونته ؛ وذلك أن لى سوقاً فى الرمل وقطعة أرض بجانبه وقد أخذ الخواجا مانولى زرفودا كى بمعاكستى فيها معاكسة تفضى إلى الضرر بى ضرراً لا يريد وقوعه مولاى بهذه المخلصة ، وذلك أن الخواجا زرفودا كى يريد أخذ قطعة الأرض بالشفعة ؛ لذلك ألتمس من جنابه العالى إصدار إشارة منه بالايعاز إليه بأن يمتنع عن أخذ قطعة الأرض بالشفعة ، وعن معاكسة السوق ؛ لأن أقل إشارة من مولاى يكون منها كل النفع لى ، ومنع الضرر عنى . وإننى فى الختام أكرر شدة أسفى لفراق سيدى وغيابه ، وحرمانى من طلعته السنية ؛ بل وجوده فى هذا الثغر الذى كنت مؤتنسة معه بظله الظليل ، وقربه المؤنس ولكننى أفرج أسفى هذا بالصبر لحين رجوعه السعيد ، سائلة المولى أن يشمل مولاى بعنايته العميمة ، وأن يجعله تحت حراسته أينما حل وسار ، كما أسأله أن يرينى طلعته المباركة وهو على ما أحب وأشتهى من العافية الدائمة ، والسلامة الملازمة باذن الله ودعاء هذه العابدة المخلصة التى ترجوه ألا ينساها كما أنها لا تنساه إلى الأبد .

عبدة سموكم الطائعة
الكسندرا أفيرينو »

الاسكندرية فى ٢٣ مايو سنة ١٩٠٥

ولكن مدام أفيرينو رغم هذه المساعى المتكررة لم تفز من الخديو بطائل .

رحلة الخديو الى الاستانة وأوربا . فى ٢٥ مايو غادر الخديو المياه المصرية إلى الاستانة مودعاً كالعادة . ولم أكن بمعيته هذا العام لأن سموه أراد إبقائى فى مصر لأكون قريباً من النظار لما عسى أن يطلبوه من المعلومات . وكان محمد عزت بك رئيس القلم التركى ممن رافقوا جنابه ؛ فوصل سموه إلى الاستانة فى ٢٩ مايو واستقبل فيها بحفاوة ولم يمكث بها إلا مدة وجيزة ثم برحها فى ٣ يونيو إلى فينا .

وفى ١٣ يونيو، وردت لى رسالة من عزت بك أخبرنى فيها أن الخديو كان مسروراً من الاستقبال والوداع بالاستانة .

شكوى البرنسيس زبيدة لملك الانجليز : وقد سافر الخديو بعد ذلك إلى انجلترا فبقى فيها خمسة أيام كان فيها محل حفاوة وإكرام من جانب ملك بريطانيا والأمراء الانجليز والرجال الرسميين ، وأقيمت له عدة مآدب . وفى إحداها ، وكانت بسراى وندسور ، وقع ما كدر سموه ، وجاءنى تفصيل ذلك برسالة من الشيخ محمد عثمان أحد المرافقين للخديو بتاريخ ٢٧ يونيو ملخصها:



البرنسيس زبيدة هانم

أن الجناب العالى بينما كان فى ضيافة ملك الانجليز فى وندسور ، إذ جاءت له شكوى من البرنسيس زبيدة هانم ضده ، مدعية أنه لم يحترم اتفاقاً حصل بينه وبينها بخصوص ترتيب ثلاثة آلاف جنيه لها سنوياً ، فتكدر سموه من ذلك ؛ وأرسل يأمرنى أن أتقابل مع البرنسيس ومع شاكر باشا قرينها ، وأتوصل بكل حيلة إلى أخذ كتابة من البرنسيس بأن ما كتبته للملك ليس شكاية ، بل استرحاماً ليتوسط لدى الخديو فى إجابة رجائها ، وبعد الحصول على الكتابة المذكورة يجب أن أتوجه إلى شاكر باشا وأسمعه كلاماً قاسياً مراً فى هذا الموضوع ، لأن ما حدث من البرنسيس بعيد عن الآداب والتربية ، وكان عليه أن ينصحها بعدم الاقدام على هذا العمل الشنيع ؛ وقال لى إن الخديو ينتظر الرد بمجرد وصول هذه الرسالة .

وعندما وصلتني فى ٣ يوليو كانت البرنسيس وشاكر باشا قد سافرا إلى كارلسباد ، فأرسلت بذلك برقية للخديو ، وأشرت بأن يأمر دومرتينو باشا الموجود بكارلسباد أن يحصل على الكتابة المطلوبة .

وكان الغرض من ذلك أن تعرض هذه الكتابة على ملك الانجليز حتى يعلم عدم أحقية البرنسيس فيما ادعته على الخديو .

وفى ٢٩ اكتوبر عاد اللورد كرومر إلى مصر من الخارج ؛ وكان الخديو فى الاسكندرية فأرسل اللورد برقية يعلم سموه برجوعه ؛ فأجابه ببرقية لطيفة هنأه فيها بسلامة الوصول . ولكنه لما قابل الخديو فى أول يوم من رمضان ، لم يهنئه كالعادة ، بل وجه إليه انتقاداً مراً فى مسألة البرنسيس زبيدة ، فاستاء الخديو أيما استياء لهذه المقابلة الجافة .

وقد تحدثت مع بطرس باشا فى شأن هذه المقابلة يوم ١٠ نوفمبر واستطرد بنا الحديث ، فذكر لى أنه عندما أرسلت البرنسيس شكايتها لملك الانجليز أمر باحالتها إلى كرومر فرد طاعناً على الخديو بأن سموه يتدخل لدى القضاء الشرعى فى المسائل الشرعية ، ويحصل على ما يريد من الأغراض .

وفى ١١ نوفمبر تقابلت مع المستشار المالى فطلب منى أن أعرض على الخديو تخصيص مبلغ مائتى جنيه معاشاً شهرياً للبرنسيس وأن يعطيها مبلغ ألف جنيه مصاريف المحامى عنها ، وقد تم ذلك .

وفاة الشيخ محمد عبده . كان الشيخ محمد عبده مريضاً منذ عدة أشهر ، وكان قد أزمع السفر للاستشفاء فى الخارج ، ولكن رؤى أن صحته لا تساعده على السفر ، فمكث بالاسكندرية يغالب المرض ويغالبه ، ويزوره العظماء والكبراء والعلماء ، ويعنى به الكثير من البرنسات حتى أن بعضهم أرسل طبيبه الخاص لعلاجه .

وفى ١١ يوليو فاضت روحه إلى بارئها ، وقد شهدت تشييع جثمانه إلى مقره الأخير فى مشهد حافل وموكب جليل .

وكتبت الصحف فصولا ضافية فى رثائه ، منوهة بذكره ورفيع خلاله وأعماله .

عتب الخديو : وقد كان سيرى فى جنازته سبباً فى غضب الخديو فأرسل إلىّ رسالة أثبتها لما فيها من دلالة ومغزى : « كان الجناب العالى يظن أنكم تحافظون على تنفيذ

رغباته السنية غاية المحافظة ، وكان يعلم أنكم تقدرون أوامره العالية حق قدرها ، وكان يعتقد أنكم لا تخطون خطوة إلا فى سبيل رضاه وبأمره الكريم ، وكان يتيقن أنكم تكونون على من رغب عنه ومع من رغب فيه ، ولكن قدّر فكان .

قلتم فى جوابكم الأخير إن المفتى مكث أربعة أيام كوامل من يوم الجمعة ٧ الجارى (يوليو) إلى يوم الثلاثاء ١١ منه والروح تنازعه وهو ينازعها إلى أن غلبته فتركته أى أنكم كنتم متوقعين له حصول الأمر آناً بعد آخر خلال هذه المدة ، بل على ما بلغنا أن أقاربه حتى الحكومة جهزت له مايلزم لتشييع جنازته قبل موته بيومين ، وسعادتكم على ما أنتم عليه من معرفة الحقيقة والحالة ، فلم لم تستفهموا باشارة برقية عما يلزم وقت أن تبلغ الروح الحلقوم . هذا أمر واجب عليكم كان اللازم أن توجهوا فكركم اليه قبل كل شيء ولكنه يا للأسف فاتكم .

علمتم بموته فكان من الضرورى أن تعلموا أيضاً بأنه سترد اليكم تعليمات بخصوص ذلك الحادث ، وما كنتم تبرحون السراى ولا إلى منزلكم حتى تأتى أوامر الخديو اللازم اتباعها .

أخبر الجناب العالى أطال الله بقاءه باشارة برقية عن هذا الحادث ، فما معنى ذلك ؟ معناه أن ما الذى يعمل فى هذه الظروف . وتعتقدون أن الجناب العالى لابد وأن يصدر أوامره بما يعمل إزاء هذا الأمر فاذا أصدرت بعمل شيء فقوموا بتنفيذه ، وإن وردت بدونه فاعلموا أن الأمر مهمل « الجنازة حارة والميت كلب ؟ » فلا تعملوا شيئاً .

يظهر ، والله أعلم ، أنكم أردتم بالسير وراء نعشه المجاملة بعد الموت وهو على ما تعهدونه عدو الله وعدو النبى وعدو الدين وعدو الأمير وعدو العلماء وعدو المسلمين وعدو أهله ، بل وعدو نفسه ؛ فلم هذه المجاملة ؟

صدرت لكم أوامر بما يعمل ، فلم لم تبذلوا جهدكم فى تنفيذها ولم لم تسعوا وراء سريان مفعولها حتى بذلك تكونون أديتم ما فرضه عليكم الاخلاص ؟

قلتم إن الأوامر وردت والجثة بين مصر والاسكندرية فلم يمكن تنفيذها بالثغر ولكنها نفذت بالقاهرة ، فأين ذلك التنفيذ وقد سار فى الجنازة القاضى والشيخ حسونة وغيرهم .

قلتم فى جوابكم إنكم منعتم الشيخ على يوسف من كثرة الاطناب ، والمدح فما فائدة ذلك وأنتم أول من يعلم أن مثل ذلك ألفاظ سيالة تنقضى بمجرد النطق فلا أثر

لها ، لكن تنفيذ الأوامر هو الذى يترتب عليه المقصود . على أن المؤيد أفرغ جعبته فى مدح الرجل فلم يبق شيئاً مما منع عنه ، ولو فرضنا أن المؤيد لم يذكر شيئاً للرجل ، فهناك جرائد أخرى لا يمكن منعها تقوم بالاطناب والمدح ، وقد قامت فعلا والأوامر العالية على خلاف ذلك . سعادة أحمد زكى باشا موجود عندكم فلم لم تستشيروه ؟ ألم تعلموا سبب امتناعه عن تشييع الجنازة ؛ ألم تعتقدوا ما كان عليه المفتى من العداء والمعاكسة للدين وأهله وأنصاره ؟ ولكنه أمر فات والرجل مات وغير ممكن رد ما قد فعل . »

وفى طى الرسالة السابقة ملحق هذا نصه : « ترون طىّ هذا قصيدة رثاء قالها أحد مستخدمى ديوان الأوقاف العمومية وقد طبعت أيضاً بمطبعة الديوان المذكور ، والجناب يحب أن يعرف إن كانت مطبعة الديوان جعلت لأعمال المصلحة فقط أو لها ولغيرها أو لغيرها فقط . فاستدعوا عبد الحليم عاصم باشا عندكم واستفهموا منه هذه الاستفهامات واسألوه إن كان ذلك الشاعر المطبوع طبع هذا الرثاء بأمر من الباشا أو بغير علمه ، فاذا كان بغير علمه ، فكيف يقع ذلك وسعادته يشرف على كليات وجزئيات هذا الديوان ؟ وإن كانت طبعت بأمره ، فكيف يكون ذلك وصاحب الأمر موجود ؟ وبالجملة فالمطلوب كتابة تقرير مسهب عن تفصيل هذه المسألة ويكون ممضى بامضاء سعادته وإمضاء سعادتكم ، ولا يمنعكم ذلك من تعليق ملحوظاتكم وأرسلوا جميع ذلك إلى الجناب العالى ليطلع عليه فيرى رأيه فيه . »

الخديو وحسن عاصم باشا . وقد كان حسن عاصم باشا من الذين اهتموا بوفاة المرحوم الشيخ محمد عبده وساروا فى مشهده ، وعملوا على الاحتفال بتأبينه ، مما زاد فى حنق الخديو عليه . فأرسل لى سموه بامضاء محمد عثمان ما يأتى بتاريخ ٢٣ أغسطس : « اجمعوا لديكم حسين محرم باشا ويوسف ضيا باشا وراشد بك باشكاتب الخاصة وسعادة احمد خيرى باشا وعند اجتماعهم خاطبوا خيرى باشا بما يلى :

« إن الجناب العالى فى غاية العجب والاستغراب من جهة اهتمامكم بأشغاله الخصوصية والعمومية ، وميلكم إلى جنابه الرفيع وإظهار إخلاصكم لسدته السنية ومحبتكم الذاتية ، لأنه لا معنى لذلك مع ما أنتم عليه من كثرة اجتماعكم فى مجالس أناس مفسدين مثل حسن عاصم (الذى سبق إقالته) ، فهل لكم علاقة كبيرة تجارية أو سياسية مع أصحاب هذه الجمعية ؟ فاذا كان الأمر كذلك فالجناب العالى لا يرى مانعاً من انفصالكم عن شرف خدمته واشتغالكم مع الشركة بكل جهدكم وكمال حريتكم مع أعضائها المحترمين .

وسبب إرسال هذه المذكرة بهذا الشكل هو عدم علم الجناب العالى بوجود أحد من الموظفين الأكابر الحائزين للرتب والنياشين والميداليات والوظائف السامية ، الحاصلين عليها سعادتكم ، يسلك هـــذا المسلك الذى يأباه الدين والذمة وتتبرأ منه الانسانية والمروءة .

أما مذكرات سعادته — التى أرسلها وعرضت — فلم يرد الجناب العالى تلاوتها ولا النظر إليها لأنه حفظه الله يعلم أنها محشوة بالنفاق والتملق ، وليست صادرة عن إخلاص ومحبة كما يزعم سعادته ، ولذلك ضرب بها عرض الحائط ، وعليه فنبهوا على سعادته بعدم إرسال مذكرات ولا خلافها للجناب العالى حتى يشرف سموه ثغر الاسكندرية أو عاصمة ملكه .

ثم أفهموه أن الجناب العالى لم يرد بجمعه هذه الذوات المتلوة أمامهم هذه المذكرة ، إلا ليظهر لهم أنه لا تخفى عليه خافية من أعمال كبيرهم وصغيرهم ، وأنه يعلم المنافق منهم من المخلص ، وأنه يجازى من يخالف الرغبة السنية ويحيد عن الطريق السوى . بذلك كله صدرت الارادة السنية . »

وقد جمعت هؤلاء المذكورة أسماؤهم وتلوت عليهم الرسالة المتقدمة وتقرر أن يكتبوا تقريراً باخلاصهم للجناب العالى ، وأنهم يتبرأون مما يذكره عنهم الدساسون ؛ وقدموا إلىّ هذا التقرير فأرسلته للخديو .

بعد العودة من أوربا . عاد الخديو إلى الاسكندرية يوم ٢٧ سبتمبر وكان فى استقباله النظار ومعهم نائب المستشار المالى ؛ وقد تحدث سموه معهم فى عدة أمور تختص بسياحته ، ومن ذلك أن السلطان قال له : إنه متألم من الأرمن كثيراً ، وإنه سيقضى عليهم بعد عمـــل التدبيرات اللازمة . وأضاف متهكماً : وسنرى ماذا تفعل الدول ؟

وقد جاءتنى رسالة من بطرس باشا متعجباً ، كيف أن السلطان يفضى بهذا السر إلى الخديو ، ثم يذيعه الخديو حتى للانجليز ؛ وقال الباشا إن متشل إينس تحدث مع النظار فى هذا الموضوع بعد خروجه من عند الخديو .

قاضى مصر وطلبه السفر للاستانة . فى ٢٣ اكتوبر جاءتنى برقية من مصطفى فهمى باشا هذا نصها : « أرجو أن تبلغ الجناب العالى حالا بالبرق نص الآتى :

زارنى كبير القضاة وأبلغنى أن شيخ الاسلام أرسل إليه برقية يشير عليه فيها بناء على الارادة السلطانية ، بتعيين وكيل عنه والسفر إلى الاستانة ؛ فأجبته أنه باعتبار كونه من موظفى حكومة الجناب العالى ، يجب عليه أن يتقيد بالقانون فيما يتعلق بالأجازات . وخرج من غير أن يبدى إشارة تدل على أنه ينوى العمل بنصيحتى هذه . ثم كتب إلى نظارة الحقانية ينبئها بأنه عازم على السفر ، وسترد الوزارة عليه اليوم أنه يتعين عليه أن يقدم إليها طلباً قانونياً فيما يتعلق بأجازته ؛ وحيث إن لهذه المسألة شأنها وأهميتها كما لا يخفى على سموكم ولا بد أن يزور كبير القضاة سموكم قبل مغادرته القطر يوم الأربعاء القادم ، فقد بادرت إلى عرض الأمر على سموكم بتفصيلاته لتكونوا على بينة منه ؛ هذا وألفت نظر سموكم إلى مسألة تعيين وكيل لأن هذا التعيين من اختصاص حكومة سموكم وقد عاد القاضى فاسترد كتابه بناء على المساعى التى بذلتها نظارة الحقانية ووعد بأن يقدم طلباً قانونياً . »

وفعلا قدم القاضى طلباً لنظارة الحقانية يطلب أجازة عشرين يوماً . وفى ٢٤ اكتوبر قابل الخديو مستأذناً فى السفر ، وبارح الثغر إلى الاستانة . وفى ٢٠ نوفمبر أرسل يطلب مد أجازته إلى شهرين واعتمدت الحقانية ذلك ولكن فى ديسمبر صدر أمر السلطان بعزله وتعيين جمال الدين افندى قاضى مكة(*) بدلا عنه ووصل القاضى الجديد إلى مصر فى ١٣ ديسمبر .

منصب القبوكتخدا . كان منصب نائب الخديوية فى تركيا لا يزال شاغراً فارسل الخديو يطلب إسناده لرشيد بك الذى سبق أن أشرنا إليه وإلى رسائله السياسية .

وفى ٢٥ اكتوبر جاءت برقية من الباشكاتب ، بأن جلالة السلطان لا يستحسن تعيين رشيد بك ، نظراً لأنه سبق له الفرار من الاستانة ؛ وإنما يرتاح لتعيين محمد بك عزت رئيس الديوان التركى ؛ ولكن الخديو لم يوافق وكذلك لم يرغب عزت بك ، وكتب للسلطان بأن تعيين رشيد بك إنما بصفة معاون فقط للقبوكتخدا .

تعيين مفت جديد . وفى ٥ نوفمبر كلف الخديو بطرس باشا بالتوجه إلى كرومر لمحادثته فى شأن تعيين الشيخ حسونة النواوى خلفاً للشيخ عبد القادر الرافعى الذى توفى

(*) وتعين بعده يحيى افندى عبد الرحمن فاضل ثم لبيب افندى الأرناؤوطي وأخيراً السيد محمد نورى افندى إلى أن ألغيت وظيفة قاضى مصر فى سنة ١٩١٤ عند نشوب الحرب الكبرى .

بعد أن مكث مفتياً يومين فقط ومات بالفالج ؛ فسأل بطرس باشا عن اسم آخر احتياطاً لكى يرشح إذا لم يقبل الشيخ حسونة ، فاختار الخديو الشيخ بكرى محمد عاشور الصدفى .

ولما قابل اللورد رضى بالشيخ حسونة ؛ وكذلك وافق مصطفى فهمى باشا بعد أن علم بموافقة كرومر ؛ ولكن المستشار المالى توقف لأن ابراهيم فؤاد باشا أخبره أنه لا يصلح للافتاء إلا الشيخ الصدفى ؛ وبهذا تم تعيين الشيخ الصدفى . وقد شكا مصطفى فهمى باشا بهذه المناسبة لكرومر من تدخل بطرس باشا فى مسألة ليست من اختصاصه والمقصود بهذه الشكوى أن يعلم اللورد أن الخديو لا يثق به ، لأنه مقرب لدى الانجليز .

سنة ١٩٠٦

مسألة طابا . تقرير هام من مختار باشا للحكومة المصرية . سفرى الاستانة لانهاء المسألة . احتجاج الحكومتين المصرية والانجليزية الرسمى . بلاغ انجلترا النهائى . تعيين أعضاء اللجنة وتحديد التخوم . ملك الانجليز هانىء على عباس . ولى عهد انجلترا فى مصر وخطاب البكرى له . حادث بين حرم الخديو وصاحبته . الخديو فى الاستانة . عود الى دسائس الازهر . وفاة البرنس محمد ابراهيم وعيد الدين . وشاية يعقبها انقاص مرتبى . حادثة دنشواى . الخديو والنظار والانجليز . تأسيس شركة ليندار والاستاندارد . مسألة الرتب أيضاً .

مسألة طابا . أسلفت أنه لما تولى عباس ، أرادت تركيا إخراج سينا من فرمان التولية فعارضت انجلترا ، وانتهى الخلاف بأن بقيت إدارتها فى يد الحكومة المصرية .

وفى ينـاير أصدرت الحكومة أمرها إلى براملى بك مفتش جزيرة سينا بوضع خفـر من البوليس فى نقب العقبة لمراقبة الحـدود منعاً لتهريب الأسلحة ، فلم يسمح له اللواء رشـدى باشا قائد الحـامية التركية بالعقبة بذلك ، فرجع وأخطر الحكومة التى طلبت من السلطان تعيين لجنة من الأتراك والمصريين لتحديد التخوم بين سينا وسوريا ، فلم يحرك ساكناً .

عند ذلك أرسلت الحكومة المصرية بلوكا من العساكر النظامية مع الأميرالايين سعد رفعت بك قومندان سينا وبراملى بك ، على الوابور نور البحر لاحتلال وادى طابا فنزلوا بها رغم معارضة الأتراك .

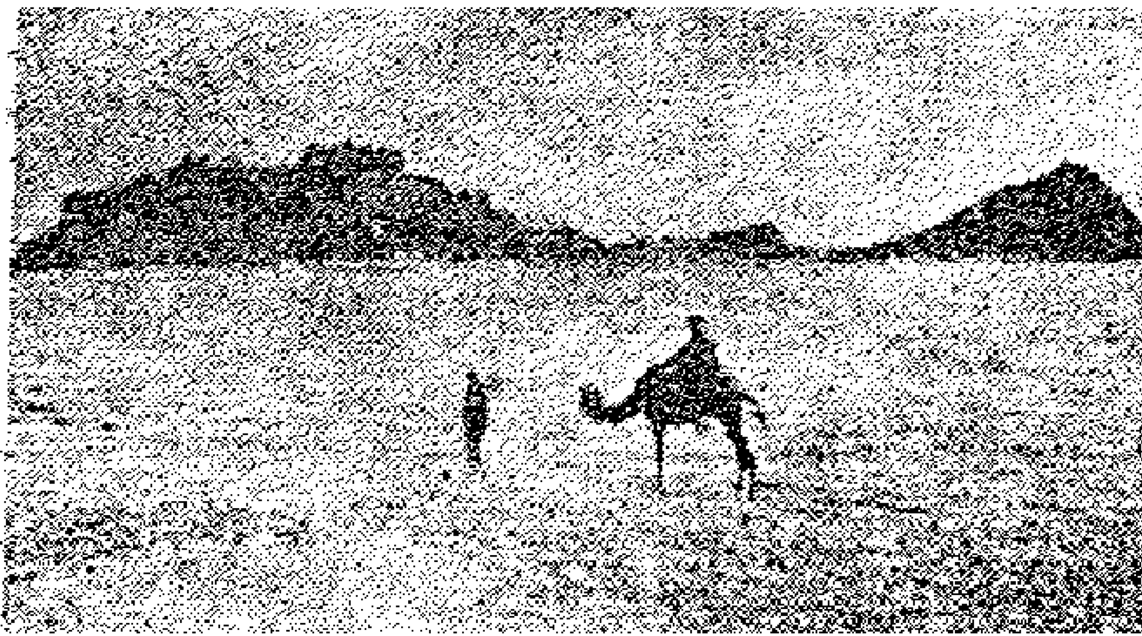
وفى ١٠ ينـاير وردت برقية من الصدارة للخديو هذا نصها : « علمنا من جواب


الأميرالاى براملى بك


الأميرالاى سعد بك رفعت

اللواء رشدى باشا ، أن الأميرالايين سعد بك رفعت، وبراملى بك الانجليزى المرسلين من طرفكم على الوابور نور البحر إلى طابا ، أنزلا هناك خمسين جندياً نصبوا لهم معسكراً صغيراً . وأنه بالرغم من أن أمير اللواء رشدى باشا أفهمهما بأنه لا محل لاقامتهم تجاه القره قول العثمانى فانهما أصرا على رأيهما ومن حيث إن هذه الحال ربما جاءت بنتيجة قد لا تتفق مع الرضاء العالى ومن حيث إنه يفهم أنكم لم تعطوا الآن تنبيهات من قبلكم فنرجو حميتكم وديانتكم المسلم بهما العمل بسرعة على ملافاة هذه الحالة . »

فاستدعى الخديو بطرس باشا ، وتفاهم معه فى الموضوع واجتمع بطرس بعد ذلك بالنظار ، ثم تقرر بعد أن صدر الأمر بسحب القوة المصرية إلى جزيرة فرعون الرد على الصدر بالتالى : « من القديم فان موقع طابا تحت إدارة الحكومة المصرية . ومن الثابت أن التلغراف الوارد من مقامكم السامى يوم ١١ رمضان سنة ١٣٠٩ — ٩ أبريل سنة ١٨٩٢ بخصوص شبه جزيرة سينا يقرر حفظ الحالة على ماكانت عليه ومن حيث إن قومندان العقبة يمانع فى وجود العساكر المصرية هناك فى حين أن الغرض من وجودهم هو منع تهريب الأسلحة ، ولكن منعاً لسوء التفاهم أمرنا بسحبهم، ومن حيث إن ثقى بأن هذا لا يرضى صاحب الجلالة الخليفة ، لحسماً لهذه المشاكل ومنع تكرارها ، أرجو تعيين مندوب من قبلكم ليتفق مع المندوب المصرى على تعيين الحد الفاصل وبذلك لا يقع تعرض آخر لاقامة العساكر المصرية الذين


جزيرة فرعون

تقضى الضرورة بوجودهم . »

فجاء الرد من الصـدارة العظمى فى أواخر يناير بما يأتى : « لعدم وجود خلاف بنقطة طابا المجاورة للعقبة فلا محل لتعيين خط فاصل ، ونرجو بذل همتكم فى منع الخطر الذى يحدث من إنشاء نقطة عسكرية هناك . »

وبناء على هذا الرد أرسلت المدرعة « ديانا » إلى طابا فى ١٧ فبراير لمنع العساكر التركية من التوغل فى سيناء وللمحافظة على القوة المصرية بجزيرة فرعون وعدم احتلال الأتراك لها . وفى ١٨ منه تزاور قومندانها مع اللواء رشدى باشا .

وفى ٢٢ منه وردت برقيـة من الصـدارة جاء فيها : « مما لا شك فيه أن حوالى العقبة هو تحت إدارة السلطة السنية وأيضاً فان المقاطعة المصرية هى من الأجزاء المتممة للممالك الشاهانية ولا حاجة لتعيين منـدوب لاقامة خط الحدود ؛ وبالرغم من أنه كان يلزم صرف النظر عن إنشاء القره قولات العسكرية التى أرسلنا عنهما برقيتين ، فقد علمنا أخيراً مع الأسف بارسال مدرعة من طرفكم إلى طابا . وإرسـالها لا يتفق مع سابق إشعار فخامتكم . ومن هنا تحدث مسألة لا موجب لها قد تكون منافية لصداقة التبعية ، إذا فرض وأنزلت المدرعة العساكر وأقامت نقطة هناك فنرجو خاصة سحب المدرعة . »

تقرير هام من مختار باشا للحكومة المصرية . بعد ذلك قدم الغـازى مختار باشا إلى بطرس غالى باشا ناظر الخارجية تقريراً مطولا عن المسألة نثبته بنصه لأهميته : « قبل الدخول فى ماهية الحادثة نبين وجهة نظر الدولة العليـة فنقول إنه فى ١١ كانون ثانى سنة ١٣٢١ رومى تسلمت برقيـة سامية من استانبول بناء على المعـلومات الواردة عليها من قومندان العقبة جاء فيها : إن الادارة المصرية شرعت فى إحداث نقط عسكرية فى جهات متعددة بين العقبة والعريش وأنه صار مخابرة قومندان العقبة بمنع الانشاءات المذكورة وأخطرت الخديوية المصرية تلغرافياً بصرف النظر عن أمثال هذه المنشآت ، ذلك لأن الدولة العلية لا يمكنها السماح بانشاءات عسكرية فى نقط كان متروكا إدارتها لمصر بصفة مؤقتة . وبناء عليه لما زرت الخديو وأكدت له المسألة ، قال لى بأنه أرسل تلغرافا إلى فخامتكم بأن التدابير المذكورة كانت لتدعيم النظام فى تلك النقط ، ولأنه لم يسبق تعيين الحدود فانه طلب فى تلغرافه المذكور إرسال مندوبين لتعيين الحدود . وبعد ذلك سمعت بأن قومندان العقبـة أخطر مأمورى مصر بعدم القيام بعمل أى منشآت هناك ، وأنه على الرغم من هذا الاخطار فقد علم بحصول الانشاءات . لذلك أرسل قوة

عسكرية لهدم ما استحدث ومنع العمل ؛ وعند وصول القوة تصادف وصول الوابور نور البحر وإخراجه خمسين نفراً من العساكر للقيام بعمل الانشاءات ، ومن هذا الوقت حصل الخلاف الذى ما زال مستمراً . ولازالة هذا الخلاف يجب إيضاح ماهية المسألة فى تفسير علاقات مصر بالدولة فنقول :

التصرفات الملكية لمصر وإدارة أمورها الداخلية : كانت مصر من القديم فى قبضة الدولة وكلما دعت الحاجة تعين من قبلها والياً عليها لادارة شئونها الداخلية لأنها من الأجزاء المتممة للدولة .

ولكن لسبب من الأسباب فان الوالى محمد على باشا قام ضد الدولة وانتصر عليها .

وكان من أثر ذلك تصديق مندوبى انجلترا والنمسا وروسيا وبروسيا على حصول محمد على باشا على الفرمان العالى رقم ٢ ربيع الآخر سنة ١٢٥٧ الذى جاء فيه . . . أبقى فى عهدتكم بطريق الامتياز إدارة الخطة المصرية المحدودة بحدودها القديمة المعينة بالخريطة المختومة بخاتم الصدارة ، مضموماً إلى ذلك الوراثة وشروطها أنه كلما خلا محل الوالى يكون إسناد الولاية لأولاده وأولاد أولاده الذكور ؛ الأكبر فالأكبر ويكون تعيينهم بمعرفة الدولة العلية .

وفى حين انقراض الذكور يكون التعيين من حق الدولة وليس لأبناء الاناث حق فى منصب الولاية . . . الخ . . . وفى هذه العبارة ثلاث نقط مهمة .

أولا : الخريطة المذكورة، وعندى صورة منها، وهى تحدد مصر شرقا من العريش إلى السويس بوصل خط مستقيم يبقى فى شرقة أراضى ولاية الحجاز وسورية .

ثانياً : كلمة إبقاء التركية ، معناها أن مأموريته هى بحسب القديم ، أما إدارة مصر الداخلية فهى تحت قيود معينة منها امتياز الوراثة ، أما حق التصرفات الملكية فهى بمثابة سائر الايالات الشاهانية (أى كما كانت فى قبضة الدولة العلية) .

والدليل هو أولا : إنه عند انقراض الذكور ترجع الى الدولة أمور الادارة وثانياً : سكان مصر هم تابعون للرعوية العثمانية وثالثاً : أن ليس للخديوية مناسبات سياسية مع الدول الأجنبية ورابعاً : قوتها العسكرية معدودة من القوة العمومية العثمانية . وأمثال ذلك لا يجعل فى الملكية من فرق بين مصر وسائر الولايات الشاهانية . وفقط إدارة الأمور الداخلية تدخل تحت القيود الموضوعة للامتياز وصاحب هذا الامتياز هو المرحوم محمد على باشا ومن بعده حسب قاعدة الوراثة لواحد من أولاده وأحفاده

الذكور . وخلاصة القول أنه عند العودة لكلمة (مصر) يرد على الخاطر تصرفات الملكية والادارة الداخلية ؛ فالكلمة الأولى دائماً محفوظة فى قبضة الدولة، والثانية هو أنه فى دائرة القواعد المرسومة يكون من ورثة محمد على باشا خديو يحمل رتبة الصدارة .

طريق الحج : قديماً كان طلب والى مصر التصريح له باستخدام موظفين مصريين وعساكر مصرية للمحافظة على طريق المحمل الذى يمر بطورسينا والعقبة ومدائن صالح، ودام هذا الحال خلفاً بعد سلف إلى ما قبل ١٥ سنة . ولما صار البدء بارسال المحمل المصرى بحراً من السويس لم يبق من لزوم لطريق البر فالدولة رأت أن تربط إدارته بولاية الحجاز ، وعلى هذا كانت حدود مصر تبتدىء من الوجه وبعده ضبا ومويلح . وبعد تولية الحضرة الخديوية صار استرداد العقبة وصار ترك شبه جزيرة طورسينا لمصر بصفة حدود (بمقتضى تلغراف) يستبان منه هذه التفصيلات : أن الدولة بحسب قرار الدول المعين فيه الحد من العريش إلى السويس هو عبارة عن جزء ألحق بناء على لزومه إلى الخريطة المصرية ، ولزوال الحاجة صار استرداد قسم منه وبقى شبه جزيرة طورسينا إلى إدارة مصر تحت استرداده عند اللزوم . لهذا لا يمكن قبوله بصفته حدوداً وإن قيام الادارة المصرية بانشاءات عسكرية فيه مخالفة ظاهرة كالشمس .

العساكر الشاهانية الموجودة بموقع طابا ، هى للمحافظة على هذا الحق وفى قسم من ممتلكات الدولة كان ملحقاً بمصر على سبيل الأمانة ؛ وقد يستخلص أيضاً أن التصرفات الملكية فى مصر هى بيد الدولة مثل تصرفاتها فى باقى الولايات وليس فى الأمر معاهدة مبرمة عن طريق أجنبى فالدولة باعتبارها صاحبة الالحاق لها كذلك حق الاسترداد ، خصوصاً وأن الأراضى المتحدث عنها خارجة عن القرار الدولى .

لهذا فهى فى كل وقت خاضعة لما هو جار لسائر الولايات .

فاذا قيل بفرض أن هذه الأراضى بموجب التلغراف رقم ٧ أبريل سنة ١٨٩٤ بقيت لمصر ، كما صار إبلاغ بعض الدول ، فالجواب هو أن التبليغ لم يتضمن الالحاق وليس هناك صراحة قطعية بذلك بل على العكس فان كلمة إبقاء التى ذكرت فى البلاغ لبعض الدول تفيد المحافظة على الحدود القديمة وهى بمثابة إعلان فقط بأن مصر هى المرجع فى كل ما يتعلق بهذه النقطة .

لذلك لم نفهم السبب الموجب للحدة والاعداد الحاصل من جراء منع الانشاءات العسكرية ، وعدم قبول تعيين الحدود فى أرض تركت لمصر مع قابليتها للاسترداد ،

مع كون ذلك من الحقوق الصريحة للدولة وعلى الخصوص التهديد الواقع بارسال الوابور البحرى ديانا قد يفهم أن مصر ظنت أن لها الخط المرسوم بين العقبة والعريش ، ولكن الحقيقة أن النهاية لشبه جزيرة طورسينا وقنال السويس وخليج العقبة من الشمال والخط الواصل منها الى الجنوب يتشكل منها قطعة مثلثة .

وإن هذا الخط هو حدود بين الدول — فادارة المثلث المتخلف من هذا الخط بين العريش والسويس وإن كانت لولاية الحجاز إلا أنه صار السكوت عليها الى الآن .

على أن تطور مسألة العساكر الشاهانية وتهديدهم فى موقع طابا إن هو إلا حق صريح للدولة جعلها مجبورة للبحث فيه .

وفى الواقع كذلك أن الخط الممتد من العقبة الى العريش وإن كان بشكل شبه جزيرة كبيرة وأن النهاية الشمالية للخليج مع إيصالها بالخط المتقدم يتشكل منها منطقة صغيرة هى طورسينا وأن كل خليج من خلجان هذه المنطقة يعرف باسمه الخاص .

بناء عليه يجب العلم بأنه من حق الدولة العلية فى كل يوم إرسال عساكرها لغاية جبهة السويس .

موقع طابا المختلف عليه والداخل فى شبه الجزيرة إن كانت إدارته تركت لمصر فان مرور فرع خط السكة الحديد الحجازية من العقبة يجعل منه ميناء بالخليج وأن سواحل الميناء لا تكون فى يد إدارتين . ومع أن الملكية للدولة فان كل ما هناك هو عبارة عن ساحة جبلية صخرية لا تنفع بشىء وإن ترك إدارتها للدولة لن يضر ذلك لمصر فى شىء .

وحيث إنه لم يكن لدولة انجلترا أى مناسبة فى موقع طابا فليس لوجود الباخرة ديانا أى معنى لأية شكوى لحق الكلام هو لسمو الخديو وحده فلذلك يرد على الخاطر بأن سموه هو العامل على وجود هذه السفينة هناك .

وحيث إنه من أهم وظائف الخليفة المعظم تأمين سلامة طريق الحج ، وكان أمر المحافظة يقوم به ولاة مصر إلا أنه من بعد سيكون جلالة الخليفة مجبوراً على القيام به .

فأعرض لفخامتكم الكيفية رجاء أن تتفضلوا بمطالعة الشىء فى وقته . »

ولما اطلع الخديو على هذا التقرير تباحث ومصطفى فهمى باشا وبطرس باشا فيما جاء به . وبعد مخابرة الأخيرين للورد كرومر قدما لسموه تقريراً منه بوجوب حفظ

حقوق مصر فى سيناء ؛ وبعد المناقشة فيه عدلت عباراته الشديدة . وفى اليوم التالى بعث سموه برسالة سرية للصدارة هذه ترجمتها :

« بناء على التلغراف الوارد أخيراً من فخامتكم حصلت محادثتنا مع صاحب الدولة مختار باشا بحضور رئيس مجلس النظار وناظر خارجيتنا ، وكان من الطبيعى الرد على جوابه فى اليوم التالى .

فحضر لدينا فى اليوم التالى الرئيس مع ناظر الخارجية ، وعرفا بأن تقرير دولة مختار باشا لا يمكن قبوله لما فيه من تجاوز لحقوق مصر الممتازة ، وقدما إلينا تقريراً بهذا الصدد ، وقالا بوجوب إرساله إلى الباب العالى ؛ فبعد محو وإثبات فيه قبلناه منهما مع الاضطرار والأسف ، لأن الرفض قد لا يمكن توفيقه مع موقفنا ولا أرى من حاجة للايضاح .

ماهية هذا التقرير هو أن الحدود المصرية فى شبه جزيرة طور سينا تنتهى بالعقبة ، ويدخل فى هذا التحديد موقع طابا ؛ ذلك لأنه بورود تلغرافكم السامى مع الفرمان الأخير كانت نظارة خارجيتنا بينت الحدود المصرية بناء على طلب اللورد كرومر فيما مر ، وهذا هو سبب الاحتجاج الواقع الآن .

ولما كان هذا التقرير مغايراً بالمرة لآرائى وأن صداقتى ووجدانى لا يقبلان كتمانه ، وكنت أيضاً مجبراً على تقديمه ، فقد فعلت ذلك بعد محو وإثبات ، تاركا تقدير الواقع لشرف فخامتكم .

وحيث إنه من ضمن الأغراض الخفية ، التى يعمل بعضهم عليها ، تصويرى فى نظر متبوعى المعظم بصورة أخرى ، لكنى أمين بأن حالى ومقالى يحولان دون ذلك .

أما فيما يختص بطريقة حل وتسوية هذه المسألة فانه جاء فى خاطرى أن يكون رد فخامتكم على التقرير المذكور بما يأتى :

إن التفسير والايضاح هما من حق صاحب الأمر والفرمان دون سواه . وعلى كل حال فانه من الأمور المسلم بها أن الدولة التى تترك مؤقتاً لجهة من جهاتها أمر إدارة جهة ، لها عند اللزوم والحاجة أن تستردها فيقال فى هذه الحال :

قضت الضرورة بالحاق الجهة الفلانية بصورة قطعية إلى ولاية الحجاز ، والحدود

المصرية تعتبر من نقطة « كذا » ويكون تلغرافكم بصورة قطعية بغض النظر عن جوابنا الذى نص فيه على عدم القبول . هذا على ما أظن هو الحل .

وحيث إنه ثابت من تحرياتى الخصوصية أنه ليس ثم من حق سياسى ولا من سبب للتطور فانى كفيل بأنه لا يمكن تدخل أى طرف آخر . »

وعلى أثر وصول هذه الرسالة السرية للاستانة جاء الرد بما يأتى :

« كان قد صرح للادارة المصرية بايجاد عساكر بقدر اللزوم فى الوجه ومويلح وطابا والعقبة وبعض مواقع من شبه جزيرة طورسينا وسواحل الحجاز بسبب إرسال المحمل المصرى بطريق البر كما هو فى علمكم السامى .

وبما أن هذه المواقع لم تدخل فى خريطة التحديد المصرية المرفقة مع الفرمان الصادر إلى المرحوم محمد على باشا فى سنة ١٢٥٧ هـ ، ولمساس الحاجة أعيدت الوجه أولا وبعدها طابا ومويلح والآن العقبة إلى ولاية الحجاز .

أما شبه جزيرة طورسينا فقد صدرت الارادة الشاهانية بالمحافظة على الحدود الممنوحة إلى محمد على باشا وجدكم اسماعيل باشا ووالدكم كما كانت من قبل . »

ثم وردت رسالة خاصة من الباب العالى للخديو هذا نصها :

« أتشرف بأن أعرض لسموكم أن إشعار فخامتكم المتضمن إعادة موقعى طابا والمويلح إلى إدارة ولاية الحجاز وتبليغاتكم الفخيمة فى شأن طريق الصدق والاخلاص الذى اتخذتموه مع الباب العالى ، قد استوجب حصول التقدير والمحظوظية لدى مولانا ملجأ الخلافة ، وبحسب ما أمرت به أبشر فخامتكم بسلام الحضرة السلطانية العالى .

وعلى حسب إشعار فخامتكم قد أجرينا التنبيهات على من لزم لأخذ موقعى طابا والمويلح تحت الادارة مباشرة .

أما موقع العقبة فان الفرمان العالى الذى أعطى إلى المرحوم محمد على باشا فى ٢ ربيع آخر سنة ١٢٥٧ كما أنه مندرج به جملة الأيالة المصرية المحدودة بالحدود القديمة المعلومة المشروحة فى الخريطة التى أرسلت فى ذاك الوقت مختوم عليها بختم مقام الصدارة .

كذلك كافة الفرمانات العالية التى أعطيت إلى مصر كان معطوف فيها حدود مصر على الفرمان العالى المبين أعلاه .

وحيث لا بد أن يكون الفرمان العالى المذكور والخريطة المنبأ عنهما موجودين ومحفوظين هناك ، فبطلبهما والاطلاع عليهما لا شك أنه يزول التردد الحاصل لدى فخامتكم فى هذا الخصوص .

ثم بناء على أن إعادة ارتباط موقع العقبة فى الوقت الحاضر إلى ولاية الحجاز هو من أهم وألزم الأمور ، والهمة الجليلة التى تقع من فخامتكم فى هذا الباب تستلزم محظوظية على انفرادها لدى الحضرة الشاهانية صار ينتظر من انتساب وعبودية فخامتكم المسلمة للأعتاب العلية حصول نهو هذا الأمر بدون إعطاء فرصة لتمكن المداخلة الأجنبية واستكمال الأسباب السريعة لاعادة ارتباط موقع العقبة بولاية الحجاز كما تقتضيه شيمتكم الجليلة المنطوية على العلم بدقائق الأمور .

هذا وقد أمر حضرة احمد مختار باشا باعطاء الايضاحات المقتضية لذاتكم السامية فى هذا الخصوص افندم . .

سفرى للاستانة لانهاء المسألة . عند ذلك تقرر سفرى فى معية الوالدة وسافرنا من القاهرة فى ١١ أبريل ومعى ملف بصور جميع المكاتبات والوثائق المتعلقة بمسألة طابا .

تعليمات الخديو : وكانت التعليمات التى أعطيت لى أن أقول فى السراى إن الجناب العالى بذل كل ما يستطيعه ولا يزال على ولائه للسلطان ، وأن أقابل سفير انجلترا ؛ ولكن لا أبوح له بالمكاتبات السرية ؛ وكنت قد استشرت بطرس باشا قبل السفر فيما إذا طلب السفير محادثتى فهل أحادثه فى شيء ، فأجاب بأن لا مانع وأنه سيخبر كرومر بذلك .

السفر : وركبنا الباخرة « برنس عباس » وفى ١٥ منه وصلنا الاستانة فجاء القزلر أغاسى والفريق حسنى باشا للسلام على دولة الوالدة من طرف السلطان .

فى المابين : وقد ذهبت على الأثر إلى يلدز ، فلم أجد رئيس الكتاب ، فتوجهت إلى نورى باشا وسلمته الوثائق ورجوته عرض احترام وإخلاص الخديو للسلطان ، وتقبيل الأعتاب من طرفى ، فدخل ثم عاد بشكر الخديو والسلام لى ؛ وقال لى إن جلالته أمر بحضورى غداً عند رئيس الكتاب .

وقد ذهبت فى الميعاد المحدد فسلمت على تحسين باشا وأبلغته تحية الخديو ؛ ثم دخل على السلطان وعاد فأبلغنى أن جلالته متأكد أن سمو الخديو يعاضد الرغبات السلطانية فى مسألة العقبة ، وأبدى ملاحظات ومعلومات تؤيد أن طابا من أراضى

الدولة ، وكلفنى أن أكتب للخديو بذلك ثم قال : « إن مختار باشا أرسل يطلب أن تبعث الدولة برقية معينة للحكومة المصرية فلم يوافق السلطان عليها وفضل أن تحل المسألة بمعرفة الخديو . »

زيارتى للصدر الأعظم : وفى ١٦ أبريل قابلت فريد باشا الصدر الأعظم فرحب بى . وقد قال لى مثل ما قاله تحسين باشا من جهة السلطان وعن مسألة العقبة . ثم أضاف بأنه كان الوحيد الذى دافع عن الخديو حتى اتهمه السلطان بالتحيز له ؛ ولكنه اقتنع أخيراً باخلاص عباس وبأن من صالح الدولة أن يكون التابع والمتبوع على وفاق ، لا سيما والخديو رجل مخلص وصادق الاسلام ومحب للدولة والسلطان ؛ ثم كلفنى أن أخبر الجناب العالى بأنه سيبذل كل مجهود لمعاونة سموه فى الاستانة فى المسائل الرسمية ، وأنه ينصح أن تكون المراسلات الخاصة بالعقبة للسراى رأساً وأن الانجليز أميل الآن إلى التساهل فى الموضوع .

حديثى مع سفير انجلترا : وفى ١٧ منه قابلت سفير انجلترا ودار بيننا الحديث حول مسألة العقبة ، فعلمت منه أنه فى ابتداء المشكلة طلب إلى الباب العالى إخلاء طابا وبعدئذ تدور مفاوضات لحل المشكلة ؛ وكان الباب العالى عازماً على القبول ، ولكن ثبت أن الأتراك ينوون احتلال جزيرة فرعون لولا إرسال العساكر المصرية واحتلالهم إياها ؛ وقد هددهم الأتراك باخراجهم بالقوة إلا أن حضور المدرعة الانجليزية ديانا حال دون ذلك ، وأن الباب العالى كان قد عين اثنين من الضباط للتفاهم فى مسألة الحدود ولكنهما عادا للاستانة بعد مقابلة الغازى لهما .

ويعزى تغيير خطة الباب العالى فى التمسك والتشدد إلى الغازى مختار باشا وأحمد عزت العابد باشا .

وقد فهمت من حديثه أن دولته متمسكة بوجهة نظرها وهى إخلاء طابا من الجنود الأتراك ، وذلك عكس ما فهمت من الصدر الأعظم عن خطة انجلترا . وقد قال لى السفير : « إن هذه المسألة لو سلمنا فيها للباب العالى فانه يتدخل بعدها فى كل شىء . »

ثم تحادث معى فى أن الصحف المصرية عدا المقطم تناصر الباب العالى وتساءل عن السبب فى ذلك ، فأجبته بأن اللواء — لسان حال مصطفى كامل وجماعته — متصلة بالغازى فتبدأ بنشر آرائه وتتبعها الصحف الأخرى ، فلمح لى بأنه يجب القيام بعمل شىء لتدارك هذا التيار الضار .

ثم قابلته فى اليوم التالى فى مأدبة عند سفير إيران فقال لى : « إنه ينتظر النتيجة كمتفرج مثل أبى الهول ! أو جريدة اسبكتاتور الانجليزية ! »

وفى ٢٢ أبريل ورد لى من مصر كتاب باسم الصدر الأعظم ، وكتب لى عزت بك بأن أحمله إليه بنفسى ، وأخبرنى أن الصدر كان قد أرسل برقية لمصر خاصة بنتيجة المخابرات مع مختار باشا ، فأرسل الرد عليه فى صيغة غير لائقة ، واضطر الخديو أن يجارى رجال الاحتلال فى قبول هذه الصيغة ، وهو يأسف لذلك ويكلفنى إبلاغه للصدر شفاهاً فضلا عن أن سموه كتب له تقريراً بالأسباب التى دعت إلى أن يكون الرد بهذه الصيغة والتقرير مرفق بالرد .

وقد توجهت للصدارة فى اليوم التالى فسلمت الرسالة للصدر ، وبينما كان يقرؤها دخل شخص لا أعرفه فبدا على الصدر الامتعاض لوجوده وثنى جانب التقرير حتى لا يرى ما فيه ، ثم قال لى بالفرنسية : « أخبر الجناب العالى أننا نجرى اللازم الآن لانهاء مسألة طابا ويلزم أن يساعدنا . » فقلت له : « إن بطرس باشا ينتظر المعونة فى مسألة الدير بالقدس . » فأجابنى : « عليه مساعدتنا فى مسألتنا ، وعلىّ أن أرضيه تمام الرضاء . » ثم خرجت .

وقد قابلت زمباكو باشا فعلمت منه أن الباب العالى سيعمل على حل المشكل بصفة ودية ، يعنى أنه سيتساهل فى موقفه ، ففهمت معنى ما قاله لى الصدر من أن المسألة فى طريقها للحل .

احتجاج الحكومتين المصرية والانجليزية الرسمى . بعد ذلك جاءنى نبأ بأن الأتراك أرسلوا نفراً لاحتلال رفح . وفعلا أزالوا عمودى الحدود ونصبوا الأعمدة التركية محل أعمدة التلغراف المصرية فصدرت الأوامر بقيام المدرعة مينرفا وعليها قومندانها ويموث معتمداً من قبل الحكومة البريطانية ونعوم بك شقير معتمداً من قبل الحكومة المصرية ، فلما



القومندان ويموث

وصلت المدرعة فى ٢٨ أبريل أرسل قومندانها إلى قومندان العساكر الشاهانية ما يأتى:

« قومندان العساكر الشاهانية برفح . بعد السلام أكتب إليكم هذا لأخبركم أنى جئت مندوباً من قبل الحكومة البريطانية لمقابلتكم بشأن خط الحدود ويمكننى الانتظار هنا ساعتين فقط فاما أن تأتوا إلى أو أذهب إليكم ومعى نعوم شقير بك الذى حضر مندوباً عن حكومة مصر وأرجو أن تتكرموا بالرد حالا مع رافعه . واعلموا أن مأموريتنا هذه هى مأمورية ودية سلمية ويمكن انتهاؤها بمقابلة قصيرة . » فلما لم يحضر رغم الانتظار أرسل المعتمدان إليه هذا الاحتجاج :



عمودا الحدود برفح

« حضرة قومندان العساكر الشاهانية برفح . نعلم حضرتكم أننا انتظرنا خمس ساعات فى بيت التلغراف تجاه معسكركم لأجل مقابلتكم فلا حضرتم ولا أرسلتم جواباً ، فعدنا إلى الوابور وقد لاحظنا أن عمودى الحدود اللذين كانا قائمين عن جانبى السدرة التى عسكرتم بقربها قد رفعا من مكانهما ولاحظنا أيضاً أن عمد التلغراف المصرى من خط الحدود إلى طريق بئر رفح قد بدلت بعمد أخرى ، فبالنيابة عن الحكومة المصرية والحكومة البريطانية نحتج على فعلكم هذا احتجاجاً شديداً ونطلب أن تعيدوا عمودى الحدود وعمد التلغراف إلى أماكنها وتحافظوا على الحدود المقررة وسنرسل نسخة من كتابنا هذا إلى رجال الحل والعقد من المصريين والانجليز فى مصر وإذا أجبتم مخاطبتنا فالطراد لا يسافر من ميناء رفح قبل صباح الغد الثلاثاء الساعة تسعة أفرنجى . »

وفى اليوم التالى حضر القومندان وقابل نعوم شقير بك وقال له : « بما أنك معتمد الحكومة المصرية فانى أفاوضك ولكن الكبتن ويوث معتمد الحكومة البريطانية فانى أستقبله كزائر . » ثم أفهمه نعوم بك أن هذه الرسالة هى احتجاج رسمى ؛ وحفظاً للمسالمة عليه أن يكتب لحكومته بتعيين لجنة مختلطة من أتراك ومصريين لتعيين حدود طابا والعقبة .

بلاغ انجلترا النهائى . وفى ١٢ مايو سمعت إشـــاعة مضمونها أن انجلترا أرسلت أسطولها إلى بيرة للقيام بمظاهرة بحرية ضد الدولة بخصوص طابا وأنها أرسلت

للدولة إنذاراً باخلائها ، ولم أستطع التأكد من صحة هذه الاشاعة تماماً فقابلت السفير الانجليزى فأعلمنى أن انجلترا لما رأت أن فى قبول مطالب تركيا خطراً على حرية القنال ومصر والعائلة الخديوية أوعز وزير خارجيتها السير ادوارد جراى إليه فرفع إلى الباب العالى بلاغ حكومته النهائى بتاريخ اليوم يدعوه إلى إجابة مطالب انجلترا فى عشرة أيام وهذه المطالب هى « ١ — إخلاء طابا ٢ — عود عساكر رفح إلى حدهم ٣ — إعادة عمودى الحدود فى رفح إلى مكانهما . »

وقال لى إن السلطان صرح له بأنه لم يكن يعلم أن مسألة طابا قد تحرجت إلى هذا الحد وأن جلالته لما علم أمر بقبول وجهة النظر الانجليزية بشأنها .

وفى ١٤ منه بعث توفيق باشا الصدر الأعظم الذى خلف المرحوم فريد باشا الرسالة الآتية إلى السر نيقولاس أوكونور السفير الانجليزى بالاستانة : « تشرفت بالمذكرة التى تكرمتم بارسالها إلى فى ١٢ الجارى بشأن احتلال طابا وقد قر الرأى على أن الضباط أركان حرب الموجودين الآن فى العقبة والموظفين الذين ينتدبون من قبل سمو الخديو يمرون معاً على الأمكنة اللازمة ليجروا التحريات الفنية على مقتضى القواعد الطوبوغرافية ويعينوا على خريطة النقط الطبيعية التى يكون بها ضمان الحالة الحاضرة وبقاء القديم على قدمه فى شبه جزيرة سينا وأن يرسموا خطاً للحدود يبتدىء من رفح بقرب العريش ويتجه جنوباً بشرق على خط مستقيم تقريباً الى نقطة على خليج العقبة تبعد على الأقل ٣ أميال من العقبة وبذلك تكون الرغائب التى أبديتموها سعادتكم فى رسالتكم المشار اليها قد تحققت تماماً — هذا ونسأل سعادتكم أن تبلغوا ذلك الى لندن ونأمل أن حكومة جلالة الملك ترى بذلك برهاناً جديداً على رغبتنا الشديدة فى دوام حفظ العلاقات بيننا على دعائم المودة التامة وأن فى إبداء حكومة جلالته تمام ارتياحها لذلك دليلا على القيمة التى تعلقها على حفظ وتوطيد العلاقات الحسنة الكائنة لحسن الحظ بين الحكومتين — افندم .

الامضاء توفيق »

وقد أرسلت للخديو رسالة بتاريخ ٢٨ مايو جاء فيها : « انتهت مسألة طابا ، ولكن الجميع ساخطون هنا على الغازى مختار باشا وبالأخص السلطان والصدر وناظر الحربية وقد سمعت أحد النظار يقول إن مختار باشا خدم صالحه الشخصى بأخذه سراى نمرة ٣ ولم يفكر فى خدمة الدولة ، والصدر يقول إن الدولة العلية لم تتخابر حتى اليوم بصفة رسمية مع انجلترا بشأن مصر ، ولكن سياسة مختار باشا اضطرتها للمخابرة فى مسألة طابا ولا يخفى ما فى ذلك من النتائج الضارة بتركيا ومصر .

وبالاختصار فالرأى العام هنا تهيج ضد الغازى وراض عن خطة الجناب العالى لدفاعه عن مصالح الدولة والدين رغم حرج مركز سموه . وقد ظهر لسيدى مما سبق عرضه أن سكون الانجليز لم يكن إلا ظاهرياً وأنهم ضغطوا على الدولة عند اللزوم للحصول على غايتهم ، لأنهم يعلمون أن سياسة الدولة فى كل المسائل كانت تشديداً ثم تفريطاً كما حدث مع كثير من الدول .

وقد حدث فى الأيام الأخيرة أن وابوراً بخارياً ألمانياً كان بمياه البسفور فضبطه رجال الدولة أمام باشا بغجه بحجة فارغة ، فاغتاظ السفير لهذا التصرف وركب فى هذا الوابور ورفع فوقه العلم الألمانى ، وأمر قومندانيه بالسير فلم يتعرض له أحد ، وهو الآن يطالب بمبلغ سبعمائة جنيه تعويضاً عن العطل والاضرار . فهكذا أحوالنا هنا ولا حول ولا قوة إلا بالله . »

تعيين أعضاء اللجنة وتحرير التخوم . بعد ذلك عدت إلى مصر فوصلتها يوم ٢٨ يونيو . وصدر أمر الباب العالى إلى المندوبين العثمانيين فى العقبة أن يجتمعا مع من تنتدبهم مصر لتعيين خط الحدود ، فانتدبت الحكومة المصرية لجنة مكونة من اللواء ابراهيم فتحى باشا والأميرالاى أوين بك مدير المخابرات وتعين نعوم شقير بك سكرتيراً لهذه اللجنة التى قامت بمهمتها وعينت الحدود بتعيين خط فاصل إدارى بين ولاية الحجاز ومتصرفية القدس وبين شبه جزيرة طورسيناء .

وفى أول اكتوبر وقع مندوبو الحكومتين التركية والمصرية هذه الاتفاقية وأنهى الاشكال .

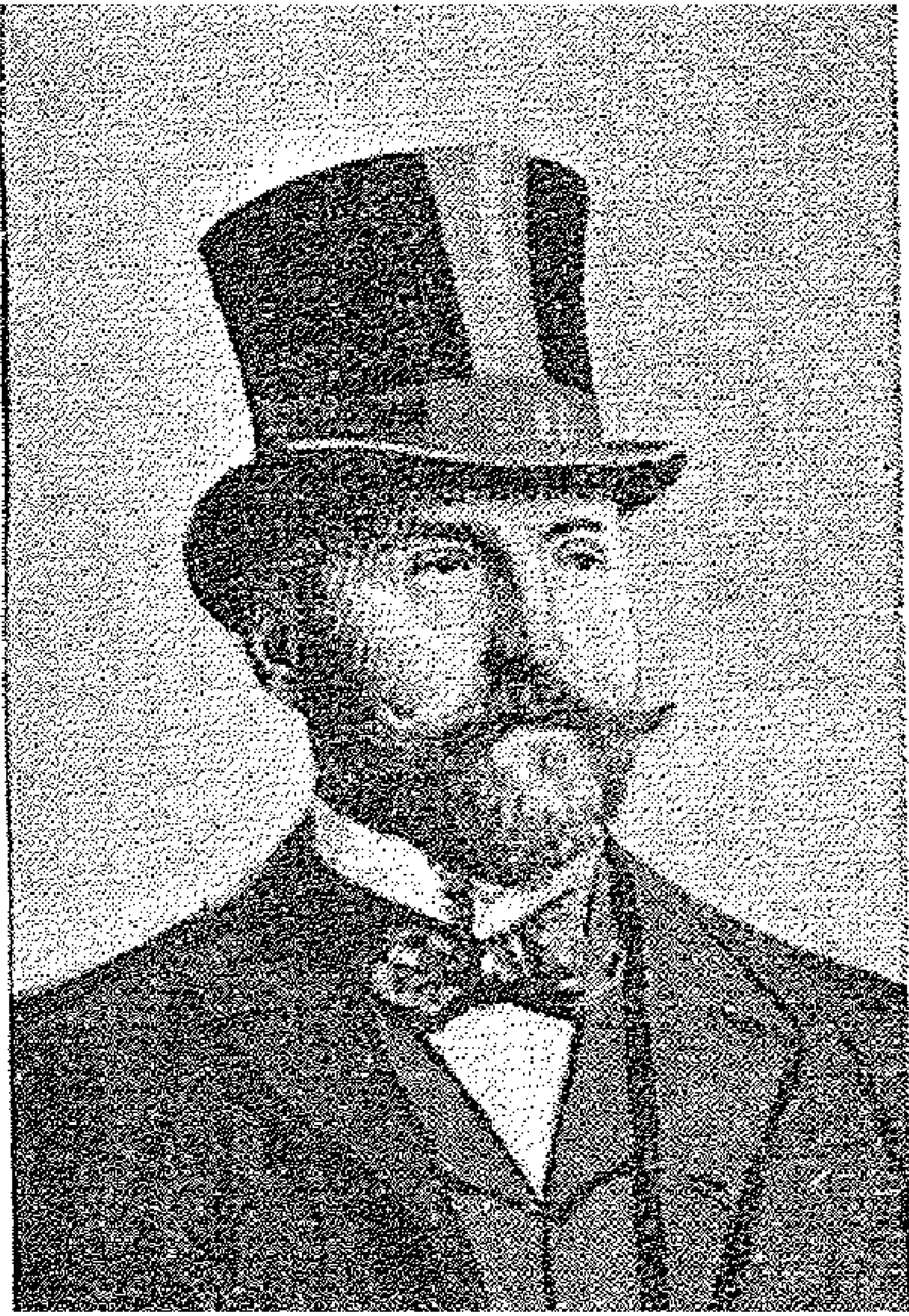
وصدرت الأوامر إلى اسماعيل افندى المفتى اليوزباشى بمصلحة الأشغال بالجيش المصرى والمستر ويد أحد مهندسى اللجنة المصرية ، بالقيام إلى طابا مع بعض الضباط والعساكر والبنائين ، لاقامة أعمدة الحد . فوصلوها فى ٤ ديسمبر وفى ٣١ منه أنهوا بناء أول عامود على رأس طابا وأعطى نمرة ٩١ ، وآخر عامود على تل الحراب فى ميناء رفح أنهوا إقامته فى ٩ فبراير سنة ١٩٠٧ وأعطوه نمرة ١ .



اليوزباشى اسماعيل المفتى افندى

ملك الانجليز حانق على عباس . سمعت من البرنس حسين كامل باشا أن ملك الانجليز كان يعطف على الخديو ويحبه ؛ وكان يعتقد أنه إزاء هذا العطف مخلص له ولكن مسألة طابا غيرت مجرى الأمور ، لأن الانجليز فى مصر وفى الاستانة تمكنوا من الحصول على صور البرقيات التى تبودلت بين الخديو والاستانة وكانت كلها ضدهم ، مع أن الخديو كان يظهر لهم بالعكس أنه معهم ومخابراته فى صالحهم ؛ فلما اطلع عليها الملك قال : « كنت أظن أن الخديو معنا ، ولكننا نعرف الآن أنه يظهر لنا غير ما يضمر فلا نثق به . » وبهذه الحالة خسر الخديو عضداً قوياً ضد كرومر ، لأن الملك كان يعترض على تصرفات اللورد ضد الخديو ، أما الآن فان جلالته قد غير اعتقاده وخطته .

وأخبرنى البرنس حسين كامل باشا أيضاً أن هناك سبباً آخر لوقوف الملك ضد كرومر ؛ ذلك أنه كان يود أن يعمل اللورد على مساعدة السير إرنست كاسل فى مشروعاته المالية بمصر حتى تثمر وتزدهر ، لأن الملك فى حاجة مستمرة المال ؛ ولكن كرومر لم يكن ميالا لمساعدة كاسل ، لأنه صديق الملك ويمد جلالته بالمال ، فلهذا كان الملك والسير كاسل يضمران معارضة اللورد .


السير إرنست كاسل

ثم قال البرنس بأن السير كاسل زاره بعد مقابلته للجناب العالى ، وتكلما سوياً عن الخديو فلم يجده متحمساً له ؛ وقال إنه كتب اسمه فى دفتر التشريفات أولا وإنه عندما قرب ميعاد سفره تذكر أن الخديو كان ضيفه يوماً من الأيام وبينهما مودة فطلب مقابلة سموه .

وأضاف السير كاسل إلى ذلك أنه يتوقع أن تقع بمصر فى الشتاء المقبل حوادث سيئة لأن كرومر سيعود بالأوامر الشديدة ؛ فسأله البرنس عما يحسن أن يفعله الخديو مع الملك ، فقال إنه يجب التأنى وعدم الاندفاع فى شىء .

هذا وقد أخبرنى دومرتينو باشا أنه رجا السير إرنست كاسل فى أن يعمل لاصلاح العلاقات بين الخديو والملك .

ثم علمت منه أيضاً أن اللورد كرومر ، أثناء المفاوضات التي جرت بخصوص طابا ، جاء للخديو يوماً وقال له بصراحة إنه حصل على صور البرقيات والمكاتبات المتبادلة بينه وبين السلطان ، ويفهم منها بأن الانجليز ضد صالح مصر . وأنه علم من بروستر بك أن الذى يشجع الخديو على العمل ضد الانجليز هى شخصية تعمل من وراء ستار وأنها كلما جاء اللورد لمقابلة سموه ، فانها تجلس وراء الباب الفاصل بين قاعة الاستقبال وغرفة المكتب ، وتستمع للمحادثة التى تدور بين الاثنين . وقال له بروستر إن الانجليز يبحثون الآن فى مسألة خلع الخديو .

وحدثنى دومرتينو باشا بأن كاسل قال للخديو عند مقابلته لسموه إن ملك انجلترا متأثر جداً من سموه ، وإنه قال : « إنى لا أغتفر للخديو أنه جعلنى على وشك الدخول فى حرب مع تركيا . » وأضاف كاسل إلى ذلك أنه يصعب الآن تحقيق أمنية الخديو فى إصلاح الأمور بين الطرفين .

ولى عهد انجلترا وخطاب البكرى له . فى ٢٩ مارس حضر البرنس دوجال وقرينته وكان فى استقباله فى المحطة الخديو وشقيقه ، والنظار والمستشارون والوكلاء والمحافظ ، وكبار رجال المعية ؛ وكذلك استقبله اللورد كرومر وقرينته ؛ وقد ركب الجناب العالى مع البرنس فى عربة ، وركب البرنس محمد على مع البرنسيس دوجال ، وركب الباقون العربات خلفهم .

وكانت الطريق غاصة بالجمهور المحتشد بين المحطة وسراى عابدين لمشاهدة الموكب ولكن الاستقبال كان فاتراً فلم يصفق ولم يهتف أحد .

وبلغنى من الخديو أن البرنس استاء من الفرقة الموسيقية الانجليزية التى كانت فى استقباله ، لأنها لم تتم عزف السلام الملكى .

وفى ٣١ مارس تناول طعام الغداء على مائدة السردار بالعباسية ، وشاهد ألعاباً رياضية قامت بها الجنود .

وفى مساء اليوم نفسه أقام له الخديو مأدبة عشاء فخمة .

ولى العهد وأعضاء مجلس الشورى : وكان أعضاء مجلس شورى القوانين قد طلبوا مقابلة البرنس فأذن لهم بذلك وساء الخديو تصرفهم هذا ؛ إذ كان سموه يريد

أن يقدمهم أحد رجال التشريفات . ولما قابلهم البرنس خاطبهم باعتبارهم نواب البلاد . وقد خطب رئيس الجمعية العمومية أمام سموه ، وطلب فى خطبته أن يزاد الجزء المخصص للتعليم من الميزانية المصرية ، لأن المقرر الآن لا يكفى لسد حاجة البلاد .

وبعد خروجهم من عنده فكروا فى إرسال عريضة إليه ، يطلبون منه فيها التوسط لدى خديويهم فى منح البلاد نظام الحكم الدستورى . ولكنهم عادوا فرأوا أن فى هذا التصرف إحراجاً لعباس . فقرروا أن يتقدم السيد محمد توفيق البكرى عضو مجلس الشورى إلى البرنس على صفحات الصحف بكتاب مفتوح . يعرب فيه لسموه عن أمانى الأمة المصرية ، وهذا نص الكتاب :

« إلى صاحب السمو ولى عهد الدولة البريطانية . من سماحة السيد البكرى نقيب أشراف الديار المصرية .

ياصاحب السمو الملكى :

إن المصريين لمبتهجون سروراً بزيارة سمو ولى عهد أكبر دولة فى الأرض بسطة فى الملك ، ونفوذاً فى عالم السياسة . هذه الدولة التى قام بناؤها العالى المتين على أساطين قوة الدستور والحرية الشخصية ، ورعاية الحق لها وللغير . هذه الدولة التى احتلت بلادنا منذ ثلاثة وعشرين عاماً ، على أن تمنحها كل وجوه الرقى ، لتسلمها زمام أمرها .

ولقد استبشر المصريون وابتهجوا فى أنكم تنازلتم وخصصتم أعضاء مجلس شورى القوانين بحظوة مقابلتكم العلية ، بل فوق ذلك تفضلتم ولقبتموهم فى خطاب سموكم المنيف « بنواب الأمة » ، مما أودع فى المصريين الأمل أن تكون لهذه المقابلة أشرف ذكرى عند الأمة المصرية ، متى أصبح أمثال هؤلاء الذين تشرفوا بمقابلة سموكم من رجالها نواباً حقيقيين .

المصريون يا صاحب السمو الملكى أكثر الأمم وفاء لمن يسديهم الجميل ، وهم يعترفون سراً وجهراً بالتقدم المادى العظيم الذى نتج لوادى النيل من مهارة المهندسين الانجليز ، ومن أعمال موظفى الاحتلال الصادقين .

ولكن الأمة التى كان لها دستور نيابى قبل عهد الاحتلال ، ولم ينشأ مجلس الشورى بشكله الذى هو عليه فى أول الاحتلال ، الا مع وعد من اللورد دوفرين مندوب بريطانيا العظمى إذ ذاك — أن يكون هذا المجلس بعد قليل من السنين مجلساً

نيابياً كاملا ، يساعد الحكومة على أداء وظيفتها أحسن أداء ، لابد أن تذكر هذا الامتياز الذى كان لها دائماً ، كما أنها لا تنسى هذا الوعد بالحصول عليه ، وهى اليوم وقد سميتم أعيانهـا نواباً أكثر ما تكون ذكراً له ، رجاء أن تكون زيارة سموكم سبباً كبيراً فى مساعدة عاجلة من دولة بريطانيا العظمى ، لنيل المصريين دستوراً نيابياً شريفاً . ذلك الدستور الذى التمسته الجمعية العموميـة (وأعضاء مجلس شورى القوانين من جملتها) من جانب الحكومة الخديوية رسمياً قبل سنتين . ذلك الدستور الذى قال عنه جلالة والدكم المعظم أخيراً فى البرلمان : « إن البلاد التى منحتها الأمبراطورية الانجليزية حكومة نيابية أدى ذلك الى نموها وتقدمها وسعادتها ، كما أدى الى ازدياد روابط الصداقة بينها وبين الأمبراطورية . فتفضل ياصاحب السمو الملكى ، واجعـل هذه الزيارة الشريفة خير مذكر لدولة بريطانيا العظمى بالوفاء بوعدها ، فى أول عهد احتلالها ، لتبقى لهذه الزيارة أشرف الذكرى وأدومها لدى المصريين . »

وقد نشر هذا الخطاب أولا فى صحيفة المؤيد بتاريخ ٣ أبريل ، وعلقت عليه بقولها :

« لقد أحسن سماحته فى أسلوبه ، وبتضمينه تلك الكلمة العالية التى ألقاها جلالة الملك ادورد السـابع ملك انجلترا وأمبراطور الهنـد والمستعمرات البريطانيـة ووالد صاحب السمو ضيف مصر العظيم اليوم ، من أن كل أمة لانجلترا سيادة عليها أو شأن فيها منحتها دستوراً نيابياً ، عاد عليها بالتقدم والسعادة ، وزاد فى روابطها مع الدولة البريطانية . »

وبعد ذلك نشرته الأهرام والمقطم والظاهر والجوائب المصرية ، ونشرت خلاصته جريدتا الوطن ومصر ، وترجمته من العربيـة إلى الانجليزية جريدة الغازيت اجبسيان والجورنال دى كير والبروجريه ، ونشرت خلاصته جريدة الاجبت ومورنن نيوز والفاردى الكسندى وكثير من الصحف الطليانيـة ، وعلق كثير من الصحف المصرية عليه تعليقات مؤداها أن الشعب المصرى أصبح يشعر بحقوقه ، وأن هذا الخطاب دليل الحياة وشعور الأمة بالضغط عليها .

أما الجرائد الانجليزية فلم تعلق عليه بشىء ؛ وأما جريدة البروجريه المنحازة لدار المعتمد الانجليزى ، فقالت انه لم يحن الوقت لمصر أن تكون فيها حكومة نيابية . ونحن لا نرى من الوطنيين واحداً فقط متضلعاً فى المعلومات الأساسية اللازمة لهذه الغاية » وكذلك قالت بعض الصحف الفرنسية بهذا الرأى .

وقد ردت المؤيد قائلة :

« لا يهم المصريين أن يكون بعض الأجانب فى مصر أو كلهم ضد هذا الاقتراح؛ لأن هؤلاء يحبون أن يتوغلوا فى استنزاف ثروة المصريين واستلاب أموالهم وأملاكهم بكل العوامل التى فى أيديهم الآن من الامتيازات ، ومبادلة المنافع بين بعضهم البعض ، وباخلاد الوطنيين إلى الفتور العميق الذى لا ينبههم منه منبه . »

ولقد كان لخطبة رئيس الجمعية العمومية ، وطلب زيادة ميزانية التعليم ، ولخطاب السيد البكرى بطلب مجلس نيابى ، ضجة وأثر كبير فى الرأى العام المصرى ، وكان هذان الأمران موضوع شرح الصحف وتعليقاتها عدة أيام .

وفى ٥ أبريل ركب البرنس وقرينته من سراى عابدين إلى المحطة عربة خديوية دون احتفال رسمى ، وودعهما الخديو والنظار واللورد كرومر وكبار الموظفين الانجليز.

وقد أبدى سمو البرنس لدى ركوبه عظيم شكره للجناب الخديوى على حسن لقائه وحفاوته .

وقد سافرا إلى بورسعيد ، وركبا الدارعة « رينيون » للتجول بها فى البحر الأبيض المتوسط .

وكانت الوالدة على وشك السفر للاستانة ، فجاءت إلى عابدين فى عصر ١١ أبريل . فأوفدنى الخديو إليها لرجائها الانتظار قليلا .

الخديو فى الاستانة . فى ١٠ يونيو حضر الخديو للاستانة ، واستقبل بها كالعادة . وقد قابل سموه جلالة السلطان ، وخرج من لدنه مسروراً بالحفاوة التى لقيها .

وفى ١٢ منه دعى سموه إلى مأدبة فى يلدز ، ومعه حسنى باشا وبعض الحاشية .

وقد قام سموه بالتزاور بينه وبين السفراء كالمعتاد فى ١٤ و ١٦ يونيو .

وبقى سموه فى الاستانة حتى ٢٦ يونيو ، ثم بارحها بعد ذلك إلى الحمامات فى ديفون ، وظل عزت بك مع الوالدة ، وسافرت أنا إلى مصر لانتهاء مهمتى ولأكون على صلة بالنظار .

عود الى رسائل الأزهر . فى أثناء وجود الخديو بالاستانة وردت إليه شكاية رفعها المفتى الشيخ محمد بكرى عاشور الصدفى إلى قائمقام الخديو فى مصر ، وهو رئيس النظار ، ملخصها : « فى أثناء امتحان الشيخ حسين محمد الرفاعى فى الشهادة العالمية

على يد ستة أعضاء ، من بينهم المفتى ، سأل شيخ الجامع(*) الممتحنين عن هذا الطالب ، فأجابوا ما عدا أحدهم وهو الشيخ البحراوى بأن الطالب يستحق الدرجة الثالثة ، وقدم تقرير من اللجنة بذلك ؛ ولكن الشيخ البحراوى لم يرد التوقيع عليه ، مع توافر أغلبية اللجنة ، بحجة أن الطالب لا يستحق شيئاً . وفى اليوم التالى أرسل شيخ الأزهر بأنه غير أعضاء اللجنة ، وقد أتى بأربعة أعضاء جدد ، وأبقى الشيخ البحراوى وواحداً آخر فقط ، وعين الشيخ بخيت بدل المفتى ؛ ويعتبر الشيخ المفتى هذا التغيير فى أواسط الامتحان وبدون سبب ظاهر ماساً بشرفه وشرف الأعضاء الذين غيروا .

وهو يطلب النظر فى شكواه ، والعمل على صون كرامته ، وكان ذلك فى ٢٥ يونيو .

وبعد عودتى إلى مصر ورد إلىّ من الجناب العالى باسم محمود محمد افندى أحد موظفى الديوان العربى رسالة مؤرخة فى ١٣ يوليو ، وفيها : « إن الجناب العالى اطلع على شكوى المفتى التى قدمها للقائمقام ، ويأمرنى باستحضار المفتى وتعنيفه على شكواه وطعنه فى الشيخ الأكبر ، وبأنه كان الأولى تقديم هذه الشكوى إلى الجناب العالى بدل تقديمها إلى رئيس النظار ؛ ثم أطلب كذلك شيخ الأزهر ، وأخبره باستياء الخديو لهذه الأعمال التى تستدعى تكدير خاطره فى السفر الذى قصد منه إلى الراحة والاستشفاء ، وأن سموه كان قد نبه على الشيخ قبل سفره بتلافى مثل ذلك إذا حدث .

والخلاصة أن الجناب العالى لا يريد مطلقاً أن تتكرر هذه الفصول وتلك الضجات ، ولا سيما بين رجال الأزهر . »

وقد قمت بما كلفت به فى أسلوب أدبى لا يغضب الشيخين .

ثم وردت إلىّ رسالة أخرى بتاريخ ٢٢ يوليو ، وفيها يأمر الخديو أن أستحضر الشيخ المفتى ، وأخبره بأن الخديو مقتنع الآن بأنه يعنى بالمسائل الشخصية ، أكثر من أى شىء آخر ، وأن هذه هى النقطة التى كان يخشى سموه أن تسقط مركزه ومهابته ، ودليل ذلك ما حدث الآن من دسائسه فى حق شيخ الأزهر ؛ وأن شيخ الأزهر غير كفء حقيقة لأنه مكنه من التحدث ضده ؛ ولكن الجناب العالى لا بد أن يتخذ خطة إزاء شيخ الأزهر وإزاء المفتى معاً عند عودته ، وأنه منذ اليوم قد أمر بفصل ابنه الموظف بالأوقاف الخصوصية ؛ ويأمر جنابه بتبليغ هذا القرار إلى مدير الأوقاف الخاصة للعمل به من اليوم ؛ أما الشيخ نفسه فسيكون حسابه معه يوم يعود .

(*) وهو يومئذ الشيخ حسونة النواوى

وفى الرسالة أمر كذلك بأن أقابل شيخ الأزهر وأفهمه أن يسير فى طريقه دون تغيير فى خطته حتى لا يفهم أحد أن المفتى ظفر به أو فاز عليه .

وأن أقابل بطرس باشا وأخبره بأنه إذا حضر له المفتى فانه يعنفه ويفهمه بأن ما حدث من الجناب العالى فى موضعه .

وأن أنبه على أحمد شوقى بك بالايعاز إلى الصحف الوطنية لتعلن طرد ابن الشيخ المفتى من الأوقاف الخديوية ، حتى يذاع الأمر ويعلمه الجميع .

فنفذت هـذه الأوامر فى الحال ، وحاول الشيخ المفتى أن يبرىء نفسه ويشكو من قسوة القرار القاضى بفصل نجله ، ولـكنى أريته خطأه فى تصرفاته .

وفاة البرنس محمد ابراهيم وحيد الدين . فى ٢٠ أغسطس توفى فى فرنسا البرنس محمد ابراهيم وحيد الدين ، وشيعت جنازته فى ٤ سبتمبر بالاسكندرية وفى اليوم التالى بالقاهرة ؛ ودفن بمدافن الامام الشافعى؛ ورافقت جثمانه من الاسكندرية إلى القاهرة حرمه البرنسيس صالحة هانم والبرنس ابراهيم حلمى باشا ، وبعض البرنسات .



البرنس محمد ابراهيم وحيد الدين

وشاية يعقبها انقاص مرتبى . فى ١١ أبريل قصدت إلى المستشار المالى وأتممت — بناء على الأمر — معه موضوع الزيادة المطلوبة لمرتبات الديوان الخديوى فى الميزانية — وكانت لم تتغير من عهد توفيق — فأصدر الأوامر اللازمة لتنفيذها .

وكنت قد لاحظت أثناء وجود الخديو بالاستانة تغيراً من ناحيتى لم أعرف سببه فى حينه ، وبعد رجوعى للقاهرة جاءتنى رسالة بتاريخ ٩ يوليو من جنيف بامضاء (محمود محمد) .... بأنه بناء على الأمر الخديوى يجب أن يكون مرتبى كمرتب عزت بك ألفاً ومائة جنيه بدلا من ألف ومائتين كما هو الآن ، وذلك لأن سموه لاحظ ألا يكون هناك فارق فى مرتبات رؤساء الديوان . وقال لى محمود محمد افندى فى الرسالة ، إنه عرض

لسموه أن هناك وفراً فى ميزانية السراى يمكن أن يكمل منه مرتب عزت بك إلى ألف ومائتى جنيه فأمر سموه ببقاء المتوفر ، ووعد بأن يكمل مرتبنا فى العام الآتى .

وقد فهمت ، عند ورود هذه الرسالة ، أنّ لما شعرت به من تغير الجناب العالى نصيباً من الصحة ، فحاولت أن أعرف السر فى ذلك . وأخيراً علمت أنه أثناء وجودى بالاستانة وشى فى حق لدى سموه بأنى أمرت بصنع « سقالة » لوابور « فيض ظفر » لدى مصلحة الركايب ومن أخشابها . وهذه الوشاية تطوع بها زامر افندى ضابط بوليس السراى .

وعلى أثر ذلك بعثت برسالة لسمو الخديو أنفى فيها مارقى اليه ، وأبين أنى دفعت ثمن « السقالة » لمصلحة الركايب ، وكذلك كل ما تكلفه « فيض ظفر » من الاصلاحات وبعثت بالايصالات التى تثبت ذلك ، ورجوت سموه صفاء خاطره من ناحيتى مع استعدادى لتنفيذ إرادته فيما يختص بمرتبى — وإن كان المؤلم فى ذلك أنى أنا الذى سأقدم الميزانية لنظارة المالية وسأعاقب نفسى بيدى . . . الخ .

وفى ٢٧ أغسطس جاءنى رد بامضاء محمود محمد افندى يتلخص فى « أن الجناب العالى لم ينظر فى مسألة المرتبات إلى الوشاية التى ذكرتها فى رسالتى ولم يبد على سموه أى غضب أو تأثر حينما أمر بذلك ، وأنه متأكد أن الجناب العالى سيفى بوعده فى العام القادم . » .

وفى ٢ اكتوبر قدم الخديو من الاستانة وكنت فى المستقبلين ، وقد أردت أولا أن أخاطبه فى الموضوع ، ولكنى فضلت الانتظار حتى تسنح فرصة مناسبة ؛ وكان ذلك فى يوم ٤ أكتوبر إذ استدعانى سموه إلى قصر المنتزه ، واستقبلنى ببشاشة ولكنى كنت لا أزال منقبض الصدر ، وقد سألنى رأيى فى تعيين « زامر افندى » ملاحظاً لمريوط ، وكان أمره قد صدر بذلك ، فانتهزت الفرصة وقلت لسموه : « لولا أن هذا الرجل فى خدمة أفندينا لما تأخرت عن مقاضاته أمام المحاكم على وشايته وزعمه أنى استخدمت «سقالة» لمصلحة الركايب فى فيض ظفر مع أنى دفعت ثمنها كما ينطق بذلك السند الذى بعثت به لأفندينا ! » فطيب خاطرى من هذه الوجهة ، وأرانى ، فى تلطف ، أنى مخطىء فى تكليفى واحداً من المصلحة بعمل « السقالة » ، وكان الأولى أن أوسط أحد أصحابى . فقلت لسموه : « إننى لم أجد بين أصحابى من أستطيع تكليفه هذا العمل . » ثم قال لى : « إنى أعرف أنك دفعت أجراً عن كل شىء أجرى فى فيض ظفر ولكنهم خدعوك واستخدموا عمال المصلحة . » ثم أشار إلىّ من طرف خفى أن أحمد الله على

أنه لم يعاملني كما عامل عزت بك وغيره ، وذلك لأنه علم أنني دفعت نقوداً ؛ أما هم فاستخدموا بعض الزوارق لمصالحهم الخاصة .

وفي أواخر اكتوبر أتممت عمل ميزانية المعية وعرضتها على سموه وقلت : « إنه بناء على الأمر وضعت بيدي أمام اسمي ١١٠٠ جنيه في العام وكذلك أمام اسم عزت بك ؛ ولكن يا أفندينا ماذا يكون موقفي أمام المالية التي قررت لي ١٢٠٠ جنيه؟ » فأجابني : « يا شفيق ، أنت تعلم أن حسن عاصم باشا مع تمسكه بالرياسة وحبه أن يعمل مستقلا لم يعمل ما عملته أنت . » فعرفت في الحال سبب غضبه وهو أني كتبت في الميزانية عناوين جديدة لبعض الوظائف ، فاعتذرت عن ذلك لسموه بأن غرضي أن تكون ميزانية المعية مرنة ، واستسمحته في أني لم أستشره في ذلك فنظر في الميزانية ورأى فيها وفراً فأضاف منه إلى مرتبي ومرتب عزت بك مائة جنيه لكل منا ؛ وقدمت الميزانية على ذلك .

حادثة دنشواي . كان من أعظم حوادث هذا العام حادثة دنشواي المروعة التي اهتزت لها البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وكان لها أسوأ الآثار ؛ وخلاصتها أن فرقة من الجنود الانجليزية خرجت مع ضباطها قاصدة إلى الاسكندرية بطريق البر ؛ وكانت الحكومة قد أرسلت أوامر إلى العمد والحكام الاداريين بالعمل على راحتهم عند مرورهم ببلادهم ؛ فلما وصلت هذه الفرقة إلى منوف أخبر بعض رجالها مأمور المركز برغبتهم في الصيد ببلدة دنشواي المشهورة بكثرة حمامها ، وتوجه إليها بالفعل خمسة من الضباط للصيد ؛ ولما وصلوا إليها انحدر بعضهم إلى أجران البلدة ، وأراد أحدهم صيد حمامة فأخطأ التصويب ، وجرح امرأة كانت تسوق النورج ، واشتعلت النار في ذلك الجرن ؛ وكان زوج المرأة حاضراً فهجم على الضابط وأراد أن يقوده إلى مركز الحكومة ؛ واجتمعت حولها الأهالي ، وجاء بقية الضباط لانقاذ زميلهم ؛ وفي أثناء ذلك حضر الخفراء وشيخهم لانقاذ الضابط ، فظن بقية الضباط أنهم آتون للفتك بهم فأطلقوا النار عليهم ، فأصيب شيخ الخفراء وعدد من الأهالي .

وعندئذ هاج السكان ورجموا الضباط بالحجارة ، وضربوهم بالعصي الغليظة ، فاصيب منهم الماجور كوتين وجرح اللفتننت سميث ؛ وقد قبض الخفراء على هذين الضابطين وثالث معهم وجردوهم من سلاحهم وحبسوهم حتى جاء ملاحظ البوليس ، وأوصلهم إلى معسكرهم . أما الضابطان الآخران ، وهما الكابتن بول والطبيب البيطري ، فهربا وقطعا نحو ثمانية كيلو مترات عدواً ، ثم سقط الكابتن صريعاً لأنه كان مصاباً

بجراح خطيرة وتوفى على الأثر . وأخيراً توجه الطبيب وأخبر العساكر فحضروا على الفور ، وقبضوا على من كان حول القتيل من الأهالى وفرّ أحد الأهالى من أمامهم فتبعوه وقتلوه ومثلوا بجثته .

وأبلغ الحادث إلى السلطات العليا فحضر فى الحال مستشار الداخلية ومدير المنوفية ورئيس النيابة وعدد عظيم من رجال البوليس مسلحين بالبنادق والسونكى ؛ وقبض على عدد كبير من أهالى دنشواى ، وبدىء بالتحقيق معهم فى الحال ؛ واستمر التحقيق عدة أيام ؛ ثم صدر القرار باحالتهم إلى المحكمة المخصوصة فى يوم ٢٤ يونيو ليحاكموا أمامها ؛ وكانت مؤلفة من بطرس غالى باشا رئيساً ، والمستر هيبتر وفتحى زغلول بك والمستر بوند والقائمقام لادول القائم بأعمال المحاماة والقضاء فى جيش الاحتلال .

ثم وقف عثمان بك مرتضى وتلا قرار نظارة الحقانية بعقد المحكمة المخصوصة للنظر فى التعدى الذى وقع فى ١٣ يونيو ؛ ثم قرأ تقرير الاحالة الصادر من سعادة شكرى باشا مدير المنوفية بناء على انتدابه من حكمدار العاصمة ، وهو يتضمن تفصيل الحادثة .

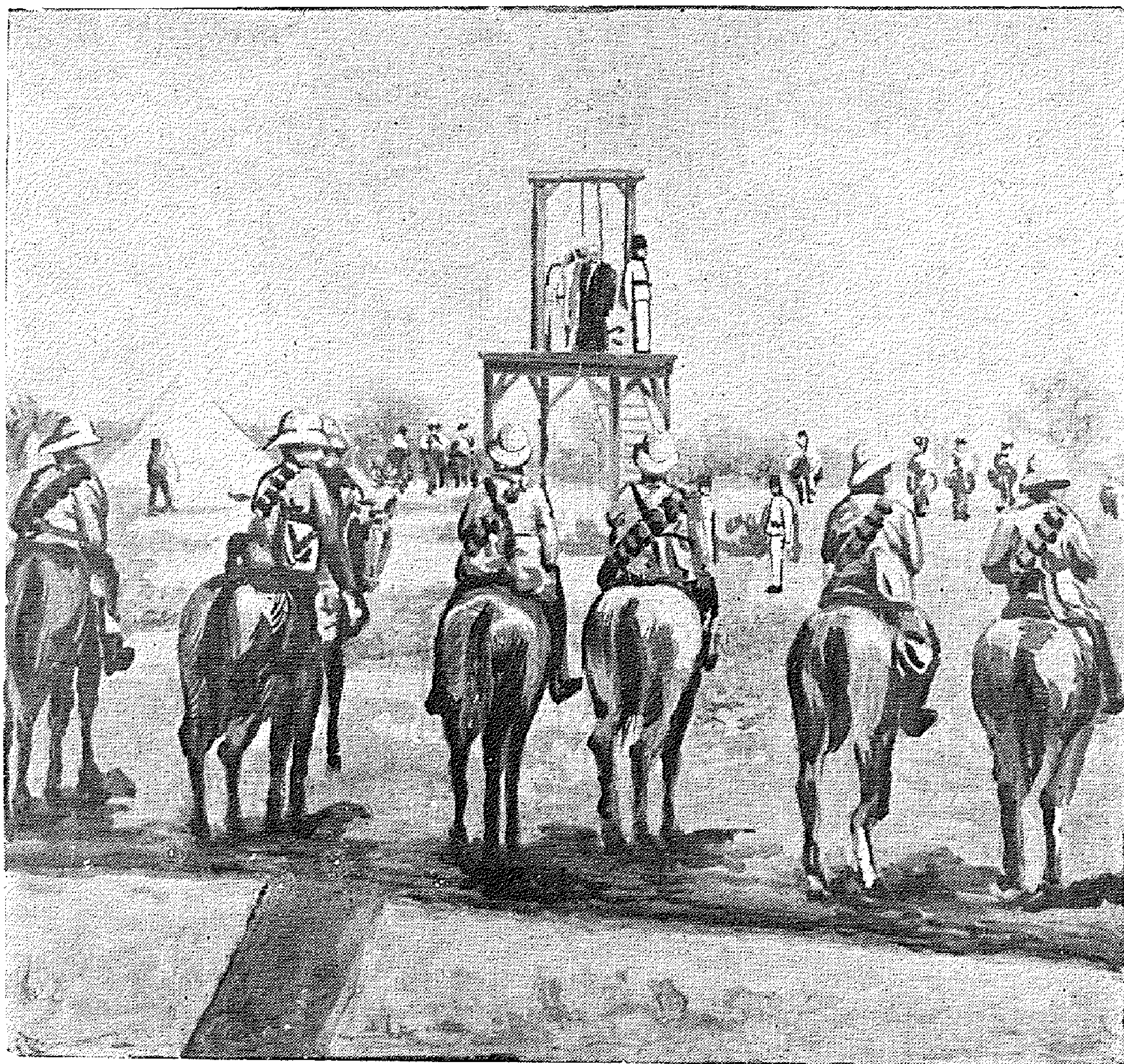
وعلى أثر ذلك قام ابراهيم الهلباوى بك المحامى العمومى وذكر وقائع الحادثة ، وقال : « حيث إن هذه الجريمة من الجرائم الشديدة ، فنطلب معاقبة المتهمين بأشد عقوبة بعد سماع شهادة الشهود . » وكان محامو المتهمين هم أحمد لطفى بك ، ومحمد يوسف بك ، وعثمان يوسف بك ، واسماعيل عاصم بك .



أحمد فتحى زغلول بك



ابراهيم الهلباوى بك



إنفاذ عقوبة الاعدام فى المحكوم عليهم فى حادثة دنشواى

وبعد انتهاء الاستجوابات والدفاع قام ابراهيم الهلباوى بك وقال : « لا يوجد مصرى لايشاركنى فى شعورى نحو الحادثة ، ولذلك أطلب الحكم على المتهمين بأشد عقوبة . »

ثم قال : « فاذا تقدمت اليكم وطلبت رفع كل رحمة من نفوسكم لمعاقبة هؤلاء المتهمين وخصوصاً رؤساء العصابة لا أكون مغالياً . »

وفى ٢٧ يونيو أصدرت المحكمة حكما لا يقبل الطعن وهو يقضى على أربعة بالاعدام ، وعلى اثنين بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وعلى واحد بالسجن خمس عشرة سنة ، وعلى ستة آخرين بالسجن سبع سنين، وعلى ثلاثة بالحبس مع التشغيل سنة ، وجلد كل واحد منهم خمسين جلدة ، وعلى خمسة بجلد كل واحد منهم خمسين جلدة ؛ وتبرئة الباقين والافراج عنهم فى الحال إن لم يكونوا محبوسين لسبب آخر .

وفى يوم الخميس ٢٨ يونيو نفذ حكم الاعدام والجلد فى وقت واحد فى قرية دنشواى.

وكانت الاجراءات الشنيعة التى لجأ اليها رجال الاحتلال فى هذا الحادث مثار سخط عميق فى مصر والخارج . وأذكى هذا السخط ما قام به مصطفى كامل من الحملات القوية فى منتديات أوربا وصحفها منوها بفظاعة الأحكام التى صدرت وشذوذ الاجراءات التى اتبعت وكونها تتنافى وأبسط قواعد المدنية والعدالة والانسانية . وكان لهذه الحملات أثرها فى انجلترا ذاتها ، وتأثر بها فريق كبير من الرأى العام البريطانى ولاسيما دوائر الأحرار؛ وظهر صدى هذا الأثر فى البرلمان حيث استجوب السير ادوارد جراى عن حادثة دنشواى ، فلم يجد ما يدافع به عن خطة المحتلين فى هذا الحادث سوى اتهامه المصريين بالتعصب وبأن هذا التعصب قد بلغ حداً يخشى منه على شمال إفريقية كله . ولكن المصريين ، وحتى النزلاء الأجانب فى مصر ، احتجوا على هذه التهم الباطلة ، ودوّى هذا الاحتجاج ثانية بين أرجاء البرلمان الانجليزى ، فاضطر السير جراى فى تصريح ثان أن يستبدل كلمة التعصب بكلمة القلق . وكان لهذا التراجع مغزاه وأثره فى الافراج عن المحكوم عليهم فى حادثة دنشواى كما سيجىء .

وقد نوهنا فيما سلف بقطع العلاقات بين الخديو ومصطفى كامل فى سنة ١٩٠٤ فلما عزم مصطفى على السفر لأوربا لقيامه بالمدافعة عن شناعة هذه الحادثة رأى أنه من الواجب عليه أن يعيد الصلات الحسنة بينه وبين الخديو حتى يستنير برأيه ويظاهره على إثارة الرأى العام فى أوربا وانجلترا ضد هذا الحادث . فكاتب الخديو بوساطتى فوافق عباس وأبلغت مصطفى ذلك فسافر إلى باريس فلندره وقام بحركة ضد كرومر وخطب

هنـاك خطباً كبيرة فى مجمع من الـكبراء كما كتب عدة مقـالات فى الصحف الفرنسية وخصوصاً الفيجارو .

وانتهت جهوده باثارة الرأى العام الانجليزى نفسه على شـناعة الاجراءات التى اتخذت ، وبما وقع فى مجلس العموم الانجليزى من استجواب كان له أثره فى صـدور العفو عن مسجونى دنشواى كما سيأتى .

الخديو والنظار والانجليز . فى يوم ٢٦ اكتوبر زار اللورد كرومر الجنـاب العالى وأبلغه أنه اتفق مع ناظر خارجية انجلترا على توسيع اختصاص النظار ، والتمس من سموه تعيين سعد بك زغلول ناظراً المعارف ، فوعده سموه بابداء رأيه فى الغد .

وبعد المداولة فى اليوم التالى بينه وبين رجال المعيـة ، قر الرأى على أن أقابل مصطفى فهمى باشـا وأبلغه موافقة الخديو على هـذا الاقتراح . وقد تسلمت الدكريتو الخاص بذلك وعدت للاسكندرية فوقعه سموه ، وأعدته ليلا .

ولم يرتح الخديو أولا لتعيين سعد زغلول ، ولـكنى تعاونت مع الدكتور صادق رمضان ، طبيب المعية ومن أصـدقاء مصطفى كامل ، على تحسين العلاقات وإزالة سـوء التفاهم الذى يرجع إلى كثرة اختلاط سعد بك بالمرحوم الشيخ محمد عبده (*) .

وفى ٣ نوفمبر صدر لى الأمر بالسفر إلى القاهرة ومقابلة بطرس باشـا وتفهيمه أن الجنـاب العالى كان ينتظر منه بعض معلومات عن مسألة الأزهر وعزم شيخه على الاستقالة وعما إذا كان الشيخ شاكر يصلح خلفاً له . وذلك قبل مقابلة المستشار المالى لجنابه حتى يكون على بينة من هذه الشئون ، وأن الجناب العالى ينوى عند استقالة شيخ الأزهر أن يطلب تعيين الشيخ حسونة أو الشيخ شاكر . وأن أسأله رأيه كذلك فى حضور البرنس محمد على باشـا صلاة الجمعـة اليتيمة بجامع عمرو بالنيابة عن الخـديو ، وكذلك رأيه فى أن يرسـل برقية لـكرومر يوم عيد الملك بالاعراب عن أسفه لعـدم شهود هذه الحفلة أو يكتفى بارسال برقية تهنئة للملك .

فوافق بطرس باشا على مسألة الانابة فى صلاة الجمعة ورأى أن يرسل الخـديو برقية بالاعتذار . أما مسألة الأزهر فاستحسن بقاء الحـال على ما هى عليه وحمل شيخ الأزهر على عدم الاستقالة ، لأن الظروف غير ملائمة الآن .

(*) وقد منح سعد بعدئذ رتبة الباشوية .

تأسيس شركة ليتاندار والاستاندارد . تم الصلح بين الخديو ومصطفى كامل كما نوهنا سابقاً دون أن يتقابلا . فلما رجع الخديو من أوربا إلى الاسكندرية ثم عاد إلى القاهرة وكذلك رجع مصطفى كامل من أوربا فى ١٥ أكتوبر توسط الدكتور صادق رمضان ومهد السبيل للمقابلة وفعلا اجتمع مصطفى كامل والدكتور صادق رمضان ومحمد فريد بك ولطيف سليم باشا وقابلوا الخديو فى سراى مسطرد واتفقوا على تأسيس الحزب الوطنى وجريدتى ليتاندار الفرنسية والاستاندارد الانجليزية ، وأوعز الخديو سراً إلى الكثيرين من الأغنياء بالمساعدة ومنهم البرنس جميل طوسون واحمد مدحت يكن باشا وعمر سلطان بك ومحمد بك فريد كما وعد الخديو بالمساعدة فى هذا المشروع . وقد تكررت المقابلات السرية بينهم والخديو فى جامع سيدى التبرى بزمام القبة . وقد علمت هذه التفصيلات من عباس . وقد سرنى هذا الوفاق .

وفى ديسمبر سافر مصطفى ومحمد بك فريد إلى أوربا لانتخاب المحررين فى الجريدتين .

وعاد الخديو إلى القاهرة فى ٢٤ نوفمبر ، وفى ٢٩ منه قابل اللورد سموه وقال له : « إن وكالة روتر ورد إليها تلغراف فيه أن جريدة التيمس نشرت مقالا لمكاتبها فى مصر يدعى فيه أن الخديو يعضد مصطفى كامل بالمال لنشر جريدة فرنسية (*) » وانتقد اللورد هذا العمل بشدة ، فأجابه الخديو بأن ذلك لا أصل له وأنه لم يتقابل مطلقاً مع مصطفى كامل ولم يمده بمعاونة ما ، لا مباشرة ولا بالواسطة ؛ فقال اللورد ربما كان المشجع من أعضاء العائلة الخديوية ، فأجابه سموه بأن أغلبهم فقراء ولا يستطيعون بذل مثل هذه المعاونة ! فقال اللورد : « إن محمد بك فريد يمده بالمال . » فأجاب سموه بأن هذا البيك ليس من العائلة الخديوية ولا سلطان للخديو عليه .

وقد رأيت الخديو عقب هذه المقابلة فوجدته فى غاية الغضب والتأثر ، وقال لى إنه لا يطيق صبراً على هذه الحالة ولا يحتمل هذه الاهانات بل يفضل الاعتزال على هذه المعاملة ، فهدأت روعه واشترك معى فى ذلك محمود بك صادق من رجال المعية .

وقد جال بخاطرى أن جنوح الانجليز إلى هذه المعاملة يرجع إلى مسألة طابا وعلمهم أن الخديو كان فى الظاهر معهم وفى الباطن مع السلطان وأكد ذلك لديهم عدم حضوره فى حفلة الملك .

(*) هى جريدة (L'Etandard égyptien) التى صدرت بعدئذ سنة (١٩٠٧) .

مسألة الرتب أيضاً . فى ٢٨ ديسمبر تقابل المستشار المالى مع الخديو ، فتحدث إليه فى أمر الرتب والنياشين ، وأنه من الضرورى أن تطلبها الحكومة للموظفين والأعيان فى عيد الجلوس ؛ وطلب الرجوع إلى دكريتو رياض باشا الذى يقضى بذلك فرأى سموه تأجيل البحث فى هذا الموضوع حتى يقابل اللورد كرومر فى الغد .

وفى اليوم التالى ، وهو المحدد لمقابلة اللورد كرومر ، حضر الشيخ على يوسف أولا وتحدث معه الجناب العالى فى الموضوع ، وعرض على سموه أن يقبل إعطاء الموظفين رتباً ونياشين . أما العمد والأعيان فلا ؛ لأن المفتشين الانجليز يوعزون للمديرين باعطاء صنائعهم أو من يقدمون الرشوة إليهم .

ثم حضر اللورد بعد ذلك وتحادث مع عباس ولكنهما لم يصلا إلى نتيجة حاسمة ؛ وكان سموه عقب المقابلة فى حالة تأثر وانفعال شديدين .

سنة ١٩٠٧

الانجليز وعيد الجلوس الخديوى . كيف أنشئت الجامعة (الأهلية) وانتخب رئيسها . التزاحم على مشيخة الأزهر . مدرسة القضاء الشرعى . تقرير كرومر عن الحركة الوطنية . اصدار جريدتى ليتاندار والاستاندارد . أحاديث سياسية للخديو . اقالة اللورد كرومر وتعيين السير الدون جورست مكانه . جورست وسياسة الوفاق الجديد . أرمنى يهدد الخديو . الأزمة المالية . قيام الأحزاب المصرية . من استبداد عباس . الخديو والكونتيس . شئون مختلفة .

الانجليز وعيد الجلوس الخديوى . انتهى العام الماضى وبين الخديو والمحتلين سوء تفاهم مستحكم الحلقات يعود بالأخص إلى مسألة طابا وموقف الخديو منها ، وإلى عدم حضور سموه حفلة عيد الملك . واستهلت سنة ١٩٠٧ ، والجو قاتم ، والاحتكاك يضطرم بين الخديو وكرومر ورجال الاحتلال ، وتمتد آثاره إلى كل المشروعات العامة بل والخاصة التى عرضت فى أوائل هذا العام .

امتد هذا الاحتكاك إلى مشروع الجامعة وتأليفها وإلى مسائل الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى وإلى علاقة الخديو بنظاره ولا سيما سعد زغلول باشا ، كما امتد إلى شئون العائلة الخديوية الخاصة ، فتدخل الانجليز فيها وفى سواها . ولما كانت ظواهر هذا الاحتكاك متصلة متشابكة ، فقد آثرنا سرد الحوادث متتابعة بتاريخ وقوعها ، لأنها تكاد تكون مرتبة ترتيباً طبيعياً ، ومدارها النزاع بين سلطة الخديو وسلطة رجال الاحتلال .

ففى ٦ يناير حضر عندى طورنيزن باشا وطلب منى كشفاً بأسماء المدعوين من الانجليز فى الأوبرا ليلة عيد الجلوس لاعطائه لواطسون باشا الياور الخديوى وقد قال

له إن كرومر يود أن يحضر هذه الحفلة ، وأن يطلب إلى الانجليز المدعوين عدم التأخر ليكون ذلك بمثابة ترضية لسمو الخديو عما كان من سوء تفاهم بينه وبين اللورد ؛ ولعل من الأسباب التى حملت اللورد على ذلك — فضلا عما تقدم — ما كان من أثر حادثة دنشواى المعروفة فى العام المنصرم وشعوره باستياء المصريين جميعاً منها ، والحملة التى شهرها عليه مصطفى كامل فى أوربا ؛ وهى حملة كان يتهم الخديو بأنه يمدها بالمال عن طريق محمد بك فريد .

وقد أجبت طورنيزن باشا بأن الكشف المطلوب عند رئيس لجنة الاحتفال ، وهو عبد الحميد باشا رئيس مجلس شورى القوانين فذهب لأخذه منه وقد علمت أنه وجد فى هذه الحفلة عدد من الانجليز .

عيد الجلوس فى الأزهر : وفى ٨ يناير كان عيد الجلوس ، فانتدبنى الخديو لحضور الاحتفال الذى سيقام فى الجامع الأزهر لهذه المناسبة ، وكان الأزهر يضىء بالأنوار فى الداخل والخارج وقد فرشت به الأبسطة وجلس الحضور عليها ، وفى وسطهم الشيخ محمد شاكر نائباً عن الشيخ الشربينى شيخ الأزهر ، وعن يمينه الشيخ أبو الفضل وعن يساره المفتى .

وافتتحت الحفلة بتلاوة القرآن الكريم ، وبعدها قام أحد العلماء وخطب معدداً مناقب الخديو وداعياً له ولأنجاله ؛ وبعد أن انتهى قمت وشكرت الخطيب على شريف شعوره ، وقلت : « إن هذا الشعور يختلج بلا ريب فى صدور كل المحتفلين المخلصين للسدة الخديوية . » ثم شكرت القائمين بأمر هذا الاحتفال الجليل ، ودعوت لسمو الخديو .

واختتمت الحفلة بقراءة ما تيسر من القرآن ؛ وبعدئذ قال لى الشيخ شاكر : « هذه أول مرة شكر المندوب الخديوى فيها المحتفلين ! ! »

كيف أنشئت الجامعة (الأهلية) وانتخب رئيسها . أثار الأستاذ أحمد حافظ عوض على صفحات المؤيد نقاشاً ومناظرة فى موضوع : « أىّ أنفع للقطر المصرى فى حالته الحاضرة الكتاتيب أم مدرسة كلية عالية ؟ » وذلك فى سنة ١٩٠٥ . وقد استدرجت المناظرة كثيراً من الكتاب للاشتراك فيها على صفحات الجرائد المختلفة وانتهت بغير طائل ولا نتيجة .

أما الخطوة الأولى الأساسية فى بناء الجامعة فقد بدأها مصطفى كامل الغمراوى بك فى العام الذى يليه ؛ فقد رأى قصور المحصول العلمى فى مصر عن إرواء من شاء

التعمق فى العلم ، وكان لزاما على من يريد استكمال معارفه التحوّل إلى أوربا ، وفى ذلك مافيه من مشقة فى السفر وبعد عن الأهل وإرهاق فى النفقات . ففكر فى إنشاء جامعة تضم كليات مختلفة على مثال جامعات أوربا تكفى طالبى العلم . وفكر فى الدعوة لمشروع الجامعة والتبرع لها . وكان ذلك فى سنة ١٩٠٦ ببنى سويف ، وكان مستشاره القانونى فى ذلك الأستاذ نجيب شقرا بك المحامى .


مصطفى كامل الغمراوى بك

بدأت الخطوة الأولى العملية فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠٦ ، بأن نشر نداء فى جميع الصحف العربية والأفرنجية فى مصر داعياً لفكرة الجامعة مهيباً بالقادرين من الأمة أن ينزلوا الميدان . قال فى ندائه :

« كثر بحث الجرائد فى الزمن الأخير فى ارتقاء المعارف فى مصر . والمعارف والعلوم، كما يعلم الناس، حياة الأمة وركن ترقيها وتقدمها . وقد استلفت أحد المحامين بمقالة نشرها فى إحدى الجرائد أنظار المرحوم منشاوى باشا إلى تخليد ذكره بانشاء مدرسة جامعة ، فصادف الاستلفات أذناً واعية وكان فى نية المرحوم إنشاؤها لو لم يعاجله القضاء . فهل تعجز الأمة المصرية، وهى تزيد على عشرة ملايين ، عن أن تقوم بمشروع حيوى نوى تنفيذه فرد واحد لم تكن ثروته تبلغ جزءاً يسيراً من ثروة غيره من الأفراد ؟ وهل لا يعد إحجام أغنياء الأمة عن الاكتتاب دليلا على أنها لا تزال بعيدة عن الترقى الحقيقى ؟ وهل يعتقد الناس أن الوطنية تقوم بشقشقة اللسان أو ببذل النفس والنفيس فى سبيل الوطن وترقيته بالطرق التى تفيد ولا تضر ؟ بالطرق التى يجمع عليها العقلاء المعتدلون .

هذه الأمور جالت فى خاطرى زمناً ، ووجدت أن من العار علينا أن نقف وغيرنا يتقدم ، وأن نكتفى بالشكوى والتحسر من الزمان والأقدار ، وحقنا أن نشكو من قلة وطنيتنا وبخلنا على الأعمال العظيمة المرقية للوطن .

لذلك ، ولاعتقادى بأن على كل منا ديناً لوطنه يجب وفاؤه وعدم المماطلة فيه ،

بادرت للاكتتاب بخمسمائة جنيه أفرنجى لمشروع إنشاء مدرسة جامعة مصرية على الشروط الآتية : —

أولا : ألا تختص بجنس أو دين بل تكون لجميع سكان مصر على اختلاف جنسياتهم وأديانهم فتكون واسطة للألفة بينهم .

ثانياً : أن تكون إدارتها فى السنين الأولى فى أيدى جماعة ممن يصلحون لادارة مثل هذا المعهد العلمى الكبير وتثبت كفاءتهم للملأ .

ثالثاً : أن يكتتب على الأقل ألف من سكان مصر كل منهم بمبلغ لا يقل عن مائة جنيه ، ويجوز أن يزيد عن هذا المبلغ الى ما شاء كرم الواهب وحبه لوطنه وللانسانية .

رابعاً : أن يقام بناء هذه المدرسة الجامعة فى بقعة خلوية من أجمل بقاع مصر على شاطىء النيل ؛ وتعمل لها حديقة من أجمل الحدائق وغير ذلك من الأمور التى يقررها المكتتبون .

ويقينى أن كل من فى فؤاده ذرة من حب الوطن الحقيق من الميسورين يجود بمائة جنيه أو أكثر لخير وطنه وخير أولاده ليتربوا فى وطنهم التربية الحسنة ولكى نبرهن للأمم الغربية على أن فينا بعض الاستعداد والكفاءة .

وأملى أن جرائدنا تترك النزاع الشخصى وتنشىء المقالات الضافية فى استنهاض الهمم لاتمام هذا المشروع العظيم .

وفى الختام أقول إذا لم يجب هذا النداء ألف من أغنياء مصر ، وهم ألوف عديدة ، فلنخبىء وجوهنا أمام كل الأمم ولنعترف بأننا عاجزون عن مباراة الأجانب فى مضمار الحياة الأدبية والمادية .

وها أنا ذا فى انتظار ما يكون ! فلعل أغنياءنا يقبلون بكلياتهم على هذا المشروع المفيد لأفرادهم وللأمة ، حتى يكون ذكر من يشترك منهم فى هذا العمل خالداً فى سجلات كبار الرجال الذين كانت لهم الأيدى البيضاء فى ترقية أوطانهم ، ويبقى لهم بين الخلق أثر جميل لا يمحى . »

وبناء على برقية وردت له من الشيخ على يوسف حضر لمصر فأخبره صاحب المؤيد أن الخديو راض عن هذا المشروع ومشجع له ، ويطلب منه الاستمرار فيه . فاتفق على أن يكون محل الاجتماع الأول برضاء الجميع فى دار سعد زغلول بك القاضى

مساء الجمعة ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ وقد غص المكان بالملبين للدعوة ، ومنهم رجال القضاء والعلم والسياسة والجاه ؛ منهم قاسم أمين بك وحفنى ناصف بك ومحمد فريد بك وعلى فهمى بك وحسن سعيد بك وزكريا نامق افندى والشيخ عبد العزيز شاويش واحمد رمزى بك وحسن جمجوم بك وحسين السيوفى باشا ومحمد عثمان أباظه بك ومحمد راسم بك وحسين أبو حسين بك ومحمود الششينى بك ومحمد يوسف بك وحنفى ناجى بك ومحمد هاشم بك وتشاوروا فى حماسة ويقين . وقد بلغت المبالغ التى اكتتب بها الحاضرون ٤٤٨٥ جنيه مصرى ، وقرروا ما يلى :

أولا : انتخاب لجنة تحضيرية من حضرات سعد زغلول بك وكيلا . وقاسم بك أمين سكرتيراً ، وحسن سعيد بك أميناً للصندوق ، ومصطفى كامل الغمراوى بك ومحمد بك عثمان أباظه ومحمد بك راسم وحسن بك جمجوم وحسن باشا السيوفى وأخنوخ افندى فانوس وزكريا نامق افندى ومحمود بك الششينى أعضاء .

ثانياً : تأجيل انتخاب الرئيس الى الجلسة القادمة .

ثالثاً : نشر الدعوة فى جميع الصحف المحلية .

رابعاً : الاجتماع مرة أخرى بدعوة خصوصية لانتخاب الرئيس وأعضاء اللجنة النهائية .

خامساً : تسمية هذه الجامعة بالجامعة المصرية .

وكان احمد زكى بك قد انتخب سكرتيراً لمجلس الادارة فتكلم مع الغمراوى بك محاولا إقناعه بتحويل هبته الى عقار لأن حركة الاكتتاب كانت قد ركدت وخيف عليها ، أما التبرع بعقارات فهو أساس متين ودعامة ثابتة للمشروع. فاقتنع وتبرع بستة أفدنة فتبعه الكثيرون فى ذلك وأقبلوا على الاكتتاب .

رأى العميد الانجليزى لورد كرومر أن المشروع سائر فى سبيل النجاح وكان لم يصادف لديه هوى ولا قبولا لما ينتظر فى حالة نجاحه من ثمرات طيبة فى سبيل ترقية مصر والنهوض بها ، فعاد لما بدىء به عام ١٩٠٥ ونادى بأن الأمة أحوج الى التعليم الأولى من التعليم العالى ودعا لانشاء الكتاتيب وأقبل بعض الأعيان على إنشائها .

فأثبت بذلك إمكان القيام بمشروعى التعليم العالى الجامعى والتعليم الأولى فى آن واحد .

بعد ذلك عين سعد زغلول ناظراً للمعارف كما سبق ؛ وكان الفكر السائد بيننا هو أن كرومر يريد بتعيين سعد فى نظارة المعارف أن يبعده عن الاشتغال بالجامعة ، ظناً منه أنه بذلك يقضى عليها ، ولهذا أمرنى الخديو بالتوجه مع اسماعيل أباظه باشا لمقابلة سعد وأن نطلب منه ، بأمر من سموه ، ألا يغفل أمر الجامعة وأن يستمر إشرافه عليها . فلما قابلناه وأبلغناه رسالة الخديو لم يؤكد لنا عزمه صراحة فى تنفيذ هذه الرغبة ولكنه وعد بألا ينساها . ولما أبلغنا الخديو ذلك لم يسر لتلك الاجابة .

فقام مقامه قاسم أمين بك وسعى فى سبيل إنجاح المشروع وقابل الخديو وعرض عليه أن يأخذ سموه المشروع تحت رعايته واعتبار ولى العهد رئيس شرف فقبل سموه ذلك ؛ وبعدئذ قر الرأى على اختيار أحد البرنسات لمنصب الرياسة ؛ واتجهت الأنظار أولا الى البرنس حسين كامل باشا .

وقد كلفت من قبل الخديو بمقابلته لهذا الغرض ، ولكنه اعتذر لسببين : الأول أنه أحس بعدم رضاء الانجليز عن وجوده فى رياسة الجامعة ، والثانى تخوفه من التبعات المادية فى حالة عدم كفاية مواردها المالية . فعرضت الأمر بعد ذلك على البرنس عمر طوسون ، فاشترط أن يكون هو رئيساً عاملا ويكون ولى العهد رئيس شرف ؛ ولما كان هذا مما لا يقبله الانجليز بحال ، اتجهت أفكارنا الى البرنس محمد على باشا ، ولكن اللورد كرومر عارض فى ذلك أيضاً ، فعرض الأمر ثانية على البرنس حسين كامل باشا . فاقترح تعيين شقيقه دولة البرنس احمد فؤاد باشا ؛ إذ ربما لا يعارض المحتلون فى قبوله ؛ فأمرت بالذهاب الى بطرس غالى باشا لأعرض عليه الاسم الجديد .

وزارنى بعد ذلك الشيخ على يوسف وقاسم أمين بك ، فأخبرتهما بترشيح الخديو لدولة البرنس احمد فؤاد باشا فارتاحا لذلك .

وفى ١١ يناير عدت الى بطرس غالى باشا ، بعد حضوره من الوكالة البريطانية ، فأبلغنى أن اللورد لم يبد اعتراضاً على المرشح الجديد .

وفى ١٧ منه توجهت بناء على الأمر الى البرنس حسين كامل باشا لأخذ رأيه نهائياً فى تعيين دولة شقيقه البرنس احمد فؤاد باشا ، فأخبرنى أنهما بحثا الأمر ، وأنه نصح لدولته بالتروى والنظر فى برنامج الجامعة وفى مقدار الاكتتابات وكفايتها .

وبعد ذلك كلفنى الخديو أن أذهب الى تفتيش بردين لمقابلة البرنس احمد فؤاد باشا ، وهناك قضيت السهرة فى التفاهم مع دولته ، وبعد أخذ ورد قبل هذا الترشيح ، ورغب

فى تعيينى وكيلا للجامعة ، فعدت وأخبرت الخديو بذلك فارتاح لهذا الحل .

وتم الأمر بتعيين دولة البرنس احمد فؤاد باشا رئيساً ؛ وبعدها انتخبنى مجلس الادارة للوكالة . وكان الحاضرون من أعضائه أصحاب السعادة والعزة محمد علوى باشا مراقب الجامعة وعبد الخالق ثروت باشا واسماعيل صدقى باشا ويعقوب أرتين باشا واسماعيل حسنين باشا ومرقس فهمى بك وعلى بهجت بك وجناب السير جاستون ماسبيرو (*)

التزاحم على مشيخة الازهر . وقف القارىء على ما كان بالأزهر من الدسائس فى العام الماضى ولا سيما بين الشيخ الأكبر الشيخ الشربينى وبين المفتى الشيخ محمد بكرى عاشور الصدفى . ولما عاد الخديو من أوربا فى العام المنصرم أخذ الشيخ الشربينى إجازة وكان المفهوم أنها مقدمة لاستقالته نظراً لعدم ارتياح الخديو لما وقع ؛ فانتدب الشيخ محمد شاكر للادارة ، وبعد ذلك بدأ البحث فى اختيار خلف للشيخ الشربينى وكان الاختيار معلقاً بين الشيخ حسونة النواوى والشيخ محمد شاكر ، ولكن نظراً لأن الأخير كان مقرباً من الخديو وبينهما صلات وثيقة ، فقد كان المفهوم أن الانجليز لن يرضوا عن تعيينه ؛ وهذا ما حدث بالفعل حينما تقابل اللورد كرومر فى يوم ٢٢ يناير مع الخديو للمحادثة فى الموضوع ، وانتهى الأمر بالاتفاق على إسناد هذا المنصب الى الشيخ حسونة النواوى .

وفى اليوم التالى أرسلنى الخديو للمفاوضة مع بطرس غالى باشا فى رغبة سموه الانعام على الشيخ شاكر برتبة أو نيشان ليحادث اللورد فى ذلك ، فلاحظ الباشا أنه أنعم على الشيخ منذ ثمانية أشهر بالمجيدى الثانى ، وأنه منح منذ أيام قلائل علاوة قدرها عشرة جنيهات ؛ فماذا يقال لو منح ترقية أخرى ؟ قلت : « إن المكافأة المطلوبة إنما هى لقيامه بادارة الأزهر مدة انتدابه . » فوعد بمحادثة اللورد فى ذلك .

ولما عدت للخديو وعلم بما دار بيننا قال : « إذاً سأتفاهم أنا شخصياً مع اللورد . »

مدرسة القضاء الشرعى . وعلى أثر ذلك سافر الخديو يوم ٢٨ يناير الى سيوه فى رحلة استغرقت حتى يوم ١٩ فبراير ؛ فلما عاد أرسل رئيس مجلس النظار يقول إن المجلس سيعقد فى يوم ٢٥ فبراير فلما أعلمت الخديو بذلك بدا على سموه الغضب ، وقال : « عجيب بأن مصطفى فهمى يعاملنى كأنى أحد النظار . »

وأمرنى بأن أخبر بطرس باشا بالتوجه للقبة يوم ٢١ منه ، فلما حضر حادثه فى

(*) تراجع سنة ١٩١٤ من هذه المذكرات .

ذلك فأزال ما فى نفسه من التأثر ووافق سموه على عقد المجلس فى التاريخ المذكور .

وكان من أهم المسائل المعروضة عليه مشروع مدرسة القضاء الشرعى ؛ ودارت بشأنه مناقشة طويلة حادة أبدى سموه فيها للمجلس عدم ارتياحه لهذا المشروع لعدم رضاء العلماء عنه ؛ وقد ظن سموه أولا أن ناظر الحقانية ابراهيم فؤاد باشا معضد له فى رأيه . ولكن ظهر فى النهاية بعدما أيد سعد باشا زغلول المشروع أن جميع النظار معه ما عدا ناظر الأشغال حسين فخرى باشا فقد انضم للخديو طالباً تأخير المشروع لجلسة أخرى ، ولكن الأغلبية انحازت لسعد باشا فلم يسع الخديو إلا أن يمضى القانون مكرهاً وهى أول مرة حدث فيها ذلك .

فلما خرج النظار تكلم سموه مع المستشار المالى فقال لسموه : « إن ما فعلتموه سموكم هو عين الحكمة وبهذه الطريقة ارتفعتم ، وصغر النظار . »

وقد بلغنا من سموه أن سعد باشا قال أثناء المناقشة فى حدة ظاهرة : « حينئذ لا يستطيع الانسان أن يتكلم هنا . » وأنه ضرب بيده على المنضدة . وقال أيضاً : « إنه إذا فصلت مدرسة القضاء عن الأزهر ولم تنتسب اليه يقال عن القاضى المتخرج منها إنه كافر . » وكان سموه متأثراً لذلك جد التأثر . وقد صرح لنا أنه منذ اليوم لن يحضر جلسات مجلس النظار ، لأنه سيرغم على الموافقة على مشاريع لا يريدها وينسب اليه الرضاء عنها .

وفى ٢٧ فبراير تقابلت مع سموه بحضور اسماعيل أباظه باشا ، فأبدى أسفه لما حدث فى مسألة مدرسة القضاء الشرعى . فقلت لسموه : « إنه يمكن لجنابكم العالى القضاء على هذا المشروع بتنظيم الأزهر وإدخال الاصلاحات عليه وأن تقدموا له النعم والخيرات والمرتبات ؛ وقد ترك الانجليز لنا الأزهر فلم نفعل نحن شيئاً . »

وقد سر اسماعيل أباظه باشا لفكرتى كما رأيت من الخديو ميلا لتنفيذها .

وفى ٥ مارس تقابل اللورد مع الخديو ودار الحديث حول عدة مسائل من بينها مسألة المدرسة ، فأثنى اللورد على سعد باشا ومقدرته وذكائه ، كما امتدح بهذه المناسبة خطبته التى ألقاها فى الجمعية العمومية عن وجوب التعليم باللغة العربية .

فرد سموه بأن مشروع المدرسة قد أثار غضب العلماء ، وأنه كان الأولى التريث فيه فقال اللورد : « ولكن المفتى وشيخ الأزهر بحثاه ولم يعترضا عليه . »

تقرير كرومر عن الحركة الوطنية . يلاحظ اللورد فى تقريره عن سنة ١٩٠٦ أن الحركة القائم بها بعض المصريين لتأسيس حزب يدعون أنه الحزب الوطنى هى

شىء جديد لم يسبق له وجود فى مصر ؛ إذ أن المصريين لم يكونوا مستقلين فى عصر من العصور ، بل تقلبوا من جيل إلى جيل تحت نير الفرس واليونان والرومان والعرب والجركس وأخيراً الأتراك ، وإنه لا يوجد إلا عصر الفراعنة المظلم الذى يظن أن المصريين حكموا فيه أنفسهم .

أما الحزب القائم بالحركة الحالية إن لم يكن قائماً بكليته على أساس التعصب الاسلامى فان ذلك التعصب هو سلاحه وأنشودته .

وهو يستنتج ذلك من كون المحرك الوحيد الذى يؤثر على شعوب الشرق هو الدين ، وأن شكل الحكومة الدينية هو الوحيد الذى يميل إليه الشرقيون ويعتزون به . ولهذا يجب على الدول أن تلاحظ حركات التعصب الاسلامى أينما ظهرت ؛ لأنه يخشى منها إقلاق النظام وتعكير الراحة العامة كما كاد يحصل فى الربيع الماضى فى القطر ، غير أن اللورد لا يظن أن ذلك الحزب المستتر تحت رداء الوطنية تقوم له قائمة ، ولا أن مبادئه المتعصبة تسرى فى عروق الأمة المصرية لأن القائمين به أفراد مغرورون لم يولهم أحد الزعامة . بل يظن أنه يوجد فى القطر حزب آخر أجدر بأن يلقب بالحزب الوطنى ، وهو مؤلف من عقلاء الأمة الذين يشتغلون بسكون وصبر لما فيه المصلحة العامة ، وتقدم البلاد ؛ وهو يسميه حزب تلاميذ المغفور له الشيخ محمد عبده ، ويستشهد بواحد منهم وهو سعد زغلول باشا ناظر المعارف الآن .

اصدار جريدتى ليتاندار والاستاندارد . فى ٣ مارس صدر أول عدد من « ليتاندار إجبسيان » باللغة الفرنسية و « الاجبشيان استاندارد » باللغة الانجليزية . وهاتان الجريدتان أسسهما مصطفى كامل عقب حادثة دنشواى وقام فيهما بحملة شديدة ضد انجلترا بسبب هذا الحادث ؛ وكانت نتيجة هذه الحملة أن وزير خارجية انجلترا ، بعد أن اتهم المصريين ، بايعاز كرومر ، بأقبح التهم ، وبعد أن أقره على خطته واستحسن كل ما أتاه ، عاد فسحب ما قاله من الألفاظ الخارجة فى مجلس العموم ؛ ثم بعد ذلك عزل اللورد كرومر شر عزلة ، ولم تمض بضعة أشهر حتى أعقب ذلك صدور العفو عن مسجونى دنشواى وأفرج عنهم بمناسبة عيد الجلوس فى ٨ يناير سنة ١٩٠٨ .

أحاديث سياسية للخديو . فى ٢٤ مارس نشرت جريدة الاجبشيان استاندارد تصريحات كان قد أفضى بها الخديو لمكاتب الطان وهذا نصها : « أنا أحب بلادى حباً صحيحاً كما يعرف كل مصرى كيف يجب أن يحبها وتعلقنا بهذا الوطن عظيم ، فهو وطننا

الخاص وفيه خيرنا وله كل محبتنا ونكره أن نموت فى وطن آخر سواه .

ويدهشنى ما يبديه المصرى من السهولة العجيبة فى اقتباس التهذيب الأوربى ، ولقد حان الوقت ليبذل كل جهد لتحقيق أمانى الشعب المصرى فيما يتعلق بتقدمه . » وأنكر سموه بصفة قاطعة وجود أقل تعصب فى مصر ، وقال : « إن الشعب المصرى صالح من طبعه ، وعامل أمين لين العريكة ،كما أن التسامح من أعظم قواعد ديننا . » ثم تكلم عن التهمة الموجهة إليه ، وخلاصتها أنه يريد أن يوجد لنفسه سلطة شخصية ليستعملها على النمط الشرقى ، فقال : « إننى تعلمت وأدركت بواسطة تربيتى الأوربية أنه لا بد من اتحاد الأمة مع ملكها فى العمل لمصلحة البلاد وحسن إدارتها . أما الحكومة الاستبدادية فانها عمل شاق ولا أقوى على احتماله . » وختم كلامه بقوله : « قد بذلت كل قواى عاملا لمصلحة بلادى وما عارضت مطلقاً فى عمل اعتقدت أنه نافع لمصر ، ولم أرفض فى حياتى الاصغاء للنصائح والارشادات . »

وقد نشرت اللواء ترجمة هذه التصريحات بالخط العريض . بعد أن وزعت إعلانات يدوية تلفت فيها النظر لما ستنشره .

وفى اليوم التالى طلب إلىّ الخديو أن أستدعى إليه الشيخ على يوسف فلما قابله قال له : « الحقنا ..! الولد مصطفى كامل عمل عملة بطالة ؛ أولا وزع منشوراً أمس صباحاً فيه يلفت أنظار الناس لتصريحاتى ، ثم نشرها فى جريدته بطنة ورنة . » واتفق الخديو مع الشيخ أن يكتب المؤيد اليوم والمنبر غداً بأنه لم يكن ثمة ما يدعو لهذه الحركة الصبيانية ، وأن ما قاله الخديو لمكاتب الطان هو نفس ما يقوله على الدوام لمحدثيه ؛ وبالفعل تم ذلك ؛ وقد قال سموه بهذه المناسبة أيضاً : « الغرابة أن رجالنا الباشوات وجدتهم أمس موافقين على ما فعله مصطفى كامل من الطيش ! » وعلمت من سموه أنه يعنى لطيف سليم باشا ، واحمد شوقى بك ، ثم قال : « وإن صاحبنا مستر موزلى (*) غاضب كثيراً لما حدث . » وقال أيضاً : « إننى لا أقول شيئاً ضد اعتقادى ، وحينما أقول أنا أحب مصر مثل حب المصريين لها . وإننا لا نريد أن نموت بعيدين عنها لا أبالغ ؛ لأنى فى الحقيقة لما ذهبت إلى الخرطوم ، وحينما أكون فى الاستانة كل سنة ، أرى على وجوه المصريين وعلى لسانهم حنيناً لبلادهم ، وشوقهم الشديد للرجوع إليها حتى أصغر

(*) كان قاضياً فى المحاكم الأهلية وخرج منها ، واشتغل بمكاتبة بعض الصحف الانجليزية بلندن ، وهو محب لمصر والمصريين ، ونصوح للخديو فى الأعمال التى تهم الانجليز وخصوصاً بالنسبة للصحافة .

واحد فيهم مثل الشنه جى(*) الذى فى معية والدتى . »

وقد بلغنى مما سمعته بخصوص مكاتب الطان ، أن مصطفى كامل باشا هو الذى أوعز إليه بالتوجه إلى القبة ومحادثة الخديو ، وربما كان الواسطة أحمد شوقى بك ؛ وبعد أن دون المكاتب رسالته عرضها بواسطة شوقى بك على الخديو لحذف منها بعض عبارات ، ثم توجه بها شوقى بك إلى موزلى لأخذ رأيه فقال : « إذا نشر ذلك يضر ولا ينفع . » وألح فى عدم نشر الحديث ، ولكن سموه رغماً عن هذه النصيحة أمر بارسالها إلى الطان .

والنقطة الدقيقة فى هذا الحديث ، هى التى تمس الحالة القائمة وفيها تلميح لمسألة المجلس النيابى فى قول الخديو : « إننى تعلمت فى أوربا وبأنه لا بد من اتحاد الأمة مع ملكها فى العمل لصالح البلاد وحسن إدارتها ؛ أما الحكومة الاستبدادية فانها عمل شاق لا أقوى على احتماله . » ولو صدر هذا الكلام فى وقت آخر لما كان له كبير أهمية ؛ وقد قالت البروجريه ، وهى جريدة فرنسية محلية ميالة للسياسة الانجليزية ، بمناسبة هذه العبارة : « اتضح الآن أن الخديو من الحزب الوطنى ، أى الذى يطلب المجلس النيابى . » ثم وردت برقية بأن التيمس قالت : « إن سموه أظهر الآن أنه موافق على سياسة مصطفى كامل . » وأنها تهدده بأن يعدل عن هذا المسلك لأنه مدين لانجلترا بمركزه .

وقد نهجت الجرائد الفرنسية هذا المنهج إلا أن الاجبشيان جازيت هونت الأمر فكتبت تقول بأنه لا يوجد فى حديث الخديو ما يوجب تهديد التيمس لسموه .

وزاد هذا الحديث توتر العلاقات بين الخديو والمحتلين .

حديث سياسىّ آخر : وفى ٣١ مارس كتبت الصحف حول الحديث الذى أدلى به الخديو إلى المستر ديسى مكاتب الديلى تلغراف قبل سفره لانجلترا ؛ وفى هذا الحديث ينوه المكاتب بثلاث نقط مهمة :

(١) استنتج المكاتب من كلام الخديو أنه يرى الاحتلال أمراً طبيعياً ، ويفضله على احتلال أى دولة أخرى .

(٢) أنه يرى الشعوب الشرقية ميالة للسلطة المطلقة بدلا من السلطة النيابية ، وعليه ينصح للانجليز أن يتركوا له هذه السلطة وأن يتفقوا معه فى الأعمال حتى يكون الجميع يداً واحدة لصالح البلد .

(*) هو الذى يحمل الطعام من المطبخ لغرفة المائدة .

(٣) أبدى الخديو أنه رغم احترامه للسلطان باعتباره الرئيس الدينى ، لا يمكن أن يتنازل لتركيا عن أى امتياز نالته أجداده ، وأن المصريين يؤيدونه فى ذلك؛ وعلى ذلك فان اتهامهم فى حادثة طابا بالاشتغال لصالح تركيا مردود وليس له أصل .

وفى الحديث أشياء أخرى مثل اعتراف الخديو بجميل الملك ادوارد الذى أبدى لسموه . فى كل مرة زار فيها انجلترا . كثيراً من العطف وكرم الوفادة ؛ وقد نوهت الصحف الميالة للانجليز بهذا الحديث ، وأشارت إلى الصحف الوطنية بقولها : « ها هوذا الخديو على غير فكركم ، فهو يريد الاحتلال ولا يطلب مجلساً شورياً . » فردت الجرائد الوطنية بأن كلام مكاتب الدايلى تلغراف لا يعول عليه ، لأنه استطراد واستنتاج لا يبرره الحديث ، وأتت بشواهد عديدة على أن الرجل فى كتاباته يخلط ، هذا فضلا عن أنه لم يطلع الخديو على ما كتبه قبل النشر كما هو المعتاد فى هذه الأحوال ، ولهذا لا يمكن التعويل على كلامه وكتابته .

وفى أول يونيو سألنى الشيخ على يوسف تليفونياً من مصر عن هذا الحديث ، وعما يمكن أن يكتبه بشأنه ، فوعدته بالمقابلة فى اليوم التالى عند رجوعى لمصر من الاسكندرية بمناسبة اجتماع مجلس الأوقاف الأعلى ، ثم عرضت على الخديو الأمر فقال لى : « أنا لم أقل مطلقاً لديسى إننى ميال للسلطة الشخصية ، وقد صرحت لمكاتب الطان بعكس ذلك ؛ فكيف أقول الآن العكس . أما بالنسبة لما يقوله ديسى من أنى موافق على الاحتلال ، فهذا لا يعقل؛ لأنه لا يوجد مصرى يرغب احتلال بلده بدولة أجنبية ؛ أما تفضيل الانجليز على غيرهم ، فهو لاشك مما يقوله كل إنسان . » وأخيراً قال لى : « عندما تقابل الشيخ على يوسف فى مصر أخبره بأن فكرى لم يتغير بالنسبة للاحتلال ؛ وقد أوضحت رأيى لمكاتب الطان بالنسبة للحكومة الشخصية ولا بأس أن يكتب ذلك . » ثم قابلت الشيخ وأخبرته بذلك فكتب شيئاً بهذا المعنى ؛ ولما رجعت عرضته على الخديو ، وكان اسماعيل أباظه باشا موجوداً . فوافقا عليه ، وأمرنى سموه أن أخبر الشيخ على يوسف بأن يقول : « إن مكاتب المؤيد قابل أحد رؤساء المعية — بدلا من أن يذكر اسمى — وعلم منه كيت وكيت . » قال الخديو : « وإن سئلت أقول إنى أجهل ذلك . » وقد حصل ونشر المؤيد تحت عنوان « صحيح الحديث » ما يأتى :

« قطعت جهيزة قول كل خطيب . كتب إلينا كثيرون ، ومن جملتهم احمد افندى عبد اللطيف المحامى ، بعد اقتناعهم من استنتاجات المؤيد ، وعتب المحامى المذكور عليه

بعدم نشر خطاب له ، ولـكن لم يشأ المؤيد أن يناقش ألفاظاً بألفاظ فأوفد مكاتباً خصوصياً للاسكندرية فقـابل أحد رؤساء المعيـة وهـذا ما قاله وأذن بنشره حرفياً :
نقلت الجرائد فى هـذه الأيام حديثاً عن جريدة الديلى تلغراف عزاه مكاتبها للجنـاب العالى الخديوى وقد جاء فيه كلام عن مركز الاحتلال الانجليزى فى مصر وعن الحكومة الشخصية فى البلاد الشرقية ، والحقيقة أن المستر ديسى طلب قبل سفره من القطر المصرى مقابلة الجناب العالى وجرى معه حديث لم تعرض صورته بعد على سموه ، ومع اعتقاد الجناب العالى بحسن نيـة المكاتب فيما نشره ، إلا أن رأى سموه فى الاحتلال لم يـكن من قبل مجهولا ورأيه فيه لم يتغير ؛ وأما رأيه فى أمر الحكومة الشخصية فقد قاله سموه بأجلى عبارة لمكاتب الطان قبل الآن ولم يبد لسموه رأى جديد يخالفه . »

اقالة اللورد كرومر وتعيين السير الدون جورست مكانه . بلغ الاستياء من سياسة الاحتلال غايته ، سواء فى ذلك الخديو والشعب المصرى ؛ وعرف الانجليز أن نفوذهم الذى عمـل اللورد كرومر على تقويته وتدعيمه ، منذ تعيينه ممثلا لانجلترا خلفاً للسـير ادوارد مالت سـنة ١٨٨٣ بدأ يتضاءل ويضعف على يد كرومر نفسه بسبب أخطائه الأخيرة ، ولا سيما فيما يختص بحـادثة دنشواى التى صدعت من هيبتهم فى نظر أوربا كلها ، ولمـا أحدثته هذه السياسة الغاشمة من رد الفعل وتقوية النزعة الوطنية ، وتنبه الأفكار بين عامة الشعب ؛ عندئذ رأت انجلترا أن تضحى بفرد هو اللورد كرومر على أن تضحى بمصالحها العامة ؛ فقررت تعيين السير الدون جورست معتمداً بريطانياً خلفاً له ، ووضعت سياسة جديدة تقوم على اجتذاب الخديو إلى جانب انجلترا ، واستمالة الأحزاب الوطنية التى كانت تتمخض عن الظهور .

وصدر هـذا القرار فى أول أبريل فكان له وقع حسن فى النفوس ، بعـدما بلغ التذمر نهايته ، وبذلك أخذت البلاد تستعد للعهد الجديد بشىء من الرجاء .

وفى ٢٥ أبريل تألفت لجنة للاحتفال بوداع اللورد ، باشراف مستر فنسان كوربت المستشار المـالى ، وقد قابل دومرتينو باشا وأشـار إليه من طرف خفى أن اللجنة تود لو شرف الجناب الخديوى الأوبرا يوم الاحتفال ، وأنه إذا لم يحضر فان اللورد يتحدث عن الخديو اسماعيل والخديو توفيق ، ولا يشير إلى سموه بشىء ، بل ينتقد على الأوقاف والأزهر والمحاكم الشرعية .

فسأل الخـديو دومرتينو باشا عن مناسـبة الحديث بينـه وبين كوربت فقال :

« عندما أراد توزيع اللوجات ، فكر فى لوج الجناب العالى ولمح إلىّ أنه إذا لم يحضر سموه ، فنى وسعه أن يرسل من ينوب عنه . »

وفى ٢٧ ابريل جاء اللورد وزار الخديو زيارة الوداع وقال لسموه ما يأتى : « جئت لآخر مرة ، وقد لا نتقابل بعد ذلك ؛ فالآن أريد ألا أخفى عليكم شيئاً فأقول بصراحة إن العلاقات الشخصية بينى وبينكم كانت طول المدة التى أقمتها حسنة . » فأبدى الخديو شكره ؛ ثم قال اللورد : « أما العلاقات السياسية فكانت سيئة وخصوصاً فى السنوات الأخيرة ، فان سموكم اندفعتم فى تيار اللواء والمؤيد وطلب مجلس نيابى . » فأجاب الخديو بأنه لم يطلب ذلك ، وأتم اللورد كلامه قائلا : « فما نفع هذا المجلس ؟ ألم تعلموا أنه يكون ضدكم وأنكم تلعبون بالنار ، فعليكم أن تتشجعوا وتخرجوا من المأزق الذى اندفعتم بنفسكم اليه وتتركوا هذه الأمور لئلا تعرضوا مركز الخديوية للخطر . واعلموا أنه إذا حصل اختلال فى مصر واضطر الحال لاستخدام القوة العسكرية الانجليزية ، وأطلقت رصاصة واحدة فانها تكون القاضية على مصر وعلى العائلة الخديوية . ولقد كان اعتصاب سائقى العربات مصبوغاً بصبغة سياسية وهذا شىء غير حسن ، ولكن لما يعلمه المعتصبون من قوتى وشدتى انتهى الأمر بسلام ولم يستمر الاعتصاب . ولكن بعد خروجى سيرجع وهناك الطامة الكبرى ، وأن المسيحيين والوطنيين وأغلب المصريين مستاءون من هذه الأمور .

وما الذى دفعك لمقابلة مكاتب الطان الذى نشر حديثك معه ؟ ولكن أما وقد حصل تغيير الآن فى المعتمد ، فان الفرصة أمامك فيمكنك تغيير خطتك أولى من أن تكون سبباً للضرر بشخصك والخديوية وعائلتك . »

فرد الخديو على اللورد بقوله : « إذا كنت تعنى بكلمة عائلتى أولادى ، فأنا ولله الحمد عندى ما يكفينى ويكفيهم ؛ أما إذا كان القصد الأمراء الآخرون ، فأنت ضيقت عليهم دائرة الانتساب لأسرتى ، أعنى الدكريتو المحدد لأعضاء العائلة الخديوية ، وقد شجعتهم ضدى وعينت منهم أوصياء على أبناء العائلة بدون علمى ، ولم أعلمه إلا من الصحف .

ومن جهة سياستى فأنا أعلنتكم أننى لا أريد الضرر لبلادى وأننى أبتعد عما يجلب لها أى ضرر . وفى مدة الخمسة عشر عاماً كانت الاستقامة من شعائرى ، وكنت أجتهد فى تسهيل مهمتك ، وأنا آسف على نسيانك الخدمات التى قمت بها لك ، وأستغرب من

وصول كل إشاعة سيئة ضدى إلى أذنك ، وعدم وصول شيء من المساعى الحميدة التى كنت أقوم بها . »

وبعد خروجه قال لنا الخديو : « ... وكان كلامه فى نهاية الغلظة ينم عن نزوع إلى الانتقام والتشفى من خصم لم ينل بغيته منه ويريد تهديده وتهديد مركزه . » وإزاء هذه الغلظة قرر الخديو ألا يرسل مندوباً عن سموه فى حفلة الوداع بالأوبرا واكتفى بأن يتوجه سموه يوم ٢ مايو فيزور اللورد وزوجته فى الوكالة البريطانية .

وفى عصر ذلك اليوم جاء السير الدون جورست وقابل الخديو وتحدثا معاً ، وأعلم سموه أنه لم يقابل الملك قبل سفره إلى مصر ، وأنه سيمكث لآخر يونيو لمراقبة الأحوال هنا ، ويعود إلى انجلترا لشرحها لوزير الخارجية ، لأن التقارير ليست كالمشاهدة ، وبعد أن يمضى إجازته يعود للعمل . فأبدى له الخديو ارتياحه لتعيينه وقال له : « إننى أعتبر ذلك التفاتاً وترضية من جلالة الملك وحكومته لى ، حيث اختارا رجلا أعرفه واشتغلت معه وهو صديق لى ، فأؤمل يا سير جورست أن تكون فى المستقبل نفس الرجل الذى عرفته فى الماضى . » فأجابه السير بأنه يؤكد لسموه أن خطته لا تتغير ، وأنه سيكون دائماً الصديق القديم ، فرجاه الخديو ، لمعرفته شئون الداخلية والمالية والبلاد ورجالها وباللغة العربية ، ألا يعتمد فى معلوماته على واسطة . ثم قال الخديو : « عندما يبلغك شيء فلا تغضب بل احضر عندى فى أى وقت كان ، وتحادث معى حتى لا يقع سوء تفاهم بيننا ؛ وأؤكد لك أننى أريد خدمة بلادى باستقامة ولا أميل إلا للحق ، ولتكن وجهتنا واحدة ، ألا وهى العمل النافع لمصر . »

وبهذه المناسبة تحدث الخديو مع جورست عن جلسة مجلس النظار التى حدث فيها المناقشة فى مشروع مدرسة القضاء الشرعى وتوجه شيخ الجامع على أثرها إلى اللورد كرومر وشكا اليه ، فلم يمض يوم أو اثنان حتى أرسل سعد باشا لشيخ الجامع خطاباً يعدّل فيه ما ورد فى الدكريتو الخديوى . وقال الخديو :

« فهل يمكن أن يعدل الدكريتو الخديوى بخطاب بسيط من ناظر المعارف ؟! »

وبعد انتهاء الزيارة ، بلغنى من دومرتينو باشا نقلا عما سمعه ، أن الانجليز يقولون إن جورست سيكون سهلا ليناً فى البداية حتى يحدث من الخديو ما يستوجب الملاحظة فيكون عندئذ شديداً جداً على سموه .

وفى ٣٠ منه علمت من بطرس غالى باشا ، أن اللورد كرومر نقل كل ماجرى بينه

وبين الخديو من الحديث بنصه لمسيو دوفيل بوا قنصل عام هولانده وأقدم القناصل الموجودين بمصر ؛ وعلم بطرس باشا من كرومر أيضاً أن الخديو وعد بأن يتبرأ من الحزب الوطنى فى الخطاب الذى سيلقيه يوم استقبال جورست ، وأنه ألقى على سموه نصائح بصفته محباً له بأن يبتعد عن مصطفى كامل وعلى يوسف واحمد شوقى ؛ ثم قال لى بطرس باشا : « إن اللورد حدثنى بغاية الاعتدال ، وليس كما سمعته وقاله لى الخديو ؛ وقد أبدى لى اللورد أنه بتغييره وتعيين جورست قد أتيحت لسموه فرصة ثمينة للخروج من المأزق الحرج الذى زج فيه بنفسه . ولم يقل لى شيئاً عن تهديده للأريكة الخديوية بل قال فقط : إن السياسة الحالية مما تضر الخديو . »

وفى أول مايو توجه مصطفى فهمى باشا وقابل البرنس حسين كامل باشا ، واجتهد فى إقناعه بقبول حضوره فى حفلة وداع كرومر .

وأرسل المستشار المالى خطاباً لرياض باشا يطلب منه فيه الاشتراك فى هذه الحفلة ، فقبل ؛ ولما سئل إذا كان ينوى الخطابة ، أجاب نفياً .

وبلغنى بعد ذلك ، أن وكيل البنك الأهلى بالاسكندرية ، وهو انجليزى ، بذل وسعه فى ضم الوطنيين للاحتفال باللورد فلم ينجح ، فهدد بعدم مساعدتهم وقت اللزوم . وقال لكامل بك تيمور : « أنت رجل مالى ولك أشغال كثيرة وتحتاج إلى المال فاذا أبيت الانضمام فاننا نحن أيضاً نمنع عنك المال حين احتياجك إليه . » ومع هذا التهديد فقد رفض الحضور .

وفى ٢ مايو توجه الخديو صباحاً لزيارة اللورد بدار الوكالة البريطانية وكان اللورد فى انتظاره على آخر درجة من السلم ؛ وتقابل الخديو مع زوجة اللورد ، ولم يحضر الاجتماع أحد ، وجرى الحديث عن الهواء والمناخ والأزمة المالية وبعد ذلك أوصله اللورد حتى الباب الداخلى .

وقد بذل رجال الاحتلال كل مجهود لاحضار أكبر عدد من الوطنيين فى حفلة الوداع ولكن بالرغم من هذه الجهود فقد رفض الكثيرون الحضور .

وجاءنى واطسون باشا الياور الخديوى يسعى فى حضورى فاعتذرت بأنى سأكون يوم الاحتفال فى الاسكندرية ، كما اعتذر عزت بك بأنه لا يعرف اللغة الفرنسية التى ستلقى بها الخطب ؛ أما احمد زكى باشا فقد اضطر للقبول .

ورفض يوسف ضيا باشا الحضور وقال : « إنه لا وقت لديه للتوجه للأوبرا . »

وقد علمت من الخديو أن واطسون باشا كتب أمام أسماء رؤساء المعية الاعتذارات التى قالوها عندما عرض عليهم أن يحضروا حفلة الأوبرا .

وقال لى سموه أيضاً إن البرنسات الذين يخاصمونه من عائلة حليم وعائلة فاضل وربما أيضاً البرنس عمر طوسون ، قبلوا الدعوة للاحتفال بكل ارتياح ، وإن البرنس سعيد حليم كتب خطاباً إلى اللورد يفيض مدحاً وشكراً للرعاية التى كان يوليهم إياها .

وكتبت الصحف الوطنية تندد بالذين سيحضرون الاحتفال ، ولا سيما بالبرنس حسين كامل باشا . وهكذا مرت الحفلة يوم ٤ مايو دون أن يحضرها من الوطنيين إلا عدد قليل ممن أثر عليهم صنائع الانجليز ؛ أما هؤلاء فقد حضروا جميعاً بطبيعة الحال فى الاجتماع .

وقد ألقى اللورد خطبة ضافية فى هذا الاحتفال ؛ لا حاجة بنا لا يرادها ؛ ويستطيع القارىء أن يراجع هذا الخطاب الذى تلاه كرومر بالطعن على الأمة المصرية ورجالاتها ، فى الصحف التى صدرت فى هذه الفترة ، ولكنا نحيله على المقال الشهير الذى رد به الشيخ على يوسف صاحب المؤيد على خطاب كرومر وفند فيه مطاعنه بقوة وذلاقة ، وقد نشرته جريدة المؤيد عقب الاحتفال .

جورست وسياسة الوفاق الجديد . فى ١٠ مايو اطلعنا على الخطبة التى سيلقيها جورست يوم استقباله الرسمى ، فوجدنا بها نقطتين هامتين : الأولى أنه نوه فيها بتأكيد روابط المحبة من زمن بعيد بين انجلترا والدولة العلية . والثانية اعترافه فى آخر خطابه بأن حكم مصر إنما هو للجناب الخديوى .

وقد أرسلنا فأحضرنا خطبة كرومر سنة ١٨٨٣ للموازنة بين الخطبتين فوجدناهما متماثلتين تماماً ، ولكن جورست أشار فقط فى خطبته إلى السنين التى قضاها فى خدمة الحكومة المصرية بنظارة المالية .

وفى ١٦ مايو كان الاستقبال الرسمى ، فألقى السير الدون جورست خطبته المذكورة بعد تعديل فيها بحذف اسم الدولة العلية ، لأنه رأى فى الرد الذى أعددته — بصفتى رئيساً للديوان الأفرنجى ، وبعد عرضه على نظارة الخارجية كالمعتاد — أننا سنقول: « روابط الود بين انجلترا والدولة العلية وبالأخص مصر . » فاكتفى هو بذكر مصر فقط ؛ وكان فى ردنا جملة أخرى وهى : « تأكد ياسعادة الوزير أنك ستجد منى كل المساعدة بالاخلاص . » وقد أراد الخديو حذفها ولكن بطرس باشا استصوب بقاءها .

ثم إن الذى سر الخديو فى خطبة جورست اعترافه بسيادة الدولة العلية حيث تكلم عن توثيق روابط المودة بين انجلترا والدولة العلية ثم اعترافه بأن الحاكم لمصر هو الخديو حيث قال جورست : « إنى أشعر فى خاصة نفسى بارتياح لاختيار الملك لى وكيلا مفوضاً ، وقنصلا عاماً فى بلاد أنت مليكها الكريم . »

وفى ١٩ مايو قابلت البرنس حسين كامل باشا ودار الحديث بيننا عن المعتمد الجديد ، فقال البرنس إنه قابل جورست وفهم منه أنه ميال لاصلاح الأمور ، وقال دولته للمعتمد : « إن المديرين مغلولة أيديهم عن العمل بسبب المفتشين الانجليز ، مع أنهم أدرى بمصلحة البلاد . فرد بأنه يجب تغيير هذه الخطة . »

وفى ٢٥ مايو زار المعتمد عباساً ودار بينهما حديث ودى ، وقال جورست إنه سيسافر إلى انجلترا لعرض الحالة على ناظر الخارجية شخصياً بدل التقارير ، وإنه سيعود بعد ذلك لمصر للعمل بكل إخلاص مع جنابه العالى .

وقد زار المعتمد الخديو مرة ثانية فى ٥ يونيو ، ولكن سموه لم يصرح بشىء مما دار بينهما من الحديث ؛ بيد أنه بعد خروج جورست قابل سموه اسماعيل أباظه باشا ففهم من سموه أمرين مما يتعلق بهذا الحديث : وهو أن جورست ابتدأ فى انتقاد أعمال كرومر ولم يرد عليه الخديو ؛ والثانى أن جورست نصح بعدم الاشاعة إلى أن فى مصر أحزاباً ؛ وقد فهمت من ذلك أن جورست أراد ألا يتكلم الناس عن الحزب الوطنى لأنه ربما هو الذى يثير أفكار الانجليز .

وفى ٢٢ يونيو ، سافر الخديو إلى الأستانة فوصلها يوم ٢٧ منه ؛ ومكث بها أسبوعاً ثم بارحها إلى ديفون لأخذ الحمامات .

وفى ١٠ يوليو سافر جورست إلى لندن ؛ وقد كلفنى بطرس غالى باشا أن أرسل برقية للجناب العالى : « بأن المعتمد سافر مرتاحاً من حسن معاملة الخديو له ومن سير الأمور فى مصر على العموم ، ووعد بأنه سيعلم بذلك وزارة الخارجية الانجليزية لتطمئن الخواطر ، لأن تقارير كرومر كان لها تأثير سيء فى النفوس . » ففعلت .

وفى ٢٥ منه جاءنى مظلوم باشا ناظر المالية وطلب منى أن أرسل برقية للجناب العالى بأن المستشار المالى سيقدم استقالته ؛ وقد فهمت من حديثه أن سبب استقالته ملاحظة جورست عليه وانتقاده لسياسته المالية وكثرة الانفاق من الاحتياطى ؛ وفهمت كذلك أن جورست غير مستريح لمستشار الداخلية المستر متشل اينس ، ولا إلى

اللورد سيسل الذى رشح لأن يكون مستشاراً مالياً ؛ وقد أرسل جورست للخديو فى ديفون خطاباً رقيق العبارة يفيض بعبارات الاحترام ، يعلم سموه باستقالة كوربت ، ويعرض على أعتابه تعيين خلف له إذا وافق ولى النعم عليه . وهذا أمر ما كان يصدر فى عهد كرومر ؛ إذ كانت التعيينات كلها تجرى دون أخذ رأى الخديو .

فرد الخديو عليه بخطاب يقول فيه إنه واثق من الشخص الذى انتخبه لثقة سموه فيه ، ولهذا يوافق عليه ؛ وقد خلفه فى ٩ أكتوبر المستر هنرى بول هروى .

وعاد الخديو فى يوم ٢ أكتوبر ، وقضى ليلة فى المحروسة ، وقابل النظار فى سراى رأس التين فى اليوم التالى .

عهد جديد : هذا وقد بدأ عهد جديد فى البلاد من ناحية سياسة المحتلين بعد رجوع جورست من لندن ؛ فكان أول أعماله أن جمع لديه كبار الموظفين الانجليز فى الحكومة المصرية ، وأوصاهم بمعاملة أقرانهم المصريين بالحسنى ، وعدم الخروج عن دائرة نفوذهم واختصاصهم ؛ ولم يحضر هذا الاجتماع سوى الموظفين الانجليز ، وقد أمرهم بكتمان هذه النصيحة ؛ ولكن الغريب أن المؤيد نشرت الخبر فى اليوم التالى .

وفى أول ديسمبر تقابل بطرس باشا مع الخديو ، فأبدى سموه ارتياحه المعتمد الجديد وخطته .

وفى ١٧ منه قابلت بطرس غالى باشا . فعلمت منه بحصول الوفاق بين الخديو وجورست على منح الرتب والنياشين ، سواء أكان ذلك بواسطة الداخلية أم من لدن جنابه .

وقد أفهمنى أنه يخشى أن تحدث فى هذا الشأن أخطاء كالتى وقعت ، وأن تعود تجارة النياشين ؛ وذلك لا يحسن أمام جورست .

وفى ٢٣ ديسمبر ، بعد مقابلة بين الخديو والمعتمد . علمت أنه أخبر سموه أن الحكومة الانجليزية لا تعارض فى العفو عن مسجونى دنشواى . وأنه قر الرأى على إصدار العفو فى عيد الجلوس الخديوى .

وهكذا سارت الأمور فى هدوء فى ظل العهد الجديد .

أرض يهدد الخديو . فى ذلك الحين تغيرت حالة الخديو عن ذى قبل . وأصبح كثير الصخب ، يتكدر ويسخط لأقل شىء ، وغدا مشتت الأفكار ؛ فراعتنا هذه الحالة التى لا نعلم لها سببا .

وفى يوم ٢٥ مايو قابلت بطرس غالى باشا ، وعرضت عليه الحالة ، فقال لى إنه توجد إشاعة بأن الخديو كان يكلف أحد الانجليز بالكتابة فى صحف انجلترا ضد كرومر ، وأن هذا الرجل ، نظراً لوجود مكاتبات لديه من الخديو ، يطلب مبلغاً عظيما ؛ وإلا فانه يفضح الأمر ؛ وهذا ما يخشى الخديو حدوثه من وقت لآخر .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان سموه متكدر من السلطان ، لأنه رغب أن يشترى أرضاً واسعة بالضلمان فيها غابات يمتلكها رجل اسمه شريف افندى من أزمير بمبلغ ١٢ ألف جنيه ، وقد أراد سموه أن يكون البيع باسم الركبدار احمد أغا الكريدلى . فلما علم السلطان بذلك ، حال دون إتمام الصفقة ، فتأثر الخديو جد التأثر ؛ ولكن انتهى الأمر بشراء عباس هذه الأرض ويظن بطرس باشا أن الخديو لهذا السبب لا يتوجه هذا العام إلى الاستانة ، وتمنى لو حدث ذلك ؛ ولكن سموه لم يتأخر عن السفر إليها .

وفى أثناء هذه المقابلة جرت سيرة احمد شوقى بك ، فقال بطرس باشا : « إنه ربما كان الواسطة بين الخديو وهذا الانجليزى . » وزاد على ذلك قوله : « ما هو انت يا شفيق اللى جبته كما بلغنى ، لأن أفندينا كان زعلان منه ، وأراد أن يخرجه من المعية لولا مساعدتك له . » وقد كان يظن بطرس باشا أن ذلك حدث فى الأيام الأخيرة ، ولكنى أفهمته أن ذلك حدث أيام حسن عاصم باشا ؛ إذ أراد شوقى بك أن يقدم استقالته ؛ ولكن نظراً لذكائه ونشاطه ومقدرته فى الترجمة وحاجة المعية إلى خدماته ، فقد منعته من ذلك ؛ ولم أكن أعلم أنه يصل به الأمر لما نراه الآن ، كما أخبرت بطرس باشا بأنه وشى بى عند الخديو ، فقال لى إنه يعلم ذلك .

وبعد ذلك سألت دومرتينو باشا عن مسألة هذا الانجليزى ، فقال لى : « نعم هى مسألة حقيقية ؛ وقد علمت أن هذا الرجل كان قد حضر لمصر ، وطلب الحصول على امتياز كثير الفائدة ، ولكن جورست وقت أن كان مستشاراً مالياً رفض ذلك . فلما ذهب الشيخ على يوسف إلى لندن ، وعده بمساعدة مالية إذا رضى أن يكاتب الجرائد الانجليزية ضد كرومر وأعماله ؛ فقبل وكتب واستمر على ذلك مدة ؛ ولم يعرف اللورد سر المسألة حتى توصل قبل خروجه من مصر إلى معرفة هذا الرجل ، وعلم أن بيده خطابات كثيرة عدا خطابات أخرى من الشيخ على يوسف بأمر الخديو ، ومنها يعلم أنه أرسلت إليه نقود تبلغ الآلاف جنيه ، وخطابات أخرى تفضح الخديو وكاتبها . وأخيراً طلب اللورد من هذا الرجل أن يعطيه هذه الخطابات مقابل إعطائه الامتياز الذى يريده فأبى .

وأخيراً تفاوض الرجل مع الوسطاء بينه وبين الخديو ، وطلب مائة ألف جنيه وإلا فانه يسلم الأوراق للوكالة البريطانية ؛ وعليه انتدب سموه كلا من أحمد شوقى بك وحسين محرم باشا للمخابرة فى هذا الشأن مع الرجل ، ولكنه رفض خمسين ألف جنيه تعويضاً .. مسكين الخديو لا يعرف من أى جهة يأتيه الكدر والضرر ! ،

وفى ٢٩ مايو علمت من بروستر بك حقيقة مسألة الانجليزى ؛ وهو مستر موزلى الذى كان قاضياً بالمحاكم الأهلية وأرغم على الاستقالة ؛ ولكنه ليس هو الذى يهدد بتسليم الأوراق للوكالة البريطانية ، أو يطالب بتعويض ، لأنى أعرف أنه يوجد اتفاق يقضى بمنحه ١٢٠ جنيهاً كل ثلاثة أشهر ، وقد صرف له ذلك عن يدى من الخاصة منذ أسبوع فقط ؛ أما الرجل المقصود فهو رجل أرمنى كانت له علاقة بالشيخ على يوسف وموزلى ، وتفاهم مع الخديو بخصوص الكتابة فى الجرائد واسمه اسطفان بك ، وأعرفه لما كنا فى الخارجية معاً ، ويعمل الآن فى بيع وشراء الأراضى ، وكان هو الذى طلب من الحكومة أراضى أظنها بجهة النوبارية ، ولم تساعده الوكالة ولا جورست أيام أن كان مستشاراً مالياً . وقد انتهى الأمر بحصوله على مبلغ من الخاصة ، وطويت المسألة .

الأزمة المالية . فى السنوات السالفة ارتفعت أثمان العقارات والأراضى الزراعية لدرجة لم يسبق لها مثيل ، فكانت الصفقة تباع فى الصباح بثمن عال ، وفى المساء تباع بثمن أعلى ؛ وكثرت المضاربة حتى أنى كنت أملك ثلاثة أفدنة من الأراضى الزراعية فى شارع الهرم اشتريتها بمائة جنيه للفدان فبعتها بسعر ١٣٠٠ جنيه ؛ كما أننى اشتريت ثلاثة أفدنة أخرى فى شبرا بسعر الفدان ١٨٠٠ جنيه ، وكنت أرجو المكسب الطائل ؛ ولكن خاب ظنى فهبطت الأسعار إلى درجة كبيرة ؛ وكذلك اشتريت ٢٠٠ فدان أرضاً غير منزرعة خارج زمام الفيوم بسعر الفدان ١٠ جنيهات ، ولكنها هبطت إلى جنيه واحد للفدان (*) .

وكان كرومر فى تقريره السنوى قد أشار إلى أن هذا الارتفاع الفاحش فى الأسعار لا بد أن يكون له رد فعل وأنه سيعقبه هبوط كبير ؛ وقد تحقق ظنه ! ووقعت الأزمة ، وامتنعت المصارف عن التسليف خصوصاً تلك التى كانت تستورد أموالها من الخارج ، وأخذت تطالب بما لها من الديون ، فأرهق الكثيرون وكنت منهم .

وفى ٢٠ يوليو بعثت ببرقية للدكتور كاوتسكى بك بناء على طلب بطرس باشا

(*) وهى باقية على ذمتى للآن بلا زراعة .

ليعرض على الخديو أن الأزمة المالية أثرت فى التجارة ، وأن رجال المال فى مصر يسعون فى توقيع مذكرة يرفعونها للمالية ، لاقراض البنك الأهلى ثلاثة ملايين من الجنيهات ، للعمل على تخفيف الأزمة .

وكان رأى السير جورست أن الأزمة الحالية لا ينتظر انقضاؤها قبل عامين أو ثلاثة ، حتى تعود الثقة المالية التى أثرت فيها تقارير كرومر وخطة الحزب الوطنى . ومن هنا بدأ نقده لكرومر وسياسته .

وفى ٢٦ يوليو أرسلت لسمو الخديو برقية بذلك ، وأتبعتها فى اليوم التالى برقية أخرى عن إحصاء المحال التجارية التى أعلن إفلاسها ، وقد بلغت الثمانين !

وفى نفس اليوم وردت لى برقية من طورنيزن باشا بأن أطلعه يومياً على الحالة المالية وموقف الحكومة منها ، لاحاطة الخديو بها تباعاً ، فأرسلت اليه برقية فى ٢٩ منه بتفصيل عن الحالة ، ومما جاء فيها : « إن المزارعين باعوا قطنهم بنقص ٢٠ قرشاً عن أسعار الكونتراتات بسبب المناورات التى قام بها تجار الصادرات ، ليتمكنوا من الشراء بأسعار رخيصة ؛ وكان المعتاد أن يكون البيع فوق الكونتراتات . » ثم تفاصيل أخرى توضح حرج الحالة وتفاقمها .

قيام الأحزاب المصرية . منذ أواخر العام الماضى نشطت حركة تأليف الأحزاب المصرية بصفة منتظمة ؛ وهى ثلاثة : الحزب الوطنى ، وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية ، وحزب الأمة .

وابتدأ تأليفها منذ اكتوبر سنة ١٩٠٦ ، وانتهى فى سبتمبر سنة ١٩٠٧ ؛ وإليك خلاصة عن ظروف تأليفها ، وبيان برامجها المختلفة :

الحزب الوطنى : كان مصطفى كامل قد سافر فى صيف هذا العام إلى أوربا للدعاية لمصر ، وعاد فى أواخر سبتمبر ، وخطب فى الاسكندرية فى ٢٢ اكتوبر خطبة طويلة أعلن فيها مبادىء الحزب الوطنى ؛ وكان مصطفى كامل معتل الصحة فى ذلك الوقت ؛ فلما رأى تأخر صحته أسرع بتأسيس الحزب ، وخطب خطبته فى ٢٧ ديسمبر بالقاهرة ، وكان معظم الوطنيين يلتفون حوله قبل تأليفه بطريقة رسمية .

وكان برنامجه واسعاً يغرى أصحاب النفوس الطامحة ، ويرضى المتطرفين والشبان . وهذا هو : —

(١) استقلال مصر كما قررته معاهدة لندره سنة ١٨٤٠ ، ذلك الاستقلال الذى يضمن عرش مصر لعائلة محمد على مع الاستقلال الداخلى عن تركيا .

(٢) إيجاد دستور فى البلاد بحيث تكون الهيئة التنفيذية مسئولة أمام مجلس نيابى تام السلطة كمجالس النواب فى أوربا .

(٣) احترام المعاهدات الدولية ، والاتفاقات المالية التى ارتبطت بها الحكومة المصرية لسداد الديون ، وقبول مراقبة مالية كالمراقبة الثنائية ؛ ما دامت مصر مدينة لأوربا ؛ إذا طلب منها ذلك .

(٤) الصراحة فى انتقاد الأعمال الضارة ، وتشجيع الأعمال النافعة للحكومة المصرية .

(٥) العمل لنشر التعليم على أساس وطنى صحيح ، بحيث ينال الفقراء منه أوفى نصيب .

(٦) ترقية الزراعة والصناعة والتجارة .

(٧) بث الشعور الوطنى فى الشعب ، وإفهامه حقوقه الوطنية ، ودعوته للائتلاف والتساند بين عنصريه .

(٨) العناية بالشئون الصحية .

(٩) بث روح المحبة بين المصريين والأجانب .

(١٠) تقوية العلائق بين مصر والدولة العلية .

(١١) الدعاية لمصر فى الخارج ، ونفى كل شبهة عنها يلصقها بها خصومها .

ويشترط لقبول الأعضاء بالحزب الوطنى ما يأتى :

(١) أن يكون الطالب مصرياً ، معروفاً بالأخلاق الفاضلة ، لم تصدر عليه أحكام تمس شرفه وسمعته .

(٢) ألا يكون عضواً فى حزب آخر .

أما الأعمال التى ستعرض على الجمعية العمومية للحزب الوطنى للتصديق عليها فأهمها :

فى ميدان السياسة :

وضع تقرير سنوى باللغات الثلاث : العربية والفرنسية والانجليزية عن حالة

مصر ، يرد فيه على ما يورده معتمد الدولة البريطانية فى تقريره ضد مصالح المصريين وآمالهم ، وتبين فيه مقاصد الأمة ومطالبها والأمور الشاغلة لها .

فى ميدان التربية والتعليم :

إعداد المعدات لمؤتمر التربية . والسعى فى تنفيذ قراراته بعد انعقاده . وسيدعى الذين اشتركوا مبدئياً فى هذا المؤتمر للاجتماع فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٠٧ بمدرسة مصطفى كامل ، لتقرير الأمور المبدئية اللازمة لعقد المؤتمر (*).

وهذا الحزب هو أقوى الأحزاب المصرية ، وأعظمها فى العدد والنفوذ .

حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية : بعد تأليف الحزب الوطنى ، تحركت فكرة تكوين الحزب الذى رأى الشيخ على يوسف صاحب المؤيد إنشاءه ، خصوصاً وقد شعر الخديو بأن الحزب الوطنى قد توسع فى برنامجه بما لا يناسب الحالة الجديدة ، حالة الوفاق بين سموه والسير الدون جورست ، وأنه لابد من قيام حزب يؤيد سموه ويكون عاملا من عوامل التوازن .

عندئذ ألف الحزب الثانى فى أبريل ، وسمى « حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية » برياسة الشيخ على يوسف ، ووكالة احمد حشمت باشا ؛ وهذا ملخص مبادئه :

(١) تأييد السلطة الخديوية فيما منحتها الفرمانات الشاهانية لاستقلال مصر الادارى .

(٢) الاعتماد على الوعود والتصريحات التى أعلنتها بريطانيا العظمى عند احتلالها القطر المصرى ، ومطالبتها بتحقيقها .

(٣) المطالبة بمجلس نيابى مصرى يكون تام السلطة فيما يتعلق بالمصريين والمصالح المصرية .

(٤) أن يكون التعليم الابتدائى عاماً ومجاناً .

(٥) أن تكون اللغة العربية لغة التعليم فى البلاد .

(٦) أن تعطى الوظائف فى المصالح المصرية للوطنيين بمقتضى الكفاءة . مع تقليل عدد الأجانب بقدر الامكان .

(*) ولكن هذا المؤتمر لم يعقد .

(٧) أن تكون محاكمة الأجانب جنائياً أمام المحاكم المختلطة.


حسن عبد الرازق باشا

حزب الأمة : بينما كان الخديو فى أوربا ، كان محمود سليمان باشا ، وحسن عبد الرازق باشا يؤلفان « حزب الأمة » ، وتم ذلك فى ٢١ سبتمبر ، وجعلت « الجريدة » التى يشرف على تحريرها الأستاذ احمد لطفى السيد بك لسان حاله . وقد خطب يوم تأليفه عبد الرازق باشا ، نائباً عن محمود باشا (الرئيس) الذى تخلف لأسباب صحية . وقد كان الخديو يخشى أن يكون لسعد زغلول باشا وأخيه احمد فتحى زغلول باشا يد فى تأليف هذا الحزب ؛ لذلك سألنى مرتين وهو بأوربا عن ذلك فأجبته بأنه لم يظهر لى أن لهما علاقة به .

وكانت تتلخص مبادىء هذا الحزب فى :

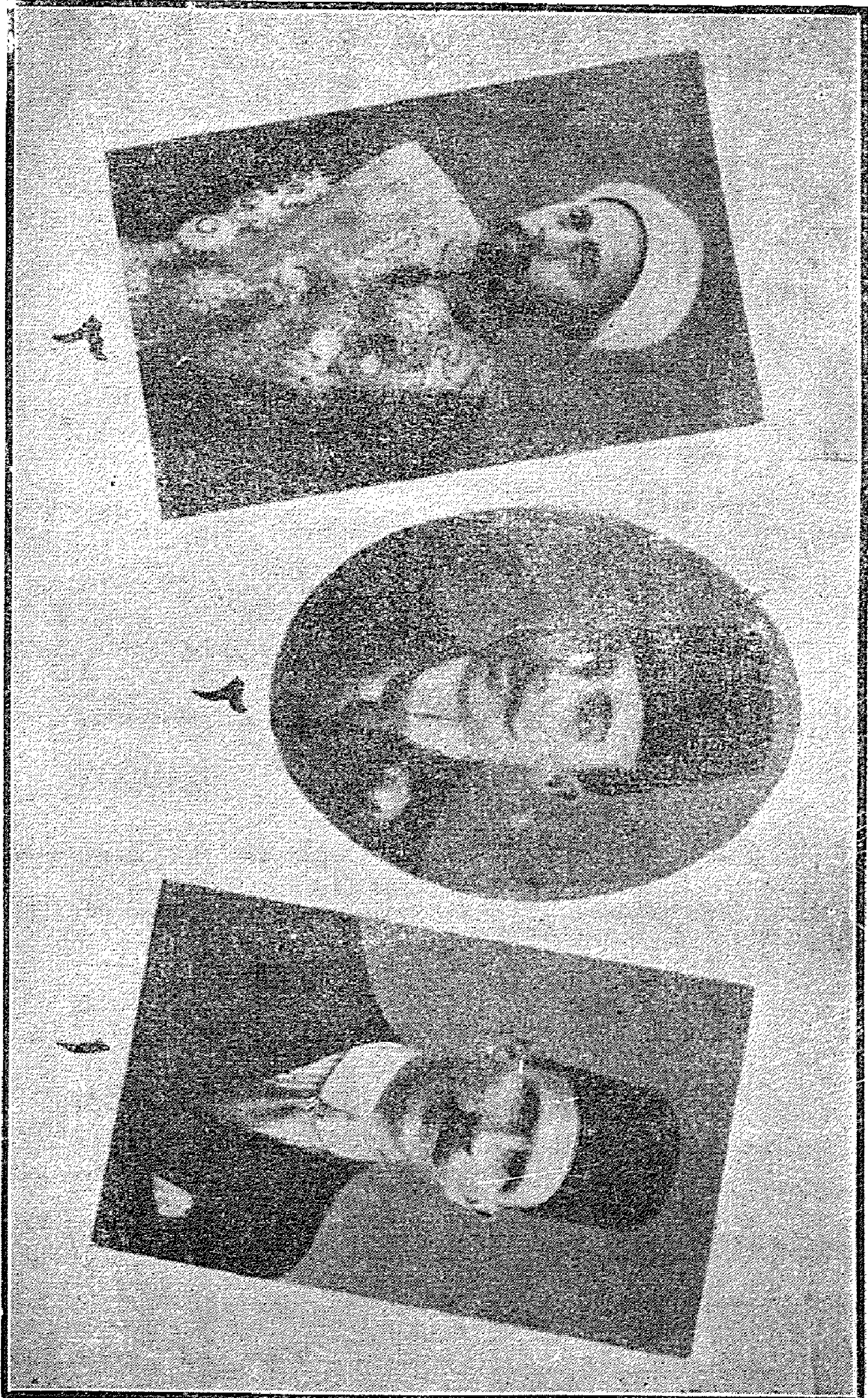
(١) معاضدة حركة التعليم ونشره بكافة الطرق وجعله إجبارياً فى الأولى والابتدائى .

(٢) الحصول على حق البلاد الطبيعى فى الاشتراك مع الحكومة فى وضع القوانين والمشروعات العامة ، وتوسيع اختصاص مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين ؛ تدرجاً إلى إيجاد مجلس نواب .

(٣) توسيع نطاق الجمعية الزراعية توصلا إلى تقدم البلاد الزراعى ، وعدم إهمال الصناعة والتجارة ، والسعى لترقيتهما .

وبعد حضور الخديو من أوربا دارت عدة أحاديث بينه وبين رجال معيته فى شئون هذا الحزب . وقد ظهر بعد ذلك أن لسعد باشا يداً فى تأليفه ، وأنه يعمل سراً مع أخيه فتحى باشا لتقوية نفوذه . وقد علمنا أن اللورد كرومر كان من المعضدين لقيام هذا الحزب إذ كان يتوسم فيه مناهضة سياسة عباس .

وكان رأى الشيخ على يوسف تأليف حزب يعضده رجال اللجنة المصرية فى البرلمان الانجليزى ، التى تشكلت للبحث فى الشئون المصرية ، كما سبق الاتفاق بينهم وبين مسيو موزلى ، ولكن رُؤى أن الانتظار أفضل .



١ — أحمد لطفى السيد بك

٢ — مصطفى كامل باشا

٣ — الشيخ على يوسف

وفى ٦ اكتوبر بلغنى من اسماعيل أباظه باشا أنه تقابل مع بعض أعضاء حزب الأمة ، وطلبوا منه الدخول فيه فأبى لعدم انتظام الحزب ، حتى إن جميع محررى « الجريدة » أعضاء فيه ، وأنه طلب إليهم إجراء انتخاب ، وانتقاء الأعضاء حتى يستطيع العمل معهم ؛ وقد فهم منهم أنهم غير مرتاحين لخطة « الجريدة » .

وبعد تأليف الأحزاب الثلاثة اشتدت المنازعات بينها ، ولا سيما بين الحزب الوطنى وحزب الاصلاح .

وكانت جريدتا اللواء والمؤيد ميداناً لهذا النزاع ، الذى وصل فى كثير من الأحيان إلى حد المهاترة والاتهامات الخطيرة ، حتى لقد اتهمت المؤيد ، مصطفى كامل بأنه يقلد عرابى .

وقد كتب مراسل التيمس بتاريخ ٢٠ نوفمبر كلمة عن « الأحزاب فى مصر » ، جاء فيها ما يلى : « إن الحرب الصحافيـــة التى دارت رحاها بين ما يدعى « أحزاب الوطنيين[1] » لا تزال قائمة بحدة وشدة .

« أما الحزب الوطنى (الرسمى) الذى ألف سنة ١٩٠٦ ، فقد انقسم إلى قسمين : حزب المتطرفين . برياسة مصطفى كامل باشا ؛ وحزب المعتـــدلين ، برياسة الشيخ على يوسف[2] .

« وإنك لا تجد فرقاً بين ما عرضه هذان الصحافيان المتناظران من المشروعات الاصلاحية . ولكنهما اختلفا فى أمر واحد ، وهو أن كامل باشا يطلب جلاء الانجليز عن مصر فى الحال ، وينتقد المحتلين والحكومة المصرية الحاضرة بلهجة عنيفة .

« أما مناظره — وهو أوفر منه حكمة . أو أكثر خوفاً وتدبراً فى سوء العواقب — فانه يرى الآن ، أو يتظاهر ، أن مسألة الجلاء خارجة عن دائرة السياسة الممكن تنفيذها . وينكر على زعيم المتطرفين وأنصاره حدة لهجتهم (وقد كانت لهجته من قبل) ولكن يصح أن يقال أن المؤيد والمنبر — وهما لسان حال المعتدلين — قد أظهرا تعقلهما السياسى وحكمتهما . بسعيهما أخيراً وراء إيجاد تفاهم أفضل وأنفع مع الأمة المحتلة .

« وأما حزب الأمة الذى تألف حديثاً . فانه حتى الآن لم يقم بعمل يستحق الذكر .

---

(١) يرمى بذلك إلى الحزب الوطنى وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية وحزب الأمة

(٢) الحقيقة أن الشيخ على يوسف لم يكن منضما للحزب الوطنى

ولعله أقرب إلى المحافظين فى تأثيره على طبقة الملاك ، لا على طبقة الموظفين والشبان والطلبة والمحامين ؛ فان من اهتم من هؤلاء بالسياسة ، كان مناصراً لمصطفى كامل باشا . »

من استبداد عباس . فى ١٩ مارس سمعت من الشيخ احمد الزناتى أن أحد متخرجى مدرسة القبة المسمى جمعة افندى الموظف بتفتيش المنتزه، أبى فى الصيف الماضى أن ينفذ أمراً ، فصدر الأمر بتشغيله فى مشال فحم ؛ ولما علم بذلك هرب ، واستخدم فى إحدى الشركات ، فنبه الخديو على الشيخ احمد أن يبحث عنه ويسترجعه لخدمة الخاصة بأى مرتب كان ، حتى يوقعه تحت طائلة عقابه الصارم .

وفى ٣٠ مارس طلبنى الخديو فوجدته متكدراً جداً ، وسألنى عن شرف افندى رئيس فراشى سراى عابدين ، فقلت لابد هو موجود . وبعد أن سبه ولعنه أمرنى أن أعمل تحقيقاً معه فى سبب غيابه ، وعدم مباشرته أعماله ، وكذا مع فراش آخر أهمل فى واجباته ؛ وبعد التحقيق أقتطع خمسة عشر يوماً من مرتب شرف افندى ، وأفصل الثانى .

فقمت بالتحقيق المطلوب . فاتضح لى أن شرف افندى لم ينقطع عن عمله مدة وجود الخديو فى عابدين ، أو فى غيبة سموه ؛ وأنه فى ذلك اليوم لم يخرج من السراى إلا لاستحضار أحد العمال ، لوضع لوح من الزجاج فى مشرفية السلاملك .

أما الفراش الذى يقول عنه الخديو إنه أهمل فى واجباته . فقد ظهر أن الخديو أمر بايقاد الحمام للاستحمام ، فنبه شرف على أحد الفراشين . وهذا نسى أن يبلغ الشخص المختص بهذا العمل . وعند دخول الخديو إلى الحمام لم يجد ماء ساخناً ، فأحضروه فى الحال من ماء القهوة . وهذا ما كدر الخديو .

ولكن رغم هذا التحقيق فقد أصر الخديو على قطع خمسة عشر يوماً من مرتب شرف افندى ، وطرد الفراش المهمل .

وقد أمر الخديو بفصل عويس بك أحد موظفى سراى رأس التين ، لأن سموه طلب منه مراتب وكراسى من الموجودة بالسراى لارسالها إلى تكية المنتزة ، فرفض عويس بك قائلا : إن المراتب يمكن أن يقال عنها إنها استهلكت وأدخل قطنها فى التنجيد ، أما الكراسى فنظراً لأنها مقيدة فى العهدة فلا يمكن إرسال شىء منها !

شئون مختلفة .

أراضى واحة سيوة : قام الخديو فى هذا العام برحلة إلى سيوة ما بين ٢٨ يناير

و ١٩ فبراير . وفى أثناء وجوده هناك أنعم ببعض الهدايا على الأهالى ، وأعطى لمأمور سيوة نقوداً وقماشاً لتوزيعها على الأهالى ؛ وحدث عند توزيعها أن تألم البعض من مساواتهم جميعاً فى هذه المنح سواء من كان منهم يعمل بأرض الخديو أو لا يعمل ، وقاموا ضد المأمور واتهموه بالتحيز والغرض .

وقام بعض المشايخ وادعوا أن المأمور كان اشترى لى ولحسين رمزى باشا ويوسف ضيا باشا أرضاً بثمن يبلغ الأربعمائة جنيه ؛ أى أكثر مما قبضوه عند توقيع عقد البيع ، وطلبوا منه دفع الباقى فأفهمهم أن الثمن كله مدفوع فأنكروا وتآمروا عليه . وبعد جهد اتفق معهم على إعطائهم مبلغ سبعين جنيهاً مصرياً زيادة على المبلغ المدفوع منى و ٥٨ جنيهاً من يوسف ضيا باشا و ١٣٠ جنيهاً من حسين رمزى باشا . فرضوا وانتهى الأمر على ذلك . ولكن المشايخ عادوا فأوعزوا للأهالى برفض هذا الاتفاق وأرسلوا عرائض مع مندوبين من قبلهم للخديو ولنظارة الداخلية . فأرسل المأمور تقريراً وطلب فيه من سمو الخديو أن يرسل مندوباً لتهدئة الأهالى وإنقاذه من هذا المأزق الحرج ، وقدم المندوبون ورفع الأمر إلى الخديو وكان من رأيه أن نتنازل عما اشتريناه ! ولما قابلت الخديو لامنى على أنى لم أخبره بأمر هذه الصفقة . فقلت إن المسألة ترجع إلى الصيف الماضى حيث كان المأمور فى الاسكندرية ، وطلبت منه أن يشترى لى أطياناً ، ولكن بعد أن يستأذن ولىّ النعم ، وقد استأذن من سموكم لأنه عرض عما إذا كان بعض المصريين يريدون مشترى شىء فهل يساعدهم فأجيب بالقبول ، وقلتم سموكم إن المصريين أولى من الأروام مثل جورجى وغيره .

فقاطعنى الخديو قائلا إنه ظن أن الأمر متعلق ببعض أقرباء المأمور . أما الآن فان أهل سيوة اشتكوا للداخلية ، وسيفتح ذلك أعين المحتلين وآذانهم فيتدخلون فى أحوال سيوة وهذا ما لا أرضاه !

وبعد أخذ ورد بيننا وبين مندوبى سيوة انتهى الأمر بتنازلنا عن الصفقة ، ثم طلبهم الخديو ووبخهم على أفعالهم وثورتهم ضد المأمور وأمرهم بالرجوع مباشرة إلى سيوة . وكان المأمور يعمل لعقد هذه الصفقات نظير حصص يستولى عليها من الأراضى المشتراة ؛ ولقد أثرت هذه المسألة على مركز المأمور حتى فكرت وزارة الداخلية فى تغييره .

فى ١٣ مارس بلغنى من حسين محرم باشا أن الخديو كلفه بالتوجه لمستشار الداخلية ليطلب منه عدم إرسال مأمور جديد بدل المأمور الحالى لأن ذلك مما يساعد

السيويين على الاستخفاف بالمأمورين ويفهمون أن فى إمكانهم عزل من لا يريدونه ، وطلب كذلك أن يجرى تأديب الشيخ عثمان حبون أصل الفتنة . فرد المستشار بأن نقل المأمور كان مقرراً من قبل لأنه مكث زيادة عن حقه نصف سنة . وبعد صدور الأوامر وتعيين خلفه الذى توجه للسفر لا يمكن تغيير شيء إنما فيما بعد يمكن إرسال مفتش من الداخلية لسيوة وحينذاك يعزل المشايخ المشاغبين وينتهى الأمر .

ثم إن المستشار أفهم حسين محرم باشا بأنه يعلم مسألة تدخل المأمور فى مشترى أراض لبعض مستخدمى المعية ، ولما أخبره حسين باشا بأن الخديو عندما بلغه شكوى السيويين أمر المشترين بالتنازل عما اشتروه ، وحدث ذلك فعلا ، رد عليه المستشار قائلا : « وأظن أن أفندينا اشترى أيضاً ...! »

وأراد بذلك أن يعلم هل تنازل الخديو عن أرضه التى يعلم المستشار أنه اشتراها هناك أو لا (*)

سعى الخديو لاجتذاب الأهالى : فى ٤ مارس أقام الخديو بسراى عابدين مادبة غداء دعا اليها أعضاء لجنة المعرض الزراعى والنظار والمديرين ، وكانت المائدة معدة لتسعين مدعواً .

وسبب هذه الدعوة هو أن البرنس حسين كامل باشا كان قد لاحظ فى حديث مع الخديو بأن سموه لم يفعل شيئاً لاجتذاب الأهالى ، واستحسن أن يدعى أعضاء لجنة الجمعية الزراعية لتناول الشاى أو الطعام عند سموه .

وفى ٢٧ فبراير لما كنت بحضرة الخديو ، ومعنا اسماعيل اباظه باشا ، جرى الحديث حول وجوب سعى سموه إلى استمالة الأهالى ، فانتهزت الفرصة وعرضت عليه فكرة البرنس حسين كامل باشا ، كأنها من عندى ، فاستحسن اسماعيل اباظه باشا هذه الفكرة ولكنه فضل أن تكون الدعوة لأعضاء الجمعية العمومية ، فقلت يخشى أن الحكومة تنسب هذه الدعوة إلى غرض سياسى ، خصوصاً وأنه ستلقى على الجمعية جملة طلبات لا يستريح لها الانجليز . فوافقنى اسماعيل باشا وعلى ذلك فقد جعلت الدعوة لأعضاء لجنة المعرض الزراعى ، وكان لها أثر حسن جداً .

(*) والحقيقة أنه بعد تنازلنا اتفق الخديو مع المالكين لها فاشتراها منهم باسم البرنس عبد المنعم ولى العهد .

تعليم ولى العهد وشقيقه : كانت تربية البرنس محمد عبد المنعم وعبد القادر تجرى داخل الحرم لغاية هذا العام ، فلا يخرجان للنزهة إلا فى الخلوات فى ضواحى العاصمة ، ولا يشهد المصريون طلعتهما ؛ فحادثت والدهما فى ضرورة إخراجهما ليراهما الشعب ، ويجهز لهما محلا فى سراى عابدين لتعليمهما ، فوافق على هذه الفكرة ، وعين محمود شكرى باشا مراقباً لمرافقتهما والاشراف على تعليمهما. وفى أول نوفمبرسنة١٩٠٩ صدرت إرادة سنية بتعيينه مربياً لدولة الأمير محمدعبد المنعم . وقد كلفنى عباس بالبحث عن معلم انجليزى فاستشرت وزارة المعارف فى ذلك ، وتعين المستر روب ثم خلفه فيما بعد أستاذ اسكوتلندى .

وها هى ذى صورتهما مع أساتذتهما .



ولى العهد وشقيقه مع أساتذتهما

وقد وقف الشيخ احمد الزناتى (المعلم العربى) فى الوسط وعن يمينه البرنس عبد المنعم وعن شماله البرنس عبد القادر وخلف عبد المنعم محمود شكرى فالمعلم الانجليزى فالمعلم الفرنسى (كومب) .

سنة ١٩٠٨

الخطوة الثانية لإصلاح الأزهر. مسائل الرتب أيضا. سياسة الوفاق بين جورست والخديو. وفاة مصطفى كامل باشا وانتخاب محمد فريد بك رئيسا للحزب الوطني. لائحة المعاشات الجديدة. سفر الخديو للاستانة وأوربا. قاضي قضاة السودان. إعلان الدستور في تركيا. خواطر تحسين باشا عن علاقة عبد الحميد بعباس. عودة الخديو الى مصر. الحركة الوطنية وطلب الدستور في مصر. علاقة مصر بتركيا وانجلترا. من استبداد عباس أيضا. نظارة بطرس غالي باشا. مدير الأوقاف العمومية الجديد. بين النظار الجدد. الهتاف للدستور. رسالة تهديد للخديو. الانجليز يعبثون بالاحتياطي. الانجليز والوظائف. الخديو والأعمال الهامة. مجلس شورى القوانين والدستور. اضطراب الامن. قاضي مصر والولاية الشرعية. المشادة بين الخديو والحزب الوطني. تدخل الخديو في الانتخابات

الخطوة الثانية لإصلاح الأزهر. لما عين الشيخ الشربيني شيخاً للأزهر سنة ١٩٠٥ حضر بعد قليل من تعيينه ومعه الشيخ سليمان العبد من كبار العلماء الشافعية وقابلا الخديو، ثم حضرا عندى، وتحدثنا في شأن الأزهر، وما يحتاج اليه من المعونة المادية والأدبية، فأبديت عطفي على الأزهر واهتمامي بأمره وبمعونته على تأدية مهمته؛ وسألت الشيخ عما يطلب علاوة على الميزانية. فقال: «ألف جنيه». فقلت له: «إن شيخ الأزهر ينبغي أن يطلب أكثر من ذلك» فلما سألني عما يلزم طلبه قلت له: «خمسة آلاف.» فأبرقت عينا الشيخ وقال: «إذن أدع لك هذا الأمر» فقلت: «إننا إذا أعطينا أخذنا». ولفت نظره إلى حالة الفوضى التي تسود طلاب الأزهر ونظمه، وقلت: «إنه

يجب للسير بالاصلاح أن يقبل الشيوخ والطلاب النظام الحالى بالانصراف إلى الدرس المنتظم الذى يعقبه امتحان سنوى ، وأن ينق الأزهر من الدخلاء بين الطلبة ، وأن تحدد نظم الدرس حتى توافق روح العصر ».

فقال الشيخ « إننا اعتدنا فى مستهل كل عام دراسى أن نوزع الأعمدة على الشيوخ ونخصص لكل شيخ كتاباً وللطالب أن يختار شيخه فيستمع إليه . . » فأجبته بأن ذلك لايتمشى وروح التعليم ونظمه فى عصرنا الحاضر .



الشيخ سليمان العبد

وبعد مدة قليلة من هذه المحادثة توفى الشيخ الشربينى إلى رحمة الله وخلفه الشيخ حسونة النواوى للمرة الثانية . ولما علم ما دار بينى وبين سلفه وتأكد من اهتمامى بحالة الأزهر والأزهريين ورغبتى فى المساعدة على زيادة المرتبات زيادة توافق كرامة العلم والعلماء جاء لمقابلتى ومعه الشيخ سليمان العبد أيضاً ؛ بعد انصرافهما من لدن سموه ، فأعدت له ما دار بينى وبين الشيخ الشربينى ، وقلت له مع ذلك إن فضيلة الشيخ يعرف النظم الموجودة فى المدارس العالية التى يدرس هو فيها ، وما هى عليه من التنسيق فى الأحكام . وما تسبغه من جليل الفوائد على الطلبة وعلى العلم والعلماء . فوعدنى بالنظر فى هذا الأمر ، وأبدى لى ما يعترض تغيير النظم الأزهرية من الصعاب ؛ ثم تحدثنا بعد ذلك مرة أخرى واتفقنا على البحث فى النظم التى يمكن إدخالها فى الأزهر والمعاهد الدينية ، وأبديت استعدادى لوضع مشروع فى هذا الصدد . ثم عرضت على الخديو ما دار بيننا فاستحسن الفكرة ؛ وقلت لسموه إننا بهذه الوسيلة يمكن أن ندخل الاصلاحات اللائقة بالأزهر ، ويكون للجناب العالى أكبر فضل فى تحسين حالة التعليم والمعاهد الدينية على الوجه اللائق بكرامتها ؛ وكان سموه إذ ذاك على أهبة السفر إلى أوربا ؛ وفعلا أخذ مجلس إدارة الأزهر فى تعديل القوانين المعمول بها فى الأزهر ؛ وكان من ضمن أعضائه الشيخ محمد حسنين العدوى ، فعهد إليه ببحث

هـذه القوانين وتعديلها ؛ ووضع فى ذلك تقريراً أرسلته المشيخة إلى المعية للنظر فيه ؛ ولكن يظهر أن الشيخ العـدوى مع كونه واضع المشروع وموافقاً للمجلس فيما رآه ، لم يكن مقتنعاً بهذا التعـديل فى بعض أبوابه ، ولذلك قدم إلى المعية وقتئذ مذكرة تختص بالدراسة والتعليم يرى فيهـا أولا إصلاح الأزهر على الوجه السابق ، وأن يبقى تعليمه حرًّا وأن يضاف إليه من العلوم الحديثة بقدر ما تتطلبه إجادة العلوم الأزهرية ؛ وبعد ذلك سافر الخديو إلى أوربا .

ولما كنت بالاسكندرية عند سفر سموه اجتمعت بالشيخ محمد شاكر شيخ معهد الاسكندرية لما كنت أتوسمه فيه من أصالة الراى ، وراجعنا قوانين الأزهر وغيرها . وبعد عدة جلسات اتفقنا على مواد القانون ووضعنا مشروعاً . وكان يشترك معنـا فى بعض الاجتماعات الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى .

ولما عاد الخديو من السفر عرضت عليه هذا المشروع فرأى أن يكون هناك ثلاثة مجالس إدارية : أحدها للأزهر والثانى لمعهد الاسكندرية والثالث للمعهد الأحمـدى ، ويكون هنـاك مجلس عال يجتمع فى الأزهر تحت رياسة شيخه مع بقاء مواد القـانون على حالتها ، فأدخلت هذه التعديلات على المشروع .

وفى ٣ ديسمبر سنة ١٩٠٧ اجتمعت بناء على الأمر الخديوى مع بطرس غالى باشا رئيس النظار وابراهيم فؤاد باشا ناظر الحقانيـة وحسين رشـدى باشا مدير الأوقاف العمومية وقرأنا القانون ، وبعد المناقشة وتعـديل بعض المواد تقرر عرضه على مجلس النظار ليرى رأيه فيه ؛ ولـكن رؤى بعد ذلك أن تشكل لجنة لمراجعته يكون بين أعضائها شيخ الأزهر والمفتى وشيخ المالـكية والشافعية والحنابلة وأنا ، وأن يرأسها ابراهيم فؤاد باشا ناظر الحقانية ؛ فشكلت اللجنة وراجعت القانون وبعـد مناقشات طويلة وإدخال تعديلات أخرى وافقت على المشروع . ولـما كنت أخشى تذمر بعض العلماء ولا سيما الرجعيين منهم ، طلبت أن تقرر اللجنة أن هـــذا القانون ليس فيه ما يتنافى وأصول الدين الاسلامى ؛ وقد حصل ذلك .

وفى فاتحـة يناير سـنة ١٩٠٨ أخـبرنى الشيخ حسونة أن كثـيراً من العلمـاء قد امتعضوا لعدم أخذ رأيهم فى القانون ، وأنهم يقومون الآن بتوقيع عريضة لترفع إلى الجناب العالى ، يطلبون فيها إرسال القانون إليهم لفحصه ، فطلبت أن ترسل إلىَّ العريضة والمشـايخ الموقعون عليها ، وأفهمته أننى واقف على أسمائهم وحركاتهم ، ولـكنى فقط

أريد مواجهتهم . وانصرف الشيخ على ذلك ولكن أحداً منهم لم يحضر ، وكنت أعلم أن الشيخ محمد راضى من علماء الحنفية هو زعيم هذه الحركة ، وأن القائمين بالعمل بها من صغار العلماء ، وأن الشيخ حسونة أفهمهم خطأ فكرتهم واستحالة تحقيقها ، وأنه نائب عنهم فى لجنة المراجعة . وقد استمعوا إلى قوله واقتنعوا وعدلوا عن حركتهم ، ولكن جاءنى الشيخ محمد شاكر فأخبرنى أنهم بعد أن اقتنعوا عادوا إلى فكرتهم . فقابلت شيخ الأزهر وأفهمته ما يترتب على موقف هؤلاء العلماء من استياء الخديو ، فأبدى لى استعداده للبعد عن كل ما يكدر خاطر الجناب العالى ؛ ثم قابلت ابراهيم فؤاد باشا ، وهو صديق الشيخ ، فشرحت له الموقف فبادر إلى الشيخ ونبهه إلى خطورة الأمر ، وطلب إليه منع إرسال العريضة ؛ ولكن أصحابها كانوا قد أرسلوها بالفعل . وفى يوم ٤ يناير بلغنى من الشيخ محمد شاكر ، وكان قد قابل سمو الخديو فى الاسكندرية ، أن سموه متكدر جداً وغاضب على شيخ الأزهر . وكنت أعلم من بطرس باشا برغبة الخديو فى تعيين الشيخ أبى الفضل ؛ وبالرغم من المساعى التى بذلتها لتهدئة الحال فقد بلغنى أن الخديو يعتقد أنى مقصر فى مسعاى !

ثم تحادثت مع أصدقاء آخرين للشيخ لاقناعه بخطأ موقفه وخطأ تعلقه بأذيال الزغلوليين بدلا من التعلق بشخص الجناب العالى . فنفى الشيخ وجود أية علاقة بينه وبينهم .

وفى ٦ يناير حضر الخديو من الاسكندرية وطلب معلوماتى فى هذا الموضوع فأطلعته على كل ما تقدم ، وفى يوم ١٠ منه كانت صلاة الجمعة فى السيدة سكينة وقد تقابل سموه مع شيخ الأزهر ، فسأله عن إجازة العيد فى الأزهر فأجاب الشيخ على السؤال . ثم قال : « يظهر أن افندينا لا يريد أن يرى وجهى فهل هو غاضب علىّ ؟» ، فقال سموه : « والله أنا سمعت كثيراً من الأقوال فى حقك ولكنى ألزم الصبر ! ! » . وبعد الظهر أمرنى سموه أن أستحضر الشيخ لسراى عابدين ؛ ورغبة منى فى حسم الخلاف تحادثت معه طويلا قبل المقابلة فى خطر موقفه ، ورسمت له طريق إصلاحه وألا يناقش الخديو طويلا ، بل يوافق على انتقاداته ويعد باصلاحها ؛ لأن هذه رغبة الحكام عادة ؛ وقد كان ذلك وذهب من نفس الخديو كثير مما كان بها من جهته ؛ وبذلك زالت من الجو إشاعة كانت تتردد باستقالته نشرتها جريدة اللواء قبل ذلك بأيام .

طرد الشيخ راضى : وبقى الخديو ساخطاً على الشيخ محمد راضى حتى إنه فى يوم عيد الأضحى كان ضمن الوافدين على السراى للتهنئة ، ولما انتظم العلماء حضر احمد زكى باشا

رئيس التشريفات وسط الحجرة التى هم بها ونادى الشيخ راضى وقال له بصوت مرتفع : « ياشيخ راضى ، افندينا غير راض عنك ولا يحب أن يقابلك . » وسلمه إلى أحد التشريفاتية ليرافقه إلى خارج السراى .

وبعد صدور الأمر العالى بهذا القانون انعقد المجلس الأعلى لأول مرة بمشيخة الأزهر فى يوم ١٧ مارس تحت رياسة الشيخ حسونة النواوى وعين الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى فى هذه الجلسة مفتشاً للأزهر .

وقرر تشكيل لجان من المشايخ لامتحان سائر الطلاب فى الأزهر ووضعهم فى السنين اللائقة بمعلوماتهم حسبما تقتضيه ، وعهد باجراء ذلك إلى مفتش الأزهر ، فأجراه كما عهد اليه فى مسجد محمد بك أبى الذهب بجوار الأزهر وقدم كشوفه سنة سنة إلى المشيخة ؛ وكان ذلك فى أواخر السنة الدراسية . وفى شهر شوال ، أول السنة الدراسية الجديدة ، ابتدأت الدروس بالأزهر على هذا الوضع وكان ذلك يوماً مشهوداً لم يسبق له نظير فى الأزهر حضره شيخ الجامع بنفسه ومعه المفتش وكثير من الشيوخ وعمال المشيخة لمعاونتهم فى ضبط الطلاب وإجلاس المدرسين وتعريفهم أماكن الدراسة ؛ واستمرت هذه الحركة أياما بين الأخذ والرد وفى نهايتها تعين الشيخ محمد حسنين شيخاً للجامع الأحمدى ؛ وسار الحال على ما يرام .

وإنى أحمد الله على توفيقى فى خدمة العلم بالأزهر ، وإذا لم ينجح قبلى المرحوم الشيخ محمد عبده فى معالجة إصلاحه فذلك يرجع أولا إلى أن كبار العلماء كانوا يتذمرون من قبول رأى أحد تلامذتهم ولا يرضخون لما يقرره من الاصلاحات التى لم يتعودوها وخصوصاً فى شأن العلوم الحديثة التى كانوا يعتبرون أن فى بعضها ما يخالف الدين ، وثانياً لأنه كان يترفع عنهم ويعتد بنفسه معتقداً أنه أوفر منهم مقدرة وعلما .

أما أنا فكنت أحترمهم بتقبيل أيديهم وإكرامهم وملاطفتهم ؛ وأجتهد فى إقناعهم بألا رغبة لى إلا إصلاح حالهم مادياً وأدبياً ، فكان يسهل عليهم الأخذ بآرائى خصوصاً وقد كانوا يعلمون أننى أحظى بتعضيد الخديو وحكومته .

وهذه تعد الخطوة الثانية لاصلاح الأزهر .

على أن هذه السكينة لم تدم طويلا ؛ فقد حدثت بعد ذلك دسائس أفضت إلى اضطرام الأزهر وأضرب الطلاب عن الدرس ، وتظاهروا واشتبكوا مع الشيوخ فى سباب وعداء ، ودخل بينهم دخيل السياسة والفساد .

مسائل الرتب أيضاً . فى ٧ ينـاير أمرت بفرز الكشوف الواردة من النظارات بطلب رتب ونياشين للموظفين والعمد والأعيان وبعض الأسماء التى رؤى حذفها من هاته الكشوف، وقابلت مصطفى فهمى باشا وأعطيته الملاحظات الخاصة بذلك.

وفى ٨ منه توجهت لسراى القبة وهنأت الخديو بعيد جلوسه ، فأمرنى أن أخبر مصطفى فهمى باشا بأن يفصل التجار والأعيـان عن العمد فى الكشوف ، وأن يكون منح الرتب والنياشين للأولين من الخديو ، والآخرين كطلب نظارة الداخلية وقد تم هذا . وبقى الحال على ذلك حتى أواخر العـام حيث علمت من بطرس غالى باشا أنه قد حصل الاتفاق بين جورست والخديو على منح الرتب والنياشين للعمد والأعيان، سواء كان ذلك بواسطة نظارة الداخلية أو برغبة الخديو . وقد تخوف بطرس باشا أن تقع غلطات جديدة من سموه وأن ترجع عادة شراء الرتب كما كانت ، فتقع من جراء ذلك فضائح أخرى .

وجرى حديث فى شأن الرتب بين الخـديو وجورست ، فأبدى هذا الأخير أن مستشار الداخليـة يشكو من توقيف إعطاء الرتب ، وأفهمه أن تشجيع العمد بالرتب مما يفيد الأمن ، فأجابه الخديو بأنه وقف إعطاء الرتب لأن الداخلية كانت تعاكس من يمنحون الرتب رأساً من الخديو ؛ وادعت بأن العمدة قد يترك وظيفته لأجل أن ينال رتبة ثم يعمل الوسائل لرجوعه اليها ، وقد كان يجدر بالداخلية ألا تقبل مثل هذا العمدة فى مركز العمودية ثانية ؛ ثم ضرب مثلا لجورست بأنه كان قد أراد أن ينعم على واحد فى الفيوم ، برتبة فتوقفت الداخلية ، وعلى ذلك لم ينعم عليه ؛ وبعد مدة أرادت الداخلية مرتين أن تمنح رتبة لنفس هذا الشخص ، فأبى الخديو نظراً لعدم موافقة الداخلية أولا ! وكان سموه يحاذر فى مسائل الرتب بعـد الذى ثار من فضائحها . ومن ذلك ما سمعته فى شهر مايو من حسين زكى بك أن زوجته السويسرية حصلت على الكشوف التى كان يقدمها سابقاً للخديو لما كان منوطاً به بيع الرتب والنياشين بالمبالغ المتحصلة ، فيؤشر الخديو عليها بخطه ، مبيناً كيفية توزيع هذه المبـالغ بعد خصم نصيب الوسطاء . ومن ذلك مبلغ أربعة آلاف جنيـه لطورنيزون باشا لدفعها لمحل الرهونات بباريس ، عن بعض مجوهرات لسيدة يهمه أمرها ، ومبلغ أربعة آلاف جنيه لعبد العزيز عزت باشا ليسلمها لاسماعيل كمال بك من جماعة تركيا الفتاة ، ومبلغ خمسمائة جنيه للسيد محمد توفيق البكرى ، ومثلها لمصطفى كامل باشـا ، ومبلغ سبعمائة جنيـه للكونت دلاسالا باشـا

ليسلمها لصاحب جريدة البروجريه للكف عن انتقاد السراى ، وغير ذلك من المبالغ التى كانت تصرف فى مثل هذه الوجوه بعد تحصيلها من طلاب الرتب والنياشين .

وقد كان هذا العمل منوطاً بحسين زكى بك ، ولما أحيل أخيراً إلى أحمد شوقى بك غضب الأول ، ولوح بأن زوجته ستنشرها ، إذا لم يحصل على مبلغ مناسب إزاء تسليمها .

فرفعت الأمر للخديو فاهتم به كثيراً ، وأخذنا بعد ذلك فى المفاوضة مع حسين زكى بك حتى تم الأمر بالصلح نظير مبلغ معين . ولعله يجدر بى أن أثبت أن وساطة الرتب كانت غالباً محصورة فى حسين زكى وأحمد شوقى ، وأما غيرهما فقد كانوا ينفقون ما يحصلونه على الدعاية للخديو .

سياسة الوفاق بين جورست والخديو . منذ أن عين جورست معتمداً بريطانياً ، والأمور تسير فى هدوء بين الخديو والمحتلين ؛ ولكن بعض الصحف ، كالجريدة والمنبر والأهرام ، ظلت تنتقد أعمال المعتمد الجديد بشدة ، ولاسيما الجريدة التى كانت تتهمه بأنه لم ينهج غير سياسة سلفه ؛ وفى حديث بينى وبين الخديو عرضت لهذه الحملات فدافع عن جورست قائلا : « إن هذا الرجل كانت نيته ولا تزال طيبة بالنسبة لمصر والمصريين ، ولهذا فقد طلب العفو عن مسجونى دنشواى من تلقاء نفسه . ثم إنه أظهر للموظفين الانجليز رغبته فى أن يحسنوا معاملة المصريين ، وكذلك ساعدنا على إصلاح الأزهر ، رغم أن مصطفى فهمى باشا أراد أن يلقى بالدسائس بينى وبينه . » ثم أضاف إلى ذلك : « وإذا كانت أفكار المعتمد الجديد بدأت تتغير ، فذلك من جراء سعد باشا وتشجيعه طلبة الحقوق وغيرهم على التدخل فى الأمور السياسية ، وانضمامهم للأحزاب ، حتى قال لى جورست : إذا كانت أفكار الطلبة بهذا الشكل ، فماذا يكون منهم عند تقلدهم الوظائف العامة ؟ ؟ »

الخديو وفتحى زغلول : فى ٩ يناير استقبل الخديو أحمد فتحى زغلول باشا ، وبعد خروجه علمت من سموه أنه أراد أن ينفى لجنابه ما يشاع عن ميوله ضد الخديو وقال : « إذا كان ذنبى هو الحكم الذى أصدرته فى قضية دنشواى ، فانى كنت معذوراً . » . فأجابه الخديو بأنه لا يفكر فى ذلك ، ولا سيما أنه لم يكن رئيس المحكمة المخصوصة ، وأنه إذا كان هناك انتقاد من هذه الوجهة ، فيكون على بطرس غالى باشا . وهو من المخلصين لسموه . فانتهز فتحى باشا هذه الفرصة وقال : « وأنا أعلم ذلك ، ولهذا لا أعمل عملا إلا

بارشاداته . » قال الخديو : « إنى أنتقد عليك قبل كل شىء أنك من حزب الشيخ محمد عبده الذى افتضحت نياته السيئة فى هذه الأيام ؛ إذ أن بلنت أورد فى كتابه خطابين للشيخ يقول فيهما إنه لا بد من سحب كل سلطة من يد الخديو إذا أريد وضع نظم جديدة لادارة مصر بحيث يخرج من سلطته الأزهر والأوقاف والرتب والنياشين ، وألا يتدخل فى الادارة أبداً ، وأنه استشار فى رأيه هذا كثيراً من المفكرين فوافقوا عليه . »

وقد سأل الخديو فتحى باشا عن هؤلاء الذين استشارهم الشيخ ، فقال إنهم سعد باشا والشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ عبد الرحيم الدمرداش .

قال الخديو : « وأنتقد عليك كذلك أعمالك فى حزب الأمة ، وفى الجريدة . » فقال : « يا أفندينا نحن غير راضين عن خطة الجريدة ولهذا حررنا لمديرها خطاباً بذلك . » ووعد أن يحضر لسموه الخطاب .

وقد قال لى الخديو بعد ذلك : « وعند أخذ هذا الخطاب سأسلمه لجورست ، وأقول له هل يليق بموظف كبير أن يتدخل فى مسائل الجرائد والمسائل السياسية ويكون عضواً فى حزب ؟ ! »

وفى ١١ يناير تقابلت مع بطرس غالى باشا فأخبرته بما وقع بين فتحى باشا والخديو.

الخديو والنظار : وفى هذه المقابلة سألنى بطرس باشا عن زيادة التفات الخديو لمصطفى فهمى باشا فى هذه الأيام فقلت له : « ربما كان ذلك على أثر ما عرفه سموه من أن الباشا عمل زينة كبيرة يوم الاحتفال بعيد جلوسه ولأنه يعرض على الخديو كل أمر هام ويأخذ رأيه فيه أولا ، بناء على نصح جورست لمصطفى فهمى باشا . » وسألنى بطرس باشا أيضاً عن وقت خروج أودان بك من الخدمة فى الديوان الأفرنجى ، فأجبته بأنه بعد أن يبلغ الستين ، وفهمت أنه يقصد من ذلك أن يعين بدلا منه ابنه واصف غالى بك الموظف بالخاصة ، وقد كنت بالفعل أفكر فيه لأنه شاب نشيط يجيد اللغة الفرنسية والعربية .

وفى ١٥ يناير كلفنى الخديو بمقابلة سعد زغلول باشا والتحدث معه فى مسألتين : الأولى رغبة سموه فى إعطاء نيشان إلى مسيو بارودى مدرس علم الكيمياء مكافأة له باعتباره كيماوى الخاصة الخديوية ، والثانية طلب رأيه فى رجاء قنصل ألمانيا الجنرال باعطاء نيشان لمسيو مورتس أمين المكتبة الخديوية ؛ وقد قال لى سعد باشا عن المسألة الأولى إن الأمر فيها للخديو . أما الثانية فقال إنه من زمن وجيز أرسل إنذاراً لمورتس ، وفهم بعد ذلك من الخديو ومن القنصل أنهما سيرسلانه إليه للاعتذار ، ولكنه لم يحضر

للآن ، ولهذا لا يستطيع الموافقة على الانعام عليه ما لم يحضر ويعتذر .

وعلمت على أثر مقابلة جرت بين الخديو والمستشار المالى ، أن الأخير قال لسموه : « إن بطرس باشا يتوجه يومياً لرؤية جورست ، وكذلك مصطفى فهمى باشا يزوره لرؤيته كل ثلاثة أيام أو أربعة ، بعكس ما كانوا يفعلونه فى أيام كرومر حيث كانوا يتوجهون يومياً تقريباً كل صباح . »

وفاة مصطفى كامل باشا وانتخاب محمد فريد بك رئيساً للحزب الوطنى .

فى يوم ١٠ فبراير وقع حادث جلل اهتزت له البلاد كلها ؛ وهو وفاة مصطفى كامل باشا صاحب اللواء ورئيس الحزب الوطنى وزعيم الحركة الوطنية .

كان مصطفى كامل يعانى أوصاب المرض قبل ذلك بأسابيع . وكانت الجهود المتواصلة التى يبذلها فى بث الدعوة الوطنية والذود عن حقوق مصر ، سواء فى داخل البلاد أو فى خارجها تصدع من بنيته الضعيفة ، ولكنه استمر فى جهاده حتى اللحظة الأخيرة .

وفى اليوم التالى — ١١ فبراير — شيع جثمان مصطفى كامل إلى مقره الأخير ؛ وكان يوماً مشهوداً لم يسبق له نظير فى تاريخ مصر الحديث ؛ وكان الاحتفال



جنازة المرحوم مصطفى كامل باشا

بجنازة الزعيم الشاب آية على يقظة الشعور القومى ؛ وذلك العطف الفياض الذى بثه الفقيد العظيم برائع خلاله فى نفوس مواطنيه ؛ وقد اشتركت فيه طبقات الأمة كلها من الكبراء والأعيان والموظفين والطلبة والعمال ، ولبست البلاد جميعاً ثوب الحداد

وكانت اليقظة القومية التى استطاع الزعيم الشاب أن يبثها فى الأمة ، دعامة هذه الحركة الوطنية القوية التى انفجرت بعد الحرب ، وما زالت تسير فى مجراها .

وبعد وفاة مصطفى اهتم الخديو بانتخاب من يخلفه فى رياسة الحزب الوطنى حتى كان يوم ١٤ فبراير حيث عقدت الجمعية العمومية للحزب فانتخب محمد فريد بك بالاجماع وطلبه الخديو فهنأه وشجعه على الاستمرار فى خطة سلفه منوها بحسن مركز عائلته المادى والأدبى وبأنه ليس فى حاجة إلى منصب أو مادة وبهذا سيكون وجوده فى رياسة الحزب مفيداً جداً . وقد هنأته بدورى أيضاً .



محمد فريد بك

لائحة المعاشات الجديدة . فى ٢ أبريل حضر المستشار المالى إلى سراى عابدين فقدم للخديو مشروع لائحة المعاشات للموظفين الملكيين ، وطلب أخذ رأى سموه فيها فكلفنى بالاطلاع عليها مع اسماعيل أباظه باشا وموسى غالب باشا . فاجتمعنا وقارنا هذا المشروع بلائحة توفيق باشا .

وفى اليوم التالى توجهت صباحاً للمعية وعرضت على الخديو خلاصة البحث فى مشروع اللائحة . فكان الفرق بين اللائحتين ما يأتى :

أولا — أن أقصى المعاش صار بمقتضى المشروع الجديد ٨٠٠ جنيه سنوياً بدلا من ستمائة .

ثانياً — أن معاش البنت أو الولد ينقطع عند بلوغ أحدهما سن الثامنة عشرة بدل السادسة عشرة .

سفر الخديو للاستانة وأوربا . وفى ٣١ مايو سافر الخديو للاستانة ومكث بها أسبوعاً ثم بارحها إلى فينا فباريس ولندرة ثم رجع إلى أوربا وأمضى بها بضعة أسابيع ورحل نهائياً الى الاستانة ثانية .

وبقيت فى مصر لمباشرة الأعمال والاتصال بالنظار .

قاضى قضاة السودان . فى أثناء غياب الخديو عرضت مسألة تعيين قاضى قضاة السودان بدلا من القاضى السابق الشيخ هارون ؛ فأرسلت مذكرة بذلك للجناب العالى فجاء لى الرد بتاريخ ٤ يوليو من محمود شكرى باشا المرافق لسموه وفيه : أن المطلوب قبل صدور الأمر أن أتقابل مع الشيخ شاكر واستعلم منه عن المذهب الذى تجرى عليه الأحكام فى السودان وممن كان يستمد القاضى سلطته فى القضاء ، وهل يعتمد فقط على الأمر الصادر اليه بالتعيين أو من الجناب العالى مباشرة .



الشيخ محمد مصطفى المراغى

وبعد استيفاء هذه المعلومات أرسلت بتاريخ ١٥ يوليو برقية بأن الأحكام تجرى فى السودان طبقاً للمذهب الحنفى ، والقاضى السابق كان يصدر الأحكام بمقتضى الأمر الشفوى الصادر للسردار من الجناب العالى عند تعيينه .

وبتاريخ ١٩ يوليو جاء الرد بالموافقة على تعيين فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى فى هذه الوظيفة ، وهو الذى وقع الاختيار عليه وأن يصدر القائمقام أمراً بذلك ، ويكون من ضمن الأمر : « أن تكون الأحكام الشرعية التى يصدرها القاضى منطبقة على ما يجرى فى المحاكم الشرعية بالقطر المصرى . »

اعلان الدستور فى تركيا . كانت تركيا فى السنوات الأخيرة تتمخض عن انقلاب وضعت أسسه جماعة تركيا الفتاة ، وكانت الأفكار رغم الضغط عليها تتحفز للوثوب حتى انفجرت أخيراً فى هذا العام ، وانتهت الثورة — التى كان من كبار محركيها الضابطان أنور بك ونيازى بك ومساعدهما طلعت بك التلغرافجى فى سالونيك بافشاء

الأوامر التى كانت تصل من الاستانة بالتدابير العسكرية لقمع الثورة — باعلان الدستور فى طول البلاد وعرضها رغم إرادة السلطان ورجال المابين . وكان محمد عزت بك مرافقاً لدولة الوالدة أثناء وجودها بالاستانة فبعث إلى برسالتين وصف فيهما الاستانة وقت هذا الانقلاب الذى تم بدخول جيش سالونيك بقيادة محمود شوكت باشا إلى الاستانة .

وقد جاء فى الرسالة الأولى بتاريخ ٢٨ يوليو ما يأتى : « فى اليومين الماضيين ابتدأت المظاهرات من الصبح للمغرب والمجتمعون لا يقلون عن خمسين ألف رجل بين عالم وضابط وكاتب وتاجر وكثير من العوام وكل منهم يحمل علماً ، وقد طافت المظاهرات بالوزارات جميعاً والموسيقى تصدح أمامهم . وحلفوا جميع الوزراء على مبادىء الانقلاب بما فيهم شيخ الاسلام . وبعد ذلك توجهوا لسراى يلدز وكنت بين المتفرجين عليهم من تكية الشيخ ظافر ، واستمر الموكب أربع ساعات بالضبط يمر من أمامى وتصور كم ألفاً تمر فى هذا الوقت بملء شارع يلدز ، وكلهم يصيحون هاتفين للدستور والحرية والمساواة مما لم يكن يخطر على بال أحد . فسبحان مقلب الأحوال فى طرفة عين . وقد أصبحت الجرائد حرة وجوازات السفر كذلك ، والأهالى يتحدثون فى الشئون السياسية ملء أفواههم وطلبة الحقوق وغيرهم كانوا فى مقدمة الجميع ، وقد خرج طلاب مدرستى الطب والبحرية رغم أنف ضباطهم .

والنهاية أن الواقع هنا يكاد الانسان لا يصدقه ويعتبر نفسه فى حلم من الأحلام . »

وجاء فى رسالته الثانية بتاريخ ٣ أغسطس ما يأتى : « لقد اختصرت فى رسالتى السابقة لأن الحاصل هنا لا يمكن شرحه . أما سبب هذه النعمة التى حصل عليها الأتراك فهى قوة الأوردى الثالث(*) واتحاد ضباطهم بواسطة الجمعيات السرية المشكلة فى ولايات الروملى الثلاث ، حيث كانت المخابرات فيها حرة بسبب الاصلاحات المطلوبة . وقد أخبر حسين حلمى باشا رئيس لجنة الاصلاحات المطلوب إدخالها فى الروملى بما يجرى فيها ، وأنذر بوخامة العاقبة . ولما عرض ذلك على السلطان طلب الصدر فريد باشا وأراد منه أن يطفئوا نار هذه الفتنة فأجاب الصدر بعدم إمكان ذلك وبلزوم منح الدستور ، وبالطبع لم يقبل جلالته هذا الرأى فاستقال فريد باشا . ثم طلب السلطان سعيد باشا الصغير « كوجك » فأبدى استعداده لاصلاح الأمور ، وتولى الصدارة وكتب إلى حسين حلمى باشا برقية توبيخ وتأنيب فرد عليه بلهجة شديدة قائلا : « إنه إذا

(*) فريق من الجيش أكبر من الآلاى .


أنور بك


نيازى بك


طلعت بك


محمود شوكت باشا

لم يعط الدستور فى مسافة أربع وعشرين ساعة تكون العاقبة وخيمة ، وتضمحل الدولة حيث أعلن الاتحاديون الدستور هنا فى سلانيك . »

وفى الحال اجتمع الوزراء وتقرر إعلان الدستور ، ثم صدر فرمان شرح أحكام هـذا الدستور ، وأرسل إلى الباب العـالى بواسطة نورى باشا ؛ إذ أن رئيس الكتاب « تحسين باشـا » لم يستطع الخروج من السراى لشـدة تحقير الشعب له ؛ وكذلك فر عزت العابد باشا مشيعاً بالسخط من الأفواه والصحف . والجمهور هنا فى نهاية الثورة والهياج على رجال الحكم السابقين .

أما السلطان فقد خرج بدون تحفظ ، وواجه من الأهالى نحو الخمسين ألفا وسار بينهم بالعربة ذهاباً وإياباً ، فسبحان من يغير ولا يتغير(*) . »

خواطر تحسين باشا عن علاقة عبد الحميد بعباس . علم القارىء أنى كنت حلقة اتصال بين عباس وعبد الحميد بواسطة الباشكاتب تحسين باشا الذى انزوى بعـد الانقلاب فى بيته فقيراً .

وقد أخرج تحسين باشا فيما بعد خاطراته عن الأشياء المهمة التى مرت به ، ومنها طبعاً علاقة عباس بعبد الحميد فى السنوات الأولى من زيارة الخديو للخليفة . كانت هذه العلاقات حسنة أولا ثم ما لبثت أن تغيرت عند فرار رجال تركيا الفتاة والتجائهم لمصر . وطلب الخليفة منعهم من نشر مقالات السخط على إدارة الحـكومة التركية الاستبدادية وإغلاق جرائدهم ونفى أصحابها من مصر ، عند ذلك حصل الفتور بين التابع والمتبوع .

قال تحسين باشا : « إن عبد الحميد ما كان ينظر إلى الخـديوين فى أى وقت من الأوقات بعين الارتياح . وفى الواقع كان طبيعياً جداً ألا يأمن السلطان خديويى مصر وأن يضعهم على الدوام تحت يقظته ومراقبته نظراً لسياسة محمد على (القوله لى) وثورته وحركته المعهودة ضد الحـكومة المتبوعة .

ولقـد سبب زيادة وسوسة السلطان إلى غايتها ما بسطه الانجليز من نفوذهم على مصر بعـد الثورة العرابيـة . والخلاصة يمكن القول أنه لم يكن فى قلب عبد الحميـد أى اطمئنان لمصر فى أى وقت كان .

لم يقبل السلطان أن يأذن لاسماعيل بالاقامة فى استانبول إلا بعد أن قدم لجلالته تأمينات الولاء ابنه حسن باشا ، ومع ذلك كان تحت المراقبة .

(*) وقد عزل فيما بعد واحتجز فى سراى بسلانيك .

لما تولى عباس باشا الشاب ، كان السلطان يظن أنه سينطبع بالسياسة الانجليزية لعدم تجاربه ولمطامعه فى تحقيق بعض آماله .

قد كان السلطان على علم بمطامع الانجليز فى مصر وبلاد العرب ، ولذا كان متيقظاً على الدوام نحو هذه السياسة ، وكان يتوقع أن عباساً سيساعد الانجليز على تنفيذ هذه السياسة .

وكان يوجد بعض ذوى المطامع الشخصية الذين يدسون الدسائس ، حتى إن السلطان يكون فى ريبة وقلق نحو الخديو ومصر .

ومن المعلوم أن تمضية الصيف فى مصر غير ممكنة للطبقة الغنية لشدة الحرارة ؛ فنهم من يمضيها فى أوربا والبعض فى استانبول . فاذا أراد الخديو تمضية الصيف فى إحدى ممالك أوربا كان من الواجب عليه أن يمر على لندرة ، ومن المحتمل أن يتفق مع الانجليز على سياستهم . أما إذا أمضى الصيف فى استانبول فانه لا يحرك ساكناً ، فوجوده فى الاستانة أقل خطراً لسهولة مراقبته ، لأن تعيين المهمندارات والياوران الشاهانية كان الغرض منه مراقبته لا المغالاة فى مظاهر احترامه .

وكان الخديو فى أثناء إقامته يحضر إلى السراى ويدعى لتناول الطعام من حين إلى حين ، وكان يحظى بالمقابلة بعض مرات ويطيب خاطره بمختلف المظاهر(١) .

وزيادة فى الحفاوة عين من الوزراء رائف باشا مهمنداراً للخديو ، ولكن نظراً لبعض التدابير التى اتخذت من جراء توالى التقارير تأثر عباس وكادت الألفة التى كانت تسود فى أول الأمر تزول ومشت النميمة بينهما فتضايق السلطان من ذلك . ولقد استفحل الأمر حتى صار من الضرورى إرجاع الحالة إلى ما كانت عليه من قبل. وكان للخديو كاتبان أحدهما للعربى والآخر للتركى؛ وكان كاتب العربى شخصاً يسمى شفيق باشا(٢) اكتسب محبة الخديو وصداقته وكان ذا دراية ورزانة . ولقد دعوت شفيق باشا بناء على أمر السلطان إلى السراى وتباحثنا طويلا وانكشفت جميع الوشايات وفهم أمرها ، ورجع شفيق باشا إلى مصر صادق الاقتناع وقابل عباسا وأوضح له حقيقة الأمر . ولقد ظهر بعد ذلك من الآثار ما يفيد أن الحالة رجعت إلى سابق صفائها .

(١) يعنى الهدايا الثمينة وأعلى نياشين الدولة وما إلى ذلك ، وكان عباس يجيب عليها بالمثل كما ذكرت آنفاً .

(٢) يريد صاحب هذه المذكرات .

وكانت هذه المناسبة عبرة عظيمة لمقدمى التقارير السرية ؛ فقد كان بعض أشخاص من العظماء كلما حضر الخديو إلى استانبول يقدمون ضده التقارير الى السلطان ويلقون على حركاته وأحواله ظلا من الريبة حتى تزداد وسوسة السلطان منه . وكانوا فى الوقت نفسه يكتبون للخديو يعرضون اخلاصهم . فلما عادت بين السلطان والخديو سابق العلاقات الحسنة ، قدم الخديو للسلطان تقارير الولاء والاخلاص لسموه من الذين كانوا يدسون الدسائس ضده عند الخليفة ، وكان هذا دليلا على ما وصلت اليه الأخلاق من التدهور .

إخلاص عباس باشا : كان عباس فى المدة الأولى لزياراته للاستانة مخلصاً لعبد الحميد راغباً فى تنفيذ أوامره ، لدرجة أنه لما طلب منه إبعاد رجال تركيا الفتاة أرسل جانباً منهم على مركب شراعى لايصالهم الى استانبول . ومن ذلك أيضاً أن جلال الدين باشا ، بعد زواجه بالأميرة المصرية عصمت هانم ، قد فر الى أوروبا وحضر الى مصر وأقام فيها ، فأرسل عباس للسلطان يقول إن المذكور يعاون رجال تركيا الفتاة بالمال . وقال عنه أيضا إنه طمعاً فى ميراث زوجته عمد الى قتلها .

عباس وبناء كشك ذى برج فى الجبل : أنشأ الخديو فى أرضه الكائنة بجبوقلى كشكا ، والرائى لهذا الكشك من بعيد يشاهد برجاً . وما كاد البرج يتم بناؤه حتى قدم واحد من العظماء المجاورين له تقريراً للسلطان ذكر فيه أن الناس يلهجون بأن هذا البرج جار عمله لوضع نظارة معظمة فى أعلاه ليتيسر له بواسطتها مشاهدة حركات وسكنات عبد الحميد فى يلدز . وهذا الكشك لفت أيضاً نظر أحد السلاطين المقيم فوق كشك كاندار (وهو متنزه على البوسفور) فأرسل للسلطان يخبره عنه (*).

عودة الخديو الى مصر فى ١٧ سبتمبر عاد الخديو وحدثنا بما لاقاه فى رحلته ، ثم قص علينا أنه بعد زيارته للاستانة ورحلته لأوروبا زار قوله ورودس وبعض سواحل الأناضول من جهة مرماريس ومكرى كوى ، وكان ذلك محظوراً عليه من قبل . وقد سمعت منه أنه لم ير احتفالا بمقدمه أجمل من ذلك الذى لقيه فى قولة ؛ فقد استقبلته الحكومة والأهالى بمظاهر ودية جميلة جداً ثم دعاه الأهالى لتناول العشاء فى اليوم التالى وقالوا له إن الاحتفالات نظمت فى اليوم الأول حسب برنامج الحكومة المحلية ، أما اليوم فان الأهالى يريدون أن يعملوا ما يرون . فشكر سموه المندوبين عن الأهالى

(*) ولما كنت مباشراً لبناء هذا البرج علت بصدور الأمر بايقاف البناء وطرد العمال ولكننى أبقيتهم ومنعتهم من الخروج حتى أتموا البناء بارتفاع أقل من ارتفاع الرسم الموضوع له .

من أتراك وأروام ويهود وقبل العشاء عندهم ؛ وقد أعدت عربة لركوبه ، ولكنه ما كاد يصعد إليها حتى جاء ستة من الأهالى الأشداء فحلوا الخيل ووضعوا أنفسهم مكانها ، وساروا جرياً بالعربة وحولها ألوف من الأهالى حتى محل الدعوة ؛ وهناك كانت المائدة . وبعد الطعام ابتدأت الخطب فرحب أحد القناصل بالخديو بالنيابة عن زملائه وبالأصالة عن نفسه ، ثم خطب مدير البلدية وغيره . وفى النهاية قام أحد رجال الانقلابات (أى الدستور) وقد حضر خاصة من سلانيك ورحب فى خطاب لطيف بالجناب الخديوى . وقد طلب أحد الحاضرين من سموه أن يمد البلد بعنايته فى استحضار المياه الكافية لها فوعدهم بذلك وأغدق على فقراء البلد الاحسانات وزار قبور أسرة محمد على وبيته والمدرسة والتكية ومكتباً ابتدائياً لوقف محمد على ، وقال عباس إن الذى يزور مقابر أجداده ومنزل محمد على يرى أنهم كانوا من أسرة حسنة وليست فقيرة ؛ والخلاصة أن سموه سر جداً من الحفاوة به .

وكان احتفال الحكومة بايعاز من الصدر الذى أرسل برقية بهذا المعنى ، لأنه علم من سموه قبل السفر بيوم عزمه على زيارة قولة . أما طاشوز فاتفق على عدم زيارتها حتى يفصل فى مسائلها ، ولذلك مر الخديو حواليها فقط .

الحركة الوطنية وطلب الدستور فى مصر . فى هذا العام ازدادت قوة الحركة الوطنية وتنبه الشعب إلى حقوقه السياسية ؛ ويرجع ذلك لأسباب منها التنافس بين الأحزاب السياسية الثلاثة التى تألفت فى العام الماضى ، واتساع دائرة المناقشات فى حقوق الشعب وما إليها ، ومنها إعلان الدستور فى تركيا وأخبار الاستانة التى كانت تصور الانقلاب العثمانى تصويراً واضحاً وتبين قوة الشعب وأثرها ، مما كان له وقع عميق فى مصر ، وأثر قوى فى إذكاء الشعور الوطنى ، ومنها إحساس المصريين بتراجع الانجليز واضطرارهم لتغيير عميدهم فى مصر اللورد كرومر أمام قوة الوطنية المصرية .

وقد كان من الأعضاء البارزين فى مجلس شورى القوانين أمثال حسن عبد الرازق باشا ومحمود سليمان باشا واسماعيل أباظه باشا وعلى شعراوى باشا واحمد يحيى باشا من يعمل بكل قواه لتتمتع مصر بدستور يشرك الأمة مع الحكومة فى تصريف الأمور ؛ وكان الخديو لا يكره مثل هذا الطلب على أن تتبع فى تحقيقه طريق معقولة هادئة ؛ وكان يرى أن اسماعيل أباظه باشا هو خير من يستطيع السير فى هذه الطريق بعيداً عن الأحزاب .

لهذا شجع اسماعيل أباظه باشا ، عندما فكر فى السفر إلى لندن ، لتقديم مذكرة

لوزير الخارجية يشرح بها الحالة فى مصر ، ويطلب المزيد من الاشتراك بين الشعب والحكومة فى تصريف الشئون . بل زاد على ذلك فطلب من السير الدون جورست التوصية عليه لدى وزارة الخارجية . وقد فعل ، عملا بسياسة الوفاق .



اسماعيل اباظه باشا



احمد يحي باشا

وسافر الباشا ومعه محمد الشريعى باشا والسيد حسين القصبى ومحمد عثمان أباظه بك وعبد اللطيف الصوفانى بك وناشد حنا بك. وكان الدكتور ابراهيم الجوربجى متطوعاً لمساعدتهم والترجمة لهم طول مدة إقامتهم بلندن أثناء وجود الخديو فى أوربا ، فلقى من وزير الخارجية الرعاية وحسن الاستقبال ، وعاد إلى مصر فى منتصف أغسطس .

وكانت وصاة جورست لهم أن يحصروا كلامهم فى مسألة توسيع نطاق اختصاص مجلس شورى القوانين دون الكلام عن الجلاء .

وفى اليوم الذى عاد فيه الخديو من أوربا وهو يوم ١٧ سبتمبر ، لما توجه فخرى باشا مع النظار لمقابلته فى المحروسة ، أخبره أن مستر جراهام النائب عن جورست يريد أن يتشرف بمقابلته فأذن سموه أن يرسل إليه فى الحال خبراً لحضوره لسراى رأس التين ؛ وفى المساء قابل الجناب العالى مدة طويلة علمت بعدها أن سبب المقابلة هو أن جورست كتب له أنه بمجرد وصول سمو الخديو يقابله ويرجوه ألا يقول لاسماعيل أباظه باشا شيئاً عن نتيجة عمله فى لندرة ولا يعده بشىء ما ؛ فأجاب سموه : « إننى لا أعلم شيئاً حتى أعد وأقول شيئاً لاسماعيل باشا ؛ ولكن الذى أعرفه مما كان يأتينى من مصر وأنا بأوربا ، أنه يوجد الآن تيار قوى نحو طلب الدستور ، وأن هذا

التيار حقيقى غير مصطنع فلا يستهان به ؛ لأن مجموع الأمة هو الذى يطلبه . وأنه ليس حركة عسكرية كما هى الحال فى تركيا ، وأن الأصوب هو التفكير فى شىء يعطى للأمة ، وإن كنت لا أنصح باعطاء دستور كامل كما فى فرنسا وانجلترا مثلا ، وإنما يمكن اشتراك الأمة مع الحكومة بدون مساس بالامتيازات . »

ثم قال سموه إنه لا يكون مسئولا عما يحدث إذا لم ينظر بالعطف لمطالب الوطنيين ؛ فالدستور الآن « مودة » ، وكل الشعوب تطلبه كما فى تركيا وفارس وسواهما ، فلا عجب إذا طلبه المصريون .

غير أنه كانت هنالك مناقشات من أباظه باشا وعلى شعراوى باشا تفت فى جهودها ، وكنت أرى من الخير اتحاد هذين الرجلين وأنصارهما حتى يكون لقوتهما المجتمعة أثرها ؛ ولهذا فقد دعوتهما للمأدبة يوم ٣١ أغسطس بحضور الشيخ محمد شاكر ؛ وكان الغرض من ذلك إصلاح ذات بينهما . ودار الحديث فى الموضوع فأبديت لهما أنه لا يمكن لمصر أن تنال خيراً ما لم تتحد وتجتمع على رأى واحد ؛ وأنه يجب لكى نعطى للشعب نموذجاً حسناً أن يبدأ بذلك كبار الرجال فى مجلس الشورى وفى الجمعية العمومية ؛ ولكن مع الأسف فان هؤلاء يعطون أمثلة للشقاق والخلاف ، وأخص من بينهم بالذكر على شعراوى باشا واسماعيل أباظه باشا .

أما على شعراوى باشا فقد راوغ وقال إنه لا يوجد فى نفسه شىء ضد اسماعيل أباظه باشا ، وأنهما كانا حتى آخر لحظة متحدين فى المجلس .

وأما اسماعيل باشا فقد كان صريحاً وقال : « الحقيقة أنه يوجد بيننا شىء وأن كلا منا يشعر ببعده عن الآخر . »

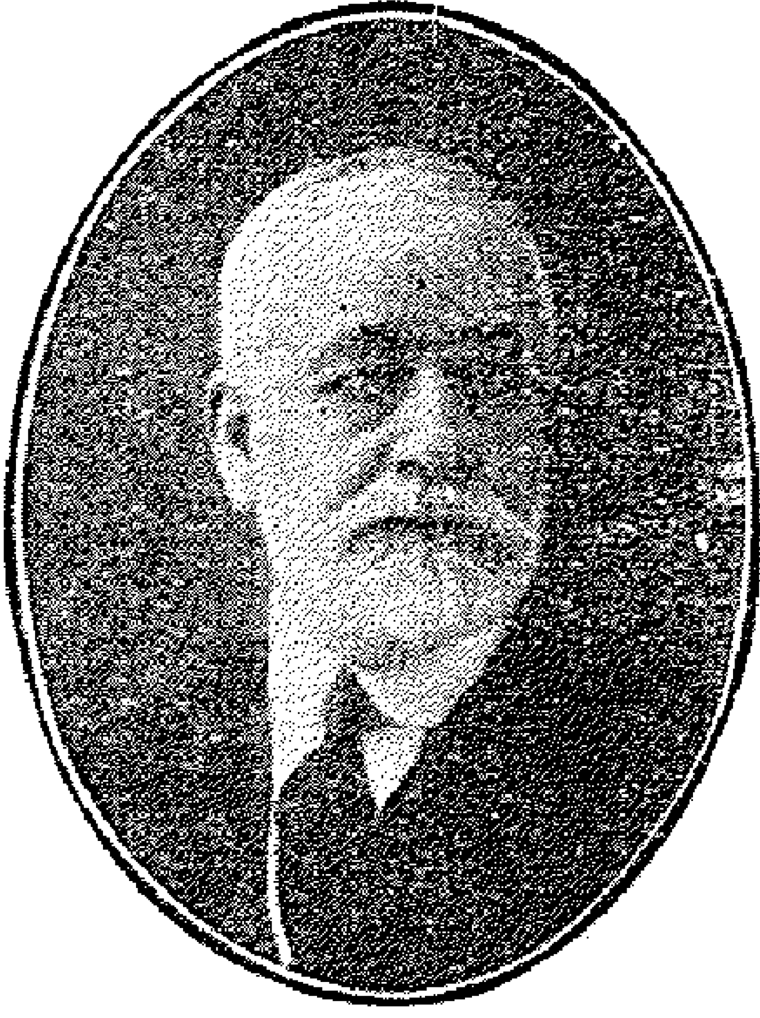
وبعدئذ طلبت منهما أن يدعا ما فات ، وأن يعملا معاً لوضع برنامج يتبعه مجلس الشورى فى طلب ما ترجوه البلاد ، ودعوتهما لانتهاز هذه الفرصة وعدم إضاعتها على الوطن بسبب المنافسات الشخصية .

وفى ٣ سبتمبر كان اجتماع آخر ولكننى لاحظت أنه لايزال بينهما نفور وأنهما لم يعملا شيئاً فى الموضوع .

وجاءنى يوم ١٠ منه احمد يحيى باشا ، فحادثته فى جمع كلمة أعضاء مجلس الشورى ، وقصصت عليه ما حصل بين اسماعيل باشا وشعراوى باشا وطلبت منه أن يجتمع بهما فوعد أن يبذل كل مجهود للتوفيق .

وفى ٢٤ سبتمبر عقـــد اجتماع بين اسماعيـل أباظه باشا وعلى شعراوى باشا والدكتور محمد علوى باشا طبيب العيون واحمد يحيي باشا وابراهيم سعيد باشا وابراهيم مراد باشا وتناقشوا فيما يجب عمله .

وفى ٢٥ سبتمبر كنت مدعواً للعشاء مع اسماعيل أباظه باشا وعلى شعراوى باشا ، فدارت بينهما مناقشة حادة وأخذ الأول يعير الثانى بحزب الأمة وأن مكانه فى مجلس الشورى هو أسمى من ذلك ، وأنه خير للبـلد أن يصرف تفكيره فى جمع كلمة أعضاء هذا المجلس فيكون حزباً واحداً أقوى من جميع الأحزاب ؛ وشعراوى باشا يعير أباظه باشا بأنه بعد أن اعتزل الأحزاب عاد يحن الآن لتأليف حزب جديد .



على شعراوى باشا

وقـد تدخلت بينهمـا ، وقر الرأى على أن يدعو شـعراوى باشا الحاضرين إلى مأدبة ثم يقيم أباظه باشا مأدبة أخرى لاتمام الصفاء والوفاق ؛ أما أنا فقد اعتذرت حتى أدع لهما فرصة لتصفية ما بينهما بعيداً عن تدخلى .

وقد علمت فيما بعد أنهما اتفقا على الاتحاد وأن شعراوى باشا اقتنع بذلك ، بعدما أقنعه كل من ابراهيم سـعيد باشا وعلوى باشـا وابراهيم مراد باشـا بذلك ، اتفقوا جميعاً على عقد المجلس بعد أن يجتمعوا أولا باعضائه ويتفاهموا معهم على عمل مفيد .

ولما أخبرت الخديو بمسعاى من مبدئه إلى نهايته لم يرق فى نظره أن أتظاهر بذلك التدخل ، فدافعت عن عملى بأننى تدخلت بصفة شخصية محضة لم يشعر أحد بها .

وفى ١٢ اكتوبر قابل مستر جراهام الخديو وحادثه فى الحالة الحاضرة ، وجرى الكلام عن الحزب الوطنى فقال جراهام إنه الآن فى هبوط ولا قيمة لتهديداته ، وعن مجلس شورى القوانين فقال إنه يوجد شقاق بين الأعضاء فيما يختص بطلب الدستور ؛ حتى إن بعض الأعضاء خرجوا من الجلسة حينما علموا أن المناقشة ستدور حول هذا الموضوع — يقصد بذلك طلبه سعودى باشا — والبعض لم يحضر الجلسة وسافر إلى بلده ومنهم فتح الله بركات بك وآخرون وكلهم مستاءون من اسماعيل اباظه باشا لأنه قال عنهم لوزير الخارجية الانجليزية إن الحكومة رشتهم فأمنتهم على مراكزهم الحالية .

وفى ١٥ اكتوبر قابلت بطرس غالى باشا فعلمت منه أن جراهام قابله وحدثه عن ضعف الحزب الوطنى ، فأجابه الباشا بأن ذلك صحيح ، ولكن ظهر ما هو أهم وهو حزب الأمة ، فاعترف بذلك جراهام ؛ وقال لى بطرس باشا : « إن الغرض من ذلك هو أن نوهم الانجليز بوجود قوة تخيفهم فى البلاد حتى لا يعتقدوا أن الجو قد خلا لهم . »



فتح الله بركات بك

علاقة مصر بتركيا وانجلترا .

فى ١٦ اكتوبر تقابل جورست مع الخديو لأول مرة بعد رجوعهما من أوربا . وعقب المقابلة اجتمع سموه ببطرس غالى باشا واطلعه على كل ما دار بينهما .

وفى المساء صحبنى سموه معه للمنتزه ، وكان فى الانتظار هناك اسماعيل اباظه باشا ولما اجتمعنا نحن الثلاثة علمنا من سموه أن مقابلة جورست له كانت ودية كالعادة ، وأنه تحدث عن حالة أوربا العمومية : النمسا وبلغاريا وكريد وسياسة انجلترا مع تركيا ، وفهم سموه أن الانجليز سيعضدون الأتراك إلى النهاية ؛ ولكن النتيجة ستكون اعتراف أوربا باستقلال بلغاريا وبضم البوسنة والهرسك للنمسا وكريد لليونان . وقد ظهر للخديو أن انجلترا لا يمكن أن تخرج بلا غنم يخصها ، ويقول إنه تجرى مخابرات بين هذه الدولة والأتراك بتعديل بعض نصوص فرمان مصر ، بأن يكون لها حق فى عقد قرض بدون مراجعة الدولة . وهى نقطة خطرة على مصر لأن مصر تؤول للمصريين ، ويؤول المصريون إلى نير انجلترا ، خصوصاً إذا تم للأتراك إلغاء الامتيازات فذلك يسرى على مصر فتصبح بذلك مستقلة فعلا بالنسبة لأوربا ، وربما تشترى مصر من الدولة الجزية بدفع ملايين معدودة فتصبح بذلك مستقلة بالنسبة لتركيا ويكون الخطر على مصر عظيما .

جورست واسماعيل أباظه باشا : وقد أبدى جورست استياءه من أباظه باشا . لأنه لما تكلم مع وزيرالخارجية بلندرة ، لم يظهر له أن جورست مساعد للمصريين . مع أن الباشا قال للخديو إن وزير الخارجية لما سأله إن كان قد حصل كلام بخصوص قانون المديريات مع جورست . فأجاب الباشا بأن المعتمد أعطى ما يمكنه إعطاؤه ؛ وكذلك قال جورست للخديو : « أنت طلبت منى أن أساعد أباظه باشا . لأنه أحسن أعضاء مجلس الشورى . وقد فعلت وقابلته وتناقشت معه ، فلما ذهب إلى لندره لم يهتم بى ، وعمل كل شيء بدون رأيى مع أنى حين سألنى وزير الخارجية عما إذا كان يحسن مقابلة أباظه باشا أجبته بالايجاب . »

وظهر من كلام جورست أنه يلوم الخديو على وصايته له باسماعيل أباظه باشا . وظهر أيضاً أن الحكومة الانجليزية لم تعطه أوامر بخصوص عمل تغييرات فى حالة مصر ، لأنها مشغولة بالمسألة الشرقية ؛ وعليه فلا أمل للمصريين فى شيء .

الدستور : ولما وقف أباظه باشا على ذلك قال : « إننا سنعمل الواجب علينا ، فسيجتمع مجلس الشورى فى ٣١ اكتوبر ، ويقرر طلب عمل قانون لاشتراك الأمة فى إدارة مصر بدون مساس بالامتيازات وصندوق الدين وخلافه . ولا نقول برلمان ولا قانون سنة ١٨٨٢ ؛ وسأسافر بعد أربعة أيام للاجتماع مع إخوانى أعضاء المجلس ونرتب بيننا الخطة ، ونجمع الأعضاء كلهم معنا إن أمكن ، ونتوجه للحكومة ، ونعرض طلبنا . وننتظر حتى اجتماع الجمعية العمومية فى فبراير سنة ١٩٠٩ . فتؤيد طلبنا ؛ وبعدئذ إن لم تحرك الحكومة ساكناً نعتصب ولا نتوجه للمجلس . » غير أنه نظراً لما علمه الخديو من استياء الانجليز من تأخير مجلس الشورى فى إنجاز الأعمال ، وأنهم عزموا على استصدار دكريتو بأنه إذا لم يبد المجلس رأيه فى مسألة عرضت عليه فى مدة معينة يعتبر كأنه صدق عليها . فقد وعد أباظه باشا أن يحضّ إخوانه على إنهاء ما هو باق تحت النظر ، مثل لائحة المعاشات ، ولوائح القضاء الشرعى ، وغيرها .

أما تعديل مجالس المديريات فان المجلس يقرر تأخيره حتى تنظر الحكومة فى طلبه الخاص بانشاء مجلس نيابى .

وتقرر أن يتوجه أباظه باشا ويترك بطاقته عند جورست ، ولا يطلب مقابلته لأنه ربما رفض ، كما أنه رفض استقبال على شعراوى باشا من قبل ؛ وعند رجوعى مع اسماعيل أباظه باشا إلى القاهرة ، فكرنا فى أنه ربما يكون كلام جورست من باب

الايهام الذى يقصد به تثبيط الهمم للمصريين فلا يحركون ساكناً .

وقد بلغنى من بطرس غالى باشا ، ثم من الخديو . أن المستشار المالى كلم سموه بخصوص الجرائد العربية . وكانت الاجابة مثل ما أجيب به جراهام . وقد قال لى الباشا إن المستشار قال له : « كيف يمكن طلب البرلمان مع وجود الاحتلال ! ! »

من استبداد عباس أيضاً . فى أول يوم من رمضان ، أهان الخديو بعض موظفى سراى رأس التين بالسب الشديد ، وعاقبهم باستقطاع أيام من مرتباتهم ؛ ووقع مثل ذلك فى سراى المنتزه ؛ واستمرت هذه العاصفة الاستبدادية عدة أسابيع .

وقد شاهدت بعينى أنه حنق على شخصين من الموظفين فى سن الشيخوخة ، فطردهما من الخدمة بعد توبيخ شديد ؛ وغضب على تركى يعمل بوظيفة وقاد ، فدعا إليه بعض العساكر السود ، وأمر أقواهم وأضخمهم — حتى إنه كان يلقب بالبهلوان — بأن يمسك به (يحتضنه) ، وأخذ الخديو يضربه بسوط كان معه ضرباً مؤلماً ، وهو يقول له بالتركية : « انت عريت الأتراك وأهالى شواطىء البحر الأسود . انت أتلفت وابورات الكهرباء بسراى القبة ، فحرقت خزانها ! » أما التركى . فكان يتلقى الضربات ولا يتأوه . ولا يزيد على أن يقول : « العفو العفو! » ولما تعب الخديو من ضربه ، تركه وأمر بطرده من الخدمة .

واستمر الضرب والسب وخصم المرتبات وكذلك الانذارات ، وكل ذلك لأقل هفوة ، فكان موظفو السراى فى انزعاج دائم ؛ وكان الخديو يعانى مثل هذا الاضطراب فى ظل هذه الحياة العاصفة .

نظارة بطرس غالى باشا . فى ١٩ اكتوبر ،عاد مصطفى فهمى باشا من أوربا ، فذاعت الاشاعة بعزمه على الاستقالة ، لأن صحته ليست على ما يرام ، ورددتها الصحف .

وفى ٢٦ منه ، قابلت بطرس باشا . فأبلغنى أنه تكلم مع الخديو فى إدخالى ضمن النظارة التى ستشكل ، وذاعت إشاعة بأنى سأعين ناظراً للمعارف ؛ ولم أسأل بطرس باشا عن التفاصيل . ولا عن أفكار الخديو ، وما قاله بخصوصى ، حتى لا أبدى له اهتمامى ؛ ولكنه لما سألنى عما إذا كنت مسروراً بذلك ، أجبت بالايجاب .

وفى ٥ نوفمبر عاد الخديو إلى مصر ، ومعه النظار والمستشار المالى ورجال المعية ؛ وبعد أن اختلى بالنظار والمستشار معاً ، اختلى بالأخير وحده مدة طويلة ، ثم شاركهما

بطرس غالى باشا ؛ وعلمت أن المستشار قال للخديو إن مصطفى فهمى باشا سيطلب مقابلة خصوصية ، وربما التمس بعض أشياء. ففهم سموه أنه سيلتمس إحالته على المعاش بشروط خاصة مثل إعطاء مكافأة أو غيرها ، فأجابه الخديو بأنه ليس عنده شيء يعطيه .

وفى ٩ نوفمبر أخبرنى الخديو أن مصطفى فهمى باشا أرسل يطلب مقابلة خصوصية لليوم التالى وقال « إنه لايبعد أن يكون هذا الطلب لتقديم الاستقالة ، وعليه يلزم أن ترسل لى فى القبة اسماعيل أباظه باشا ، وتمر على بطرس باشا وتستحضره معه لهناك . » فنفذت الأمر وتوجهت مع الثانى ؛ وبعد مناقشة طويلة قر الرأى على أن الخديو يطلب جورست الساعة العاشرة يوم ١٠ منه ، ويحدد لمصطفى فهمى باشا الساعة الرابعة مساء من اليوم نفسه ؛ وفى أثناء الكلام مع جورست يخبره بطلب فهمى باشا ، فان علم أن سبب طلب المقابلة هو تقديم الاستقالة فيتكلم سموه مع جورست فى الخلف ؛ والخديو يفضل بطرس باشا على فخرى باشا ولو أنه مسيحى ؛ وقد كان يفضل الثانى ؛ ولكن تأثر بمساعى اسماعيل أباظه باشا فى هذا الاختيار وقال إننى سأطلب من جورست تعيين بطرس رئيساً للنظار ، وأقول له إننى ضامن له بحيث لو حصل منه مالا يرضى فانى أطلب منه الاستقالة .

وفى ١٠ منه حضر جورست حسب الاتفاق وتحادث مع الخديو نحو الساعتين أولا فى أمور عادية ؛ ثم عطفا على مسألة مصطفى فهمى باشا ، فقال جورست إن طلب الباشا للمثول بين يدى الخديو هو لأجل تقديم الاستقالة فقال سموه عندئذ يجب طبقاً لاتفاقية انجلترا مع مصر أن نتكلم سوياً فيما يقع بعد هذه الاستقالة ؛ فقال جورست إننى لم أتحدث فى هذا الشأن معكم لأنى أرغب ألا أتدخل فيما بينكم ورئيس نظارتكم ؛ وأخيراً دار الكلام على من يخلف مصطفى فهمى باشا ، فقال الخديو إن كل الحمل الآن علىّ وعليك ؛ فنحن نريد رجالا يعملون وفخرى باشا وبطرس باشا كلانا يتفق على دخولهما فى النظارة الجديدة من أول الصيف ، والأول يظهر لى أنه لايتحمل هذا العبء أما الثانى فانه يعوّل عليه ؛ فقال جورست: « وهلا يحصل انتقاد من الأهالى بتعيين رئيس قبطى ؟ » قال: « إنه قبطى ولكنه مصرى ؛ أما نوبار فلم يكن مصرياً . » ثم اتفق الحال على أنه إذا تراءى تعيين بطرس باشا رئيساً للنظار فتبقى معه نظارة الخارجية ولا تعطى له الداخلية ؛ ثم قال الخديو لجورست : « أنا لا أريد أن أضغط على فكرك من حيث تعيين بطرس باشا ، فلنا أن نتروى فى هذه المسألة ونقرر نهائياً ما يجب عمله بعد مقابلة مصطفى فهمى باشا مساء هذا اليوم . » فقال جورست: « لالا أنا موافق منذ الآن. » وبعد ذلك قال

جورست عن اختيار النظار إنه يحسن أن يكون ذلك باتفاق سموه مع الرئيس الجديد .


سعد زغلول باشا

ثم تكلم جورست عن سعد باشا ، فقال إنه مستاء جداً منه بالنسبة لجفاء أخلاقه فهو متكبر وكلامه قاس مثل الحجر ، ولكنه إذا خرج مع الخارجين فربما يحصل منه ما يسوؤنا — يعني أنه خائف من لسانه وأعماله — فاذا استصوب الخديو يبقى مدة شهرين أو ثلاثة ، ثم نعمل طريقة لاخراجه .

قال الخديو : « وإن بطرس باشا قال لى إذا طلب الانجليز إبقاء سعد ، فاتركه لى وأنا أعرف ما أفعله لخروجه . »

ثم حضر مصطفى فهمى باشا وقدم استقالته شفوياً وقبلت استقالته ؛ وحضر جورست وتكلم مع الخديو فى النظار الجدد وأشار بتعيين مصطفى ماهر باشا للداخلية نزولا على رأى المستشارين الذين اجتمعوا عنده ؛ فقال الخديو عنه إنه طيب ومجتهد ولكنه ذو أغراض شخصية فهو ليس كباقى المرشحين من حيث النزاهة .

ثم دعانى الخديو أمامه بحضور جورست ، وأمرنى بالتوجه لمصطفى فهمى باشا لأرجوه ألا يتكلم عن مقابلته مع سموه اليوم ، حتى تنتهى مقابلة جورست وإن لم أجده فأترك له إفادة بذلك ، ففعلت .

ثم حضر بطرس باشا مع أباظه باشا وكان لديه قبل ذلك للنظر فى اختيار النظار الجدد ولأجل أن يقنعه بابقاء الخارجية فى عهدته فقبل ، أما سبب إرسالى لمصطفى باشا فهو لغرضين : الأول للوثوق منه أن الاستقالة تشمل النظارة بأجمعها لا عن شخصه فقط ، والثانى حتى يأتى رد من انجلترا بالموافقة على تعيين بطرس رئيساً للنظار .

وفى ١١ نوفمبر جمع مصطفى فهمى باشا جميع النظار فى منزله ، وأخبرهم بأنه رفع استقالته للجناب العالى ، وشكرهم على مساعدتهم له فى مدة رياسته .

وعلمت من الخديو أن جورست عرض على سموه اسم سابا باشا ليكون فى النظارة الجديدة ، وذلك مكافأة له على خدماته وتطييباً لخاطره نظير خروجه بصفة غير مرضية من إدارة البريد ؛ فقال له سموه إنه يحب سابا باشا ويرى فيه الكفاءة ، ولكن وجود ناظرين مسيحيين لا يروق فى أعين الناس ، ولذا سحب جورست اسمه .

وعلمت أن النظارة ستشكل على هذا النحو :

بطرس غالى للرياسة والخارجية — سعد للمعارف — إسماعيل سرى للأشغال والحربية — فخرى باشا للمالية — محمد سعيد للداخلية — حسين رشدى للحقانية .

وقد سئل جورست عن رأيه فى ابراهيم نجيب باشا فقال إنه لايستحسن وجوده ليس فى النظارة فقط بل وفى وكالة الداخلية أيضاً .

وسمعت من الخديو أن يوسف صديق بك تكلم معه فى تعيين البرنس حسين كامل باشا رئيساً للنظار ؛ ويظن سموه أن البك مدفوع سراً من البرنس نفسه ؛ ولكن الخديو قال إنه يظن أن البرنس لا يرغب فى هذا التعيين وقطع الحديث ، فلم يجرؤ يوسف بك أن يلح حتى لايبدو هذا الايعاز .



محمد سعيد باشا



اسماعيل سرى باشا

وفى ١٢ نوفمبر أنبأ جورست وزارة الخارجية تلغرافياً بتعيين بطرس باشا رئيساً للنظارة الجديدة . وتقرر أن يكون رئيس النظار مسئولا أمام الخديو ، وكل ناظر مسئول أمام الرئيس — وهذه سلطة جديدة منحت لبطرس باشا — واتفق جورست مع الخديو على ذلك ، وعلى أنه إذا حصل خلاف بين سعد باشا ودنلوب فعلى سعد أن يرفع الخلاف لبطرس ، وهذا ينظر فى الأمر .

وقد فاتح بطرس باشا الخديو فيما إذا كان يستحسن تعييني ناظراً للمالية بدلا من فخرى باشا إذا امتنع عن قبول هذا المنصب ، فلم يجبه الخديو ، بل قال له : « لا . لا . يلزم أن تلح على فخرى باشا حتى يقبل ؛ وإذا رفض فأنا أرسل وأطلبه وهو لا يتأخر عن القبول . » وشفع ذلك بقوله إنه لا يستغنى عنى فى الديوان . ثم حضر جورست وعرض على الخديو برقية وزير الخارجية بالموافقة على تعيين بطرس باشا فشكره سموه على معاونته ؛ وفى الحال حضر الباشا وتسلم الأمر بتعيينه ، وتوجه للنظار الجدد وتكلم معهم فوافقوا جميعاً ما عدا فخرى باشا .

وبعد ذلك أخذنا نفكر فى اختيار ناظر للمالية ، وكان معنا الشيخ على يوسف ؛ فأشرت على الخديو بتعيين احمد حشمت باشا وكيل حزب الاصلاح ؛ وبعد المداولة والمخابرة مع جورست اتفق الرأى على تعيين احمد حشمت باشا بدلا من فخرى باشا .



حسين رشدى باشا



أحمد حشمت باشا

وفى ١٣ نوفمبر حضر بطرس باشا ومعه خطاب بتشكيل النظارة الجديدة وأمر بتعيين النظار ، فعرضت الأول على الخديو ، وأمضيت منه الأمر وهنأت الجميع ، ودعوتهم لتناول الغداء عندى يوم ١٨ نوفمبر .

ثم التمست من الخديو أن يكلمهم فى مسألة الأمن وأن يلفت نظرهم إليها ، فخاطبهم

بالفعل فى هذا الموضوع وغيره ، وهنأهم وأعرب لهم عن ثقته وتأييده ، فانصرفوا شاكرين .

وكان فى العزم أن يتوجهوا جماعة واحدة كما ذهبوا مع بطرس باشا إلى الوكالة البريطانية ، فاستصوب الخديو أن يتوجهوا متفرقين حتى لايقال إنهم خرجوا من لدن الخديو لابداء خضوعهم لجورست ، وكلفنى أن أبدى لبطرس باشا هذه الملاحظة فوافق الباشا على رأى سموه .

وعلمت أن الخديو كان قد كلف بطرس باشا بالتحدث مع جورست لتعيين احمد زكى باشا للحربية ، فأجاب بأنه لا يحسن الآن أن يعين أحد من المعيـة لئلا يعترض كرومر عليه ، وعلى ذلك فقد صار من اللائق ألا يفاتحه فى دخوله فى النظارة ؛ وربما عرض جورست اسما آخر للحربيـة مثل عبد العزيز عزت باشا ؛ وقال لى الخـديو إنه سعى كثيراً لدى الانجليز لملء منصب فى النظارة ، ولـكن خشية أن يقع شقاق بين سموه وجورست قرر إحالة هذه النظارة على ناظر الأشغال .

مدير الأوقاف العمومية الجديد . وفى ١٧ نوفمبر أمرنى الخديو بأن أحرر الأمر القاضى بتعيين خليل حمادة باشا أمين جمرك الاسكندرية مديراً للأوقاف العمومية ؛ ويظهر أنه كان متردداً فى تعيينى فى الأوقاف وذاعت الاشـاعة بأنه قر الرأى على انتخابى مع أنه لم يفاتحنى أحد فى هذا الأمر بعد كلام بطرس غالى باشا معى يوم ١٢ نوفمبر .


خليل حمادة باشا

ولم يرض المستشار المـالى وغيره عن تعيين حمادة باشا فى الأوقاف ، ولـكن الخديو قال للمستشار إن محمد سعيد باشـا هو المتكفل به فقبل .

ثم كلف الخـديو محمد سعيد باشـا بارسال برقية باستحضار حمادة باشا وأن

يتوجه إليه فى سراى القبة صباحاً قبل أن يسافر سموه إلى بلبيس ، فجاء الباشا وتمت المسألة ؛ وبعد ذلك صدر الأمر وسلمته لخليل حمادة باشا ثم رافقته إلى الأوقاف ، وقدمت له الرؤساء وخطبت فيهم مظهراً ثقة الجناب العالى فى المدير الجديد لأنه انتخبه لجدارته وإخلاصه ؛ فعليهم أن يساعدوه كما ساعدوا سلفه ، وأظهرت لهم أن المصلحة تقدمت فى السنوات الأخيرة باجتهادهم وإخلاصهم ولكن يجب عليهم أن يضاعفوا العناية والمثابرة فقام دلاور بك مدير الادارة والحسابات وشكرنى على ما قلته بالنسبة للموظفين ووعد بأنهم جميعاً سيشتغلون يداً واحدة. ثم قام المدير الجديد وطلب منهم المساعدة وقال إنه لا يصل إلى الغاية التى يرمى إليها الجناب العالى من تقدم هذه المصلحة إلا إذا تعاونوا جميعاً، وحثهم على العمل وعلى النظام. ثم ودعت المدير وانصرفت.

النظار الجدد والازهر. وفى نفس ذلك اليوم تناول النظار ورئيسهم ومدير الأوقاف الجديد طعام الغداء على مائدتى؛ وبعد الانتهاء دارت مناقشة عنيفة بين سعد باشا وحسين رشدى باشا حول الأزهر ، فقال الأول : « إن الاصلاح الذى تقرر ما هو إلا حبر على ورق (*) لأنه لا توجد المعدات اللازمة لهذا الاصــــلاح ، فلا يتوفر المدرسون اللازمون فى العلوم العصرية للمعاهد الدينية ، والمشايخ الموجودون لا يمكنهم القيام بما يتطلبه النظام الجديد . »

فقال رشدى باشا : « نأخذ من دار العلوم ومن المتخرجين فى مدرسة القضاء مساعدين للمشايخ ، وكذا نستحضر من الخارج من يلزم . » فرد عليه سعد باشا بأن هذا لا يمكن! فاشتد الجدال حتى قال رشدى باشا : « أنت يا سعد لا تريد إلا بقاء مدرسة القضاء الشرعى ، وتريد محو الأزهر ! » .

وفى ٢٢ منه بلغنى من بطرس باشا أنه حصل خلاف بين ناظر المعارف والمستشار المالى ، فاستدعاهما رئيس النظار وفصل فى الخلاف ، وكان الحق بيد المستشار ، فخضع سعد باشا للحكم . وكان الخلاف بخصوص تغيير بعض المواد المتعلقة بالتعليم ، وأبلغنى رشدى باشا أن نظارة المعارف كانت تريد استمرار السير على تأويلها فى صالحها ، ولكن المستشار يريد تأويلها بغير ذلك ؛ وعلى رأى حسين رشدى باشا يكون الحق بيد سعد باشا .

الهتاف للدستور. كان يوم ٩ نوفمبر يوم عيد ميلاد ملك الانجليز ؛ ولم

(*) سيأتى تفصيل ذلك .

يحدث وقوف تحت العلم الانجليزى كالعادة ، ولكن الخديو ونظاره والمستشار المالى ورجال المعية وقفوا فى الشرفة المطلة على ميدان عابدين أثناء الاستعراض ؛ ولما انتهى صدحت الموسيقى بالسلام الملكى ، وقبل أن تصدح بالسلام الخديوى صاح طلبة مدرسة الحقوق ، وكانوا منتشرين فوق سطح المدرسة وفى حديقتها، وكثير من الأهالى الواقفين بجوارها : « يعيش الخديو » وكرروها ثلاثاً ؛ و « يعيش الدستور » وكرروها ثلاثاً . ولما انتهوا صدحت الموسيقى بالسلام الخديوى ؛ فرد عليها الطلبة والأهالى « أفندمز جوق يشا » ثلاثاً ؛ وقد أعجب الجميع بنظام الطلبة والترتيب بحيث كان يخيل للسامع والرائى أن هذه المظاهرة كانت ضمن برنامج الاحتفال الانجليزى .

رسالة تهديد للخديو وفى ١٤ منه وردت رسالة للجناب الخديوى بامضاء « أحد رجال جمعية الانتقام المصرى » جاء فيها : « يأيها الأمير ؛ إن المفرقعات الجهنمية ، التى تنسف الأرض، قد أعدت لنسفك بعربتك وخيولها ومن يكون معك فيها أثناء مرورك رغم أنف جواسيسك وحرسك . فاعزل بطرس رئيس المحكمة المخصوصة واحذر حيث لا يغنى الحذر والمدة خمسة عشر يوماً من تاريخه . »

وكان رأى الخديو أن محرر هذا الخطاب هو أحد رجال الحزب الوطنى من أتباع محمد بك فريد .

الانجليز يعبثون بالاحتياطى . فى ٢٢ نوفمبر سألت مشاقة باشا الذى كان مراقباً لخزينة المالية ، عن كيفية استعمال مبلغ احتياطى الحكومة ، فقال إنه فى ذات يوم طلب منه فنسان كوربت المستشار المالى السابق أن يكتب كشفاً بالأسهم التى يمكن للحكومة المصرية شراؤها بالذهب المخزون فى صندوق الدين وتحول بعد الاتفاقية الانجليزية الفرنسية للحكومة المصرية ، فصدع بالأمر وقدم إليه كشفاً بعد أن دقق فى اختيار الأسهم المطلوبة ، وعرضه على كرومر . وبعد مدة علم أن المستشار كلف السير ارنست كاسل شراء أسهم لم تدرج فى الكشف وهى أسهم القنصليد الانجليزى وأسهم الترنسفال ؛ وأرسل مشاقة باشا تحت إمضائه وحده شيكا بمبلغ مليون وثلاثمائة ألف جنيه باسم السير ارنست كاسل قيمة ما اشتراه من الأسهم ؛ ولا بد أنه بعد خروج مشاقة باشا استمر الحال على ذلك حتى تحول الاحتياطى إلى أسهم سعرها الآن فى هبوط مستمر ولا بد أن اختيار أسهم القنصليد الانجليزى وأسهم الترنسفال كان

لغـاية وهي خدمة الحكومتين الانجليزية والترنسفالية ، لأن هذه الأسهم كانت وقت الشراء مرتفعة القيمة ، ثم هبطت بعد ذلك .

ولم يعلم أحد بهذا السر إلا كوربت وكرومر ومشاقة وبعض الموظفين الانجليز.

الانجليز والوظائف . في ٢٨ نوفمبر دار حديث بيني وبين بطرس غالي باشـا ورأينـا معاً ضرورة تغيير مستر هول ناظر مدرسـة الحقوق ؛ وكان دنلوب قد طلب استحضار ستة وأربعين معلماً انجليزياً في السنة المـاضية ، ولكن جورست خفض هذا العدد إلى ستة عشر . وفي هذه السنة خفض العدد المطلوب إلى أربعة ، وقرر أنهم منذ الآن فصاعداً لن يستحضروا سوى الضروري. وقال جورست أيضاً إنه يعلم بأن الذين استحضروا شبان ليس لأغلبهم نصيب كبـير في الأدب والعلم ، هذا مع أن جورست هو الذي أشار بتعيين مستر هول لنظارة مدرسة الحقوق ؛ أما بطرس فكان من رأيه تعيين ناظر مصري ووكيل انجليزي له .

الخديو والأعمال الهامة . ذكرنا أن جورست مذ عين معتمـداً بريطانياً في مصر ، قد ترك الأعمال الداخلية للخديو يتصرف فيها ؛ وقد كان الخديو مهتماً بمباشرة هذه الأعمـال . وفي أثنـاء حديثي المشار إليه مع بطرس باشا قلت له إن سموه مجتهد جداً مع النظار في مباشرة الأعمال وأن هذا هو اللازم ، فأظهر الباشا سروره من هذا الاشتراك . وأشرت عليه بضرورة زيارة سموه للمديريات لأنه لم يزرها منذ بعيـد ، فيحسن أن يتصـل الآن بالشعب ، خصوصاً بعـد مزاعم الحزب الوطني عن سموه ، كما سيأتي .

والواقع أن سموه كان يهتم بتصريف الأمور اهتماماً متواصلا حتى إنه عند وجوده بالقبة كان يأمر بحضور رئيس النظار أو بعض النظار مع الرئيس وفي الغالب محمد سـعيد باشا واسماعيل سري باشا ليتناقش معهم في الأمور وكان مما اهتم به مسألة اختيار المديرين ثم مسائل الطلبـة ، وكان طلبة مدرسة الهندسة قد اعتصبوا لأن نظارة المعـارف قررت حضورهم ثلاثة أيام في الأسـبوع لغاية الظهر فقط والثـلاثة الأخرى لبعد الظهر ؛ وكان المتبع أن يحضروا للظهر فقط كل يوم، فهاجوا وطلبوا الرجوع للقرار الأول مع أن النظارة لم تغيره إلا لشكاية علوي باشا الذي قال للنظارة إن المعارف تساعد الطلبـة على البطالة فاذا لم يشتغلوا بعد الظهر قضوا أوقاتهم في اللهو والمقاهي .

وقد ساعدهم بعض الأساتذة الانجليز لطلب الرجوع للقرار الأول . ولكن الحكومة قررت عقاباً لهذا الاعتصاب تعطيل الدروس شهرين جزاء للطلبة وعبرة لغيرهم ، وعزمت على عقاب كل مدرسة تكرر هذا العمل . فهاب التلامذة العقاب وسكتوا ، بعد أن كان تلامذة الحقوق قرروا الاعتصاب أيضاً مجاملة لطلبة الهندسة .

وكان قد بلغ الداخلية أن الطلبة سيوقفون عربة سموه يوم الجمعة عند ذهابه لمسجد السيدة زينب ، فأعطيت أوامر للبوليس باتخاذ الاحتياطات الشديدة ، ومنع الناس من الوقوف على الأرصفة مع أن الخديو نبه بأن يكونوا فوقها ، ومنع أيضاً الاحتشاد فى الطرقات . . الخ . حتى خيل للانسان أنه سيحدث شىء مضر من الطلبة ، ولكنهم وقعوا عريضة فقط يتبرأون فيها مما ينسبه الانجليز من أمور لم تخطر ببالهم ويؤكدون حسن إخلاصهم .

وكذلك كان يشتغل الخديو مع بطرس باشا وناظر الحقانية والقاضى والمفتى لحل المسائل الموقوفة المختصة بلوائح المحاكم الشرعية التى بعد أن صادق عليها القاضى وأمضاها عدل عنها لأنه يريد إثبات الولاية العامة له ، ولكن الحقانية رأت أن الولاية العامة هى للخديو وليست للقاضى .

مجلس شورى القوانين والدستور . وعنى سموه أيضاً بما سيعرضه مجلس شورى القوانين فى أول ديسمبر من طلب مجلس نيابى ؛ وقد اتفق بطرس باشا مع رئيس المجلس على أن يطلبوا نظاماً كافياً لاشتراك الأمة مع الحكومة فى إدارة شئونها الداخلية ، عدا ما يختص بالمعاهدات الدولية .

أى أنهم لا يأتون بكلمة مجلس نيابى ، إنما يطلبون كل ما يريدونه . وقال لهم بطرس باشا إنى سأقول رداً على ذلك إنكم الآن مشتركون مع الحكومة ؛ وقد علم جورست بذلك فوافق كما أنه وافق على طرح لوائح التعليم على مجلس الشورى .

وفى أول ديسمبر عقد المجلس جلسته وبعد أن كان الانقسام موجوداً بين أعضائه ؛ إذ يريد البعض طلب مجلس نيابى ، وهم محمود سليمان باشا وعلى شعراوى باشا ومحمود عبد الغفار بك ، ومعهم اثنان أو ثلاثة آخرون ؛ والبعض الآخر وهم جماعة اسماعيل أباظه باشا يرون طلب نظام بدلا من كلمة مجلس نيابى يضمن إشراك الأمة الفعلى مع الحكومة ، اتفقت آراؤهم على ما يأتى : « يطلب المجلس من حكومة

الجناب العالى إعداد مشروع قانون يمنح الأمة حق الاشتراك الفعلى مع الحكومة فى إدارة أمورها الداخلية وفى تدبير شئونها الأهلية ، وأن يكون لها رأيها تقريريا فى مشروعات القوانين واللوائح التى تطبق على الأهالى . وفى تقرير الضرائب والرسوم بحيث لا يكون لهذا القانون تأثير على نصوص المعاهدات الدولية والامتيازات القنصلية والدين العمومى وأحكام قانون لجنة التصفية ، ولا على كل ما يتعلق بالأوربيين من المصالح والحقوق الواجبة الاحترام ، ولا على كل ما ارتبطت به الحكومة من التعهدات والاتفاقيات . وبعد وضع هذا القانون يقدم إلى مجلس شورى القوانين لابداء رأيه فيه وهذا وذاك عملا بالمادتين ١٨و١٩ من القانون النظامى . »

وبذلك عدل الأعضاء عن كلمة مجلس نيابى .

ولم يحضر هذا القرار شيخ الجامع الأزهر فانه قام من الجلسة وانسحب قبل انتهائها أما القاضى فلم يحضر مطلقاً .

وقد كنت بعد ظهر هذا اليوم مع الشيخ على يوسف عند الخديو بالقبة ، ولما سمع بما وقع فى الجلسة قال : « على بطرس باشا الآن أن يشتغل عند الآخرين . (يعنى الانجليز) » وهذا دليل على استحسان سموه لما قرره مجلس الشورى .

اضطراب الامن . فى ٢ ديسمبر زار السير جورست الخديو ومكث معه طويلا ، وكان موضوع الحديث أولا اضطراب الأمن ، وقد عرفه الخديو أن الناس يخشون السفر للأرياف مخافة القتل ، وروى له حادثة وقعت لشكيب باشا ؛ وهى أنه سرقت بعض أجزاء من وابور الرى الذى بأرضه ولم يتمكن من استرجاعها إلا بعد إرسال رشوة لسارقيها ؛ وقد حضر اللصوص هذا العام أيضاً لتكرار ما عملوه فى العام الماضى ، ولكن الخفير أطلق عليهم الرصاص ليلا ، فأصاب أحدهم وظهر أنه ابن مأذون الناحية .

وروى مظلوم باشا أن أحد الكبراء كان يريد أن يشترى عزبة ولكنه توقف خوفاً من سطوة الأشقياء عليها وربما قتلوه ؛ وقال الخديو إنه إن استمر الحال على ذلك لابد وأن تهبط أسعار الأطيان ، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من الضرر . فأجاب جورست بأنه سيبحث عن علاج لهذه المسألة .

قاضى مصر والولاية الشرعية . فى عصر ٧ ديسمبر بينما كنت أعرض بعض

الأعمال على الخديو إذ حضر خطاب من محمد القاضي جمال الدين افندي ففضه وقرأه ، ثم بعدها أمرني أن أستدعي بطرس غالي باشا وحسين رشدي باشا فحضرا وتداولا مع سموه . وقد علمت أن القاضي يريد أن يجعل نفسه خديوياً لمصر ، بمعنى أن سموه يكون الخديو السياسي ، والقاضي يكون الخديو الشرعي ؛ فللأول الولاية العامة الادارية وللثاني الولاية العامة الشرعية ! ! وبعد ذلك ذهب سموه للقبة وبقي بطرس باشا ورشدي باشا يتداولان ثم اتفقا على استشارة جورست في إرسال محمود شكري باشا للاستانة للمداولة مع أولي الشأن في دعاوي القاضي .

وقد استدعاني بطرس باشا بعدها ، وطلب الي إرسال إشارة تليفونية للجناب العالي في القبة أقول فيها إنه تم الاتفاق على انتداب محمود شكري باشا للسفر الى الاستانة ، وطلب صدور الأمر ليحضر لمقابلته .

المشادة بين الخديو والحزب الوطني . في ١١ ديسمبر تقابل الشيخ علي يوسف مع الخديو وكنت حاضراً ، فأظهر جنابه استياءه الكبير مما يفتري به عليه اللواء والحزب الوطني من خيانته للوطن وقال : « كيف أقضي خمسة عشر عاماً في حروب عنيفة مع الانجليز ، والآن ينسى هؤلاء المفترون ذلك ، ويقولون إني خائن . ولو ادعوا شيئاً آخر لما صعب عليّ ، ولكن لا يمكن أن أكون خائناً .

« وقد كانوا يظهرون للعالم أن الأمة جميعها معهم في هذا الاعتقاد ، ولكن موقف الجمهور في يوم الاحتفال بالمحمل ، قد كشف سر هذا الحزب وبدا على الوجوه السرور والانشراح .

« فمن وقت ركوبي في العربة حتى المصطبة ثم أثناء رجوعي لعابدين كان الهدوء سائداً ، ولم يقع إلا خروج بعض الشبان في شرفة أحد المنازل بشارع محمد علي وصياحهم : « يعيش الخديو . يعيش الدستور . » ثم عند المنشية أراد بعضهم أن يهتف كذلك فغطى على صياحهم زغردة النساء .

وبالاختصار فان يوم أمس كان من الأدلة الواضحة على أن الأهالي مسالمون . وكان الحزب الوطني يثير الطلبة ، ولكنهم عرفوا الآن أن لا فائدة تعود عليهم من الهتاف والصياح ، وأصبحوا لا يذعنون لاشارة الحزب الوطني مثل ما كانوا يذعنون ؛ والآن انكشف الستار وظهر أنه لا معضد للحزب من الأهالي ، وهذه ترضية عظيمة لشخصي فالحمد لله . »

تدخل الخديو فى الانتخابات . فى ١٣ ديسمبر بعد صلاة الجمعة فى المطراوى (بالمطرية) رجعنا مع الخديو ، وبعدها حضر المحافظ ومحمد شكرى باشا مدير المنوفية ؛ وبعد الغداء تحادث سموه فى مسائل الانتخابات فقال المدير : « إن هلباوى بك رشح نفسه للانتخاب فى مديريته ، وكذلك احمد لطفى السيد بك مدير الجريدة . » قال الجناب العالى ، إنه تحدث ألاعيب مع بعض المرشحين للانتخاب ، فمن ذلك ما حصل من الدمرداش فانه أحضر مشايخ البيومية وحلفهم بالطلاق ألا يساعدوا أحداً خلافه لأنه كان أحس بحركة ضده لاسقاطه من الجمعية العمومية ، واستبداله بضابط فى المعاش اسمه ابراهيم راجى بك. فلولا هذه الألعوبة لسقط الدمرداش ، لأن راجى أخذ فوق الستين صوتاً ولكن الشيخ نال فوق المائة والعشرين .

ومما يؤسف له أن الخديو صرح لنا بأنه عمل بواسطة أعوانه لاسقاط الشيخ فلم يفلح ولم يكن من الحكمة أن يتحدث الخديو بمثل هذا الكلام فى مثل هذا المجلس .

كذلك قال الخديو إنه لما قابل جورست فى المرة الأخيرة وحدثه هذا عن كثرة الاضطراب فى مصر أجابه الخديو بأنه لا أهمية لذلك ولا خوف منه ، وقال له إن الشاهد على ما يقوله هو أن أهالى العاصمة وقدرهم نصف مليون لم يحضر منهم للأقسام يوم الانتخاب إلا ألف وخمسمائة شخص ، فدهش جورست لذلك ، ودون هذا الكلام فى مفكرته حتى يسأل مستشار الداخلية فى هذا الأمر ؛ وقد كان مما يسوء كل مصرى أن يقف عميد الاحتلال على هذا الأمر الذى يشوه من أمانى البلاد فى سبيل الحكم الذاتى !

سنة ١٩٠٩

أمين لجمرك الاسكندرية . الحزب الوطنى والموظفون . بين المستشار المالى والنظار . تعيين البرنس حسين كامل باشا رئيساً لمجلس شورى القوانين . بعث قانون المطبوعات واضطهاد الصحافة . صدى القانون . افتتاح بورسودان . شئون الأزهر . تولية السلطان محمد رشاد وسفر الخديو للاستانة وأوربا . انتقالى لإدارة الأوقاف الخديوية . حضور عزت العابد باشا لمصر . مرض السيد البكرى . مهام سياسية لمحمود شكرى باشا فى الاستانة . مسألة امتياز قناة السويس .

أمين لجمرك الاسكندرية . جاء فى مذكرات العام الماضى أن خليل باشا حمادة أمين جرك الاسكندرية عين مديراً للأوقاف ، وكان من الضرورى اختيار خلف له ، وقد اجتمع لدى الخديو بسراى عابدين بطرس باشا ومحمد سعيد باشا وشيتى بك وبعض كبار الموظفين الانجليز للنظر فى تعيين ذلك الخلف ، فأظهر سموه ميلا لتعيين مصطفى ماهر باشا مدير الغربيـة ، ولـكن شيتى بك رأى أن يبقى ماهر باشا مديراً لينظم المديرية كما نظم الدقهلية قبلها . وعندئذ فكر الخديو فى تعيينى فوافق على ذلك محمد سعيد باشا وبطرس باشا ولـكنهما طلبا من سموه أن يفـكر فيمن يخلفنى فى الديوان الخديوى . فعاد سموه وألح على شيتى بك بقبول مصطفى ماهر باشا ، وكلف سموه بطرس باشا بمحادثة جورست فى الأمر وفى أن يكون الأمين هو ماهر باشا أو شفيق بك . وقد وافق جورست على ماهر باشا لأنه كان قد رشحه للنظارة أو وكالتها فى العام الماضى ورفض الخديو .

وقد ظننت أن اسمى طرح أمام جورست واختار مع ذلك ماهر باشا فتأثرت

لذلك وتحدثت الى بطرس باشا فى الأمر ، فنفى لى ما ظننت وقال : «إنه لم يعرض سوى اسم ماهر باشا فوافق عليه جورست مباشرة . »

الحزب الوطنى والموظفون . فى ١٢ مارس حضر إلى السراى على بك ابو الفتوح الذى عين مديراً لجرجا ليشكر الخديو على هذا التعيين ، وكان قد بلغ سموه أن الحزب الوطنى يسعى لضم الموظفين إلى جانبه وخصوصاً رجال الادارة ليكونوا له عضداً وسنداً ، وأن على بك ضمن المنتمين لهذا الحزب . ولما قابل سموه قال له : « يا على بك أنا وطنى وأحب وطنى ، وكل المصريين وطنيون يحبون وطنهم ، ولكنى لا أود أن أكون عضواً فى الحزب الوطنى ؛ وأظن أن الأفضل ألا تكون أنت أيضاً كذلك . » فتبرأ المدير مما نسب إليه .

المستشار المالى والنظار . فى ١٣ مارس كان من بين المسائل المعروضة فى جلسة مجلس النظار برياسة الخديو مذكرة من المستشار المالى بخصوص شراء الحكومة لسكة حديد الواحات بمبلغ قدره مائة وخمسة وعشرون ألف جنيه من شركة الواحات بشروط منها بقاء جزء من الأرباح للشركة لمدة معينة . . .

وقد طلب محمد سعيد باشا إرجاء النظر فى هذه المسألة الهامة إلى جلسة أخرى لأنها بلغت إلى النظار فى آخر وقت . وقال سعد باشا إنه لم يقرأ المذكرة للآن ؛ فغضب المستشار وطلب البت فى الموضوع بهذه الجلسة لأنها من اختصاصه هو وناظر المالية ومتى كانا متفقين فيجب أن يكون لبقية النظار ثقة فيما يقررانه . فأجاب محمد سعيد باشا : « إذا كان الأمر كذلك فلا معنى لطرح المسائل المالية على المجلس . » واشتد الجدل وطلب حسين رشدى باشا بيانات من المستشار فأجابه إلى ما طلب . وعندئذ قال رشدى باشا : « إذن المسألة ستكون شركة بين الحكومة وشركة الواحات ! » وعندئذ غضب المستشار واحتد ولوّح باستقالته لأن النظار لايثقون بأعماله .

وهنا تدخل الخديو وأشار على محمد سعيد باشا بعدم الاصرار على تأخير المسألة فأطاع هو وزملاؤه ، وتقرر تنفيذ الاتفاق الذى عمله المستشار مع الشركة . ولولا هذا الاتفاق لأفلست وعادت السكة الحديد والأراضى التى أصلحتها والآبار الارتوازية التى أنشأتها للحكومة بمقتضى عقد الامتياز .

ولم ينكر المستشار هذه الحقيقة ، ولكنه احتج بأن إفلاس هذه الشركة يذهب بثقة أصحاب رءوس الأموال فى مصر فلا يوظفونها فيها وتقف حركة الأعمال المالية .

ثم دارت مناقشة حادة أخرى على موضوع آخر لأن المستشار طلب الموافقة على لائحة المعاشات ، وطلب النظار تأجيلها وصمموا على موقفهم رغم تشدده .

وقد صرح الخديو لنا بعد انتهاء الجلسة بأنه لم يشهد من قبل مناقشات حادة بالمجلس كالتى شهدها اليوم . فقلت لسموه : « هذا شيء حسن ؛ لأن المستشار من الآن فصاعداً سيحسب للنظار حساباً ، ويعلم أنهم غير من سبقهم من النظار فهم لا يقبلون شيئاً إلا بعد الاقتناع . »

تعيين البرنس حسين كامل باشا رئيساً لمجلس شورى القوانين . وفى يوم ١٤ مارس اجتمع بطرس باشا واسماعيل أباظه باشا والبرنس حسين كامل باشا بعد اختياره رئيساً لمجلس شورى القوانين فى سراى عابدين ، وتناقشوا مع الخديو فى الحالة الحاضرة وما يجب عمله ، فقر الرأى على أن يذهب بطرس باشا إلى جورست ويطلب منه أن يوافق على عمل تعديل فى مشروع مجالس المديريات بحيث يكون لها الحق فى فرض ضريبة لا تزيد عن خمسة فى المائة من قيمة الأموال لصرفها فى التعليم ، وأن تكون قراراتها نافذة فى هذه المسألة ، وأن يقنع جورست بضرورة ذلك . واتفق أيضاً على أنه متى انتهى بطرس باشا من هذه المهمة يتوجه البرنس إلى جورست ويطلب منه توسيع اختصاص مجلس شورى القوانين .

بعث قانون المطبوعات واضطهاد الصحافة . فى ١٢ اكتوبر تقابل الخديو مع جراهام نائب جورست وتحدثا عن الصحف العربية فقال جراهام إنها تمادت فى الطعن على الكبير والصغير دون مبالاة وطلب سن قانون لكبح جماحها فأجاب الخديو بأن قوانين البلاد كافية لذلك ، وأن إصدار قانون شديد الآن ربما حرك الساكن فيحدث الانفجار .

وفى ١٦ منه قابل جورست الخديو ، وكان المظنون أنهما سيتكلمان فى مسألة الصحف ولكنهما لم يطرقا هذا الحديث ، وكان اسماعيل أباظه باشا قد طلب منى أن أنبه الخديو — قبل المقابلة وقد حصل — كيلا يظهر سموه معارضة فى سن قانون لها بل يقول إنها مسألة تقتضى التروى لأن أباظه باشا سمع من كرومر فى انجلترا أن المنتظر عمل قانون ضد الصحافة العربية سواء أكان مديروها أجانب أم مصريين وأن الدول وافقت على ذلك بدليل أن عبد العزيز جاويش محرر اللواء التونسى لم تعترف فرنسا بحمايتها له .

ولكن بعض الصحف، وخصوصاً المنتمية للحزب الوطني ، تمادت في شدتها ضد شخص الخديو حتى كانت ترميه بخيانته لوطنه والاتفاق مع الانجليز ضد مصالح الأمة! فضاق سموه ذرعا بهذه الحملات وسلم بالنظرية الانجليزية في سن القانون ، بل أضحى هو صاحب الرغبة والسعي في ذلك ! فكلف بطرس باشا بالتعجيل في تنفيذ هذه الفكرة واستقر الرأي على بعث قانون سنة ١٨٨١ ولتحاسب الصحف بمقتضاه ، وهو قانون قاس شديد .

ولما علم الشيخ علي يوسف بعزم الحكومة على بعث هذا القانون الذي سن أيام الثورة العرابية جاء إلى الخديو يوم ١٩ مارس وقال لسموه : « إن هذا أمر لا يصح بعثه بعد ربع قرن ، وإنه يسيء إلى الجميع من حيث الحرية التامة ، وسنحتاج لاستعمال هذه الحرية في وقت ما فلا نجدها » فأجابه الخديو : « إن ذلك صحيح ولكن المخابرات بيننا وبين انجلترا تقدمت تقدماً عظيما ولا يمكننا الرجوع إلى الوراء » فقال الشيخ علي : « وما ذنبنا إذا خرج بعض الصحف عن حد الأدب في انتقاداتها على الحكومة فكيف يؤخذ البريء بجريرة المذنب مثل محرري اللواء والجريدة الذين لا ذمة لهم » فأجابه : « إن هذا ما حدث وإني أحس بأننا لم نعمل عملا في صالحنا الحقيقي ولا بأس يا شيخ علي بأن تذهب إلى بطرس باشا وتتكلم معه في هذه المسألة . » وكان الخديو قد بدأ يعود إلى رأيه الأول ولا سيما بعد هذا الحديث الذي دار بينه وبين صاحب المؤيد . فأرسل في طلب محمد سعيد باشا وحسين رشدي باشا وتكلم معهما في مسألة قانون المطبوعات وبعد أن كان هو الذي يطلب تنفيذ قانون سنة ١٨٨١ عاد ووافقهما على أنه ليس في المصلحة خصوصاً وأنه سيقال عن سموه وعن نظاره أنه لما سلمت الحكومة الانجليزية قيادة الأعمال الداخلية إلى الوطنيين كانت فاتحة عملهم أن رجعوا بالمصريين إلى الوراء وهذه وصمة شنيعة ! واتفقوا على تدبير الأمر .

وفي اليوم التالي دعاهما إلى سراي القبة وتكلم معهما في مسألة القانون ووافقهما على عدم تنفيذه ، وأمرهما أن يتوجها إلى بطرس باشا وأن يتكلما معه .

وعلمت في هذا اليوم من اسماعيل اباظه باشا أنه توجد أزمة نظارية فاتفقنا على أن نتوجه لبطرس باشا في المساء لنعلم الخبر فذهبنا وفهمنا منه أن النظار علموا قبل المخابرة مع جورست بالموضوع وبعد أن قبلوه برمته جاءوا يعترضون على بعض نقط فيه . وخرجنا من المناقشة بأن الحق في جانب بطرس باشا وقد سمعنا منه أنه في الحقيقة

لا يرغب فى بعث هـذا القانون ، ولم يكن بعثه إلا بنـاء على إلحاح الخـديو فى إجراء ما يجب لاسكات الصحف الجامحة وفهمنا أيضاً أن بطرس باشا مستاء جداً لمداولات الخـديو مدى يومين مع حسين رشدى باشا ومحمد سعيد باشا بدونه ومستاء أيضاً من تقلب أفكاره حيث طلب سن قانون المطبوعات ثم هو يعترض الآن عليه ، فكأن بطرس باشا وحده هو الذى يطلب تنفيذ هذا القانون ولا يخفى ما يناله من العـار لو علم الجمهور بذلك .

وفى ٢٢ مارس قابلت أنا وأباظه باشا حسين رشدى باشا وسعيد باشا فتفاهمنا معهما فى موقفهما فعلمنـا أنهما لم يتناقشا مع زملائهما عدا الرئيس فى هـذا الموضوع قبل المخابرات مع جورست بل بعـدها بكثير ، وكان كلما أبدى أحدهما ملاحظة أجابه الرئيس بكلام مبهم وبدا لهما جلياً أنه يريد إقرار القـانون بنصه وبلا مناقشة . فاستاء النظار من استبداده لأنه لا يريد أن يمكنهم من بحث القـانون وأظهروا له أنها مسألة هامة لا يمكن أن يأخذوها على مسئوليتهم ولهـذا أرادوا أن يحولوا فـكر الخـديو عن هـذا القانون فسعى لديه محمد سعيد باشا وحسين رشدى باشا حسبما قدمنا ، وكان ذلك سبباً فى غضب بطرس باشا وخصوصاً حينما أبلغاه رأى الخديو فى العـدول عن رأيه الأول . ولما سمعت واسماعيل أباظه باشا هذه البيانات حكمنا للنظار ضد بطرس باشا . ولـكنه ظل على إصراره وغضبه حتى إنه لوح بالاسـتقالة أمام النظار . واعتـذر عن الحضور بانحراف صحتـه حينما دعاه الخديو فذهب إليـه أباظه باشا وأقنعه بحسن نيـة سموه ووجوب التوجه إلى السراى . وأما النظار فثبتوا على موقفهم من المعـارضة ، وأبدى ثلاثة منهم اسـتعدادهم للاستقالة ، وهم سعد باشا وسعيد باشا وحسين رشدى باشا . ولمـا تحرج الموقف كلفنى الخديو أنا وأباظه باشا بالتوجه إليهم والتفاهم معهم ، فقمنا بالمهمة وحادثناهم منفردين ثم مجتمعين بأن لا معنى للتوقف بعد أن تخابرت مصر مع انجلترا وهـذه مع الدول لقبول تنفيـذ اللائحة على الأجانب وأن تنفيذها سيكون مؤقتاً لحين عمل لائحـة أخرى ملائمـة للحالة الحاضرة وتعرضهـا الحكومة على مجلس الشورى ، وأعطى ناظر الداخليـة الحرية فى تنفيذ هـذه اللائحة على أرباب الجرائد أو إحالتها بواسطة قلم المطبوعات على النائب العمومى ، ثم قلنا إن مركز الخديو قد أصبح حرجاً لأن جورست لمـا قابله وأراد سموه تحويله عن تنفيذ اللائحة لم يوافق وعنـدئذ قال النظار ما معناه : « نحن نفدى سموه لأننا نعلم أن إحساساته شريفة وأثبت لنا ذلك عند حديثنا معه لأنه علم أن رجوع اللائحة فى هذا الوقت الذى أعطتنا فيه انجلترا

الحرية فى العمل مما يثبت لهـا ولأوربا أن الأمة المصرية ليست أهلا للحرية ، مع أن المشاغبين هم فئة قليلة تعد على الأصابع ، ولهذا وافقنا على الرجوع عن هذه اللائحة . »

وانتهى الأمر بقبول النظار ثم انصرفنا حيث كان الليل قد انتصف . وفى اليوم التالى توجه النظار لسراى القبـة وقابلوا الخديو ولما خرجوا وجدتهم بما فيهم الرئيس ضاحكين ، وعلمت أنا واسماعيل اباظه باشا من سموه أن سعد باشا ظل ساكتاً حتى أعلن الآخرون قبولهم ثم قال : « إن هذا الأمر غير مريح لضميرى؛ أنا لما كنت محامياً وأدافع فى قضاياى وأخسر بعضها كنت أتكدر ولكن كنت أقبل الحكم وضميرى مرتاح . أما فى هذه المسألة فضميرى غير مرتاح مع قبولى لهذه اللائحة . »

ونظراً لوجود إشاعة بأن هناك أزمة نظارية ، وبعد خروج النظار من السراى سمعت من الخديو انه إذا قدم النظار استعفاءهم فانه لا يكلفهم بعد ذلك بشىء مطلقاً وأنه يكون مضطراً لتشكيل نظارة أخرى تحت رياسة نخرى باشا .

وبلغنى أنه حصلت مخابرات بين النظار والرئيس فى إدخال تغييرات على مشروع تنفيذ قانون المطبوعات سنة ١٨٨١ ، وقال النظار لرئيسهم إن جورست قبل فكرة التعديل بناء على نصح شيتى بك .

ولما اجتمعت مع حسين رشدى باشا وسعد باشا ومحمد سعيد باشا فى الداخلية وقرأت المشروع المعدل ، وجدته لا بأس به فلما توجهوا عند الرئيس وعرضوه عليه قال إنه ليس صريحاً — وذلك قبل أن يتوجه لجورست ويحدثه . ولما عاد من عنده قال إنه لم يقبله فارتاب النظار لهذا التناقض . واعتقدوا أن الرئيس ليس مخلصاً فى عمله وأنه يريد أن ينفذ قراره الأول ثم أرسلوا القانون المعدل مع المستشار المالى إلى جورست وأخيراً جاء الرد بالقبول فاجتمعوا فى بيت الرئيس وتناقشوا فى الموضوع ، وعاد بطرس باشا ثانية إلى جورست ليلا ليأخذ منه الكلمة الأخيرة فقبل المشروع مع تعديل لبطرس باشا مقتضاه عمل قرارين أحدهما بتنفيذ لائحة سنة ١٨٨١ والثانى بالتعديل ، وانتهى الأمر على ذلك .

وفى مساء ذلك اليوم استدعانى الخديو وطلب ميزانية الديوان الخديوى ولما اطلع عليها أمر أن يزاد مرتبى أربعمائة جنيه فى السنة من وفورات الميزانية ، فشكرت لسموه هذا الانعام وقلت : « إن لسانى يعجز عن إيفاء حق الشكر . » فأجابنى : « يا شفيق باشا إن الحالة تغيرت وصارت أشغالنا كثيرة ولنا أسرار جديدة ، فأنا شخصياً لا آتمن سواك

عليها ولذلك رأيت أن تبقى معنا الآن وفى المستقبل كما كنت معنا من قبل . » فقلت — وقد تأثرت لهذا الكلام — : « إنى يا مولاى غرس نعمة بيتك الكريم فلى الشرف أن أخدمه إلى ما شاء الله ولا سيما بعد أن سمعت هذا الكلام المشجع الذى أعتبره أعظم مكافأة لى . » وقبلت يديه وانصرفت .

وفى ٢٥ مارس اجتمع النظار بسموه فخاطبهم بشدة وكان موجهاً كلامه بالأخص لمحمد سعيد باشا وانتقد عملهم ، وهو أنهم بعد أن اتفقوا على قبول لائحة المطبوعات فى الجلسة السالفة رجعوا فى قولهم ، ووسطوا المستشارين بينهم وبين جورست فى قبول بعض تعديلات اقترحوا إدخالها ، ولو أنه حصل الاتفاق أخيراً بينهم وبينه وبين الرئيس . ولكن التقرير ثم التغيير فيه شىء لم يره سموه من النظار السابقين مدى السبعة عشر عاماً الماضية .

ولا يبعد أن جورست الذى يسير معنا بالاتفاق التام يغضب يوماً من الأيام عندما نطلب منه المساعدة فى مسألة فلا يجيبنا إلى طلبنا ويعمل ما يراه لأنه لا يعتمد على ما نعرضه عليه خوفاً من أن نرجع فيه كما رجعنا فى هذه المسألة وبذا نخسر معاونته .

وكان هذا الكلام للنظار أمام المستشار المالى وقطة باشا واحمد زكى بك فاستاءوا من ذلك وتكدروا أيما كدر . ولما ذهبت مساء اليوم إلى وكالة فرنسا ، حيث كنت مدعواً لتمضية السهرة بمناسبة وجود الدوق أوف كنوت وعقيلته هناك ، قابلنى فى حلقة المدعوين سعد باشا ثم محمد سعيد باشا ثم حسين رشدى باشا واحمد حشمت باشا وكلمونى فى هذا الموضوع وكان التأثر ظاهراً بالأخص على سعد باشا وسعيد باشا ، فهدأت روعهم وأكدت لهم أنهم قاموا بالواجب وأن الخديو لا بد أن يكون مغتبطاً بالتعديل الذى أدخل لأنه لم يكن موافقاً على القانون ولكنه استاء فقط من الطرق التى اتبعت .

وفى اليوم التالى حضر سعيد باشا إلى القبة فقابل الخديو وعلم منه أن كدره كان من توسيط شيتى بك بينه وبين جورست فى قبول التعديل ومع ذلك فان سموه أظهر له الرعاية والعناية فزال عنه بعض الكدر وبعد الظهر توجهت إلى بطرس باشا فدعانى للغداء وعلمت منه أنه مغتبط بما قاله الخديو للنظار وأنه قال لسموه أثناء محادثة خصوصية إنه لو كان سموه رضى بالرجال الذين كان قد انتخبهم أولا ومنهم شفيق باشا لما حصل كل ذلك ولكن سموه طلب منه قبول هؤلاء النظار فامتثلت لأوامره .

وكان سموه قد سافر الى بلبيس وعند عودته ركبت معه فى القطار من محطة مصر إلى القبة وعرفته بالمطلوب إجراؤه فى قرار تنفيذ قانون المطبوعات فسألنى عما إذا كان بطرس باشا قد قبل فسألت سعيد باشا تليفونياً فقال : « نعم إن بطرس باشا قد قبل . » فقلت لأفندينا : « الحمدلله إن المسألة قد انتهت مع النظار والرئيس وجورست » فقال : « ولكن لم تنته معى فكيف يحصل هذا التغيير بعد أن قررنا ما قررناه ؟ »

صدى القانون . نشرت الوقائع الرسمية فى ٢٧ مارس قرار مجلس النظار بتنفيذ قانون المطبوعات لسنة ١٨٨١ على الصحف والمطابع والقرار الخاص بتكليف ناظر الداخلية بإحالة المتهمين على القضاء ما لم يقرر مجلس النظار تطبيق مادة ١٣ من القانون المذكور فثارت لذلك جميع الصحف وحملت اللواء على القانون بعنف ووردت تلغرافات للمعية وللحكومة بالاستياء منه . وفى اليوم التالى ذهب الخديو إلى المحطة لتوديع الدوق اوف كنوت وفى أثناء ذهابه وعودته إلى عابدين لاحظ أن بعض الطلبة الذين ينتمون للحزب الوطنى كانوا جالسين على قهوة الشيشة وغيرها وهم فى حالة عدم اكتراث ولما مر عليهم لم يتحركوا ولم يقفوا لأداء السلام بل بالعكس رفعوا ساقاً فوق ساق ونظروا إليه . وقد شعر سموه أنه لا بد وأن يكون الحزب قد كلفهم بتنظيم هذه المظاهرة انتقاماً منه بسبب قانون المطبوعات والصحافة .

وفى يوم ٢٩ مارس حضر للسراى سكرتير الحزب الوطنى ، وسلمنى خطاباً باسم الخديو وفيه احتجاج من لجنة إدارة الحزب الوطنى خاص بتقييد حرية الصحف . ومما ورد فى هذا الاحتجاج .

« إن الحزب الوطنى هو قوة لا يستهان بها ، وهو مخلص للسدة الخديوية . »

فلما أرسلت الخبر تليفونياً للجناب العالى جاءنى الأمر بارسال هذا الاحتجاج لبطرس باشا .

وبلغنى من سموه بعد ذلك أنه ورد للنظار إنذار بأن عشرة من الطلبة سينتقمون منهم ويقتلونهم نظراً لاقرارهم إرجاع قانون مطبوعات سنة ١٨٨١ وأن النظار متخوفون من هذه الجمعية .

مظاهرة الطلبة : ولما عاد سموه إلى القاهرة فى ٥ أبريل بعد افتتاح بور سودان ، — كما سيجىء — كان النظار فى انتظاره بمحطة القبة مع البرنس محمد على باشا ، فعلمنا منهم أنه وقعت أثناء غياب سموه مظاهرة كبيرة قام بها الطلاب المنتمون للحزب

الوطنى ، وأن هارفى باشا الحكمدار الذى كان مشرفا على تشتيتهم سقط عن جواده . ولكن البوليس تمكن من القبض على ناصية الحال وقبض على عدد من المتظاهرين لتقديمهم للمحاكمة . وعلمنا أن جيش الاحتلال كان على استعداد لأول إشارة وأن القائد العام كان يراقب المظاهرة بنفسه فى ميدان الأوبرا .

وقد لامهم سموه على عدم إرسال الأخبار إليه مدة غيابه ، ولا سيما فى أمر بهذه الخطورة .

فى مجلس الشورى والقانون : وفى ١٣ أبريل اجتمع مجلس شورى القوانين فاقترح على شعراوى باشا ، وأيده ثمانية من الأعضاء ، إلغاء قانون المطبوعات ؛ فرد عليه اسماعيل أباظه باشا بأن هذا الطلب غير قانونى ، فإنه لا حق للمجلس فى طلب إلغاء قانون ، واقترح أن يطلب من الحكومة عمل مشروع قانون للمطبوعات بدل الذى تقرر تنفيذه ، ثم يعرض المشروع الجديد على المجلس . فقام مقار باشا عبد الشهيد ، وطلب ألا يغير القانون الحاضر وألا يلغى ، بل يبقى كما قررته الحكومة . ولما أخذت الأصوات كانت الأغلبية مع مقار باشا فتقرر إبقاء القانون على حاله .

وقد كانت هذه نتيجة سيئة المغزى بالنسبة للأمة المصرية وتقديرها لحرياتها وحقوقها ، ولكن الذنب فى ذلك يرجع إلى الخلاف بين أباظه باشا وشعراوى باشا وهو الذى مكن عبد الشهيد باشا من إحراز الأغلبية .

إنذار اللواء والحكم على الشيخ جاويش : وبالرغم من سن قانون المطبوعات فان الحكومة والانكليز كانوا يتحرجون من تنفيذه على الصحف التى ظلت تكتب بشدة متناهية ، وقد علمنا أن البرلمان الانجليزى نفسه أوصى وزير الخارجية الانجليزية بعدم التضييق على حرية الصحف فى مصر .

ولكن حدث أمران اضطرا الحكومة إلى الخروج عن هذا التحفظ :

الأول : أن اللواء نشرت فصولا طويلة مدحت فيها « دنجرا » الهندى قاتل اللورد كرزون فى انجلترا واعتبرت عمله عملا وطنياً خالداً ، وحضت الشبان على التشبه به فى وطنيته .

والثانى : أن الشيخ جاويش نشر فى اللواء مقالا شديد اللهجة طعن فيه فى حق بطرس باشا وفتحى باشا زغلول ومحمد بك يوسف . . . .

أما اللواء فقد تقرر إنذاره بعد أخذ ورد بين مصر ولندره حتى إن بطرس باشا لوّح بالاستقالة إذا لم ينذر ؛ لأن هذه الكتابة تعتبر تحريضاً صريحاً على ارتكاب جرائم القتل السياسى .

وأما الشيخ جاويش فقد قدم للمحاكمة وحكم عليه بالغرامة .

مظاهرة سياسية : وقد قابلت الصحف الانجليزية والوطنية هذا العمل بالارتياح . أما جرائد الحزب الوطنى فاستخدمته فى الدعاية للحزب وقالت إن الشيخ جاويش يعتبر شهيد الحرية .

وفى يوم ٢٩ أغسطس تألفت مظاهرة كبيرة فى حديقة الأزبكية لتحية الشيخ جاويش نظمها الحزب الوطنى . ولما علمت الحكومة بخبر المظاهرة اجتمع ناظر الداخلية مع المحافظ لعمل الاحتياطات اللازمة ، ونبه على الشيخ شاكر لبذل كل مجهود حتى لا يشترك فيها طلاب الأزهر . ونصحت المؤيد والجريدة بالهدوء ، وقد انتهت المظاهرة بسلام .

وفى نفس الوقت بذل الخديو مجهوداً لاقالة محمد فريد بك زعيم الحزب الوطنى من الاشراف على تصفية الشركة التوفيقية للملاحة فى النيل ، وكان المنشاوى له نصيب كبير فيها ، وكان فريد بك يتناول نظير عمله مائة جنيه شهرياً ، هذا فضلا عما يقال من أن مركزه هذا يفيد الحزب الوطنى مالياً . ولهذا كلفنى الخديو بأن أسعى لدى أفراد أسرة المنشاوى للعمل على رفع يد فريد بك عن الشركة ، واستعنت على ذلك باسماعيل أباظه باشا . ورشحناه هو للحلول محل فريد بك ـ ولكن السعى لم يتم ـ ولما علم فريد بك بذلك أرسل إلى أباظه باشا يلومه على هذا العمل الذى اعتبره غير لائق بمكانته .

افتتاح بورسودان . كانت الحكومة قد انتهت من إنشاء ثغر بور سودان ، وقر الرأى على أن يفتتحه الخديو رسمياً .

وفى ٢٩ مارس تحرك القطار الخصوصى من القبة يقل سموه والنظار وكبار رجال المعية إلى السويس حيث كانت المحروسة فى الانتظار . فنزلنا بها فى منتصف الليل والبحر هادىء والهواء رطب وسارت حتى بلغت الميناء الجديدة يوم أول أبريل ، وهناك *أطلقت المدافع من الشاطىء وأذن الشيخ محمد الجيزاوى المقرىء إعلانا بافتتاح* بور سودان رسمياً .

ثم افتتحت الحفلة بخطاب من حاكم السودان العام مرحباً بالخديو وتلاه كندى بك مدير أشغال السودان فشرح بإنجاز الأعمال التى تمت فى الميناء وقام بعده دروري بك مدير الموانى والفنارات فوصف الميناء وفائدتها التجارية وأنه قد نصب فى مدخلها فنار من الدرجة الثالثة يختفى نوره كل عشر ثوان وقد وضع هذا الفنار بحيث ينبعث منه شعاع أحمر علامة على الخطر فى بعض الجهات .

فرد عليهم الخديو شاكراً ومشجعاً ، ثم توجه سموه الى البناء فوضع آخر حجر ثم أنعم على بعض كبار الموظفين الانجليز بنياشين مختلفة الدرجات .

وكان فى الاستقبال ونجت باشا السردار والضباط والموظفون وقاضى القضاة ومفتى الخرطوم وشيخ علمائها ؛ وأديت العساكر التحية . ثم صعد إلى الباخرة ونجت باشا ومعه سلاطين باشا لشكر الخديو على تفضله بالحضور . ثم نزل سموه إلى الشاطىء وركب العربة الخصوصية وطاف فى موكب بعض شوارع الثغر التى كانت مزينة بالأعلام .

ثم عاد للمحروسة فاستقبل بها أعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية الذين حضروا مدعوين لشهود الاحتفال . ثم أصحاب الصحف وغيرهم . ودعا إلى الغداء كبار موظفى السودان وأعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية .

وفى الساعة الرابعة زرنا مخازن الجرك ووابورات الكهرباء . ثم مررنا بالقنطرة التى تصل القسم التجارى من المدينة بالقسم المدنى . وزرنا منزل حاكم المدينة ثم عدنا للمحروسة .

وفى المساء كنا مدعوين للعشاء عند السردار وكانت الميناء والمحروسة ووابوران صغيران لحكومة السودان تتلألأ بالأنوار الساطعة . وبعد العشاء أطلقت النيازك ؛ ومما لفت الأنظار ظهور صورة الملك ادوارد السابع وصورة الخديو فى ألوان زاهية واضحة . ومما لاحظه سموه وجود أعلام انجليزية بجانب الأعلام المصرية فى ساحة الاحتفال ، ولم يدع أحد من المجلس ولا الجمعية إلى هذه المأدبة .

وفى اليوم التالى ركبنا المحروسة عائدين بعد الوداع الرسمى المعتاد ، فوصلنا إلى الطور يوم ٤ منه حيث يوجد المحجر لاجراء الرسوم الصحية المعلومة . وكان هناك الوابور برنس عباس يقل المدعوين للاحتفال عائدين كذلك فأرسل إليهم سموه يبلغهم أسفه على عدم دعوتهم لمأدبة السردار وأنه آسف بسبب ذلك .

ووصلنا إلى السويس يوم ٥ منه ، فاستقبل سموه من جميع الطبقات بحفاوة كبيرة ، ونزل بالمدينة وطاف ببعض شوارعها ثم غادرنا السويس إلى القاهرة فوصلناها فى الساعة الخامسة مساء .

شئون الأزهر . فى ٩ ابريل كنت فى سراى القبة مع الشيخ شاكر والمفتى والشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى ثم حضر الشيخ احمد زناتى فاجتمعنا بناء على الأمر الخديوى للمناقشة فى شئون الأزهر ومطالب الطلبة إزاء القانون الجديد ؛ وفى الشكاوى التى وصلت للسراى من الطلبة ومن جمعية اتحاد العلماء . وقد كان من رأيى أن يأمر سموه بتشكيل لجنة من أحد علماء الأزهر وآخر من المعهد الاسكندرى وثالث من طنطا ومن ابراهيم ممتاز باشا رئيس الأقلام العربية بالداخلية وحسن بك جلال أحد رجال القضاء وثلاثة آخرين مثل اسماعيل بك حسنين ناظر مدرسة المعلمين العليا واسماعيل رأفت بك المدرس بها وأمين بك سامى ناظر المدرسة الناصرية . وتنظر هذه اللجنة فى مطالب الطلبة ولها أن تنظر فى تعديل القانون واللائحة الداخلية ، وأن تقترح التغييرات اللازم إدخالها لراحة الطلبة والعلماء فى جميع المعاهد .

ولكن اقتراحى هذا لم ينل قبولا وقال الخديو : « إننا ننظر فى جلسة غير رسمية فى تقرير اللجنة ، ثم يجتمع المجلس العالى بصفة رسمية ويقرر ما يراه فى هذا التقرير . »

استقالة الشيخ حسونة وتعيين الشيخ سليم البشرى للمرة الثانية : أسلفنا ذكر ما كان بين الخديو وبين الشيخ حسونة من سوء تفاهم لم يزل إلا ظاهراً ؛ ولذلك فان الشيخ انتهز فرصة التذمر من القانون الجديد وبادر فى أوائل هذا العام بتقديم استقالته فقبلت، وبعد المداولات قر الرأى على تعيين الشيخ سليم البشرى شيخاً للأزهر ؛ وكان الأمر محل بحث بين النظار وجورست . وانتهى بموافقته وصدور الأمر بالتعيين فى ١٣ منه .

وفى ١٧ منه حضر الشيخ الجديد للسراى بين جمهور من العلماء فخلع عليه الخديو (الكرك) ولم يكن ذلك متبعاً من قبل .

تولية السلطان محمد رشاد وسفر الخديو للاستانة وأوربا . وردت التلغرافات بتولية السلطان محمد رشاد خلفاً للسلطان عبد الحميد الذى أرسل إلى سلانيك للاقامة فيها ، وفى يوم ١٤ أبريل احتفلت البلاد بهذه التولية ، وفى ٣٠ مايو سافر الخديو إلى الاستانة لتهنئة الخليفة الجديد فوصلها يوم أول يونيو ، ومن هناك أرسل سموه إلى

بطرس باشا القائمقام برقية يصف فيها حسن استقباله عند وصوله وحفاوة السلطان ورجال المابين به ، وكذلك رجال حزبى الاتحاد والترقى . ويأمر بموافاته بالأخبار تباعا وكذلك أرسل محمود شكرى باشا الى رسالة مطولة يصف الاستقبال ومما جاء فيها : « وكانت المدرعات العثمانية الراسية أمام السراى السلطانية تؤدى التحية العسكرية للحضرة الخديوية وموسيقاها تعزف بالسلام الخديوى وهذا لم يحصل قبل الآن . » وجاء فيها أيضاً : « وصدرت الارادة الشاهانية مؤذنة للخديو المعظم بزيارة الخزينة الجليلة التى تحوى الآثارالنبوية بسراى طوب قبو . »



السلطان محمد رشاد

وقد نشرت هذه الرسالة بالوقائع المصرية ونقلتها عنها بعض الصحف فكان لها وقع كبير لدى الأهالى الذين كانوا يظنون تغير نفس السلطان على الخديو نظراً لسياسة الوفاق مع الانجليز فى العهد الأخير .

وعاد الخديو من رحلته فى ١٧ سبتمبر بعد تجواله فى أوربا .

اشترالى لإدارة الأوقاف الخديوية . فى ٢٠ يونيو قام أحمد خيرى باشا مدير الأوقاف الخديوية بالأجازة وكلفنى بناء على الأمر السابق صدوره إليه من الخديو بقيامى بعمله حتى يعود من الأجازة فقمت بالعمل . وفى أول يوليو كان الاحتفال بامتحان مدرسة خليل أغا وافتتحت الحفلة بتلاوة القرآن ، ثم قام بعض الطلبة بتمثيل رواية أدبية وبعدئذ ألقيت الخطبة التالية : « أيها السادة . إنى سعيد لاشتراكى معكم فى هذا الاحتفال الذى يذكرنا بمؤسس هذا المعهد الفخم وهو المرحوم خليل أغا . أتعلمون من هو ؟ كان إذا ذكر اسم خليل أغا أيام سطوته وضع الناس أصابعهم فى آذانهم رغبة

عنه ! واليوم كلنا آذان مصغية لذكرى هذا المحسن العظيم؛ ولم ذلك؟ الجواب في قوله تعالى: « إن الحسنات يذهبن السيئات » حكمة بالغة وعبرة كبرى. فاذا ذكرنا اليوم خليل أغا ذكرنا أعمال البر والاحسان ولا سيما المعاهد العلمية التي هي الأساس الوحيد لرقى الأمة ثم قلنا بعد ذلك إن العبد الرقيق الخصى لهو خير من كثير من أغنيائنا — أسيادنا البخلاء — لأن خير الناس أنفعهم للناس.

« فمن لنا بأمثال خليل أغا وأمثال بطل الرواية التي سمعناها وهو زهدى بك لنهوض المصريين وتقدمهم ؟

« اللهم أكثر من الرجال النافعين لأمتنا فان ذلك ليس عليك بعزيز.

« وإني في الختام أشكر جميع الذين شرفوا الاحتفال وأثني على همة حضرة ناظر المدرسة وأساتذتها الكرام . »

وقد علقت إحدى الجرائد على هذه الخطبة بقولها : « ياحبذا لو أن أمثال خليل أغا من الذين أثروا من وجوه غير شرعية أن يكفروا عن سيئاتهم بعمل الخيرات ! »

حضور عزت العابد باشا الى مصر. حضر لمصر عزت العابد باشا ونزل ضيفاً على الشيخ علي يوسف وقد توجه مساء ١٦ يوليو لمقابلة الخديو بالقبة ومكث معه مدة ثم انصرف يثني عليه.

مرض السيد البكري . بمناسبة مقالة كتبها السيد محمد توفيق البكري في جريدة اللواء في السنة الماضية واطلع عليها الخديو غضب سموه عليه لأنها لم تكن تتناسب مع مركزه الديني، وبلغ السيد ذلك فأرسل إليّ رسالتين كلتاهما استرضاء واستعطاف للخديو . وقد بدأ البكري يعاني آلام مرض عصبي شديد، واستمر في شدته وتفاقمه وأصبح في حالة صعبة.

وفي ١٦ أغسطس وصلتني رسالة من الشيخ علي يوسف يقول فيها إن حالة السيد البكري سيئة جداً وإنه في مرضه يخيل إليه أنه مضطهد من الخديو والحكومة والعالم كله حتى أقاربه وأهل بيته، فهو في حالة تشبه الجنون، وإنه يريد من الشيخ علي يوسف المساعدة في أمرين :

الأول أن أعاون السيد في عمل سلفة ليتمكن من السفر إلى الخارج، وربما احتاج الأمر لادخاله في مصحة « سنا توريوم ».

والثانى أن أحضر للقاهرة ، وأقابل السيد (*) وأطمئنه برضاء الخديو عنه .

ولما أطلعت بطرس باشا على خطاب الشيخ على يوسف أخبرنى أنه أرسل إليه جملة رسائل فيها تفصيل عن حالة السيد البكرى تؤكد جنونه . ثم أطلعنى على برقيات وتقارير من السيد نفسه يطلب فيها حمايته من المضطهدين له . وأنه ، أى بطرس باشا ، أرسل إليه برقية يؤكد له فيها أن الحكومة ستتخذ الاجراءات اللازمة لمساعدته فى كل ما يطلبه وأرسل له النائب العمومى ليطمئنه .

وبعد التفاهم مع بطرس باشا اتفق الرأى على أن يأمر مدير الأوقاف بمساعدته فى عمل سلفة على أوقاف البكرى الخيرية بخمسمائة جنيه ، ليتيسر له الذهاب للخارج مستشفيا ، وأن أتوجه إليه وأطمئنه من قبل الجناب العالى .

وقد زرته فوجدته فى حالة يرثى لها من التطورات المؤلمة ، وبذلت كل جهد لطمأنته ونبهت كل موظفى دائرة أوقاف البكرى لرعايته ، وأبلغته رضاء الخديو عنه وعمله على معونته ، وخرجت من عنده بعد أن قمت بكل ما أمكننى لراحته .

وبعد ذلك تمت مسألة السلفة وسافر البكرى للاستشفاء فى العصفورية فى لبنان .

مهام سياسية لمحمود شكرى باشا فى الاستانة . أسلفت أن محمود شكرى باشا سافر للاستانة بناء على الاتفاق بين جورست وبطرس باشا والخديو ، للمفاوضة فى مسألة القاضى التركى واختصاصه ، بعد أن تشبث بأن تكون له الولاية الشرعية العامة ورفضت الحقانية ذلك . وقد استقال القاضى بعدئذ وأصبحت مهمة محمود شكرى باشا أن يسوى مسألة تعيين القاضى الجديد . وقد انتهت بأن يعين الخديو خلفاً له يختاره الباب العالى ، ثم جدت مسألة جديدة هى حاجة مصر لقرض تعقده تفريجاً للأزمة التى كانت تأخذ بخناقها ؛ فكلف محمود شكرى باشا بأن يتفاوض مع الباب العالى فيها على أن يتمها ثم يعود بمعية دولة الوالدة .

وقد حضر مع دولتها يوم ١٩ اكتوبر ؛ وعلى أثر وصوله عقد مجلس بحضور الخديو ومحمود شكرى للمباحثة فى نتيجة مهمته ، وإن كانت الحكومة قد عدلت عن القرض أخيراً .

وفى هذه الأثناء وردت برقية من الصدارة تقرر أن الدولة العلية توافق على عمل

(*) وقد ذكرته قبل وفاته بدسائسه ضد المفتى تنفيذاً لأغراض الخديو مما هو مذكور فى مذكراتى فقال : « إننى أعترف بخطئى الناتج من نزعة الشباب وعدم الخبرة . »

قرض لتنمية ثروة البلاد على أن تبين الأوجه التى سيصرف فيها القرض .

فأرسلت هذه البرقية إلى دار الوكالة البريطانية لترى رأيها ، وبعد قليل ورد منها رد مكتوب باللغة الفرنسية ليرسل للاستانة على لسان الخديو ، فسلمه لى سموه لترجمته فكان نصه ما يأتى :

« ردا على كتاب فخامتكم أتشرف بأن أخبركم أن قرار مجلس الوكلاء فى الاستانة قد أنابنى فى عقد قرض . ولكن حكومتى لا تنوى الآن أن تعقد قرضاً فلا يعوزها تصريح بهذا الصدد ، على أن منع مصر من الاقتراض دون إذن سابق من حكومة السلطان هو عقبة مستمرة فى سبيل تنمية موارد البلاد بأحسن الوسائل الاقتصادية ، ومن شأنه أن يؤخر تقدمها المادى الذى لا نشك أنه يهم جلالة السلطان ويهم فخامتكم أيضاً . لذلك أبدى أشد الرغبة فى أن يرد لى ما كان لسلفى من الحق الكامل فى عمل القرض . »

ولكنا لاحظنا أن الرد لا يتفق مع القرار ؛ لأن تركيا لم تمنع أن تقترض مصر بل اشترطت فقط أن تخبرها بمصارف القرض . ولهذا تقرر أن يكون الرد بناء على اقتراح بطرس باشا « بأن الحكومة تشكر الدولة على مساعدتها لعقد القرض ، ولكن الحكومة ليس فى نيتها الآن عمله ، والذى يهمها فقط أن يرد إليها ما كان لها فى مدة الخديو السابق من الحق فى عقد القروض عند الحاجة بدون استئذان » .

ثم دارت المخابرة بين جورست وحسين رشدى باشا فى ذلك فوافق على الرد الأخير .

مسألة امتياز قناة السويس . لما شعرت شركة قنال السويس بحاجة الحكومة إلى المال انتهزت هذه الفرصة وعرضت على الحكومة أن تصرح لها بمد امتياز القناة أربعين سنة جديدة مقابل أربعة ملايين من الجنيهات ؛ وكان المستشار المالى يميل للأخذ بهذه الفكرة وكذلك السير جورست وبطرس باشا ، إلا أن الرأى العام كان ضدها ، وكذلك بعض النظار كسعد باشا ورشدى باشا ومحمد سعيد باشا . وكتبت الصحف بهذه المناسبة كتابات شديدة . وتماطرت البرقيات والاحتجاجات على السراى من الأعيان والأحزاب والهيئات المختلفة . ووردت لنا برقيات من محمود سليمان باشا وعلى شعراوى باشا واحمد يحى باشا يطلبون فيها طرح المشروع على الجمعية العمومية ، وكذلك جاءنا مثل هذا الطلب من حزب الاصلاح ، وأرسلت الاحتجاجات لناظر

الخارجية الانجليزية ولرئيس النظار بطرس باشا . وقد كلفني سمو الخديو أن أسلم لبطرس باشا هذه البرقيات ، وأن أفهمه أن سموه يخشى أن تكون هذه الحركة ضده شخصياً فيلزمه أن يحترس منها ، وأن سموه لا يرى مانعاً بعد هذه الحركة القوية أن يعرض المشروع على الجمعية العمومية حتى تخف مسئولية النظارة . وقد قابلت قبلهما محمد سعيد باشا وفهم مهمتي ، فألح عليّ في القيام بها خير قيام ، وإقناع بطرس باشا إقناعاً تاماً . ولما قابلته أبلغته رأى الخديو وزدت عليه : « إننا نجتهد الآن ياباشا في إزالة ما علق بالنفوس من حادثة دنشواى بدلا من أن نضيف إليها أمراً جديداً تقع مسئوليته عليك . » فقال لى : « حينئذ يلزم أن يتفاهم أفندينا مع جورست . » قلت له : « وأنتم أيضاً . » فوعد بذلك ، وظهر لى أنه اقتنع بطرح المسألة على الجمعية العمومية .

وفى ٣٠ أكتوبر تقابلت مع محمد سعيد باشا فصرحت له بأن عمل محمود سليمان باشا ومن معه قد سرني وشرح صدرى ، لأنه يساعدكم على الوصول للغاية التى تطلبونها فأجابنى بما فهمت منه أن له يداً فى تحريك المطالبين بتقديم المشروع للجمعية العمومية . وربما كان الواسطة هو احمد يحي باشا .

واجتمعت بعدها بأباظه باشا فأخبرنى أنه تقابل مع بطرس باشا وأقنعه بفكرة عرض المشروع على الجمعية العمومية أو مجلس الشورى فان أمكن إقناع جورست بذلك كان بها وإلا فيلوح رئيس النظار بالاستقالة .

وقد حدّثت أباظه باشا برأى الخديو ورغبته فى أخذ رأى الأمة . فقال لى : « يظهر أن بطرس باشا مقتنع الآن تماماً . ولهذا ذهب إلى جورست ليتفاهم معه . »

وتوجهت للمنتزه يوم ٣١ أكتوبر فعرضت على الخديو كل ما سمعت من الأحاديث ؛ وبينما كنت معه حضر محمد سعيد باشا وأخبرنا أن الرئيس تقابل مع جورست وأقنعه بضرورة استشارة الجمعية العمومية فقبل . وبالفعل حضر جورست فى صباح اليوم التالى وقابل سموه فى سراى رأس التين وتحادثا طويلا فى الموضوع واتفقا على عرض المشروع على الجمعية على شرط أن يدافع سعد زغلول عنه ويكون رأى الجمعية قاطعاً . وقال جورست إنه إذا لم توافق الجمعية فسيكتب لحكومته لتصرف نظرها عن المشروع . وقد اطمأنت الأفكار وهدأت النفوس عندما أذيع قرار الحكومة بصفة رسمية .

أما موعد انعقاد الجمعية العمومية فقد أجل أسبوعاً حتى يتلق جورست رأى حكومته فى الموقف .

وفى أول نوفمبر وردت برقية للجناب العالى من الصدارة بأنه : « بلغ الباب العالى حدوث مخابرات فى شأن امتياز قناة السويس ، وأن ذلك يدعو لأخذ رأى الباب العالى فى هذه المسألة حيث لايمكن تعديل شىء فى فرمان الامتياز إلا بارادة شاهانية وفرمان آخر . » وقد أبلغ الخديو الأمر لجورست ثم تقابل معه بطرس باشا واتفقا على الرد بكيفية مختصرة مضمونها : « إنه صحيح حدوث مخابرات بين الحكومة الانجليزية وشركة قناة السويس فى الموضوع . »

وقد عرض المشروع على الجمعية العمومية ، ودافع عنه سعد باشا طبقاً لما تقرر ، ورفضته الجمعية بأغلبية كبيرة كما سيجىء مفصلا .

وسيرى القارىء فى السنة التالية أداء عباس لفريضة الحج التى بدأت فى شهر ديسمبر سنة ١٩٠٩ وانتهت فى يناير سنة ١٩١٠ .

سنة ١٩١٠

عباس يؤدى فريضة الحج . مسألة امتياز قناة السويس فى الجمعية العمومية . مقتل بطرس غالى باشا . الرئيس روزفلت رئيس جمهورية أمريكا بمصر . تعيينى مديراً لديوان الأوقاف العمومية وبعض أعمالى فيه . وفاة ملك الانجليز . سفرى للاسكندرية لقضاء فصل الصيف كالنظار . اختيارى لرآسة لجنة امتحان مدرسة المعلمين الناصرية . قضية ديوان « وطنيتى » . الخطوة الثالثة لاصلاح الأزهر .

عباس يؤدى فريضة الحج . عزم الخديو على أداء فريضة الحج منذ العام الماضى مع دولة الوالدة فأبلغنا الاستانة بذلك لتقوم باتخاذ ما يلزم لراحة سموه أثناء السفر وأداء الفريضة . وتقرر أن يكون بطرس غالى باشا « قائمقام خديو » مدة غيابه ، وقد كتبت صيغة الأمر الخديوى بهذا التعيين فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٠٩ بحضور اسماعيل أباظه باشا والشيخ على يوسف ، ولوحظ أنه يحتوى على نقطتين هامتين : الأولى الثناء على الحكومة العثمانية وعلى السلطان بقصد إرضائهما بعدما كان من موقف الحكومة المصرية فى مسألتى القاضى والقرض ، والتنويه بذكر الخلافة الاسلامية للسلطان . والنقطة الثانية إظهار شعور الخديو نحو الأمة المصرية لتقريب النفوس وجذبها إليه . ومما جاء فى آخر الأمر : « وسنرفع أكف الضراعة إلى مقام العزة الالهية فى تلك البقاع الطاهرة بأن يوفقنا إلى خدمة الأمة العزيزة المصرية التى لا نفارقها إلا وقلبنا معها ، وفكرنا مشتغل بما يؤدى إلى خيرها ومجدها فى الحال والاستقبال ، كما أننا على يقين من أن دعواتها الصالحة تكون ملازمة لنا فى الحل والترحال . »

ثم توجهت لبطرس باشا لأعرض عليه المشروع ولكنى لم أجده فتركته مع

قطة باشا سكرتير مجلس النظار ، ولفت نظره إلى النقطتين السالفتين بنوع خاص ، ثم ذهبت إلى سراى عابدين لوداع الموظفين بأقلام المعية إذ كنا على أهبة السفر .

الوصول إلى مكة : وفى ضحى يوم ٧ ديسمبر سنة ١٩٠٩ تحرك بنا القطار من القبة ، وكان معى اللواء حسين محرم باشا السرياور ، ومحمد عزت باشا ، واحمد خيرى باشا ، واحمد صادق بك وكيل الخاصة ، ومحمود محمد بك من القلم العربى ، والشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر ، والسيد محمد البيلاوى من العلماء ووكيل الكتبخانة الخديوية ، والشيخ محمد عاشور مفتى الأوقاف الخصوصية ، وبعض ضباط الحرس لنعد ما يلزم لاستقبال الخديو فى مكة .

وقد وصلنا إلى السويس الساعة الرابعة مساء فنزلنا بالباخرة « برنس عباس » وقضينا بها الليلة . وفى مساء ٨ منه غادرنا السويس وأحرمنا صباح ١٠ منه عند وصولنا أمام ثغر رابغ وبدأنا بالتلبية . وفى عصر هذا اليوم وصلنا إلى جدة ونزلنا فى منزل السيد عمر ناصف وكيل الشريف فى جدة ، فاستقبلنا نجله أحسن استقبال وبتنا بها . وفى صباح اليوم التالى لحقنا بركب المحمل ، فوصلنا إلى بحرة فى الساعة العاشرة مساء ، وفى الطريق شاهدنا قلاعاً تحتلها العساكر الشاهانية ، وكانت عند اقترابنا تحيينا بالسلام ، وفى بحرة قدم لاستقبالنا فيصل بك وعبد الله بك(*) نجلا الشريف والشريف جميل بك ابن أخي الشريف موفداً منه ومعه ياور الشريف احمد بك ، ولما وصلنا إلى المدخل الضيق الموصل إلى مكة والمعد لتعداد الجمال والحجاج ، دعينا لركوب عربتين . فركبنا ودخلنا المدينة ومررنا بين شوارع قفرة وبيوت عتيقة حتى وصلنا إلى الحرم الشريف . وبعد أن أدينا مراسم الحج قصدنا دار الامارة . فأبلغت الأمير الشريف حسين السلام الخديوى ونحن وقوف . فتشكر ثم جلسنا وشكرته على العناية التى لقيناها فى جدة ، وفى طول الطريق .

وقد علمت أن الشريف أعد داره لنزول الخديو ، وأما الوالدة فقد خصص لها منزل بناجا باشا أمام الحرم ، وكذلك أعدت المساكن لرجال الحاشية وبعضها مطل على الحرم .

وفى ١٤ منه زرنا بعض المقامات والمقابر ، وطفنا ببعض الشوارع الضيقة ، وعلى العموم لم تزق البلدة فى نظرى من حيث نظافتها وأحوالها الاجتماعية .

(*) هما نجلا بعد المرحوم الملك فيصل ، وسمو الامير عبد الله أمير شرق الأردن .

استقبال الخديو : وفى ٢٥ منه ووصل إلينا نبأ وصول الخديو إلى جدة وقيامه منها إلى بحرة ، فذهبت للشريف وأبلغته ذلك ، وبعد المحادثة قررنا إرسال مذكرة لسموه بكيفية الاستقبال التى اتفقنا عليها ونصها :

« ينتظر الشريف فى قهوة البستان مع وكيل الوالى والعساكر الشاهانية وقومندانها وبعض الأشراف ، وتقيم البلدية سرادقاً للاستقبال ، ويقدم أعيان البلدية والأعيان بواسطة الشريف . »

ولما وصل الخديو إلى بحرة كان يرافقه سمو البرنس كمال الدين حسين ، والشيخ بكرى الصدفى المفتى ، والدكتور على لبيب بك الجراح وبعض الياوران والحاشية ، وكان سموه ممتطياً صهوة جواده وسائراً فى الطليعة خلف ثلة من الحرس السوارى ، ويحيط هذا الركب فرقة من الجنود العثمانية ومعهم أنجال الشريف ومندوب حكومة الحجاز ، وجم غفير من الأشراف .

ولما نزلت الوالدة وكريمتاها ركبن عربة « لاندو » تجرها أربعة بغال ، أما البرنسيس فاطمة فاضل خانم افندى والقلفوات فركبن عربة الشريف والهوادج ، وأعدت شقادف لباقى رجال المعية ، وكان حول الموكب سوارى الحرس الخديوى وعساكر الشريف ومن خلفه حرس الدولة .

ثم تناول البرنس كمال الدين حسين ومعه جميع الحاشية وأنجال الشريف طعام الغداء على الطراز الأفرنجى . أما فى العشاء فقد رأس المأدبة الخديو وأبدى شكره لأولاد الشريف على تلك الحفاوة . ثم بارح سموه بحرة ممتطياً جواده ومعه الحاشية قاصداً مكة . وبالقرب من قهوة البستان استقبله أحمد خيرى باشا ، وعطوفة أمين بك القائم بأعمال ولاية الحجاز ، وقومندان العساكر الشاهانية . وكان الشريف حسين أمير مكة منتظراً سموه فى القهوة المذكورة ، وسار برفقة سموه مع بعض الأشراف إلى السرادقات التى أعدتها الحكومة خارج مكة احتفالا بسموه . وكان العلماء والوجهاء والأعيان والتجار فى انتظاره . وعند نزوله عن جواده فى السرادق المخصص له قدم له كبار القوم ومن بينهم أعضاء بلدية مكة ، فأبدى الخديو شكره للجميع .

وبعد تناول القهوة سار إلى مكة محفوفاً من الجانبين بالجنود العثمانية ، حتى وصل إلى قشلاق الحميدية ، وعزفت الموسيقى بالسلام الخديوى . ولم أحضر الاستقبال لمرضى . ودخل سموه مكة من باب جرول حيث كان حرس المحمل واقفاً لأداء السلام .

وسار فى طريق الشبيكة ومر أمام التكية المصرية التى كانت مزينة بالأعلام والمصابيح ، وكذلك دار الامارة ودار البلدية وغيرها ، وكان الطريق مزيناً ، ووصل إلى باب الحرم الشريف فجر يوم الخميس ١٦ ديسمبر . وصلى الصبح مع الامام المالكى ، ثم طاف طواف القدوم وخرج للسعى بين الصفا والمروة ، وكان الشريف قد عرض عليه أن يقوم بالسعى راكباً ، ولكنه أبى وأراد أن يكون كباقى الحجاج . وبعدئذ نزل فى دار الامارة وهناك قال له الشريف : « أنت تقيم فى ملكك ؛ لأن هذه من آثار جدك محمد على باشا . » فشكره ثم انصرف .

وعند طلوع الشمس أطلقت المدافع ترحيباً بمقدم الجناب العالى ثم تبادل الزيارة مع الشريف ، وجاء بعده القائم بأعمال الولاية أمين بك . وبعد الغروب طاف ببيت الله المعظم .

ولما وصلت الوالدة ومن معها بموكبها إلى مكة فى الغروب أطلقت المدافع ، وعزفت الموسيقات واستقبلتها الجموع أحسن استقبال . ونزلت فى دار بناجا باشا . وبعد هزيع من الليل طافت دولتها طواف القدوم ثم سعت فى عربتها مع البرنسيسات .

تشريفات وزيارات : وفى يوم الجمعة ١٧ منه وفد المصريون إلى دار الامارة لكتابة أسمائهم بسجل التشريفات ، ورد الخديو الزيارة إلى القائم بأعمال الولاية . وكانت فرقة من الجنود الشاهانية مصطفة على جانبى الطريق إلى بابها ، ولما وصل الركب عزفت الموسيقى بالسلام الخديوى . فأسرع القائمقام الذى كان ينتظر على بابها مرحباً بمقدم سموه ، وهناك قدم له العلماء والمأمورون الملكيون والعسكريون ، وأعضاء المجلس البلدى ، والأعيان والتجار . ثم زار سموه التكية المصرية وتفقد محالها ومخازنها ومطبخها . وأكل من خبزها ثم عاد إلى دار الامارة وزار الشريف .

ولما آن وقت الظهر قصد الحرم الشريف لصلاة الجمعة ، وأنعم سموه على الخطيب بخلعة سنية . وفى أثناء الصلاة هطلت الأمطار فاستبشرت الأهالى لأنهم كانوا محرومين منها مدة طويلة .

وفى ١٨ منه زار الأماكن المباركة مع حاشيته وزار المحمل المصرى فى جرول ، فاستقبل استقبالا فخما وقدم لسموه أمير الحج جميع ضباط المحمل وموظفيه . ثم زار بعد ذلك مولد النبى صلى الله عليه وسلم ثم مولد سيدنا على كرم الله وجهه ثم عاد للسراى .

وبعد الظهر استقبل كثيراً من الزائرين . وبعد الغروب قصد بيت الله الحرام ،

ووضع المدرج فصعد ووصل هو والحاشية فى محل فوق الكعبة . وقد أوقدت الشموع فيه . وبعدالدعاء المأثور نزلنا وعدنا .

وفى مساء ١٩ منه أولم سموه وليمة للشريف وأنجاله وأمين بك وعلية القوم وكبار المأمورين والقاضى والمفتى وشيخ الحرم ومديره وقومندان العساكر الشاهانية ورجال المعية . وبعد العشاء والاستراحة فى البهو الكبير خطب أمين بك خطبة بليغة رحب فيها بقدوم سموه .

وفى ٢٠ ديسمبر تبادل الزيارة مع دولة الشريف وزاره كثير من الزائرين وفى المساء طاف بالكعبة .

وفى يوم التروية خرج سموه من مكة إلى عرفة راكباً جواداً بملابس الاحرام مع حاشيته وكلهم محرمون . وكان يرافق سموه عبدالله بك نجل الشريف ومعه كثيرون من علية الأشراف . وتقدمت هذا الركب فصيلة من عساكر الحرس الخديوى السوارى تتبعها فرقة من جند البيشة (من عرب الحجاز) على هجنهم وهم يضربون نوبتهم ويوقعون أناشيدهم البدوية وباقى الركب يلبى قائلا: « لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » . وكان هذا الهتاف الروحى الرنان ، بنغماته المؤثرة ، وما يتجلى فيها من آيات الخشوع ، ينفذ الى أعماق القلوب ، ويحدث فى النفس أعمق الآثار . وكان يحيط بالركب جميعه فرقة أخرى من الحرس الخديوى . وقد استراح سموه بسرادق الشريف الخصوصى بمنى وبعد ذلك توجه إلى مسجد الخيف . وصلى الظهر ثم توجه لزيارة والدته بمنزل الشريف هناك ، ورجع إلى السرادق بعد صلاة العصر . وبعد صلاة صبح يوم ٢٢ ديسمبر ركب فى موكبه إلى عرفة فوصلناها الساعة الحادية عشرة صباحاً ونزل سموه فى السرادق الذى أعده الشريف له . وأما الحاشية فنزلت فى سرادقات أخرى . وبعد صلاة العصر بنحو ساعة ركب الخديو جواده ، وسار والى يساره دولة الشريف ومن خلفهما البرنس كمال الدين ووكيل الولاية وجم غفير من كبار الأشراف ورجال الدولة وحاشية سموه ، حتى وقفنا حذاء جبل الرحمة على مرتفع ، وقد اجتمعت هناك ألوف الحجاج ، والكل فى خشوع يلبون ويسألون الله ما يريدون . وهنا يعجز القلم عن تصوير هذا المنظر الرائع الذى تمتزج فيه آلاف الأنفس والأرواح فى صعيد واحد . وتتجه كلها إلى وجهة واحدة ، هى مقام العلى الأعلى . وما زلنا وقوفاً هناك حتى أفاض الناس فأفضنا معهم .

وكانت إفاضة الجناب العالى من عرفات من الفخامة بما لم يشهد له مثيل . وما كاد يتحرك المحملان حتى سار سموه وإلى جانبه الشريف ثم من فى معيتهما من الأمراء والعظماء فى ركب فخم رهيب ، حتى وصلنا إلى المزدلفة ونحن فى غاية ما يكون من الراحة وسارت صاحبة الدولة الوالدة والبرنسيسات فى موكب فخم آخر .

استعراض حرس المحمل : ولما وصلنا جميعاً الى المزدلفة نزلنا فى الأمكنة التى أعدت لنا وقضينا فيها ليـلة النحر ، وبارحنا فجر يوم الخميس ١٠ ذى الحجة الموافق ٢٣ ديسمبر الى منى ورمينا جمرة العقبة وتحللنا من الاحرام ، ثم صلينا صلاة العيد ونحرت الضحايا الكثيرة بحضور الخديو ، ونزلنا مكة وطفنا طواف الافاضة ، ثم تغدى سموه فى دار الأمارة وعدنا الى منى بعد صلاة العصر .

وفى يوم الجمعة ١١ ذى الحجة والموافق ٢٤ ديسمبر احتفل بقراءة فرمان الشريف وذلك فى السرادق المعد للجناب الخديوى ، فجلس سموه فى الوسط وعن يساره الشريف ثم أمين بك ثم أنجال الشريف وعلية الأشراف ، وعلى يمين سموه البرنس كمال الدين حسين فأنا ثم عزت باشا وخيرى باشا ثم موظفو المعية . وبعدئذ حضر الوفد الحامل للفرمان والخلعة السنية فقام مكتوبجى الولاية وقرأ الفرمان بالتركية ثم قام كاتب يد الشريف وتلا ترجمته بالعربية . وعقب ذلك فك غلاف الخلعة وألبسها أحد المهمندارين للشريف ثم أمر الجناب العالى بتوزيع الشربات على الجميع ، وبعد شرب القهوة انصرف الشريف مودعاً من الخديو بكل تجلة واحترام .

وبعد ذلك استعرض حرس المحملين الشامى والمصرى ، وقد لمح سموه عساكر على بن دينار سلطان دارفور مع رئيسهم وقد أتوا بمحملهم وراء الصفوف ، فاستدعى سموه رئيسهم . وبعد أن لاطفه وحياه أمره بأن يسير بجنده فى هذا الاستعراض فلبى الدعوة . وبعد نهاية الاستعراض استقبل الخديو المهنئين له بالعيد فى سرادقه ، ثم رد الزيارة للشريف . وبعـد تبادل التهانى ركبنا والشريف معنا إلى رمى الجمرات وعدنا إلى مقرنا . وفى المساء أعدت وليمة عشاء للشريف وعظماء قومه .

وفى أثناء الطعام كانت الموسيقى تعزف وسهام الألعاب النارية تشق كبد الفضاء وقضينا يوم ٢٥ ديسمبر بمنى .

وفى ٢٦ منه بعد صلاة العصر نزلنا إلى مكة وبتنا بها . وفى ٢٧ منه وزعت الصدقات والهدايا من الخديو والوالدة وقامت الحاشية عند الظهر إلى بحرة ، وبعد صلاة

العشاء طاف الخديو وبعض رجال المعية طواف الوداع .

ومما أذكره أن الحجاج المدنيين عند دخولهم مكة كانوا ينشدون بنغمة طلية النشيد الآتى :

يا سلام اكتب سلام	بين زمزم والمقام
فاطمه ست النسا	وعلى سيد الاكرام
ومحمد بن عبد الله	يا قارىء كتاب الله
اقرأ الحمد باسم الله	أيا داخل الجنة
خبرنى بما فيها	فيها الروح والريحان
دار الله لا حسد فيها	ومحمد وعلى فيها
فيها القبة الخضرا	فيها طير من جوهر
بيغرغد بين حواليها	سيدى الحاج يا شربيت
أما بشاره والا عليت	والا عروسه ما جينا
فك الكيس واعطينا	سيدى الحاج يا عكه
ربى يوصلك مكه	من مكه للمدينه
من المدينه لبلادك	من بلادك لأولادك
زمزمى والطائرى	شيخى عبد القادر
والنبى من عادته	فرشوا سجادته
يا صلاة الله عليه	كلكم صلوا عليه

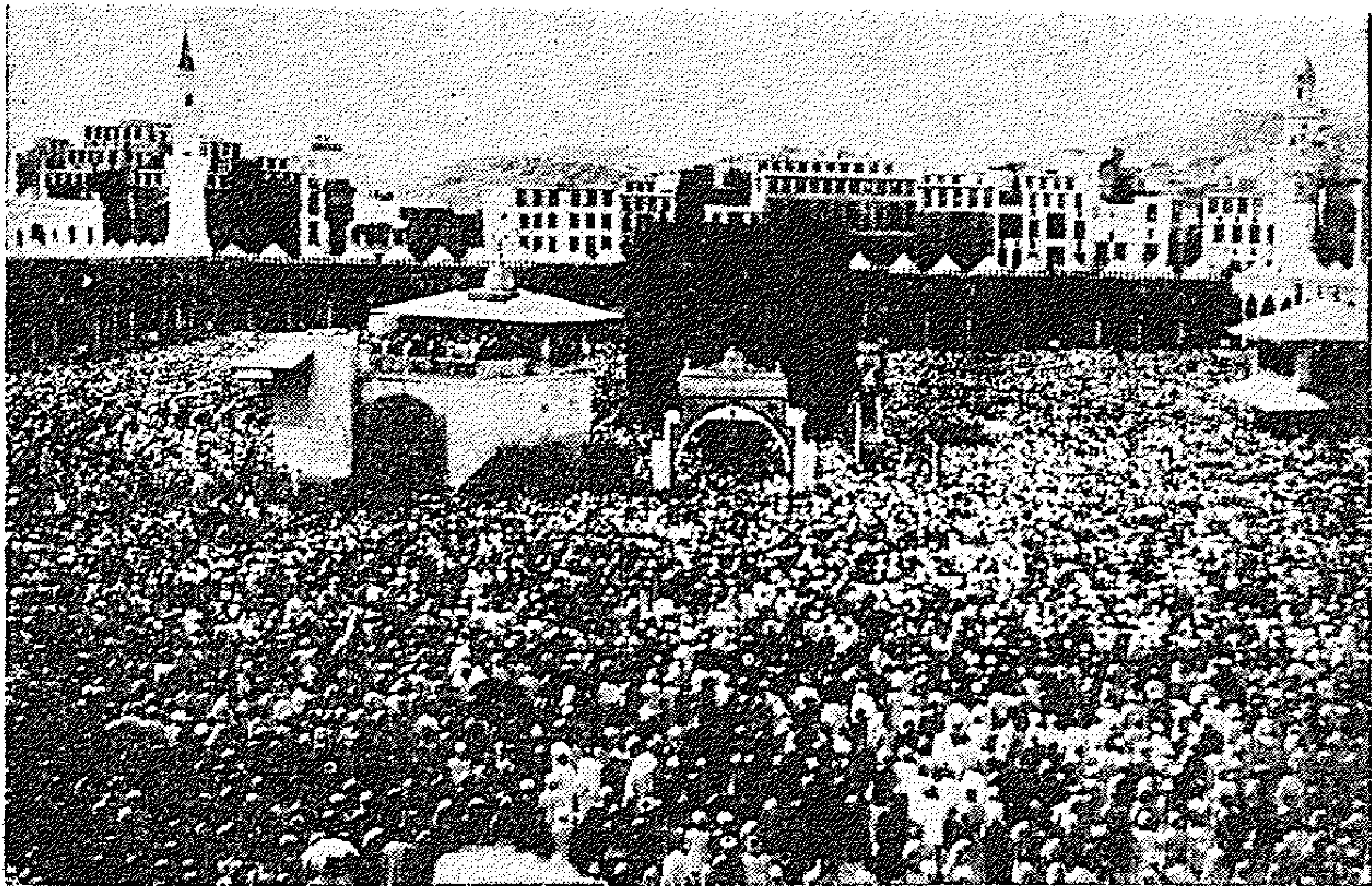
ثم يصيحون : يا حى .

وعند طواف البدو حول الكعبة كانوا يهرولون صارخين : « اغفر اغفر إن لم تغفر من يغفر ؟ » وكذلك أذكر أنه عند تجوالى فى حوارى مكة وجدت أسواقاً لمبيع الجوارى والعبيد بدون مراقبة ، وأيضاً تعرفت بأستاذ يابانى مسلم فى جامعة طوكيو وعلمت منه أنه أسلم منذ سنوات بعد أن قرأ القرآن مترجماً إلى الانجليزية فانجذب إليه وكان يتكلم العربية بصعوبة .

وبعد أن خرجنا من باب مكة وجدنا الشريف وأنجاله وعظماء القوم فى الانتظار لوداعنا . وصحبنا الشريف ناصر ، الذى كان تعين مهمندارآ للخديو من قبل الشرافة العظمى مدة وجود سموه بالحجاز ، وقد أعدت الحمير الحصاوى لركوب الخديو ومن

معه من الحاشية . وكان منظر الصحراء فى غاية البهجة لاكتمال القمر ، والسرور شامل . وكانت حوافر الحمير تغوص فى الرمال وتكبو ويقع بعض راكبيها فيضحك الباقون عليه ، ومع مزيد حرصى فقد وقعت . ولم تمض برهة حتى وقع الخديو أيضاً ولكن من يقع لم يكن يصاب بسوء . واستمرت هـــذه التسلية حتى وصلنا بحرة فى منتصف ليلة ٢٧ ديسمبر واسترحنا قليلا . ثم ركبنا إلى جدة فوصلناها يوم ٢٨ منه . وقد استقبلنا فيها قائمقامها وقومندان عساكرها مع كثير من الأعيان وسرنا جميعاً حتى محل الكورنتينة وركبنا زورقاً بخارياً إلى المحروسة ، وكانت الوالدة قد سبقتنا إليها مع حاشيتها . أما باقى رجال الحرس والمعية فقد نزلوا بالباخرة الرحمانية التى كانت فى انتظارهم .

ثم استقبل الخديو فى اليخت أنجال الشريف وقائمقام جدة وقومندان عساكرها ثم قناصل الدول وكانوا قد حضروا بصفة رسمية لتوديع سموه فشكرهم على رقتهم وأرسل برقيات الامتنان والشكر إلى جلالة السلطان ومقام الصدارة العظمى ودولة الشريف وحكومة الحجاز .



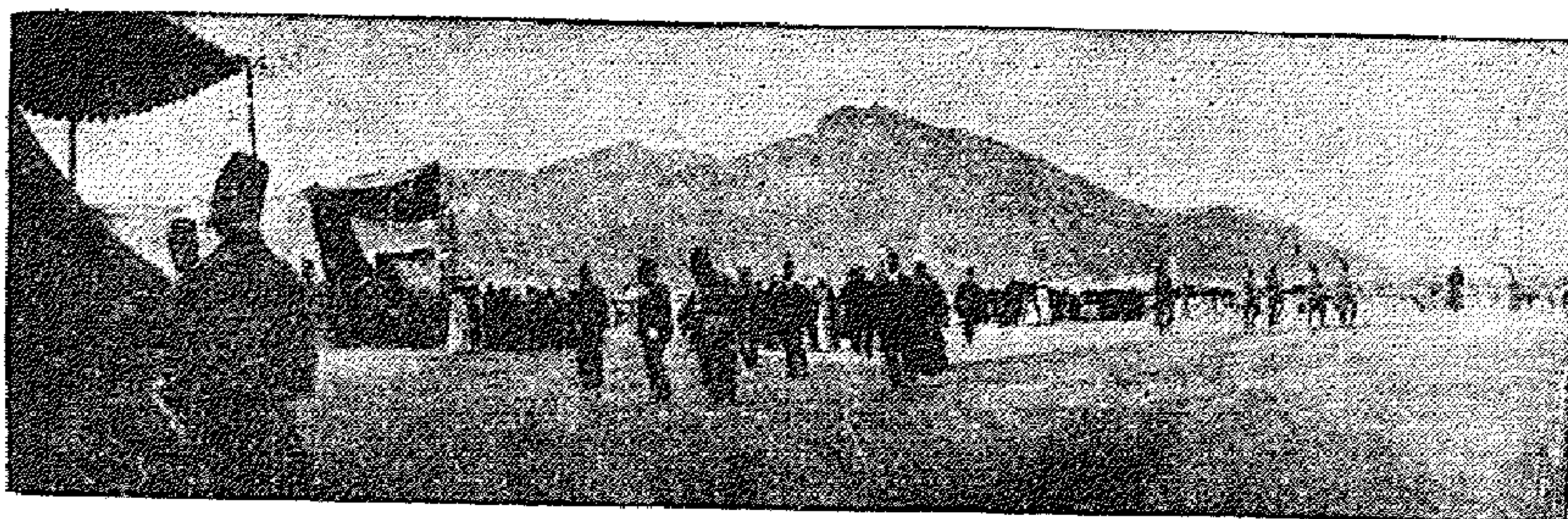
الكعبة



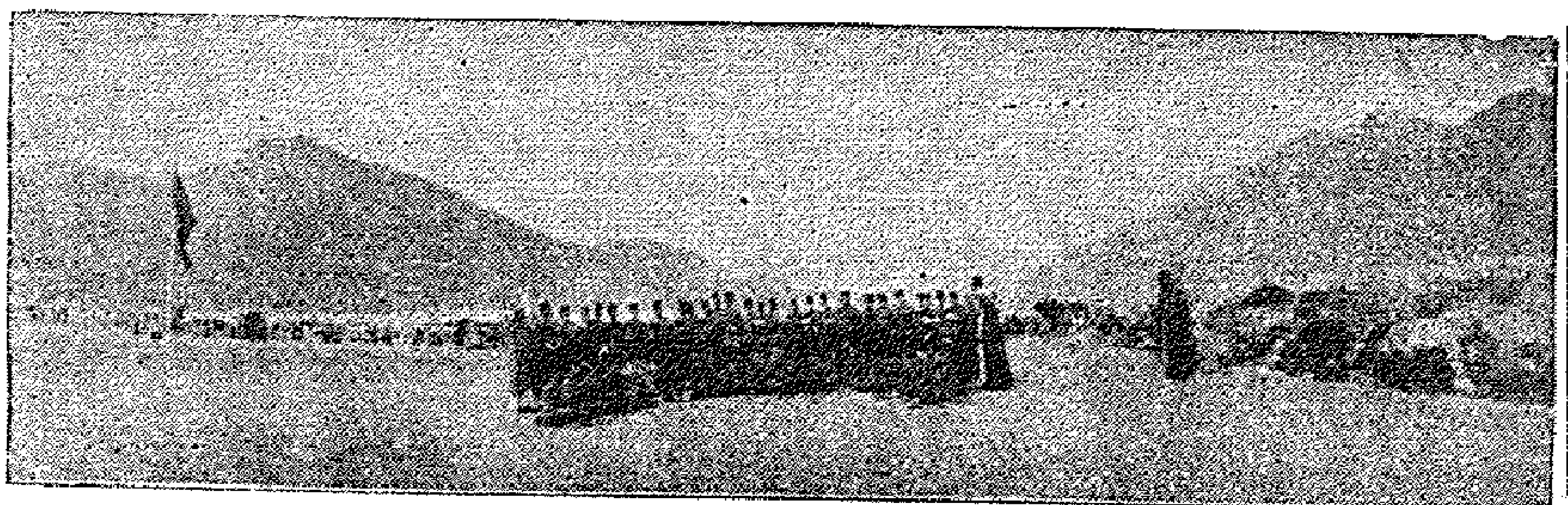
ميناء جدة



المحمل الشريف



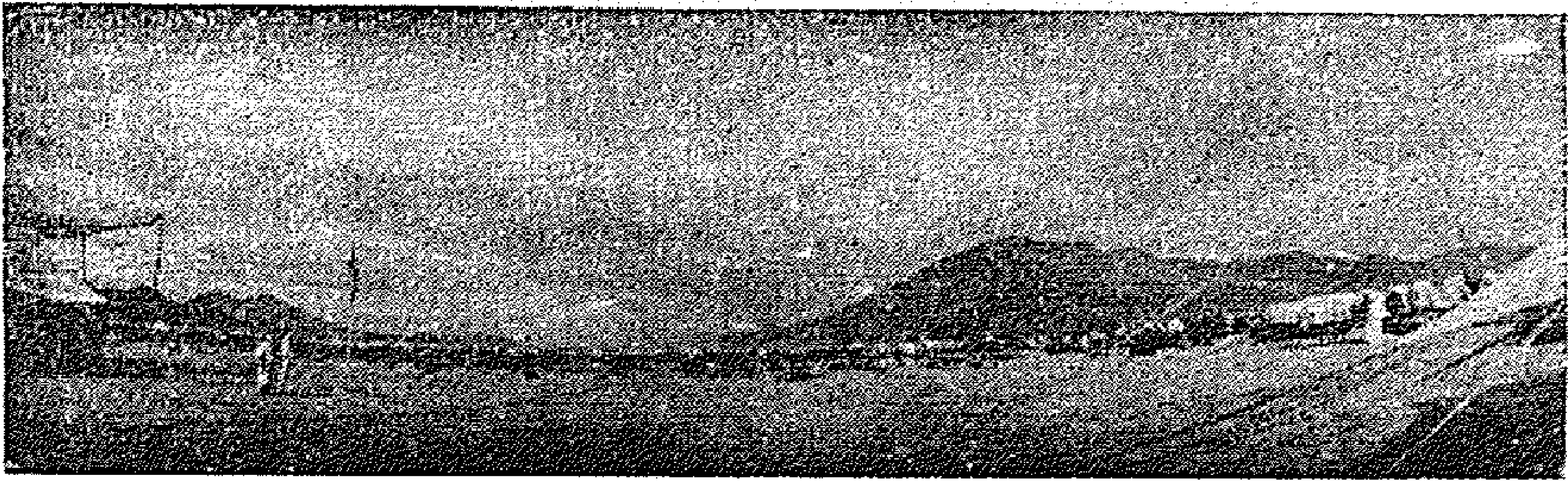
بحرة



منى



منظر عمومى لمنى والحجاج مخيمون فيه



الحجاج على جبل الرحمة بعرفات

وقامت المحروسة من جدة إلى الوجه فوصلناها ظهر يوم ٢٩ منه .

وفى ٣١ منه نزلنا إلى البر سالمين فاستقبلنا قائمقام الوجه وسليمان باشا أبو رفادة شيخ قبائل بلى والمتعهد بحملة الركاب العالى ، فركب الخديو مع بعض رجال المعية الهجن فى ركب حافل من عربان هذه الجهة ، أما باقى الحاشية فكانوا فى شقادف فوصلنا فى اليوم الأول من يناير سنة ١٩١٠ مكاناً به نبع ماء فاسترحنا وأمضينا اليوم هناك فى الخيام المعدة لنا . وفى اليوم الثانى ركبنا حتى وصلنا إلى منبع ماء آخر فاسترحنا فيه أيضاً وأمضينا الليلة . وفى اليوم الثالث وصلنا إلى مسيل النجد . وقد وجدنا هناك أورطة من الجيش العثمانى ، كانت أتت لحراسة الخديو من قبل الدولة وسارت معنا حتى وصلنا خشم يلع . وفى يوم ٤ منه ركبنا بعد صلاة الصبح إلى شرفة النجد فى أرض صخرية وعرة المسالك ، يصعب السير فيها على الخيل والبغال والحمير والجمال ، حتى إن أحد سوارى الترك كان يسرع فيها بجواده فانقلب به وارتطم رأسه بحجر فانكسر وغاب شعوره . وقد مررنا على رأس الحرة وهى قمة عالية سوداء تشرف على واد ضيق فرشت أرضه بحجارة صوانية حمراء وصفراء ، وما زلنا سائرين فى أراض جبلية وعرة حتى وصلنا النجوة .

وفى ٦ يناير وصلنا إلى محطة البدائع الساعة العاشرة صباحاً فاستقبل سموه عدة من الرجال الرسميين والأشراف والمشايخ فشكرهم وتوجه معهم إلى صيوانه الخاص واصطفت فى الطريق فرقة من الجنود البيادة العثمانيين ، وقد أمر الخديو بتوزيع الكساوى على من كان فى خدمة الركاب الخديوى من الضوية والسقايين والعكامة والفراشين والخيمية ، وقد أمر الخديو بسفر الحرس السوارى الخديوى وبعض بلوكات البيادة إلى محطة العلا لانتظار عودة سموه بها ، كما أمر بتجهيز قطار خاص يقوم مساء ذلك اليوم إلى المدينة المنورة بجانب من الحرس والخدمة وبعض رجال المعية ومعهم الخيام والصواوين اللازمة .

أما قطار الجناب العالى ودولة الوالدة فقد تحرك من البدائع صباح ٧ يناير ، وعندما وصل إلى محطة هدية بلغه أن السيول قطعت الطريق فرجع القطار الأول إلى محطة هدية المذكورة وانتظر بها .

وكان يوم ٨ يناير هو يوم عيد الجلوس ، ولكن الجناب العالى لم يرغب فى عمل احتفال فى هذا اليوم ؛ وتقدم لبيب بك البتانونى ، بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عنا جميعاً بالتهنئة لسموه .

وفى ٩ يناير وصل الخبر باصلاح الطريق ، فأمر سموه بقيام القطار الأول وكذلك القطار الخديوى حتى محطة الحفيرة حيث بات القطار الأول بها ، وأما القطار الخاص فبات بمحطة البوير التى قبل المحطة السالفة .

وفى ١٠ منه قمنا فوصلنا المدينة فى الساعة السادسة مساء تماماً ، فاستقبل سموه على رضا باشا محافظ المدينة وأبلغه سلام الدولة العلية وتهانى الحكومة المحلية ، والشريف شحات وكيل شريف مكة وقومندان عموم القوة العسكرية الموجودة بها وكثيرون غيرهم ، وأطلقت المدافع إيذاناً بالوصول . ثم نزل سموه فقدم له المحافظ المستقبلين الذين حضروا واحداً واحداً فشكرهم ، وسار ومن خلفه المحافظ والبرنس كمال الدين ورجال المعية يتلوهم شيخ الحرم وأعيان المدينة المنورة ، بين صفوف العساكر التى كانت تؤدى التعظيم وموسيقاها تعزف السلام الخديوى . فدخلنا من باب العنبرية حتى وصلنا إلى الصيوان الخصوصى الخديوى ، وهناك استقبلهم سموه بكرمه وإيناسه وشكرهم شكراً جزيلا . وبعد الاستراحة زار مع البرنس والحاشية الحرم الشريف وأدى صلاة المغرب وقام بواجب الخدمة بالمقصورة الشريفة وكان الخشوع متملكا القلوب .

وزار الوالدة فى منزل شيخ الحرم الذى خصص لاقامتها ثم عاد إلى سرادقه .
وكان عباس مدة وجوده بالمدينة يكثر من صلاته فى الحرم ويؤدى الخدمة بايقاد القناديل فى الحجرة الشريفة مساء وإطفائها صباحاً مرتدياً فروجية بيضاء ويشد عليها حزاماً ويلف رأسه بعمامة على نظام خدمة الحجرة ثم يدخل من باب البتول .

وفى ١١ يناير بعد صلاة الفجر فى الحرم قصدنا البقيع وهو مقبرة المدينة وزرنا بها قبة سيدنا عثمان بن عفان وسيدنا الامام مالك وسيدنا ابراهيم ثم زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم وسيدنا العباس وغيرهم . وبعد الظهر زرنا التكية المصرية وقصد سموه دار الحكومة العثمانية لرد الزيارة لمحافظها .

وفى ١٢ منه وبعد صلاة الفجر وأداء الخدمة ، قصد سموه مسجد قباء ثم عاد قبل الظهر إلى المسجد الشريف فصلى الظهر ورجع إلى صيوانه وأمضى اليوم فى استقبال الأعيان .

وفى١٣ منه أدى الخدمة وقصد زيارة سيدنا حمزة . وفى اليوم التالى — بعد أداء الخدمة وصلاة الصبح — رجع إلى المعسكر المصرى لاستقبال الزائرين ثم قصد الحرم وصلى الجمعة .

وبعد أداء الصلاة خطب السيد محمد الببلاوى الخطبة الآتية قبالة المقصورة الشريفة أمام الخديو والحاشية : « الحمد لله الذى ألف بين قلوب عباده المؤمنين ، ورفع درجات من أحسن فى عمله ، وأخلص لله فى سره وجهره وأشهد أن لا إله إلا الله ، شهادة عبد معترف بربوبيته ، مقر بوحدانيته ، راج رحمته ، خائف من عذابه ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هادى الخلق الى الحق ، ومرشدهم الى طريق السعادة ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، الذين ألف الله بين قلوبهم بالاسلام ، فتعاونوا على البر والتقوى ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب؛ قال الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً. »

« عباد الله ، إن سعادة الأمم ، وارتقاءها وتقدمها ، وبلوغها غاية الشرف ، ونهاية المجد ، إنما يكون بائتلاف أفرادها ، وتضامنهم فى جلب المنافع ، ودفع المضار ، وتطهير قلوبهم من دنس الحسد ، ودرن الأحقاد ، حتى يكونوا — وإن تباينت مساكنهم ، وتباعدت أماكنهم — كجسم واحد إن ألم منه عضو ألم لأجله سائر الأعضاء ، إذ ذاك يكون المسلمون

آباء رحماء ، وأبناء بررة ، يشملهم الله برحمته ، ويعمهم باحسانه ؛ لهذا آخى بعد الهجرة رسول الله صلى الله عليـــه وسلم بين أصحابه ، فجعل لكل مهاجر أخاً من الأنصــار ، فتواصـلوا وتحابوا واتحدوا فى إعزاز دين الله ؛ وإعلاء كلمتـه ، فأورثهم الله مشارق الأرض ومغاربهـا ، وما ادخر لهم فى دار السـعادة خير وأبقى . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المحبة ، وهذا الاخلاص ، من علامات الايمان . فقال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . »

« فهل منـا من أخلص وده لأخيـه ! هل منا من أحب لأخيـه ما يحب لنفسه ! هل منا من مد لأخيه يد المعونة ، إن رآه سالكا طريق خير وهدى ! هل منا من أشفق على أخيه ونصحه وقومه إن رآه سالكا طريق غى وضلال ! لم يكن شىء من ذلك ، بل اتخذنا الحقد قريناً ، والحسد سميراً ، ولم نعن على عمل خيرى ، ولم نساعد فى شىء من أعمال البر ، واتبعنا الشيطان ، وكان الشيطان لربه كفوراً . والأعجب من ذلك كله ، أنه إذا وفق الله رجلا منا للقيام بعمل يعود علينا خيره ، ويشملنا نفعه ، نقف فى وجهه ، ونسفه رأيه ، حسداً من عنـد أنفسنا . والواجب يقضى علينا أن نعرض عمل العامل منا على العقل والشرع ، فما وافقهما قبلناه من صاحبـه وشكرناه عليـه ، وما خالفهما رددناه إلى صاحبه ، ونبهناه إلى مواطن الخطأ فيه ؛ لكن بالأدب والحكمة ، لا بالشدة والغلظة ، كى تقدم نفسه على الابتكار ، ولا تحجم عن عمل تظنه خيراً عاماً .

« فيا عبـاد الله ، اتقوا الله وكونوا إخواناً متنـاصرين ، وأعواناً متسـاندين . وإياكم والدخول فيما لا يعنى ، والاشتغال بما لا يفيـد ؛ لعل الله يصلح حالنا ، فان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

وقد كان لهذه الخطبة تأثير عميق فى النفوس ، حتى إن شيخ الحرم أثنى على الخطيب وهنأه .

وبعد ذلك بارحنا الحرم ، وتوجه عباس لزيارة والدته .

وفى ١٥ منه أدى سموه الخدمة ، وصلى الصبح ، وزار زيارة الوداع ، وقصدنا المحطة حيث اكتظت بالمودعين ، فشكرهم وصافحهم ، وتحرك القطار إلى تبوك ؛ وكان قطار المعية قد سبق قبل القطار الخاص .

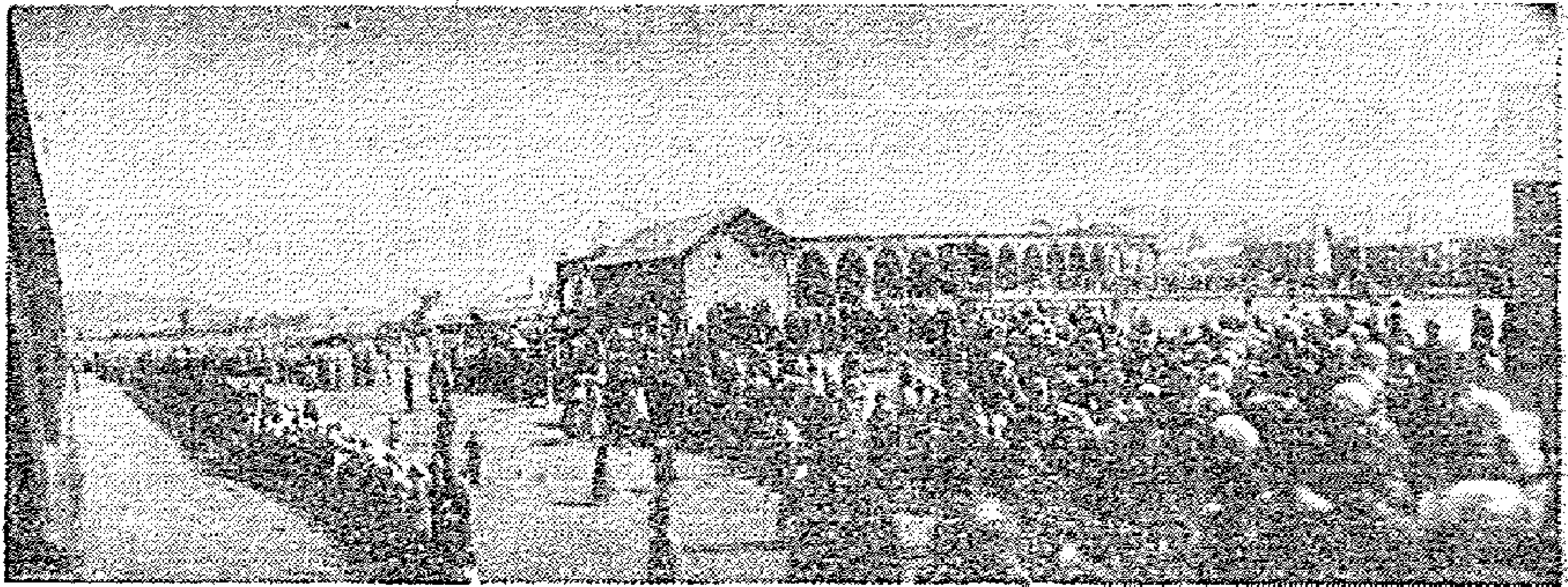
ومما أذكره أن عباساً فى مدة إقامته فى المدينة كان يعامل بعض رجال المعية معاملة

سيئة بالشتم واللعن ، وبالأخص حسين محرم باشا ، لهفوات بسيطة ؛ وكنا نتساءل عن هذه الحدة ، فقال أحدنا إنه لاشتغال فكره بما عساه يحدث فى مصر .

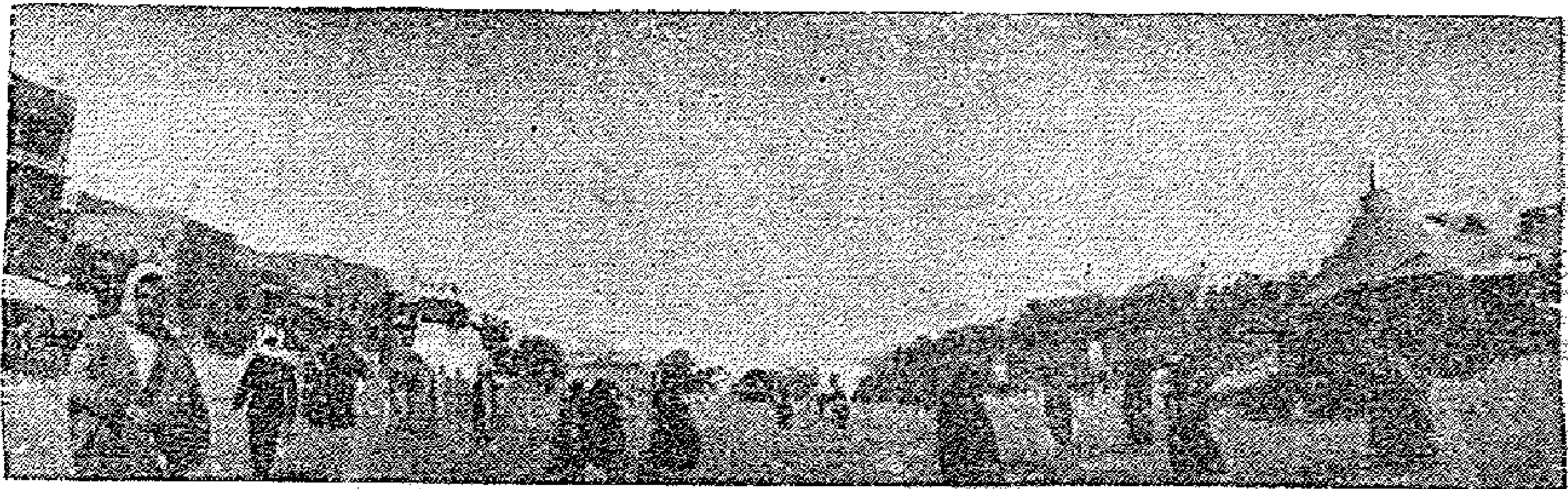
وفى صباح ١٦ منه وصلنا تبوك . ودخل القطار الخاص إلى الكورنتينة ونزلت به الوالدة . أما الخديو والمعية فاننا نزلنا فى صواوين خصوصية ؛ ومكثنا فى تبوك خمسة أيام عانينا فيها كثيراً من شدة البرد .

وقد حضر إلى تبوك منيسر باشا الألمانى ، باشمهندس الخط الحديدى الحجازى ووفا بك قائمقام معان . فلم يتمكنا من مقابلة الخديو ، عملا بتعليمات الكورنتينات فبقيا فى الضيافة حتى يوم ٢١ منه حيث قابلهم .

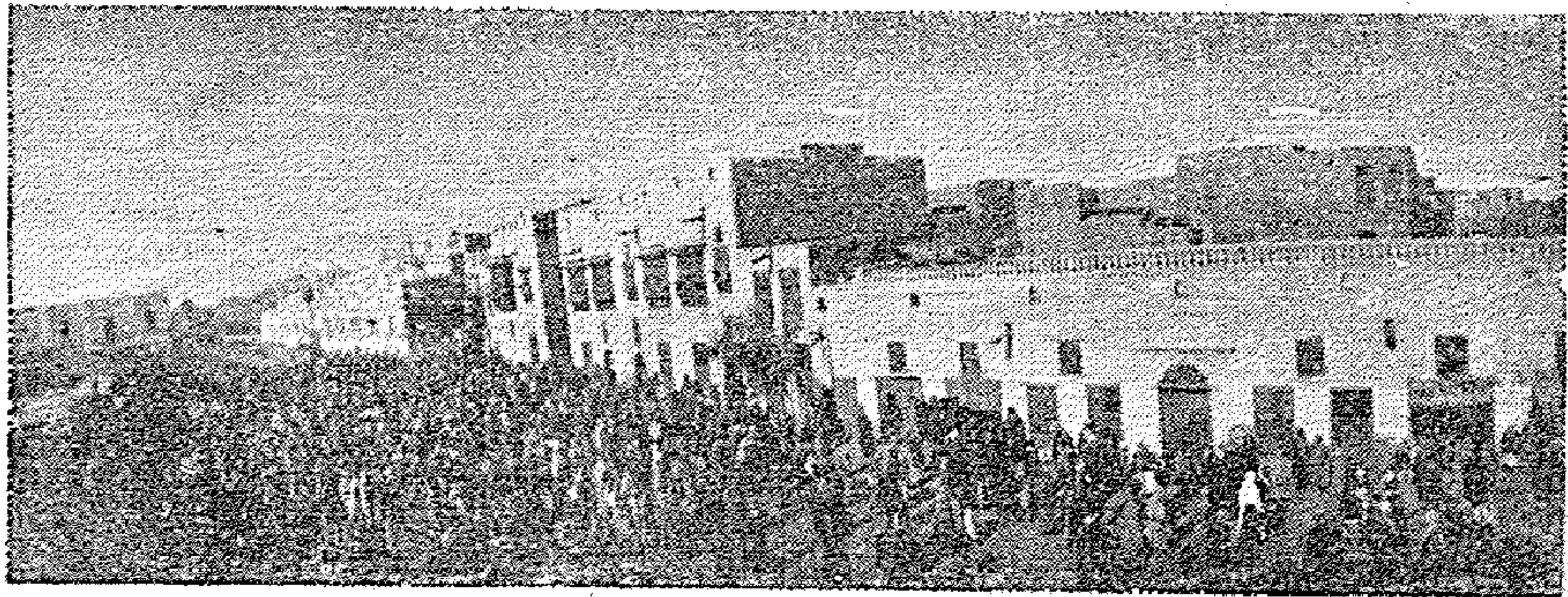
وبعدئذ قمنا من تبوك فوصلنا معان فى منتصف الليل ، وهناك صدر الأمر للحرس بالقيام إلى العقبة فالسويس براً . وفى معان تناول سموه الغداء فى دار منيسر باشا .



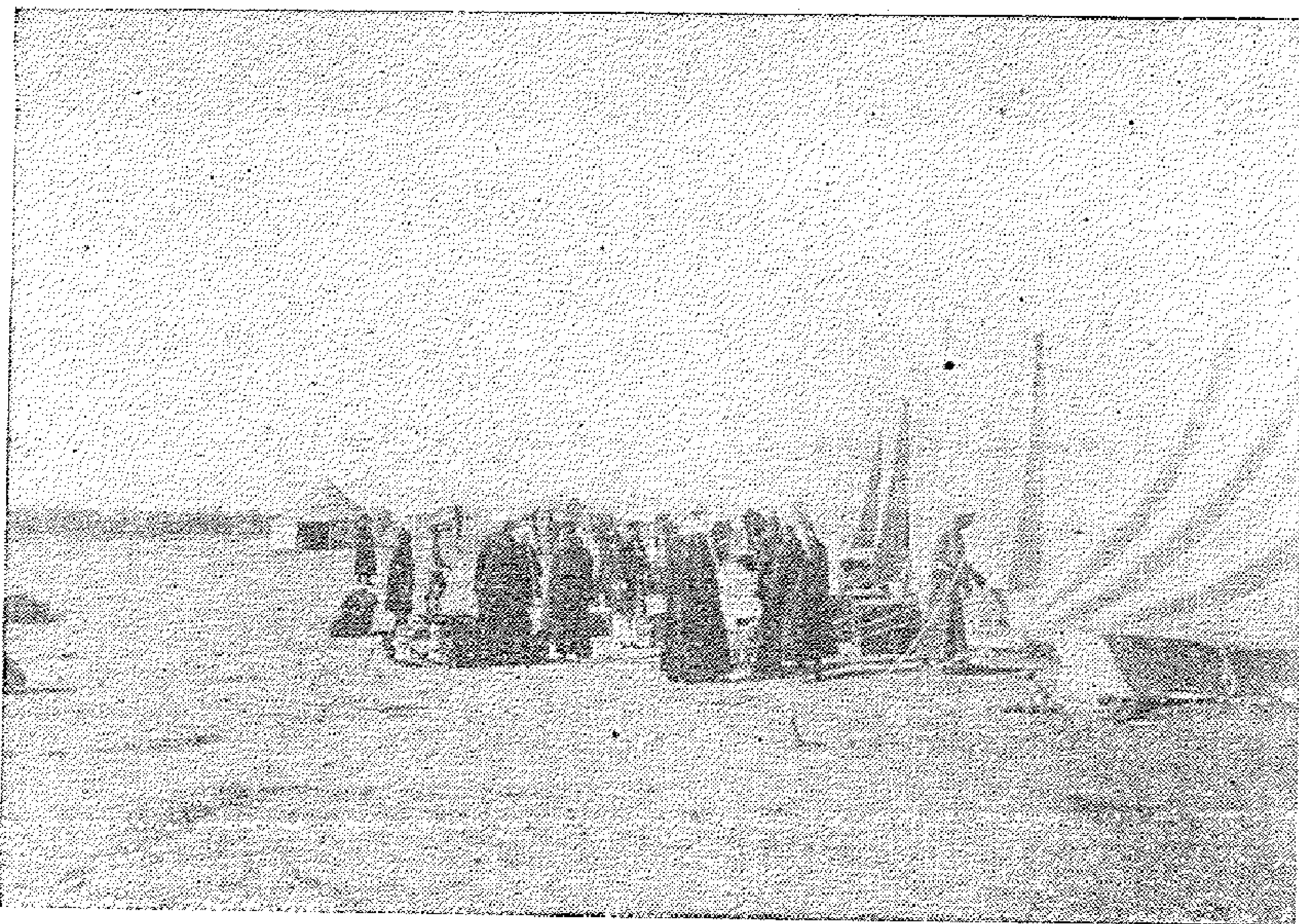
استقبال الخديو بمحطة المدينة المنورة



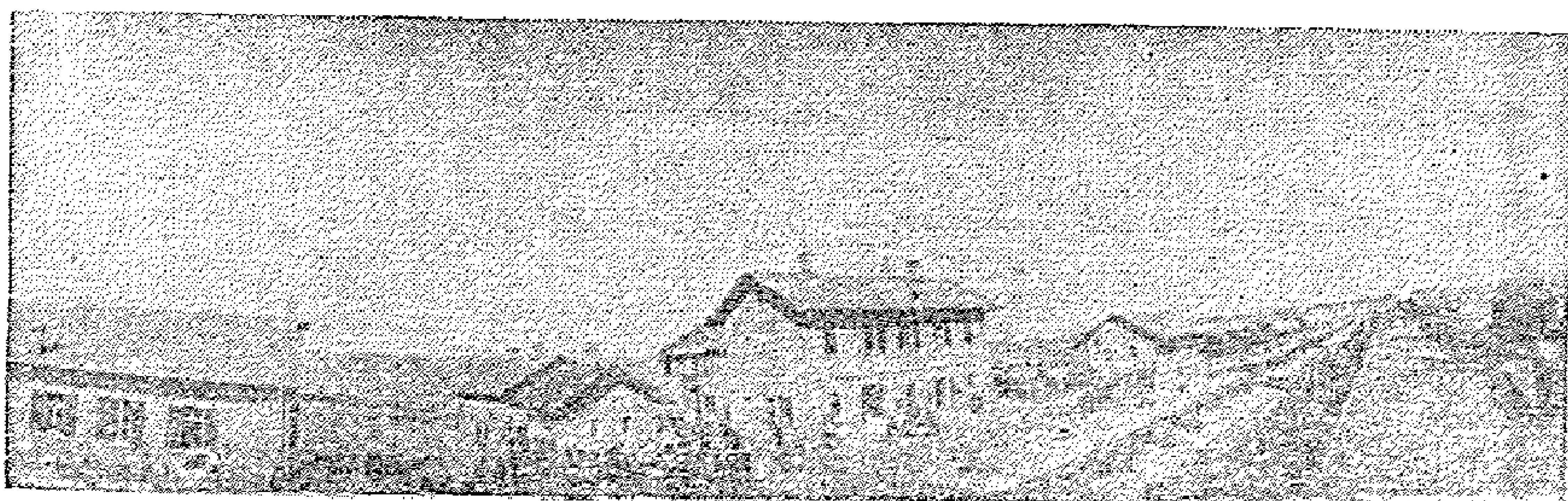
المدينة المنورة



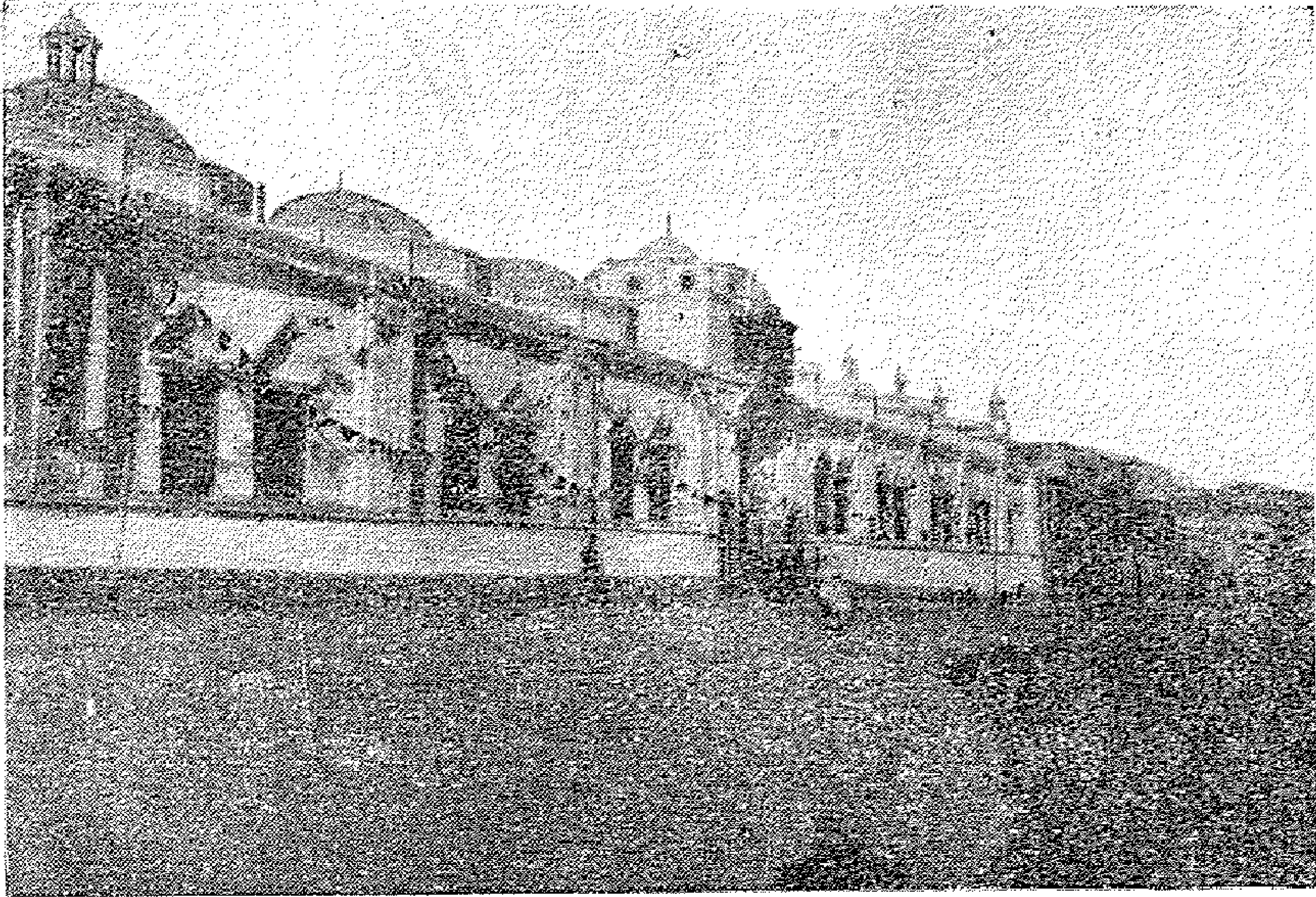
الركب المدنى وهو داخل المدينة فى عودته من الحج



تبــوك



محطة معان



التكية المصرية بالمدينة المنورة

وفى الساعة الثالثة من مساء يوم ٢٢ منه تحرك القطار الخاص إلى حيفا ، فوصلناها بعد ظهر يوم الأحد ٢٣ منه ، فاستقبلته بها الوفود ، وفى مقدمتهم مأمور الدولة وقناصل الدول والعلماء والمتصرف ووكيله وقومندان عموم القوة العسكرية ، وأطلقت المدافع تحية بمقدمه ، وعزفت الموسيقى بالسلام الخديوى ؛ فنزل سموه إلى بهو المحطة الذى أعد لاستقباله ، وتناول القهوة ، ثم ركب القطار إلى الأسكلة ، ومنها بزورق بخارى إلى المحروسة

وقد أمر سموه بترحيل فقراء الحجاج المصريين إلى بور سعيد على نفقته باحدى بواخر الشركة الخديوية . وفى الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم تحركت المحروسة ، فوصلنا الاسكندرية بعد ظهر يوم الاثنين ٢٥ يناير ، وكان الاستقبال فخما عظيما . وبذلك انتهينا من تأدية فريضة الحج .

وكان قد رافق عباس فى حجه الكاتب القدير محمد لبيب البتنونى بك لتدوين الرحلة الحجازية . وبعد رجوعه أخرجها بالتفصيل وزاد عليها تعليقات تاريخية قيمة عن هذه الأصقاع ، وجعلها فى سفر جليل باسم « الرحلة الحجازية » .

مسألة امتياز قناة السويس فى الجمعية العمومية . سبق أن قدمنا أن مسألة مد امتياز قناة السويس تقرر عرضها على الجمعية العمومية لأخذ الرأى فيها على شرط

أن يتولى سعد زغلول باشا الدفاع عن وجهة نظر الحكومة فيها ، وقد انفضت دورة الجمعية والمسألة لا تزال تحت البحث .

وفى ٧ فبراير افتتح سمو الخديو دور الانعقاد السنوى كالمعتاد . وكنت بمعية سموه مع رئيس النظار ومحمود شكرى باشا وحسين محرم باشا . وقد ألقى سموه على الأعضاء الكلمة الآتية :

« أيها السادة . نهدى إليكم تحياتنا ونبدى لكم سرورنا من اجتماعكم فى هذا اليوم.

« دعوناكم لأخذ رأيكم فى الاتفاق الذى يراد عقده مع شركة قناة السويس ، فان هذه الشركة قد عرضت على حكومتنا منذ سنة امتداد أجل امتيازها . وبعد المخابرة الطويلة أمكن الوصول إلى المشروع المطروح أمامكم . وقد علمتم أن حكومتنا مجمعة على قبوله إذا رضيت الشركة بالتعديلات التى اقترحتها الحكومة عليها . فالغرض إذاً من اجتماعكم إنما هو البحث فيما إذا كان من مصلحتنا مد أجل الامتياز إلى أربعين سنة مع اقتسام الأرباح فى هذه المدة بين الحكومة والشركة مناصفة ؛ وفى مقابل إعطاء الشركة نصف الأرباح عن المدة الجديدة تدفع للخزينة مبالغ موزعة على الستين سنة الباقية من مدة الامتياز الحالى وقد قدر هذه . القيمة بعد البحث الدقيق أشخاص من ذوى الخبرة فى الشئون المالية ، وهم يرون أنه إذا حصلت الموافقة على التعديلات المذكورة تكون الفائدة التى تنالها مصر موجبة لتمام الرضاء وأن ذلك غاية ما يصح طلبه من الشركة .

« ولا يخفاكم أن هذه المسألة ليست من المسائل التى يقضى القانون النظامى بأخذ رأى الجمعيه فيها ، ولكن نظراً لأهميتها الاستثنائية بالنسبة إلى الجيل الحاضر والأجيال الآتية ، قرر مجلس النظار ألا يبت فيها برأى قبل أن يعلم إن كانت الجمعية العمومية توافق على امتداد الامتياز .

« ونظار حكومتنا مستعدون لاعطائكم البيانات التى ترونها لازمة فى هذه المسألة ، ونحن واثقون أن كل واحد منكم يشعر بالمسئولية التى يتحملها أمام بلاده عند نظره هذا المشروع المهم والله أسأل أن يوفقنا جميعاً لما فيه خير البلاد . »

وبعد انتهاء الخطبة هتف الرئيس والأعضاء لسموه وعدنا للسراى ؛ ثم حضر الأعضاء لشكر سموه على افتتاح الجمعية فقال لهم جنابه :

«إننى أرغب أن أجمع الجمعية العمومية كلما عنّ لى عمل من الأعمال الهامة . والمسألة المطروحة الآن أمام الجمعية هى من المسائل الدولية التى لم يسبق للجمعية النظر فى مثلها بمقتضى القانون النظامى ، ولكنى آمل من الأعضاء ألا يكون هناك تأثير عليهم من الاشاعات والأقاويل ، وأن يجعلوا نصب أعينهم مصلحة البلاد وحدها ، لأن الآراء التى سيبدونها فى هذه المسألة ستعرض على الرأى العام الأوربى الذى يحكم حينئذ حكمه على الجمعية التى هى هيئة البلاد النائبة ، وعنوان كفاءتها وفهمها للأمور . »

وفى هذا الوقت كانت المظاهرات تطوف شوارع العاصمة هاتفة ضد مشروع قناة السويس وضد الاستبداد ، وضد جريدة الأهرام لأنها تروج للمشروع ؛ وكانت صحف الحزب الوطنى والجريدة تكتب بلهجة حادة ضد مروجى المشروع ، وتتهم بطرس باشا خاصة والنظار عامة بالخيانة والاجرام فى حق الوطن ، حتى لقد امتد اتهامها إلى الخديو نفسه بعد إلقاء خطبته السابقة ، وكان الجو مكهرباً من جراء هذه الحملات وتوالت هذه المظاهرات الحماسية عدة أيام ، وانتهت بمقتل بطرس باشا كما سيأتى .

تقرير الجمعية العمومية : وقد تألفت لجنة خاصة فى الجمعية العمومية لفحصه ، وفى يوم ٢٢ مارس عرضت اللجنة تقريرها على الجمعية وخلاصته ما يأتى :

١ — أن المشروع المعروض على الجمعية لم يستوف الاجراءات القانونية ، فان الحكومة والشركة لم تتفقا عليه اتفاقا صريحاً .

٢ — وأنه لا يحق للجمعية العمومية تعديل المشروع لأنه ليس اقتراحا من الحكومة المصرية ، بل هو مجرد مشروع تعاقد بين الحكومة والشركة .

٣ — ومع ذلك فان هناك غبناً فاحشاً فيه تقدره اللجنة بنحو ٠٠٠ر٥٩٨ر١٣٠ جنيه أصلا وفائدة على قاعدة حساب المستشار المالى الذى قدمه فى المشروع .

٤ — أنه لا حقيقة للمخاوف التى تتوقعها الحكومة فى حالة رفض المشروع كأن تعلن الدول أن القناة دولية مثلا .

٥ — لا توجد ضرورة مالية ملجئة لهذا التعاقد بالغبن الفاحش ولاسيما وهو واقع على مستقبل بعيد ، لا بد فى الحكم عليه من الخطأ العظيم الذى لا يقبله الجيل الحاضر ولا يرضى بتحمل تبعته أمام الأجيال القادمة ، ومثل هذا التعاقد لا يصح إلا إذا ظهر ربحه ظهوراً بيناً .

٦ — أنه حتى اليوم لم تشترك الأمة فى تدبير الشئون المالية حتى تضمن استخدام المبلغ المقابل لمد أجل القناة فى أغراض مثمرة ، وهو أقل ما يطلب فى مثل هـذه الحالة

وبناء على هذه الأسباب قررت اللجنة رفض المشروع بالاجماع .

ولما انتهت اللجنة من تلاوة قرارها صفق الأعضاء وحددت الجمعية جلسة أخرى للمناقشة فيه فى يوم ٥ ابريل ، وفيها تقدم محمد سعيد باشا رئيس النظار فألقى بياناً على الأعضاء بأن الحكومة حين قررت عرض المشروع على الجمعية ، قررت كذلك أن يكون رأيها فيه قطعياً بصفة استثنائية ، والحكومة تقرر لهم ذلك قبل النظر فى المشروع حتى يكون لهم كل الحرية فى قرارهم الذى يصدرونه وحتى يقدروا مسئوليتهم أمام هذا الجيل والأجيال القادمة والرأى العام الأوربى . »

ثم وقف بعده سعد زغلول باشا فدافع عن المشروع حسبما تقرر ، وبعد ذلك سمع الأعضاء تقريرين قدمهما صابر باشا صبرى وطلعت حرب بك فى بيان الخسائر الفادحة التى تتعرض لها البلاد من جراء المشروع ثم تقرر تأجيل القرار النهائى يومين .

رفض المشروع باجماع الآراء : وفى ٧ ابريل اجتمعت الجمعية ودارت مناقشات



طلعت حرب بك



احمد محمد خشبه بك

طويلة بين الأعضاء والنظارة ثم أخذت الأصوات فتقرر رفض المشروع بالاجماع .

وكان لهـذا القرار وقع عميق فى جميع الدوائر المصرية والأجنبية ، وقد أرضى النزعات الوطنية المتطرفة والمعتدلة على السواء .

حديث للخديو : وفى ١٩ منه تحدث سمو الخـديو مع مراسـل جريدة الطان حديثاً جاء فيه :

« إننى أحب بلادى وشعبى ، وإن أمنيتى أن أكون حاكما دستورياً ، ومن الأدلة على ذلك منح الجمعية العمومية الرأى القطعى فى مشروع مد امتياز قناة السويس . »

مقتل بطرس باشا . وفى يوم ٢٠ فبراير وصل إلينا فى السراى نبأ خطير وهو إطلاق الرصاص على بطرس باشا رئيس النظار من فتى يدعى ابراهيم ناصف الوردانى المنتمى للحزب الوطنى؛ وذلك عند مغادرة الرئيس لنظارة الخارجية فى الساعة الواحدة بعد الظهر .

وتفصيل الخبر هو أن بطرس باشا اعتاد أن يغادر الخارجية (سلم الحقانية الآن) كل يوم فى الساعة الواحدة . وفى هذا اليوم نزل من الديوان ومعه حسين رشدى باشا وعبـد الخالق ثروت باشا النائب العـام ، وأحمد فتحى زغلول باشا وكيل الحقانية وأرمولى بك التشريفاتى بالخارجية ، ثم فارق من كانوا معه عند السلم الخارجى . وبينما هو يهم بركوب عربته إذ دنا منه هـذا الفتى « الوردانى » متظاهراً بأنه يريد أن يرفع له عريضة ، وأطلق عليـه رصاصتين أصابته إحداها فى خاصرته والأخرى فى صـدره ، وما كاد يلتفت خلفه ليرى صاحب الفعلة حتى أطلق عليه الفتى ثلاث رصاصات أخرى أصابت إحداها عنقه من الخلف واثنتان فى كتفه ، وأطلق رصاصة سادسة أصابت ثيابه .

وكان خلف القاتل أحد سعاة النظارة فقبض عليه ، بينما كان الناظر قد سقط إلى الأرض أمام عربته ، فحمله الحاضرون إلى فناء النظارة ، وحضر على الأثر الدكتور سـعد بك الخادم فأخرج الرصاصات من العنق والـكتف ، وأفاق الجريح قليـلا ، ثم نقل إلى مستشفى الدكتور ملتون ببـاب اللوق ، وهنـاك وافاه الأطباء وقرروا إجراء عملية لاخراج الرصاصات الباقية .

ولمـا وقف الخديو على هذا النبأ بلغ التأثر منه ومن رجال الحاشية مبلغه ، نظراً لما كان يتمتع به بطرس باشا من ثقة الجناب العالى ومحبته له .

وأصـــدر سموه أوامره فى الحال تليفونياً إلى فتحى زغلول باشا باتخاذ جميع الوسائل الممكنة بكل سرعة للعناية بالجريح ، ثم أوفدنى سموه وأحمد خيرى باشا للسؤال عن صحته وإبلاغه أسف سموه وتمنياته فى الشفاء . وأن نرسل لسموه أخبار الجريح حتى يزوره بالمستشفى بنفسه .

وبعد قليل من وصولنا حضر سموه ودخل على بطرس باشا فى غرفته ، ثم دنا منه وقبله والدموع تنسكب من عينيه ودعا له بالشفاء ، وكان الجريح أثناء ذلك يقول : « العفو يا أفندينا . مرسى . مرسى . »

ثم غادر سموه المستشفى آسفاً متأثراً بعد أن شجع الجريح وحث الأطباء على بذل كل ما فى وسعهم لانقاذه . وأمر أن تبلغ اليه الأخبار لحظة فلحظة وبقيت أنا بالمستشفى لهذا الغرض . وبعد ذلك حضر البرنس حسين كامل ودنا من الجريح وقال له : « تشجع » فرد بطرس باشا بقوله : « أنا لا ألوم نفسى على شىء فقد قضيت ما يجب علىّ للوطن . »

وبعد انتهاء العملية لاخراج الرصاص ارتاح الجريح نوعاً ولكن الألم ازداد بعد قليل وارتفعت درجة الحرارة ، وأصبح فى خطر قريب ، ولم تأت الساعة الثامنة والربع مساء ، حتى أسلم الروح بين بكاء الحاضرين .

وفى صباح ٢١ فبراير صدر أمر الجناب الخديوى بأن يكون الاحتفال بجنازة المرحوم بطرس باشا رسمياً .

وفى الساعة العاشرة والنصف صباحاً سار الجناز من مستشفى الدكتور ملتون إلى كنيسة بطريركية الأقباط ثم إلى المدفن .

النظارة الجديدة : وفى الساعة الثالثة بعد الظهر تم تأليف النظارة الجديدة على الشكل الآتى :

محمد سعيد باشا لرياسة النظار والداخلية ، وسعد زغلول باشا للحقانية ، ويوسف سابا باشا للمالية واحمد حشمت باشا للمعارف ، وحسين رشدى باشا للخارجية ، وسرى باشا للأشغال والحربية .

التحقيق والجانى : وكان المحققون قد تسلموا الجانى منذ ساعة الجريمة ، وهو شاب فى الثالثة والعشرين من عمره ، تلقى العلوم فى المدارس المصرية حتى حصل على

شهادة البكالوريا وتوفى والده فقام بتربيته عمه الدكتور ظيفل حسن (باشا) وأرسله إلى سويسرا لتلقى علوم الصيدلة فمكث فى لوزان سنتين ، ثم ذهب إلى انجلترا فقضى بها سنة وعاد إلى مصر فافتتح بها صيدلية فى شارع عابدين واتصل بالحزب الوطنى ، وهو شاب عصبي المزاج شديد الانفعال .

وقبل أن يفتح معه محضر التحقيق الرسمى سأله وكيل الحقانية : « لماذا فعلت فعلتك بالباشا ؟ » فأجاب غاضباً « لأنه خائن للوطن » فرد عليه بقوله « يا مسكين لو عرفت أنه أكبر وأصدق وطنى فى خدمة البلاد ما فعلت فعلتك » .

وقد تولى النائب العمومى ثروت باشا التحقيق ، وسئل عدة أشخاص ممن لهم صلة بالجانى والذين وجدت أسماؤهم أو صورهم بين أوراقه ، وأوراق أعضاء الحزب الوطنى وفى مقدمتهم محمد بك فريد الذى قرر « أنه عرف الجانى منذ سنة ١٩٠٦ فى جنيف حيث كان أميناً لصندوق جمعية الطلبة المصريين بها ، وأن هذه الجمعية أسست لمساعدة الطلبة المصريين الذى يفدون إلى جنيف ، وأن علاقته بالقاتل كعلاقته بكل عضو من أعضاء الحزب الوطنى » .

وقبض على شفيق منصور وعباس حسنى ومحمد الصباحى الطالب بمدرسة رأس التين وعبدالله حلمى المهندس بالأوقاف ومحمد زكى على افندى المحامى الذى تولى رياسة المظاهرة التى تقدم ذكرها ، ثم قبض بعد ذلك على اثنى عشر آخرين .

جمعية سرية : وفى ٢٥ فبراير أطلق سراح ثمانية من هؤلاء المتهمين ، وبقى تسعة منهم الوردانى ثبت أنهم أعضاء فى جمعية سرية للقتل السياسى ألفت منذ ست سنوات * وقد ضبط قانون الجمعية بين أوراقهم . كما ضبط خطاب وارد إلى شفيق منصور يقدم له فيه مرسله ابراهيم ناصف الوردانى بأنه « صيدلى كيماوى بارع وعارف بتركيب الديناميت » .

وسمعت النيابة أقوال على الشمسى افندى وخلاصتها أنه رأى الوردانى يوم انعقاد الجمعية العمومية للنظر فى مشروع امتياز القناة وهو ثائر متهيج . وذكر عن أخلاقه أنه شديد الاخلاص لأخوانه حتى إنه كان ينفق عليهم بعض ماله ويدع نفسه فى حاجة

(*) أى منذ وجود مصطفى كامل باشا

وشـدة ، وكان يلاحظ فيه الحيـاء فى مجالسه وقلة الـكلام مع شـدة الحماسة فى الجـدل ولـكنه لم يكن يجاوز حدود الأدب فى مناقشاته إذا احتدّ » .

وقد تأيدت أقوال على الشمسى افندى عن تهيج الجانى فى يوم اجتماع الجمعية بشهادة القاضى مراد سيداحمد بك واحمد حجازى بك وغيرهما .

واستدعت النيابة صاحب طوالع الملوك ، لأنه ذكر فى طالعه الذى ظهر منذ ثلاثة شهور أبياتاً ، يؤخذ منها أن بطرس باشا يقتل وينعم على ابنه بالباشوية ويتولى رياسة النظار سعد أو سعيد .

ولما سئل عن ذلك قال إنه لا دخل له فى السياسة ، ولـكنه يقدر تقديرات فلـكية تدل على مثل هذه الحوادث . ولو فرض أنه كان عالماً بالمؤامرة فهل كان أيضاً يعرف أن الخديو سينعم على ابن القتيل « نجيب غالى » بالباشوية ؟

نقص القانون : وقـد ظل التحقيق حتى يوم ١٤ مارس ثم أصدر النائب العام قراراً باحالة الوردانى والمقبوض عليهم على قاضى الاحالة ، ونظرت القضية بالاحالة فى يوم ٢٢ منه وكان القاضى متولى بك غنيم فأصدر قراره باحالة الوردانى وحده إلى محكمة الجنايات وإخلاء سبيل الآخرين لأن القانون حتى ذلك الوقت كان ينص على إعفاء المشتركين فى الاتفاق الجنائى إذا لم يرتكبوا حوادث بالفعل (١) .

وفى جلسة ٢٠ ابريل نظرت القضية أمام الجنايات وسمعت المحكمة شهادة الشهود ثم قررت انتداب بعض كبار الأطباء لبيان ما إذا كانت العملية التى أجريت للفقيد كانت ضرورية كما قرر الأطباء الذين قاموا بها أم لا .

الحـكم بالاعـدام : وفى يوم ١٢ مايو سمعت المحكمة تقرير الأطباء وهو يفيد ضرورة العملية . وألقى النائب العام ، ثروت باشا ، مرافعة بليغة قوية ، وقام بالدفاع عن المتهم محمود بك ابو النصر واحمد بك لطفى وابراهيم بك الهلباوى ، وطلب الدفاع فحص المتهم من الوجهة العقلية فرفضت المحـكمة هذا الطلب ، وقررت الحـكم بالاعدام وأيد هذا الحـكم فى النقض .

وقد حاول رجال الحزب الوطنى استصدار عفو من الخديو . وأيدت الصحف الافرنجية والجالية الايطالية بالعرائض والمنشورات هذا الطلب ولـكن لم يجد ذلك نفعاً

(١) بعد ذلك بقليل عدل هذا القانون وأصبح مجرد الاتفاق الجنائى جريمة يعاقب عليها .

ومما هو جدير بالذكر أن الفتى المحكوم عليه أبدى ثباتاً مدهشاً حتى آخر لحظة .

روزفلت رئيس جمهورية أمريكا بمصر . كان هـذا الرئيس قد حضر إلى مصر يوم ٢٤ مارس ، فاستقبله من قبل الخديو سعيد ذو الفقار باشا التشريفاتى الأول وزار سموه فى عابدين فرد له سموه الزيارة ثم أقيمت له مأدبة شائقة .

وفى ٢٦ منه أدب له البرنس أحمد فؤاد باشا رئيس الجامعة الأهليـــة المصرية مأدبة عشاء ودعاه لالقاء محاضرة فى الجامعة . فلبى الدعوة وألقى محاضرته فى اليوم التالى وتكلم فيها عن أهمية الجامعة وأنها الطريق القويم للتربيـة الصحيحة ، وتحدث عن واجبات الذين يلون أمرها والطلبة الذين ينتسبون إليها .

وبعـد ذلك تكلم عن فضل بطرس باشـا وأشار إلى أن هـذه الجرائم مكروهة فى نفوس الجميع وأنها وبال على الأمانى الوطنيـة . وتطرق من ذلك إلى الحـديث عن الأمم التى تمنح الدسـاتير وهى لم تزل فى دور التـكوين ، وقال : « إن مثـل هذه الأمم تـكون خطراً على نفسها لأنها لم تنم فيها الصفات التى تمـكنها من الانتفاع بالدسـتور ، وأن الأمر الجوهرى ليس هو الاسراع للحصول على سـلطة ليس أسهل من سوء استعمالها ، وإنما هو ترقيـة الصفات التى يسمو بها الفرد والأمة ترقية دائمة وإن تـكن بطيئة ، وأن هذه الصفات هى التى تجعل الأمة قادرة على حكم نفسها بنفسها » .

ثم أشار إلى الادارة الانجليزية فى السودان (*) وأثنى على اللورد كرومر وسياسته فى مصر .

الوطنيون وروزفلت : وكان هـــذا الخطاب مثار عاصفة من النقد فى المؤيد والجـريدة وصحف الحزب الوطنى ؛ ووجه الشيخ جاويش رسـالة إلى روزفلت يلفت نظره فيهـا إلى أنه فى بلد إسـلامى ، فليس له أن يبشر بحسنات المسيحيـة ، وأن ينسى فضل التعاليم الاسلاميـة ؛ ونظم حافظ ابراهيم قصيدة قوية يذكر فيها روزفلت برأى الأمريكيين فى الانجليز يوم كانوا يحتلون بلادهم ومما جاء فيها :

يا نصير الضعيف : مالك تطرى ... خطة القوم بعـد ذاك النـكير !
لم تطيقوا جـوارهم بل أقمـتم ... فى حمـاكم من دونه ألف سور
أنت تطريهمـو وتثنى عليهـم ... نائيـاً آمنـاً وراء البحـور

(*) وكان قد رجع من زيارته للسودان

ليت شعرى أكنت ، تدعو إليهم يوم كانوا على تخوم الثغور ؟
يوم سجلتم على صفحات الدهـــــر تاريخ مجدكم بالنور
ووثبتم إلى الحياة وثوباً ونفضتم عنكم غبار القبور
يا نصير الضعيف حبب إليهم هجر مصر تفز بأجر كبير .

ووجه محمد فريد بك إلى روزفلت رسالة برقية باسم اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى يظهر فيها استياء البلاد من هذه الخطة التى ترمى إلى تثبيط همة الأمة المصرية عن الاستمرار فى جهادها السلمى للحصول على الدستور .

ووجهت إلى روزفلت أيضاً برقيات الاحتجاج من كثير من الهيئات والأفراد .

وكتب الشيخ على يوسف فى المؤيد خطاباً مفتوحاً إلى روزفلت حمل فيه على مسلكه وخطته وإخلاله بواجب الضيافة ، ونشرت ترجمة هذا الخطاب الشهير فى بعض الصحف الأمريكية فكان له وقع كبير فى أمريكا . وكتبت إحدى المجلات الأمريكية الشهيرة إلى الشيخ على يوسف تطلب إليه أن يكتب لها فصلا فى هذا الموضوع يتحدث فيه عن روزفلت ، وما كان لزيارته من أثر فى نفس الشعب المصرى ؛ فلبى الشيخ الدعوة وبعث إلى المجلة المذكورة بمقال رنان كان من خير ما كتب (١) .

سفر روزفلت : وقد غادر روزفلت مصر بعد هذا كله يحمل فى نفسه أثر هذه الاحتجاجات وتلك الردود وما كاد يصل فى طريقه إلى مدينة لنـــدره حتى ألقى فى « جلد هول » عن مصر خطابا فى منتهى الشدة جاءتنا البرقيات بتفاصيله فى يوم ٧ يونيو ، وفيه يدعو روزفلت الانجليز إلى تثبيت أقدامهم فى مصر « لأنهم ليسوا حراس مصالحهم فيها فقط ، بل هم فوق ذلك حراس مرافق المدنية . » وطعن فى أخلاق المصريين ورماهم بالتوحش والذل ، وقال : « إن الانجليز أصلحوا مصر ولكنهم أخطأوا أخيراً إذ مكنوا المصريين من التمتع بشىء من الحرية ، فأظهر مقتل بطرس باشا أن هذه غلطة فاحشة يجب أن يتداركها الانجليز قبل فوات الوقت . » إلى غير ذلك من المثالب والمطاعن .

وقد كتبت الجرائد المصرية جميعها ما عدا المقطم منددة بهذا الخطاب ، مبينة ما فيه من غلو وتحامل فى فهم المصريين ، وما يدل عليه من الحقد والتعصب على الشرقيين.

تصريح للسير جراى : وفى يوم ١٤ يونيو حملت لنا البرقيات تصريحاً للسير

(١) نشرت المؤيد هذا المقال فى عددها الصادر فى ١١ يونيه سنة ١٩١٠ فليراجعه من شاء .

إدوارد جراى عن موقف انجلترا فى مصر بعد حادثة مقتل بطرس باشا وبعد خطاب روزفلت على أثر سؤال من أحد النواب.

وقد جاء فى هذا التصريح :

« إننى أوافق على جميع الآراء التى أبداها المستر روزفلت بشأن القطر المصرى إلا قوله إن ليننا المتناهى لأعداء الاحتلال قد عرض عمل انكلترا بمصر إلى الضياع ، فقد يمكن ألا أوافق على أن عملنا عرضة للخطر ، ومن الطبيعى أن ينتقد التأخير الذى حدث فى معاقبة



السير إدوارد جراى

الوردانى . ولكن لا يمكن توجيه اللوم إلى القضاة . ومن المتفق عليه أنه يجب حتما أن نستعمل سلطتنا حتى نظهر جلياً أن المصريين الذين يديرون شئون بلادهم برأينا — دون أن تكون لهم مندوحة عن اتباع هذا الرأى — تجب حمايتهم من الاعتداء عليهم بهذه الطريقة المستحدثة . »

خطبة فريد بك فى لندره ضد روزفلت وجراى : وعقب ذلك سافر محمد فريد بك إلى لندره لدحض هذه المطاعن التى أذاعها روزفلت وذلك التصريح الذى ألقاه السير جراى ، وقرأت فى برقيات يوم ٩ يوليو أنه ألقى خطابا جامعاً فى لندره جاء فيه :

« يسرنى أن أتكلم هنا لأنى أشعر بأنى حر فى الكلام أكثر منى فى بلادى التى تحكمها عصابة من المستعمرين الانجليز الذين يضرون انجلترا وهم يظنون أنهم يخدمونها.

« إننا لا يمكننا أن نقر الاحتلال الانجليزى ، بل إنا لنعتبره ظلماً لا يستند إلا إلى القوة التى لا تخول حقاً . إن أمتكم تستطيع — مدفوعة بيد الاستعماريين الماليين —

أن تعلن حمايتها على مصر ، وأن تضمها إلى أملاكها ، ولكن لا يمكنها أن تجعل مركزها فى مصر شرعياً . والحماية والضم ذاته لا يسقطان حقوقنا .

« لقد اتخذ الاستعماريون فعلة الوردانى متكأ لهم فى إنفاذ حكم الارهاب بمصر، فأصدروا قوانين منها :

أولا : محاكمة الصحف أمام محاكم الجنايات التي لا تستأنف أحكامها .

ثانياً . فصل الطلبة الذين يشتركون فى المظاهرات السياسية داخل المدارس أو خارجها .

ثالثاً : معاقبة كل من يتفقون على ارتكاب جريمة وإن لم يرتكبوها .

« وقد قوبل ذلك بالسكون واكتفت الأمة بالاحتجاج فى الصحف ضد قوانين لا تسن إلا إبان الثورات .

« وهكذا يريد الاستعماريون أن يمثلونا بالفوضويين ليبرروا وجود الاحتلال وحرماننا مما بقى لنا من حرية قليلة . ولا يصح الحكم على أمة بأنها فوضوية لأن شخصاً متحمساً من أبنائها ارتكب جريمة سياسية . فالجرائم التى من هذا القبيل ترتكب كل يوم فى أوربا وأمريكا دون أن تضطرب الانسانية ؛ فالرئيس « ماكنلى » فى أمريكا و « كارنو » فى فرنسا والملك « همبرتو » فى إيطاليا . . . الخ قتلهم الفوضويون فلم يخطر لدولة احتلال بلاد القاتلين ! . »

ثم تحدث عن بطلان الاحتلال وبطلان اتفاقية السودان وغيرهما وذكر الانجليز بوعدهم بالجلاء فى لهجة قوية قاسية .

تعيينى مديرا لديوان الأوقاف العمومية وبعض أعمالى فيه . قدم مصطفى ماهر باشا مدير الأوقاف تقريراً عن حالة الديوان المالية قال فيه إن الديوان مشرف على الافلاس بسبب كثرة المطلوبات منه . وكان المعروف عن هذا الديوان أن أعماله سر من الأسرار التى لا يطلع عليها أحد ، حتى نوهت بعض الصحف بهذه الحالة وأشارت بوجوب تعيين انجليزى يشرف على أعماله . وقد دارت المحادثات بينى وبين النظار بناء على الأمر لتعيين مدير جديد لديوان الأوقاف يستطيع إصلاح هذه الحالة فقر رأيهم على تعيينى رغم تمسك الخديو ببقائى فى المعية ، ولكن الضرورة حملته على قبول ما كان يأباه من قبل .

وفى ٢٦ مارس وجه سمو الخديو الىّ أمر التعيين الآتى :

سعادتلو محمد شفيق بك

[illegible]

۲٦ مارس سنة ۱۹۱۰

[illegible]
عباس حلمى

وقد قابلت سموه بعد صدور الأمر فشكرته على جميل ثقته ، وذكرت أننى سأعمل على تحقيق هذه الثقة الغالية وسأكون مخلصاً لسموه خارج المعية كما كنت فى داخلها .

ثم ودعت زملائى بالمعية ، وقد هنأونى بالمنصب الجديد . وترتب على نقلى أن عين أحمد زكى باشا السرتشريفاتى خلفاً لى ، وسعيد ذوالفقار باشا سرتشريفاتى بدلا منه .

وفى الساعة الحادية عشرة بارحت الديوان لزيارة النظار بصفتى الجديدة وكان معى رئيس الديوان والسرتشريفاتى الجديدان للغاية نفسها .

برنامجى : ثم ذهبت إلى ديوان الأوقاف وجمعت رؤساء الأقسام والأقلام ووكلاءهم وألقيت عليهم الكلمة الآتية :

« عرفتمونى وعرفتكم من بضع سنوات أى منذ اشتغالى فى المجلس الأعلى ؛ ولهذا لست أشعر بأنى حديث بينكم وأظنكم تشعرون بأنكم لستم غرباء منى . ومتى كان هذا حالنا فلا ريب فى أن الثقة متبادلة بيننا وكل ما أطلبه الآن هو المساعدة من جانبكم على توثيق عرى هذه الثقة لكى يسهل علىّ وعليكم العمل فى طريق المصلحة العامة .

« وإنى أحب أن أعلنكم وكافة الناس المرتبطين بهذا الديوان بالمصالح المتعددة بأنى سأسير فى هذه المصلحة الخيرية من الطريق الذى سرت فيه بالديوان الخديوى فأفتح بابى لكل قاصد من أرباب الأشغال : غنياً كان أو فقيراً ؛ ولكل فرد من أفراد الموظفين : كبيراً كان أو صغيراً ، لأقف بنفسى على مطالبهم أو شكاويهم فأبذل جهدى فى إعطاء كل ذى حق حقه ومنع أى مظلمة تقع على أحد منهم ومنكم ولا بد لى لذلك أن أطلب من الرؤساء ومرؤوسيهم ألا يضنوا علىّ بأى فكر يبدو لهم لاصلاح شأن

هذا الديوان . وإنى أؤكد لكم أننى لا أنسى صاحب الفكر الصائب والنية الحسنة من المكافأة والتعضيد . وإننى مع اعترافى بتقدم ديوان الأوقاف فى السنين الأخيرة أصرح بأنه لا يزال فى احتياج عظيم للاصلاح ؛ وكل عمل فى الوجود قابل للاصلاح والنمو حسب الطبيعة فعلينا بصفتنا حراساً على هذه المصلحة ، مسئولين عنها أمام الله وأمام الناس ، أن ننهض بها إلى الرقى المطلوب حسب رغبة الجناب العالى حفظه الله كما نوه بذلك فى أمره العالى .

« المساجد محتاجة على الدوام لتعميرات ونظافة وعناية ، والمعاهد الدينية لالتفات خاص ورعاية ، والوعظ إلى انتشار على سنة نافعة مفيدة ، والأحياء الجديدة إلى محال لاقامة شعائر الدين بها ، والزراعات إلى ترقية ونمو مع استبدال القطع الصغيرة منها ، والخرابات التى فى صقع جيد إلى تجديد واستبدال ما كان منها فى صقع غير جيد ، والأحكار إلى طريقة موصلة لاستبدالها فى زمن قصير .

« ولا تخفى عليكم علاقة الديوان مع المحكمة الشرعية الغراء فيلزم على الدوام أن يكون حسن التفاهم سائداً بيننا وبينها لكى تساعدنا على الاصلاحات الجمة المطلوبة منا خصوصاً فى عهد سماحة قاضيها الحالى المذلل للصعاب بفكره الصائب .

« وأمام هذه الأعمال الكبيرة الكثيرة التى وصفتها إجمالا لكم وتفاصيلها ووقائعها لا تخفى عليكم لا يتيسر النجاح فى القيام بها والفوز لاتمامها إلا ببذل الهمة والاخلاص فى العمل والمثابرة على تأدية الواجب وما هو فوق الواجب بنية صالحة لا يشوبها تكلف أو تظاهر أو اشتغال بالصغائر وما يجرى مجراها من الأمور الشخصية أو المنافسات الفردية ؛ فلنكن كلنا يداً واحدة وقلباً واحداً متوجهين إلى فكرة واحدة وهى القيام بالواجب الذى وجدنا من أجله فى هذا المكان .

« لامحسوبية ولامحاباة ولا تساهل فى الواجب هنا . من قام بواجبه وأخلص النية فله منى التعضيد والرعاية ، ومن قصر فلا ينتظر منى إغضاء عن تقصيره أو تراخياً فى إنذاره أو معاقبته . فلا لين فى حق ولا تراخى فى باطل .

« هذه كلمتى لكم أقولها بكل إخلاص من قلبى وأرجو أن تصل إلى مكان الاخلاص من قلوبكم والله أسأله أن تكون هذه الادارة مثال الكمال فى كل حال . »

فوضى الديوان وإنشاء قلم استعلامات : كان أول ما لاحظت فى الديوان أن الفقراء الذين يقصدونه لالتماس المساعدة أو لأخذ استحقاقهم وكذلك أصحاب الأعمال

العامة الذين يريدون قضاء أعمالهم لا يصلون إلى غايتهم إلا بعد مشقة أو تسلم أمورهم للخدم والفراشين وهؤلاء لا يستطيعون التصرف بشكل مقبول. ولهذا رأيت أن أحسن حل لهذا الموضوع هو إنشاء قلم فى فناء الديوان باسم قلم الاستعلامات ليكون واسطة بين الادارة وأصحاب الأعمال فيستقبل العرائض والمطالب ويوجهها إلى أقسامها ليأخذ عنها الجواب فيبلغه لأربابها. وقد عاد هـــذا القلم بالراحة على أصحاب المصالح ومع احتكاكهم بالموظفين مباشرة لما كان معروفاً من أن بعضهم كان يرتشى، وذكرت جريدة الأهرام بعددها الصادر فى ٦ أبريل إطراء لهذه الفكرة.

نظافة المساجد: وفى أول أبريل أديت فريضة الجمعة بالمسجد الحسينى وتفقدت حالة المسجد وملحقاته ومرافقه، وكان معى بعض كبار الموظفين فى الديوان فلفت نظرهم إلى العناية بالمساجد ونظافتها، وخصوصاً دورات المياه منعاً للأمراض ومحافظة على حرمة المساجد وجلالها.

ولبثت أؤدى صلاة الجمع فى مساجد مختلفة دون علم القائمين بأمرها لنفس هذه الغاية حتى يشعر المباشرون لها أن هناك رقابة على أعمالهم، فكان لذلك أثره الحسن.

تعيين مفتش للمعاهد من غير العلماء: ثم فكرت فى إدخال بعض العناصر الجديدة فى الأزهر بقصد إصلاحه، فتقرر تعيين عبد الغنى شاكر بك مفتشاً لادارة المعاهد الدينية وسكرتيراً لمجلس الأزهر الأعلى، ولكن هذا التعيين أثار ثائرة العلماء باعتبار أن منصب مفتش إدارة المعاهد من حقهم وأن عبد الغنى بك غريب عن الأزهر، فرفعوا عرائض بالاحتجاج لشيخ الأزهر، وكذلك جاءنى الشيخ على سرور الزنكلونى والشيخ محمد الشنوانى وشكوا إلىّ من هذا القرار والتمسا النظر فيه.

وقد رأيت موافقتهما والسير فى الاصلاح الذى أقدره بخطوات وئيدة فوعدتهما بأن يكون عبد الغنى بك سكرتيراً فقط للمجلس الأعلى وتركت التفتيش لادارة الأزهر وأرسلت التعليمات الخاصة بذلك إلى المشيخة.

توسيع اختصاص الموظفين: ولاحظت بعد ذلك أن حصر السلطة فى يد واحدة وحرمان الموظفين إلا من سلطة محدودة يقلل من تفكيرهم وتصرفهم، ويجعلهم آلات تتحرك دون أن تفكر، وقدرت أن توزيع السلطة يزيد عدد العقول المفكرة فى الأعمال، ويعطيها الفرصة الكافية لتنتج وفى الوقت نفسه يخفف العبء الثقيل الملقى على عاتق الرئيس.

تجمعت فى منزلى كبار الموظفين والمأمورين للتفاهم معهم فى توسيع اختصاصهم وألقيت عليهم الكلمة الآتية :

« قد جمعتكم اليوم للمداولة فى الأمور المختصة بوظائفكم لعلنا نهتدى من مبادلة الأفكار معكم إلى نتيجة تزيد فى تحسين الأحوال وتعلى من سمعة الديوان .

« ثم أوصيكم قبل كل شىء بصفتكم نائبين فى الجهات عن مدير الأوقاف أن تكون علاقتكم مع الادارة فى الأقاليم وفروع الحكومة خصوصاً المحكمة الشرعية ، لارتباط أعمالكم بأعمالها فى كثير من الأمور ؛ على أحسن حال وأهدى سبيل وأن تجتهدوا دائماً فى تحسين هذه العلاقات لتسهل الوسائط فى إنجاز أعمال الأوقاف .

«وأود منكم بصفتكم ممثلين لديوان الأوقاف أيضاً، وهو المصلحة الخيرية المتشعبة العلاقات مع طبقات الناس، أن تكون معاملتكم للأفراد قائمة على الطريقة المثلى والخطة الحسنى وألا تشوب سيرتكم الخصوصية شائبة تضع من أقداركم فى النفوس وتزرى بكم فى العيون . نعم ربما يقال إن السيرة الشخصية تتعلق بشخص الانسان ولا دخل لها فى وظيفته ما دام مؤدياً لها أحسن الأداء ؛ لكننى أرى أن الموظف إذا جمع إلى حسن الادارة حسن السيرة ، كان ذلك أليق به وأكمل له ، واحترام الموظف لنفسه يكسبه احترام الناس ، خصوصاً من كان حوله من العمال فتربى له فى النفوس سلطة أدبية هى فى الواقع أرفع وأنفع من السلطة المادية ، وتلك هى زينة الوظيفة وجمالها .

« ثم إنى أود أن يكون المأمور منكم عالماً بكل ما تحت إدارته محيطاً بأطراف عمله ، فاذا سئل عن أى شىء من هذا القبيل كان جوابه عن علم ومعرفة وألا يكتفى بالنظر فيما أمامه من الأعمال الكتابية فوق مكتبه وإنجازها فقط ، بل يجب عليه أن يتنقل فى أنحاء مأموريته ويطلع بنفسه على جميع الأماكن والمحال المتصلة بادارته .

« والآن أطلب منكم أن تبدوا لى ما يعن لكم من الملحوظات فى مشروع الأمر الادارى المتعلق بتوسيع اختصاصاتكم . »

وبعد أن استمرت الجلسة أكثر من خمس ساعات صدر الأمر الادارى مفتتحاً بالمقدمة الآتية :

« قد رأينا أن نوسع لكم فى اختصاصاتكم ما لم يكن لكم من قبل وقصدنا بذلك أن يكون فى أيديكم من سعة الاختصاص ما يؤهلكم إلى الاحسان فى العمل ويوصلكم إلى

الارتقاء فى الأعمال والوظائف ولتدركوا عظم المسئولية التى توازى سعة الاختصاص وقصدنا من جهة أخرى توفر الوقت فى العمل للتمكن من إنجاز الأشغال فى أوقاتها وانتظام السير فيها على وجه السرعة . وقد بدأنا باعطائكم بعض الاختصاصات على سبيل الاختبار لنبنى حكمنا فى المستقبل على سيركم فيها . »

كان لهذه الخطة أثر حسن جداً وعلقت عليها الصحف باستحسان وألحت على اتباعها فى جميع دواوين الحكومة .

تعديل المجلس الأعلى للأوقاف : فى ٢٧ يوليو صدر لى أمر خديوى بتعديل هيئة المجلس الأعلى فى ديوان الأوقاف . وخلاصته أن هذا المجلس يؤلف من مدير عموم الأوقاف رئيساً ومن رئيس الديوان العربى الخديوى ومفتى الديار المصرية ومحافظ مصر والعضو المندوب عن القاهرة فى مجلس شورى القوانين وموسى غالب باشا المهندس والدكتور محمد شكرى باشا . وحسين واصف بك المهندس بالأشغال أعضاء . وينوب رئيس الديوان العربى عن الرئيس عند غيابه .



حسين واصف بك المهندس

رحلة لزيارة مأموريات الأوقاف :

وفى ١٥ أغسطس سافرت إلى الوجه البحرى لزيارة مأموريات الأوقاف وتفقد أحوالها والوقوف على ما يعوزها من وسائل الاصلاح والتحسين . وكان يرافقنى محمد سليمان أباظة بك مدير قسم الزراعة بالأوقاف ومحمد افندى وجيه السكرتير الخاص . وقد بدأنا بزيارة مديرية البحيرة فمررنا على أملاك الأوقاف بدمنهور وعاينا ما تحتاجه من التعمير ثم قصدنا زراعتى الابراهيمية وجنبواى وغيرهما فوجدناها جميعاً فى حاجة للاصلاح وقد تقرر فتح اعتماد قدره ثلاثون ألف جنيه لذلك .

وفى ٢٠ منه زرنا زراعة مشتهر فى القليوبية ، ثم سافرنا إلى الزقازيق فتفقدنا زراعة كفر الحمام ومأمورية الأوقاف بها وكانت فى حالة مرضية .

وفى ٢٣ منه كنا فى قلين وشباس ، ثم زرنا مأمورية المحلة فى اليوم التالى وتفقدنا وقف أبى العباس والمساجد فى البندر ومدرسة الجمعية الخيرية بها .

وذهبنا للمنصورة يوم ٢٧ منه فعاينا الأملاك بها وشاهدنا زراعات طلخا ثم شربين وسررت من حالتها .

وانتهت الرحلة يوم ٢٩ منه فعدت إلى الاسكندرية .

رحلة إلى مرسى مطروح : وفى أول سبتمبر ركبت الباخرة عبد المنعم ومعى محمد على دلاور بك مدير الادارة ويوسف بك لطفى مأمور الأوقاف فى الاسكندرية والشيخ محمد بخيت قاضى الثغر الشرعى وغيرهم من موظفى المصلحة قاصدين مرسى مطروح لافتتاح مسجد جديد قررت الأوقاف تشييده من قبل وأنفقت عليه نحو ألف وخمسمائة جنيه.

وقد وصلنا فى اليوم التالى فاستقبلنا نائب قومندان خفر السواحل بصفة عسكرية ثم ركبنا الهجن إلى أن وصلنا إلى مسجد « سيدى العوام » حيث استقبلنا مأمور المركز وموظفوه فى سرادق أعد لذلك وكذلك أعيان الجهة والتجار ومشايخ العربان . وبعد أن أقام العربان حفلة « برجاس » ألقيت خطبة أعلنت فيها افتتاح المسجد باسم الخديو

٢



١ ٣ ٤ ٥ ٦

افتتاح مسجد مرسى مطروح

(١) ابراهيم أدهم بك (٢) يوسف لطفى بك (٣) محمد على دلاور بك (٤) أحمد شفيق باشا
(٥) الشيخ محمد بخيت (٦) الشيخ محمد البوريني

فهتف الجميع بالدعاء لسموه وتناولنا المرطبات فى السرادق ثم أدينا فريضة الجمعة بالمسجد وخطب الشيخ بخيت وعدنا للباخرة .

وفى الساعة السادسة مساء قمنا من مرسى مطروح فوصلنا الاسكندرية صباح ٣ سبتمبر ثم عدت إلى القاهرة فى ١٠ منه .

الاحتفال بذكرى محمد على الكبير : جرت عادة ديوان الأوقاف أن يحتفل فى يومى ١٣ و ١٤ من رمضان كل عام فى مسجد القلعة بذكرى وفاة محمد على الكبير وذلك بقراءة القرآن وتوزيع الصدقات . وقد رأيت أن الاكتفاء بذلك لا يمثل ذكرى المحتفل به حق التمثيل وأن اللازم ذكر شىء من تاريخه فى هذه المناسبة ، فكتبت فعلا خطبة بها شىء عن إصلاحات محمد علىّ ، على أن يلقيها الشيخ محمد راشد إمام الحضرة الخديوية فى المسجد . ولما كان الخديو فى أوربا فقد أناب عنه دولة شقيقه البرنس محمد على وحضر النظار وكبار الموظفين كالمعتاد وبعد قراءة القرآن وقفت وألقيت الكلمة التالية :

« ورد فى الحديث المأثور : « اذكروا محاسن موتاكم » . وفى ذكر هذه المحاسن من تمجيد أعمال السلف وتخليد آثارهم ما يجرى مجرى حسن الجزاء على ما أتوه من جليل الأفعال وما اتصفوا به من حميد الصفات فهو حق لهم فى ذمة الخلف يجب علينا القيام به وحسن أدائه لهم . ولما كانت هذه الليلة ليلة الاحتفال بذكرى وفاة ذلك البطل العظيم رأس هذه العائلة المالكة فقد رأينا من الواجب المحتم أن نذكر شيئاً من آثاره على طريق الاجمال والاختصار بوجه عام ، فوضعنا فى ذلك نبذة جعلناها كالفهرست لتلك الأعمال الجليلة نضيف اليها فى كل عام إن شاء الله تفصيل ما أجملناه وتوضيح ما لخصناه . وإنى أستأذن دولة البرنس النائب عن الحضرة الفخيمة الخديوية بسماعها والله يتقبل منا صالح الدعوات لصاحب هذا الضريح فى هذه الليلة المباركة إنه بالاجابة جدير . »

ثم وقف الشيخ راشد فألقى الكلمة التى سبق أن كتبتها لتلقى فى هذه الليلة.

حالة التكايا والمساجد : لما كانت التكايا داخلة فى اختصاص الأوقاف وقد سمعت عنها أموراً غير مشرفة مع أنها لم توجد إلا لمساعدة المحتاجين ، كلفت مأمور قسم ثالث أوقاف أن يبحث هذه المسألة ويكتب لى عنها تقريراً وعن حالة المساجد التى تقع فى دائرة اختصاصه . وقد بعث إلىّ بالتقرير الأول فى ٦ سبتمبر وبالتقرير الثانى فى ٢٠ منه ، فثبت لى أن حالة التكايا أسوأ مما بلغنى عنها ، وأنها أصبحت ملجأ لغير

المحتاجين ، على حين أن المستحقين فيها لاينالون أرزاقهم ؛ وأصبح بعضها مباءات للفساد بسبب إهمالها وعدم تنظيم شئونها .

وقد قررت بعد ذلك أن يكون في كل تكية سجلات خاصة بأسماء الفقراء يوقعون فيها على ما يتسلمونه من الصدقات منعاً للتلاعب ، مع تغيير بعض مشايخ التكايا المفسدين .

أما حالة المساجد فقد علمت من التقرير أن بعضها فتحت أمامه وبجواره مقاهٍ تزدحم بروادها وتعطل شعائر الصلاة بضوضائهم ، فكتبت إلى نظارة الداخلية لحظر هذا الأمر وإغلاق هذه المقاهي وعدم التصريح بفتحها بجوار المساجد .

التوظيف والترقي فى الديوان : إن التكلم على التوظيف فى ديوان الأوقاف لمن النقط الأساسية التي عليها قوام العمل، خصوصاً وقد ذهب الناس مذاهب شتى فى أمره وأطلقوا فيه من الظنون ما لا يصادف الواقع؛ فهم يتوهمون أن مجرد كون الديوان مصلحة خيرات وإحسان كاف لأن يقبل كل ملتجىء إليه طالب للخدمة دون أن يكون للكفاءة والنظام ورعاية وجوه الميزانية موضع من الاعتبار .

توهموا هذا وتوهموا أن الديوان لا يرد رجاء راج ما دام متوسلا بشفاعة أو محسوبية فتصوروه مملوءاً بالعاطلين الذين ضاقت فى وجوههم سبل العيش وأعجزتهم وسائل الرزق وصدوا عن كل عمل . وفى هذا القول مبالغة شديدة وغلو ظاهر .

والحق أن الديوان قد درج فى المدة الأخيرة فى أمر التوظيف على خطة اختيار الأكفاء الذين تستقيم بهم حركة الأعمال ملتزماً حدود ميزانيته جارياً على حكم نصوص القانون المالي ولوائح الاستخدام التي تسير عليها الحكومة فى ترتيب الدرجات وفى التعيين والترقي والعلاوة والمعاش .

انتقاء الموظفين : وقاعدتنا فى انتقاء الموظفين إذا خلت وظيفة فى الأوقاف أن ننظر فى استعداد موظفيه وكفاءتهم وحسن سابقتهم فى الخدمة فننتخب من بينهم أليقهم لها وأحقهم بها أو نعمد إلى الكفء الذي شهد له عمله فى خدمة الحكومة فنعينه أو نعلن عنها فى الصحف ليتقدم إليها أرباب الشهادات من متخرجي المدارس أو من مرفوتي الحكومة حتى إذا اجتمعت الطلبات عرضت على لجنة من رؤساء الأقسام لاختيار أكفأ الطالبين وأعظمهم أهلية للوظيفة التي يراد التعيين فيها .

حالة بعض الموظفين : وقد أكون مبالغاً إذا لم أستدرك على ذلك القول بأنه يوجد بالطبع بجوار الأكفاء المستخدمين عدد قليل الأهمية واللياقة سواء كان بين كبار الموظفين أو بين صغارهم .

وقد تأكدت من ذلك بنفسى أثناء طوافى بمأموريات الأوقاف فى الوجهين البحرى والقبلى إذ سألت أحد المأمورين عن مقدار المبالغ المتأخر تحصيلها عنده فأجاب بأنها لا تتجاوز مائة وخمسين جنيهاً وهى فى ذمة رجل مضمون ولما طلبت من كاتب الحسابات كشفاً ببيان هذه المبالغ ظهر أنها تقدر بآلاف الجنيهات . فلما راجعت المأمور أجاب بأن ما زاد على المائة وخمسين جنيهاً إنما هو قيمة المبالغ المرفوع بها قضايا أمام المحاكم، وكأنه قد جرى فى خياله أن مجرد تقديم القضايا إلى المحكمة يخرج مبالغها عن وصف كونها مبالغ متأخرة فهى لا تستحق منه اهتماماً ولا ترتقى قيمتها عنده إلى مجرد ذكرها . ومن ذلك تتبين درجة تقدير هذا المأمور لعمله ومسئوليته . كذلك لاحظت أن أحد المأمورين لا يعرف مواقع المساجد من المدينة التى يقيم فيها منذ أكثر من سنة ؛ وهذا وحده يدل على قدر اهتمامه بها ومبلغ تعهده لها . وإنما ضربت هذين المثلين لأهمية الموظفين المشار إليهما ، وأما الحال فى صغار المستخدمين فلا يعدم الناقد أن يجد من بينهم من تجرد عن الكفاءة والأهلية ، وسنبذل الجهد إن شاء الله فيما تنتظم به الأمور وتستقيم به الأحوال .

تعيين تلامذة : وقد اتخذنا طريقة جديدة لاعداد الموظفين فى الدرجات الصغيرة وتمرينهم على العمل حتى يتدرجوا فى الوظائف محيطين بأعمالها فقررنا عشر وظائف تلامذة مرتب كل منها ثلاثة جنيهات ينتخب لها عشرة أشخاص من حاملى الشهادة الابتدائية بعد الاعلان عنها فى الصحف؛ وقد كان ذلك ، وهم الآن يتنقلون فى أقسام الديوان وفروعه للتمرن على أعماله قسما بعد قسم حتى إذا خلت وظيفة من الدرجة السابعة التى بدايتها خمسة جنيهات ونهايتها تسعة ، ألحق بها التلميذ سواء كان فى أقسام الديوان أو فى مأمورياته .

الظهورات : وهناك باب آخر من أبواب التوظيف ربما تناولته الشبهات وكان محلا للظن بأن التعيين فيه جار على حسب الأغراض والأهواء وهو باب الظهورات . وقد رأينا من المصلحة منذ تولينا إدارة الديوان أن نضيق حدوده ما أمكن وأ لا نجدد بعد الآن شيئاً من هذه الوظائف . ورأينا من جهة أخرى أن نتدرج إلى تثبيت هؤلاء

العمال الظهورات الموجودين الآن شيئاً فشيئاً حتى ينتهى الأمر على طول الزمان بسد هذا الباب الذى ربما كان موضعاً لعبث الأيدى فى الرفت والتعيين .

وقد رفعنا بذلك مذكرة إلى المجلس الأعلى نالت مصادقته وقررنا فيها وجوب تثبيت العامل الظهورات متى توفرت فيه شروط أربعة وهى: (١) أن يكون حائزاً لرضا رؤسائه شاهدين له بالكفاءة والاستعداد وحسن السلوك (٢) ألا يكون وقع عليه مدة خدمته من الجزاءات التأديبية ما يمس جوهر وظيفته (٣) أن يكون أمضى فى خدمة المصلحة ثلاث سنوات على الأقل (٤) ألا يكون به داء عضال .

ومما يحسن ذكره فى هذا المقام ، للدلالة على ترقى حالة التوظيف فى ديوان الأوقاف ومراعاة المستخدمين فيه ، من حيث إنالتهم كل ما يستحقونه من الترقية والعلاوات بلا تقتير ولا تفريط وحسن معاملتهم فى تطبيق نصوص القانون فى أمر معاشاتهم، أن موظفى الحكومة كانوا قبل الآن يعتبرون خدمة الأوقاف أقل درجة فى الشأن من خدمة الحكومة فكانوا لا يقبلون عليها ؛ أما الآن فقد ظهرت شدة ميلهم لخدمتها رغبة فى التمتع بمزايا إدارتها .

هذه هى حال التوظيف فى ديوان الأوقاف بقيوده وشروطه الآن ؛ إلا أنه مع علم بعض الناس بها لا يزال لهم ولع بالسعى والرجاء وراء التوظف به . فاذا ذكرت لهم هذه القيود ، رددوا القول بأن المصلحة خيرية لاينبغى فيها التدقيق فى بذل الخير للضعفاء والمعوزين بتعيينهم فى الوظائف التى ينالون بها وجوه العيش ويتوسلون بها إلى أبواب الرزق . ولكنه قول باطل ونظر ضعيف ، فان الخير كل الخير للناس وللواقفين ولمصلحة الأوقاف أن يكون الموظف المؤتمن على مال الوقف وإدارته من خير الناس وأكفأ العاملين ، وأضرب لك مثلا أن رئيس الحكومة محمد سعيد باشا أوصانى على شخص لتوظيفه فعرضت عليه الدخول فى الامتحان فأبى . ولما سألته عن مؤهلاته ، لم أر منه الكفاءة لأخذ الوظيفة التى كان يرغب فيها فرفضت طلب الباشا . وتصادف وجوده فى المنتزه عندما توجهت لأداء صلاة الجمعة مع الخديو ففاتحنى أمام سموه عما فعلته بخصوص الشخص المذكور فأجبته بأنه غير لائق لدخوله فى الوظيفة المطلوبة له فقال بالنظرية السابق التنويه عنها فرددت عليه بأنى لا أقبل أن يحسب علىّ موظف غير كفء للقيام بوظيفته فاذا كان الغرض مساعدته على معاشه فليكن من باب الاحسانات وما على الباشا إلا أن يلتمس من أفندينا تخصيص مرتب له فكان عباس من جانبى .

أما الترقية فقد انهالت منذ وطأت أقدامى هذه المصلحة رسائل التوصية بترقى بعض الموظفين فكنت أؤشر عليها للبحث فى ملفات خدمتهم فان وجدت من بينهم المستحق كتبت اسمه فى كشف المستحقين لترقيته فى الوقت المناسب والباقى أرفضه ولو كانت التواصى من رجال المعية أو من النظار . فان أحد النظار طلب ترقية لأخيه وآخر لابن مرضعته فرفضت لعدم استحقاقهما لأننى لو أجبت طلبهما لانتقد علىّ الموظفون ورمونى بالمحاباة .

وكان بعض أصدقائى يرتكنون على مودتى لهم فيطلبون ترقية بعض المنتمين إليهم ولكننى كنت أتبع نفس هذه الطريقة .

وفاة ملك الانجليز . فى يوم ٧ مايو وصلت البرقيات بوفاة ملك الانجليز إدوارد السابع ، وقد أرسل سمو الخديو عقب وصول هذا الخبر برقية من الاسكندرية إلى السير الدون جورست يعزيه فيها هو والحكومة الانجليزية وهذا نصها :

« علمت الآن الخبر الرهيب بوفاة جلالة الملك إدوارد السابع فجأة ، فأرجو أن تبلغ تعزيتى للحكومة الانجليزية وتعرب لها عن مشاركتى لها فى أحزانها . ولو كنت بالقاهرة لحضرت بنفسى إلى الوكالة البريطانية لأعرب لكم عن كل ما أشعر به فى هذا المصاب المحزن الأليم ، ولكن نظار حكومتى سيزورونكم ليعربوا لكم عن أسف حكومتى ومشاركتها للحكومة الانجليزية فى أحزان هذا اليوم الذى نشترك كلنا فيه . »

البرنس محمد على يشيع الجنازة : وفى ٩ منه سافر سعيد ذو الفقار باشا التشريفاتى الأول واللواء واطسن باشا والصاغ محمود خيرى من الياوران إلى لندن ليلتقوا هناك بالبرنس محمد على للاشتراك فى تشييع جنازة الملك .

احتفال بالجنازة فى ثكنة قصر النيل : وفى ٢٠ منه احتفل فى ثكنة



البرنس محمد على

قصر النيـل بجناز للملك المتوفى ، وحضر هذا الاحتفال البرنس حسين كامل باشا وكثير من البرنسات والنظار ووكلاؤهم وأعضاء مجلس شورى القوانين ، وكنت ممن حضروا هذا الاحتفال بصفتى مديراً لديوان الأوقاف العمومية .

وفى الساعة الخامسة عزفت الموسيقى بألحان محزنة وأقبل الموكب يتقدمه رئيس كهنة البروتستانت ويحف به رجال الدين حتى وصل إلى منصة فى وسط ساحة الشكنة فاعتلاها الرئيس وتليت الصلوات المعتـادة ، ثم أطلقت المدافع ونشر العلم البريطانى لحياه الجنود الانجليز هاتفين للملك الجديد « جورج الخامس » . وبذلك انتهت الحفلة ، وخرجنا بعد أن قدمنا للسير جورست عبارات التعزية ثم التهنئة بالملك الجديد .

سفرى للإسكندرية لقضاء فصل الصيف كالنظار . وفى ١٤ يونيو سـافرت إلى الاسكندرية لقضاء فصـل الصيف وأخذت محـلا خصيصاً لأعمـــال الديوان فى سان استفانو .

اختيارى لرياسة لجنة امتحان مدرسة المعلمين الناصرية . كان أحمد حشمت باشا ناظر المعارف طلب منى قبول رياسة امتحان مدرسة المعلمين الناصرية فى أواخر شهر مايو الماضى، فقبلت هذه المهمة . وبعد انتهاء الامتحان والتصحيح والمراجعة رفعت لناظر المعارف تقريراً فى ١١ يوليو عن حالة المدرسة ، وهذا نصه :

« بناء على إفادة نظارة المعارف العمومية المتضمنة لانتخابى رئيساً للجنة الامتحان بمدرسة المعلمين الناصرية :

« أتشرف بأن أرفع إلى سـعادتكم تقريرى هذا بعد اطلاعى على جميع التقارير المقدمة من حضرات الممتحنين . وأنتهز هذه الفرصة فأؤكد لسعادتكم بأن نظام الامتحان كان بالغاً حداً يوجب الاعجـاب والاستحسان بهمة سـعادة ناظر المدرسة وحضرات الممتحنين والمراقبين .

« قد تبين لى من جمـلة تلك التقارير أن هذه المدرسة تسير سيراً جميلا فى طريق التقدم والفلاح . وأن النتيجة فى هذا العام كانت أحسن منها فى العام الماضى جرياً على سنة الترقى . وقد وجدت فيها من الملاحظات والآراء ما يليق أن يوضع موضع النظر والعناية طلباً للكمال والاتقان .

« والذى تتجه إليه الأفكار وتجتمع حوله الآراء هو وجوب صرف الهمة فى هذه المدرسة إلى العناية بتقدم فن الانشاء. لأنه مقصد المقاصد من التعليم فيها ما دامت الغاية منها تخريج الطلبة إلى وظيفة المعلمين للغة العربية .

« ولا وصول إلى هذا الغرض إلا بكثرة الدرس لتربية ملكة الانشاء . وهذه الملكة لا تنمو وتغزر مادتها بمجرد حفظ قطع معينة من النظم والنثر ، فان الاقتصار على طريقة الحفظ وحده تنتهى بالطالب الى أنه يعتمد كل الاعتماد على الاتيان بما حفظه دون أدنى تصرف . ومن المحقق أن سلوك هذه السبيل مما يعطل تربية الملكات التى لا تتأتى إلا من طريق تصرف الذهن وتشعب الفكر . ولا يتيسر تكوينها إلا بكثرة المطالعة فى الكتب المشتملة على جيد القول وحر الكلام فينتقل الطالب فيها ما شاء من باب الى باب ومن مطلب الى مطلب من غير كدّ ولا استكراه وبدون أدنى سأم أو ضجر فيتولد عنده حينئذ من الارتياح والاشتياق ما يجعل ذهنه منبسطاً لالتقاط محاسن التعبير وبدائع التراكيب بما تنمو عليه الملكات الصالحة . هذا فضلا عن اتساع محصوله من العلوم والفنون التى يتقلب فى أبوابها أثناء المطالعة فى مثل تلك الكتب المطولة فيتكون لديه منها ومن جملة ما يحفظه من قطع النظم والنثر مادة غزيرة يتصرف بها فى وجوه الكلام والانشاء .

« فأرى لأجل ذلك مطالعة كتابين أو ثلاثة من هذا القبيل مثل كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وكتاب الكامل لأبى العباس المبرد وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه وما يماثلها من كتب الأدب واللغة والتاريخ .

« وأرى فوق ذلك من وجوه التحسين ، أن يعين درس محاضرة فى آداب اللغة مرة فى كل أسبوع حتى يتمرن الطلبة بكثرة المناقشة والمباحثة على قوة التصرف وصحة الرأى فيتكون لهم بذلك حكم يقدرون به على تصريف عقولهم دون الاتكال على أحكام الغير ، ويكون لفكرهم تحكيم فى الموازنات ولعقولهم تصرف فى المفاضلات .

« ثم لابد أن يسار بالطلبة فى طريق التفسير للقرآن الكريم ، سبيل التوسع فى التطبيق لأحكامه الشريفة على حاجات الهيئة الاجتماعية نظامية واقتصادية ؛ فلا يقفون به عند حد التفسير اللفظى . ولقد عز علىّ ما رأيته من أحد الطلبة من التقصير فى تطبيقه للآيات الكريمة التى تعتبر أساساً لعلم الاقتصاد وهى قوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين

وكان الشيطان لربه كفوراً » الى قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً . »

« فان الطالب لم يحسن تطبيق معانيها الشريفة على أحوالنا الاجتماعية والاقتصادية التى نحن فى حاجة الى معالجة أدوائها بقوة الأحكام الالهية المؤثرة فى النفوس تأثيراً لا يتسنى لغيرها من الأحكام الوضعية .

« وإن ألزم ما يكون لطلبة هذه المدرسة الذين يتخرجون منها لممارسة صناعة التعليم والتربية ، تضلعهم من علم الأخلاق فانه الأساس لاصلاح النفوس وتهذيب الطباع . وليس ينفع التبريز فى العلوم والفنون ما دامت النفس خالية من فضائل الأخلاق ومحاسن الصفات ؛ بل ربما كان النفع منها موهوماً والضرر محققاً . ولذلك أرى أن يزاد نصيب هذا العلم الواسع فى أوقات الدراسة فان مدته فى البروجرام الحاضر لا تزيد عن ساعتين فى الأسبوع كله فى السنة التحضيرية فقط .

« وأرى أيضاً أن تفتح نظارة المعارف باب الترغيب لمن تعلو درجتهم من الطلبة فى علوم اللغة العربية أدبياً ومادياً . أما الأدبى فهو أن تأمر النظارة بطبع ما تراه جيداً فى باب الانشاء وغيره مما يجيء فى أوراق الامتحان ثم تجعله مجموعة تنشر بأسماء الطلبة المجيدين مع التنبيه على ما يكون فيها من التقصير ثم توزع على سائر الطلبة . وأما المادى فهو أن تقرر النظارة مكافأة أو نوعاً من الترقية لمن يستمر على الاشتغال بما يجيد فيه بعد تخرجه من المدرسة مدة سنتين ويحوز السبق فى الاختبار الذى يخصص لذلك فينشط المتخرجون إلى بلوغ درجة الاتقان فى العلم الذى يصرفون هممهم نحوه كما ألمعنا إلى ذلك فى خطابنا الذى ألقيناه عليهم وكما يشير إليه حضرة الممتحن فى الخط حيث ذكر فى تقريره أنه يوجد أربعة من بين الطلبة حازوا الدرجة النهائية فى هذا الفن وأنه يجب على نظارة المعارف أن تستخدمهم فى مدارس القاهرة للانتفاع بهم وللمحافظة على تقدم الفن حتى يتمكنوا من إتقانه على أساتذته فيصلوا إلى درجة النبوغ فيه .

« وجملة القول أن حال هذه المدرسة يتدرج من حسن إلى أحسن ، خصوصاً إذا نالت من عناية النظارة بها ما تستحقه ؛ وعدلت بعض التعديل فى أوقات الدروس ، بتخفيض بعضها فيما هو ليس بضرورى جداً لطلبتها كالتضلع فى مثل الجغرافيا الطبيعية والعمل الكيماوى ؛ وازدياد بعضها فى العلوم الجوهرية لهم لمزاولة صناعة التعليم المخصصين له مثل علوم اللغة والتفسير وعلوم التربية والأخلاق ، وفى كثرة المطالعة والمحاضرة حتى

لا تكون نسبة الناجحين أقل منها فى الرياضيات مثلا .

« وإننى لأجد نفسى مقصراً عن الواجب إذا أنا ختمت تقريرى هذا ولم أكتب حرفاً عن المنافع والفوائد التى لا تزال هذه المدرسة مصدراً لها فى السابق واللاحق . فكم أنجبت من الطلبة فى مدة خمس وثلاثين سنة منذ إنشائها إلى اليوم وكم انتفعت الأمة بعلومهم ومعارفهم . وكم استفادت الحكومة من استعدادهم للقيام بمهام وظائفها . فهى جديرة بأن تكون فى المقام الأول بالنسبة لحسن سابقتها ولشدة الحاجة إليها اليوم ولضرورة الاستفادة منها فى المستقبل .

« وفى الواقع فان الحاجة شديدة إليها داعية إلى صرف العناية نحو تقدمها وتوسعها إذا نحن ألقينا نظرة إلى النمو المتواتر كل عام فى عدد طلبة المدارس ، أميرية كانت أو حرة . ويكفينا الاطلاع على جداول الامتحان فى هذا العام ليقوم لنا البرهان الواضح على أن الأمة فى حاجة مستمرة الى زيادة عدد المعلمين . ولا يقال إن المدارس المعينة لتخريج المعلمين مما تسد الحاجة أو تقوم بالمطلوب . فاننا إذا نظرنا الى عدد الداخلين فى هذا العام فى امتحان الشهادة الابتدائية وقدرهم ١٨٩٥ من المدارس الأميرية و ٢٥٩٦ من المدارس الحرة و١١٣٣ من المتعلمين فى منازلهم مع ازدياد هذا العدد عاماً فعاماً ، وجدنا عدد المعلمين ينقص نقصاً ظاهراً بالنسبة لهذا العدد العظيم . نعم ربما قامت مدارس المعلمين بالحاجة لمدارس الحكومة الأميرية . ولكن من لنا بوجود العدد اللازم من المعلمين لتعليم طلبة المدارس الحرة ومدارس الجمعيات الخيرية وتعليم الطلبة فى منازلهم ، وعددهم عظيم كما بيناه والزيادة فيه متوالية كما نراه .

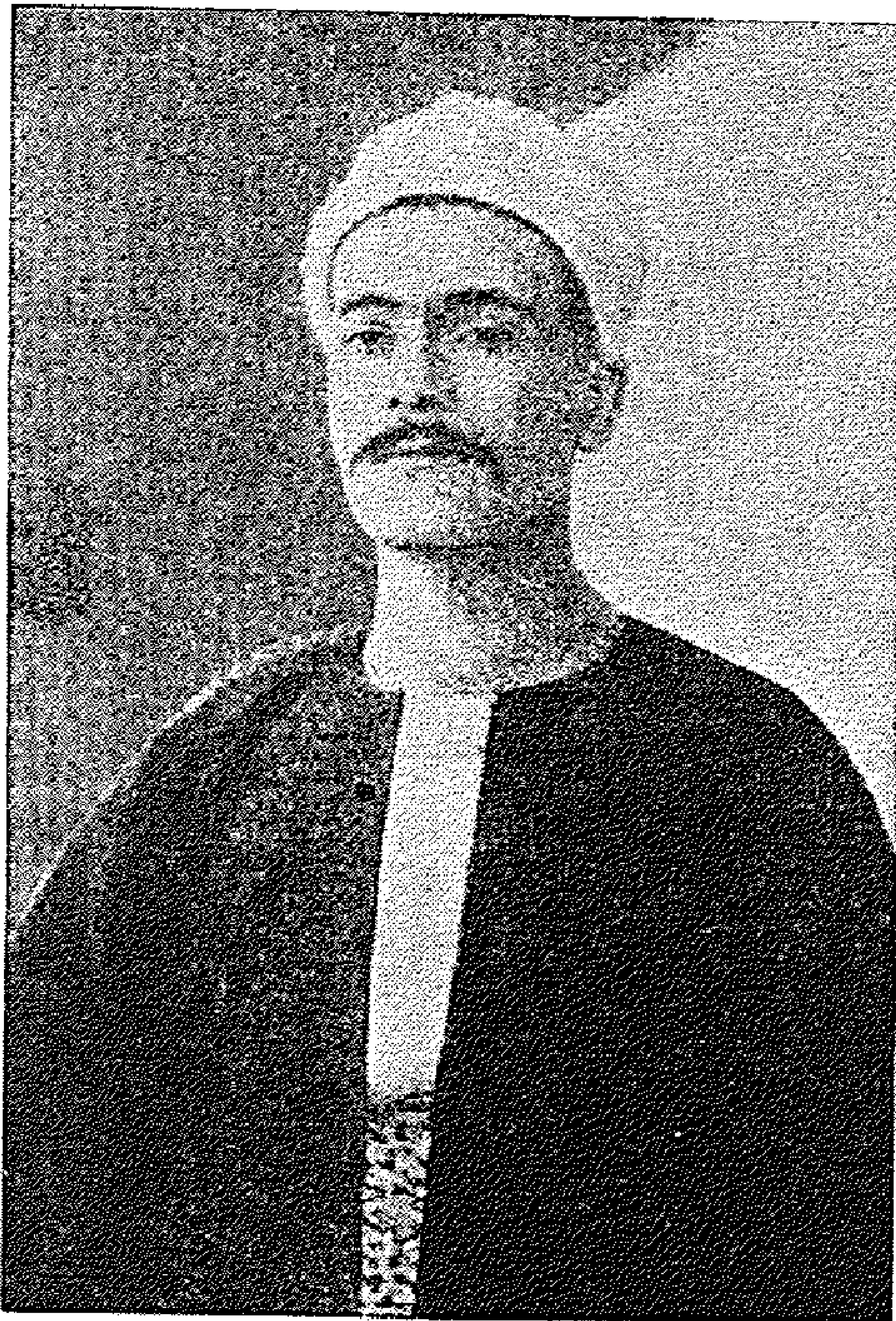
وهناك أمر آخر وهو أننا إذا نظرنا نظرة أيضاً الى أن عناية نظارة المعارف أصبحت متجهة نحو تعميم التعليم فى مختلف العلوم باللغه العربية ، ظهرت زيادة الحاجة الى كثرة عدد المعلمين من هذه المدرسة ووجب صرف العناية الى ترقيتها وتقدمها كل الوجوب لتكفلها بهذا الغرض أكثر من سواها ؛ لا أننا نراها فى ضعف النمو سنة عن سنة . فقد ألغى منها فصل فى هذا العام من السنة التحضيرية فاستبدل الفصلان بفصل واحد . فاذا استمر الحال على هذا المنوال فى كل عام فلا تمضى خمس سنوات حتى تنخفض فصولها الى خمسة فتنحدر هذه المدرسة العظيمة الفائدة فى طريق النقص بدل أن تعلو فى طريق النمو .

وإنما دفعنى الى الاسهاب فى هذا الموضوع ما لا أزال أراه وأسمعه من كل

طرف عن شدة الحاجة والعوز الى وجود العدد العظيم من المعلمين بين الأمة المصرية وأن هذا هو الأمر الأولى المقدم على سواه من وجوه انتشار التعليم فيها . ولو فرضنا أن العناية بهذه المدرسة جاءت بزيادة عدد المعلمين اللازمين فان المتخرجين منها يأتى منهم النفع العام على كل حال للأمة بأسرها ، فضلا عن أن الحكومة ليست مكلفة باستخدام ما يزيد عن حاجتها ولهم فى انتفاع الأمة بهم مكان معلوم .

« وأنا لا أشك فى أن هذه المدرسة ، التى كانت ولا تزال مفخرة المفاخر للمرحوم على مبارك باشا ولمن بعده من رجال الحكومة الذين أنالوها حقها من العناية ، ستكون إن شاء الله بعناية ناظر المعارف الحالى ورئيس الوزراء — وهمتهما فى رقى المعارف مشهورة مذكورة — سائرة فى طريق التوسع والتقدم على نظام يزيد فى علو مكانتها ويضاعف من حسن سمعتها ويكفل دوام الاستفادة منها وانتفاع الأمة المصرية بها ، فتتكفل لوزراء مصر بدوام الفخر وتشهد لهم على الدهر بحسن الذكر . »

وقد ورد لى من ناظر المعارف رسالة الشكر التالية المؤرخة ٢٢ أغسطس وهذا نصها بعد الديباجة : « وصل إلينا التقرير الذى تفضلتم سعادتكم بارساله إلينا عن نتيجة الامتحان النهائى لطلاب مدرسة المعلمين الناصرية الذى جرى هذا العام تحت رئاستكم وإنا لنسدى سعادتكم واجب الشكر الجزيل على هذه الخدمة العلمية الجليلة ونرجو ألا تحرم نظارة المعارف فى جميع الفرص من عظيم مساعداتكم أفندم . »



الشيخ على الغاياتى

قضية ديوان « وطنيتى » .

وفى ١٢ يوليو علمت أن النيابة تحقق فى قضية سياسية خلاصتها أن الشيخ على الغاياتى المحرر بجريدة العلم المنتمى للحزب الوطنى طبع ديوان شعر بعنوان « وطنيتى » فيه

حط من شأن الحكومة وتحريض على العبث بالنظام فاستدعته لتحقق معه ، ولكنه فر إلى تركيا ؛ فاستحضرت الشيخ عبد العزيز جاويش لأنه كتب مقدمة للديوان يثنى على موضوعاته وصاحبه . واسماعيل حافظ صاحب العلم ، لسؤاله عن سبب مدحه وإطرائه لهذا الديوان .

وبعد التحقيق أحالتهما مع آخرين إلى محكمة الجنايات ، فحوكموا فى جلسة ٩ أغسطس بتهم « التحريض على جناية القتل السياسى وكراهة الحكومة والازدراء بها وتحبيذ الجرائم والعيب فى حق الذات الخديوية . »

وقد حكم على الشيخ الغاياتى غيابياً بالحبس سنة مع الأشغال ، وعلى الشيخ جاويش بالحبس البسيط ثلاثة أشهر ، وحكم على الآخرين بشهرين مع إيقاف التنفيذ .

ومما جاء بديوان « وطنيتى » فى مهاجمته للخديو والطعن على خطته :

« أعباس هــــذا آخر العهد بيننا فلا تخش منا بعــــد ذاك عتــابا
أيرضيك فينا أن نكون أذلة ننال إذا رمنا الحيـــاة عقابا ؟
وأرضيت أعداء البلاد وأهلها وأصليتنا بعد الوفاق عذابا ؟ »

وفيه من الدعوة إلى الثورة :

« هل سال فى مصر الدم أم ثار فيهـــا النـــوم ؟
ومضوا إلى أهل الضـــلا ل فأعدموا من أعدموا ؟ »

الخطوة الثالثة لإصلاح الأزهر . كان اللورد كرومر يدرك ما للأزهر من كبير الأثر فى تكوين الرأى العام الاسلامى ، وما يحتاج إليه من الاصلاحات الجمة ، وكان يخشى التدخل فى شئونه خشية أن يتهم المصريون الانجليز بتعرضهم لشئونهم الدينية ، غير أنه كان يعضد بطريق غير مباشر الشيخ محمد عبده وغيره من الرجال القلائل الذين كان يأنس فيهم رغبة الاصلاح وتحرير هذا المعهد القديم من ركود الماضى وأغلاله . فلما توفى الشيخ محمد عبده ، وغادر كرومر مصر ، ضعف الاهتمام بأمر الأزهر وإصلاحه ، ولكن الخديو أدرك بذكائه أنه يجنى مغانم معنوية كثيرة إذا استعمل سلطته الخاصة بشئون الأزهر وعنى باصلاحه ، وأنه يستطيع بهذه الوسيلة أن يزيد نفوذه فى العالم الاسلامى وأن يزيد فى بغض الرأى العام الاسلامى للانجليز ؛ ولهذا رأى أن يأخذ حركة إصلاح الأزهر بيده وعندئذ كانت الخطوة الثالثة للاصلاح .

فبعد أن هدأ الشغب الذى كان قائماً والذى أتينا على وصفه فيما تقدم . وتقرب الزغلوليون من الخديو بالحاق مدرسة القضاء الشرعى بالأزهر — وكان سموه حريصاً على إلغائها ليكون القضاء مختصاً بخريجى الأزهر كما هو شأنه من قديم الزمان — عهد بوضع قانون آخر للأزهر إلى لجنة شكلت من فتحى زغلول باشا وكيل الحقانية واسماعيل صدقى باشا وعبد الخالق ثروت باشا فوضعوا المشروع على أساس أن تكون جميع المعاهد ملحقة بالأزهر ومجلس إدارته ، وأن ترجع إلى المجلس الأعلى بواسطته ؛ ولكن الخديو لما عاد من السفر وقرىء المشروع أمام لجنة عقدت برياسته برأس التين من بينها رئيس النظار محمد سعيد باشا وحسين رشدى باشا وفتحى زغلول باشا وشيخ الجامع الأحمدى الشيخ محمد حسنين وشيخ معهد الاسكندرية الشيخ أبو الفضل وأنا . وتليت المادة المتعلقة بالالحاق المذكور ، ناقشها الخديو مناقشة وجيهة قضت بتغييرها . وتغيير كل ما بنى عليها من المواد ، وجعلت المعاهد كلها تابعة للمجلس الأعلى مباشرة ولكل معهد مجلس إدارة خاص به كالأزهر .



عبد الخالق ثروت باشا

ثم وجه الخديو سؤالا إلى شيخ الجامع الأحمدى قائلا : « هل إذا ثار الأزهر مرة ثانية تثور المعاهد الملحقة به بمقتضى هذه المادة ؟ » فأجابه بأن معهد طنطا لم يسلم من شر هذه الفتنة إلا بقطع العلاقات بينه وبين الأزهر وطلابه وشيوخه فى هذه المدة . فكانت المشيخة لا ترخص لأحد من الأزهريين بدخول المسجد الأحمدى فى أى وقت من الأوقات ، لا للزيارة ولا لشىء إلا إذا قابل شيخ الجامع الأحمدى فى مكتبه بالمسجد ، بل كنا نعمل على مطاردتهم من المدينة . وكانت المشيخة تضطرهم الى الخروج منها ، وساعدها على ذلك رجال الحكومة فى طنطا . وانتهت الجلسة عند هذه المادة وصدر الأمر بقراءة المشروع وتعديل سائر مواده على أساس القانون نمرة ٢٦ . ولما تم تعديله على هذا النحو وعرض على الخديو ، اقترح شيخ الجامع الأحمدى إرسال

المشروع لمجالس إدارة المعاهد لابداء ملاحظاتهم عليه ثم قدم الى رئيس مجلس النظار محمد سعيد باشا ، فرأى أن يقرأه أولا فى لجنة مشكلة من شيخ الجامع الأحمدى وفتحى زغلول باشا واسماعيل صدقى باشا ؛ وانتهت قراءته على تعديل كثير من مواده ، ثم أخذ بعد ذلك دوراً طويلا فى مجلس الشورى وانتهى الأمر باقراره ، وصدر به الأمر العالى فى ٢٧ سبتمبر ، وعمل به فى المعاهد الدينية .

سـنة ١٩١١

استفحال روح المعارضة . حول الرتب والنياشين لأعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية . رحلتي للصعيد والسودان . الخطوة الثالثة في إصلاح الأزهر . رأي غورست والخديو في المعارضة . المؤتمر القبطي . المؤتمر المصري ومباحثه . حديث غورست والخديو عن المؤتمرين . سفر الخديو للآستانة وأوربا . وفاة رياض باشا رئيس المؤتمر المصري . وفاة غورست وتعيين كتشنر . اتجاه السياسة الجديدة . الإنعام عليّ بنيشان إيطالي . أعمالي في ديوان الأوقاف . الابن الأكبر للسلطان رشاد في مصر لتحية ملك انجلترا

استفحال روح المعارضة . كان مقتل المرحوم بطرس غالي باشا في العام الماضي مظهراً من مظاهر التطرف والتهور في المعارضة التي لم يجد في إسكاتها بعث قانون المطبوعات القديم الذي أبطل العمل به أيام كرومر . فاشتدت الحملات الصحفية على الحكومة ولا سيما في صحف الحزب الوطني ، وكذلك صدر كتاب « وطنيتي » للشيخ علي الغاياتي حاوياً لكثير من الحض على الثورة وتمجيد أعمال المجرمين السياسيين .

ولما كان محمد فريد بك رئيس الحزب الوطني قد كتب مقدمة لهذا الديوان ، فقد قدم للمحاكمة بتهمة تحسين جريمتي الورداني ودنجرا الهندي ، اللذين أطراهما صاحب الديوان في بعض مقطوعاته .

سجن محمد فريد بك : عقـدت الجلسة لمحاكمته يوم ٢٣ يناير برياسة القاضي دلبروغلي الأرمني وعضوية أحمد ذي الفقار بك وأمين بك علي . ومثل النيابة محمد توفيق نسيم بك رئيس نيابة الاستئناف ، وسئل فريد بك عن التهمة الموجهة إليه فقال

ما ملخصه : إن الكتاب ظهر وهو فى أوربا وأنه كتب المقدمة قبل سفره كمقالة يحبذ فيها الجهاد فى سبيل الأوطان وأنها تصلح مقالة مستقلة كما تصلح مقدمة لديوان .

وقد اعترضت عليه المحكمة بأنه قرأ معظم ما حواه الديوان منشوراً فى الصحف ، وبما أنه مطلع على القانون وفاهم للمسئولية فلا بد أن يكون قد عرف أن هذا القول مما يعاقب عليه القانون ، فرد عليها بأن هذا القول يعد عذراً له ، لأن سكوت الحكومة على المؤلف عقب نشره القصائد فى الصحف يعتبر رضا منها به ، ويبيح له تقريظه .

وبعد إتمام المناقشة ترافع رئيس النيابة ، ثم حكمت المحكمة على محمد فريد بك بالحبس البسيط لمدة ستة أشهر .

ولكن هذا الحكم لم يزد أعمال التهييج إلا شدة ، ولما قضى فريد بك مدة الحبس وخرج أقام له أعضاء الحزب الوطنى حفلة تكريم بفندق الكونتنتال بالرغم من أن هذا التكريم نفسه يحرمه القانون لأنه استحسان لجريمة .

المعارضة فى مجلس شورى القوانين : فى العام الماضى كان للجمعية العمومية موقف مشهود فى مسألة مد أجل قناة السويس ، دل على تنبه الأفكار ، وقوة روح المعارضة التى ظلت تنتهز كل فرصة لتطلب توسيع سلطة النواب ومنح الدستور للبلاد وعرض المسائل المالية .

وفى هذا العام تألفت جبهة معارضة فى مجلس شورى القوانين قوامها أعضاء حزب الأمة فى المجلس .

حول الرتب والنياشين لأعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية .

وقد اقترح أعضاء المعارضة إصدار قانون يقضى بعدم منح أعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية رتباً أو نياشين ، وذلك منعاً لسوء الظن بهم ، وضماناً لاستقلالهم عن السلطة التنفيذية .

وقد كان هذا الاقتراح مثار ضجة كبيرة داخل المجلس وخارجه ، وانتهى بالرفض من الأغلبية .

تكريم المعارضين : وقد تألفت لجنة بعد ذلك لتكريم ممثلى المعارضة فى مجلس شورى القوانين ، وأقامت لهم حفلة فى فندق الكونتنتال يوم ١٠ أبريل وهم : محمود سليمان باشا وعلى شعراوى باشا ومرقس سميكة بك وفتح الله بركات بك وأحمد بك حبيب

وخطب فى الحفلة حسن عبد الرازق بك ، وأحمد عبد اللطيف المحامى وابراهيم الهلباوى بك ويوسف شكور باشا وأحمد لطفى السيد بك ، ورد عليهم مرقس سميكة بك .

تكريم الأغلبية : وقد كان الرد على هذا التكريم ، تكريماً آخر لأعضاء الأغلبية بفندق سافوى أوتيل يوم ١٥ أبريل برياسة حسن زايد باشا ، وخطب فى الحفلة الشيخ على يوسف صاحب المؤيد وحسين هلال بك وحسن زايد باشا والسيد محمد رشيد رضا وموسى غالب باشا .

رحلتى للصعيد والسودان . فى مدينة الخرطوم مسجد قديم له أوقاف خاصة . وقد تهدم هذا المسجد فشرعت الحكومة السودانية فى إنشاء مسجد جديد ثم خابرت ديوان الأوقاف فى موضوع إتمام هذا المسجد على نفقته طالبة مدها بمبلغ ١٩٩٠٠ جنيه لهذا الغرض . لذلك وحيث إن أوقاف المسجد القديم قد اندثرت رأيت أن أسافر إلى الخرطوم لبحث هذه المسألة فى مكانها مع رجال الحكومة السودانية وحصلت على إذن سمو الخديو بهذا السفر .

ورأيت انتهاز هذه المناسبة للمرور على مأموريات الأوقاف ومزارعها ومساجدها ومدارسها بالوجه القبلى فجمعت كل اللازم من المعلومات عن المستخدمين وكفاءتهم من تقارير رؤسائهم المختلفين .

وقد بدأت رحلتى مساء يوم ١٥ يناير على باخرة نيلية وضعتها تحت تصرفى دائرة المرحوم على باشا فهمى مستصحباً السكرتير الخاص (محمد وجيه افندى) وباشمهندس الديوان (محمود فهمى باشا) وقد رافقتنى حرمى وصديقتنا مدام تقلا باشا ووصلت إلى بنى سويف فى اليوم التالى وزرت مسجدها ومأمورية الأوقاف بها ثم غادرتها إلى ببا فزرت مأموريتها وزراعتها وزراعة أبسوج وسدس فوجدت حالتها جيدة إلا أن المصارف كانت فى حاجة للتطهير فى زراعة ببا .

وفى ١٩ يناير وصلت بنى مزار فزرت مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية وتفقدت حالة التعليم بها ثم سافرت إلى المنيا فاستقبلنى بها مديرها ووكيلها و موظفو الأوقاف . وبدأت بزيارة مساجد المدينة وانتهيت بمسجد الامام الفولى حيث أديت فريضة العشاء ثم حضرت الدرس الدينى به .

وفى الصباح قصدت مأمورية الأوقاف ثم زرت المدير والقاضى الشرعى وشكرت لهما عنايتهما بمسائل الأوقاف .

وفى مساء ٢٢ منه وصلت إلى ملوى ، وفى صباح اليوم التالى زرت مساجدها وأطيان وقف فاضل باشا وتنوف والبورة ، وبعد الظهر زرت مأمورية الأوقاف ومكتبين تابعين لها .

وفى صباح ٢٤ منه قامت بنا الباخرة إلى أسيوط فاستقبلنى مديرها ابراهيم صبرى باشا ، وبعد الاستراحة توجهت إلى ديوان المديرية لرد الزيارة . كما زرت رؤساء المحكمتين الأهلية والشرعية والنيابة وشكرتهم على اهتمامهم بمسائل الأوقاف . ثم زرت مدرسة الصنائع وكان يديرها حضرة أمين بهجت بك والمدرسة الأميرية الابتدائية وهى تسكن فى دار تحت نظارة الأوقاف .

وفى المساء زرت المساجد الشهيرة ، وقد لاحظت عدم إقبال الأهالى على حضور الدروس الدينية إذ رأيت مدرساً فى أحد المساجد وليس أمامه إلا مستمع واحد !

وفى ٢٥ منه زرت مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية ومأمورية الأوقاف والمكاتب التابعة لها ثم زرت أعضاء قومسيون الأوقاف .

وفى ٢٦ منه سافرت بالباخرة إلى طهطا فوصلتها فى الساعة الرابعة بعد الظهر وزرت مساجدها ، وفى الصباح سافرت بالسكة الحديدية إلى سوهاج فاستقبلنى مديرها على ابو الفتوح بك والموظفون وأعيان المدينة . وبعد أن صليت الجمعة بمسجد الأستاذ العارف مررت على مساجد المدينة التابعة للأوقاف ، وحضرت الدرس الدينى فى المساء بمسجد العارف . وقد تناولت الغداء على مائدة المدير مع همام حمادى باشا وعبد الرحيم حمادى بك وأمين العارف بك . وزرت مدارس مجلس المديرية ودار المجلس . كما زرت كلا من همام باشا وعبد الرحيم حمادى بك فى منزليهما . وبعد أن زرت مدينة أخميم بارحت سوهاج إلى نجع حمادى فأقمت بها يوماً .

وفى ٢٩ منه سافرت إلى قنا فزرت مأمورية الأوقاف ؛ ومدير قنا محمد خليل نايل بك ورئيس المحكمة الشرعية (رداً لزيارتهما) وتناولت الغداء على مائدة المدير .

وفى المساء سافرت إلى قوص وزرت مسجدها الشهير وهو أكبر مساجد الوجه القبلى ووجدته فى حاجة إلى الترميم .

وفى ٣٠ منه وصلت إلى الأقصر وزرت آثارها كمقابر الخلفاء والدير البحرى ومدينة الكرنك ومعبد الأقصر ومسجد أبى الحجاج .

ثم سافرت إلى أسوان فوصلتها يوم ٣ فبراير . وفى المساء أبحرت بنا الباخرة من الشلال إلى وادى حلفا فوقفت فى صباح ٤ فبراير عند الفجر عند معبد أبى سنبل فتمكنت من زيارته وهو منحوت فى الجبل ، كبير الاتساع وواجهته شرقية بحيث يستقبل أشعة الشمس عند الشروق فتنتشر فى أرجائه وهذا من أروع المناظر . وبلغنا وادى حلفا بعد ظهر يوم ٥ منه فأخذنا القطار إلى الخرطوم فوصلناها عصر يوم ٦ فبراير .

وعندما وقف القطار فى أبى حمد حضر أحد كبار الضباط وسأل عنا وأبلغنا تحية الحاكم العام وترحيبه بنا واستفسر عن راحتنا فشكرنا له هذه العناية .

ولما بلغنا الخرطوم كان من مستقبلينا فضيلة قاضى قضاة السودان الأستاذ المراغى والضابط محمود حافظ رمضان افندى شقيق الأستاذ حافظ رمضان بك — موفداً لاستقبالنا من قبل الحاكم العام ومرافقتنا مدة إقامتنا بالخرطوم .

وقد نزلنا فى فندق (الجراند اوتيل) وكان به كثير من السائحين يملئون غرفه وهكذا نزل السكرتير والباشمهندس فى غرفة واحدة .

وبعد الاستراحة فى الفندق ذهبت فى الموعد الذى حدد لى لزيارة ونجت باشا فى سراى الحكومة فاستقبلنى بالترحاب وهو صديق قديم لى . وقد أبلغته سلام الخديو فسألنى عن سموه وأعرب عن شكره له ، كما أننى شكرته على اهتمامه بالسؤال عنى فى الطريق .

ثم تبادلنا الحديث فى موضوع سياحتى ومشاهداتى فى رحلتى وغير ذلك من الشئون ، وأبلغنى أنه على استعداد للأمر بعمل كل التسهيلات اللازمة لى مدة إقامتى . وقبل انصرافى قال لى إن قاعة الاستقبال هذه ينقصها صورة الخديو فوعدته بتبليغ ذلك مع التأكيد بأنها سترسل له عقب وصولى إلى القاهرة .

بعد ذلك ، وفى اليوم التالى ، بدأت بزيارة صاحب الفضيلة قاضى قضاة السودان فى دار المحكمة الشرعية فاستقبلنى بالحفاوة وأجلسنى بجانبه ؛ وكان هناك أحد كبار الانجليز فعرفنى به وهو المستر كارتر السكرتير القضائى وأخذ مجلسه فى الجانب الآخر ، وجاءت القهوة وكانت المنضدة الصغيرة أقرب لفضيلة الأستاذ من المستر كارتر فلما أراد المستر كارتر وضع فنجانه لم يتحرك الأستاذ المراغى بل أمر الخادم فى وقار بتقريب المنضدة ، فأكبرت هذا المظهر المشرف لفضيلته وأدركت أنه يقدر مكانته حقاً ويحافظ

على كرامته وكرامة الشرع ومن تلك اللحظة امتلأت نفسى بالميل إليه وزاد قدره فى نظرى .

وقد زرت بعد ذلك رؤساء المصالح مبتدئاً بالمستر كارتر وبناء على توصية الحاكم العام زرت كلية غوردون فاستقبلنى فيها مدير المعارف وهدايت بك ناظر الكلية ومفتش المعارف والأساتذة فطفنا حجر التدريس والمعمل الكيماوى . وهى فى حالة بدائية .

وفى ٨ منه زرت القائمقام كندى بك مدير مصلحة الأشغال بالسودان وتحادثت معه فى شأن إتمام الجامع الذى زرته مع باشمهندس الديوان الذى تبين من المعاينة أن بعض الأعمال الداخلة فى المبلغ المطلوب لاتمام المسجد قد تمت بالفعل وبعضها لا لزوم له والآخر فى حاجة للتعديل .

وبعد المناقشة مع رجال الحكومة تم الاتفاق على عمل مقايسة جديدة بالمطلوب من الأعمال وأخذ الباشمهندس فى إعدادها على أساس دفتر أثمان البناء وأدواته لحكومة السودان وقد حصلنا عليه لتعمل بعد ذلك مناقصة ويعهد بالعمل إلى أحد المقاولين ، وقد خصص مهندس لمراقبة العمل ، وقد تم بناء المسجد على حساب الديوان.

أما مسألة الأوقاف فقد علمت من فضيلة الشيخ المراغى أنه قد بحثها مع الحاكم العام وتشكلت لها لجنة من فضيلته ومن بعض الضباط . وانتهت بحصر أعيان وقف الجامع القديم الذى اتضح عدم وجود حجج لها ولا يعرف من شروطها شيء ولا يعرف على أى شيء هى موقوفة ، ولكن علم بالسماع وجود أوقاف وأنها كذا وكذا . فحصل اتفاق على تسجيلها وعلى أن تكون للجامع وللشعائر الدينية واستبدال الأجزاء المأخوذة منها للمنفعة العامة بأراض جيدة فى المدينة بغير غبن على جهة الوقف ؛ لهذا فضلت عدم التكلم فى شأنها ، ولكننى بحثت مسألة النظر على هذه الأوقاف فعلمت أن فضيلته فضل أن يؤول إليه فى أول الأمر فاطمأنيت لذلك .

ولقد صادفت من حكومة السودان كل حفاوة وتسهيل لمهمتى . وعلى الأخص من السردار ونجت باشا إذ أخطر كل الجهات التى زرتها للاحتفاء بى ودعانى للعشاء مع الجنرال هاملتون .

وقد صادف أثناء وجودى فى الخرطوم إقامة حفلة سنوية يقيمها الإنجليز فدعيت إليها ، وقد لفت نظرى أنه لم يكن هناك مطربش غيرى وسعادة شقير باشا .

كذلك أقام الضباط المصريون حفلة شاى احتفاء بنا فى ناديهم لاقينا فيها من الحفاوة والاكرام ما أثلج صدورنا وجعلنا نشعر بما بين المصريين من روابط المودة المتينة .

وقد نظمت لنا رحلة من الخرطوم إلى أم درمان على زورق من زوارق الحكومة السودانية ، فزرنا هذه المدينة القديمة وشاهدنا فيها آثار الحرب التى خربت كثيراً من مبانيها ودورها . ومن أروع ما يشاهد فى هذه الرحلة خط التقاء النيلين ، الأبيض والأزرق ؛ ولون الماء فيهما هو سبب هذه التسمية . ويمتد هذا الخط واضحاً إلى أكثر من كيلو مترين قبل أن يتم امتزاج المياه . وكانت هذه النزهة جميلة جداً .

وعدنا فى ٩ منه فبلغت القاهرة فى ١٦ منه ورفعت تقريراً عن الرحلة إلى الخديو .

الخطوة الثالثة فى اصلاح الازهر . وكذلك ثارت معارضة شديدة عند نظر قانون الأزهر الجديد رقم ١٠ لسنة ١٩١١ فى أيام ٦و٧و٩ أبريل الذى قامت بوضعه لجنة برياسة فتحى زغلول باشا وكيل الحقانية ، وكان أظهر الأعضاء المعارضين لبعض مواد هذا القانون اسماعيل أباظه باشا وعلى شعراوى باشا وفتح الله بركات بك .

وقد كان موضع الاعتراض هو المادة « ١١ » التى تقضى بأن الخديو له الحق فى رياسة مجلس الأزهر الأعلى عند الاقتضاء ، والمادة « ٢٣ » التى تقضى بأن يختار الخديو رئيس الأزهر من بين هيئة كبار العلماء .

وكانت حجة المعارضين للمادة « ١١ » أنها تنقص من حرية الأعضاء فى المناقشة كما أن فيها مضيعة لوقت الخديو فى نظر المسائل الجزئية والاشتغال بها عن المسائل العامة ، وكانت حجتهم فى معارضة المادة « ٢٣ » أنها لا تترك حرية اختيار الشيخ لهيئة كبار العلماء وهم أعرف بأنفسهم .

وقد انتهت المسألة باقرار هاتين المادتين بحكم الأغلبية .

تنفيذ قانون الأزهر الجديد : سبقت الاشارة إلى عرض قانون الأزهر الجديد رقم ١٠ لسنة ١٩١١ على مجلس شورى القوانين ، وقد صدر به الأمر الخديوى فى ١٢ أبريل .

وفى ٤ يونيو عقد مجلس الأزهر الأعلى بحسب هذا النظام الجديد برياسة الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع وحضور الشيخ بكرى عاشور الصدفى المفتى والشيخ سليمان العبد شيخ السادة الشافعية وأحمد فتحى زغلول باشا وكيل الحقانية

وأحمد ذهني باشا ناظر مدرسة المهندسخانة وكنت عضواً فيه باعتباري مدير ديوان الأوقاف .

وقد سألني أحمد فتحي زغلول باشا عما إذا كان ديوان الأوقاف يسمح بتقديم ما تدعو إليه الحاجة من المال لتنفيذ النظام الجديد فأجبته بأن سمو الخديو قد أمر بوضع مبلغ ثلاثة آلاف جنيه تحت تصرف المجلس الأعلى للأزهر للانفاق منه حتى نهاية هذه السنة .

ثم قرر المجلس سريان القانون الجديد على جميع المعاهد إلا فيما يتعلق بالمنهاج ، فقرر ألا يسرى إلا على الطلبة الجدد من بدء العام القادم .

رأى الخديو وغورست فى المعارضة فى مجلس شورى القوانين . وقد كانت هذه المناوشات سبباً فى ازدياد نشاط المعارضة والحركة الديموقراطية العامة مما دعا إلى اهتمام الخديو بها ، فقد كان مسافراً للاسكندرية فى يوم ٢٦ أبريل وقابله للوداع أعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية فألقى عليهم خطبة جاء فيها :

رأى الخديو فى المعارضة : « أتأسف أن بعض الأعضاء قد اشتغلوا بسفاسف الأمور والشخصيات التى جعلوها فى شكل عموميات ، أكثر من اشتغالهم بالأمور الهامة العائدة على البلاد بالخير .

« إننى هنا منذ سنة ١٨٩٢ ولم يحصل ولم أسمع أن واحداً من حضرات أعضاء المجلس أو الجمعية طلب لنفسه رتبة أو نيشاناً .

« والواقع أن كثيراً من أعضاء المجلس قد طالت خدمته فيه وأدوا خدمات جمة للحكومة والأمة ثم خرجوا منه ، وبعضهم توفى ، ولم ينالوا رتباً سامية .

« قلت : إننى منذ الثمانية وعشرين عاماً التى انقضت على المجلس لم أسمع أن واحداً من أعضائه طلب لنفسه رتبة أو نيشاناً ، ولكننى فى هذا العام سمعت أن بعضكم سعى للحصول على رتبة سامية وغضب على نيشان مطلوب له .

« بل سمعت أن هذا الشخص قال أمس على مسمع من كثيرين إنه قد طلب له نيشان ورفضه ؛ ولكن كلامه هذا ناقص ، وكنت أحب أن يكمله وأن يكون صاحب مبدأ صحيح فى رفض هذا النيشان وصاحب المبدأ يجب أن يتخذه أساساً فى حياته ، فلا يقبل الرتبة قبل ٢٤ شهراً ، ثم يرفض النيشان الآن ، لأنه نيشان لا رتبة سامية ! »

وقد تحـــدث سموه يوم ١٣ مايو مع رئيس تحرير جريدة إيجبت فعاد لهـذا الموضوع قائلا إن هذه الحركة الصناعية لا تقلقه لأنه واثق من هدوء الشعب المصرى . وإن الدستور الذى تنشده الأمة هو أول من يسعى لتحقيقه لأنه يريحه من الأعباء المثقلة ، ولذلك فهو يمهد له باصلاح الشئون الداخلية ، وترقية مستوى الشعب وخبرته . وذكر أن الحرية أسيء استعمالها مما اضطر الحكومة لبعث قانون المطبوعات .

رأى غورست فى المعارضة : ولم يكن الخديو وحده هو الذى اهتم بالمعارضة ، فان السير الدون غورست تحدث عنها فى تقريره السنوى الذى ظهر فى ١٠ مايو . فأشار إلى أن هناك روحاً عدائية ظاهرة فى مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية لمشروعاته الاصلاحية وللسياسة الانجليزية عامة ، وأن هذين المجلسين أصبحا آلتين فى يد الحزب الوطنى للتهييج والتحريض . واستشهد على ذلك بطلب المجلس والجمعية لحكومة دستورية تامة وحملاتهما المنكرة على الحكومة فيما يتعلق بالميزانية والسودان والعداوة والريبة اللتين ظهرتا فى مشروع قناة السويس إلى أن قال :

« فلا نظارة بطرس باشا ولا نظارة محمد سعيد باشا استطاعتا أن تتوليا قيادة المجلس حتى الآن ، أو أن تنشأ حزباً قوياً للحكومة ، مع أن رجالها مشهود لهم عند الجمهور بأنهم من أعقل المصريين وأقدرهم ، وكذلك البرنس حسين كامل باشا الذى قطع الأمل ، وعدل عن السعى فى إدخال روح النظام والاعتدال إلى المجلس فى مداولاته ؛ ولما استعفى من رياسته لم يكن من يقبل هذا المنصب الذى لا يعترف لمن فيه بالفضل . بل كان المصريون يرفضونه واحداً بعد واحد . »

ثم ذكر أن هذه الحالة تدعو للنظر فى اختيار أحدى طريقتين : طريقة حكم مصر بمعاونة نظار من الوطنيين ؛ وطريقة السعى فى تنشيط المجالس النيابية ، لأن الطريقتين أصبحتا متعارضتين ، لا كما كان يحسب أنهما ستسيران معاً بالتعاون . وقد فضل الطريقة الأولى لأن النظار يختارون من أكفأ المصريين ، على حين أن النـواب لا ينوبون فى الحقيقة إلا عن فئة البكوات والباشوات الأغنياء ، ولايستطيعون مقاومة أى تحريض كاذب تصطنعه جماعات قليلة من ذوى الأغراض .

وختم تقريره بأن هناك كثيرين ينتقدون سياسته فى مصر من الانجليز أنفسهم ، وأن هذا الانتقاد منشأه عدم تفهم المهمة الشاقة التى تؤديها السياسة الانجليزية فى مصر ، وأنه إذا كان هناك فريق يعادى هذه السياسة فيها فليس من المستحسن أخذ الجميع بالشدة .

المؤتمر القبطى . سمعنا بفكرة عقد مؤتمر قبطى ، لبحث مطالب الأقباط وشكواهم قبل مقتل بطرس باشا . وقد أخذ بعض أعيان الطائفة يعمل سراً لعقد هذا المؤتمر ، ويبث روح السخط بين الأقباط ويصور لهم أنهم مغبونون فى الوظائف والحقوق العامة . وكانت صحيفتا الوطن ومصر تنفخان فى هذه الروح .

معارضة بطرس باشا لها : وقد قابلت بطرس باشا وتحادثت معه فى أمر هذه الحركة وعواقبها الخطيرة ، وتفريقها للأمة ، فطمأننى بأنه لا خوف منها ، وأنه لا يسمح باستفحالها . وقد كان بالفعل معارضاً لها حتى أرسل إنذاراً لجريدة الوطن بسبب هذه الحركة .

ولما حدثت حادثة اغتياله ، زادت الحركة قوة وبدأ الكثيرون من الأقباط يزيدون على الكتابة فى الصحف القبطية ، الشكوى إلى الصحافة الانجليزية .

كلمة الأستاذ واصف بطرس غالى عن العنصرين : ولذلك أخذ اسماعيل أباظه باشا فى تأليف لجنة للتوفيق بين الأقباط والمسلمين قبل استفحال الخطر الطائفى ، وكتبت جريدة الريفورم منوهة بهذا المجهود ، فكتب لها واصف غالى كلمة بتاريخ ٢٣ يناير ملخصها أن الوفاق تام بين العنصرين فلا يحتاج إلى لجان ولا مؤتمرات ، وأنه هو شخصياً قد تناسى الحملات التى وجهها بعض الكتاب فى الصحف للمرحوم والده ، لأنها لا تعبر عن رأى عقلاء الأمة .

وذكر فى رسالته أن الخديو قال له بعد مقتل والده : « كما أن الشىء الناصع لا تشوبه شائبة ، فان عمل المرحوم بطرس باشا مسجل فى التاريخ لا يمسه شىء . »

وأن شيخ الأزهر قال له فى اليوم التالى : « إن ذلك المسيحى عمل من الخير للمسلمين ما لم يقدر على عمله كثير منهم . »

وانتهى من كلمته بقوله : « فهلموا إذن يامعشر المسلمين والأقباط ، لنضم بعضنا إلى بعض كالبنيان المرصوص حتى لا يميز فى المستقبل بين مصرى ومصرى ، والعمل جميعاً باخلاص لما فيه خير البلاد . »

انعقاد المؤتمر ومطالبه : وعلى الرغم من جهود عقلاء المسلمين والأقباط فان فكرة عقد المؤتمر القبطى لم تضعف ، وتولى الدعوة إليه مطران أسيوط وجماعة من أعيان الوجه القبلى ، وحدد له يوم ٦ أبريل .

وقد تخوف القائمون بالفكرة من عقده فى أسيوط وخشوا من مسلميها أن يلحقوا بهم أذى ، وأرادوا عقده فى القاهرة وخصوصاً بعد أن قامت مشاجرة بين المسلمين والأقباط بالقرب من كنيسة أسيوط يوم ٤ أبريل . ثم عادوا فطلبوا الترخيص بعقده فى أسيوط ، وبعد أن تأكدت الحكومة من المحافظة على الأمن عند انعقاده رخصت بعقده .

وقد خطب فيه : توفيق دوس بك ومرقس حنا افندى وأخنوخ فانوس المحامى .

وتتلخص المطالب التى انتهى إليها فى طلب العطلة يوم الأحد بجانب الجمعة ، وأن تكون القاعدة للتوظف هى الكفاءة وحدها ، ووضع نظام لمجالس المديريات يكفل للأقباط تمتعهم بالتعليم ، حتى لا يقتصر التعليم على الدين الاسلامى وحده ، ووضع نظام يكفل تمثيل كل عنصر مصرى فى المجالس النيابية .

المؤتمر المصرى ومباحثه . أحدث مؤتمر الأقباط ثغرة فى الأمة ، وتنافراً بين العنصرين وأخذت صحف الفريقين تتنابذ تنابذاً خطراً .

لذلك رأى جماعة من عقلاء الأمة تلافى هذه الحالة باجتماع مؤتمر مصرى ، يبحث فى شئون المصريين جميعاً بما فيها مطالب الأقباط باعتبارهم جزءاً من وحدة الأمة . ورأس هذه الحركة رياض باشا فنسيت الأمة أخطاءه السياسية والتفت قلوبها حوله .

وقد اجتمع المجلس لأول مرة يوم ٢٩ أبريل بواحة عين شمس بفندق « الهليوبوليس » وحضره نحو خمسة آلاف من جميع المديريات والطبقات .

وافتتحه رياض باشا بخطبة جاء فيها :

« دعوناكم وفيكم صفوة الكتاب والمفكرين لتتشاوروا فى بعض المسائل العمومية الشاغلة للرأى العام فى الحالة الحاضرة .

« ومن بين هذه المسائل مسألة ما كنا نود لها وجوداً وهى ما يسمونه بمطالب الأقباط ، لأن حالة البلاد لا تسمح بتقسيم المصالح بين أبنائها تبعاً لانقساماتهم الدينية .

« وسنعرض عليكم موضوعات أخرى أدبية واقتصادية لتقرروا فيها الوسائط التى تساعد على رقى حالة التعليم ونمو الثروة العمومية ، وإنى لا أشك فى أنكم ستحكمون فى مداولتكم ورغباتكم روح العدل والميل إلى تأييد الروابط الوطنية بينكم وبين سائر

إخواننا وأبنائنا من أبناء الديانات الأخرى ، إلا أن ذلك لا يمنعنى من أن أوصيكم بأن تراعوا فى مباحثاتكم وطلباتكم فوق روح العدل والانصاف ، روح التسامح والانعطاف ، الذى عرفت به ديانتنا السمحاء . »

ثم تلاه احمد لطفى السيد بك فألقى تقرير اللجنة التحضيرية للمؤتمر .

وعقدت الجلسة الثانية بعد الظهر فخطب فيها الدكتور « أباتا باشا » خطبة موضوعها « إن عناصر الجنس المصرى كلها من أصل واحد » .

وخطب بعده محمود أبو النصر فى موضوع « عطلة يوم الأحد » وبعده محمد حافظ رمضان بك فى « العوامل الاجتماعية للحركة القبطية » .

وفى ٣٠ أبريل عقدت الجلسة الثالثة وخطب فيها احمد عبد اللطيف بك المكباتى عن « الأقلية والمجالس النيابية » ثم الشيخ عبد العزيز جاويش فى « جعل الخزانة المصرية مصدراً للانفاق على جميع المرافق المصرية بالسواء » وابراهيم الهلباوى بك فى « إسناد الوظائف للأكفاء » .

وفى ٢ مايو انعقدت الجلستان الرابعة والخامسة وخطب محمد أبو شادى بك والشيخ على يوسف عن « التعليم فى مصر » وعلى الشمسى افندى فى « التعليم العملى » وابراهيم رمزى بك عن « الصناعة فى مصر » وعبد الخالق مدكور باشا عن « وسائل ترقية التجارة والصناعة » وعمر لطفى بك فى « التعاون المالى والنقابات الزراعية » .

وفى ٤ مايو عقد المؤتمر جلسته السادسة الأخيرة ، وكتب مذكرة عن المسألة القبطية تتلخص فى أن المؤتمر لا يرى إمكان قسمة الحقوق السياسية فى مصر بين طوائفها الدينية المختلفة ، وأنه ليس من حقوق أبناء أى طائفة دينية أخرى أن تطلب عطلة يوم الأحد أو غيره من الأيام ، وأن تظل العطلة الرسمية هى يوم الجمعة فقط . وأن قاعدة التعيين فى وظائف الحكومة هى الكفاءة من جميع وجوهها عملية وإدارية وأخلاقية معاً . وأنه لا يرى تعديل قانون الانتخاب بما يجعل لكل طائفة دينية مصرية دائرة انتخابية خاصة . وعدم الموافقة على إعطاء كل طائفة من طوائف الأمة المصرية ما تجبيه منها مجالس المديريات لتنفقه كما تشاء .

وقد وافق على معظم الاقتراحات التى عرضت عليه خاصة بحالة الأمة الاجتماعية والاقتصادية ، كانشاء بنك وطنى وعقد مؤتمر للتعليم وتأسيس النقابات الزراعية .

حديث غورست والخديو عن المؤتمرين . تحدث السير الدون غورست فى تقريره الذى ظهر يوم ١٠ مايو عن مسألة الخلاف بين المسلمين والأقباط مبتدئاً بجريمة مقتل بطرس باشا وقال : « إنه يعتبر الجريمة سياسية وليست طائفية كما كان يعتقد عند وقوعها . »

ولكن مسلك الحزب الوطنى مع الوردانى جعل الأقباط يفهمون أن الجريمة طائفية وأدى ذلك إلى كثرة النقاش والجدل على صفحات الصحف والمنابذة بين الفريقين حتى اقتضى الأمر تنفيذ قانون المطبوعات وإنذار بعض الصحف مرة واثنتين كالوطن ومصر ؛ وحتى وقعت عدة حوادث بين الأقباط والمسلمين عولجت بمنتهى الحكمة من الحكومة .

ثم أشار إلى مسألة طلب الأقباط لتعليم الدين المسيحى فذكر أن « الأمر فى الواقع لم يكن يخلو من فرق فى المعاملة بين الأقبــاط والمسلمين » واستصوب إجابة الأقباط إلى ما يرومون على قدر الامكان من هذا القبيل .

ثم عرض لبقية مطالب الأقباط ولا سيما مسألة التوظف ، وذكر أنها ليست مبنية على أساس وطيد ثم استشهد بجدول لعدد الموظفين المسلمين والأقباط فى كل مصلحة ، واستدل منه على أن عدد الأقباط ورواتبهم يفوقان كثيراً نسبتهم العددية .

حديث الخديو عن المسألة القبطية : وقد تناول سمو الخديو هذه المسألة كذلك فى حديث له مع رئيس تحرير جريدة إيجبت يوم ١٣ مايو فأظهر ارتياحه لأعمال المؤتمر المصرى وما بدا فيه من الهدوء والروية ، ودعا الأقباط إلى البدء بمد يديهم لاخوانهم المسلمين لأنهم بدءوهم بالخصومة .

سفر الخديو للاستانة . عزم سمو الخديو على السفر للخارج فاصدر إرادته إلى رئيس النظار محمد سعيد باشـــا يوم ١٢ مايو بأن يكون قائمقام خديو مدة غيابه .

وقد أبحر من الاسكندرية يوم ١٥ منه إلى أراضيه بالضلمان وبقى بها حتى يوم ٢٩ منه ، حيث جاءتنا الأخبار بمبارحته لها إلى الاستانة فوصلها أول يونيو .

وقد بقى فى الاستانة مدة أسبوعين وسافر منها يوم ١٦ يونيو إلى قوله فوصلها يوم ١٧ منه فأقام بها يومين ثم غادرها إلى فينا .

وفى أول يوليو غادر النمسا إلى باريس وبقى بها حتى يوم ٢٠ يوليو .

حديث عباس مع مكاتب جريدة الفيجارو بباريس : بينما كان عباس فى باريس نشرت جريدة الفيجارو فى عددها بتاريخ ٤ يوليو حديثاً معه عن شؤون مصر المادية والأدبية نلخصه فيما يأتى :

قال إن مصر تحملت فى السنوات الأخيرة أزمة مالية شديدة غير أنها ولله الحمد تخلصت منها بسبب خصوبة أراضيها وجهود مزارعيها .

وأما عن المسائل الأدبية فان البلاد تطورت تطوراً عظيماً وبعد أن كان المصرى لا يهتم بالتعليم فانه اليوم يجعله من أهم غاياته ؛ ولهذا فان المدارس تنشأ فى أنحاء البلاد وهى غاصة بالطلاب وأن البعثات العلمية إلى أوربا تزداد انتشاراً .

وأما عن التقدم المادى والأدبى فانني عند تجوالى فى داخلية البلاد أشعر بأن الأهالى صاروا أكثر تنوراً وانتباهاً عما كانوا عليه عند توليتى العرش فى سنة ١٨٩٢ .

ومن أهم النظم التى وجدت المجالس البلدية التى أعطت الأهالى بعض السلطة لادارة شؤونهم . ورغبة منهم فى نشر التعليم قررت زيادة الأموال خمسة فى المائة لذلك حتى أصبح الآن التعليم الأولى والابتدائى والزراعى والصناعى عاماً فى جميع أنحاء البلاد .
أما الحكومة فأخذت على عاتقها التعليم الثانوى والعالى .

أما عن نوع الحكم فى مصر فقال سموه إنه شخصياً ضد الاستبداد ولكنه يرى وجوب زيادة اشتراك الأمة مع الحكومة فى إدارة شؤون البلاد الآن حتى يتسنى لها الاستعداد للحكم النيابى لأن بلادنا غير بلاد أوربا .

وقال أيضاً : « وجد بين المصريين بعض المتطرفين الذين أفسدوا ثقة الحكومة فى رزانة الشعب بأن ألحوا بطلب الدستور وسخطوا على الحكومة لرفض طلباتهم وعدوها عدوة للأمة ، فاضطرت الحكومة لاصدار قوانين جديدة ضد الصحافة ، ولكن لم تطبق لأن الأمة لم تساير المتطرفين بل اتخذت طريق الحكمة والاعتدال . » ثم تكلم سموه عن المجالس النيابية فقال « إن العمل فيها سائر على نظام تام والجميع دائبون فى عملهم بجدّ وليس هناك ما يقال بأن الهدوء فى البلاد معناه ضعف فى وطنية الأمة فانها لم تكن أكثر قوة عما هى فى الوقت الحاضر .

« أما بالنسبة للأقباط الذين يظنون أنهم مظلومون بجانب المسلمين فقد قال سموه إنه رغم التجاء الأقباط فى مطالبهم إلى غير محاكمهم الشرعى فان عطفى عليهم ليس بأقل

من عطفي على المسلمين في وقت ما كما هو شأني مع كافة الرعايا المصريين على اختلاف دياناتهم وجنسياتهم . » ثم أكد أن تسامح المسلمين سائد مع إخوانهم الأقباط .

وقد شكر المكاتب لسمو الخديو هذه المعلومات واستأذن في الانصراف .

زيارته لايطاليا وحفاوة ملكها به : وفي ٢١ منه سافر إلى تورينو بايطاليا ومعه عمه البرنس فؤاد باشا بناء على دعوة ملكها لسموه .

وفي صباح اليوم التالي قصد قصر اكوينجي حيث كان الملك في استقباله عند أسفل سلم القصر ورافقه إلى حجرة الجلوس التي كانت تنتظره جلالة الملكة فيها .

وفي المساء أقيمت لسموه مأدبة فخمة جلست فيها الملكة في الصدر وعلى يمينها الخديو وعلى يسارها البرنس فؤاد وأمامها الملك والبرنسيس هيلانه وسعيد ذو الفقار باشا ، وأهدى الملك لسموه صورته في إطار بديع ، وقلد سعيداً ذا الفقار باشا وسام تاج إيطاليا من الدرجة الأولى ، وأنعم بمثل هذا الوسام على رمزى طاهر باشا السرياور .

وفي اليوم التالي زار المعرض الايطالي .

ثم برح تورينو مساء إلى سويسرا يوم ٢٣ منه وقد بقي سموه في أوربا حتى منتصف أغسطس وعاد إلى مصر في ٣١ منه .

وفاة رياض باشا رئيس المؤتمر المصري . توفي مســـاء يوم ١٧ يونيو مصطفى رياض باشا في قصره بالاسكندرية فكان لخبر وفاته رنة حزن وأسف عند جميع المصريين ، وقد نقلت جثته يوم ١٨ منه من قصره إلى محطة الرمل ، في قطار خاص مؤلف من ثلاث عربات وضعت الجثة في إحداها ، وركب في الثانية الأميران حسين كامل باشا وعمر طوسون باشا والقائمقام الخديوى (محمد سعيد باشا) إذ كان سموه بالاستانة ، وناظر الأشغال والمعارف . وركبت في الثالثة أسرة الفقيد .

وقد سارت الجثة في موكب رهيب حتى وضعت في قطار خاص إلى مصر ، فبلغها حوالي التاسعة مساء . فاستقبله في محطتها على بك صديق وكيل المحافظة وكثير من أعيان المصريين وثلة من رجال البوليس .

ونقلت الجثة إلى حجرة الاستراحة محمولة على أيدى ٢١ بحاراً مصرياً ، وظلت بهذه الغرفة حتى الصباح .

وفي ١٩ منه ازدحمت محطة مصر بالأمراء والنظار والعلماء وكبار الموظفين

والأعيان الذين جاءوا لتشييع الفقيد، وانتشر البوليس فى الطرق التى يجتازها، ونكست الفنادق والأندية الأعلام حداداً عليه، وأغلقت الحكومة دواوينها ومصالحها كذلك.

وعند الساعة العاشرة نقلت الجثة من غرفة الاستراحة ملفوفة بالعلم المصرى، ومحمولة على أكف البحارة فوضعت فوق عربة مدفع من مدافع الجيش، وسار المشهد يتقدمه أرباب «الأشائر» فشيوخ المولوية فأورطة السوارى الثالثة وبأيدى بعض فرسانها المزاريق، وبأيدى الآخرين سيوفهم منكسة، فبطارية الطوبجية الثالثة منكسة بنادقها، فتلاميذ المدرسة الحربية، فأورطتا البيادة الثالثة والسابعة ومع كل منهما موسيقاها توقع نغمات الحزن، فكبار الضباط العسكريين الذين بالقاهرة من انجليز ومصريين. وتتلوهم جميعاً جثة الفقيد تحيط بها ثلة من فرسان البوليس، ووراءها العلماء ثم قائمقام الخديو والبرنسان حسين كامل باشا وعمر طوسون باشا وغيرهم.

وصلى على الفقيد فى جامع قيسون، ثم دفن فى الامام الشافعى.



البرنس حسين كامل باشا



البرنس عمر طوسون باشا

وفى مساء يوم ٢٨ يوليو أقيمت حفلة تأبين للفقيد العظيم فى مدفنه، حيث أقيم سرادق ضم عظماء مصر وعلماءها، وكنت أحد الحاضرين بهذه الحفلة.

وقد أبن الفقيد عدد كبير من عظماء مصر وأدبائها منهم محمود فهمى باشا رئيس

الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين واحمد زكى باشا ومحمد حافظ رمضان بك وحافظ ابراهيم بك والشيخ محمد بخيت وسواهم .

وظلت الصحف تنشر الفصول فى مآثر الفقيد وتاريخه ، والقصائد فى رثائه .

وفاة غورست وتعيين كتشنر . ساءت صحة السير الدون غورست المعتمد البريطانى فى مصر فقصد إلى لندن يوم ١١ أبريل من هذا العام .

وفى يوم ١٢ يوليو وردت الأخبار البرقية منبئة بوفاته . وقد احتفل هنا بالصلاة على روحه فى الكنيسة الانجليزية ببولاق وحضر هذا الاحتفال احمد حشمت باشا القائم بأعمال نظارة الخارجية المصرية ، بصفته نائباً عن الحكومة المصرية .

تعيين اللورد كتشنر : وفى ١٤ يوليو قرأنا فى البرقيات أن لورد كتشنر عين خلفاً للسير الدون غورست .

وقد كان تعيين كتشنر مثاراً للقلق فى دوائر السراى لأنه رجل عسكرى معروف بالشدة من جهة ، ثم هو معروف بعدائه للخديو من جهة أخرى منذ حادثة الحدود ، فارتقبنا أن يكون تعيينه بدء سياسة جديدة غير سياسة الوفاق التى سار عليها السير الدون غورست ، وتوقعنا أن تعود المصادمات بين المعتمد الانجليزى والخديو .

اتجاه السياسة الجديدة . ولم تلبث الصحف الانجليزية أن أيدت ما توقعناه . فانه لم يكد يصل إلى مصر يوم ٢٧ سبتمبر حتى كتبت جريدة المورننج بوست تقول :

« إن اللورد كتشنر قد عين فى هذا المنصب لأنه من أعظم الذين وضعوا أساس مركزنا فى مصر ، واشتغل فى عمل عظماء رجال الادارة الذين كانوا قبله فيها .

« ولكن كانت النتيجة السقوط فى هاوية من الارتباك والتشويش بسبب سياسة السير الدون غورست ، الذى كان قد أرسل لاتباع سياسة اعترف هو فى تقريره الأخير بخطئها . فمهمة اللورد كتشنر أن يقلل هذا الارتباك ، ويعيد النظام ، وأن يعود للارهاب مع نشر التمدن ، وإيجاد حكومة جيدة . »

وكتبت جريدة الديلى جرافيك عن صعوبة مهمة اللورد كتشنر تقول :

« إن هذا الشعب ساخط على الدوام وجاحد ومرتكن على ما يعتبره حقاً له ، وهو شعب حرر من رق العبودية ولكنه يعادى المصالح الانجليزية .

« والذى يجب أن يعرفه المصريون أنه مهما كانت الظروف والأحوال فانه لا يمكن الرضا عن أمانيهم بالنسبة لمصالحنا العديدة التى ألجأتنا إليها حالة وجودنا فى مصر ثلاثين سنة .

« وربما يمكن التفاهم حينما يدرك المصريون الحدود الواجبة فى تدبير آمالهم السياسية ، وإن اللورد كتشنر حائز . لكل الصفات اللازمة لهذا الحل »

وكتبت صحف انجليزية أخرى مقالات لا تخرج عن هذا المعنى .

ولقد أخذت سياسة كتشنر تتضح بعد قدومه مباشرة فى اهتمامه بأبسط المسائل وتدخله فى كل كبيرة وصغيرة ، وقيامه برحلات فى الأقاليم والاتصال بالفلاحين مباشرة . بما سنأتى على ذكره فيما بعد .

الانعام علىّ بنيشان ايطالى . ورد لى خطاب بتاريخ ٢٩ أغسطس من صاحب السعادة ناظر الخارجية حسين رشدى باشا يعرفنى فيه بأن حضرة صاحب الجلالة ملك إيطاليا أنعم علىّ بنيشان « كورون دى إيتالى » من الدرجة الثانية وأن الجناب الخديوى أذن لى بقبول هذا النيشان .

وفى ٢٨ اكتوبر ورد لى من سعادته أيضاً خطاب ومعه النيشان وكذلك خطاب آخر من ناظر خارجية إيطاليا بالتهنئة فرددت عليه بالشكر على هذا الانعام .

أعمالى فى ديوان الاوقاف .

الأوقاف الأهلية : كانت الأعمال الخاصة بالأوقاف الأهلية التى يديرها الديوان منقسمة إلى قسمين منفصلين : أحدهما إدارى يتبع قسم الأوقاف الأهلية والآخر حسابى يتبع قسم الحسابات . فجمعت العملين فى قسم الأوقاف الأهلية تسهيلا للعمل وإنجازه ومنعاً للمشادة والمجادلة التى كانت تقع أحياناً بين القسمين القائمين بالعمل .

وقد تم فى هذا القسم وضع قاعدة لصرف مرتبات شهرية للمستحقين فى الأوقاف الأهلية على نسبة إيرادهم سداً لحاجتهم الوقتية دون انتظار لآخر السنة فكان فى ذلك راحتهم وتوفر على الديوان كثرة ترددهم وإلحاحهم فى الصرف على الحساب طول أوقات السنة .

قسم القضايا : كانت قد شكلت لجنة عليا لفحص أعمال قسم القضايا ووضع النظام اللازم له ؛ ولكن نظراً لما كان متراكما فى القسم وفى فروعه من القضايا ، اشتغل القسم بتصفية العمل القديم مع الأخذ بأسباب التنظيم على التدريج . وقد ضم إليه قسم المباحث

الحقوقية وقيم العقود لما بين عمليهما وعمل القسم من صلة وتجانس . وعدلت طريقة تكليف المحامين فى الجهات بالقضايا واستبدلت بها تعيين عدد من المندوبين القضائيين فى المأموريات ليتفرغوا لهذا العمل وتكسبهم الصلة المستمرة بأعمال المصلحة علماً أوسع بمشاكله وأسبابها وتفاصيل موضوعات القضايا أكثر من سواهم فى الخارج .

قلم التحصيلات : وأنشأت فى قسم الايرادات قلماً جديداً باسم قلم التحصيلات وذلك لما تبينته من حاجة الديوان الشديدة لمراقبة سير التحصيل فى الفروع مراقبة فعلية ومن عمل هذا القلم تمهيد طريق السداد بالحسنى للمتأخرين دون الالتجاء لدوائر القضاء إلا فى الأحوال التى لا تنجح فيها وسائل التراضى .

الاحتياطى للمعاشات : وقد كان المتحصل من احتياطى المعاشات ومكافآت المستخدمين يضم إلى ميزانية إيرادات الديوان مقابل احتساب ما يصرف من ذلك فى ميزانية المصروفات العمومية فرأيت أن الاستمرار على هذه الطريقة قد يحمل ميزانية المصروفات ما يؤثر فى وجوه الصرف الأخرى . فعمل حساب هذا المتوفر واستبعد من الميزانية العمومية وفتح له حساب خاص واشترى به من أطيان الأوقاف بجهة ببا ما يستثمر لمصلحة الميزانية الخصوصية للمعاشات والمكافآت .

الاشهار فى المزاد العلنى : وقد كان الاشهار فى المزاد يجرى بغير تحديد لمواعيد مما يجعل للناس سبيلا دائماً للمنافسة والانتقام فينجم عن ذلك الضرر لهم وللديوان ؛ إذ كان يترتب على هذا تأخير أعماله ، فقررنا تعديل بعض أحكام لائحة التأجيرات لتقديم مواعيد البدء فى الاشهار وتحديد عدد الجلسات ومواعيدها ، ووضعت الشروط اللازمة لقبول العطاءات بكيفية يضمن معها استقامة العمل وإنجازه فى الأوقات المناسبة حتى يجد الديوان الوقت الكافى لتحرير العقود النهائية مع من يرسو عليهم المزاد وتحقيق الضمانات التى يقدمونها .

تعديل مواعيد الأقساط : ولقد وجدنا الحاجة ماسة لتعديل مواعيد سداد أقساط الايجارات بما يتفق مع الوضع الجغرافى لكل منطقة فى القطر وأوان المحصولات فيها . فكان من نتائج هذا التعديل زيادة ضمان حقوق الديوان .

تحديد مساحة الصيفى : ووضعنا كذلك نظاماً نافعاً لتحديد مساحة الأطيان المنزرعة صيفاً ، وثقنا معه من زوال كل المشاكل التى كانت تقوم فى هذا الشأن .

تطهير المساقى والمصارف : وقد لاحظت أن المستأجرين لا يوجهون العناية الواجبة لحفظ الأراضى فى حالة مرضية فيهملون تطهير المساقى والمصارف الفرعية . فعالجت هذه الحالة بأن قررت قيام الديوان نفسه بهذا العمل على حساب المستأجرين محافظة على خصوبة الأراضى .

المستوصف العباسى : وقد فتح فى أوائل سنة ١٩١١ المستوصف العباسى لمعالجة فقراء المصريين بعد أن قام الديوان بالانفاق على إنشائه ثم قرر مساعدته باعانة سنوية عندما كانت إدارته فى يد جمعية المستشفيات والعيادات المجانية المصرية .

ولما لم توفق الجمعية المذكورة لوجود المساعدة من أهل البر بما يضمن لها نفقات هذا المستوصف كان لابد لديوان الأوقاف من أن يقوم بالانفاق عليه . فرأينا أن نضمه لادارة الديوان فى سنة ١٩١٢ وتتكفل بكل نفقاته التى أعانه على الاقتصاد فيها تبرع حضرات الأطباء الأفاضل المشتغلين به من مصريين وأوربيين مجاناً خدمة منهم للانسانية . وأصبح هذا المستشفى فى مقدمة المستوصفات فى معالجة مرضى الفقراء .

مسجد مصر الجديدة : فى ٤ يونيو دعيت لحضور الاحتفال بافتتاح مسجد مصر الجديدة الذى أسسته شركة واحة عين شمس برياسة البرنس حسين كامل باشا ، وكان فى المدعوين احمد حشمت باشا ناظر المعارف واسماعيل سرى باشا ناظر الأشغال وقاضى مصر وشيخ الجامع الأزهر والمفتى ومستشار الداخلية وابراهيم فؤاد باشا ويعقوب أرتين باشا .

وابتدأت الحفلة بتلاوة آى القرآن ، ثم وقف بوغوص نوبار باشا فألقى كلمة الشركة بالفرنسية منوهاً فيها بمعاونة الجناب الخديوى للشركة فى مشروعها شاكراً فيها لسموه إنابة سمو البرنس حسين فى حفلة الافتتاح ثم عرض لأعمال الشركة فى بناء مساكن للعمال وإنشاء ترام سريع ، وتدرج إلى إنشاء هذا المسجد للمسلمين وهم غالبية سكان مصر الجديدة .

ثم قمت فألقيت كلمة بدأتها بشكر الشركة على اهتمامها بتأسيس هذا المسجد على نسق جميل يناسب جمال أبنيتها ، ورجوت أن يعقب ذلك الاهتمام اهتمام مثله بتأسيس معاهد علمية وصناعية ، حتى تماثل مصر الجديدة عين شمس القديمة فى شهرتها ، « فيطلع عليها العرفان شمسه ، ويعيد التاريخ نفسه . »

ثم نهض البرنس حسين كامل فافتتح المسجد بكلمة سمعها الحاضرون وقوفاً ، ثم وقع سموه على محضر فتح المسجد ثم أديرت المرطبات .

وقد صلينا الجمعة فى المسجد الجديد .

أول تقرير عن أعمال الديوان : وفى نهاية العام قدمت للجناب العالى تقريراً ضافياً عن ديوان الأوقاف قالت عنه الصحف إنه الأول من نوعه بالنسبة لهذا الديوان . وقد ذكرت فيه تاريخ ديوان الأوقاف وأسماء الذين تولوا إدارته من النظار والمديرين وتواريخ تعيينهم ونهايته . ثم شرحت فصول الايرادات وأبواب المصروفات بتوسع ودقة فى كل ناحية من نواحيه ، وقد كتبت هذا التقرير باللغتين العربية والفرنسية ووزعته على الصحف وممثلى الدول وكبار الجاليات والموظفين الأجانب ليتبين الاصلاح الذى وجد فى الديوان وما كان فيه من الداء الذى وصفت له الدواء بصراحة تامة . ولما تقابلت مع الجناب الخديوى بعدها أبدى لى سروره من أعمالى وثناءه على هذا التقرير الجامع الدقيق . ومما جاء فيه :

مولاى

« إننى أشهد لمن سبقنى من المديرين فى الأزمان الأخيرة بجميل الأثر فى إدخال كثير من النظام على هذه المصلحة . غير أن ما وضعوه لم ينتشر بين الجمهور أمره من وقت لآخر فاستلمت زمام هذا الديوان وأنا على علم بما يدور على الألسنة وما يتقوّله عليه بعض الناس بوجوه مختلفة ربما كان لهم فيها العذر لعدم وقوفهم على جلية الأمر ولأنهم يتخيلون فى شأنه بعض الغموض فى حالتيه المالية والادارية .

« فكان أول ما انصرف اليه همى أن أسعى جهدى فى كشف الأحوال على وجه يزيل الشك ويجعل الناقد على بينة من أمره فابتدأت برفع مذكرة عن ميزانية الديوان لعامنا الحاضر يتبين منها أن الحالة المالية موطدة الدعائم على أحسن نظام فضلا عن وجود مبلغ من النقود يربو على الثلثمائة ألف جنيه فى الخزينة .

« وأنا أرفع الآن هذا التقرير الادارى متكفلا بشرح نظام الديوان وتوضيح إدارته وأنوّه فيه بكل صراحة عن مواضع النقص الذى يجب سده وما ينبغى أن يبذل من المساعى فى سبيل الاصلاح المطلوب له وما أمكن لى فى هذه المدة القصيرة من سبل البداية فى هذا الطريق . وقد أعددته للنشر بعد رفعه الى مقامكم العالى فاتحة لأمثاله فى الأعوام القادمة إن شاء الله .

مولای

« هذا منتهى ما وصلت اليه قدرة العبد الضعيف من الاحاطة بأعمال ديوان الأوقاف وبسط الكلام فى توضيحها بعد أن بينت فى كل قسم من أقسام هذا التقرير وجوه الآراء والأفكار وما تسنى القيام به من تعديل أو تحوير يؤدى إلى حسن الادارة ودقة النظام، وأشرت فى مواضعه إلى ما انعقدت العزيمة عليه من متابعة السير فى تنسيق الوضع وتوفيق العمل على قدر ما هدانى اليه البحث فى مدة هذا العام الأول .

« ولست أدعى أنى أحطت بكل وجوه البحث والفحص فى هذا الزمن القليل ولكننى على رجاء بأن أتلافى فى الأعوام المقبلة مافاتنى فى هذا العام إن شاء الله . ولا أزعم أنى بلغت منتهى الصواب فى علاج ما عالجته من الأعمال وإنما يمكننى الجزم بأنى بذلت قصارى المجهود . فان كنت أصبت فهو بعض ما أطالب به نفسى فى حسن الخدمة وأداء الواجب ، وإن كنت قصرت فما هو عن إهمال أو توان . والله يعلم أننى ما أوردت فى عملى ولا أصدرت إلا والاخلاص رائدى وابتغاء وجه المصلحة العامة قائدى . ولذلك رأيت من المصلحة أن أنشره على الملأ بعد عرضه على سدتكم السنية ليتناوب الامعان فيه أهل المعرفة والنظر فأتقبل منهم بالقبول الحسن والشكر الواجب ما يعن لهم من الرأى السديد والفكر الصائب مما خفى علىّ أمره وقصرت قدرتى عن بلوغه . فالنصح مقبول والحق متبع ؛ وما دامت النية خالصة فالناس فى خدمة المصلحة سواء والمعول عليه فى إدارة الأمور أن يسترشد فيها برأى أهل الرشد والهدى وإن عز ذلك على أهل الغرض والهوى .

والله يطيل بقاء مولانا المليك مصدراً لكل خير يفيض على أمته ويهدينا سواء السبيل فى وجوه خدمتها وخدمته آمين . »

مصر فى يوم الأحد ١١ مايو سنة ١٩١١

العبد الخاضع
مدير الأوقاف
شفيق

أكبر أنجال السلطان رشاد فى مصر لتحية ملك انجلترا :

وصوله للاسكندرية : فى الساعة الثانية بعد ظهر يوم ١٩ نوفمبر رؤيت الباخرة (عثمانية) التى تقل حضرة صاحب الدولة والنجابة أحمد ضياء الدين افندى ومن معه ، وما ظهرت فى مياه الثغر حتى خرجت زوارق كثيرة براكبها إلى البوغاز لاستقبال الزائر العظيم ، وفى الساعة الثالثة دخلت الباخرة الميناء ، وكانت الزوارق تحيطها عن بعد ، والمستقبلون يهتفون هتاف الترحيب والدعاء للسلطان ونجله ، وفى الساعة الرابعة وصل الخديو على زورقه الخاص واعتلى الباخرة ، فاستقبله ضياء الدين افندى وقدم لسموه رجال حاشيته ، وشكره والأمة المصرية وحكومتها لهذه العواطف الكريمة . وكان من المستقبلين أيضاً كامل باشا الصدر الأعظم الأسبق ، وبعدما هنأه الجناب العالى واستراح قليلا نزل هو واحمد ضياء الدين افندى وحاشيته ومعهما كامل باشا الصدر الأسبق فى الزورق إلى سراى رأس التين ، مارين بين صفوف زوارق المستقبلين من جماهير الأهلين الذين والوا الهتاف حين مرور الزورق ، وعند وصوله إلى رصيف السراى استقبلهم النظار ورجال المعية السنية وفرقة من الجنود المصرية وأخرى انجليزية ، وصدحت الموسيقى الخديوية ، وأطلقت المدافع إجلالا وترحيباً ، وصعدوا جميعاً إلى السراى وتناولوا طعام العشاء . وبعد ذلك استقل عباس مع ضيوفه القطار إلى سراى المنتزه لتمضية الليل .

سفر الخديو والوفد الشاهانى إلى بورسعيد : وفى صبيحة يوم ٢٠ منه تنزه أحمد ضياء الدين افندى برفقة الخديو وشاهد جميع محتويات هذه السراى وأعجب بها ، وبعد تناول طعام الغداء استقلا مع حاشيتهما القطار الخاص من المنتزه قاصدين بورسعيد ؛ وكانت المحطات على طول الخط مزينة بالأعلام ، والجموع محتشدة والهتاف متواصل ، حتى وصل القطار إلى بورسعيد فى الساعة الرابعة مساء . وكان فى استقبالهما البرنس محمد على باشا وجناب اللورد كتشنر والسير رجينلد ونجت سردار الجيش وحاكم السودان والسير جون مكسويل قائد الحامية الانجليزية ومحمد محمود سليمان بك محافظ القنال والحكمدار وكثيرون غيرهم من كبار الموظفين والوجوه والأعيان ، وكان فى المحطة بلوكان أحدهما بريطانى والآخر مصرى ، فحييا سموهما ، وصدحت الموسيقى بالنشيدين العثمانى والمصرى ، وأطلق ٢١ مدفعاً ؛ وقد صافح سمو الخديو

المستقبلين وقدم كثيرين منهم إلى نجل السلطان ثم نزل فى رفاص بخارى إلى يخت المحروسة يصحبه الوفد الشاهانى ودولة البرنس محمد على باشا ومحمد سعيد باشا رئيس النظار وحسين رشدى باشا ناظر الخارجية .



(١) ضياء الدين افندى (٢) الخديو (٣) محمد سعيد باشا رئيس النظار (٤) حسين رشدى باشا ناظر الخارجية (٥) جنانى بك مدير تشريفات الباب العالى (٦) محمد صادق باشا ياور أول خديوى (٧) احمد صادق بك وكيل الخاصة الخديوية (٨) احمد بك ياور سلطانى (٩) عارف باشا بالديوان التركى (١٠) محمد عزت باشا رئيس ديوان تركى خديوى ومهمندار ضياء الدين افندى (١١) طاهر رمزى سرياور خديوى (١٢) رشيد بك وكيل القبوكتخدائية المصرية بالاستانة (١٣) عونى بك سكرتير الأمير (١٤) ثابت بك أثوابجى باشى السلطان .

وتناولوا طعام العشاء على المائدة الخديوية وقضى عباس وضيفه الكريم الليلة فى المحروسة .

وصول ملك انجلترا وملكتها إلى بور سعيد : فى الساعة الخامسة من مساء يوم ٢٠ منه لاحت « مدينة » فى عرض البحر بين المدرعات التى تخفرها ، ولما وصلت الميناء تشرف اللورد كتشنر بمقابلة جلالتهما .

استقبالهما : وفى صباح ٢١ منه أعلن تشريف جلالة الملك والملكة رسميا ؛ فأطلقت المدافع واصطفت الجنود المصرية والانجليزية لأخذ السلام وعزفت الموسيقى .

وفى الساعة العاشرة والنصف نزل الخديو وضياء الدين افندى وجنانى افندى مدير تشريفات الباب العالى والبرنس محمد على باشا ومحمد سعيد باشا وحسين رشدى باشا

وسعيد ذو الفقار باشا السرتشريفاتى ورمزى طاهر باشا السرياور ووطسن باشا الياور الخديوى وجميعهم بالملابس العسكرية فى زورق بخارى وصعدوا إلى الباخرة « مدينة » فحيتهم موسيقاها بالسلام الخديوى أولا ، وبالسلام السلطانى ثانياً ، وبعد التعارف أبلغ ضياء الدين افندى إلى جلالة الملك تحية جلالة والده السلطان ، ثم قدم له مكتوباً رقيقاً منه .

زيارة الملك للخديو وللأمير ضياء الدين افندى : بعد أن تمت المقابلات بكبار الانجليز وقناصل الدول برح جلالة الملك يخته قاصداً المحروسة . فأدت البحارة السلام وصدحت الموسيقى بالنشيد الملكى . وكان فى استقباله الخديو وضياء الدين افندى والبرنس محمد على باشا وكبار الحاشية ، فصافح الخديو وضياء الدين افندى ، ثم جلسوا فى بهو الاستقبال وتبادلوا الحديث برهة من الزمن ، وبعد ذلك عاد الملك بزورقه الى يخته .

وفى ظهر هذا اليوم تناول طعام الغداء مع الملك والملكة الخديو والأمير وجنانى بك والبرنس محمد على ورئيس النظار وناظر الخارجية وكبار الحاشية وكتشنر وونجت ومكسويل وكذلك المستشاران للمالية والداخلية وقناصل الدول . وبعد تناول الطعام والقهوة دار الحديث بصفة ودية بين الملك والملكة وضيوفهما ، وقد اختلى الملك مع كامل باشا ، ثم ودع جلالتهما الجميع ، ورجع الخديو وضياء الدين افندى ومن معهما إلى المحروسة .

عود الخديو وضيوفه إلى القاهرة : بعد تناول طعام العشاء يوم ٢١ منه بارح الجميع بورسعيد على القطار الخاص بصفة غير رسمية الساعة ١١ مساء فوصلوا إلى سراى القبة فى صباح اليوم التالى ، وزيادة فى الحفاوة بضياء الدين افندى لم يشأ عباس أن يجعل إقامة دولته فى الأيام القصيرة التى يقضيها بعيداً عنه ، فخصص له جناحاً فى سراى القبة مزيناً بالرياش الثمينة الفخمة يرافقه ثابت بك أثوابجى باشى السلطان ، وقد اهتمت دولة الوالدة بتنظيم غرفة نومه وكان ذلك بوجود محمد عزت باشا وزميله محسن بك فوزى . وقد علمت من الأخير أن الفراش كان فى غاية الأبهة وأن الغطاء كان مشغولا بالقصب الحر محلى باللؤلؤ ، وقيل إن هذا الغطاء كان لسمو الوالدة فى عرسها .

سفر جلالة الملك : فى فجر الأربعاء ٢٢ منه تحرك اليخت الملكى ليجتاز القنال تتقدمه وتتبعه سفن الأسطول المسافرة فى حراسته وأطلقت المدافع عند حركة اليخت .

الانعام بنيشان على الأمير : وفى الساعة الخامسة مساء منه توجه جناب اللورد كتشنر إلى سراى القبة وقلد دولة ضياء الدين افندى نيشان فكتوريا من الدرجة الأولى ، المهدى اليه من جلالة الملك .

زيارات للأمير : فى ٢٣ منه توجه الأمير والخديو وحاشيتهما إلى الأهرام لمشاهدة الآثار وتناول طعام الغداء فى الكشك الخصوصى ، وفى مساء هذا اليوم أقام له عباس مأدبة الوداع فى سراى عابدين حضرها بعض أفراد العائلة الخديوية وكامل باشا واللورد كتشنر والنظار ونائب القومسير العثمانى وكبار موظفى المعية وغيرهم .

وفى ٢٤ منه زار سموه برفقة المهمندار مساجد آل البيت الشهيرة وجامع محمد على والرفاعى والسلطان حسن ودار الكتب ودار الآثار العربية ودارالآثارالمصرية .

وفى نفس هذا اليوم أقامت صاحبة الدولة والعصمة والدة الخديو مأدبة فىسرايها بقصر الدوبارة إكراما لسمو الأمير ومن معه .

سفر الخديو والأمير للاسكندرية : وفى يوم ٢٥ منه بعد الظهر ركب سمو الأمير والخديو وحاشيتهما القطار الخصوصى إلى الاسكندرية فوصلها الساعة ٥ مساء ثم نزل الجميع إلى يخت المحروسة .

سفر الوفد الشاهانى للاستانة : وفى فجر ٢٦ منه أبحرت المحروسة بالوفد العثمانى بعد أن ودع عباس ضياء الدين افندى وحاشيته ، وسافر بمعية الأمير من قبل الجناب العالى حضرات محمد عزت باشا ومحمودبك صادق منرجال المعية ورشيد بك منموظفى الخاصة الخديوية وعارف بك وكيل الديوان التركى الخديوى .

إهداء السلطان صورته لعباس : كان لما لقيه صاحب الدولة ضياء الدين افندى من حفاوة الخديو واهتمامه بتوفير وسائل راحته وسروره أثر عظيم فى نفس السلطان محمد الخامس ، لذلك أراد أن يعرب عما كان لصنيع مليك مصر مع أكبر أنجاله من حسن الوقع وجميل الأثر لدى جلالته فتفضل باهداء صورته الفوتوغرافية لسموه ، وقد ازدانت هذه الصورة الكريمة باسم جلالته مرقوماً بالألماس على الطراز الكوفى الجميل وهى موضوعة فى إطار بديع الصنع ويعلوه التاج الشاهانى من الألماس والياقوت .

أثر الهدية فى نفس عباس : قد قابل الخديو هذه العلامة الأبوية بما يليق بمقام

جلالة المتبوع من الاجلال والاحترام ورفع لسدته آيات الشكران على هذه العواطف الكبرى وتلك الرعاية العلية العظمى .

وأذكر أن ثابت بك أثوابجى باشى السلطان قام بمساع لزواج ضياء الدين افندى من إحدى كريمات الخديو ولكنها لم تنجح لوجود ذرية من محظية له .

وأذكر أيضا أنى لما تشرفت بمقابلة السلطان رشاد عقب تأليف صدارة الغازى مختار باشا الائتلافية تبادلنا الحديث أولا عن عباس فأظهر محبته له وسأل عن صحته . ثم انتقلنا الى الكلام عن تأليف الصدارة الجديدة فسألنى السلطان عن رأيى وما يقوله المصريون فيها ، فهنأته وقلت إننا نحن المصريين مسرورون من تشكيلها لأنها تضم اليها نخبة من الصدور الأقدمين ومن بينهم كامل باشا وإننا نسأل المولى التوفيق لهذه الصدارة فى خدمة البلاد ، قال جلالته : « أنا أعلم أن المصريين مخلصون لنا » وبعدها نطق بالآية الآتية نطقاً تركياً : « إنما المؤمنون إخوة » وأخيراً التفت إلى ثابت بك الذى كان واقفاً بجانبه وقال: « ما رأيك أنت يا ثابت بك؟ » فأكثر من المديح والثناء فى حكمة الخليفة فى هذا الاختيار .

فظهر لى أن السلطان رشاد يعتمد على آراء ثابت بك حتى فى المسائل السياسية !

سنة ١٩١٢

الحرب الطرابلسية . موقف مصر منها . البرنس فؤاد . تدخل الخديو . محادثاتى مع سفير انجلترا بالأستانة . الخديو والحزب الوطنى المؤامرة على حياة الخديو وكتشنر ومحمد سعيد . اتهام محمد فريد بك الخديو . محاكمة الشيخ جاويش . استقالة سعد باشا وقضيته مع اسماعيل أباظه باشا . كتشنر فى مصر . تعلية خزان أسوان . بينى وبين الشيخ على يوسف . أعمالى فى ديوان الأوقاف .

الحرب الطرابلسية . منذ زمن كانت إيطاليا تفكر فى استعمار طرابلس عند سنوح الفرصة، فلما أرسلت الدولة العلية بعض النقالات العسكرية إلى طرابلس أسرعت إيطاليا بارسال إنذار نهائى بتاريخ ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١ هذا نصه(*) :

ما انفكت الحكومة الايطالية منذ سنين تذكر الباب العالى بضرورة وضع حد لسوء النظام وإهمال الحكومة العثمانية فى طرابلس وبنغازى، وبوجوب تمتيع هذه البلاد بما تتمتع به سائر أقسام إفريقية الشمالية وهذا التغيير (المشار إليه من حيث تأييد الأمن وترقية البلاد) الذى يقتضيه التمدن بجعل المصالح الحيوية بحسب ما تستلزمه مصلحة إيطاليا من أول درجة بالنظر لقصر المسافة الفاصلة بين تلك البلاد وشواطىء إيطاليا .

وبالرغم من حسن مسلك الحكومة الايطالية التى كانت دائماً موالية وعاضدة لتركيا فى كثير من المسائل السياسية فى العهد الأخير وبالرغم من اعتدالها وصبرها حتى الآن، كانت الحكومة العثمانية تجهل رغباتها فى طرابلس، وليس ذلك فقط بل إن جميع مشروعات الطليان فى تلك الأصقاع كانت تصادف دائماً مقاومة مطردة لا تحتمل .

(*) ولو أن الحرب الطرابلسية بدأت فى آخر سبتمبر من السنة الماضية إلا أننا فضلنا وضعها فى هذه السنة حتى يسهل على القراء الاحاطة بباقى الحوادث التى حصلت فيها .

فالحكومة السلطانية التي كانت حتى الآن تبدى عداء دائماً نحو الحركة الايطالية الشرعيـة فى طرابلس وبنغازى، وما زالت كذلك حتى السـاعة الحادية عشرة (يعنى حتى الساعة).

اقترحت على الحكومة الملكية (الطليانية) أن تتفاهم معها وأعلنت أنهـا ميالة أن تمنح أى امتياز اقتصادى يتفق مع المعـــاهدات النافذة ومع شرف تركيا الأعلى ومصالحها، ولكن الحكومة الملكية لا تشعر الآن بأنها فى أحوال موافقـة للدخول فى المفاوضة بهـذا الموضوع، المفـاوضة التى برهن الاختبار المـاضى على عـدم نفعها وهى لا تشتمل على ضمان للمستقبل ولا تكون إلا سبباً للاحتكاك والنزاع.

ومن جهة أخرى فقـد وردت الأخبـار إلى الحكومة الملكية من قنصليها فى طرابلس وبنغازى تفيد أن الحالة هناك خطرة جداً بسبب التحريض العام ضد الرعايا الطليان، التحريض الذى زاده الضباط وسائر موظفى الحكومة؛ فهذا التهيج خطر شديد ليس على الطليان فقط بل على سائر الأجانب على اختلاف جنسياتهم. ولما أصبحوا قلقين على حياتهم شرعوا يهجرون البـلاد بلا إبطاء، ووصول النقـالات العسكرية العثمانية إلى طرابلس زاد الحالة خطراً وحرجاً مع أن الحكومة الملكية نبهت الحكومة العثمانية إلى نتائجه السيئة من قبل. ولهذا تضطر الحكومة الملكية أن تتخذ الاحتياطات اللازمة دفعاً للخطر الناجم منه.

ولما وجدت الحكومة الايطالية نفسها مضطرة إلى الحرص على شرفها ومصالحها قررت أن تحتل طرابلس وبنغازى احتلالا عسكرياً. هذا هو الحل الوحيد الذى تعول عليـه إيطاليـا، والحكومة الملكية تنتظر أن الحكومة السلطانية تصـدر أوامرها حتى لا تصادف إيطاليا فى الاحتلال معارضة من رجال الحكومة العثمانية، وألا تجد صعوبة فى إنفاذ ما تريد إنفاذه، وبعد ذلك تتفق الحكومتان على تقرير الحالة اللازمة التى تلى ذلك الاحتلال.

وقد صـدرت الأوامر للسـفير الايطالى فى الاسـتانة أن يلتمس جواباً حازماً فى هذه المسألة من الحكومة العثمانية فى ٢٤ ساعة منذ تسليمه هذا البلاغ حتى إذا لم تجاوب عليه كانت الحكومة الايطالية مضطرة أن تنفذ المشروعات المدبرة لضمان الاحتلال.

ونرجو أن يبلغ جواب الباب العالى المنتظر فى ٢٤ ساعة لنا عن يد السفير العثمانى فى رومه.

الامضاء
سان جوليانو

جواب الباب العالى على إنذار إيطاليا : تعرف السفارة الملكية كل المعرفة الظروف التى لم تسمح لطرابلس وبنغازى بأن تتقدم التقدم الموموق . ودرس المسألة بتنزه عن الأغراض يكفى فى الحقيقة لأن يثبت أن الحكومة الدستورية العثمانية لا يجوز اتهامها بحالة هى نتيجة الحكم الماضى . فاذا ظهر ذلك وعدنا إلى تاريخ حوادث السنين الثلاث التى مرت ، يعجز الباب العالى أن يجد ظرفاً واحداً مفرداً ظهر فيه بمظهر العدوان للمشروعات الطليانية فى طرابلس الغرب وبنغازى ، بل إنه يجد عكس ذلك أى إن إيطاليا كانت تساعد بمالها ونشاطها الصناعى على إنهاض ذلك الشطر من السلطنة اقتصادياً .

وتعتقد الحكومة السلطانية أنها أظهرت دائماً ميلا حسناً إلى كل مقترحات كانت تقدم لها بهذا المعنى ، بل إنها درست وحلت ودياً كل طلب طلبته السفارة الملكية .

ولا حاجة بنا إلى أن نزيد أنها كانت بذلك تنقاد دائماً لارادتها فى أن تحفظ صلات الصداقة والثقة مع حكومة إيطاليا وفى أن تنميها . وهذه الارادة الحسنة هى التى دفعتها مؤخراً إلى أن تقترح على السفارة الملكية اتفاقاً يكون أساسه الامتيازات الاقتصادية التى تفتح مجالا واسعاً للنشاط الطليانى فى تلك الأقاليم ، على شرط أن يكون حد تلك الامتيازات كرامة السلطنة ومرافقها والمعاهدات النافذة .

بهذا برهنت الحكومة العثمانية على ميولها السلمية دون أن يغيب عنها حفظ العهود التى تربطها بالدول الأخرى ، تلك العهود التى لا يمكن أن يسقط شرط منها بارادة فريق من المتعاقدين .

أما ما يختص بالنظام والأمن فى طرابلس وبنغازى فان الحكومة العثمانية القادرة جيداً على تقويم الحالة لا يمكنها إلا أن تؤكد كما فعلت سابقاً أنه لا يوجد أقل سبب داع للخوف على الطليان والأجانب النازلين هناك .

فنى تلك الأقاليم لا يوجد اضطراب ولا تهيج ، ومهمة الضباط وغيرهم من موظفى الحكومة ضبط الأمن وهم يقومون بمهمتهم خير قيام .

أما وصول النقالات العسكرية العثمانية إلى طرابلس ، المتمسكة به السفارة لأنها تتوقع منه نتائج خطرة ، فجواب الباب العالى عليه أنه لم يرسل سوى نقالة واحدة سافرت قبل وصول مذكرة ٢٦ سبتمبر ببضعة أيام ، وزد على هذا أن تلك النقالة لا تحمل جنوداً فلا يمكن أن يكون لوصولها تأثير على أفكار الأهالى غير تأثير الهدوء .

فاذا تبين ذلك لا يبق إلا عدم وجود الضمانة التي تضمن للحكومة الطليانية توسع مصالحها الاقتصادية فيطرابلس وبنغازى، فاذا كانت الحكومة الملكية لا تعمد إلى عمل خطير كالاحتلال العسكرى فان الباب العالى عاقد النية على إزالة هذا الخلاف والحكومة السلطانية تطلب من الحكومة الملكية أن تبين لها نوع الضمانات المطلوبة، فهى توافق عليها إذا لم تمس الأملاك، وهى تتعهد بألا تغير شيئاً من الحالة الحاضرة أثناء المفاوضات، من حيث الهيئه العسكرية فى طرابلس وبنغازى، ولها الأمل أن الحكومة الملكية توافق الباب العالى على أمياله الحسنة.

الاستانة فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١

استغاثة السلطان بملوك أوربا : وقد استغاث السلطان بملوك أوربا، فرد ملك الانجليز معرباً عن أسفه لعدم استطاعته التدخل، وأجاب أمبراطور ألمانيا بأنه أصدر تعليمات لسفيره ليتوسط فى الأمر؛ ولكن انفراد ألمانيا جعل وساطتها غير مجدية.

موقف مصر منها . وقد كان موقف مصر الرسمى من هذه الحرب هو موقف الحياد حسب إشارة انجلترا، وقد أبدل بالمأمورين المصريين فى الحدود الغربية انجليز، ومنع أهالى المغرب من الدخول للأراضى المصرية، وأعدت الزوارق التابعة لمصلحة خفر السواحل لمراقبة الحدود الغربية والشرقية حتى قطعت التجارة الطرابلسية المصرية وردت كل قافلة تجارية آتية من تلك البلاد.

أما موقف الشعب المصرى فكان موقف المعاضد لتركيا فشكلت اللجان بكثير من أنحاء البلاد لجمع التبرعات للدولة العلية، ففى ١٤ أكتوبر سنة ١٩١١ شكلت لجنة عليا برياسة الأمير عمر طوسن، وبلغت قائمة التبرعات الأولى ١٦٩٢ جنيها والثانية ٣١٣٧ جنيها ثم توالت التبرعات من جميع النواحى حتى بلغت فى أول يناير مبلغ ٨٥٤٦٨ جنيها، أخذت تزداد كل يوم.

وتألفت جمعية الهلال الأحمر برياسة الشيخ على يوسف وقررت تأليف عدة مستشفيات ميدان، وسافرت البعثة الأولى يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩١١، كما سافرت ثلاث بعثات يوم ١٤ ديسمبر، وتوالت البعوث الطبية.

وفى ١٨ يناير سنة ١٩١٢ أعدت سوق خيرية فى حديقة الأزبكية لقبول تبرعات المتبرعين للهلال الأحمر تحت رعاية دولة الوالدة، وضربت عليها السرادقات والزينات

البديعة وعرضت فى السوق معروضات من بعض المحال التجارية وخصصت أرباحها للجمعية. وقد توالت التبرعات بالحلى والجواهر والأوانى الفضية والذهبية من أميرات البيت الخديوى وحرم الكبراء والعظماء وسواهن.

مظاهرات الأهالى: وقد كان الشعور لدى الأهالى بالغاً حد الانتباه لكل حركات الحرب وتفصيلاتها، ووردت الأنباء مبدئياً بانتصار الأتراك. فقامت مظاهرة ابتهاج فى الاسكندرية، فعز ذلك على الجالية الايطالية فيها فاشتبكت مع المتظاهرين وأطلق بعضهم عيارات نارية أصابت المصريين وانتهى الحادث قبل استفحاله.

مجهودات عزيز المصرى بك والأستاذ عبد الرحمن عزام: وقد اشترك فى هذه الحرب من المصريين عزيز المصرى بك، وكان قائداً فى بنغازى؛ والأستاذ عبد الرحمن عزام. وكانت لهما جهود كبيرة فى تأليف الجيوش والجهاد.

كتشنر وسياسته مع المصريين: فى أوائل هذه الحرب ذهب وفد من كبار المسلمين إلى اللورد كتشنر وطلبوا منه إرسال بعض أورط من الجيش المصرى لمساعدة الأتراك، فأجابهم قائلا: «هذه فكرة صائبة ولكن لما كان من الصعب أن نجد جنوداً آخرين ليحلوا محل الجنود المطلوب سفرهم، فانى سأضطر فى هذه الحالة لأن أطلب من حكومتى أن نرسل لمصر جنوداً من الانجليز» فانصرف الوفد دون إلحاح.

وفى ذات يوم ذهب أيضاً جماعة من الضباط المصريين وطلبوا منه السماح لهم بالتطوع فى الجيش التركى، فقال لهم: «لا أرى مانعاً من إجابة هذا الطلب. ولكننى أقول لكم مقدماً بأنكم إذا سافرتم فمن الضرورى ملء مراكزكم فى الجيش بصغار الضباط فعند عودتكم تجدون أنفسكم بطبيعة الحال فى كشف الاستيداع»

وجاء أيضاً وفد من مشايخ العربان واستأذنوه فى جمع المتطوعين لكى ينضموا إلى الجيش التركى. فقال لهم إنه يهنئهم على ما أظهروه من الشجاعة والبسالة بتقديم هذا الطلب، ولكن من الحرام أن تفقد مصر رجالا مثلهم ذوى شجاعة وبسالة فان حكومة مصر ستضطر عند عودتهم أن تطبق عليهم قانون القرعة السعكرية المعافين منه إلى الآن، وبعد المشاورة انصرفوا من عنده ولم يرجعوا إليه مرة ثانية، وبذلك تخلص اللورد من إجابة هذه الطلبات تخلصاً من مسئولية حياد مصر.

جيوش السنوسى: وفى ١٤ يناير جاءت الأنباء بأن السيد احمد الشريف السنوسى

وإخوته يؤلفون الجيوش إلى ميدان القتال تحت قيادتهم الشخصية ، وقد نشروا الدعوة لكافة مشايخ القبائل والزوايا والمجاهدين ، وفى أول أبريل وصل السنوسى بجيوشه إلى جغبوب .

البرنس فؤاد . راجت إشاعات عن البرنس فؤاد باشا فى المسألة الطرابلسية تتلخص فى أن ملك إيطاليا وعده بامارة طرابلس بعد احتلالها ، وأنه بسبب هذا الوعد عمل على التقريب بين سمو الخديو وجلالة ملك إيطاليا، فتمت زيارة الخديو لايطاليا فى العام الماضى يرافقه البرنس؛ وقد رددت هذه الاشاعات بعض الصحف الفرنسية والألمانية فارسل البرنس تكذيبات لها نشرت فى ١٠ يناير سنة ١٩١٢ .

تذبذب الخديو . وقد سهل الخديو فى أول الأمر إرسال الاعانات والبعثات ومنها ما كان يحمل مدافع مفككة وسلاحاً وذخيرة ومؤونة بعد أن أرسل رشدى باشا إلى كتشنر للتفاهم معه قبل منح التسهيلات اللازمة بدون مسئولية عليه أو على حكومته . ولما توالت انتصارات الايطاليين فى طرابلس فى الأشهر الأخيرة من الحرب ، وتغير موقف الخديو ، عاد فطلب من كتشنر بواسطة حسين رشدى باشا وقف المساعدات ، فامتنع عن اتخاذ خطة صريحة بذلك بعد ما سمح بارسالها أولا ، وانتهى الأمر بأن يقال إن البعوث الأخيرة ضلت الطريق وقد منعت بعوث الهلال الأحمر العائدة من الدخول بالمرضى .

عبد الحميد بك شديد ومهمته (*) : وأرسل الخديو عبد الحميد بك شديد للسيد ادريس السنوسى ليغريه بالاتفاق مع إيطاليا حسما للحرب على أن يسعى الخديو فى الحصول له على امتياز من إيطاليا وتنصيبه رئيساً على السنوسيين بدلا من عمه الشيخ احمد السنوسى الكبير؛ وفى نظير ذلك يتحصل سموه على وعد ببيع سكة حديد مريوط لاحد بنوك إيطاليا بثمن يرضيه . ولكن المساعى التى كان عباس يبذل الجهد فيها للوصول إلى ذلك قد فشلت ، لأن كتشنر ضربها ضربة قاضية .

الخديو والحزب الوطنى . منذ عامين والجفاء يشتد بين الخديو والحزب الوطنى ، وقد ورد شىء من ذلك فى مذكراتى فى السنين الماضية .

وفى ١٩ يناير من هذا العام أقيمت حفلة لرعاية الأطفال بدار الأوبرا تحت

(*) وقد طلبت من عبد الحميد بك شديد بعض تفصيلات عن مهمته ولكنه اعتذر بمرضه .

رعاية سمو الخديو وحضرها مندوب من قبل سموه ، وقد حدث عند دخول المندوب وعزف الموسيقى بالنشيد الخديوى أن وقف جميع الحاضرين حسب المعتاد ما عدا محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى ، مما استرعى أنظار الحاضرين جميعاً .

ولما كانت هذه هى الحادثة الأولى من نوعها، فتناقلتها الألسن والصحف ، وكانت لها ضجة فى داخل السراى .

وقد خاطب حسين رشدى باشا فريد بك فى هذا الشأن فأجابه بأن ليس هناك قانون يحتم عليه الوقوف .

وكانت هذه الظاهرة بمثابة إعـــلان حرب عدائية على الخديو ، والخروج على الاحترام اللائق به .

الحض على كراهة الحكومة : وفى ٢٦ مارس اجتمعت الجمعية العمومية للحزب الوطنى فألقى محمد فريد بك خطبة نارية ، اعتبرتها النيابة حضاً على كراهة الحكومة ، فأخذت فى محاكمته .

وقد كان سعد زغلول باشا ناظراً للحقانية فلم يؤخذ رأيه فى هذه المحاكمة فاستقال من النظارة (كما سيجىء ذلك بالتفصيل) .

وفى يوم ٣٠ أبريل نظرت القضية أمام محكمة الجنايات متهماً فيها محمد فريد بك بالحض على كراهة الحكومة والدعوة للثورة ولم يكن حاضراً ، وعلى اسماعيل حافظ مدير العلم ، وعلى فهمى كامل الحارس القضائى لجريدة اللواء لنشر الخطبة فى جريدتيهما .

وقد مثل النيابة محمد زكى الابراشى افندى ، وترافع عن المتهم الثانى عبد العزيز فهمى بك وعن الثالث محمود ابو النصر بك . وحكمت المحكمة بالحبس سنة مع الشغل على فريد بك وبالحبس البسيط ثلاثة أشهر على كل من الثانى والثالث .

المؤامرة على الخديو وكتشنر ومحمد سعيد : وفى أول أغسطس قبض البوليس على ثلاثة شبان وهم محمد عبد السلام وإمام واكد ومحمود طاهر العربى بتهمة المؤامرة على حياة الخديو وكتشنر ومحمد سعيد ، وقد كان تدبير القبض عليهم من فلبيدس مأمور إدارة الضبط بالقاهرة .

ونظرت القضية فى ١١ أغسطس وحضر للدفاع عن المتهمين ابراهيم الهلباوى بك ومصطفى الشوربجى افندى وعبد الوهاب افندى البرعى .

وكانت الجلسة برياسة على ذى الفقار باشا وعضوية احمد موسى بك ومحمد توفيق رفعت بك .

وتولى الاتهام عبد الخالق ثروت باشا النائب العام ؛ وقد أنكر المتهمون التهمة الموجهة إليهم .

وفى ١٢ أغسطس أصدرت المحكمة حكمها بالسجن مع الأشغال الشاقة ١٥ سنة على إمام واكد ، وبالسجن مع الشغل ١٥ سنة كذلك على محمود طاهر العربى ومحمد عبد السلام .

اتهام فريد بك للخديو : فى يوم ٢٠ أغسطس نشر محمد فريد بك فى جريدة السيكل الفرنساوية مقالا يتهم فيه الخديو بالعمل ضد عرش الخلافة وضد كيان الدولة بالاتفاق مع انجلترا نظير اعترافه بالحماية سراً .

وأن الغرض من هذه المساعى ضم برقة وسوريا وبلاد العرب لمصر وتنصيب عباس خليفة عليها خاضعاً للانجليز ، وأنه يستعين بعلماء الأزهر وبعض مشايخ الزوايا والتكايا ويرسلهم برسائل خاصة إلى اليمن والعسير ليبثوا روح العصيان .

« ولكى يتسنى تثقيف رسل تتوفر فيهم الكفاءة لنشر هذه الدعوة ، كلف الشيخ محمد رشيد رضا بتأسيس مدرسة خاصة فى القاهرة باسم مدرسة الدعوة والارشاد ، ولهذه المدرسة فرع فى باريس باسم جمعية تنشيط العلوم العربية تحت رياسة طالب ينفق عليه الخديو .

« وقد ندب الشيخ رشيد رضا عقب تنظيم المدرسة من لدن رؤسائه (الخديو وأنصاره) للذهاب إلى الهند لحضور مؤتمر إسلامى فى « لكناو » لينصح للمسلمين بالخضوع للانجليز ويطرى الخديو وحكومته فى مصر ، ويمنع الاكتتابات للعثمانيين فى طرابلس ففشل فى مهمته (*)

« ثم إن مصلحة المخابرات التابعة لنظارة الحربية المصرية تبث جواسيسها فى سوريا لنشر هذه الفكرة وأكثر رسلها من السوريين .

(*) مع اتصالى الشديد بالسراى وما يدور فيهما فانى لم أسمع عن هذه التدبيرات التى ذكرها محمد فريد بك خاصة بسعى الخديو للخلافة تحت الحماية الانجليزية أما فيما يختص بمدرسة الدعوة والارشاد فانى أعلم أنها أنشئت لغاية سامية حبذتها وساعدتها وهى الدعوة الدينية الخالصة وقد تخرج فيها بعض نوابغ المسلمين ومنهم السيد محمد الحسينى مفتى القدس ورئيس المجلس الاسلامى الأعلى .

وقد أعقب فريد بك هذه المقالة بمقالين آخرين فى ٥ و ١٠ سبتمبر فيهما توكيد وتفصيل لما ورد بالمقالة الأولى ، وختمها بقوله :

« وقد رغبت فى نشر هذه البيانات لاماطة اللثام عن هذه الدسائس أمام العالم المتمدين ، ولأحذر الدول ذات الشأن من الأعمال التى يقوم بها عباس الثانى إرضاء لطمع شخصى يحاول به أن يزعزع توازن العالم بوضع الخلافة فى يد انجلترا . فيجب على فرنسا هذه الدولة ذات المستعمرات الاسلامية الكثيرة أن تراقب الحالة عن كثب . »

وبعد ظهور هذه المقالات أخذ بعض أعضاء الحزب الوطنى ـ بمساعى الخديو وتأثيره ـ يطلبون عزل محمد فريد بك من رياسة الحزب، وطلبوا انعقاد اللجنة الادارية للحزب لمحاكمته ، فعارض فى هذا على فهمى كامل بك .

وأخيراً عقدت اللجنة وقررت استنكار مقالات فريد بك ، ولكن لم ينشر هذا القرار فى الصحف ؛ فاستقال بعض الأعضاء ومنهم على المنزلاوى بك ومحمود فهمى سكرتير الحزب .

وفى ٢٠ سبتمبر نشرت « الأهرام » برقية أرسلها فريد بك لعلى فهمى كامل بك وكيل الحزب باستقالته لاضطراره للبقاء خارج القطر ، وطلب أن تعرض الاستقالة على الجمعية العمومية للحزب دون غيرها ؛ وذلك نظراً لما بلغه عن مساعى الخديو مع أعضاء اللجنة الادارية .

محاكمة الشيخ جاويش . وفى يوم ٢٤ أغسطس ضبط بوليس جمرك الاسكندرية مع الشاب « احمد مختار » القادم من الاستانة حقيبة بها منشورات ثورية مطبوعة فى مطبعة الهلال العثمانى التى يصدرها الشيخ عبد العزيز جاويش ، تتضمن قدحا شديداً فى الخديو ، ودعوة لتأسيس الجمعيات السرية للفتك والاغتيال .

وظهرت فى الوقت نفسه منشورات ثورية فى الاسكندرية وطنطا .

وتكررت المقالات المثيرة فى اللواء والعلم فصدر أمران باغلاقهما : الأول يوم ٣١ أغسطس والثانى يوم ٧ نوفمبر ، بعد إنذارهما مرتين .

وقد قبض فى الاستانة على الشيخ جاويش وأحضر للاسكندرية يوم ٨ منه . فكتب فريد بك فى جريدة السييكل ينتقد حكومة الاستانة لتسليمها رجلا متهماً بتهمة سياسية لخصومه ، مخالفة فى ذلك جميع التقاليد الدولية .

وقد حوكم الشيخ جاويش وحفظت القضية بالنسبة له فى ١٩ اكتوبر لعدم كفاية الأدلة .

استقالة سعد باشا : فى أواخر يناير من هذا العام جرى حديث بين سعد باشا ناظر الحقانية ومندوب جريدة الأخبار نفى فيه الاشاعات التى تناقلتها الصحف عن قرب استقالته من الحقانية .

ولكن فى أول أبريل ، بعد الشروع فى محاكمة محمد بك فريد بتهمة تحريضه على كراهة الحكومة، دون استشارة سعد باشا ، قدم استقالته للخديو مبنية على أنه لم يوفق لرضا سموه فى الظروف الحاضرة .

وقد قبلت الاستقالة ، وصدر الأمر لحسين رشدى باشا بالقيام بعمله ، ثم عين نهائياً يوم ١٤ منه .

وفى ٦ أبريل نشر مقال بالأهرام بتوقيع « عارف » جاء فيه :

« إن سعد باشا من مدة قريبة كان يقول : « إننى لم أفكر ولن أفكر فى الاستقالة مادمت قائماً بواجباتى نحو أمتى وبلادى . »

ثم قال إن بعض الناس يقولون عن سعد باشا إنه متصلب خشن والقضاء فى حاجة لتصلبه وخشونته . أما أنا فأقرر أنه إذا كان صلباً خشناً فهو كذلك مرن لين ، يميل عند الضرورة للخضوع والتسليم ، بدليل تصميمه على عدم الاستقالة ، ثم استقالته الآن .

ثم أخذ يتكلم عن سبب استقالته ، وبعد أن وجه عدة غمزات شديدة لسعد باشا فى أخلاقه قال :

« إن بعض أخصائه ذكر أن سعادته روى فى مقام من المقامات العالية عبارة تمس بأمانة وكرامة رجل من كبار موظفى الحكومة ، وكان يعتقد أنه إنما يخدم أمته وبلاده بما روى ، ولكنه يظهر أن الدهر لم يسعد سعد باشا فى هذه الدفعة حيث جنى عليه اجتهاده ، وتبادر إلى الأذهان أن سعادته يريد بهذا العمل إيقاع النفرة بين مقامين من قادة الأمة . ومن مصلحة البلاد تمكين عرا الوفاق وحسن التفاهم بينهما ، فترتبت على ذلك مطالبة سعد باشا باثبات ما صدر عنه فى هذا الشأن ، ولكنه عجز ؛ وسرعان ما تزعزعت الثقة فى مروياته من نفس السلطة الفعلية . أما السلطة الشرعية فيقال إنها

قد ازدادت اقتناعاً بأن ساعة استقالة سعادة سعد باشا إذا لم تكن قد حانت من زمن فانها قد حانت . »

ثم ذكر أن سعد باشا لم يرد الاستقالة وقتذاك ، وانتظر أن تأتى فرصة أخرى ليخرج بمناسبة شريفة .

وأنه ، وقد فقد السلطة الفعلية ، أراد التقرب للسلطة الشرعية ، ووسط بعض أصهار العائلة الخديوية ، فلم تنتج الوساطة ، وأخيراً قدم استقالته .

وذكر أن سعادته سلم صورة الاستقالة لمستشار الحقانية لتسليمها لكتشنر مشفوعة بعبارة مفادها : « لقد ضحيتمونى لارضاء الجناب الخديوى » وأن اللورد رد على ذلك شفوياً بأنه قد علم بقبول الاستقالة ، وأنه ينظر إلى هذا القبول بعين الارتياح ، وإنه إن كان قد ضحاه كما يقول فما عمل هذا إلا إرضاء للصالح العام .

وبعد ذلك أخذ يشرح أسباب تولية سعد النظارة فى عهد كرومر فذكر أن اللورد أراد بها تقوية مركزه بعد حادثة دنشواى ، لما كان مشهوراً عن معارضة سعد للحكومة والسياسة الانجليزية ، فكان تعيينه إرضاء للوطنيين ، وثناؤه على الانجليز وسيلة لتقوية مركز المعتمد فى انجلترا .

ثم دارت الأيام واتفقت السلطتان فلم يبق ما يدعو لخدمات سعد باشا ، فهو قد دخل النظارة للشقاق والنزاع وتركها للوفاق والسلام .

وقد أرسل سعد باشا من مسجد وصيف برقية للصحف نفى فيها ما جاء بمقال عارف ، وخصوصاً ما يتعلق بالالتجاء إلى أحد أصهار العائلة الخديوية ، وبارسال الاستقالة إلى كتشنر .

وذكر أنه مستعد لاظهار الحقيقة فى ذلك كله إذا كشف العارف عن اسمه ، وصرح بأنه مأذون فى نشر ما رواه لأن بيان الحقيقة يستلزم إفشاء أسرار يقضى الواجب بكتمانها إلا إذا أذن أصحاب الشأن صراحة أو ضمناً بافشائها .

وبعد ذلك أخذت الصحف تخوض حول هذا الموضوع وتملأ كثيراً من أعمدتها بالمناقشة والردود .

وفى ١١ أبريل نشرت « الأهرام » أن « عارف » فوض إليها نشر اسمه إذا طلبته إحدى المحاكم الأهلية أو المختلطة أو نيابة إحداهما ، وأنها أبلغت سعد باشا ذلك .

وفى ١٢ منه نشرت مقالة أخرى لعارف فيها غمز شديد لسعد باشا وتوكيد لما ورد فى المقال الأول وتفصيل لحوادثه . وقال « إن البرقية التى نشرت باسم سعد اخترعتها صحيفة « الجريدة » ولكنها أخطأت وأساءت لسعد بها ولم تحسن الدفاع عنه . »

وفى ١٤ منه بدأ التحقيق فى القضية وظهر اسم « العارف » وهو اسماعيل أباظة باشا وحضر عن المدعى المدنى (سعد باشا) ابراهيم بك الهلباوى ومحمد بك يوسف . وقد وجهت النيابة تهمة السب والقذف لأباظة باشا ، فطلب مهلة أسبوعين للاجابة ، لأن ما نسبه لسعد باشا خاص بعمله كموظف .

ثم طلب حضور سعد نفسه لأنه أعرف الناس بما يختص بشخصه وهناك أشياء قد يرى سعادته بعد المناقشة أن من المصلحة عدم الخوض فيها . وقد أجل التحقيق خمسة عشر يوماً .

وفى ٢٩ منه استؤنف التحقيق وصرح محاميا سعد للمتهم باثبات كل ما يريد إثباته . وأن موكلهما لا يتمسك بالقانون ، الذى لا يبيح للطاعن فى أحد الأفراد كما هى صفة سعد الآن إثبات قذفه .

وكرر أباظه باشا طلب حضور سعد باشا فقرر محامياه أن سعادته لن يحضر ، ثم قدما توكيلهما عنه فذكر أباظه باشا أنه قاصر ، ولم يحدد مهمة الوكيلين ، وامتنع عن الاجابة حتى يحرر توكيل مفصل ويثبت رسمياً أنه من المدعى المدنى .

وقد اعتبر التحقيق منتهياً بهذا .

وفى ٣٠ مايو عرضت القضية فى جلسة سرية وقد دعيت للشهادة فقررت أن الخديو كان مستاء من سعد باشا منذ حادثة دقه المنضدة أمام سموه فى جلسة مجلس النظار عند نظر قانون مدرسة القضاء الشرعى ، وأن أباظه باشا كان مندفعاً فيما كتب بتأثير خصومته لسعد باشا واعتقاده أن ما كتبه قد يرتاح إليه الخديو .

كتشنر فى مصر . فى يوم ٩ فبراير قرأت فى جريدة مورننج بوست كلمة عن اللورد كتشنر فى مصر جاء فيها :

« إنه يختلف كل الاختلاف عن اللورد كرومر والسير الدون جورست ، ويزيد فى مزاياه عن سلفيه أنه فاتح الخرطوم ، وقاهر المهدى ، والسردار السابق ، والعارف لكل من خدم فى الجيش المصرى ، والمعروف عند أحط الطبقات المصرية .

« إنه يتكلم اللغة العربية كما يتكلمها ابن مصر ، ويعرف كل مركز من مراكز الوجهين ، ويلم بكل مسألة تقع فى البلاد ، ويذهب إلى كل مكان . »

وقالت عن علاقاته بالخديو : « إنها حسنة وصريحة وكل منهما يعرف حدود صاحبه ونفوذه وكلاهما راض بما عنده . »

تدخله فى جميع الشئون : وهذا الذى ذكرته الصحيفة الانجليزية عن كتشنر صحيح فى عمومه فانه منذ أن عين معتمداً فى مصر لم يفتأ يهتم بأبسط المسائل ويزور البلاد ويتحادث مع أهلها ويسمع اقتراحاتهم ،كأنه الحاكم الشرعى فى البلاد . وكانت استقبالاته من الحكام ومن ذوى الحاجات لا تدع مجالا للشك فى أنه قابض على كل السلطة فى مصر؛ ومن أمثلة ذلك أن يطلب إليه أهالى أسيوط فى إحدى الزيارات إنشاء مدرسة ثانوية . ويطلب أهالى فوة خطاً حديدياً بينها وبين دسوق . . . الخ .

كما أنه كان يبذل أشد الاهتمام لشئون الفلاحين فأنفذت باشارته عدة مشروعات خاصة بهم كقانون خمسة الأفدنة ، الذى حمى الفلاحين من أيدى المرابين الذين يعيثون فى الأقاليم الفساد؛ وبذلك القانون أنقذ هؤلاء الفلاحين الذين يكونون أربعة أخماس تعداد القطر المصرى .

وكذلك أنشأ ميدان صلاح الدين الأيوبى بالقلعة ووسع ميدان باب الحديد وأنشأ كذلك صناديق للتوفير فى القرى ، وتكوين لجنة لبحث آفات القطن وانتقاء البذور ، ومحاكم الأخطاط .

وقد ساعد تحت ضغط اليقظة القومية على تقرير التدريس باللغة العربية فى المدارس الثانوية من العام القادم .

وفى ١٨ مايو صدر تقريره الأول فابتدأه بالثناء على الخديو ونظاره للنجاح الذى حصلوا عليه فى سبيل تحسين حالة الأهالى .

ثم ذكر أن الأمة المصرية أظهرت هدوءاً وإخلاصاً نحو الواجب والقانون والنظام فى الحرب الطرابلسية الأخيرة . وذلك رغم إغراء صحف الحزب الوطنى ورجاله الذين لا يحسبون حساباً للعواقب . وذكر أن مجلس الشورى قام بواجبه خير قيام وأنه يحسن توسيع سلطته واختصاصه .

وقال إن ارتقاء السواد الأعظم من القطر يتوقف على تحسين الزراعة وترقية

المعارف بينهم ، وأن مصلحة الزراعة تعمل جهدها فى تعليم الأهالى وإرشادهم ؛ واقترح التعليم نصف اليومى فى القرى . ثم عمد إلى تفصيلات جزئية كثيرة فى كل نواحى الأعمال نتيجة لتداخله فيها جميعا .

ومن الصراحة أن نقول إن الخديو عندما رأى تغلغل نفوذ كتشنر فى البلاد ، وأنه لم يبق له أية سلطة ، اعتكف فى سراى القبة وامتنع عن التدخل فى أمور البلاد ولم ينزل إلى سراى عابدين إلا للضرورة القصوى ، ولم يرأس مجلس النظار إلا نادراً ، وترك العمل لكتشنر ومحمد سعيد ؛ وسنرى كيف وثب من رقدته لاسترداد نفوذه .

تعلية خزان أسوان . تمت تعلية خزان أسوان وتقرر افتتاحها يوم ٢٢ ديسمبر وقد حضرها الخديو ورجال الحاشية ، وسبقه النظار لاستقباله .

وفى الساعة الخامسة مساء وصلنا إلى الخزان فاستقبل سموه العظماء والكبراء والنظار واللورد كتشنر .

وألقى ناظر الأشغال اسماعيل سرى باشا خطبة عن سياسة الرى والحاجة لتعلية الخزان وفوائدها والنفقات التى احتاجها وهى نحو خمسة ملايين جنيه .

ثم ألقى الخديو كلمة عبر فيها عن سروره بهذا العمل وعنايته بسعادة مصر والعمل لما فيه خير الأجيال القادمة .

وقام اللورد كتشنر فأبلغ الخديو رسالة من ملك انجلترا جاء فيها :

« أرغب إليكم فى هذه الفرصة المباركة أن تعربوا للجناب العالى الخديوى عن تهنئتى القلبية لسموه بمناسبة انتهاء الأثر الجليل الذى يتصل به اسم عمى الدوق أوف كونوت(*)

« وإذا كنت أواصل بنظرى مع الاهتمام الشديد نجاح القطر المصرى فانى أشاطر سموه الاغتباط باتمام ذلك الأثر الجليل . »

ثم تناول الخديو محركا فضياً فحركه فانفتح الهاويس ومرت السفن محيية سموه .

بينى وبين الشيخ على يوسف . قابلنى الشيخ على يوسف وأخبرنى أنه تحادث مع الخديو بشأن وقف عبد الرازق الوفائى بالاسكندرية الذى تحت نظر الأوقاف ، وأثبت لسموه أنه تابع لوقف أبى الأنوار السادات ، فأمر باعداد الأمر الخديوى

(*) حضر افتتاح الخزان ورأس الاحتفال .

بتحويل نظارة الوقف إليه وعرضه على سموه لتوقيعه عند المقابلة لصلاة الجمعة بالاسكندرية .

فأخذت فى بحث المسألة ، وكلفت من يتحقق من الشواهد بمدافن السادات فثبت لى أن الاسم لمسميين ، وأن بين الواحد والآخر جيلا كاملا ، وليست هناك صلة بين وقف عبد الرازق الوفائى بالاسكندرية ، وعبد الرازق الوفائى التابع لأبى الأنوار .

وفى يوم خميس مر على الشيخ وسألنى مستبطئاً إعداد الأمر الخديوى ، فأخبرته بنتيجة الأبحاث التى قمت بها ولم يكن ينتظر — للصداقة التى بينى وبينه — أن أقف منه هذا الموقف ، ولذلك قام من عندى غاضباً .

وفى يوم الجمعة ذهبت لسراى رأس التين فوجدت هناك سعد باشا وآخرين فسألنى : « ماذا بينك وبين الشيخ على والرجل حجته واضحة ظاهرة ، فاخبرته بالأمر ، فقص على أن الشيخ عليا هنا وأنه قص القصة وهو متأثر وأغمى عليه . »

ثم دعيت لمقابلة الخديو فلما دخلت وجدت محمد سعيد باشا واسماعيل أباظة باشا فسألنى محمد سعيد باشا عن الموضوع وتحدث فى صالح الشيخ على فأخبرته بالحقيقة ، وكان الخديو وأباظة باشا يتغامزان !

ولما طلب منى محمد سعيد باشا أن أتساهل قلت له : « إن المسألة مسألة شرعية ، فلماذا يطلب الشيخ على من الخديو أن يقضى فيها ، وهذا دخول من النافذة لا من الباب ، والأولى أن يعرض الأمر على المحكمة الشرعية للفصل فيه . »

فاعترض محمد سعيد باشا على ذلك محتجاً بأنه ليس من اللائق أن يخلع الخديو عن نظارة وقف بطريق المحاكم .

فأجبته بأن هذه ليست أول مرة وليس فيها غضاضة ولا مساس بالجناب الخديوى ، لأن الأصل فى نظارة الوقف أن تكون لمستحقيه ، فاذا لم يوجد أحداً تحكم المحكمة بتنظر الأوقاف عليه ، وفيما بعد إذا اتضح وجود أحد من الذرية عين ناظراً .

فرد محمد سعيد باشا بأن فى هذا التصرف ضجة على كل حال .

فقلت له : « إنه كان يشاع عن الجناب الخديوى أنه يطلق يده فى خزانة الأوقاف فيخرج منها مايشاء من النقود ليوزعها على أنصاره وأنا أخشى أن يقال الآن إنه حينما وجد حارساً للخزانة أخذ يوزع منها الهبات والمنح أملاكا ونظارات . »

أما إذا حكمت المحكمة لصالح الشيخ على فان ذلك يثبت عدم تسامح سموه حتى مع أخصائه فى مسائل الأوقاف .

وأخيراً اقترح محمد سعيد باشا . بدلا من المحكمة الشرعية ، أن تشكل لجنة تنظر فى طلبات الشيخ على واعتراضاتى عليها . فأجبت بأنه لا مانع عندى من قبول هذا الحل ، ولكن على شرط أن يكون الشيخ بخاتى مفتى الديوان عضواً فى هذه اللجنة .

وقد ألفت اللجنة وكان من بينها فضيلة شيخ الجامع الأزهر والمفتى ومفتى الديوان وقدم الديوان لها مستنداته وطلبت من الشيخ على تقديم تقريره ، ولكنه لم يقدم شيئاً .

وبعد ذلك أخذ الشيخ يثير حولى انتقادات فى جريدة المحروسة وسواها ، ومن وقت لآخر كان الخديو يوجه نظرى لهذه الحملة ، فأجيبه بأنى مطمئن لأننى واثق من أعمالى وعالم بحقيقة هذه الحملة وأسبابها .

وأخيراً رأى سموه أن يوجد حلا لهذه الخصومة وأن أصطلح مع الشيخ على ، فاخبرته أنه لا شىء يمنعنى من الصلح ، لأننى غير غاضب عليه .

وقد اقترح اسماعيل أباظة باشا أن يدعونا نحن الاثنين للغداء على مائدته ، وخوفاً من عدم ذهابى فى الموعد قال إنه سيحضر ليأخذنى ولكنه تأخر عن موعده فذهبت منفرداً .

ولما رآنى داخلا تعجب لمجيئى وحدى ووقف لمصافحتى وتقدم كذلك الشيخ على يوسف فصافحته وقلت له : « سامحك الله ، فأنا قد تحملت الانتقاد دون كلمة رد واحدة . . . » فما كان منه إلا أن قال : « هذا هو الذى قتلنى ! »

أعمالى فى ديوان الأوقاف . عندما تسلمت أعمال الأوقاف كان لزاماً على أن أستعين على مهام هذه المصلحة الواسعة بمعلومات واختبارات رجلين يشرفان على أقسام الديوان ، أحدهما محمد على دلاور بك مدير الادارة والحسابات وغير ذلك والثانى محمد سليمان أباظه بك مدير الايرادات والزراعة ؛ والحق أن كلا منهما كفء : فدلاور بك ذكى ومنظم ونشيط ومحمد سليمان أباظه بك من أحسن الفنيين فى الزراعة .

وقد أوليتهما ثقتى وأوليانى إخلاصهما ، فكنا نتشاور فى المسائل كلا فى اختصاصه فاستبشرت خيراً .



محمد على دلاور بك



محمد سليمان أباظه بك

ولكن بالأسف لم ألبث أن علمت وجود خصام بينهما ؛ وانقسم الموظفون حزبين ، كل واحد يطعن فى الآخر فى البارات والمقاهى على مسمع من الجمهور ، فتمس بذلك سمعة الديوان فبادرت إلى تلافى ذلك فجمعتهما ونصحتهما باللين للكف عن هذا الخصام الذى يضر المصلحة العامة وأن نكون يداً واحدة فى خدمة هذه المصلحة الخيرية ؛ وانتهى الحال على قبول النصيحة ونبذ الخصام ؛ وأظهرت سرورى لهما فانصرفا . غير أنه لم يمض على هذا الصلح إلا القليل حتى رجعا إلى ما كانا عليه من النفور ، وقد فهمت أن السبب فى ذلك عائد إلى أن كل واحد منهما يريد التغلب على الآخر بزيادة النفوذ فى الديوان فقررت بأن العلاج الوحيد لذلك هو تغيير هذا النظام واستبداله بوكيل لتوحيد العمل فى يده حتى لا تكون هناك منافسة .

وفى أواخر السنة الماضية عرضت فكرتى على الجناب الخديوى فلاحظ صعوبة فى تنفيذها ؛ لأن دلاور بك منتم إلى حسين رشدى باشا والآخر معضد من عميد الأسرة الأباظية ، اسماعيل أباظه باشا . فقال لى سموه : « وماذا تفعل يا شفيق حينئذ ؟ » فاجبته

بأنى أفعل ما فيه المصلحة العامة وأتحمل كل غضب منهما. وأخيراً قبل الخديو الفكرة واستبدلت وظيفتى المديرين بوظيفة وكيل، ولارضائهما طلبت من المجلس الأعلى زيادة سنى خدمتهما فكانت هذه الوسيلة ترضية لهما.

ومما أضحكنى أن أزهرى بك حضر عندى وقال لى: «ما هذه السياسة يا باشا؟ لما توليت إدارة الأوقاف ورحبت بهما وأوليتهما ثقتك كنا نحن كبار الموظفين نقول ها هو أيضاً شفيق باشا لعبا به واستمالاه ووضعهما على كتفيه وما شعرنا إلا أنك نفضتهما فوقعا!».

ومن حظ الديوان وحظى أيضاً أن تعين عبد الرحمن رضا بك الرجل القانونى النزيه فى منصب الوكالة وساعدنى على أعمالى فى المدة الوجيزة التى أقامها فى الأوقاف قبل نقله إلى القضاء، وتعين بعده عبد الرحمن فهمى بك وهو خير خلف لخير سلف وله مواقف مشرفة كما سيأتى الكلام عنها.

جناح جديد: ضاق بناء ديوان الأوقاف بموظفيه وأعماله فأنشأت به قسما جديداً تقرر افتتاحه فى يوم ٨ يناير وهو اليوم الموافق لعيد جلوس الخديو.

وقد دعوت للاحتفال بافتتاحه كثيرين فى مقدمتهم أعضاء مجلس الأوقاف الأعلى والعلماء وأعضاء مجلس شورى القوانين وبعض قناصل الدول ووكلاء النظارات ومندوبى الصحف العربية والافرنجية.

وكان رؤساء الديوان يستقبلون المدعوين فى حجرة وضع فيها رسم تخطيطى للبناء الجديد من صنع محمود فهمى بك باشمهندس الديوان.

وفى الساعة العاشرة والنصف حضر سمو البرنس محمد على باشا نائباً عن الخديو.

وافتتحت الحفلة بالقرآن الكريم ثم وقفت فألقيت كلمة جاء فيها:

«أفتتح هذا البناء الجديد باسم الله فى هذا اليوم المبارك يوم عيد الجلوس الخديوى تيمنا به.»

ثم ذكرت ملخصاً لتاريخ الديوان من يوم إنشائه صغيراً حيث كان إيراده نحو ألف جنيه، وتنقله فى عدة أماكن تبعاً لاتساعه إلى أن استقر به المقام فى داره الحالية سنة ١٨٩٤، ثم إقامة هذا الجناح الجديد، للحاجة إلى توسعته شيئاً فشيئاً.

ثم شكرت صابر صبرى باشا باشمهندس الأوقاف السابق ومحمود فهمى بك

الباشمهندس الحالى ، وختمت كلمتى بالدعاء للجناب الخديوى وشكر الحاضرين .

ثم تفقد سمو البرنس البناء وأديرت الحلوى على الحاضرين .

وفى المساء أقيمت الزينات على بناء الديوان ابتهاجاً بعيد الجلوس وأقيمت حفلة ألقيت بها كلمة . أشرت فيها إلى الابتهاج بالعيد الخديوى وشكرت بهذه المناسبة للذين عاونونى فى ديوان الأوقاف ، وأبديت أسفى على فراق من انتهت مدة عضويتهم بمجلس الأوقاف الأعلى . ورحبت بالأعضاء الجدد .

رئيس قسم القضايا : ولقد كانت وظيفة رئيس قسم القضايا خالية ، فاذكر أن زارنى يوماً خالد الفوال بك المحامى فى السنة الماضية وبادرنى بقوله إنه كان مع سمو الخديو فى مدرسة هكسيوس بجنيف وإنه جاء بناء على أمر سموه ليتكلم معى فى عيينه رئيساً لهذا القسم . فدهشت لهذه المفاجأة ولم ترتح نفسى لهذا الأسلوب الذى أراد به التأثير علىّ باشارته إلى سمو الخديو . ولما سألته عن مؤهلاته لم يقدم لى شيئاً يميزه عن سواه من المحامين . فصرفته على أن أفكر فى الأمر وقابلت سمو الخديو وذكرت له ما حدث تفصيلا وقلت إنه ، وهو لا يمتاز عن سواه ، لن يسعنى تعيينه فى هذه الوظيفة الرئيسية الكبرى ، ولا سيما أنه يوجد بالقسم وكيل قضى زمناً طويلا فى مباشرة أعماله واكتسب خبرة واسعة وإلماماً بسير القضايا هو خليل ابراهيم بك الذى لا يقل عن خالد الفوال بك من حيث المؤهلات ويمتاز عليه بتلك الخبرة .

بعد ذلك زارنى خالد الفوال بك مرة أخرى ومعه خطاب من رشدى باشا ناظر الحقانية يؤيد فيه ترشيحه لتلك الوظيفة ويثنى على كفاءته ، فأدركت أن سمو الخديو لابد وأن يكون هو الذى أوحى لرشدى باشا بهذه التوصية . ولكننى لم أتحول عن رأيى وقابلت سمو الخديو ثانية وذكرت له أننى إن وافقت على تعيينه فيكون فى وظيفة نائب رئيس للقسم لا رئيساً له . ففوض لى سموه التصرف فى الأمر ، وبالفعل عين خالد الفوال بك بهذا المركز ولم يظهر كفاءته فى تنظيم القسم ولا ترافع مدة وجوده به فى قضية ما . ولما علم الخديو بذلك أمرنى بالاستغناء عنه عند وضع الميزانية فى أوائل سنة ١٩١٣ باستبدال نائب برئيس .

وقد وردت إلىّ رسائل كثيرة بتوقيعات مجهولة ينتقد فيها كاتبوها توليته هذا المنصب ، ومن بينها كتاب بامضاء (مسلم غيور على مصلحة المسلمين) جاء فيه :

« نشرت الصحف عقب عيد الجلوس السعيد بأن سعادتكم رقيتم حالة الأوقاف

العمومية مالياً وأدبياً وقضيتم على الأغراض التى كانت السبب فى جعل المصلحة فوضى .

« مع أننا نرى أن الوظائف العالية لا تعطى إلا لمن كان محكوماً عليه من الحكومة بالطرد أو النفى الادارى أو المتشردين الذين لا مأوى لهم غير البارات والحانات مع توابعهم الذين لا تخلو وظيفة إلا وسرعان ما يعينون فيها بلا مسوغ شرعى أو قانونى مثل « الفوال » وأتباعه وأتباع تابعيه الذى يشغل أعظم وظيفة ما أنشئت إلا للمحافظة على حقوق المصلحة الخيرية . . . الخ »

وأخيراً استطعت إقناع الخديو بضرر وجوده فوافقنى واستغنى عنه .

تنظيم قسم الهندسة : قد لاحظت فى قسم الهندسة استقلالا يفصله عن باقى الأقسام ويجعل إدارة الديوان على غير علم تام بسير الأعمال فيه . فسعيت فى وضع النظام اللازم له وصدر الأمر الخديوى فى ١٥ يناير بالموافقة على تشكيل لجنة من كبار أهل الفن لاتمام هذا الغرض تحت رياسة صاحب السعادة اسماعيل سرى باشا ناظر الأشغال العمومية فقامت اللجنة بالأمر أحسن قيام ووضعت اللائحة الداخلية لقسم الهندسة فى مايو .

عيادة الجذام : ولما وجد بين المرضى الذين يختلفون إلى عيادات الأوقاف ومستشفياتها أشخاص مصابون بمرض الجذام رأى الديوان منذ سنتين عزلهم عن غيرهم من المصابين بأمراض عادية اعتناء بشأنهم ورحمة بالذين يخالطونهم ، وخصهم بوقت آخر يعالجون فيه باحدى العيادات . وتبرع الدكتور انجل بك من موظفى مصلحة الصحة العمومية ومن الاخصائيين فى هذا المرض بمعالجتهم مرة فى كل أسبوع بشرط أن يصرف الديوان ما يتطلبه علاجهم من الأدوية . وما زال يتدرج عدد المرضى فى الزيادة حتى دعت الحال إلى إفرادهم بمكان خاص والاعتناء بشأنهم اعتناء يناسب تلك الزيادة ، فرتب ما تقتضيه إدارة ذلك المكان وبدأ العمل فيه فعلا من أول هذه السنة وتعين طبيب مساعد للدكتور انجل بك مع الخدمة اللازمين لتيسير العناية بالمرضى وعيادتهم بأكثر مما كان جارياً طول مدة العلاج .

مستشفى الأمراض غير القابلة للشفاء : لما كان ما عمل بشأن مستشفى الجذام عملا وقتياً لا يحقق كل ما نرجوه فقد اشتغل الديوان بدرس مشروع لانشاء مستشفى كبير خاص بالأمراض غير القابلة للشفاء ، فذهبت إلى مستشار المالية وعرضت عليه الفكرة

فاستحسنها كثيراً وخصص لهذا المشروع قطعة من الأرض فى جهة البساتين مسطحها ٦٨٩٩٩ متراً ، ولجأنا إلى المتوفر من خيرات وقف المرحومة ممتاز قادن افندى الشهيرة بأم حسين بك لأخذ ما يستلزمه تشييد هذا المعهد من المال وفقاً لما كانت ترمى إليه الواقفة من العطف على الفقراء والمساكين وتخفيف آلام المصابين من البائسين . وسيكون الشروع فى بنائه سنة ١٩١٣ .

صندوق الاقتصاد والتعاون : ونظرت إلى حالة المستخدمين الخارجين عن هيئة العمال فأتممت لهم وضع لائحة لانشاء « صندوق الاقتصاد والتعاون » ليوفروا فيه جزءاً من مرتبهم يضاف إليه من إعانة الديوان ما يسد حاجتهم عند ترك الخدمة ويساعد أسرهم فى حالة الوفاة .

وفى أول يونيو عقد مجلس إدارة الصندوق فى ديوان الأوقاف برياستى فألقيت خطبة جاء فيها :

« إننا نجتمع اليوم لنتعاون بالرأى على القيام بالعمل الجليل الذى عهد به إلينا احتساباً بالبر بالضعفاء وبذل المعونة لأولى الناس بها وأشدهم احتياجاً إليها . »

وذكرت أن التفكير فى هذا المشروع سببه أن هؤلاء المستخدمين لا يبقى لهم ما ينفقون منه بعد عجزهم عن العمل ، فالمشروع يهيء لهم وسائل الادخار وتثمير ما يجمع منهم ليكون لهم عدة بعد ذلك ، وذلك فضلا على غرس عادة الاقتصاد فيهم .

ثم اخترت محمد وجيه افندى (١) سكرتيراً لمجلس الادارة واحمد افندى زكى رئيس قسم إدارة الخزانة أميناً لصندوقها . وانتخبت لجنة وقتية للأعمال الادارية من عبد الرحمن فهمى بك الوكيل (٢) وابراهيم على بك (٣) مدير إدارة الحسابات واحمد الأزهرى بك (٤) والسيد محمود البلاوى والسيد احمد محسن . »

تعديل لائحة الديوان : وكان مما يشغل فكرى دائماً لائحة الديوان العمومية الصادرة سنة ١٨٩٥ فقد مضى عليها زمن طويل اتسعت فيه دائرة العمل وهى على حالها حتى أصبحت غير ملائمة لما تقضى به حالة النمو والارتقاء . فسعيت فى سبيل تعديلها وصدر أمر الخديو فى ١٦ مايو بتشكيل لجنة عالية لهذا الغرض تحت رياسة صاحب السعادة حسين رشدى باشا ناظر الحقانية .

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) صورهم موجودة فى مجموعة الصور التى أهديت لى عند تركى ديوان الأوقاف وسيراها القارىء فيما بعد

أما اللوائح الخاصة بكل قسم من أقسام العمل فى الديوان فقد تم وضع بعضها مثل لائحة المساجد ولائحة الزراعات ولائحة الجباة . ولا يزال الديوان مشتغلا بوضع لوائح الأقسام الأخرى حتى يتكون من مجموع هذه اللوائح لائحة الديوان الداخلية .

وقد وجدنا من باب المحافظة والضمان على النقود الموجودة فى عهدة صرافى الفروع والمحصلين أن نتفق مع البنك الأهلى على أن يقبل ما يودعونه فى خزائنه من زيادة الايرادات عن المصروفات فى كل يوم أو فى خزائن البنك الزراعى لحساب البنك الأهلى فى الجهات التى ليس له بها فروع . وفتح لكل مأمورية اعتماد شهرى لدى البنك تأخذ منه ما يلزمها للانفاق فيما يزيد على الايرادات .

تعليم بعض العلوم الأزهرية : لما كان قانون الأزهر الجديد قد اشترط لقبول المنتسبين شروطا لا تتوفر فى كل من يطلب العلم رأينا ألا يحرم من كان من هذا القبيل أن يأخذ نصيبه من العلم ، فخصصنا لهم مساجد معينة يدرس لهم فيها بعض العلوم الأزهرية .

الشعبة الأزهرية لترقية الوعظ : وبالنسبة لما رأيناه من حاجة العامة فى القطر كله إلى وجود وعاظ يقوّمون المعوج من الأخلاق ويرشدونهم إلى ما ينفعهم فى المعاش والمعاد ، شرعنا فى إنشاء « الشعبة الأزهرية لترقية الوعظ والخطابة » حيث يمرن فيها الخطيب والواعظ على الطريقة المثلى فى الوعظ وحسن التأثير .

فرش المساجد وإنارتها بالكهرباء للمرة الأولى : ونظرنا فى أمر الأثاث ففرشت المساجد الكبيرة بالبسط الثمينة ونقل ما كان منها من البسط إلى المساجد الأخرى بعد إصلاحها .

ثم أدخلنا النور الكهربائى فى المساجد الكبيرة بالمدن التى توجد فيها الكهرباء . ولا يزال الديوان يشتغل للوصول إلى أحسن طرق الانارة فى المساجد الأخرى .

إلغاء إدارة المساجد بالعهدة : وكان من عادة الديوان أن يعطى المساجد بالعهدة ، بمعنى أنه كان يفوض لبعض الأشخاص مباشرة أمر المسجد من إقامة الشعائر ونحوها نظير مرتب جزئى لا يبلغ حد الكفاية ؛ فألغينا هذه الطريقة التى لا يخفى ما فيها من وجوه النقص والاهمال .

إستبدال النقود بالخبز فى المقارىء : ثم طرقنا باب إصلاح جديد فى أمر كانت

الشكوى منه عامة وهو طريقة توزيع الخبز فى المقـارىء ؛ لأنه كان من المستحيل أن تصل الحقوق إلى أربابها سـالمة من الغش وليس من المتيسر إقامة المراقبة الكافلة للتوزيع . فقررنا استبدال النقود بالخبز . فقامت فى وجهنا من أجل ذلك مصاعب جمة كادت تقضى على المشروع خصوصاً من مفتى الديار ولـكن لما وجدت هذه المعارضة طلبت عرضه على المستفيدين فمن قبل كان بهـا ومن لم يقبل يستمر على الطريقة القديمة ولم يمض إلا قليل حتى اختار المستحقون الطريقة المقترحة فكان هذا أكبر مساعد لنا على تنفيذه .

قسم الصحة : أفاد إنشـاء هـذا القسم فائدة ظاهرة فى نظام الأعمـال الادارية بالمستشفيات والعيـادات والتكايا والملاجىء التى يديرها ديوان الأوقاف . فاختيرت الأماكن اللائقة ووضعت النظامات الكافلة راحـة المرضى وحسن العنـاية بالفقراء فى التكايا . وأدخل على ملجأ الأطفـال نظام صالح من ضمنه وجود التعليم الصـناعى للذكور وللاناث معاً فضلا عن تعليم القراءة والـكتابة والديانة وقواعد الحساب بما يفيد أولئك الأطفال فى مستقبلهم .

تنظيم مخزن الأدوية : ووضع نظام جيد للمخزن العمومى يضمن ضبط الوارد والمنصرف من الأدوات والأدوية لجميع الأماكن الصحية مع عدم التبذير والاسراف .

تشييد معهدى طنطا ودمياط : وشيدت معهداً فخماً لطلبة العلم بطنطا على النظام الحديث بعـد أن كان التدريس لهم فى المسجد الأحمدى ، وليس فيه متسع لذلك ولإقامة الشعائر معاً ؛ وكذلك شيدت معهداً لطلبة العلم بدمياط وسيتم افتتاحه قريبا .

مصاريف المعاهد الدينية : ولا يزال الديوان مهتماً بتنفيـذ الاصـلاحات التى تضمنتها القوانين الحديثة للمعاهد الدينية الصادرة فى ١٣ مايو سنة ١٩١١ وفى ٢٣ يوليو زاد بذلك المخصص لها فى ميزانيـة الأوقاف إلى مبلغ ٦١٩٢٤ جنيها بعد أن كان ١٩٧٠٠ جنيه فى سنة ١٩٠٨ .

عدد المأموريات : ظهر لى من ممارسة العمل أن عدد مأموريات الفروع يزيد عن الحاجة خصوصاً فى بعض الجهات التى تقاربت فيها مراكز هذه المأموريات تقارباً بيناً . فألغيت أربع مأموريات حوّلت أعمالهـا على المأموريات المجاورة لها فأصبح

عددها فى الوجه البحرى خمساً بعد أن كانت ثمانياً ونقص عددها فى الوجه القبلى من ست إلى خمس .

انتخاب العمال الأكفاء : ولاحظنا أن العمل الكتابى فى الفروع فيه تأخير وإهمال مع كثرة شكوى المأموريات من حالة عمالها خصوصا كتابها الأول ، فرفعنا أسباب الشكاية بانتخاب الأكفاء من الكتبة ورؤسائهم لحسن سير الأعمال وسلكت سبيل الانجاز .

التفتيش الكتابى : وأوجدنا التفتيش الكتابى من أول السنة لضمان السير بها على الوجه المرضى .

مشروعات تحت النظر : وفى نهاية هذا العام تقررت إحالتى على المعاش (لأسباب سيرد تفصيلها فى مذكرات العام الآتى) فقدمت تقريراً بما أدخلته فى الديوان من الاصلاحات فى السنوات الثلاث الماضية ، وقد ورد ذكرها فى سنواتها ثم أردفت ذلك بذكر مشروعات كانت لا تزال تحت النظر ، وكنت معتزماً إنفاذها فى السنوات المقبلة وهى :

إيجاد الطريقة الموصلة للانتفاع بما يزيد من ريع الأوقاف الأصلية المرصدة على الخيرات عن حاجة وجوه الخير المقررة فى الوقفيات ؛ فان هذه الزيادة تتجمع الآن فى خزانة الديوان دون أن يكون له حرية التصرف فى توجيهها إلى المنافع التى تعود على سائر القطر والفقراء ، مثل إنشاء المستشفيات العمومية ومنع التسول فى الطرق باقامة الملاجىء لايواء العجزة والمساكين ممن لا قدرة لهم على الكسب .

ومنها تقرير قاعدة تضمن تنفيذ الخيرات المقررة فى الأوقاف التى فى غير نظر الديوان ؛ لأن الوقفيات تخول لنظارها حق الصرف بمعرفتهم مع أن كثيراً منهم يخالف شروط الواقفين ويضن على وجوه الخير ويتصرف بكيفية تعود بالنفع عليه وحده دون المستحقين من الفقراء والمساكين . فلو أن هذه المبالغ المخصصة فى تلك الوقفيات للخيرات استعملت على حقيقة ما وضعت له لعادت على البلد وأهله بالخير الجزيل .

ومنها وضع نظام مفيد لانشاء المساجد التى ينشئها الديوان والأهالى فى أنحاء القطر من جهة العدد اللازم لكل ناحية من النواحى وانتخاب المحال اللائقة بها بعد وضع رسومات لها حسب درجاتها من الأهمية . وأن يلاحظ فى إنشائها ما يضمن

استمرار وجودها على الحالة المرضية مع البحث فى أمر المساجد المتخربة الزائدة عن الحاجة .

ومنها تكوين هيئة مؤقتة تابعة لقسم الايرادات يناط بها تحقيق الأحكار وتصفيتها بالاستبدال مع تسهيل الطريق لذلك بدلا من توزيع هذا العمل على فروع الديوان فى الجهات كما هو واقع الآن .

ومنها وضع خرط ورسومات هندسية لجميع العقارات والأراضى التابعة للديوان .

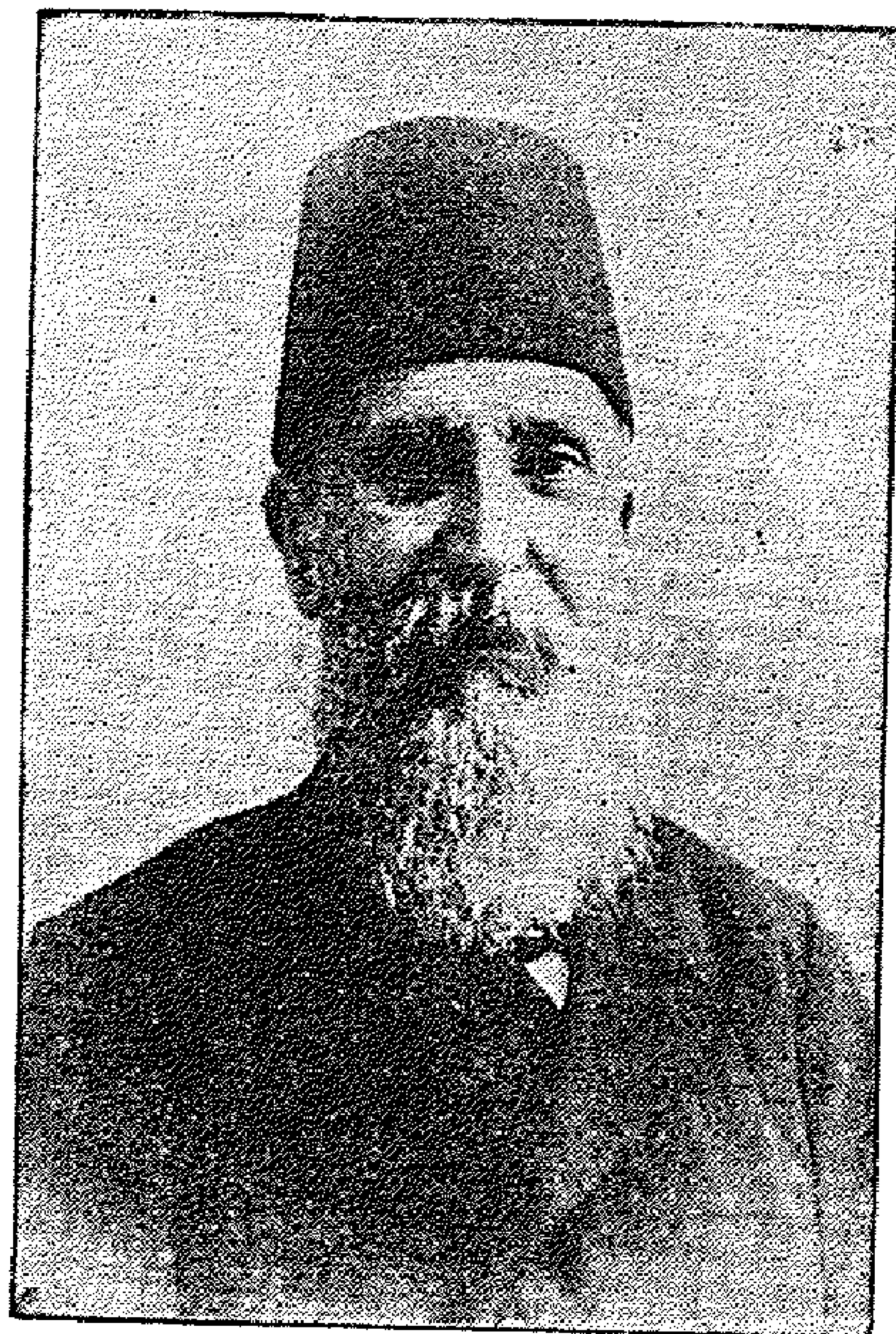
ومنها تجديد السجلات التى أصبحت بمرور الزمن الطويل عليها وكثرة أيدى الباحثين فيها تؤدى وظيفتها بكل صعوبة مع أنها من ذخائر الديوان الثمينة التى يرجع إليها عند الحاجة فى كثير من الأحيان .

ومنها تنظيم الدفترخانة بطريقة تصبح معها قادرة على أداء ما يطلب منها بالسرعة المطلوبة وحفظ ما فيها من الأوراق والمستندات .

إلى غير ذلك من الأبحاث التى يتسع فيها مجال العمل بديوان الأوقاف لدوام ترقيته وحسن الانتفاع العام بوجوه خيراته .

« وعلى العموم فاننى أترك خدمة هذه المصلحة الخيرية وحالتها المالية فى يسر ورواج وحالتها الادارية على نظام لم يبق فيه مجال للشقاق والنزاع . »

ما قاله لى البرنس حسين كامل ورأى كتشنر عنى : بعد تقديم تقريرى عن هذه السنة للجناب الخديوى زرت البرنس حسين كامل وقدمت له نسخة أخرى من هذا التقرير فشكر لى ثم أثنى على مجهودى فى إصلاح الأوقاف وأضاف قائلا : « إنك يا شفيق باشا قدمت إلى اللورد كتشنر نسخة من هذا التقرير بالفرنسية وقد حدثته بمجهوداتك القيمة وبكفاءتك وأنك من المصلحين الذين يفيدون البلاد ويليقون لوجودهم فى أعلى المناصب ، فرد على كتشنر بأنه يعلم ذلك ولكنك خديوى صميم » فشكرت للبرنس حسن ظنه بى وقلت : « إننى لا أرى فى وصف كتشنر لى عيباً . »



رءوف باشا

الذى عين قومسيراً بمصر بعد سفر الغـازى مختار باشـا لتشكيل الصـدارة الائتلافية .

سنة ١٩١٣

حرب البلقان . مساعدات مصر للدولة . خطة لاستقلال مصر . البرنس فؤاد وعرش ألبانيا . أفراح الخديو . صفقة طيبة . اختيارى الأوقاف الخصوصية . مدير عموم الأوقاف يباع ويشترى بدراهم معدودة . عباس يصيب عصفورين بحجر . تحويل ديوان الأوقاف الى نظارة . انشاء الجمعية التشريعية . شئون مختلفة مساعى الصلح بين الخديو ومحمد فريد بك .

حرب البلقان . فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩١٢ وردت إلينا الأخبار بحصول اضطرابات فى البلقان فقد قامت بلغاريا والصرب والجبل الأسود تطلب الاستقلال الادارى من تركيا وتعيب الادارة التركية ، واليونان تطلب جزر الأرخبيل ؛ وقد اشتدت هذه الاضطرابات ، وحدثت مناوشات بين جيوش هذه الدول والحاميات التركية .

مساعدات مصر للدولة . وفى ٢٧ اكتوبر أعلنت تركيا الحرب عليها،وفى هذا اليوم نفسه تألفت لجنة برياسة البرنس عمر طوسن ورعاية البرنس محمد على لجمع التبرعات للدولة ، وقد افتتحها الرئيس بخمسة آلاف جنيه ، ثم أخذت تطوف فى المديريات وتعقد الاجتماعات ، فتنهال عليها التبرعات الكبيرة .

وقد وعد سمو الخديو بأن تقطع الحكومة المصرية علاقتها بدول البلقان الأربع ، وتعطى قناصلها فى مصر جوازات السفر لمبارحتها .

وكان لهذا الوعد وتلك التبرعات وقع طيب فى الاستانة فأرسل جلالة السلطان يوم ٩ نوفمبر شكراً لسموه ولأبنائه المصريين .

مؤتمر لندره : وفى أوائل ديسمبر عقد مؤتمر لندره للنظر فى المسألة البلقانيـة ، وظل يوالى عقـد جلساته حتى ٢٣ يناير ، وانتهى إلى قرارات قبلتها نظارة كامل باشا وأهمها التنازل عن أدرنة وعن جزر الأرخبيل .

إسقاط كامل باشا وتولية شوكت باشا : وعنـد ذلك ثارت ثائرة الاتحاديين ، وأسقطوا نظارة كامل باشا ، وتولى الصدارة محمود شوكت باشا وكان ناظراً فى صدارة طلعت بك .

وأعلنت النظارة الجديدة أنهـا ستدافع عن حقوق البلاد ، وطلبت إلى الشعب أن يعاونها باخلاص .

ألمانيا والاتحاديون : وقد علمنا أن ألمانيا تؤيد الاتحاديين ، وأنها منحت امتيازاً اقتصادياً فى الأناضول مقابل مليون ونصف مليون جنيه .

عودة الحرب : وقد انتهت الهـدنة على إثر وضع الصـدارة الجـديدة شروطاً تصون بها حقوق الدولة ، وقامت الحرب من جديد .

وصـدرت الارادة السلطانية بعقد قرض أهلى قدره خمسـة ملايين ليرة تركية ، فأقبل الشعب التركى على المساهمة فى هذا القرض .

مظاهرات النصر فى الاسكندرية : وقد جاءت الأخبار فى ١٤ فبراير بانتصار الجيوش التركية عند بدء القتال ، فقامت المظاهرات فى الاسكندرية ابتهاجاً بهذا النصر ، وقبض على حامد المليجى افنـدى ومحمد كاظم افنـدى من شبان الحزب الوطنى بتهمـة التحريض على المظاهرات ، وحكم عليهما يوم ٢٠ منه بالغرامة .

هزيمة بعد انتصار وسقوط أدرنة : ولـكن ما لبثت الأخبار أن جاءت بتقهقر الجيوش التركية وسقوط أدرنة ، بعد أن ظلت أربعة أشهر وهى محاصرة ، وكان قائد حاميتها البطل شكرى باشا .

وقد كان لسقوطها رنة حزن وأسف فى أنحاء العالم الاسلامى ، لأنها طريق للاستانة

قتل الصدر شوكت باشا : وفى ١١ يونيو قتل محمود شوكت باشا الصدر الأعظم بيد أربعة من الشبان كانوا يركبون سيارة .

سعيد حليم صدر أعظم : وعهد بالصدارة إلى سعيد حليم باشا .

وقد شكلت محكمة عرفية لمحـاكمة القاتلين ومن يتصلون بهم ، وعلمت (وكنت

بالاستانة للاصطياف مع أسرتى) أن طلعت بك حادث رئيس المحكمة فى موضوع المحاكمة وذكر له أن الشعب ينتظر الحكم بالاعدام على كل من يثبت عليهم اتصالهم بالمؤامرة ولو بلغ عددهم الخمسين ! ، فرد عليه بأن فى هذا الكلام خطأ قانونياً وسياسياً ، فأصر على طلبه ، ولما لم يجد من رئيس المحكمة الموافقة اللازمة ، عرض عليه أن يتغيب باجازة لمدة شهر ، وعين بدله رمزى بك أحد أركان الاتحاديين .

وقد حكم بالشنق على عشرين منهم الداماد شريف صهر السلطان والبرنس صباح الدين من أسرته .

وبعد الشنق أخذت الدوريات تطوف فى المدينة وتقبض على كل من يتحدث عن فظاعة هذا الحكم .

خطة لاستقلال مصر . ظلت الانتصارات تتوالى للبلقانيين حتى أصبحوا على أبواب الاستانة ، وكان الخديو قد حضر إليها يوم ١٥ سبتمبر بعد زيارته لأوربا .

وفى يوم من الأيام كنت فى بيك وحضر فريد باشا الصدر الأسبق للزيارة وكان سموه فى الحريم ، فجلست معه ودار الحديث بيننا عن حالة تركيا السيئة ، فقلت له : « إنى أخشى أن تكون هذه الهزائم مسهلة لتحقيق مشروع دول أوربا القديم فى تقسيم تركيا ؛ وإذا كان الأمر كذلك فماذا يحصل لمصر وهى من أملاك الدولة ؟ فهلا يمكن التفكير فى مستقبلها بأن تتفق مع انجلترا للوصول إلى استقلالها ؟ » .

فرد فريد باشا بأن سياسة الخديو مع انجلترا لا تجعلها تأمن له أو تثق به فتساعد على ذلك .

ثم سألنى : فكيف تفاتحون الانجليز فى هذا الموضوع ؟

فقلت : يوجد حل هو أننى قبل سفرى من مصر علمت أن كتشنر ينتظر عودة الخديو ليطلب من الحكومة التخلى عن قطعة أرض فى أبى قير لاقامة تلغراف لاسلكى تابع لوزارة الحربية البريطانية ، فعند تقديم هذا الطلب ، يحتج الخديو بأن الفرمانات تقيده بعدم التنازل عن شبر من الأرض بغير موافقة الدولة ، وإذا كان الانجليز يحبون إفساح المجال لسموه فى هذه الشئون ، فعليهم أن يساعدوا مصر على الاستقلال .

وهنا حضر الخديو ، فسأل عن موضوع الحديث ، فاخبرته به .

وقد ظلت هذه الفكرة تدور برأسه حتى رجعنا لمصر فى ٢ اكتوبر . وبمجرد

وصولنا أرسل لمحمد سعيد وحسين رشدى لمقابلته بالقبة ، وحضر الاجتماع اسماعيل أباظه وقص الخديو ما دار بيني وبين فريد باشا .

وبعد المداولة فى الموضوع تقرر أن يتوجه حسين رشدى لكتشنر ويتفاهم معه ، وقد استمع كتشنر لحديثه ، ثم طلب منه مهلة للتفكير .

وقد أمرنى الخديو بالاجتماع مرة أخرى مع رشدى باشا وأباظه باشا للتداول وتحديد المطالب ، فاجتمعنا إلى منتصف الليل ولكننا لم نقرر شيئاً لأننا أرجأنا البحث فى ذلك حتى نعلم رأى كتشنر ونتبين إن كانت انجلترا تساعد مصر على فصلها عن تركيا وعند ذلك نبحث فى الذى نطلبه : إما الاستقلال وعقد محالفة مع انجلترا أو طريقة أخرى تبعاً لماتبديه وزارة انجلترا . ولماتقابل رشدى باشا مع كتشنر قال له : « لقد كنا أصدقاء للدولة ، فلا يصح أن نتنكر لها فى وقت محنتها؛ وبذلك طوى المشروع . »

عقد الصلح : وأخيراً عقد الصلح بين تركيا ودول البلقان ونالت انجلترا فى مقابل وساطتها ، امتيازات إدارية فى العراق ، وتنازل الحكومة التركية عن حق مراقبتها على القروض المصرية .

البرنس فؤاد وعرش ألبانيا . فى أثناء الاضطرابات البلقانية ، تحدثت الصحف الأوربية عن سعى البرنس فؤاد لتولى عرش ألبانيا، وقد ورد فى جريدة الطان الفرنسية نقلا عن صحف رومه ، أن سموه ينوى دخول ألبانيا على رأس قوة من عشرين ألفاً من الألبانيين الثائرين على حكومتهم فيعلن استقلالها ، ثم عقبت على هذا الخبر بقولها : « إن الدول معترفة باستقلال ألبانيا فعلا ، ولكن البرنس ينوى زيارة باريس كما زار رومه وفينا ، ويسعى لأن تحفظ لألبانيا حدودها الطبيعية . »

وذكرت صحف النمسا أن حكومتها لم تقبل ترشيح البرنس لعرش ألبانيا .

أفراح الخديو . فى يوم ٢٧ مارس عقد فى قصر القبة كتاب محمد جلال الدين باشا نجل فريد باشا الصدر الأسبق على البرنسيس عطية الله خانم افندى كريمة الخديو ، وقد حضرت العقد مع النظار وفريد باشا ورشيد بك ناظر الداخلية التركية سابقاً وجمال الدين افندى شيخ الاسلام السابق بالاستانة وقاضى مصر (التركى) وشيخ الأزهر والمفتى وغيرهم .

وكان وكيل العروس عمها البرنس محمد على ، ووكيل الزوج شيخ الاسلام .

وجعل مقدم الصـداق ثلاثة آلاف جنيه ومؤجله سبعة عشر ألف جنيه وكتب العقد قاضى مصر .

صفقة طيبة (أرض المطاعنة) . فى يوم من أيام سنة ١٩١٢ جاءنى على جلال باشا (أحد المقربين للخديو) فى ديوان الأوقاف وقال لى : « إن أفندينا أرسلنى إليك فى شأن شراء أرض للأوقاف عن طريق الاستبدال وهى صفقة طيبـة ، فسألته عنهـا ، فقال : هى أطيان أخيك محمد توفيق بك وتادرس شنوده والبابى الحلبى وتبلغ مساحتها ٣٥٠٠ فدان تقريباً فى المطاعنة . »

وقد كنت خبيراً بهذه الأرض وفيها قصر عظيم أعده السير إرنست كاسل لاقامته مدة الشـتاء ، وكنت عالماً بالثمن الذى اشـتريت به ، فقلت له أن ليس لدى ما يمنـع من إتمام هذه الصفقة .

فسألنى : « أتعرف الثمن » ؟ فقلت : « إنى اشتريتها لأخى بسعر ٦٥ جنيهاً للفدان للأرض الطيبة العالية ، وكنت أعلم أن أوطى جزء فيها على الساحل كان معروضاً بأربعين جنيهاً فقط للفدان ، والملاك الآن فى عسر لتسديد أقساط البنك العقارى التى عليها ؛ لذلك فانها ستباع بالمزاد فى المحكمة ، فالثمن لابد أن يكون منخفضاً . »

فقال لى : « كلا إننا نريد ثمناً عالياً لهذه الأرض » فأجبته بأن الذى أنوى اتباعه هو أن تؤلف لجنة وتفحص الأرض وتقدر لها الثمن المناسب .

ولمـا وجدنى غـير مستعد للسير فى التيار الذى يريده ، قال لى : « إن لك فائدة فى هذه الصفقة ! » فابتسمت وقلت له : « دعنا من هذا الآن ، فأنا على كل حال لا أستطيع أن أتصرف تصرفاً غير قانونى ما دمت فى ديوان الأوقاف . »

وعندئذ سألنى : « ماذا ستصنع إذن ؟ » فقلت له : « اتركونى لأتصرف بما توحيه المصلحة »

وفى مرة كنت مع الخديو ومحمد سعيد باشا ومحمد عزت باشا فى قطاره الخصوصى عائدين من تفتيش إنشاص إلى مصر بعد أن تفقدنا أعمال الاصلاحات فيه . فقال لى محمد سعيد باشا : « لماذا لم تنه مسألة المطاعنة ؟ » فأجبته بأن ضميرى لا يسمح لى وأنا فى الأوقاف أن أقوم بعمـل يسىء سمعة الخديو . ومن هنـا عرف ألا فائدة مطلقاً من محاولاتهم معى .

وبعد أيام جاءنى أحمد صادق بك وكيل الخاصة الخديوية وسألنى عما عزمت عليه فى هذه المسألة ؛ فأجبته بأنى أحب أن أتصرف تصرفاً لا انتقاد فيه ، وخصوصاً أن الخديو قد تدخل فى هذا الموضوع ، فيجب ألا نعمل ما يسبب أى انتقاد ، فقال لى : «لا تفكر فى هذه الأشياء فان الخديو ينوى أن يجعلك ناظراً فى وقت قريب ، فأجبته بأنى على كل حال رجل الخديو سواء كنت ناظراً أو مديراً للأوقاف ، ولا أقبل على نفسى أن أعمل عملا يسبب انتقاداً على سموه .

ولما تبين للخديو أننى غير مستعد للتساهل فى هذا الأمر ، ترك المسألة مؤقتاً .

ولم يفاتحنى سموه ولا غيره فى مسألة المطاعنة . ولما لم أنفذ أمره سمح لى بأجازة أقضيها مع عائلتى فى الاستانة بمجرد أن التمستها من سموه .

وفى أثناء وجودى بها وصلتنى عدة رسائل من عبد الرحمن فهمى بك ومن محمد وجيه افندى سكرتيرى الخاص، بالمحاولات التى بذلت لاتمام الصفقة بواسطة الأول . وبعد رجوعى علمت منه أيضاً أن أحمد صادق بك وكيل الخاصة الخديوية قابله وقال له إن الخديو يريد أن تعمل المباحثات اللازمة عن ٣٠٠٠ فدان وكسور بجهة المطاعنة كى تشتريها الأوقاف العمومية . وبينما كان بمسجد أبى العباس المرسى لصلاة الجمعة مع الخديو، سأله سموه عما تم فيما أبلغه به أحمد صادق بك ، فعرفه بأنه سيقدم تقريراً عما أجراه ، وبالتحرى علم له أن هذه الأطيان يمتلكها الآن شخصان، أحدهما محمد توفيق بك وله الثلثان وأندراوس بشاره ويملك الثلث الذى اشتراه فى العام الماضى (سنة ١٩١١) من البابى الحلبى الكتبى المشترى الأصلى لهذا الثلث ، وأن هذه الأطيان متأخر عليها قسطا سنتين للبنك العقارى الذى حل محل الدائرة السنية البائعة الأصلية ، وأن البنك المذكور شرع فى نزع ملكية هذه الأطيان وتحددت جلسة للبيع .

وقد علم عبد الرحمن فهمى بك بأنه يراد مشترى هذه الأطيان للأوقاف العمومية بأكثر من ضعفى ثمنها ليستفيد المالكان بعض الشيء ، والبعض الآخر لمن يلحون باجراء هذا المشترى ، فأسرع بمقابلة عباس فى سراى رأس التين وعرض عليه عدم إمكان مشترى هذه الأطيان بطريق الممارسة لأنها معروضة للبيع بالمزاد الجبرى ، وأن هذا مخالف للقانون المالى ، فظهر له امتعاض الخديو من أقواله . وبجلسة أخرى مع سموه بوجود احمد صادق بك قال : « تأكد يا أفندينا أننى أضحى كل شيء فى سبيل مرضاتك ولكننى فى الوقت نفسه أضحى حياتى فى عدم مساس المصلحة المرتبطة باسمك بسوء .

هذه الأطيان كان يمتلك ثلثها شخص يدعى البانى الحلبى، باع نصيبه فى العام الماضى إلى اندراوس بشاره بسعر الفدان ٤٠ جنيها مصريا وقيل بـ ٤٥ جنيها مصريا، وهذا الرجل وزع نشرة على جميع القناصل والنظار والمستشارين والعلماء وعلى كل ذى حيثية فى البلد، قال فيها إن أموال العجزة والمكسحين تبعثر ذات اليمين وذات اليسار، وأن الأوقاف تريد مشترى أطيان لا يساوى الفدان منها أكثر من ٤٠ جنيها بخمسة وتسعين جنيهاً، ويستنهض همم القوم إلى ملافاة هذا العمل، فتلقاء هذا ياأفندينا نرى أن الحكمة تقضى بعدم التفكير فى المشترى بالممارسة، وأن المشترى بالمزاد العلنى لا جناح عليه ولا تثريب . »

عندئذ فكر الخديو برهة وقال له : « أعد فحص المسألة ثانياً، وإن وجدت لها حلا فاشتريها.» ثم سافر الخديو فى اليوم التالى إلى أوربا . ولكنه لم يقبل تنفيذ الأمر ووقف موقفاً مشرفاً .

اختيارى للأوقاف الخصوصية . وبعد رجوعى من الاجازة استدعانى عباس لسراى عابدين، وهناك وجدت محمد سعيد باشا، فقال سموه : « طلبتك مع سعيد باشا لتفكرا فى اختيار رجل غير احمد خيرى باشا يدير الأوقاف الخديوية لأنه ليس من المجددين الذين يدخلون الاصلاحات والنظم الجديدة . »

وفى مرة أخرى سألنى عما إذا كنت قد فكرت فيمن يصلح لهذه المهمة، فأجبته بأننى أرشح على أبا الفتوح باشا لأنه رجل إدارى وقانونى وجدىّ فى عمله وتصرفاته . ثم سألت عمن اختاره محمد سعيد باشا، فقال إنه لم يرشح أحداً للآن ثم فكر قليلا وقال : « ولماذا نبحث ياشفيق بعيداً عن رجل صالح للأوقاف الخصوصية وعندنا من يصلح ؟ » قلت : « ومن هو ؟ » قال : « أنت . »

وسألنى عما أتناوله من ديوان الأوقاف فقلت : « ١٧٥٠ جنيهاً .» قال : « وإذا أحلت على المعاش ؟ » قلت « ثمانمائة جنيه » قال : « فاذا نلت هذين المبلغين تكون قد وصلت إلى مرتب ناظر، وبعد ذلك ننظر فى ترقية أخرى ! »

فقلت لسموه : « إن الناس كانوا يقولون عن ديوان الأوقاف إنه رجل مريض ويحتاج إلى علاج، وأنا قد أخذت فى علاجه، ولا أستطيع أن أقول إنه أصبح سليما معافى، فهو ما يزال فى حاجة للعلاج، وأريد ألا أتركه حتى يتم شفاؤه . »

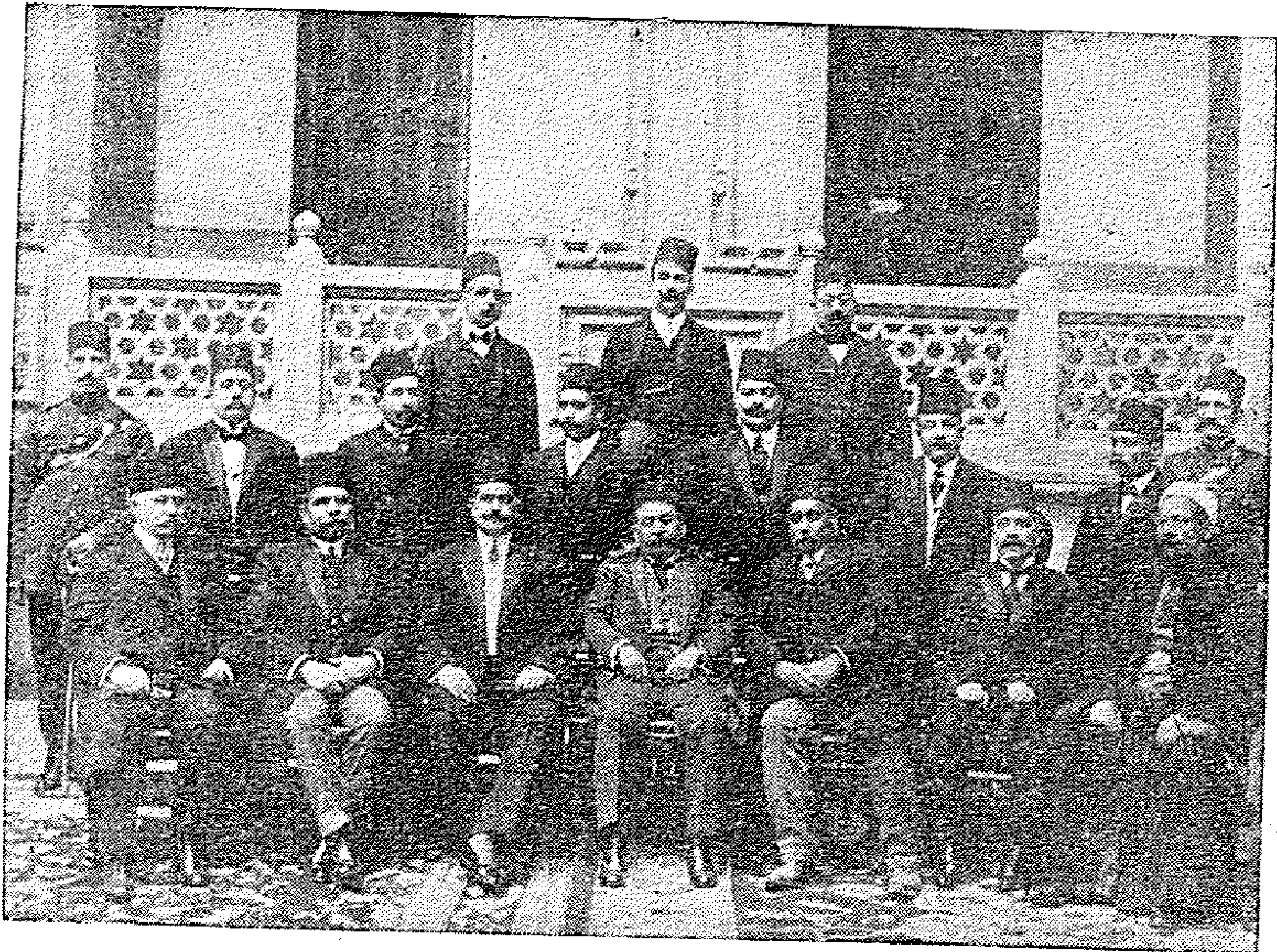
فقال لى : « لقد عملت كثيراً، وأصلحت كل شىء فيه . »

فأجبته : « إننى أحب أن أتمم هذا العمل حتى يقال : هذا هو المصرى الوحيد الذى ليس له « جوكى » انجليزى فيكون عملى نموذجاً للمصرى المصلح ، وهذا يعود لسموك ولاختيارك وإرشادك . »

ولكننى وجدت من الخديو إصراراً تاماً على فكرته ، ووجدت نفسى أمام ابن ولى نعمتى توفيق ، فقبلت مكرها ، ولكننى عرضت بقائى حتى يتم تنظيم الميزانية لعام ١٩١٣ فوافق سموه على ذلك .

وعند تركى الديوان أهدى إلىّ رؤساؤه إطاراً من البرونز الفخم به صورتهم هذه وأنا فى وسطهم تذكاراً للسنوات الثلاث التى قضيتها معهم مما دل على حبهم وإخلاصهم لى؛ وقد أدخلت علىّ هذه الهدية الثمينة السرور العظيم خصوصاً وإنى لا أذكر أن أحداً من سلفائى قد نال ما نلته ، فشكرت لهم كل الشكر، وصافحتهم وودعتهم .

(٨) (٩) (١٠) (١١) (١٢) (١٣) (١٤)



(١) (٢) (٣) (٤) (٥) (٦) (٧)

(١) أحمد الأزهرى بك (٢) ابراهيم بك على (٣) محمود باشا فهمى (٤) شفيق باشا
(٥) عبد الرحمن فهمى بك (٦) على لبيب بك (٧) هرتس باشا (٨) خالد بك الفوال
(٩) عبد الغنى بك شاكر (١٠) خليل بك ابراهيم (١١) محمد بك حسنى (١٢) عثمان بك محرم
(١٣) جلال بك فهيم (١٤) أحمد بك السيد

هذه الصورة أخذت فى أواخر شهر ديسمبر عندما علم رؤساء الديوان بقرب استقالتى

ومما أذكره أنني قبل خروجي تركت مذكرة لخلفي لفت فيها نظره إلى بعض المسائل الهامة قانونية كانت أو إدارية — وكانت تحت التنفيذ — ومن بينها رفع دعوى ضد عبد الرحيم باشا الدمرداش، بخصوص أرض بالقرب من حدائق القبة. وكنت قد سلمت أوراقها إلى ناظر الداخلية محمد سعيد باشا بناء على أمر الجناب الخديوى لفحصها ومعرفة إذا ما كان للديوان الحق فى رفع هذه الدعوى (*)

كيف تسلمت إدارة الأوقاف الخديوية: شتان ما بين سرورى وآمالى عندما أسندت إلىّ إدارة الأوقاف العمومية، لأننى كنت أشعر بأن المولى سبحانه وتعالى سيساعدنى على تحسين حالة هذه المصلحة الخيرية، وبين اليوم الذى تسلمت فيه إدارة الأوقاف الخديوية الخصوصية، فان قلبى كان حزيناً لأنه يشعر بأن نقلى إليها ما كان فى الحق لغرض إصلاحها بل لمنفعة كان يطلبها الخديو كما سيرى القارىء.

ولما جلست على مكتبي جاءنى الوكيل احمد صادق بك وقدم إلىّ كبار الموظفين وسألت كل واحد عن اختصاصاته وأخذت مذكرة بذلك. ثم سألته عن الأعمال غير الادارية الموجودة بالديوان، فعلمت منه أن فى الأوقاف الخديوية موارد للخيرات يأذن الخديو شفهيا بصرفها للمدير ويسلمها إما لسموه أو للوكيل أو للصراف لتوزيعها سراً لمن يستحقونها من البيوتات التى أخنى عليها الدهر أو لأعمال خيرية، وقد سألته عما إذا كان المدير الذى يتسلم المبالغ التى يأمر بها الخديو يأخذ بها وصولات سواء كان من سموه أو من الذى يأمر باستلامها، فقال لا لأنه كان معتاداً فى مدة سلفى أحمد خيرى باشا ألا تؤخذ إيصالات بهذه المبالغ ويكتفى بالوصل الذى يعطيه المدير للصراف. ولكن من باب الاحتياط صممت على أنه إذا جاءنى من يبلغنى أمر الخديو بصرف مبلغ، قل أو كثر، أن أراجع الخديو وأعلمه بأن فلاناً أبلغنى أمركم بصرف (كذا) فلمن أسلم هذا المبلغ، فيقول لفلان أو لى حتى أتأكد أنا من أوامره. هذا كل الاحتياط الذى أجريته.

مدير الأوقاف العمومية يباع ويشترى بدراهم معدودة. بعد حديثى مع الخديو بخصوص نقلى للأوقاف الخديوية جاءتنى «مدموزل إمرى»، وكانت مربية لأحد أولادى قبل سفره لأوربا، ثم توظفت بصفة معلمة فى منزل أحد أصحابى القانونيين

(*) وقد علمت فيما بعد من ابراهيم باشا نجيب الذى خلفنى أنه لما طلب رد هذه الأوراق اليه من محمد سعيد باشا أخبره، أنه كان سلمها الي وكيله لبحثها، وأنها فقدت من مكتبه!

وكانت تتردد علينا من آن لآخر ، فسألتني يوماً : « هل ستترك الأوقاف العمومية ويحل محلك البك الذى أنا فى خدمته ؟ » فاستغربت لمعرفتها بأمر تم الاتفاق بيني وبين الخديو عليه فقط . وسألتها عن مصدر هذا الخبر ، فقالت إنني سمعت فى منزل مخدومى أنه باع قطعة أرض ، ودفع خمسة آلاف جنيه للوسيط من رجال المعية .

عباس يصيب عصفورين بحجر . عندئذ ظهر لى أن محاولة إخراجي من الأوقاف العمومية لها وجهتان : فالأولى هي أخذ الخمسة الآلاف جنيه ؛ أما الثانية فهى تنفيذ صفقة المطاعنة ، وشراء الأطيان بمبلغ ٩٥ جنيهاً للفدان الواحد ، فى مقابل سمسرة قدرها ستون ألف جنيه ، تسلمها أحمد صادق بك من إدارة خزانة الأوقاف ، عدا ما استفاده البائعون .

تحويل الأوقاف الى نظارة . قد علم كتشنر بهذا السر (شراء الأوقاف أرض المطاعنة وأخذ الخديو مبلغ ستين ألف جنيه) وصمم على جعل ديوان الأوقاف نظارة . ولما كانت للمشكلة صبغة دينية ، فانه أراد أن يعرف رأى الاستانة .

كتشنر يستشير الصدر الأعظم وشيخ الاسلام : وكانت له علاقة مع عماد الدين بك وكيل دائرة الأمير حليم باشا ، فطلب منه عند سفره إلى استانبول فى فصل الصيف مقابلة شيخ الاسلام ، خيرى افندى ، والصدر الأعظم ، البرنس سعيد حليم باشا ، ومفاتحتهما لأخذ رأيهما فى تحويل الأوقاف المصرية إلى نظارة ، فسافر ؛ وذات يوم عقب اجتماع الوكلاء فى سراى الصدر ، عرض عماد الدين عليهم الموضوع ، فأظهروا جميعاً موافقتهم ، وكان البادىء طلعت باشا ناظر الداخليـــة ، وكان الصدر الأعظم وشيخ الاسلام صامتين . ولما سئل الصدر الأعظم عن رأيه ، أجاب أن الرأى لحضرة شيخ الاسلام ، فقال إنه لا يرى مانعاً فحسب ، بل يرى المصلحة فى هذا التحويل ، وقال الصدر الأعظم : « ما دمتم قد وافقتم جميعاً فأنا أوافق معكم . »

ولما عاد عماد الدين فى الخريف أخبر كتشنر بالنتيجة ، وكانت وزارة الخارجية الانجليزية تركت لكتشنر التصرف فى هذا الأمر تحت مسئوليته .

عندئذ أرسل حسين رشدى باشا للخديو ليفاتحه فى الأمر ، فاعترض بأن المسألة شرعية ، وهو لا يستطيع أن يعمل فيها شيئاً . ولما سمع كتشنر هذا الرد غضب وقال : « إذا كان لا يريد الموافقة ، فأنا أسلم العرش لابن عمه » (يعنى سعيد حليم الصدر الأعظم ، وعداؤه للخديو معروف .)

ودارت المخاطبات فى الموضوع بضعة أيام ، بواسطة محمد سعيد باشا ، وحسين رشدى باشا . وانتهى الأمر بسؤال الخديو الصدارة بصفة رسمية ، فوافقت على المشروع ، وبذلك تمت المسألة كطلب كتشنر .

النظام الجديد للأوقاف : وقد اضطر الخديو للموافقة أخيراً ، واجتمع مجلس النظار فى ٧ نوفمبر لوضع النظام الجديد لهذا التحويل ، وحضر الاجتماع لورد ادوارد سيسل مستشار المالية ، والسير ملكولم مكلريس ، والمسيو روكاسيرا المستشار الخديوى فى مجلس النظار .

وفى ٢١ نوفمبر صدر الأمر بالتحويل ، على أن يتألف مجلس أعلى لنظارة الأوقاف من ناظرها رئيساً ، ومن شيخ الجامع الأزهر والمفتى وثلاثة أعضاء آخرين .

وتكون ميزانية الأوقاف نافذة بمقتضى إرادة خديوية ، بناء على طلب ناظر الأوقاف ، وموافقة المجلس الأعلى ، وبعد أخذ رأى الجمعية التشريعية .

وعدلت النظارة ، فعين أحمد حشمت باشا ناظراً للأوقاف ، ومحمد شفيق باشا وكيلا لها ، واحمد حلمى باشا للمعارف ، وسعيد ذو الفقار باشا للمالية ، ومحمد محب باشا للزراعة التى أنشئت حديثاً ، والمستر هينز وكيلا للزراعة .

وعين الأعضاء الثلاثة فى المجلس الأعلى ، وهم يحيي ابراهيم باشا ، وحسين واصف باشا المهندس ، واسماعيل حسنين باشا .

وقد تردد يحيي باشا فى قبول منصبه هذا لأنه وهو رئيس محكمة الاستئناف سيكون عند انعقاد المجلس الأعلى تحت رياسة وكيل النظارة عند غياب الناظر ، وحل هذا الاشكال بألا يحضر إلا الجلسات التى يرأسها الناظر .

الانتقام من عبد الرحمن فهمى بك : سبق القول بأن عبد الرحمن فهمى بك وقف فى وجه الخديو فى صفقة المطاعنة ، وقد حملها له الخديو ، وطلب منه مرات أن يستقيل من منصبه فأبى ، فانتهز الخديو فرصة تحويل الأوقاف إلى نظارة ، وأشار باخراج عبد الرحمن فهمى بك منها على محمد سعيد باشا ، الذى اتفق مع عبد الرحمن بك على تعيينه مديراً للمنيا أو محافظاً للقنال . ولما سمع الخديو بذلك أظهر استياءه لمحمد سعيد باشا ، فعدل عن تعيينه بعد إخراجه من الأوقاف .

وهكذا كانت الصفقة التى أبيتها سبباً فى هذا الانقلاب ، بعد أن انكشف مركز الخديو فيها ، وتعرض للأقاويل .

انشاء الجمعية التشريعية . ورد فى تقرير كتشنر الذى نشر فى العـام المـاضى ما يشير إلى العزم على توسيع اختصاص مجلس شورى القوانين ، وقد أخذ من هـذا الوقت فى تنفيذ الخطة التى أشير إليها ، وإعداد قانون نظامى جديد بدل القانون القديم فى سنة ١٨٨٣ الذى أنشىء بموجبه مجلس الشورى والجمعية العمومية .

وفى ١٥ يوليو سافر حسين رشدى باشا من مصر ومعه القانون الجديد لتوقيعه من الخديو (وكان فى باريس) .

صدور قانون الجمعية : وفى ٢١ منه صدر هذا القانون وهو يقضى بانشاء جمعية تشريعية تحل محل مجلس الشورى والجمعية العمومية وتأليف مجلس فى كل مديرية .

ولأهمية هذا الموضوع أوردنا بعض ما جاء فيه .

والجمعيـة تؤلف من أعضاء قانونيين وأعضاء منتخبين وأعضاء معينين . ويكون النظار أعضاء قانونيين .

وحدد عدد المعينين بسبعة عشر عضواً : أحدهم رئيس والثانى وكيل ، والخمسة عشر يعينون على نحو يكفل النيابة عن الأقليات والمصالح التى لا تنال نصيباً من الانتخابات .

وأما المنتخبون فيوزعون حسب النظام الآتى :

للقاهرة أربعة وللاسكندرية ثلاثة وللغربية سبعة ولكل من المنوفية والدقهلية والبحيرة والشرقية وأسيوط خمسة وكل من المنيا وجرجا وقنا أربعة وكل من القليوبية والجيزة والفيـوم ثلاثة ولبنى سويف اثنان ولكل من بورسعيد ودمياط والسـويس وأسوان واحد .

والمعينون يوزعون هكذا: للأقباط أربعة وللعرب البدو ثلاثة ولكل من التجار والأطباء ورجال التربية العامة والدينية اثنان وللمهندسين والمجالس البلدية عضو واحد

ويأخذ المعينون والمنتخبون مكافأة قدرها خمسة وعشرون جنيهاً فى الشهر .

ومدة عضوية الأعضاء ست سنوات ويسقط منهم الثلث فى كل سنتين .

ولا يجـوز عزل العضو إلا بأمر عال بنـاء على عرض مجلس النظار بعـد قرار بأغلبية ثلاثة أرباع الجمعية .

ويجوز حل الجمعية فى أى وقت بأمر خديوى بناء على طلب مجلس النظار وتجرى الانتخابات الجديدة فى هذه الحالة فى ظرف ثلاثة أشهر .

اختصاصات الجمعية : أما اختصاصاتها فهى أنه لا يجوز إصدار أى قانون ما لم يتقدم أولا للجمعية لأخذ رأيها . ويعتبر قانوناً كل تقنين يتعلق بأمور مصر الداخلية وله مساس بتنظيم سلطات الحكومة ، أو يقرر بطريقة عامة أمراً متعلقاً بحقوق سكانها المدنية والسياسية ، وكل أمر عال يشتمل على لائحة إدارة عمومية .

وللجمعية حق تحضير مشروعات القوانين ، عدا ما يتعلق منها بالقوانين النظامية ،

ولمجلس النظار أن يوافق على المشروعات التى تقترحها أو يرفضها ، وفى حالة الرفض يذكر الأسباب ؛ ولا يجوز للجمعية مناقشة هذه الأسباب .

وإذا لم تقتنع الجمعية بالأسباب التى أبداها المجلس فانها تنعقد هى والنظار فى هيئة مؤتمر ؛ فاذا لم تقتنع بما يبديه النظار فانها تحل .

ولا يجوز ربط أموال أو رسوم إلا بعد موافقة الجمعية . وتستشار فى كل سلفة عمومية ، وفى كل مشروع عام متعلق بجملة مديريات وخاص بانشاء أو إبطال ترعة أو مصرف أو خط من خطوط السكك الحديدية ، وفى فرز أطيان القطر لتقدير درجات أموالها .

وليس من اختصاصها النظر فى مخصصات الخديو وويركو الاستانة والدين العمومى وكل الواجبات والالتزامات الناتجة من قانون التصفية أو الاتفاقات الدولية والمسائل المتعلقة بالدول الأجنبية وعلاقات مصر بهذه الدول والمسائل المتعلقة بتعيين أحد موظفى الحكومة أو أحد مأموريها أو بترقيته أو نقله أو عقوبته أو فصله ، وكل عمل آخر تجريه الحكومة بالنسبة لأحد موظفيها أو مأموريها .

وترسل ميزانية إيرادات ومصروفات الحكومة للجمعية قبل انتهاء السنة المالية باربعين يوماً .

قانون الانتخاب : وقد صدر كذلك قانون الانتخاب وهو يعطى حق انتخاب مندوبى الدرجة الأولى لكل مصرى بلغ من العمر عشرين عاماً ، واشترط لانتخاب المندوب أن تكون سنه ثلاثين عاماً ، والمندوبون يختارون النائب .

كتاب أبيض لكتشنر : وقد نشر قانون الجمعية وقانون الانتخاب فى لندره يوم ٣١ يوليو مع كتاب أبيض للورد كتشنر يحوى إيضاحاً للأسباب التى بنى عليها هذان القانونان ومما جاء فيه :

« إن الجمعية العمومية كانت اجتماعاتها قليلة ولم يكن لها عمل غير اعتماد القوانين الجديدة الخاصة بالأموال المقررة والمستخدمين والضرائب ، أما مجلس الشورى فانه وإن كانت وظيفته استشارية محضة إلا أنه اشترك اشتراكا فعلياً فى تنقيح القوانين .

« ولذلك رؤى أنه من المناسب توسيع سلطة هذا المجلس وإضافة اختصاص الجمعية العمومية إلى اختصاصاته .

« ومع ذلك فقد أعطى للجمعية الجديدة شيء من حق الاقتراح وإبداء الرأى مع الوسائط التى بها تضطر الحكومة إلى إطالة النظر فى درس القوانين التى لا تصادق عليها الجمعية بكل اعتناء وتدقيق . »

وكتبت « التيمس » تقول :

« أنفذ اللورد كتشنر مشروعاً من شأنه توسيع حرية الأمة المصرية توسيعاً كبيراً . وهذه الاصلاحات التى كان اللورد واسطتها تستحق أكثر من الالتفات العادى لأنها رد واضح على الدعوى التى كررت مراراً ، وقيل فيها إن النفوذ الانجليزى ضغط مطامح المصريين ضغطاً يفوق الحد ؛ فان كثيراً من الحرية والنفوذ اللذين يتمتع بهما سكان مصر الآن هو نتيجة الاحتلال الانجليزى رأساً وإن تكن الشبيبة المصرية تتجاهل التاريخ الماضى عند اجتماعها فى جنيف وغيرها ، لأن ذلك يصادف هوى فى فؤادها . »

انتخاب المندوبين : وفى ٢٦ اكتوبر أجرى انتخاب المندوبين ، وحدد يوم ١٣ ديسمبر لانتخاب الأعضاء .

أول بيان انتخابى : وبعد ذلك أصدر سعد زغلول باشا أول بيان انتخابى فى تاريخ النيابة المصرية وقد جاء فيه :

« إذا شاء أبناء وطنى أن ينتخبونى نائباً عنهم فأنا أعدهم بأن أجدّ فى خدمتهم بالبحث عن كل العلل والأسباب التى يشكون منها ، وجمع الشواهد وإعداد الأدلة والحجج التى أتوصل بها إلى إقناع زملائى فى المجلس حتى يؤيدونى فيما أقترحه على الحكومة من التعديل لخير الأمة ، وإلى إقناع الحكومة بصحة اقتراحنا واستمالتها إلى قبوله والعمل به حباً لخير الأمة .

« إنى اختبرت أحوال التدريس والمدارس زماناً طويلا ، فاذا انتخبت فى الجمعية التشريعية فانى أعاهد الأمة على إفراغ الجهد فى توسيع نطاق التعليم حتى يتيسر لأبناء الفقراء أن ينبغوا كأبناء الأغنياء .

« وأنا لا أزال مقيما على رأيي فى إعطاء الصحافة الحرية اللازمة لزيادة نجاحها ، فاذا انتخبت فسأحاول إقناع الحكومة بوضع قانون تصان به حرية الصحافة ويصان به النظام العام من ضرر شططها .

« وإنى أجعل حاجات معظم الأهالى نصب عينى وخصوصاً المزارعين ، فأسعى فى سبيل وسائط الزراعة والرى ومد السكك الحديدية والزراعية ، وأدرس مسألة أسعار القطن درساً دقيقاً وأبذل جهدى فى اتخاذ الوسائل التى تحمى مصالح الزراع . »

المنشورات الانتخابية : وتوالت بعد ذلك المنشورات الانتخابية من محمد كمال بك وحسين واصف باشا وإدريس راغب بك وأمين سامى باشا وغيرهم .

انتخاب النواب : وفى ١٣ ديسمبر أجريت الانتخابات للنواب ، وهذه بعض أسماء البارزين من المنتخبين : سعد زغلول باشا فى دائرتى بولاق والسيدة زينب وقد اختار دائرة السيدة زينب وأعيد الانتخاب فى بولاق ، وعبد الخالق مدكور باشا عن الدرب الأحمر ، والسيدعبد الرحيم الدمرداش عن الجمالية ، ومحمد يكن باشا ومنصور يوسف باشا فى الاسكندرية ، وعبد السلام العلايلى بك عن دمياط ، وعلى المنزلاوى بك وابراهيم سعيد باشا ومحمد البدراوى باشا وفتح الله بركات بك فى الغربية ، ومحمد السيد باشا ابو على وعبد المجيد سلطان باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد علوى الجزار بك ومحمد ابو حسين باشا فى المنوفية ، وعلى الشمسى افندى فى الشرقية ، وعبد اللطيف الصوفانى بك فى البحيرة ، وحسين هلال بك وعبد اللطيف المكباتى فى الدقهلية ، وحمد الباسل بك فى الفيوم ، والسعدى المصرى بك وعلى شعراوى باشا وحسين الشريعى بك فى المنيا ، ومحمد محفوظ باشا وعبد الرحمن محمود بك ومحمد قطب قرشى بك فى أسيوط ، ومحمد ابو ستيت بك ومحمد همام حمادى بك فى جرجا .

النواب المعينون : وممن عين عن الأقباط قلينى فهمى باشا ، ومرقص سميكة بك وسينوت حنا .

رئيس الجمعية ووكيلها المعين : وقد اختير لرياسة الجمعية يوم ١٩ ديسمبر أحمد مظلوم باشا ناظر المالية سابقاً .

وعرض على عدلى يكن باشا أن يكون وكيلها المعين ، فاشترط للقبول أن يكون بمنزلة النظار فى التشريفات والحفلات الرسمية ، وقبل شرطه فعين وكيلا .

انعقاد الجمعية : وقد صدر الأمر الخديوى بدعوة الجمعية التشريعية للانعقاد يوم ٢٢ يناير سنة ١٩١٤ .

مساعى الصلح بين الخديو ومحمد فريد بك . حصلت مخابرات مع توفيق زاهر بك ومحمد لبيب البتانونى ويوسف صديق باشا ومحمد على دلاور بك بخصوص صلح الخديو مع محمد فريد بك .

وساطة مدام روشيورن : فى ١٠ أكتوبر تقابلت مع فريد بك وكانت موفدة من قبل الخديو لاتمام الصلح ، فأخبرها بأنه يقبل الصلح إذا كان الكلام يكون بينه وبين عباس بلا وسيط ، ولكن لم يتم الصلح لأن عباس خشى جواسيس الانجليز فى جنيف أن يطلعوا على اتصاله بفريد بك فرجع إلى مصر دون أن يتم الصلح .

شئون مختلفة .

تقرير كتشنر : فى ٢٤ مايو ظهر تقرير اللورد كتشنر فقال ما ملخصه إن الملاحظات السياسية التى أبداها فى السنة الماضية قد أثمرت فنقص تحزب الأحزاب وتنازعها وازدادت الثقة بالحكومة .

ثم قال : « إن مصر بقيت على الحياد فى حروب البلقان أيضاً أسوة بالحرب الايطالية التركية؛ وإن كانوا أظهروا ميلهم للمسلمين فأنشأوا جمعية للهلال الأحمر وجمعوا التبرعات لها وللدولة . »

ثم ذكر استقالة سعد باشا من النظارة وأتى على ملخص لتدرجه فى الأعمال الحكومية وقال إنه أدخل إصلاحات كثيرة على نظارتى المعارف والحقانية اللتين تولاها.

ثم تكلم عن المؤامرة والمنشورات الثورية ، وقال : إن المؤامرات لو تمت لأخرت مصر كثيراً ؛ والمنشورات قال عنها إنها ضبطت ففشل قصدها . وأن القضية الخاصة بها أخذت شهرة لا تستحقها لاتهام الشيخ جاويش باشتراكه فيها ، وهذا الرجل من كبار المهيجين فى الحزب الوطنى .

ثم تكلم عن الشئون الخاصة بالزراعة وامتدح قانون خمسة الأفدنة وإنشاء محاكم الأخطاط وتعلية خزان أسوان ، ، الخ

وفى نهاية العام قدمت استقالتى بعد عمل الميزانية وتقديم التقرير السنوى على حسب ما ورد فى مذكرات العام الماضى .

سنة ١٩١٤

الجمعية التشريعية . عيد الجلوس الخديوى . حادثة الطيار فدرين الفرنسى . سقوط نظارة محمد سعيد . كتشنر يلجأ للخديو . الاحتفال بوضع الحجر الأساسى للجامعة . رحلة الخديو فى الوجه البحرى وظهور نفوذه . تألم كتشنر لنجاح الرحلة تكريم واصف بطرس غالى . وداع المجمع العلمى لماسبرو . مبيع سكة حديد مريوط . تهديدات كتشنر بعزل الخديو . تفكير عباس فى التنازل عن العرش . حادثة الاعتداء على حياة الخديو وشعور المصريين نحوها .

الجمعية التشريعية . تصريح لرئيسها . قال مظلوم باشا إن الجمعية التشريعية سيكون لها من الشأن ما يعادل الضجة التى اقيمت فى سبيلها ؛ لأن فيها عدداً من خيرة الرجال العاملين ، وإنهم كلهم بما فيهم المعينون سيكونون معارضين للحكومة كما أنهم سيكونون معها ، لأن النقد والمعارضة سيكونان على أصولها .

ثم قال : إن الأعضاء المعينين من قبل الحكومة لن يكونوا تحت أى تأثير ، ولن تكون حريتهم تحت أى ضغط يميل بهم مع الحكومة ؛ لأن الغرض الأساسى من تعيينهم هو تكملة العدد وتمثيل الأقليات .

سعد باشا ووكالة الجمعية : وقد كانت الأنظار تتجه إلى سعد باشا ليكون فى وكالة الجمعية عن المنتخبين ؛ ولكن اختلفت الآراء ، فبعض الناس أرسل للصحف يطلب منه ترشيح نفسه ، وبعضهم أرسل يشير بعدم ترشيحه ؛ لأن هذا المركز قد يمنعه من العمل فى حرية .

وفى ٦ منه نشر محمد بك أبو شادى نداء لأعضاء الجمعية ، يطلب منهم فيه أن ينتخبوا سعدا وكيلا للجمعية .

مآدب لأعضائها : وفى يوم ١٥ منه أدب سمو الخديو مأدبة لأعضاء الجمعية . والنظار وكبار المعية بسراى عابدين

وفى يوم ١٩ منه أقام اللورد كتشنر مأدبة أخرى لرئيس الجمعية ، ووكيلها المعين وأعضائها ، وآخرين .

وكان يتقدم المدعوين صاحب الدولة البرنس حسين كامل ، والبرنس كمال الدين ، والنظار ووكلاؤهم ، والمستشارون . والمستر لانجلى مدير مصلحة الأملاك .

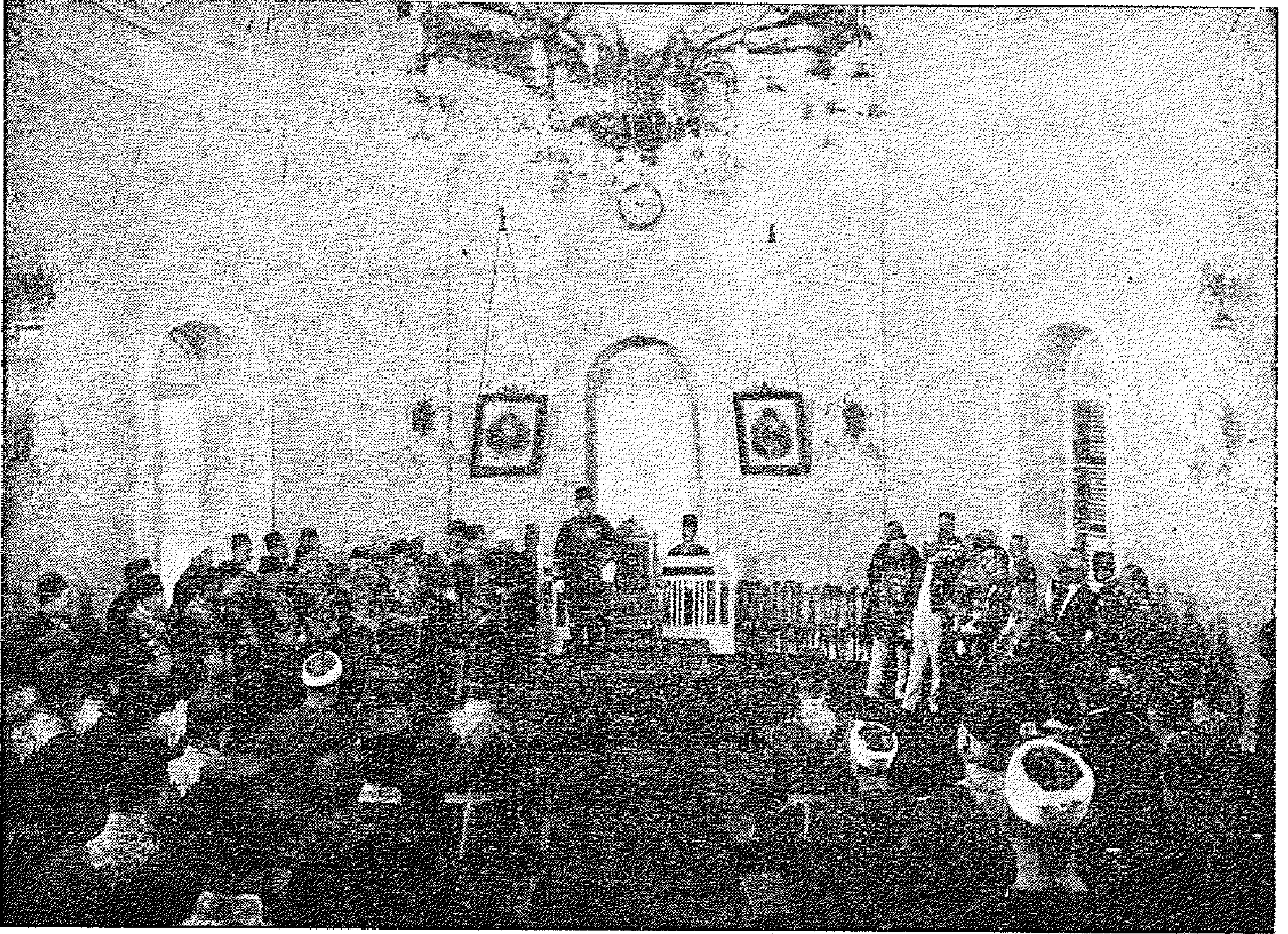
وفى يوم ٢١ منه أدب رئيس النظار مأدبة كذلك للأعضاء ، فى فندق سافواى ودعا اليها اللورد كتشنر ، ومستشارى النظارات ووكلاءها .

افتتاح الجمعية : وفى يوم ٢٢ افتتح الخديو الجمعية التشريعية . وقد أعد احتفال كبير بهذا الافتتاح .

وقد ركب الجناب الخديوى من قصر عابدين إلى الجمعية التشريعية حوالى الساعة العاشرة صباحا ، لابسا كسوته الرسمية ، ومستصحباً فى مركبته عن يساره عطوفة رئيس نظاره محمد سعيد باشا ، وأمامهما صاحب السعادة عثمان مرتضى باشا رئيس الديوان الخديوى ، واللواء اسماعيل مختار باشا السرياور الخديوى ، ومن ورائه مركبتان تقل إحداهما صاحبى السعادة محمد عارف باشا السر تشريفاتى ، ويوسف صديق باشا ناظر الدائرة الخاصة وتقل الأخرى احمد صادق بك والميرالاى ابراهيم أدهم بك ؛ وتتقدم موكبه ثلة كبيرة من خيالة البوليس ؛ فاجتاز الطريق المؤدية من القصر إلى الجمعية بين تحيات الجنود المصطفة فى جانبيها ، وبين تحيات الألوف من شعبه المجتمعين لمشاهدته فى تلك الطريق ، وفى المقاهى وشرفات المنازل المطلة عليها .

وعند بلوغه الجمعية استقبله فى مدخلها سعادة رئيسها ، ومعه حضرات النظار ووكيل الجمعية ، ومحافظ مصر ؛ وبعد أن استراح بضع دقائق فى الغرفة المقابلة لقاعة الجمعية دخل إلى القاعة فحف بكرسيه عن اليمين حضرات العلماء وفى مقدمتهم سماحة جمال الدين أفندى شيخ الاسلام الأسبق بالاستانة ، وفضيلة قاضى مصر ، وفضيلة شيخ الأزهر ، وغبطة الأنبا كيرلس بطريق الأقباط الأرثوذكس ، وبعض النظار ، وعن اليسار

وكلاء الدول كلهم وفى مقدمتهم لورد كتشنر لابسا حلة المشيرية ، وبقية النظار ومن ورائهم جميعاً دولة البرنس ابراهيم حليم وسعادة اسماعيل حقى بك متولى مهام القومسيرية العثمانية .



افتتاح الجمعية التشريعية

وبعد أن حلف حضرات رئيس الجمعية وأعضائها اليمين القانونية بين يديه الكريمتين ألقى سموه خطبة سنية ومما جاء فيها :

« أيها السادة

« إننى أنظر بعين الارتياح إلى اجتماع حضراتكم فى هذا المكان حيث أرى الأعضاء الذين اختارتهم حكومتى ، جنباً إلى جنب مع المندوبين الذين بعثت بهم أمتى لتمثيلها فى هذه الجمعية التشريعية الجديدة ؛ فبكل سرور أفتتح اليوم أعمال هذه الهيئة الموقرة ؛ ولقد تحققت الآن رغباتى ومقاصدى التى أعربت عنها منذ عامين ، فيما يتعلق بتحسين أحوال النظام النيابى العام وجعله أحسن مطابقة لمصلحة البلاد .

« إن صدرى لينشرح عندما يدور بخاطرى أنكم ستقدرون هذه الخدمة بما تقتضيه مكانتها السامية ؛ وأنكم ستتضافرون على تحقيق ما نتمناه لنجاح النظام الجديد ، فتبرهنوا على إخلاصكم فى القيام على خدمة المرافق الحقيقية ، لهذا القطر بوجه العموم .

«ونحن على ثقة أن ما تظهرونه من الروية والفكر الثاقب فى أعمالكم ؛ وما تبذلونه لحكومتنا من المعاونة الصادرة عن الفطنة والدراية ، متوخين فى ذلك سبيل الوفاق المبنى على تنور الأفكار ، وائتلاف القلوب ـ كل ذلك يكون كفيلا بما ستقدمونه من الخدم الحسنة الصادقة التى ننتظرها وتنتظرها البلاد منكم ؛ كما أنه يكون أكبر ضمان لازدياد الثقة بمستقبل النظام النيابى ، بما يعود على الأمة فى بلادنا بأكبر الخيرات وأوفر البركات .

« والله يتولاكم أيها السادة بحسن رعايته »

ثم عاد سموه إلى قصره بعد أن ودع بمثل ما قوبل به من التجلة والاحترام .

اللائحة الداخلية : وقد ألفت لجنة لوضع اللائحة الداخلية للجمعية ؛ وفى أثناء وضعها علمت اللجنة أن الحكومة وولاة الأمور يريدون أن يمنعوا الجمعية من طلب الدستور (كما كان ذلك منتظرا) أو إبداء رغبة فى طلبه أو رأى فى ذلك الطلب ، ويريدون أن يكون فى اللائحة الداخلية ما يخول لرئيس الجمعية الحق فى منع أى نائب من الكلام فى هذا الموضوع ، فإذا لم يمتنع أحال البحث فى ذلك إلى جلسة سرية .

وقد تناقش النواب فى ذلك كثيرا وأخيرا ارتضوا وضع مادة بذلك ، فى مقابل تصريح تعلنه الحكومة ، بأنها إذا حلت الجمعية لخلاف معها على مشروع ، وأصرت الجمعية الجديدة على المشروع ذاته ، يعتبر رأى الجمعية الجديدة قطعياً . »

* * *

عيد الجلوس الخديوى : فى يوم ٨ يناير احتفل بعيد الجلوس الخديوى . واستعرض البرنس محمد على باشا بالملابس الرسمية الحامية المصرية المعسكرة فى عابدين والعباسية بميدان عابدين ، نائباً عن سمو شقيقه لأن سموه لا يقابل المهنئين فى عيده مراعاة لحداده على المغفور لها البرنسيس نازلى هانم فاضل ؛ وبحضور عطوفة سعيد باشا رئيس النظار ، والنظار ، والمستشارين ، ووكلاء النظار ، وكبار الموظفين والأعيان .

حادثة الطيار فدرين الفرنسى : حضر لمصر الطيار جول فدرين ، فى مسابقة

مع منافس آخر فرنسى ، وثالث انجليزى؛ وكان من حظ الأول « فدرين » أن وصل لمصر قبل الآخرين ، وطار بطيارته فى بعض الأماكن بمصر ، وفى يوم الاحتفال بعيد جلوس الخديو استعرض الجيش المصرى فى ميدان عابدين؛ وحلق فدرين بطيارته فوق الميدان ، وألقى العلم المصرى فى مكان الاحتفال ، فسر الجميع من ذلك .

وفى يوم ٢٨ منه تشرف بمقابلة سمو الخديو دون تدخل المسيو دى فرانس المعتمد الفرنسى كما كانت تقضى بذلك الرسميات ؛ وفى ٢٩ منه تقابل هذا المعتمد مع عطوفة رئيس النظار سعادة محمد سعيد باشا وناظر الخارجية عدلى باشا محتجاً على ماوقع من مقابلة فدرين للخديو بدون وساطته ؛ فتشرف محمد سعيد باشا بمقابلة سموه وعرض عليه احتجاج المعتمد ؛ فأفهمه عباس أنه سبق أن تعرف بالطيار فدرين وخليلته فى باريس فوجد أن لاضرورة لوساطة المعتمد الفرنسى؛ ولكن هذا السبب لم يكن مقنعاً، فطلب المعتمد ترضية عن هذه الاهانة؛ وبعد المداولة مع رئيس النظار وكبار الحاشية الخديوية تقرر إيفاد السرتشريفاتى محمد عارف باشا إلى الوكالة الفرنسية للاعتذار للمعتمد عن المخالفة التى وقعت منه بدون قصد ؛ غير أنه لم يكتف بهذا الاعتذار وألح فى إبعاده عن وظيفته ؛ وأخيراً صدر أمر الخديو بنقله إلى رآسة الديوان التركى .

وفى ٣٠ يناير وزعت شركة هافاس نشرة نصها « إن معتمد فرنسا قد خاطب عطوفة رئيس النظار ، وسعادة ناظر الخارجية المصرية ، بشأن الظروف التى تشرف فيها أحد الطيارين الفرنسيين المقيمين فى القاهرة ، بمقابلة سمو الخديو يوم الأربعاء ٢٨ يناير » وفى أول فبراير نشرت جريدة الطان الفرنسية ما يأتى :

« إن معتمد الدولة الفرنسية طلب عزل هذا الموظف ثم اكتفى بزيارة منه يبدى له أسفه . وأن الحكومة المصرية فى مجموعها قد وجدت الحق فى جانب معتمد فرنسا . فقررت فى الحال نقل الموظف المسئول . »

ولما اطلع الجناب الخديوى على ما كتبته الطان غضب ، وتناقش مع رشدى باشا فيما يجب عمله إزاء ما كتبته هذه الجريدة ؛ وهو يعتبر ماساً بكرامة سموه . فتقرر نشر التكذيب الآتى بواسطة قلم المطبوعات فى الجرائد فى ٩ فبراير (بعد نص كلام الطان)

« هذه الرواية غير صحيحة إذ الحقيقة أن الجناب الخديوى العالى ، تعلقت إرادته السنية بنقل رئيس تشريفاته ، من وظيفته إلى وظيفة أخرى تعادلها ، اجتنابا لكل إشكال مع الوكالة الفرنسية . »

وبذلك أسدل الستار على هذه الحادثة .

سقوط نظارة محمد سعيد . فى ٥ فبراير تم بيع سكة حديد مريوط التى يملكها الخديو ، للحكومة المصرية بمبلغ ٣٩٠ ألف جنيه .

وكان الخديو يرى أن هذه الصفقة لم تأت بالربح المنتظر ، لأن محمد سعيد باشا رئيس النظار لم يساعده فيها ، فحنق عليه لذلك . ولم تكن هذه الحادثة وحدها هى السبب فى استياء الخديو من رئيس النظار ، فانه كان يأخذ عليه أنه يسير تبعاً لكتشنر ولا يحفل بأخذ آراء سموه ، لدرجة أنه كان لا يطلعه على كثير من مجريات الأمور ، اعتماداً على أن كتشنر قد وافق عليها .

وقد انتهز الخديو فرصة مقابلته مع كتشنر ، فأظهر استياءه من محمد سعيد لهذا السبب ، ولمح بأن مصطفى فهمى باشا لم يكن يتبع هذه الخطة ، وأنه يفضله من هذه الناحية ، لأنه يستطيع أن يعرف منه سير الحوادث ، ورغبات اللورد ، حتى يتفاهما عليها . وكان يرمى فى تلويحه باسم مصطفى فهمى لضمان رضا الانجليز ، فقبل اللورد كتشنر .

وعند حديث اللورد مع مصطفى فهمى باشا فى اختيار أعضاء النظارة ، طلب منه أن يأخذ أحمد حلمى باشا فى نظارته نظراً لحالته المالية ؛ وكان قد وعده بذلك . ولكن الرئيس لم يقبل ، وأراد أن يكون حراً فى اختيار زملائه ؛ وكانت هذه مفاجأة للورد لم يكن ينتظرها ، وانتهى الخلاف بتنحى مصطفى فهمى باشا .

كتشنر يلجأ للخديو . عندئذ اضطر كتشنر أن يلجأ للخديو لحل هذه الأزمة التى لم يكن يتوقعها ، بعدما أصبح الحاكم بأمره فى البلاد ، وبعدما انزوى الخديو فى قصره انزواء تاماً .

وقد رشح سموه حسين رشدى باشا ، وتم تشكيل النظارة فى يوم ١٥ أبريل .

تتمة فى شئون الجامعة المصرية : سبق لنا أن تحدثنا عن إنشاء الجامعة ، من أول نشأتها ، إلى انتخاب حضرة صاحب الدولة البرنس احمد فؤاد رئيساً لها . والآن نأتى بملخص خطواتها ، إلى الاحتفال بوضع الحجر الأساسى لها .

الاكتتابات للجامعة : تبرع مصطفى كامل الغمراوى بك بستة أفدنة وقفها على الجامعة ، وحسن زايد بك من سراة المنوفية بخمسين فداناً ؛ وبمناسبة هذه الوقفية أقام

حفلة فخمة فى سرايه ببلدة سراوة فى ١٥ أبريل سنة ١٩٠٨ ، تحت رياسة البرنس فؤاد باشا ، وبحضور أعضاء مجلس إدارة الجامعة ، وعدد عظيم من الأعيان . ووقف احمد الشريف بك من أثرياء الغربية مائة فدان . وسمو البرنس يوسف كمال مائة وخمسة وعشرين فداناً بالقليوبية ، وثلثمائة جنيه للمساعدة فى نفقات إصلاح تلك الأطيان ، وذلك عام ١٩١١ .

وقد تبرعت البرنسيس فاطمة هانم اسماعيل ، كريمة المغفور له اسماعيل باشا الخديو الأسبق ، بستة أفدنة بجوار سرايها بالدقى لبناء دار الجامعة عليها ؛ ووقفت ستمائة فدان من أجود أطيانها ، لصرف ريعها على الجامعة ، غير جواهر قيمتها ثمانية عشر ألف جنيه.

هدايا مدرسية وقبول بعض صغار الطلبة مجاناً : سعى دولة رئيس الجامعة حتى أهدى الأمبراطور غليوم للجامعة كتباً تركية نادرة ، ومجموعة ثمينة من المؤلفات الألمانية أكثرها خاص بالشرق ، وكذلك أدوات علمية لقسم الطبيعيات .

وكذلك أهدى ملك إيطاليا للجامعة كتاباً نادراً ، ومجموعة مؤلفة من النقود الايطالية ؛ وأهدى رجال حكومته مجموعة من معادن إيطاليا .

وأهدى سلطان مراكش عدة مطبوعات ، طبعت بمطبعته الخاصة بفاس .

ثم سعى دولة الرئيس حتى قبلت فرنسا ثلاثة من صغار الطلبة المصريين فى مدارسها بالمجان ، وحذت إيطاليا حذوها .

الاحتفال بوضع الحجر الاساسى للجامعة . أمرت دولة الأميرة الجليلة فاطمة هانم بأن تكون جميع نفقات الاحتفال بوضع الحجر الأساسى لدار الجامعة من مال دولتها الخاص ؛ وأن تكون لائقة بمقام الخديو الذى سيرأس هذه الحفلة ، فأقام المنوط بهم أمر الاحتفال سرادقاً فاخراً للخديو ، وأقاموا أمامه سرادقاً آخر يسع الألوف من المدعوين ، وفى الساعة الخامسة من يوم الاثنين ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٣٢ ، الموافق ٣٠ مارس سنة ١٩١٤ ، أقبل الخديو بموكبه الحافل ؛ فاستقبله الأمراء والنظار وأعضاء مجلس إدارة الجامعة ، يتقدمهم أصحاب الدولة فريد باشا الصدر الأعظم الأسبق ، والبرنس ابراهيم حلمى باشا ، والبرنس فؤاد باشا ، والبرنس محمد على حليم باشا ، وسماحة جمال الدين افندى شيخ الاسلام الأسبق ، وفضيلة قاضى مصر ، وشيخ الجامع الأزهر ، وحسين رشدى باشا رئيس مجلس إدارة الجامعة ، وأحمد شفيق باشا وكيلها ، فصدحت الموسيقى

العسكرية بالنشيد الخديوي ؛ ثم دخل سموه إلى السرادق المعد له حيث تقدم أحمد زكى باشا سكرتير مجلس النظار، وتلا بين يديه محضراً بوضع الحجر الأساسى فى الزاوية الشرقية الشمالية من البناء، فوقع سموه هو وصاحبة الدولة فاطمة هانم اسماعيل على هذا المحضر ؛ وكذلك أعضاء مجلس إدارة الجامعة ؛ وألقى سموه بعد ذلك خطبة بليغة ؛ ثم تقدم حسين رشدى باشا رئيس مجلس إدارة الجامعة ؛ وألقى كلمة مناسبة للمقام ؛ وبعد ذلك سار الجناب العالى، يتبعه أعضاء مجلس الادارة، وكبار المدعوين إلى حيث أعد حجر الزاوية. فقدم عبد الله وهبى باشا المهندس إلى سموه محارة ومطرقة من الفضة، قبضتاهما من الآبنوس المنقوش ؛ وقد كتب على كل منهما وعلى حجر الزاوية « الجامعة المصرية ـ الأميرة فاطمة ابنة اسماعيل سنة ١٣٣٢ ه »، وقاربا الملاط (المونه) من الفضة كذلك، وصندوقا يحتوى على النقود المصرية الذهبية والفضية، وعلى نسخة من هذا المحضر والصحف المصرية، فوضع هذا الصندوق فى حجر الزاوية، فتناول الجناب الخديوى المحارة وأخذ بها قليلا من الملاط، ووضعها على الحجر ؛ ثم غطى هذا الحجر برخامة محكمة وطرقها سموه بالمطرقة ؛ ثم ناولها لرشدى باشا فطرقها بها أيضاً ؛ وناولها إلىّ، فطرقتها بها كذلك، وأنزل الحجر حينئذ إلى مكانه ؛ ثم عاد الجناب العالى والمدعوون إلى السرادق ؛ وبعد أن سمع قصيدة من المطرب زكى عكاشه أفندى من إنشاء أمير الشعراء أحمد شوقى بك، انصرف مودعاً بمثل ما قوبل به من التجلة والاكرام.

وقد انتدبنى مجلس إدارة الجامعة فى مجلس قسم الآداب، للنظر فيما يرفع شأن التعليم إلى المنزلة اللائقة به ؛ وتقرر كذلك انتخاب الأستاذ اسماعيل بك رأفت عميداً له والأستاذ المستر برسى وايت نائباً للعميد، والأستاذ محمود فهمى افندى سكرتيراً للمجلس؛ وحددت مواعيد الامتحانات عن سنة ١٩١٤ فى العلوم الآتية :

آداب اللغة الفرنسية ـ وآداب اللغة الانجليزية ـ وآداب اللغة العربية وتاريخها ـ وتاريخ الأمم الاسلامية ـ وعلم تقويم البلدان ووصف الشعوب ـ وتاريخ الشرق القديم

امتحان العالمية : وحدد لامتحان العالمية يوم الاثنين ٤ مايو فتقدم فيه الشيخ طه حسين الطالب المنتسب ؛ وقد اختار مجلس القسم موضوعين لمناقشته فيهما وهما :

١ ـ علم الجغرافيا عند العرب

٢ ـ المقارنة بين الروح الدينى للخوارج فى أشعارهم، وفى كتب المتكلمين

أما موضوع رسالة الدكتوراه التى قدمها فهى « حياة أبى العلاء المعرى ».

وتألفت لجنة الامتحان من الأساتذة الشيخ محمد الخضرى رئيساً ، والشيخ محمد المهدى ومحمود فهمى افندى المدرسين بالجامعة ، وحضرتى اسماعيل رأفت بك ، والشيخ علام سلامة المنتدبين من نظارة المعارف العمومية .

وكان اجتماع هذه اللجنة علنيا بحضورى؛ وبعد مناقشة الشيخ طه فى رسالته التى وضعها فى تاريخ أبى العلاء المعرى ، ثم فى الموضوعين اللذين اختارهما مناقشة استمرت نحو ساعتين وربع ، اجتمعت لجنة الامتحان للمداولة فيما يستحقه الطالب من الدرجات فقررت أنه يستحق :

ا — درجة جيد جداً فى الرسالة

ب — درجة فائق فى الجغرافية عند العرب

ج — درجة فائق فى موضوع الروح الدينية للخوارج

وقد تقرر إيفاده إلى فرنسا لتتميم دراسته العالية ؛ وقد صحبته من مصر إلى سراى رأس التين ؛ وقدمته بصفتى وكيلا للجامعة إلى الخديو ، فشجعه وتمنى له النجاح فانصرف مسروراً .

بعثات الجامعة : وبلغ المبعوثون من الجامعة حتى هذا التاريخ تسعة ، وقد كان إرسال البعثة الأولى فى سنة ١٩٠٨ ؛ وعددها أربعة طلاب لفرنسا ، وواحد لانجلترا .

رحلة الخديو فى الوجه البحرى وظهور نفوذه . بعدما حدثت أزمة النظارة وانتهت بالحل الذى تقدم ذكره ، بواسطة الخديو ، أشرنا نحن رجال الحاشية على سموه أن ينتهز هذه الفرصة ويخرج من عزلته ، ويتصل بالشعب ، باعتباره الحاكم الشرعى فى البلاد .

واستقر الرأى على أن يقوم برحلة فى الوجه البحرى ، واختار من رجال المعية عثمان مرتضى باشا رئيس الديوان الخديوى ، واللواء اسماعيل مختار باشا السرياور الخديوى ، ومحمد فهمى بك التشريفاتى الأول ، والميرالاى ابراهيم أدهم بك ، والشيخ محمد عثمان ، والدكتور عبد العزيز بك ، وتوفيق الحضرى بك ، والشيخ محمد البردينى ، لمرافقة سموه فى رحلته .

وكذلك تقرر أن النظار ورئيسهم يتناوبون مرافقته ، وقسمت الرحلة إلى مناطق يرافقه بعضهم فى كل مرحلة منها .

وفى الساعة التاسعة من يوم الثلاثاء ٢٨ أبريل وصل الركاب الخديوى إلى قليوب وكان فى معيته رئيس النظار، ومحب باشا، وسرى باشا؛ وبعد أن استقبل استقبالا عظيما من عائلة الشواربى، وأعيان وعمد مركز قليوب، افتتح المدرسة الابتدائية؛ وبعد تفقدها ذهب للسرادق الذى أعده لذلك حامد الشواربى بك وأخوته، وأعيان المركز؛ واستقبل فيه الأهالى، والعمد والأعيان، والموظفين؛ ثم زار المستشفى الأميرى؛ وغادر قليوب إلى القناطر الخيرية؛ وكان يشرف على النظام والأمن مدير القليوبية وحكمدارها؛ وكانت الزينات تمتد على جانبى الطريق؛ وزار فى القناطر منزل على عبد الله بك، وشقيقه محمود عزمى افندى، حيث تناول الحلوى؛ ثم قام من القناطر إلى البرادعة؛ وقد أقام أمين سامى باشا زينة بديعة من القناطر إلى سرايه الذى استراح فيه الخديو؛ وقد تشرف بمقابلته هناك محمود سامى بك، والدكتور حافظ عفيفى بك، وعامة أهل البرادعة؛ ثم تفرج سموه على حديقة الباشا، وغرس فيها بيده شجرة كمثرى، تذكاراً لتشريفه؛ ثم وضع أساس مسجد بناه سامى باشا فى عزبته.

ومن البرادعة تحرك الركاب إلى مديرية المنوفية، فيمم نحو الباجور، وزار السرادق العظيم الذى أقامه الوجيه ابراهيم أبو حسين بك؛ وكان يحيط بسموه الوزراء، ورجال المعية ومدير المنوفية؛ وبعد أن تناول سموه القهوة والمرطبات، سافر إلى شنوان؛ وكان سعادة محمود سوسه باشا، قد أقام سرادقاً فخماً، فسيح الأرجاء، متسع الجوانب، لاستقبال سموه فيه؛ وقد ضم هذا السرادق عمد وأعيان مركز منوف، ورجال القضاء والادارة؛ وعند وصول سموه خرج الجمع المحتشد لاستقباله، فحياهم وأظهر سروره العظيم لحفاوتهم؛ وبعد أن تناول الحلوى والمرطبات برح مكان الاحتفال، قاصداً ميت خلف، فقوبل بالحفاوة العظيمة؛ وتناول الغداء فى تفتيش ميت خلف. وفى الساعة الثالثة تحرك الركاب إلى مدينة شبين الكوم؛ وعلى أثر وصوله إلى سراى المديرية، جرت المقابلات الخديوية، وبعدها عاد إلى تفتيش ميت خلف، ليتناول العشاء هناك، ويمضى سحابة الليل.

وفى ٢٩ منه تحرك ركابه إلى بابل وبمعيته محمد حلمى باشا، فظهرت الزينات التى أقامها الوجيه محمود الغنيمى بك، وبعد أن زاره سموه استأنف الموكب سيره إلى تلا، فى وسط الزينات التى أقامها احمد رسلان بك، فشرفها سموه، واستقبل الأعيان والأهالى فى سرادق عظيم، وشكرهم لشدة حفاوتهم به؛ ثم سار الموكب فى بندر تلا بين الجماهير والموسيقات، وزغاريد النساء، حتى وصل إلى سراى حسانين عبد الغفار

بك ، فدخلها الخديو ومعه النظار ورجال المعية ؛ ثم استقبل فيها آل عبد الغفار ، وأعرب لهم عن سروره بما شاهد من حسن احتفائهم به ومن هناك سار الموكب إلى كفر ربيع بين الزينات الفخمة ، التي أقامها محمود ابو حسين باشا ؛ ولما وصل سموه ، نحرت الذبائح ، وكان عددها تسعا ، ووزعت على الفقراء ؛ ثم استقبل سموه أفراد العائلة . وكبار الأعيان ؛ وبعد ذلك سار سموه بزورق فى النيل . إلى سراى السيد شعير باشا « بدراجيل » ؛ فاستقبل هناك استقبالا رائعاً ؛ ومن هناك عاد إلى كفر ربيع ؛ ومنها إلى كفر العلوى ؛ فشونى لزيارة عائلة أبى جازية ؛ ومن شونى إلى قسطوخ ، لزيارة عائلة عيسوى بك زايد ؛ وبعد الاستقبال والترحيب ، سار إلى زاوية بمم ، فزار الوجيه شرف الدين غازى بك فى سرايه ؛ وسار ثانية بعد ذلك بموكبه الحافل إلى ميت خلف ؛ وبعد أن تناول طعام الغداء مع النظار ، سار بموكبه إلى قويسنا ؛ ولما شرفها سموه ، صدحت الموسيق بالسلام الخديوى واستقبل سموه آل أبو زكرى ، أحمد عمر بك ، وغيرهم من كبار العمد والأعيان ؛ ثم سار إلى بجيرم فزار محمود حمدى بك ، واستقبل باقى أفراد عائلته ، وكثيرين من الأعيان ثم سار إلى مسطاى ، ونزل السرادق المعد لاستقباله هناك ؛ ومنها تحرك إلى كفر هلال وكان بانتظار سموه هناك فى السرادق الفخم المعد لنزوله ، ابراهيم فتحى باشا مدير الغربية مع الأعيان والعمد ، فحياهم سموه ، وسار قاصداً بلدة حنون ، حيث احتفل بمقدمه عائلة الخشن وزمزم ، وكثيرون من العمد والأعيان ؛ ثم سار إلى زفتى ، فوصلها فى الساعة الرابعة بعد الظهر ؛ ومنها إلى مسجد وصيف حيث زار مصطفى فهمى باشا ، وعطف فى سيره على عزبة صدقى باشا ناظر الزراعة ؛ وزار السيد على الرفاعى بك بزفتى ؛ وقصد بعد ذلك زيارة المعاهد العلمية بها ، والمستشفى التابع لمجلس المديرية ؛ ثم زار السباعى المصرى بك ؛ ثم انتقل سموه إلى ميت غمر ؛ ومنها إلى الذهبية الراسية فى فم الصافورية للمبيت فيها .

وفى صباح اليوم الثالث من رحلته ، قام من ميت غمر إلى بلدة كوم النور ، وبمعيته حضرات أصحاب السعادة اسماعيل سرى باشا ، وعدلى باشا ، وعثمان مرتضى باشا ومدير الدقهلية ، ومحمد فهمى التشريفاتى الأول ؛ فزار عبد الله بك هلال ، واستقبلته عائلة هلال ، والدكتور عبد الله شقير أحسن استقبال ؛ ثم سار سموه لزيارة معاهد هذا البلد العلمية والصناعية والزراعية ونقابته ؛ وقدمت لسموه هناك هدية من المعرض الزراعى وهى محفظة مصنوعة من الصدف والسن ، داخلها قانون نقابة كوم النور .

وبعدها سار إلى دنديط لزيارة محمد باشا نافع ، فاحتفل به الباشا وأعيان وعمدة

البلدة احتفالا كبيراً ؛ وبعد أن تناول القهوة والمرطبات ، برحها سموه إلى صهرجت الكبرى ، فاستقبله حضرة الوجيه عبد الله بك شريف والأعيان ؛ ثم برحها إلى الزقازيق بين هتاف الاخلاص وزغاريد النساء ؛ واستقبله سعادة مدير الشرقية عند بلدة النخاس أول حدود الشرقية هو وعمد وأعيان البلاد ؛ واستمر فى ركابه حتى مدينة الزقازيق ، فكان فى انتظاره جميع موظفى المديرية ، وأعيانها وعمدها ، وفى مقدمتهم مصطفى خليل باشا وجميع أفراد عائلة أباظه ، وغيرهم من كبار الأعيان ، وزار المستشفى الأميرى ؛ ثم قصد ديوان المديرية حيث تناول الغداء ؛ ثم استقبل العلماء ، ورجال القضاء ، وأعضاء الجمعية التشريعية ، ومجلس المديرية ، والقناصل ، والموظفين ، فالأعيان والعمد ؛ ثم زار المعاهد العلمية وبعد ذلك تحرك الركاب العالى إلى ديرب نجم ، ومنها إلى السنبلاوين ، فالمنصورة .

وبوصوله احتشدت جموع الأهالى الغفيرة ، والموظفون ، والأعيان ، والعمد لمقابلته ودوى الهتاف والتصفيق ، فسار الخديو بين الكتل البشرية ، لزيارة أعيان المدينة ومدارسها ؛ وفى الساعة الثامنة مساء توجه إلى سراى المديرية ، فجرت التشريفات هناك وانتهت فى الساعة الحادية عشرة ، حيث ركب إلى الركائب الراسية أمام المنصورة للمبيت فيها .

وفى صباح الجمعة أول مايو تحرك الركاب إلى المحلة الكبرى ، فاستقبلته الأهالى والموظفون والعمد والأعيان ؛ وبعد أن استراح قليلا ، استقبل أعيانها ، ثم سار إلى بناء المستشفى ، ووضع بيده الحجر الأساسى ؛ ثم زار مستشفى الرمد والمعاهد العلمية بها ؛ ثم برحها إلى مدينة طنطا ، فأطلقت المدافع إيذاناً بوصوله ، فعلا الهتاف ، وارتفعت الزغاريد ، وكان استقباله فيها لانظير له ، فأظهر سروره من حسن الاستقبال ، وروعة النظام الذى رآه من موظفى المديرية ، وأعيانها وسكانها وقد تركت تلك الزيارة فى نفس الخديو أثراً طيباً . وقد توجه سموه إلى المديرية وتناول الغداء هناك ؛ ثم جرت التشريفات ، وبعدها خرج ، وزار الأعيان ، ودور العلم ، والمستشفيات ، ومسجد حسين بك عطيفه ، فالمتحف ، وافتتح المعهد العلمى ، وأدى الصلاة فى الجامع الأحمدى ؛ وبعد أن شكر الجميع تحرك الركاب إلى السلاهيب ، ماراً ببلدة المرابعين ، والكوم الطويل ، وزار فيها الوجيه محمد سعيد بك ؛ ثم قصد السلاهيب ، ونزل بالسرادق الفخم المقام فى بلدة أبو بدوى ، وبوصوله للسلاهيب استقبلته الجموع الحاشدة وبعد أن شكرهم عاد إلى سراى الدومين للمبيت فيها .

وفى صباح ٢ منه زار الخديو محل المشروعات الجديدة بالسلاهيب ؛ ومنها تحرك الركاب إلى إبشان ، واستقبل هناك استقبالا حسنا ؛ ثم واصل سيره إلى بيله ؛ ثم سار بموكبه العظيم إلى بندر كفر الشيخ ؛ وقد تناول طعام الغداء فى مصلحة الدومين فى سخا ؛ وفيها قدمت له امرأة فقيرة عريضة ، تشكو فيها حالها ، وأنها وضعت ثلاثة ذكور فى بطن واحد ولا يزالون أحياء ، فنفحها سموه بعشرة جنيهات .

وفى كفر الشيخ استقبل العمد والأعيان ، فى سرادق عظيم أعد لذلك ؛ ثم برح البندر إلى مركز دسوق ، بين مظاهر الزينات ، فوصل إلى كفر الشيخ حسن لزيارة محمد الوكيل باشا ؛ وهناك استقبل عمد وأعيان المركز ، وبندر المحمودية ، بالسرادق الفخم وبعد ذلك عرج على سراى آل الوكيل ، واستقبل كبار أفراد عائلته ؛ وبعد أن استراح قليلا ، شكر محمد الوكيل باشا على حفاوته ؛ ثم برح كفر الشيخ حسن إلى الرحمانية ، فزار عائلة الحامدة ، وعلى بك خليفة ؛ وفى منزل سعادة احمد محمود باشا عميد عائلة الحامدة ، أخذ المصور زولا صورة لسموه . والباشا عن يساره .

ومن الرحمانية تحرك الركاب إلى شبراخيت ، ماراً بمحلة بشر ، حيث نزل فى عزبة فاضل ، فلقى سموه استقبالا فخما من عثمان مرتضى باشا وعائلته ، واسماعيل عمر بك وابراهيم فاضل بك ، فقد أقاموا سرادقاً بديعاً مزيناً بالأعلام ، مفروشاً بالسجاجيد الثمينة لاستقبال سموه ، وخطب عثمان مرتضى باشا خطبة مرحباً به ، ووزعت علب الحلوى وكانت فى غلاف بديع الصنع ، وكل علبة منها ذات إطار من الحرير الملون .

ثم استأنف السير إلى شنديد ، حيث زار خليل دبوس بك ؛ ثم واصل السير إلى إيتاى البارود ؛ وكان فى استقباله هناك جمهور عظيم من الأعيان ، وعمد البلاد ، والموظفين وعساكر البوليس .

وفى صباح ٣ منه تحرك الركاب إلى التوفيقية ، لزيارة على مهنا باشا ، وعند تشريفه ذبحت الذبائح ، ووزعت لحومها على الفقراء ؛ ثم برحها سموه إلى بلدة بريم ، وسط الهتاف وقد زار بها مدرسة الجوربجى بك ؛ ثم ركب السيارة إلى محطة كوم حمادة ، حيث ركب القطار الأبيض ، وتوجه إلى الطيرية ، ومنها إلى أبى الخاوى ، لزيارة عبد اللطيف الصوفانى بك ؛ وبعد أن استقبل استقبالا عظيما من آل الصوفانى ، ركب الزورق إلى محطة الطيرية ، ومنها عاد بالقطار إلى كوم حماده ، فوصلها وزار السرادق الذى كان مقاماً أمام ديوان المركز ، وصافح الحاضرين من العمد والأعيان ؛ وبعد

ذلك توجه سموه إلى إيتاى البارود، فتناول الغداء بالتفتيش؛ وبعد الظهر خرج للمرور على أراضى التفتيش؛ ثم عاد إلى سرايه، وبات فيه.

وفى صباح ٤ منه تحرك الركاب من إيتاى البارود إلى الطود فالدلنجات، فدمنهور؛ وما أن وصل إليها حتى أطلقت المدافع إيذاناً بوصول ركبه؛ وبعد أن استقبلته جموع الأعيان والعمد وكبار الموظفين، توجه إلى سراى المديرية فاستراح به قليلا؛ ثم أظهر رغبته فى زيارة دور العلم؛ وفعلا ركب سموه وزارها هى والمستشفيات وفى الظهر قصد المدرسة الصناعية وتناول طعام الغداء فيها. ومعه اسماعيل سرى باشا، ووهبه باشا، وصدقى باشا، ومحب باشا، وأنا، وعثمان مرتضى باشا، واللواء مختار باشا، واسماعيل أباظه باشا، ومحمد فهمى بك، وحافظ عوض بك، واحمد صادق بك. وفى نحو الساعة الثانية بعد الظهر وصل إلى ندبية، فذبحت الذبائح، ووزعت لحومها على الفقراء والمساكين وزار عائلة نوار؛ ثم سار ركابه إلى حوش عيسى؛ ومنه إلى أبو المطامير؛ ومن هناك زار سيدى غازى؛ ثم سار موكبه إلى كفر الدوار حوالى الساعة الرابعة والنصف؛ وبعد أن جلس مدة تقرب من نصف الساعة، صدرت إرادته السنية بالسفر إلى الاسكندرية فوصل الثغر فى الساعة السادسة تماما.

وفى يوم ١٧ مايو دعا سموه جمعاً كبيراً من أعيان مديريات القليوبية، والدقهلية والبحيرة، لتناول طعام الغداء على المائدة الخديوية.

وفى المساء دعا آل منشة، وبعض سراة الاسرائيليين فى الاسكندرية، إلى حفلة شائقة.

وفى يوم ١٩ منه أقام سموه مأدبة لأعيان الشرقية، والغربية، والمنوفية بسراى رأس التين لتناول طعام الخديو.

ألم كتشنر لنجاح الرحلة: ولقد كان نجاح هذه الرحلة مثاراً لألم اللورد كتشنر الذى كان قد قضى على كل نفوذ للخديو، فاذا بنفوذه يظهر فجأة بعد الأزمة النظارية وبعد هذه الرحلة الناجحة.

(وسنرى فيما بعد آثار ذلك الألم فى الصراع بين الخديو وكتشنر)

سفر الخديو لأوربا: وفى يوم ٢٠ مايو استقل سمو الخديو أحد الزوارق الخديوية إلى يخت المحروسة، قاصداً الضولمان فأوربا. وكان فى معيته حسن خالد بك

مدير القلم التركى ، وحسن حلمى بك التشريفاتى ، والبكباشى ارفاى الياور ، والصاغ حسن حسنى شفيق الياور ، وغيرهم ؛ وقد وكل عطوفة حسين رشدى باشا ناظر النظار فى مدة غيابه وهاك نص التوكيل .

صورة الأمر الكريم الصادر لعطوفة رشدى باشا بتولى شؤون القائمقامية الخديوية أثناء غيبة سموه : « رئيس مجلس النظار عطوفتلو حسين رشدى باشا : قد عزمنا بالمشيئة الربانية على السفر خارج القطر ، ولتمام ثقتنا بكم ، وكمال اعتمادنا عليكم ، قد جعلناكم نائبا عنا ، وقائما مقامنا مدة غيابنا ، للنظر فى أشغال حكومتنا ، وإصدار ما يلزم من الأوامر عنها ، بما هو معهود فيكم من الروية والدراية . فاذا احتجتم للسفر خارج القطر يكون النظر فى أشغال حكومتنا مدة غيابكم بمعرفة حضرات الباقين من زملائكم مجتمعين بهيئة مجلس نظار ، كما هو المعهود لدينا فيهم من حسن الخبرة بالأعمال ، وما يقررونه تصدر به الأوامر ، تحت إمضاء أقدمهم .

وقد أصدرنا أمرنا هذا لعطوفتكم للعلم به والعمل بموجبه .

والله تعالى ولى التوفيق »

تحريراً بالاسكندرية فى ٢٥ جمادى الثانية ١٣٣٢ عباس حلمى

٢٠ مايو ١٩١٤

تكريم واصف بطرس غالى . كانت لى مع المرحوم بطرس غالى باشا والد الأستاذ واصف غالى صلات ودية وثيقة ، وكانت الثقة بيننا متبادلة ، وزياراتى له متوالية ، وكانت تدور بيننا الأحاديث فى شتى الأمور السياسية والخصوصية ، كما كنا نجتمع بالخديو للتشاور فى المسائل الهامة والمواقف الحرجة . فيتوصل بطرس باشا بعقله الراجح إلى حلول صائبة مرضية ؛ فكنت أسميه « حلال المشكلات ! » .

وقد بلغ من ثقته بى أن كان يفوض لى تدبير كثير من شئونه الاقتصادية ، ويطلق يدى فى شراء الصفقات التى أراها رابحة ؛ وكان يستفيد بالفعل منها ، حتى لقد أطلق علىّ نجله الأكبر نجيب غالى باشا لقب « مستشار والده المالى ! » .

وفى ذات يوم زرت بطرس باشا فوجدته مشغول البال ، فسألته عما يشغل خاطره ، فعلمت أنه غير مستريح لحالة ابنه واصف ، لرغبته عن إدارة أملاكه الزراعية فى ببا ؛ وسألنى : « هل من بعد أن صار رجلا ، يجوز ألا يقوم بعمل نافع لأسرته ؟ »

فاجبته بأنه معذور لعدم إلمامه بالزراعة ، وإننى أرجو أن يكون قريباً ذلك اليوم الذى تستفيد البلاد من مواهبه الأخرى .

وفى اليوم التالى لهذه المحادثة ، تقابلت مع الخديو ، ونقلت له فحواها ؛ وبعد المداولة ، تقرر تعيينه فى وظيفة بقسم قضايا الخاصة الخديوية ؛ فأسرعت بابلاغ هذا الخبر لوالده .

لمحة عن الأستاذ واصف بطرس غالى : والأستاذ واصف أتم دراسته العالية فى باريس ؛ وتخرج فى كليـة الحقوق ، ودرس الأدب الفرنسى ، ونبغ فيه كما نبغ فى الأدب العربى .

وقد اطلعت على مقال طريف له بالفرنسية ، نشره بتوقيع « ميمون » بتاريخ ٩ مارس سنة ١٩٠٨ فى جريدة « جرنال دوكير » نعربه للقارىء ليرى مقدرته البيانية ، وخياله الخصب :

الأزمة النظارية

تتناقل الاشاعات فى هذه الأيام ، وجود أزمة نظارية . وقد سبق أن راجت مثل هذه الاشاعة ، عندما غادر كرومر مصر ، غير أن الأزمة لم تقع ؛ فهل الاشاعة الرائجة الآن لها أساس من الصحة ؟ هذا هو الأمر الذى ألجأنا إلى الاستفهام عنه من النظار أنفسهم .

والحق يقال إن مقابلتهم كانت فى غاية اللطف ، لدرجة أننا تساءلنا : « هل يمكن أن يكون الناظر المصرى فى هذا اللطف ؟ إلا حينما يستقيل !! »

وإليك المحادثات التى دارت فى المقابلات السبع ، ننقلها بغاية الدقة :

قال الرئيس « مصطفى فهمى باشا » : « أنا لا أحب الصحفيين ، وخصوصاً المعارضين منهم ، ولكن بما أن سؤالكم يهم البلاد ، فأنا أجيبك باختصار : « طبيبى أوصانى بمعيشة منظمة ، بعيدة عن الانفعالات النفسانية ؛ وكل من كان فى سنى ، يكون قد تعود بعادات خاصة ، يصعب عليه تركها ؛ فلماذا تريد أن أخاطر بصحتى ، عندما أترك النظارة ؟ إذن فاننى سأستمر فيها ، لأسباب صحية ! »

وأجاب « عبانى باشا » مقطباً حاجبيه ، ومبرماً شاربيه : « هل يجوز لك أن تلقى هذا السؤال على ناظر الحربيـة والبحرية ؟ ألا تعلم أننى جندى ، ولا يسمح للجندى

أن يترك مركزه ، إلا بأمر عال ؟ ، وإذن فانا لا أتزحزح عن مكانى ، وهذا بناء على الأوامر العسكرية ! »

وقال لى « سعد باشا » مؤكداً بهدوء : « إن هذا السؤال ، فيما يخصنى ، لا محل له ؛ فكيف تريد أن أترك منصبى هذا ، وأنا لم أتسلمه إلا منذ قليل ؟ ألا يكون هذا منافياً للأدب ، ومغايراً للياقة والتقاليد ؟ ثم إننى هنا للفن ، أعنى فن الخطابة ؛ وبلاغتى تتقدم فى اليوم الذى أكون فيه ناظراً ؛ فأنا أستقيل ، إذا أسندت إلى رياسة مجلس النظار ! »

وأما « نخرى باشا » ناظر الأشغال ، فقال : « إن أمامنا مشروعات كثيرة ، فيجب علينا تعلية خزان أسوان ، وتقوية كوبرى الروضة ، وافتتاح كوبرى بولاق الجديد ، فمشاغلى لا تترك لى وقتاً للتفكير فى الاستقالة . »

وانفعل « مظلوم باشا » قائلا : « تكفينا أزمة واحدة (أى الأزمة المالية) فلا تبحثوا عما يزيد الحالة سوءاً أيها الصحفيون ! ونحن لا يخطر على بالنا مطلقاً تقديم حسابنا ؛ بل بالعكس سنحافظ على مراكزنا ؛ وبالجملة فأنا لا أرى سبباً يدعو لاستقالتى ! »

وأجاب « ابراهيم فؤاد باشا » (ناظر الحقانية) بهدوء : « أنا أستقيل إذا كان ذلك مقدراً علىّ ، فان ما نقرره فى المسائل الخطيرة أو الصغيرة ، إنما هو بمشيئة الله ؛ فهو وحده الذى يعلم لماذا أصبحت ناظراً ، وهو وحده يعلم متى أترك النظارة ! »

وسألنى « بطرس غالى باشا » عما إذا كنت صحفياً ، ثم قال : « لما ألقيت علىّ سؤالك ظننت أنك شاعر ! أنا أحب الشعراء كثيراً ، فهم من أظرف المجانين ، ولهم خيالات عجيبة . فما الذى تريد معرفته ؟ أأستقيل أم لا أستقيل ؟ ألا يلوح لك أن هذا يشبه المناجاة المشهورة فى رواية « هملت » ؟ ! أظن أنك من منشئ الروايات ! » وهنا انقطع الحديث لزيارة قنصل جنرال إحدى الدول العظمى ؛ وعلى ذلك لم أتمكن من الحصول على الجواب القاطع لسؤالى .

وكان من حظى عند خروجى من غرفة الناظر ، أن تقابلت مع مدير أقلام الخارجية نجيب غالى بك ، الخفيف الروح ؛ فأخبرته بمهمتى . فقال لى : « والدى لا يستقيل ؛ وقد استقال مراراً بدون نتيجة . ثم إنى أسألك : ومنذا يخلفه يا ترى ؟ . . . أنا ؟ قد يكون ذلك ، ولكنهم يجدوننى صغير السن ! صغيراً جداً ؛ فعليك يا صحفى أن تكرر على مسامعهم ذكرى قواد الثورة الفرنسية ، صغيرى السن : فتقدم لى خدمة جليلة ! »

تكريم الأستاذ واصف غالى : وقد فكر جماعة من كبار الأدباء المصريين فى تكريمه، لتأليفه كتاباً عن الشعر العربى باللغة الفرنسية،اسمه «حديقة الأزهار» ، فأقاموا حفلة لذلك فى مساء يوم ٤ يونيو سنة ١٩١٤ فى فندق شبرد ، تحت رعاية سمو الخديو ، الذى أناب عنه عثمان مرتضى باشا ؛ وكانت الحفلة برياسة اسماعيل صبرى باشا .



واصف بطرس غالى بك

وحضر هذه الحفلة : عبدالخالق ثروت باشا ناظر الحقانية ، ويوسف وهبه باشا ناظر المالية ، وعدلى يكن باشا ناظر الخارجية ، واسماعيل صدقى باشا ناظر الزراعة ، وصاحب هذه المذكرات ، وبعض وكلاء النظارات ، والنظار السابقين ، والنائب العام . ومحافظ القاهرة ، وبعض مستشارى الاستئناف ، ورجال القضاء والأدب والصحافة؛ وبلغ عدد المحتفلين مائة وسبعة

وقد ألقيت فى الحفلة قصائد من الرئيس ، واحمد شوقى بك، وحافظ ابراهيم بك واحمد افندى نسيم ، ثم ألقيت بعد ذلك عدة خطب كلها ثناء على المحتفل به ، واعتراف بنبوغه ؛ وأخيراً قام الأستاذ «ويصا واصف» فألقى كلمة جاء فيها :

«قرأت ما كتبه حضرة واصف بك، وما فاه به فى محاضراته التى ألقاها فى باريس ، فأعجبت كل الاعجاب بما كتبه ، ونطق به . كتب ما كتبه كشاعر ليحبب من يقرأ كتابه فى الشعر العربى ، فاستعمل لغة الشعراء ، حتى لقد يخيل إلى القارىء أنه يقرأ شعراً لا نثراً . وفى الحقيقة أن واصف بك ولد شاعراً ؛ فغرامه بالشعر العربى (سيد الشعر) — كما يقول — هو غرام فطرى ، عبر عنه بلغة هى لغة الآلهة ، كما يقول القدماء . »

ثم وصف بيانه لمحاسن الشعر العربى . وأحكامه الصائبة فيه . إلى أن قال :

«أيها الصديق : ظهرت فى عالم الأدب فكتبت وخطبت ، فأصبحنا بعد قراءة

ما كتبته نتظر إلى الشعر العربى نظر المجنون إلى ليلى ؛ ولكننا ننتظر منك أكثر من ذلك ؛ فاننا أصبحنا فى القرن العشرين ، ميالين للبحث والتنقيب ، والانتقاد والتحليل ، حتى فى الآداب .

« قلت : إن العرب لم يضعوا شيئاً فى أشعارهم من الروايات القصصية والتمثيلية ، على أنى لما كنت معك فى فرسايل ، تكلمنا فى أن هذين النوعين من الشعر موجودان فى جميع الآداب ، التى يتخذها الافرنج أساساً لتربية أولادهم ، فيلقنونهم — كما لقنونا — أشعار « هوميروس » وأناشيد « رولان » وروايات « شكسبير » . فقراءة كتاباتك أوجدت عندى بعض الأسف ؛ لأنى بما أشربته من الميل لمعرفة علل الحوادث ، تمنيت لو أنك جدت علينا بفضل ما أوتيته من وافر الفصاحة ، بتبيان سبب خلو آداب اللغة العربية من هذين النوعين ، رغماً عما بلغته من رفيع المنزلة بين بلاغات الأمم .

« فاذا فعلت ذلك ، تكون قد أفدت العلم فائدة عظيمة ؛ وأنت أجدر من يعنى بهذا البحث ، بما تؤهلك له تربيتك ، ومعارفك . . . »

وداع المجمع العلمى لماسبرو . خدم العالم الجليل مسيو ماسبرو الآثار المصرية والتاريخ المصرى القديم أجل خدمة ببحوثه القيمة ، وكان مديراً للآثار المصرية . وبمناسبة تركه الخدمة فى إدارة دار الآثار المصرية ، وعزمه على العودة لفرنسا ، أقام له المجمع العلمى المصرى الذى كان رئيساً شرفياً له ، مساء يوم ١١ يونيو ، حفلة وداع ؛ وقد رأس هذه الحفلة سرى باشا ناظر الأشغال ، نائباً عن القائمقام الخديوى رشدى باشا ؛ وكان فى مقدمة الحاضرين أحمد زكى باشا ، وعلوى باشا ، وهرس باشا ، وبيو بك ، وعلى كمال بك ، وعلى بهجت بك ، والدكتور باى ، وغيرهم من الفضلاء والأدباء والعلماء .

الجامعة المصرية تكرم ماسبرو : وفى ٢ يوليو ، أقامت الجامعة المصرية مأدبة لتكريمه بفندق الكونتنتال فى منتصف الساعة التاسعة مساء ، وكان عضواً عاملا بمجلس إدارة الجامعة .

وقد حضر الحفلة دولة البرنس احمد فؤاد باشا ، رئيس شرف الجامعة ، ومن مجلس الادارة : أنا كوكيل للجامعة ونائباً عن رشدى باشا رئيسها ، والدكتور محمد علوى باشا المراقب العام ، واسماعيل حسانين باشا ، ومرقص حنا بك ، وعلى بهجت بك ؛

ومن الأساتذة : اسماعيل رأفت بك عميد قسم الآداب ، والشيخ محمد الخضرى ، والشيخ محمد المهدى ، ومحمود فهمى افندى ، ومحمد صادق افندى .

وبعد تناول الحلوى ألقى البرنس فؤاد خطاباً رقيقاً ، هذا نصه :

« سيدى العزيز ماسبرو

« ما علمت مصر بنبأ رحيلكم عنها ، حتى لبست لذلك النبأ ثياب الأسف ، مظهرة للعالم بأسره مقدار حبها لكم ، واحترامها لشخصكم ، وإعجابها بجميل صنعكم ؛ فلئن كنت فى هذه العجالة لا أستطيع أن أعرب لكم باسم الجامعة المصرية عما نحن مدينون لكم به من الفضل الذى لا ينكر ؛ فلا يسعنى إلا أن أرجو أن تسمحوا لى أن أقول لكم كلمة باسمى ، وبالنيابة عنها ؛ وهى أننا جميعاً نشكركم ، ونكرر الشكر لكم . »

وبعد ذلك وقفت ، فتلوت الرسائل البرقية والاعتذارات الواردة من حسين رشدى باشا القائمقام الخديوى ورئيس الجامعة ، وعبد الخالق ثروت باشا ناظر الحقانية ، واسماعيل صدقى باشا ناظر الزراعة ؛ والرسائل البريدية الواردة من عبد الله وهبى باشا ، وحسين رمزى افندى ، وغيرهما من الأعضاء والأساتذة ؛ ثم ألقيت الكلمة الآتية :



احمد شفيق باشا (رسمى)

« سيدى وزميلى العزيز

« إنى مكلف من قبل مجلس إدارة الجامعة وأساتذتها من جهة ؛ وملزم بواجبى الشخصى من جهة أخرى ، باهدائكم أجل شكرنا ، وعظيم احترامنا ، ومزيد أسفنا لفراقكم .

« لقد كان فى اشتراككم معنا بعواطفكم الكريمة ، ونظركم الثاقب ، أجل فخر لجامعتنا ؛ إذ كنتم خير نبراس نهتدى به إذا أشكل الأمر ، والتبست علينا السبيل ؛ فكان لنا منكم عضد قوى ، نستعين به على نجح عملنا . وخير مساعد لرفع شأن مشروعنا .

« ألم تكفكم ألقاب الشرف الخالدة التى نلتموها بكنوزكم التى لا تقدر بثمن ، والتى دنتم بها العلوم والآداب ، حتى وكلت إليكم مشاعركم واجب القيام بأمر آخر هو عنوان الفخر والجلال ؟

« أيها المنفذ لوصاة الفراعنة : ألم يكفك أن تنقل إلى وراثهم من بعدهم متاع آبائهم وأجدادهم ، حتى أردت أن يكونوا على علم بقيمة هذه الوصاة . فدأبت على تعليمهم حتى عرفت ناشئتنا ورجال المستقبل بيننا ، أن العلم والعمل هما اللذان يجعلانهم خليقين بفخر أجدادهم ؟

« إن الشواهد الكثيرة تنطق بأن حبكم لمصر كان عظيما ، وسيظل كذلك فى المستقبل ، بعد أن اتخذتموها لكم وطناً ثانياً ؛ فثقوا بشدة أسف إخوانكم فى مصر ، لرحيلكم عنها . وما كان يدور بخلدنا أن يفجأنا الزمان بذلك اليوم الذى ترحلون فيه عنا ؛ وتتركون أفئدتنا بعدكم تهفو فى إثركم لوعة وشجنا .

« هل يعلم الراحل ما يجول بخاطرى الآن ؟ إنى أتصور (بخيالى) أنكم لستم بذلك الفتى الشاب الذى نراه بأعيننا ، بعد أن تعودنا أن نرجع باسمه إلى هاتيك القرون الخالية ، فتمتزج ذكراه بهذه الآثار المدهشة ، والعاديات العتيقة ، التى اندمج اسمكم بها ، حتى كان جزءا منها ، والتى خصتها (الآلهة) بشباب لا يذوى ولا يذبل ؛ فيا لأسف العلماء من (علمهم) ، هؤلاء الذين لا يملكون حق التصرف فى أنفسهم ؛ ويا ليتنا نستطيع أن نخلصكم من قبضة النبوغ التى استسلمتم فى العلم إليها ، حتى يبقى لدينا ذلك الرجل الوديع الذى عرفناه فى شخصكم ؛ والذى ملك القلوب بفصاحة لسانه ، وبليغ كلامه ، ورقيق حديثه ، وسمو أخلاقه .

ونحن لا نظن أن رحيلكم عن مصر يوهن صلاتك بها ، أو يقلل من ذكراك على ألسنتها ؛ إذ استقرت أصول غرسك وجذوره ، حتى لا خوف على ذكراك بيننا من أثر فراقك ؛ فلا عجب إذا أسسنا آمالنا على ما لدينا من الحقائق ، فنرى المصريين يؤمونك فى فرنسا للاستفادة من علمك ، والاهتداء بنور بحثك ، والتمتع فى جوارك بالتأهيل والترحيب ، اللذين كنتم تقابلوننا بهما فى مصر — فالجامعة المصرية التى تزدهى

وتفخر بك كلما ذكر اسمك ، ترجو أن يكون حظها فى بعدك كما كان حظها فى قربك ، من العناية بأمرها ، وتشجيعها فى طريقها ، وعدم حرمانها نصائحك الثمينة ، وإرشادك الذى لا غنى لها عنه ؛ والجامعة التى تعترف لك بجليل فضلك ، تعاهد الله على تسبيحها بجميل صنعك ، وترجوك الآن أن تقبلوا منها لقب « عضو شرف ومستشار لها » ؛ هذا ما قرره مجلس إدارتها باجماع الأصوات ؛ وإنا لنرجو لكم من الله فوق ذلك أن يمتعكم بالصحة والعافية ، ويسبل عليكم ثياب السعادة والسؤدد . »

ثم قام بعد ذلك علوى باشا وأهدى لماسبرو مجموعة صور للأعضاء فى مجلد ثمين ، كتبت عليه هذه العبارة باللغة العربية والهيروغليفية والفرنسية : « شكر الجامعة المصرية للسير جاستون ماسبرو » .

ثم قام على أثرهم السير جاستون فشكر للمحتفلين به جميل عواطفهم .

مبيع سكة حديد مريوط . أنشأ الخديو سكة حديد مريوط لاصلاح أراضيه الزراعية بغرب الاسكندرية ، وقدمت له مصلحة السكة الحديد بعض ما عندها من الأدوات المستعملة اللازمة لهذه السكة بثمن قليل ، وكذلك أرسلت له نظارة الداخلية جماعة من المحكوم عليهم بالسجن ليساعدوه فى مدها . وقد روى لى بروستر بك أن الانجليز تركوا للخديو هذه السكة كأعوبة ليلهو بها عن مناوأتهم ؛ وفضلا عن ذلك كان الخديو يشغل رجال الحرس فيها .

وفى أوائل سنة ١٩١٣ ، أى بعد عقد الصلح بين الأتراك والطليانيين بثلاثة شهور ، وفى أثناء استمرار القتال فى طرابلس والبلقان ، أشيع أن الخديو باع سكة حديد مريوط إلى بنك درسدن الألمانى ؛ فاهتم الانجليز لهذا الخبر ولكن ظهر فيما بعد أن هذا غير صحيح . والحقيقة كما علمت من صديقى منصور شكور باشا أن الخديو كلفه بالبحث عن شركة انجليزية لمشترى هذه السكة الحديدية ، وأنه وجد فعلا بعض الماليين لمشتراها . غير أنه وجد منافساً كبيراً ، وهو بنك إيطالى ؛ وبعد تردد أمضى الخديو عقد البيع مع البنك المذكور ، ورخص له بأن يمد هذا الخط لغاية حدود طرابلس فى السلوم . فذهب اللورد كتشنر فى الحال إلى السراى ، وأبلغ الخديو بأن سموه قد وضع نفسه فى مركز حرج ؛ إذ أنه باع أرضاً ليست ملكا له ، وأنه لذلك يكون مسئولا شخصياً أمام الحكومة المصرية صاحبة هذه الأرض ؛ فخاف الخديو من العاقبة ، ووعد بالغاء عقد البيع ، وطلب مبيع هذه السكة للحكومة ؛ فرفض اللورد

أولا ؛ ولكن سموه وسط محمد سعيد باشا لاقناع اللورد باجابة طلب سموه ، واعداً بتحسين سيره فى المستقبل . فوافق اللورد على المشترى ، وتمت الصفقة فى ٥ مارس سنة ١٩١٣ بتسليم الحكومة السكة ، وقبضت الخاصة الخديوية ثمنها من الحكومة . وقدره ٣٩٠ ألف جنيه ، بحساب الكيلو متر ثمانمائة جنيه

ولما علم كتشنر بأن الوسيط فى هذه الصفقة كان هو يوسف صديق باشا رئيس الديوان الخديوى ، عزم على نفيه من مصر . فلما بلغ الباشا ذلك الحكم القاسى ، وكان يعلم أن احمد جودت بك صديق لكتشنر ، رجاه أن يتوسط فى هذه المسألة لدى اللورد لكى يحصل على وعد بعدم تنفيذ هذا الحكم . فقبل البك وزار اللورد وتكلم معه فى هذا الموضوع ، فألقى اللورد نظرة استغراب على وجهه وقال : « كيف تطلب منى ذلك وأنت تعلم يا جودت بك أنه رجل « بطال » — مع علمه بأنه فى مركز رسمى عال . ولا يجوز له أن يتدخل فى مسألة يعلم جيداً أنها ضارة ببلده ؟ » فأجابه جودت بك . « هل هو فقط الرجل « البطال » فى مصر ؟ فان كان الغرض تنظيفها من الأشخاص البطالين، فهم كثيرون ، فاعمل » عندها تبسم اللورد ووعده خيراً .

وكان قد بلغ الخديو من دومرتينو باشا عزم كتشنر، فأسرع فى فصله من رياسة الديوان الخديوى ، وعينه ناظراً لخاصته ، وأعطاه أجازة يقضيها فى أوربا ، ثم يقابله فى باريس .

تهديدات كتشنر بعزل الخديو . كل مصرى يذكر ولا ينسى أن الخصام بين اللورد كتشنر والخديو لم يكن ابن يومه ؛ بل كان قديماً ، بدأ فى سنة ١٨٩٤ عندما استعرض عباس جيشه ولاحظ على بعضه ملاحظات تقبلها اللورد بشىء من الامتعاض.

ومنعا للطوارىء الفجائية ، طلب كتشنر من الحكومة تخصيص مبلغ كبير لبناء الثكنات والحصون فى الثغور المصرية ، فعارض الخديو فى ذلك بحجة أن الفرمانات العثمانية لا تبيح لها ذلك بدون الرجوع إلى الباب العالى ، فأضمر اللورد للخديو العداء .

ولما سمع بأن الخديو باع سكة حديد مريوط هدده وأحرج مركزه واضطره أن يعدل عن بيعها لايطاليا ، ثم باعها للحكومة المصرية ، كما مر ذكره .

كتشنر يعرض عرش مصر على سعيد حليم : ثانياً لما أراد اللورد جعل ديوان الأوقاف العمومية نظارة ، عارض الخديو فى ذلك أيضاً ، فغضب اللورد عليه وأرسل

عماد الدين وهبي بك وكيل دائرة سمو الأمير سعيد حليم باشا للاستانة ، ليتفاهم مع الأمير على خلع عباس وتوليته خديوية مصر . ولكن سمو الأمير امتنع ورفض ؛ لأن مركزه فى الدولة مركز هام ، وأنه يمكنه أن يخدم مصر وهو صدر أعظم أكثر مما لو كان خديوياً لها .

ومن هذا اليوم أيقن الخديو بنوايا كتشنر نحوه ، وأخذ حذره منه . وأصبح يفكر فى التنازل عن العرش .

تفكير عباس فى التنازل عن العرش . كنت أعلم أنه لما اشتد الخلاف بين رجال الحكومة الانجليزية بمصر وبين الخديو ، لم يستطع صبراً على ذلك ، وأراد أن يتخلص من عداوتهم وجفائهم له ، وخصوصاً بعد تهديدات كتشنر المتوالية ؛ ففكر أن يتخلص من هذه المصاعب .

وعند وجودى مرة معه فى عربة السبت الخصوصية ، التى كان يقودها بنفسه للفسحة فى ضواحى القبة ، بعد انقطاع حديث عادى بيننا ، وصمت من سموه ، وسؤالى عما يجول بخاطره ، قال :

« كنت أشعر فى أوائل توليتى الحكم وما لاقيته من الصعاب فى سياستى التى كانت ترمى إلى إنقاذ بلادى من نير الغاصب . أن مدى حكمى قد لا يزيد عن حكم جدى اسماعيل ؛ غير أن حكمى لا يزال إلى هذا اليوم ، وزادت متاعبى ، وإنى أفكر فى كيف أتخلص منها . »

فلا عجب إذن أنه كان يفكر فى اعتزال الحكم بالتنازل عن عرشه لولى عهده بطريقة لا تضر بكرامته ؛ لذلك أرسل فاستدعى الدكتور فارس نمر صاحب المقطم ، وتكلم معه على الطريقة التى يجب عملها ، تفادياً من المصادمة والمناوأة بينه وبين المعتمدين البريطانيين بمصر ، بعد أن لحقه كثير من الاهانات .

ولما كان يعتقده الخديو من محبة الانجليز لفارس نمر ، فقد أراد أن ينتدبه للقيام لدى رجال الانجليز بالسعى لمساعدته فى التنازل عن العرش لولى عهده ، وتوليته إمارة سوريا . ولأهمية هذا الموضوع أثبتنا ما جاء فى المقطم ملخصاً فى سنة ١٩٢٧ :

« لما مثل الدكتور فارس نمر بين يدى الخديو وكاشفه برغبته ، وكلفه بأن يقوم بدور الوسيط فى تلك المهمة ، اعتذر أولا ؛ ولكن سموه لم يقبل عذراً من أعذاره ، بل

كان يدفعها بتأكيد اقتناعه بكفاءة الدكتور واقتداره . ولما رأى الدكتور أن سموه سد عليه أبواب الاعتذار، وينتظر مساعدته ، قال له بالصراحة : « ما الفائدة من تكلمنا مع ولاة الأمور بلندره ، وسموكم أدرى منا أن الحكومة البريطانية تعتمد كل الاعتماد على وكيلها هنا : فترى بعينيه ، وتسمع بأذنيه ، ولا تجزم فى أمر إلا بعد ما تطلعه عليه ، وتأخذ رأيه فيه ؟ فما دمتم سموكم مصرين على رأيكم ، فالواجب قبل كل شىء مفاوضة اللورد كتشنر فى ذلك ؛ وإلا فمن المحال أن ننجح فيه ، وخصوصاً ما دام المعتمد هو اللورد كتشنر معبود أمته . » فرفع سموه يديه وقال« البرق والرعد! البرق والرعد! صدقتم فليس لقوله مرد » ثم كلفه أن يقابل اللورد كتشنر ، ويعرض المسألة عليه ، ويسمع رأيه فيها

فتوجه الدكتور فارس نمر إلى الوكالة البريطانية ، وطلب من جناب سكرتيره حينئذ السر رجينلد ستورس أن يسأله تعيين ميعاد لمقابلته ؛ وفى الميعاد المعين قابله وقال له :

« قد جئنا لنكلم فخامتكم عن الجناب الخديوى،بعد ما شاع وذاع عن اشتداد الجفاء بينه وبينكم» . فقال اللورد : « وما هو الكلام الذى عندكم ؟ » فرد الدكتور قائلا : « إن البلاد عموماً ، ورجال الحكومة خصوصاً ، يشكون شكوى دائمة من هذا الخلاف الذى طال فيه الجذب والدفع بين الخديو الحالى ومعتمدى الدولة البريطانية الثلاثة : اللورد كرومر وسير الدن غورست وفخامتكم ، من حين حادثة الحدود إلى هذا اليوم . والظاهر أن سمو الخديو مل الصبر على هذه الحال ، ورأى أن لا راحة له ولا لشعبه باستمرارها ، فصمم على التنازل عن العرش ، وخصوصاً بعد الذى حدث أخيراً ، وبعد الكلام المر الذى سمعه بسبب سكة حديد مريوط . » ثم قص عليه أيضاً ما سمعه من سموه ، وكل الكلام الذى جرى له معه. فهز اللورد رأسه كمن لا يزال يرتاب فى إمكان ذلك ، فقال له الدكتور : « ولماذا تبقى فى ريب ما دام الوصول إلى الحقيقة سهلا ؟ فالأمر لا يحتاج إلى أكثر من مقابلتكم لسموه ، وسؤاله عن كل ما نقلناه إليكم . واحكموا بعد ذلك بنفسكم لنفسكم . » فقال اللورد : « نعم ولكنى أنا لا أفعل ذلك ولا أريد أن تكون لى علاقة بهذه المسألة . »

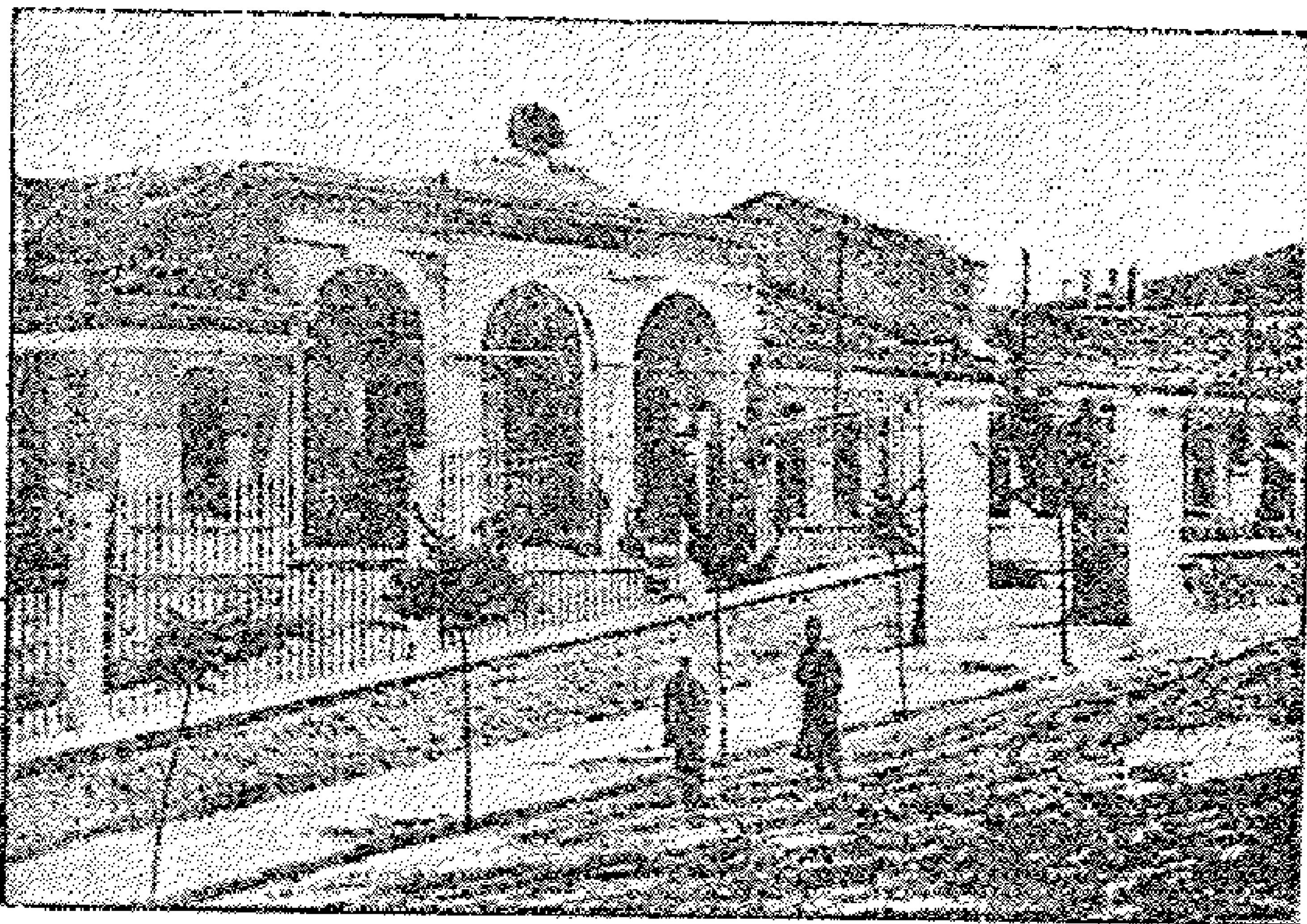
وفى غد ذلك اليوم تشرف الدكتور فارس نمر بمقابلة الخديو فى سراى القبة ، وأخبره بما سمعه من اللورد كتشنر ، فقال إذن تحال المسألة إلى لندرة ، وطلب منه السفر إلى انجلترا .

وفى منتصف شهر يوليو وصل الدكتور إلى لندرة ، وقابل أحد معارفه المتصل بالمستر سلبي سكرتير وزير خارجية انجلترا ، وطلب منه شرح الحالة السيئة القائمة بين عباس والمحتلين ، وأنه يريد مقابلة ناظر الخارجية لايجاد حل لهذه الحالة . ولما علم المستر سلبي بفكرة عباس فى التخلى عن عرش مصر . قال : « لو أن الخديو تنازل لولى عهده من تلقاء نفسه ، فيقينه هو أن انجلترا لا تتأخر عن فعل المستطاع للحصول على ذلك . » وقد تواعد الوسيط والمستر سلبي على أن يتقابلا مرة أخرى .

ولما التقى جناب المستر سلبي بالوسيط فى اليوم التالى، أفهمه أن مسألة الخديو التى تكلما عنها بالأمس وقعت موقع الاهتمام عند ولاة الأمور ، وأنهم يحبون أن يعلموا من الدكتور كل ما يعلمه عن هذه المسألة ، وطلب منه أن يكتب مذكرة مفصلة بها لكى ينظروا فيها ، ويروا إن كان الحل الذى يقترحه ممكن التنفيذ . على ذلك أسرع الدكتور فارس نمر بكتابة المذكرة ، وشرح فيها ماسمعه من الجناب العالى ، وأنه إذا كانت وزارة الخارجية البريطانية تريد أن تتحقق ذلك ، ففى الامكان أن تسمعه من فم الخديو نفسه .

وقد أوفد الخديو أيضاً يوسف صديق باشا إلى لندرة لعمل المساعى لمقابلة عباس للملك ، فلم يفلح . وفى هذا الوقت أعلنت الحرب الكبرى . وبذلك انقطع الأمل فى مقابلة اللورد جراى وتسوية المسألة .

حادثة الاعتداء على حياة الخديو وشعور المصريين نحوها . فى يوم ١٦ يوليو وردت البرقيات من الاستانة باعتداء أحد المصريين المقيمين بها باطلاق الرصاص على الجناب الخديوى، عند خروجه من زيارة الصدر فى الباب العالى . فكان لهذا النبأ المزعج أثر أليم ، وتلقته الأمة المصرية بقلب خافق مروع وغضب شديد . فان وقعه كان عظيما : فقد بلغ عدد التلغرافات التى وردت على عطوفة رئيس النظار من جميع أنحاء القطر ، معربة عن أسف الأمة ، واستنكارها لتلك الجريمة وإظهار عواطف



الباب العالي

ولائها وإخلاصها لمليكها خمسة آلاف تلغراف .

وقد أقيمت فى جميع مساجد وكنائس القطر الصلوات لله والدعوات بأن ـ ن" بالشفاء العاجل على سموه .

وقد سافر وفد من الجمعية التشريعية للاستانة ، كما سافر أيضاً كثير من أعيان مصر وعلمائها وكبار موظفيها العرض ولائهم على الخديو ، والاعراب عن مسرتهم بنجاته .

شعور الأجانب بمصر : ولم يكد ينشر خبر وقوع الاعتداء على سمو الخديو حتى توافد إلى سراى الحكومة فى بولكلى معتمدو الدول وقناصلها الجنرالية ، فزاروا سعادة عدلى يكن باشا ، مظهرين الأسف لوقوع الحادث ، ومتمنين لسموه الشفاء .

شعور المصريين الموجودين بأوربا : لما نقلت التلغرافات خبر الاعتداء فى جميع أنحاء الدول ، وشاع ذكر هذه الحادثة الشنيعة ، ظهرت علامات الحزن على كل المصريين فى أوربا ، وعلى كل من له علاقة بمصر ، ولا سيما المصريين الذين كانوا بسويسرة (جنيف) وكانوا يتشوقون لمعرفة تفصيل الحادثة ونتيجتها .

وقد علمنا فيما بعد من رسالة بامضاء محمد أمين بهجت بجنيف ، أن المصريين بها عندما وردت التلغرافات العمومية بالاعتداء على حياة الخديو ، ظهرت علامات الأسف الشديد عليهم ، وعمهم الحزن ، وأبدوا السخط على كل من له علاقة أو يد فى هذه المؤامرة الدنيئة ؛ وكان من بينهم محمود بسيونى بك المحامى ، وعبد الرحمن عزت القاضى بك ، وعزيز جريس بك ، وسعادة عمر سلطان باشا ، وسعادة مصطفى ماهر باشا ؛ وكان أغلبهم هجروا الجلوس بالقهاوى والمتنزهات التى يغشاها فريد بك ومنصور رفعت فراراً منهما ، وخصوصاً من الأخير ، لنشره نشرات ذميمة بها طعن شديد على الخديو .

وأخيراً قر الرأى على إرسال البرقية الآتية ممضاة من محمد فريد بك للخديو :

« نظهر أسفنا لما حصل لسموكم من المؤامرة التى كانت مدبرة ضدكم ، ونتمنى لكم طول العمر . »

الحـــرب العظمى

* المخابرات الرسمية بين الخديو بالاستانة وقائمقامه بمصر

* الانجليز يمنعون عباس من العودة لبلاده . * ماذا فعلت الحكومة لدرء الطوارىء . مطالب الانجليز من مصر بعد اعلانهم الحرب . * اشترائى مهمة خطيرة لدى عباس . * تبشير عباس للمصريين بشفائه . * وفاة مصطفى فهمى باشا . * الحاح الانجليز بترك عباس للاستانة والاقامة فى ايطاليا . قطع علائقه بالانجليز . * تابع المخابرات الرسمية والحوادث . * منع الحج ومنع التضحية والاكتتاب للصليب الأحمر جبراً . زيارة عباس لشكر الخليفة والعائلة السلطانية والسفراء . عباس والصدر والحزب الوطنى . الاتفاق الثلاثى بين ألمانيا وتركيا وعباس . الحملة التركية على مصر . منشور الخديو لرعاياه مصريين وسودانيين . تحديد مهمة الحملة . عود الى الحملة . طلب الاتحاديين اعانات مالية من عباس . تركية تعلن الحرب على الروسيا وانجلترا وفرنسا . البعثات الخديوية للحاق بالحملة التركية . شعور الخديو فى ظروف مختلفة . قلق ايطاليا من الحملة التركية والتأمينات واشتداد القلق لاعلان الجهاد . كيف تخابر عباس مع مصر بعد دخول تركية الحرب ومع المنفيين فى مالطة . عرش

(*) لم يمض على حادث الاعتداء على الخديو أكثر من أسبوعين حتى أعلنت الحرب العظمى ، وقد دارت بين سموه وقائمقامه مخابرات رسمية بالبرق والمراسلات فى موضوعات ميزناها بنجوم ، أضفت إليها ما علمته من مداولات الخديو مع رجال الحكومة التركية وسواهم . وسيرى القارىء ذلك فيما بعد .

مصريين عباس وعز الدين وسعيد حليم . مهمتى السياسية فى ايطاليا ومحادثات هامة ومقابلتى مع الملك وما دار بيننا من الحديث ومحادثات أخرى مع المصريين وغيرهم . المساعى لخروج الخديو من الاستانة واقامته فى فينا . حديث عباس بفينا مع جرجيارس عن حادثة الاعتداء . رأى عباس فى حل مسألة السودان . كيف استقبل عباس خبر عزله وتولية السلطان حسين . فاول عباس بعد الانقلاب فى مصر . الحفاوة بالخديو فى فينا . كلمة ختامية . شئون مختلفة .

الانجليز يمنعون عباس من العودة لبلاده . ٭ أرسل عثمان مرتضى باشا برقيـة فى ٣ أغسطس لرشدى يقول فيها : إن الخديو سـيرجع قريباً إلى مصر على المحروسة ؛ وبما أن الحالة الحاضرة مضطربة ، فالمرجو إخبار إيطاليا واليونان بواسطة معتمديهما فى مصر ، لـكى تؤخذ الاحتياطات اللازمة عند مرورها بالجزر .

٭ فرد رشدى فى ٧ منه بأنه مهتم باتخاذ أحسن الوسائل لرجوع أفندينا ؛ وعلى كل حال فالرجوع بالمحروسة فيه خطر الآن ؛ اللهم إلا إذا عملت ترتيبات خصوصية . وأعرفكم بخطر تعدى المدرعات الألمانية عليها ؛ ولذا يجب إخطار الحـكومة الانجليزية بالمحافظة عليها فى الرجوع .

٭ فأرسل مرتضى برقيـة سرية فى ٩ منـه ، وفيها : قررنا السـفر بالمحروسة يوم الأربعاء مع الباخرة « عثمانية » للمرور من الدردنيل معاً ، ثم نذهب إلى الضلمان ؛ أما باقى خطتنا فسيعرفكم عنها شفوياً محمد فهمى بك الذى سيسافر على العثمانية قاصداً مصر .

٭ فرد رشدى فى ١٠ منـه يقول : وصلتنى برقيتكم السرية ، فهل لى أن أعلن حكومات اليونان وإيطاليا وانجلترا ؟

وفى يوم ١٩ وردت لنـا منه رسـالة بتاريخ ١٢ منه ، يقول فيهـا : إن السردار والمستشار المالى حضرا لمصر ، وقال لى شيتهم نائب كتشنر بالنص : « علمت الآن أن الخـديو فى طريقه إلى مصر . وبناء على تبليغات شفوية للمستشار المـالى ، فان حكومتى

تعلم الخديو بعدم الرجوع لمصر فى هذا الوقت ، وإن رجوعه الآن يكون ضد رغبة حكومتى . ولهذا أطلب منكم أن تخبروا سموه بذلك ببرقية لاسلكية ، وإن إحدى مدرعاتنا توصلها إلى المحروسة . » فأجبته أنه لا ينتظر مبارحته الاستانة ، ولهذا فانى أرسل له بلاغكم إلى الاستانة : أما أننى أبرق له بواسطة مدرعاتكم — إذا فرض وكان قد ترك الاستانة — فهذا أمر لا يمكننى عمله .

* وأبرق فى ١٤ منه يقول : حيث إن انجلترا أعلنت الحرب على النمسا والمجر ، وبما أننا أعلنا الحرب عليهما بناء على طلب لندرة ، فنفذنا عليهما نفس الاجراءات التى التى وضعناها على ألمانيا .

ونظراً لاحتمال دخول تركيا فى الحرب بجانب ألمانيا ، فسيكون موقفنا وموقف أفندينا صعباً . فمن الضرورى اليوم وجود أفندينا فى مصر ، فهل يمكن لسموه وهو فى الاستانة أخذ التدابير لرجوعه ؟ وهلا يمكنه على كل حال أن يعلننا ببرقية عن رأيه لأننا فى غاية الحيرة ، والقلق مستول على المصريين ؟

أبرق عباس فى ٢٠ منه يقول : علمنا بالمذكرة الشفوية التى أبلغها لكم المعتمد الانجليزى ، وأرجو الرد عليها بالآتى :

* « الخديو يأسف غاية الأسف ؛ لأنه فى الظروف الحالية التى تستدعى ضرورة وجوده فى مصر من كل وجه ، والفائدة التى تعود عليها ، فان بريطانيا العظمى تأمركم بتبليغى رغبتها بعدم رجوعه لها . اشرحوا لنا نظريتكم ونظرية زملائكم ، وكذلك موقف كبار موظفى الانجليز ، والرأى العام المصرى . »

* فجاء الرد فى ٢٣ منه بأن رشدى أبلغ البرقيةالسالفة الذكر إلىالوكالةالانجليزية ، وأوضح بالتفصيل ضرورة وجود أفندينا حالا ، حتى إنه سلم مذكرة لسهولة توصيلها إلى لندرة ، وأنه فى انتظار نتيجة هذا المسعى ، وأنه طلب من المعتمد والمستشارين فى المالية وفىالداخلية تعريفه بصراحة ـ ولو بصفة شخصية ـ عن سبب تأجيل رجوع أفندينا ، وإلى أى وقت سيكون هذا التأجيل .

* وأرسل رشدى برقية فى ١٤ ، ووصلت فى ١٨ ، قال فيها : إن القلق مستول على المصريين ، فاذا كانت صحة سموكم تسمح ، فالضرورة تقضى برجوعكم حالا .

* ومن ضمن برقية أخرى فى ١٧ منه أنه قال لمعتمد انجلترا : إن النظار يتوقعون

احتمال دخول تركيا فى الحرب بجانب ألمانيا ، ويتساءلون عن النتيجة بالنسبة لمصر ، ويقولون بضرورة رجوع الخديو لأخذ رأيه فيما إذا كان هذا الاحتمال يقع ؛ لهذا فان القائمقامية بعثت ببرقية لسموه بالرجوع حالا . واليوم رجع للوكالة لتفهيم المعتمد بأن صالح بريطانيا يقضى بوجود أفندينا فى مصر عاجلا ، وسأرسل ببرقية قريباً أو برسول لسموه .

* وقد أرسل رشدى بأن الرد على أسئلته التى قدمها فى مذكرة للوكالة الانجليزية كان كما يأتى :

عن السؤال الأول ، لم يحصل على جواب قطعى ، إنما فهم من كلامهم أنهم يخشون نفوذ سموه ودسائس بعض حاشيته ؛ ولمحوا عن موقف سموه فى مسألة العقبة (طابة)

أما عن المسألة الثانية ، فأكدوا لرشدى أن هذا التأجيل مؤقت لمدة أسبوع أو أقل لحين وصول الجنود الهندية لمصر . وأما عن شعور الموظفين الانجليز ، فهو عدم الاعتماد على سموه فى أعمالهم . أما موقفهم بخصوص القيام بواجبهم . فانه لم يتغير . أما الجمهور ، فانه يجهل الأسباب ويحسن ألا يعرفها . ثم قال رشدى إن أحمد شفيق فى الطريق ، ليعرض على أفندينا الحالة فى مصر تفصيلياً من ابتداء الحرب .

* وفى ٢٥ منه قال القائمقام إنه تقابل مع محمد فهمى بك . وعلم منه أنه قيل للخديو إن الأحكام العرفية أعلنت ، وأنه حكم بالاعدام على بعض الأشخاص ؛ فكذب رشدى كل ذلك ، وقال إن الهدوء التام لا يزال سائداً هنا .

وفى اليوم نفسه ، زار الصدر سمو الخديو لتهنئته بالعيد ؛ وفى أثناء الحديث تكلم عن منع الانجليز سموه من الرجوع لمصر ، فقال سعيد حليم :

« حيث إن أفندينا كلمنى رسمياً فى مسألة منعه من العودة إلى مصر ، فانى سأطلب من سفير انجلترا إيضاحات عن سبب هذا المنع . » فشكره سموه .

* وفى ٣٠ منه أبرق عباس لرشدى بأن السفارة الانجليزية أخبرته بأن الوقت مناسب لرجوعنا إلى مصر ؛ ولكن نظراً لسكوتكم وحرماننا من كل المعلومات اللازمة للاجابة ، لم نتمكن من أخذ قرار فى ذلك »

ثم إن المستشار سأل سموه عما ينوى عمله ، فأجابه أنه كان ينوى السفر إلى النمسا ولكن ظهر أن طريق رومانيا معطل ؛ ثم فكر فى أن يأخذ إحدى البواخر الايطالية

فيذهب إلى أملاكه بالضلمان، ولكن الصدر الأعظم طلب منه أن يبقى فى الاستانة بضعة أيام، فتأخر للآن.

وطلب سموه إرسال معلومات بالتفصيل، وروى له ما علمه من وصول الجنود الهندية إلى مصر.

* وفى اليوم نفسه (٣٠ أغسطس) جاءت برقية من رشدى يقول فيها إنه توجه إلى الوكالة البريطانية للاستفهام عن نتيجة مساعيه. فردت بعدم وصول شىء لها، ولكنها تعتقد بوجود مخابرات ودية بين سموه والسفارة الانجليزية بالاستانة. وأخبر أيضاً بأن العساكر الهندية لم تصل بعد، وطلب من الوكالة بمجرد حضورها أن يرجع أفندينا حالا. وإذا عارضوا يقدم استقالته. ورشدى يستحسن إرسال مرتضى باشا إلى كتشنر شخصياً ليحبذ رجوعكم. وقال إن البرنس عزيز حسن كلم المعتمد البريطانى فى أن يستمر فى منع أفندينا عن رجوعه، ليكون بعيداً عن مجرى الحوادث؛ والمستشار المالى قال لرشدى إن سموه على وشك السفر إلى إيطاليا، ومن رأى القائمقام، إن كان عدم رجوع أفندينا يطول، فسفره إلى إيطاليا أرجح من إقامته فى تركيا.

* ورداً على برقية عباس أرسل رشدى يقول فى ٣١ منه: إنه بعد تبليغ سفارة انجلترا بعدم المانع من رجوع أفندينا، لا شىء يبرر أقل تردد فى ذلك؛ فان صالح البلد وصالح سموه الحقيقى، يستلزمان رجوعه حالا. الحالة لم تتغير هنا ما عدا الصعوبات الاقتصادية التى فى كل البلاد. الأهالى والجرائد فى هدوء. موقف الاحتلال ليس فيه ما يدعو إلى الملاحظة. الكل ينتظر رجوع سموه بفروغ صبر، لأنه لا يوجد أحد يفهم أن غياب أفندينا يستمر بعد رفع المعارضة. فبناء على ذلك، زملائى وأنا نرى أننا ملزمون بالالحاح لرجوعه حالا. ومن المهم لمواجهة الحوادث التى يمكن وقوعها أن النظارة تكون على اتصال مباشر مع سموه. والجنود الهندية لم ترد للآن.

قبل أن أرسل هذه البرقية توجهت إلى الوكالة الانجليزية، وهى: «لا تعلم شيئاً عن بلاغ السفارة الانجليزية بالاستانة لسموه. اطلبوا إرسال البلاغ المذكور إلى الوكالة بواسطة السفارة أو الحكومة الانجليزية؛ وهذا الاحتياط ضرورى، وإلا فانى مصمم على برقيتى السالفة.».

أشار محب باشا على الخديو بزيارة السفير الانجليزى اليوم كما زار السفراء الآخرين. وكتب يخطر السفارة بذلك، فرد الترجمان بأن السفير متغيب. ثم قال:

أما بخصوص سفر الخديو من الاستانة ، فربما لم أكن أوضحت تماماً يوم الأحد عما كنت أريد أن أقوله . والمفهوم أن الأصوب أن يبقى بعيداً عن مصر مدة أخرى ، وأن سياحته إلى إيطاليا أو فى جنيف فى الوقت الذى يجب فيه ترك الاستانة تكون فى محلها .

* وقد أبرق الخديو لرشدى باشا برد الترجمان ، ثم قال له :

«وعليه نرى أن تتركوا لنا وقتاً للتروى، لأخذ قرار وخطة للسير عليها؛ وسنفيدكم عنها . ومن جهتكم وافونا برأيكم ومشروعاتكم ومساعيكم التى تزيدنا معرفة عما يجب علينا اتخاذه ؛ ونظن أيضاً أن لكم خطة مقررة حيث تلحون فى رجوعنا ، خطة يجب أن نفهمها بالتفصيل ؛ ونود أيضاً أن نعرف كيف يكون وجودنا عند حضورنا لمصر بعد تصريح انجلترا به لنا ، وكيف تكون حالتنا حينما تدخل تركيا الحرب بجانب ألمانيا .

وفى ٣١ منه ، ذهب أفندينا لشكر السلطان رشاد على سؤاله عن صحته ، وجاء فيما قاله جلالته لسموه : « يمكن لسموكم الرجوع إلى مصر، حيث لا مانع الآن من طرف الانجليز » ؛ ولا بد أن الصدر الأعظم كان قد أبلغ جلالته بمساعيه فى هذا الخصوص.

* ومن ضمن برقية وردت فى ٢ سبتمبر، يقول القائمقام إن محب باشا أبلغه الرسالة ويرى على كل حال أن وجود أفندينا لا يكون فى أمن بجنيف ، ويقول أيضاً إن الوكالة البريطانية أبلغته بأن الحكومة الانجليزية لم تغير نظريتها بخصوص تأجيل رجوع الخديو، فهل بلاغ سفير انجلترا لسموه حصل مباشرة ؟ .

* وفى اليوم نفسه أبرق عباس للقائمقام يقول : « بعد مساعى الصدر الأعظم لدى سفير انجلترا بخصوص رجوعنا لمصر، حضر مستشار هذه السفارة وترك لنا الخيار فى الرجوع مباشرة لمصر أو بعد سياحة فى أوربا ؛ إنما فضل تركنا الاستانة حتى يتجنب الحوادث التى يمكن ؛ بل المحتمل ، وقوعها فى تركيا .

وفى ٣ منه زار سفير انجلترا سموه وقال له : إن عدم رجوع سموه لمصر ، هو لفائدته ؛ لأنه يكون فى مركز صعب لو حصلت حرب بين تركيا وانجلترا. ثم قرأ برقية وردت له من حكومته، تطلب منه أن ينصح لسموه بترك الاستانة إلى إيطاليا . فأجابه بأنه كان ينوى السفر، ولكن الصدر طلب منه البقاء حتى يتخابر مع السفارة الانجليزية فى أمر رجوعه إلى مصر ؛ لأن الأهالى يسألون لماذا لم يرجع إلى بلده فى هذا الوقت الحرج .

* وفى ٦ منه جاءت برقية من رشدى يقول فيها لمحب باشا : ها أنا ذا أرسل لكم

هذه البرقية لكى أعرب لكم فيها عن وجهة نظرى بصراحة وحرية . وأترك لكم أن تعرضوا على سموه ما يكنه صدرى بالطريقة اللائقة .

فى الحالة الحاضرة علينا أن نأخذ باحدى خطتين : الأولى أن ندع المقادير تسير فى طريقها ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . وهذه الخطة سهلة ؛ ولكن هل هى موافقة للواجب الذى يقضى علينا عمله ؟ والثانية ، هى أن نراعى مصالح مصر ؛ ولأجل ذلك يجب علينا فحصها جيداً ، بأن نتأمل فى كل الاحتمالات التى يمكن وقوعها ، وعلينا أن نوجه دفة سفينتنا على حسب مقتضيات الأحوال ، مهما كان الخطر الذى يصيبها . والخطة الثانية تستلزم وجود أفندينا فى مصر ؛ لأن هذه الأمور لا يمكن البت فيها عن بعد ، ولا بالمراسلات ؛ وخصوصاً أنه فى فترة المخابرات يمكن أن تتغير أسس التقارير : لهذا كنت أسعى للآن عند الوكالة البريطانية للحصول على رجوع أفندينا .

وقد سبق أن ألححت على سموه بالرجوع حالا عند ماوردت إلىّ برقيته برفع المعارضة من رجوعه . وبما أن انجلترا مستمرة على المعارضة ، وحتى إذا فرض رفعها ، يظهر لى أن الجناب العالى لا يرغب فى الحضور لمصر حالا . فعندئذ لم يبق أمامى إلا الأخذ الآن بالخطة الأولى . وإلى أن تصدر لى أوامر جديدة ، فانى أترك كل مسعى لحضور أفندينا . لكن يلزمنى أن أعلمكم أنه إذا رفعت المعارضة ولم يحضر سموه ، فان ذلك يسهل للانجليز استبعاده بالكلية ، ويستغلون هذه الفرصة ليعرفوا المصريين أن خديويهم لايهتم بمستقبل بلادهم ، وفى هذه الحالة أستقيل . أما إذا دخلت تركيا الحرب بجانب ألمانيا فى غياب سموه ، فنجد أنفسنا هنا حيارى بدون قيادة ؛ إذ ذاك إما أن تضم انجلترا مصر إليها ، أو تتفق معها على إعطائها الاستقلال الداخلى ، حتى تجذب إليها الأهالى .

ففى الحالة الأولى ، أعتبر مهمتى قد انتهت ، وأدخل فى عداد الأفراد .

أما فى الحالة الثانية فلدى ما أفعله ؛ فالمرجو أن تعرفونى بنظريتكم ولو شفوياً .

وفى ١٧ سبتمبر أرسل محب لرشدى برقية ، جاء فيها : فهمى نقل لى معلوماتكم فكونوا مطمئنين . أنا هنا للسهر على أن كل شىء يسير على ما يرام . الخديو ممنون جداً من الأعمال فى مصر . وأنا لم أرغب أن أراسلكم كثيراً حتى لا أشتت أفكاركم ، وإذا صدرت أوامر فانى أبلغها لكم بالضبط .

كنت على وشك السفر إلى لندرة ، ثم تأجل ، وسألح على سموه بالسفر حتى يوافق على اقتراحى لأكون قريباً من محل العمل لاحتمال ما قد يقع ، فهل أنتم على هذا الرأى ؟

كنت أردت أن أوضح لكم وجهة نظر أفندينا ولكنه فى آخر لحظة كلف أباظه باشا بهذه المأمورية . إننى لست موافقاً عليها تماماً ، غير أنى أرجو أن يبلغكم رأيى بالضبط ؛ أما القرار الأخير فهو انتظار مجرى الحوادث هنا ، مع استمرار الصلات الودية مع الأتراك ، الذين لا شك فى استعدادهم للدخول فى الحرب .

فجاء الرد فى اليوم نفسه ، وفيه يقول رشدى : وصلتنى برقيتكم ، وأنا لا أزال على رأيكم من سفركم إلى لندرة لبذل المساعى لرجوع أفندينا .

* فى ٢٧ منه جاءت برقية من رشدى لمحب ، يقول فيها : إن أباظه ومرتضى أبلغانى وجهة نظر أفندينا ، وإننى ضد ذلك بالكلية ؛ لأنها مبنية على خطأ عظيم فى التقدير . فاذا كانت انجلترا تطلب من سموه الخروج من الاستانة والذهاب إلى سويسرا أو إيطاليا ، فأرجوكم الالحاح عليه بقبوله ، والأصوب السفر إلى إيطاليا . وعليه أن يتفق مع الانجليز بخصوص إقامته فيها ، ولايلزم أن يعتقد سموه أنهم يريدون إبعاده عن مصر بالكلية ؛ لأن القصد هو إبعاده عنها مؤقتاً . وإننى متأكد بأنه إذا أعطى برهاناً واضحاً على حسن نيته نحو الانجليز ، بأن يضحى بدون تردد بحاشيته التى تناوئهم ، فيمكن فى الحال أن أحصل على رفع المنع . فهل لى أن أتدخل فى هذه المسألة ؟

* *ماذا فعلت الحكومة لدرء الطوارىء* . فى ٤ أغسطس أرسل القائمقام لمرتضى يقول : لمنع القحط اتخذنا الاحتياطات الآتية :

أولا ـ منعنا تصدير المواد الغذائية .

ثانياً ـ جعلنا صرف البنكنوت الأهلى إلزامياً ؛ ومع ذلك فان البنك الشرقى الألمانى أقفل أبوابه .

ثالثاً ـ أذنا البنك الأهلى فى إصدار أوراق مالية بمبلغ مليون جنيه ، على أن تكون نصف القيمة الضامنة من الفضة بدلا من الذهب .

رابعاً ـ سمحنا للبنك زيادة فى الاحتياطات ، باصدار مليون آخر بضمانة سندات مالية من الدرجة الأولى: ونصف القيمة والثمن حدد بمعرفة الطرفين

وفى ٥ منه أبرق يقول : « نظراً لاضطراب الحالة المالية قررنا الموراتوريوم للنقد ، وأعلنا ثلاثة أيام عطلة للبنوك والمحال التجارية ؛ وبنكودى روما أوصد أبوابه ، وكان قد طلب سلفة من البنك الأهلى على أن يقدم له ضمانة من بنكو ديطاليا ، ولكن هذا رفض فى آخر لحظة

وفى ٩ منه بناء على الدكريتو الصادر فى ٧ منه منعت الحكومة كل التصديرات ، والقمح المعتاد إرساله إلى الحجاز

وفى ١٣ سبتمبر أبرق القائمقام بأنه تقرر استمرار الموراتوريوم إلى أول اكتوبر ، ولكن بشروط أخرى نص عليها القرار

وصدر دكريتو فى ٢٥ منه لتحديد أثمان المواد الغذائية ، وتألفت لجنة لفحص مايلزم منها للبلاد ، وطريقة توزيعها ؛ وجرى البحث أيضاً لاتخاذ الوسائل المالية للمساعدة على تصريف حاصلات القطن ، وتشكلت لجنة كبيرة لذلك

من برقية فى ٢٥ سبتمبر قال رشدى : « إن اللجنة التى أرسلت إلى انجلترا أبرقت بامكان توزيع أربعة ملايين قنطار من قطن المحصول الآتى . فأصبح على الحكومة واجبان : الأول ، أن العرض لا يتعدى الطلب ، بحيث أن البنوك وتجارة الصادرات تمكن من إيجاد المبالغ اللازمة لتداول النقود . والواجب الثانى ، أن تصدر الحكومة أمرها بتخفيض مليون فدان من زراعة القطن ، حتى يمكن المحافظة على الثمن من جهة ؛ ومن جهة أخرى يمكن إيجاد الكمية الكافية من الغلال لحاجة البلاد ، وتصدير الزيادة إن وجدت .

ومن برقية فى ٢٦ منه طلب عباس تعريفه بالاحتياطات الهامة التى اتخذت فى المسائل الاقتصادية .

فرد عليه رشدى بأن الحالة لم تتغير ، ما عدا الصعوبات الاقتصادية ، فانها كما هى فى كل البلاد .

* *مطالب الانجليز من مصر بعد اعلانهم الحرب* . أرسل رشدى باشا للخديو برقية فى ٥ أغسطس بأن انجلترا أعلنت الحرب على ألمانيا ؛ وأن لندرة طلبت أن يعلن مجلس النظار بعض الاجراءات لصيانة مصالحها فى مصر ؛ وقد تداول مجلس النظار فى هذه الطلبات وملخصها هو :

أولا — أن قوة الاحتلال تقوم بكل الاجراءات التى تستدعيها الحرب فى بلادنا .

ثانياً — منع كل مساعدة لألمانيا ، والتوصية بكل المساعدات لانجلترا .

ثالثاً — منع تصدير الأسلحة والذخائر واللوازمات الحربية والآلات ، ودواب الركوب ، والفحم ، والمواد الغذائية

وهم يطلبون قراراً عاجلا فى ذلك . وقد قال رشدى : « إننا إذا لم تنفذ هذه الاجراءات ، يخشى من أن تقوم السلطة الانجليزية بتنفيذها . وفى كلتا الحالتين سنكون عرضة لاعتداء الألمانيين وحلفائهم ؛ فالخطر محدق بنا . ومن جهة أخرى فانه لصيانة مصالحنا السياسية إزاء انجلترا ، يستصوب أن نعمل باذننا بدلا من استعمال سلطتهم .

وفى ٧ منه أرسل رشدى يقول إنه بعد انتظار ٢٤ ساعة اضطررنا إلى إصدار قرار نظراً للالحاح الشديد بتنفيذ المطلوب حالا ، وبعد كل التروى وجدنا أن نقرر ما طلب منا ، فاذا انتصرت انجلترا فالمنتظر أنها تعدل فى النظام السياسى ؛ وأما شكله وشروطه ، فيكون بنسبة الخطة التى نسير عليها معهم . أما إذا رفضنا المطالب المذكورة فان الانجليز يعدلون هذا النظام ، لكى يضمنوا استعمال حقوقهم الشرعية التى تخولها لهم قوانين الحرب . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تكون على حذر منا . وبتنفيذنا الاجراءات المطلوبة نعتقد أننا قد تبصرنا فى العواقب ، للمحافظة على كيان نظامنا السياسى الحالى .

وفى ٧ أغسطس أصدرنا دكريتو جاء فى مقدمته : « بما أنه قضى لسوء الحظ باعلان الحرب بين جلالة ملك بريطانيا العظمى وايرلندة والملحقات البريطانية فيما وراء البحار وأمبراطور الهند ، وبين امبراطور ألمانيا .

« ونظراً لأن وجود جيش الاحتلال فى القطر المصرى يجعل هذا القطر عرضة لهجوم أعداء صاحب الجلالة البريطانية .

« وبما أنه من الضرورى ، نظراً لهذه الحالة الفعلية ، التمكن من اتخاذ جميع الوسائل اللازمة لدفع خطر مثل هذا الهجوم عن القطر المصرى .

وبما أنه قد أشير على الحكومة المصرية ، تحقيقاً لهذا الغرض ، أن تتخذ الاجراءات الآتية (*) » .

وفى ٩ أغسطس أرسل عباس لرشدى برقية قال فيها : إن الصدر عرفنا بأن مصر أعلنت الحرب على ألمانيا . أرسلوا حالا بالبرق تفصيلات عن هذه المسألة ، والأسباب التى استوجبت هذا الاعلان ، حتى يمكن إخبار الباب العالى بذلك .

مصر تقطع علائقها مع ألمانيا والنمسا : فى ١٠ منه أرسلت المعية برقية تقول فيها : « إن قنصل جنرال ألمانيا يرفض ترك مصر اعتماداً على أنها على الحياد ، وليست فى

(*) هذه الاجراءات موضحة فى مطالب الانجليز ص ٣٣٩

حالة حرب، والنظار عقدوا جلسات عدة بخصوص العلاقات الرسمية بيننا وبين ألمانيا، والنظر فى حالة المراكب النمساوية الراسية فى الموانىء المصرية، بعد إعلان الحكومة بانها فى حالة حرب بينهما . »

إخراج معتمدى ألمانيا والنمسا من مصر : وفى ٢ سبتمبر أبرق رشدى بأن قومندان قوة الاحتلال أرسل بلاغاً بواسطة أحد ضباطه، إلى قنصلى جنرال ألمانيا والنمسا بوجوب ترك القطر المصرى . وهذا بقرار صادر منه بدون إحاطتنا ، وفقط أعلمنا به .

وممثل النمسا حضر عندنا وسألنا عما إذا كان هذا الأمر حصل بموافقة الحكومة المصرية . فأجبناه بأن البلاغ صدر وأرسل بقرار من السلطة العسكرية الانجليزية ؛ وليس بقرار سياسى من الحكومة المصرية .

فأرسل الرد فى ٣ منه بموافقة سموه على ذلك .

وفى ٦ منه حضر سفير النمسا بالآستانة، وقابل الخديو، واحتج لديه كما احتج لدى الصدر على طرد معتمد النمسا من مصر، وقال: « إنه معتمد لدى أفندينا ، وليس معتمداً لدى الاحتلال الذى ليس له حق فيما فعله »

انتدابى بمهمة خطيرة لدى عباس . فى ١٢ أغسطس قابلت حسين باشا رشدى تلبية لطلبه ، وقلت له إننى فى خدمته ، حيث إن مجلس النظار عاد من الاسكندرية إلى القاهرة ، فحدثنى فى الحالة الحاضرة وصعوبتها، وحرج مركزه، وتعذر المخابرة مع أفندينا؛ وقال لى إنه أرسل إلى سموه يقول إنه لم يصل إليه رد برقيتين بعث بهما إليه ، وأنه يوجد عنده كلام لا يمكن أن يرسله بالبرق خوفاً من المراقبة فى مصر وفى الآستانة . فقلت له إنى رهين إشارته فيما إذا أراد أن يكلفنى السفر، فقال : «لا بأس» فطلبت منه أن يحضر لى جميع الأوراق التى يطلب عرضها ، فقال: « وهو كذلك ؛ إنى سأعطيك هذه الأوراق، فاذا خفت ضبطها فألق بها فى البحر . »

وفى ١٤ منه قابلته ، فقال لى إنه يرى ضرورة سفرى إلى الآستانة ، وأمرنى بالاستعداد

وفى ١٥ منه جاءتنى برقية من عثمان مرتضى باشا بجبوقلى ، يطلب حضورى للاستانة ومعى ثلاثة آلاف جنيه ذهباً . منها ألفان من الخاصة ، والألف من الأوقاف الخصوصية .

وفى ١٨ منه اختليت مع حسين رشدى باشا ليلا من الساعة الحادية عشرة إلى الساعة الواحدة ونصف بعد منتصف الليل ، فأخبرنى :

أولا — بأنه حقيقة كان عازماً على الاستقالة عندما طلب منه الانجليز إقرار وجود مصر فى حالة حرب مع ألمانيا ، بدلا من الحياد ؛ ولكنه رأى أنه ربما لا تخلفه نظارة أخرى ، فيتولى الانجليز أمور البلد فيوقعونها فى مشاكل

ثانياً — أنه أعطى مذكرة شفوية لوكيل كتشنر سير ملن شتهام ، بأنه إذا دخلت تركيا فى الحرب مع ألمانيا ، فان مصر تعلن استقلالها عن تركيا تحت شروط

(ا) ان إنجلترا تحل محل الدائنين الأجانب فى صندوق الدين .

(ب) ألا تسن قوانين بخصوص الأجانب إلا بعد مصادقة انجلترا

(ج) أن عساكر هذه الدولة تحمى قنال السويس .

ثالثاً — أن الانجليز غير مرتاحين لرجوع أفندينا الآن إلى مصر ؛ لأنهم يخشون أن يعرقل هو وحاشيته أعمالهم ، وهم الآن مطمئنون وسائرون بالاتحاد مع النظارة .

رابعاً — أنهم كلفوا رشدى باشا أن يرسل لسموه برقية لاسلكية بأن يرجع للآستانة ؛ ظنا منهم أن الخديو غادرها على يخت المحروسة ، عائداً إلى مصر ، إلى أن تأتى الجنود الهندية ؛ فأبى بتاتاً ، قائلا إنه يفضل الاستقالة على ذلك ؛ لأنه يعتبر هذا العمل بمثابة خلع أفندينا ، فضلا عن أنه لم يتسلم برقية بمبارحته الأستانة ، كما هى العادة . واستفهم منهم عما إذا كان ذلك بناء على أوامر صريحة من دولة انجلترا ، فقال شتهام إن اللورد سسل المستشار المالى ، سبق أن فهم من كتشنر أنه يريد ذلك ، فأجابه أن هذا لا يكفى ، لأنها نقطة صعبة جدا يلزم أن تتأكدوا منها ، وأفهمه أن ذلك ليس من صالح الانجليز ؛ بل الأصوب أن يكون الخديو بمصر حتى يمكنهم أن يستعملوا نفوذه ؛ وإلا فاذا أعلنت تركيا الحرب فانها تستعمل هذا النفوذ ضد الانجليز فى مصر .

وقال لى رشدى باشا إنه يحسن بأفندينا ترك يوسف صديق ، واحمد شوقى ، وحامد العلايلى ، حتى يرضى الانجليز ، ولا يقولوا إن الحاشية تدس الدسائس ؛ وهم وإن لم يعينوا أشخاصاً ، إلا أن المفهوم أنهم يعنون هؤلاء الثلاثة .

سألته : «وإذا سافر أفندينا وقصد مصر ، هل يظن أن الانجليز يمنعونه فى الطريق؟» قال : « لا أقدر أن أجاوب على ذلك ، ولكن لو حصل ، فانى أستقيل . »

فسألته عما يريده الانجليز ، هل إعلان الحماية على مصر أو ضمها . فقال : « هذه نقطة غير واضحة . » سألته : « هل ينوون خلع أفندينا ؟ » قال إنه سأل الانجليز عن ذلك ،

فقالوا «لا» . وأكد عطوفته على شتهام بأن يرسل لانجلترا فكرة الفوائد التى يجنيها الانجليز من وجود أفندينا ، فقبل .

وفى ١٩ منه سافرت من مصر قاصداً الاسكندرية، فانتظرنى فى محطتها محمد يكن باشا ، وحسن خالد بك نجل الشيخ أبى الهدى الصيادى ، فركبت منها إلى مأمورية الأوقاف الخديوية ، وتسلمت من مندوب الخاصة الثلاثة الآلاف جنيه انجليزى ، ثم توجهنا إلى وابور سالونيكا الرومى .

وقد كلفنى قبل قيامى محمد يكن باشا أن أعرض إلحاحه على الخديو بالعودة إلى مصر، كما أن دولة البرنس محمد على باشا كلفنى بابلاغه أنه يلح هو أيضاً فى ذلك ، أو على الأقل يلح فى عودة الوالدة والأميرات .

وفى ٢٠ منه وصلت إلى ميناء بيريه باليونان .

وفى ٢٢ منه ركبت باخرة إيطالية ، نظراً لعدم استمرار الباخرة سالونيكا إلى الاستانة ؛ وكانت تلك الباخرة مكتظة بكثير من السياح الروس والرومان ، حتى اضطر كثير منا أن ينام فى طرقات الباخرة .

وفى ٢٣ منه وصلنا أمام مدخل الدردنيل الساعة السادسة صباحاً ، وانتظرنا للظهر حتى حضر الرفاص المخصص لسحب البواخر التجارية ، خوفاً عليها من الألغام التى كان الأتراك وضعوها فى هذا المضيق . وقد لاحظت أنه منذ خروجنا من الاسكندرية حتى الآن ، لم نقابل وابوراً حربياً فرنسيا أو انجليزياً ؛ ودخلنا بحر مرمرة فى الساعة الثالثة بعد الظهر .

وفى ٢٤ منه وصلنا فى الساعة السادسة صباحاً أمام رصيف غلطة ، وانتظرنا حضور أحد من سراى جبوقلى، وأرسلت برقية إليها أخبر فيها بحضورى ، وبانتظارى الرفاص؛ ولما حضر ركبته وسار بى إلى قصر جبوقلى . وبمجرد وصولى اجتمعت بأفندينا فى حضرة الباشوات: محب ويوسف صديق واسماعيل أباظه وعثمان مرتضى ، فسألونى عن حالة مصر وعما إذا كان صحيحاً ما سمعوه من حصول ثورة فى القاهرة وفى الاسكندرية ، وشنق سبعة أشخاص ، وغلو أسعار الحاجيات لدرجة عظيمة ، وعما إذا كان أعلن الحكم العرفى.

وعلمت منهم أن هذه الأخبار أشيعت فى الاستانة ، واضطربت أفكار المصريين لأجلها كباراً وصغاراً ؛ فطمأنتهم بعدم وجود شىء من ذلك ، وأن البلد فى أمان؛ وإنما

الأسعار ارتفعت أولا ارتفاعاً فاحشاً ؛ ثم لما منعت الحكومة تصدير شيء للخارج ، أخذت فى الهبوط ؛ ويمكن أن تكون الزيادة الآن عشرة فى المائة .

ثم بلغت أفندينا الرسالة التى كلفنى بها رشدى باشا ، فعرفته بمسألة ممانعة الانجليز فى عودته إلى مصر ؛ وشرحت لسموه أن شتهام قال للباشا نقلا عن اللورد سسل مستشار المالية الذى حضر مع ونجت باشا حاكم السودان لمصر قبل قيامى منها بيوم واحد بأن اللورد كتشنر قال ما يفهم منه أن الأصوب عدم رجوع أفندينا لبلده الآن . ولما استفهم رشدى باشا منه عن السبب ، أجيب بأنهم يخشونه وحاشيته ، ويخافون أن يعرقلوا إجراءات الانجليز فى مصر فى هذا الوقت ، ويدسوا الدسائس بين المصريين للقيام ضد الانجليز ، الذين لم تكن قوتهم كافية فى ذاك الوقت . فتخابر رشدى مراراً معهم ، وطلب إرسال برقية لانجلترا بأن هذا المنع فى غير صالحهم ، لأنهم يستفيدون كثيراً من وجوده ؛ حتى ولو فرض أنه حصل منه شيء ، لسهل عليهم منعه ؛ وأخيراً أجيب بأنه عند وصول العساكر الهندية لمصر يمكنه العودة .

وفى ٢٥ منه سألنى أفندينا عن مسألة إعلان مصر الحرب على ألمانيا والنمسا ، فأجبته بأن مقدمة الدكريتو الصادر فى هذا الشان تدل على أن مصر صارت كأنها انجليزية ، إذ قيل فيه : « نظراً لاعلان ملك الانجليز الحرب على ألمانيا ؛ ولما كان واجب الحكومة الانجليزية ، أن تتخذ كل الوسائل لصيانة ممتلكاتها ومستعمراتها من الخطر ؛ وبما أن الانجليز محتلون مصر ، وواجبهم يقضى بالمحافظة عليها من كل خطر ، فقد أشير على الحكومة المصرية باتخاذ الاجراءات الآتية .

ثم ذكر الدكريتو المواد المتضمنة الاحتياطات التى تتخذها كل دولة محاربة ضد عدوتها . فاستغرب الحاضرون ما قلته لأنه غير ما ورد برقياً من رشدى باشا ، فقال أفندينا : « ربما أن شفيق قرأه فقط فى الجرائد » فقلت : « نعم » . وكأنه يقول إنه فاتنى أن أفهم الحقيقة من رشدى باشا . ثم استعلم سموه منى عن سبب صدور هذا الدكريتو بعد أن أعلنت مصر حيادها ، فقلت : « إن القائم بأعمال وكالة ألمانيا توجه على ما بلغنى إلى رشدى باشا وسأله : « كيف يتفق إعلان مصر الحياد ووجود الاحتلال الانجليزى فيها ، مع العلم بأن انجلترا محاربة لألمانيا الآن؟ » وأنه على ذلك حصلت مخابرات مع انجلترا ، وطلب رجال الاحتلال استصدار هذا الدكريتو .

أردت ألا أذكر أمام الحاضرين أن رشدى باشا يرى خطراً كبيراً على مصر فيما

إذا دخلت تركيا هذه الحرب ضد انجلترا ، وأنه تكلم مع شيتهام فى ذلك ، وأنه فى حالة دخولها يتعين تحديد مركز مصر من جديد ، وإعلان استقلالها عن تركيا . وعلمت من رشدى باشا أنه أعطى شتهام مذكرة فيها أساس شروط إعلان استقلال مصر وهى :

أولا — أن تحتل انجلترا بعساكرها قناة السويس للمحافظة عليها .

ثانياً — تضمن انجلترا لباقى الدول ديونها فى مصر، فيكون لها مندوب بدلا من مندوبى الدول لدى صندوق الدين .

ثالثاً — ألا تضع مصر قانوناً على الأجانب إلا بعد تصديقها عليه .

وقد تحاشيت التكلم فى هذه النقطة أمام محب باشا ؛ لأنه كان وقتئذ متوددا للحكومة العثمانية ، وكان واسطة السعى للتوفيق بين أفندينا وبين الصدر ، وقد توترت بينهما العلاقات إثر حادثة الاعتداء على سموه ؛ غير أن الخديو دفعنى إلى الكلام فأفهمته المسألة مضطراً ، فسألنى عن صورة المذكرة التى قدمها رشدى باشا إلى شيتهام ، وأظهر أنه كان يجب على أن أحمل تقريراً وافياً بكل ذلك ، فقلت إننى طلبت كل هذا من رشدى باشا ، وقد وعدنى؛ ولكنه لم يعطنى شيئاً كتابياً . فأمر سموه محب باشا أن يحرر له جواباً بغرضه . ثم سألت افندينا عما كان يرغب فى أن أحضره معى من المعلومات ، فقال :

أولا — نتيجة التحريات التى حصلت فى مصر بالنسبة لحادثة الاعتداء .

ثانياً — تفصيلات سبب استصدار الدكريتو القاضى بأن تكون مصر محاربة لألمانيا والنمسا .

ثالثاً — ما يقوله باقى قناصل الدول الجنرالية بالنسبة للحرب وحالة مصر .

رابعاً — المذكرة التى أعطاها رشدى لشيتهام بالنسبة لاستقلال مصر .

فقلت لسموه: إننى يامولاى قمت بالواجب علىّ ولم أقصر فيه ؛ لأننى قلت لرشدى إننى تحت أمره فى هذا الوقت الصعب ؛ وإننى مستعد للحضور عنده فى أى وقت يريده فشكرنى ولكن لم يطلبنى ؛ وفهمت أنه كثير التحفظ ، ثم إننى طلبت منه أن آخذ معى تقريراً مسهباً عن كل المسائل وصور البرقيات الشفرية التى أرسلها ولكنه لم يعطنى شيئاً؛ واكتفى بالمعلومات التى شافهنى بها ليلة السفر، فرد أفندينا : « إننى لا أقول إنك قصرت فى واجباتك . »

عباس يروى لى حادثة الاعتداء : فى ٢٥ اغسطس اختليت مع عباس ، ورغبت أن أسمع منه شخصياً وقائع الحادثة المذكورة ، فقال : «أنت تعلم ياشفيق مقدار الصداقة التى بينى وبين منير باشا سفير الدولة العلية بباريس ، فلما دعوته لتمضية بعض أشهر الشتاء فى مصر ، طلبت منك عمل الترتيبات اللازمة لهذه الضيافة ، فأعددت له ذهبية ، ورتبت له كل ما يلزمه من أكل وشراب وعربة لفسحته ، فعاد لوظيفته شاكراً ممنوناً من حسن الضيافة .

« فلما سافرت فى هذه السنة إلى باريس ، وعلم بعزمى على قضاء شهر رمضان فى الاستانة نصح لى ، وأسر إلىّ بطريقة خصوصية بحتة بما كان يتوقعه من الاعتداء علىّ ، وألح بألا أسافر للاستانة ؛ ولكنى لم أعبأ بنصيحته واستبعدت وجود المؤامرة لاغتيال حياتى وسافرت إلى الاستانة غير هياب ولا مكترث . وعقب وصولى إليها توجهت إلى السراى السلطانية حسب العادة وتشرفت بمقابلة السلطان ، فرحب بى ، وأظهر لى عطفه الأبوى .

« وفى ٢٦ منه ركبت عربة سلطانية لزيارة الصدر الأعظم فى الباب العالى ، وبرفقتى المهمندار الشاهانى ، وخلف العربة ياوران ، وبعض الجاويشية ، كما هى العادة . وكان جلال الدين باشا القبوكتخدا يتبعنا فى عربة أخرى ، وأمام الباب العالى مقر الحكومة التى كان يرأسها الأمير سعيد حليم كصدر أعظم ، اعتدى علىّ شاب مصرى، كان منزوياً فى حانوت بابه مقفل، فأطلق علىّ الرصاص من مسدسه . هنا استوقفت عباس ، وسألته عما جال فى فكره بمجرد حصول الحادثة فأجابنى : «تمكنت بصعوبة من إخراج مفكرتى وكتبت : « أتهم سعيد حليم ؛ لأننى كنت أشعر من زمن بعيد بعدائه لى ، وبالتفاف بعض المصريين حوله ينفذون إرادته . »

« ومن الغريب أنه عند إطلاق الرصاص علىّ، وقف الحوذى بدلا من الاسراع فى سيره واتكأ المهمندار للوراء فى العربة ليفسح المكان لتمكين المعتدى من فريسته ، الأمر الذى أثار كثيراً من الشبهات . »

ثم سألت سموه : هل تظن يا أفندينا أن البرنس حليم كان يقصد من وراء هذه الحادثة أن يخلف سموكم فى مصر ؛ مع أنه رفض قبول العرش عندما دعاه كتشنر لذلك ؟ » فأجاب : « نعم » .

عند ذلك حضر أحد الأغوات ، وقال : « إن دولة الوالدة تريد زيارة أفندينا » فخرجت .

ومما يجدر بالذكر أن الخديو كان فى ذلك الوقت يقيم فى أحد اليالين فى جبوقلى ، بدلا من الكشك الذى فى أعلى الجبل؛ لسهولة معالجته ، وكانت تقيم معه خليلته «لوزانج» عند انفراده ، أما اليالى الآخر فكان معية للحاشية .

ولما تقابلت مع الخديو أمس ، عقب وصولى إلى جبوقلى ، وجدت ذراعه المصاب مرفوعاً وملفوفاً بقماش ، ولسانه يتلعثم ، فأخذ يحادثنى عن الاصابات ، وكلامه بطىء ونفسه ذو رائحة ؛ فسألت الدكتور كوتسكى بك طبيبه الخاص عن الاصابات، فقال : «عند خروج سمو الخديو من الباب العالى ، أطلق عليه ثمانى رصاصات : منها ما أصاب خده ، حتى أسقط بعض أضراسه وأسنانه وجرح لسانه ؛ ومنها ما أصاب ذراعه . »

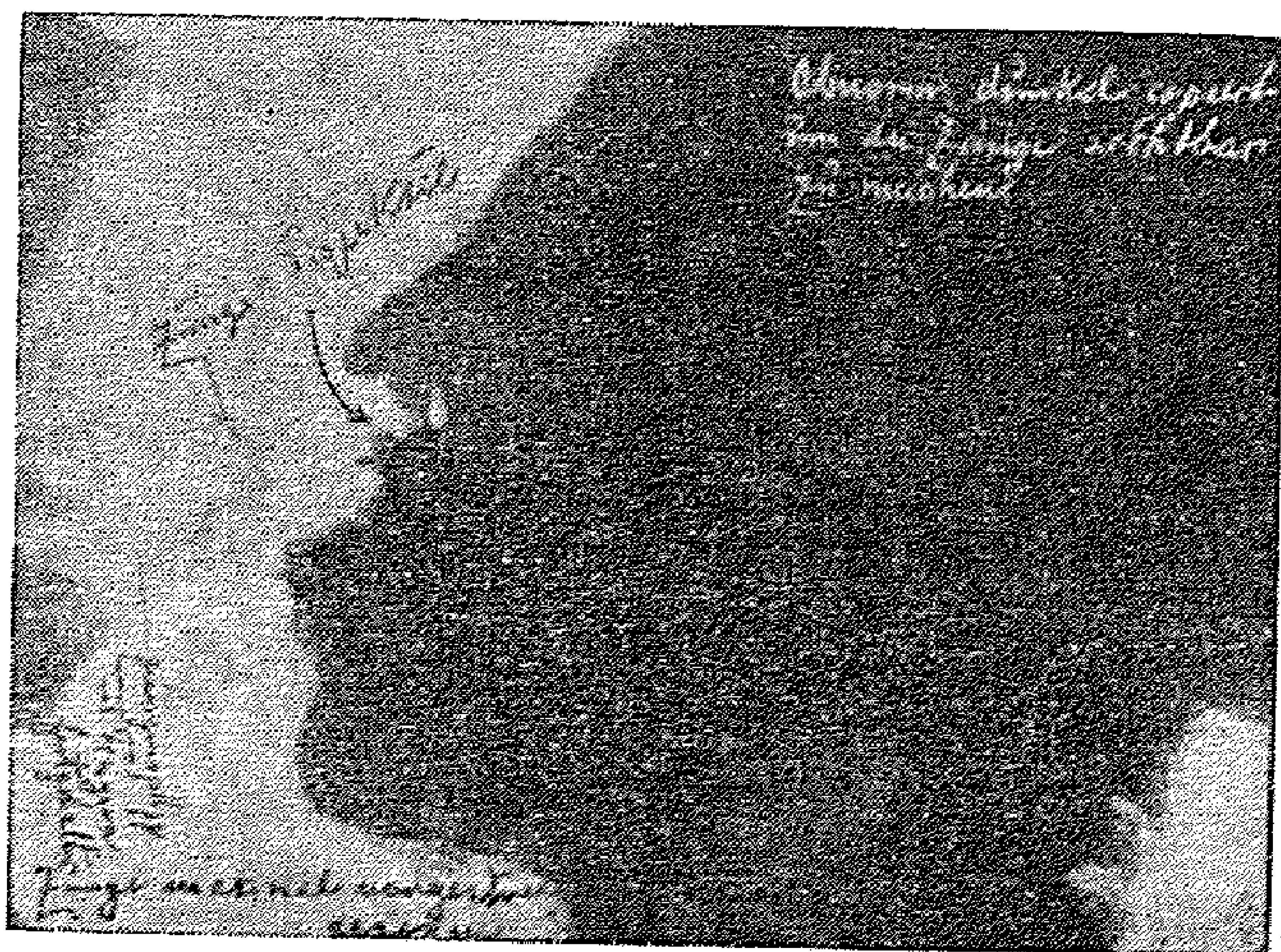
وفى ١٥ سبتمبر أملانى أفندينا خطاباً لرشدى باشا سلمه إلى الصباحى افندى . وسافر اليوم على باخرة « الحاج داود » ، ومما جاء فيه :

«إنه وإن كنا أرسلنا لكم تلغرافاً بأن صحة الجناب العالى ساعدته لعمل زيارات ، وأن الجروح التأمت ، والحكماء أعطوا للمرة الأخيرة قرارهم بأن صحته رجعت إلى ما كان عليه ؛ إلا أننا نحيط عطوفتكم علماً بأن الذراع المصاب لم يأخذ حركته الأصلية للآن ؛ مع العلم بأن التحسن مستمر ، والمرجو أنه عن قريب يتم شفاؤه . أما الفم فانه مع سقوط أربع أسنان ، يوجد أيضاً سن خامس انفصلت عنها أخواتها ، بحيث لا يمكن استعمالها . وإن الفك السفلى لم يأخذ موضعه تماماً بحيث إن الأسنان العليا لا تنطبق على التى تحتها كما كانت؛ ونحن فى انتظار أخذ رأى طبيب الأسنان . وإن محل جرح اللسان يفتح وقت تناول الطعام ، ثم يرجع إلى ما كان عليه ، وهذا يسبب عدم فوات وقت كاف على التئامه .

عثمان مرتضى باشا يحدثنى بما دار فى التحقيق : أردت أن أستق بعض معلومات عن التحقيق من عثمان مرتضى باشا رئيس الديوان الخديوى ، وهو من كبار القانونيين ، فقال لى : « بعد حصول الحادثة استدعانى الخديو لأكون فى خدمته باستانبول ، ولأقوم بالتحقيق ، لكى نصل إلى العوامل الخفية التى دفعت المجرم إلى ارتكاب جريمته ، فقمت باستجماع الأخبار ، وتبين الوقائع من مصادر عدة؛ وعلى الأخص ممن كانوا مع سموه حين الاعتداء عليه ؛ ومن اطلاعى على محاضر وأوراق الاعتداء تبين بوضوح :

أولا — أن الشاب المجرم كان يتمرن على ضرب الرصاص منذ ثلاث سنوات . وقد وجدت فى غرفته صورة إنسان بارتفاعه الطبيعى كان يقذفها بالرصاص من غدارته مصوباً إلى القلب ، حتى لا تخيب ضرباته عند الاعتداء .





صورة بالأشعة « راديوجرافير » أخذت في شهر ديسمبر بفينا ، تبين الاصابات بذراع الخديو وقفه

ثانياً — أن ذلك المجرم كان يتعهده ويعاونه طبيب مصرى مستخدم فى قلم الأمنية العمومية ، بنظارة الداخلية ؛ وهو الدكتور احمد فؤاد . وكان له اتصال مباشر وثيق مع طلعت بك والصدر الأعظم .

ثالثاً — كرر لى ماسمعته من عباس، عما حدث من المهمندار الذى أثار كثيراً من الشبهات .

رابعاً — وجود كبير رجال البوليس السرى وراء القاتل ، وإقدامه على قتله على الفور؛ مع أنه كان فى قدرته القبض عليه استجلاء للحقيقة ، ولمعرفة العوامل الخفية التى استخدمت هذا المجرم فى الاقدام على جرمه الفظيع . وكان هذا سبباً أيضاً يجعل الناس حيارى من إدراك الغرض من وجود رئيس البوليس السرى وراء المعتدى، ومن تسرعه فى قتله عقب ارتكاب الجريمة ، رغم أنه لم يبد منه أقل اهتمام بالقبض عليه عند أول طلقة أطلقها ، بل تركه حتى أطلق جميع رصاص مسدسه .

وعلى ذلك كله أرسلت موظفاً مصرياً (كان قد حضر لمعاونتى فى التحرى) إلى نظارة الحقانية، ليستوضح كل هذه النقط، وليستوفى التحقيق الذى وقف جامداً — وعلى الأخص مع الدكتور فؤاد للأسباب الخطيرة المذكورة — فتباطأت النظارة فى إجابة الطلب، فألححت من طريق آخر على نظارة الداخلية، فحصل من الثانية ماحصل من الأولى واكتفت الحكومة العثمانية بما عمل فى الرسميات من المحاضر الأولية فى ضبط الواقعة ، وأسدل الستار نهائياً على هذا الاعتداء . »

ولما وجد الخديو والحاشية أن الحكومة العثمانية لم تهتم باجراء التحقيق الدقيق فى الحادثة ، وخصوصاً الأمنية العمومية بنظارة الداخلية، وعلى رأسها الدكتور المذكور من دعاة الصدر، والذى لم يساعد مرتضى باشا وبدر الدين بك عند حضورهما ، بل إنه عمل على معاكستهما ، فلم يتبين ما وراء هذه الحادثة ؛ لذلك شعر الخديو والحاشية بالخطر من وجودهم فى الاستانة ، وتقرر انتداب البكباشى شفيق ، والبكباشى البشرى لابلاغ الخديو هذا القرار الخطير .

* **تبشير عباس للمصريين بشفائه** . أرسل صديق فى ١٣ سبتمبر للقائمقام برقية قال فيها : إن صحة الجناب العالى تحسنت فى العشرة الأيام الأخيرة ، وقام ببعض الزيارات ويسرنى جداً أن أبلغ عطوفتكم بأن الأطباء الذين عالجوه ، عادوه لآخر مرة اليوم وقدموا تقريراً نهائياً عن صحة سموه ، وورد فيه أن الجناب العالى شفى تماماً من جروحه

بدون أن تترك أثراً ، وأنه أصبح متمتعاً بكمال الصحة . وقد بادرت باخبار عطوفتكم بهذا النبأ السار الذى يهمكم معرفته ، لتنشروه للأمة المصرية .

* **وفاة مصطفى فهمى باشا** . فى برقية بتاريخ ١٣ سبتمبر أخبر القائمقام بأن مصطفى فهمى باشا فى حالة النزع ، فأرسل الخديو يبدى أسفه لذلك ، ويطلب منه عنوان زغلول باشا ؛ فرد القائمقام فى ١٤ منه بأن الفقيد وأصهاره رجعوا لمصر فى ٩ سبتمبر .

وفى ١٥ سبتمبر وردت برقية من المعية السنية بأن جنازة مصطفى فهمى باشا شيعت بالاكرام اللائق به .

وفى ١٥ منه أرسل الخديو برقية لمحمود صدقى باشا ، يقول فيها : « علمت الآن الخبر المؤلم بوفاة رئيس نظارى السابق مصطفى فهمى باشا ، فقدموا عزائى لجميع أسرته ، وبأنى أشاركها فى مصابها الأليم ، وأقدر هذا الرجل حق التقدير لتودده وإخلاصه لعائلتى . »

وفى ١٦ منه رد محمود صدقى باشا ببرقية ، جاء فيها : « إن عطف سموكم العظيم ترك أحسن الأثر لدى أسرة الفقيد فى هذا الظرف العصيب ، وقد كلفتنى بأن أكون رسولها فى تقديم شكرها للأعتاب الخديوية . »

تعزية عباس لسعد والرد : وفى ١٥ منه أرسل عباس إلى سعد زغلول باشا وكيل الجمعية التشريعية برقية يقول فيها : « تأثرت لوفاة رئيس نظارى السابق مصطفى فهمى باشا ، وأرى لزاماً علىّ بمناسبة هذا الحادث المفجع أن أعرب لكم عن عطفى الصميم ، وأتمنى لكم الصبر للاستمرار فى خدمة مليككم وبلادكم مدة طويلة . »

فجاء الرد فى ١٧ منه وفيه يقول سعد : « أرجو عرض إخلاصى وولائى لأعتاب أفندينا ، وشكرى الجزيل لعطفه العظيم الذى تنازل بتوجيهه إلىّ بمناسبة وفاة خادمه الأمين صهرى ، وهذا الاكرام العالى سيكون دائماً أحسن مخفف لمصابى ، وأقوى مشجع لخدمة الغاية السامية لمليكنا المفخم . »

* من ضمن برقية وردت فى ٢٥ منه ، قال رشدى إنه فى زيارته للوكالة الانجليزية قال له شيتهم : « إن برقية أفندينا لسعد بمناسبة وفاة مصطفى فهمى كان لها وقع سيء ؛ لأنها لا تعتبر تشجيعاً للمعارضة فحسب ، بل تسببها .

* **الحاح الانجليز بترك عباس للاستانة والاقامة فى ايطاليا** . سبق أن نوهنا عن زيارة سفير انجلترا لأفندينا فى ٣ سبتمبر ، وإلحاحه على سموه بترك الاستانة والسفر إلى إيطاليا ، ولم يرق فى نظر أفندينا إلحاح السفير الانجليزى فى أن يسافر إلى إيطاليا ؛ ولاسيما أنه من المحتمل أن يكون تدبيرهذا الشأن بين انجلترا وإيطاليا ، أو على الأقل أن يفاجأ فى أثناء سفره بمركب حربية تقوده إلى مالطه مثلا . ويمكن أن نقول إن التهديد بدأ من هذا التاريخ .

وفى ١٤ سبتمبر زار محب باشا سفير انجلترا ، وسمع منه كلاماً جافاً بسبب امتناع الخديو عن تركه الاستانة ، والسفر إلى إيطاليا .

وفى ١٥ منه أرسل سفير انجلترا خطاباً لمحمد عزت باشا ، يدعوه لزيارته ، فسأله عما ينويه الخديو بالنسبة لسفره لأوروبا ، فقال عزت باشا : « إن سفره غير مناسب فى الأحوال الحاضرة ؛ لأن المصريين ، وحتى الأجانب ، ينتقدونه فيقولون عنه إنه يتنزه فى حين أن مصر فى خطر ؛ وكان الأصوب أن يوجد هو أيضاً فيها . ولا أفهم حكمة منعه مع أن هذا المنع فى غير صالحكم . فقال السفير : « إنه ورد لسموه عشرة آلاف جنيه من مصر ليصرفها فى نزهة البحر الأبيض والذهاب إلى أوروبا . »

فأجاب : « إن شفيق باشا أحضر ثلاثة آلاف جنيه لسموه ، وأنه إذا كان قد فكر فى أن يتوجه إلى أوروبا وقتاً من الأوقات ، فانه كان ينوى أن يرافق نجليه إلى سويسرا للدراسة ؛ ولكن الخديو يفضل الاقامة هنا محل السيادة بما أنكم منعتموه عن دخول مصر . فتأوه السفير وقال : « كيف نعمل وعندنا عسكرى « كتشنر » يقودنا ؟ » وقد اعترف السفير للباشا بأن هذا العمل ليس فى صالح الانجليز؛ ثم طلب منه بصفته صاحب كتشنر أن يحرر له خطاباً خصوصياً يعرفه فيه بفكره ؛ فرد عليه عزت باشا : « كيف أن كتشنر الذى لم يسمع كلامك وأنت سفير ، يصغى لما أحرره له وأنا فرد بسيط ؟ »

وفى ٢٢ منه بلغنى أن سفير إيطاليا تقابل مع الخديو ، وقال له : « إن طلب انجلترا ذهابكم بحراً إلى إيطاليا معناه : تفضل يا خديو إلى مالطه . »

وفى ٢٦ منه حضر الترجمان الأول للسفارة الانجليزية لغرضين : الأول أخذ ميعاد لزيارة السفير لأفندينا ؛ والثانى لابلاغة طلب حكومته بأن يترك سموه الاستانة ليقيم فى إيطاليا .

فرفض سموه الكلام معه فى النقطة الثانية .

فلما تقابل مع سموه أخبره بأن وجوده فى الاستانة مشجع للأتراك على تجهيز مائة ألف عسكرى لاخراج الانجليز من مصر . لهذا فان السفير سيطلب ابتعاده عنها ؛ لأن وجوده بها مضر بهم ، فأجابه سموه قائلا : « أنا أعرف منك بأفكار الانجليز فى لندرة نحوى ، بما علمته فى هذا الصيف . فلا تحاول شيئاً فى هذا الأمر . ومع هذا فتلك نقطة لا دخل لك فيها ، فسأشرحها للسفير . أما ما تدعونه من أن وجودى هنا أقنع الأتراك بارسال حملة على مصر ، فاننى فى غالب المدة التى أقمتها فى الاستانة كنت مريضاً ولم أخرج للزيارة إلا قليلا ، ولم أتقابل مع الصدر إلا نادراً ، وليس لى اختلاط مع رجال الحكومة العثمانية . فلو صحّ ماتقولونه أكون أكثر مهارة من بسمارك ، ويحق لى أن أفتخر بهذا العمل . » ثم قال لنا أفندينا إن الترجمان كان قد بدأ كلامه « من العالى » رغبة فى التأثير علىّ ؛ ولكن لما رأى منى العزيمة والشدة فى المناقشة ، خفض صوته .

ثم قال الترجمان إن دورية خيالة عددها ٢٠ نفراً من العرب وصلت إلى رفح ، فحيتها النقطة المصرية التى على الحدود ، وبعد أن مكثت الدورية يومين فى الأراضى المصرية رجعت ؛ وكان من الممكن أن تكون هذه الحادثة سبباً لقطع العلائق بين انجلترا وتركيا إلا أننا اقتصرنا على إرسال مذكرة للصدر فى يوم ٢٣ سبتمبر للفت نظره الى هذه الحادثة . وقال أفندينا : « إننى أستغرب ، لأن الصدر الأعظم واسماعيل حق بك القوميسير العثمانى بمصر الذى كان عندنا أمس لم يخبرنى بشىء من ذلك ، فهل نية الأتراك غير سليمة معنا ؟ »

فأمر أفندينا عارف باشا بالتوجه إلى أنور باشا وتفهيمه المسألة ، واستحضار اسماعيل حق للتكلم معه فى هذه النقطة ؛ لنعلم هل الدولة لاتريد بقائى هنا كطلب السفير . وقد حضر إسماعيل حق والبرنس إبرهيم حلمى ، وكلف أفندينا الأول بالذهاب لطلعت بك ، والثانى للصدر

نصيحة الأتراك له بالرفض : فكان جواب الصدر أن السفير لم يعلق أهمية كبيرة على مسألة الدورية ، وأن أفندينا ليس له أن ينزعج مما يقوله السفير ؛ وما عليه إلا أن يجيبه بأنه يفضل البقاء فى الأستانة على التوجه لأوروبا

وكان جواب طلعت بك فى يوم ٢٧ منه : أن لا أهمية مطلقاً للمذكرة التى أخبر

الترجمان بها أفندينا ، وألا يسمع سموه ما سيقوله السفير من حيث السفر ، ولا يعطى له أهمية ، ويجاوبه بأنه قرر الاقامة فى الاستانة .

أما أنور باشا فقال أمس لعارف باشا: « إننى سأعمل مايلزم مع الحكومة العثمانية لأجل منع السفير من إقلاق راحة الخديو بهذه الصفة ، لأنه ليس له حق فى منع سموه من الاقامة فى الاستانة ؛ ومع هذا فان الكثير فات ولم يبق إلا القليل . »

*قطع علاقته بالإنجليز. فى ٢٨ سبتمبر جاء السفير السير لويس مالت فى الساعة الحادية عشرة . وكرر ما قاله الترجمان ، ثم قال أن حكومته استشعرت بمغزى بعض التلغرافات التى ظاهرها بسيط ، وباطنها ذو معنى سياسى ؛ من ذلك التلغراف الذى أرسل فى العيد الصغير من الجناب العالى إلى حسين رشدى باشا ، وفيه يشير سموه إلى أنه كان يود أن يكون بين المصريين فى هذا العيد ؛ وأضاف إليه ملاحظة على إرسال برقية لسعد باشا عند وفاة صهره ، يفهم منها أن الخديو يثق بسعد باشا أكثر من رجال حكومته ، وكذلك أبدى ملاحظة على برقية محب باشا للقائمقام يبشره بشفاء عباس ، وبتبليغ ذلك للمصريين ؛ وقال إن هذه المسائل أولت بطريقة تشوش الأفكار . فأجابه أفندينا بأن لعلمى بأن سعد باشا محب لرشدى باشا ، وساعده فى الجمعية التشريعية ، وهو من الرجال الأكفاء ، أرسلت له كلمتى تشجيعاً على مساعدة رشدى باشا ؛ وسبب إرسال تلغراف محب باشا ، أنه أشيع أننى فى حالة صحية خطرة حتى صرت معتوهاً ، فأردت تكذيب هذه الاشاعات ؛ أما بالنسبة لرشدى باشا ، فاننى أحبه ، وأثق به ، وهو من عائلة أصلها من قوله كأصلى ، ولا أرغب مطلقاً فى أن أجرحه فى شىء ما .

وتكلم السفير معه أيضاً فى عدم مناسبة وجوده بالاستانة ، بسبب مايقال عنه من أنه يحض الأتراك على دخول الحرب ضد الانجليز ، وأن الأولى أن يسافر إلى إحدى مدن إيطاليا على بخت المحروسة ، والحكومة المصرية تكترى له قصراً لطيفاً لمدة بضعة أسابيع . فقاطعه الخديو ، وقال : « بضعة أشهر . » ثم أضاف السفير : « وإن لأفندينا منافع مادية ومعنوية فى مصر ، فلا ينبغى له إهمالها » فأجابه سموه بما أجاب به ترجمان السفارة ، وأضاف : « صحيح أن لى مصالح فى مصر ولكن لم يعتن بها الانجليز ؛ لأننى لما اشتريت من الحكومة سكة حديد حلوان دفعت لها أربعة آلاف جنيه عن كل كيلو متر ، مع أنها لم تدفع لى إلا ثمنمائة جنيه للكيلو متر فى سكة حديد مربوط . » فقال السفير : « إن هذا الثمن جيد » فأجابه سموه متهكما : « أنا متشكر » . ثم قال :

أما منفعتى المعنوية فهى فى عـدم ذهابى لايطاليا ؛ لأنه لا يمكننى أن أخرج فى الطريق بل أكون محبوساً فى القصر ، لأن كل من يرانى يقول : هـذا ملك غريب ! ترك بلاده فى ساعة الخطر ليلهو بعيداً عنها .

ثم إن أفندينا جس نبض السفير فيما يختص بالاقامة فى سويسرا ، فأجابه بأن الحال فيها غير مطمئنة ، وينتظر حصول قحط ، فاستنبط سموه من ذلك أنه لابد من وجود اتفاق بين إيطاليا وانجلترا على إقامته فى إحدى المدن الايطالية ، حتى يكون محاطاً بالجواسيس ، ولا يمكنه أن يتمتع بحريته ؛ كما أن الاصرار على السفر فوق المحروسة ، أوجد الشك عند سموه فى نية الانجليز ، وأنه ربما كان الغرض القبض عليها فى البحر ، وإرسالها إلى مالطة مثلا ؛ حتى إن السفير لم يستحسن أن يسافر سموه إلى الضلمان . وقال : « أنا فى المرة الأولى رأيت جنابكم ميالين للسفر ، ولكنى الآن أرى تغيراً ، وأجدكم غير مترددين فى البقاء ؛ فربما أنكم مستندون إلى الأتراك » . فأجابه سموه : « حقاً فكرت فى السفر ، ولم أكن قد ملكت صحتى ، وفضلته لتغيير الهواء ؛ ولكنى الآن فى صحة تامة ، لا تحتاج إلى السفر ؛ خصوصاً وأنى بين أهلى وعشيرتى ورجال معيتى . » فقال السفير : « الأحسن أن تتروى فى طلبى ، ثم تعطينى الاجابة القطعية » . قال : « فليكن . »

ولكن السفير ظن أنه فى تردد ، وأنه ربما يمكنه أن يؤثر على سموه ويأخذ جواباً مرضياً . فقال : « إنى أرى أن صالح أفندينا يقضى باجابة طلب حكومتى ، فأعطنى رأياً صريحاً قطعياً الآن . » فاجابه : « إن تربيتى تمنعنى من أن أخفى رأيى ؛ ولذا فاننى أرفض إجابة الطلب . »

وفى أثناء المحادثة قال السفير : « إن وجود سموكم فى إيطاليا أقرب لمصر من الاستانة . » تلميحاً لما ينتظر من رجوعه لبلاده ؛ فأجابه إننى متعود على السفر ، ولى قدرة على أن أطوف حول أفريقية حتى أصل إليها . »

قال السفير : « فلى حينئذ أن أخبر حكومتى برفضكم ؟ » قال : « نعم » .

ثم سلم جنابه عليه ، فقال له سموه : « أنا أشكر لكم عنايتكم الشخصية بى ، وإننى متأكد من أنكم فى تقاريركم التى ترسلونها لحكومتكم بخصوص حركاتى وسكناتى تراعون الحقيقة . » ولم يظهر على وجه عباس وهو يروى لنا مناقشته مع سفير انجلترا شىء

من التأثر لقطع علاقته مع الانجليز؛ ولكنني شعرت بأنه يفكر فى عواقب هذا الحادث لا من الوجهة السياسية ، بل من الوجهة المادية ؛ وقد أخبر والدته بنتيجة زيارة السفير ،

بعد مقابلة السفير الانجليزى فى ٢٨ سبتمبر ، فكر الخديو فى مقابلة سفير إيطاليا ، ليستعلم منه عن وجود مخابرات بين حكومته وحكومة انجلترا فيما يختص بسفر سموه إلى إيطاليا ، فأرسل له محب باشا يرجوه فى المقابلة ، فحضر اليوم ، وعلم منه الخديو عدم وجود محادثات من هذا القبيل ، ثم أكد لسموه أنه إذا أقام فى إيطاليا فانه يكون حراً فى أعماله وحركاته وسكناته كما لو كان هنا ؛ وعرض عليه مخابرة حكومته فى هذا الشأن ليتأكد من ذلك ، فأجابه بألا ضرورة لهذه المخابرة الآن ، وطلب منه أن يبقى فى نفسه ما علمه حتى الوقت المناسب . وقد استغرب السفير الايطالى منع الانجليز له من رجوعه لمصر ، وقال إنها غلطة كبيرة ؛ وكان الأحسن لهم أن يكون بمصر تحت نفوذهم .

* تابع المخابرات الرسمية والحوادث .

فى ٢٥ منه أبرق رشدى لمحب يقول : « إن الوكالة البريطانية طلبت مراراً وقف الجمعية التشريعية إلى أن تنتهى الحرب ، بحجة إمكان تداخلها فى المسائل السياسية ، وضرورة اتخاذ وسائل قانونية عاجلة تقتضيها الظروف . فرددت بأن هذه الاجراءات ربما لا ترضى الرأى العام ، وتعتبر تقهقراً فى وجهة النظام الدستورى ؛ وإن الحل الوحيد هو تأجيل الجمعية التشريعية إلى تاريخ انعقادها المقبل . وكل قانون يصدر فى هذه الفترة يعرض بعد ذلك على الجمعية ، فينظر فيه كالمعتاد ، فقبلت الوكالة هذا الاقتراح ، ومن جهة أخرى نرى أنه موافق نظراً للحالة الراهنة ، وإن الرأى العام يقبله بدون اعتراض

وفى ٢٦ منه أجاب محب بأن الخديو لا يوافق على تأجيل موعد افتتاح الجمعية التشريعية ، لفائدة البلاد فى الظروف الحاضرة ، لأنها لا تشتغل إلا فى المسائل الداخلية وأن القوانين التى تصدر بين دورتى الانعقاد ، تعتبر مؤقتة ، ولا يعمل بها فيما بعد ، وتفادياً من المعارضة فى القوانين الهامة ، التى كان يجب أن تعرض على الجمعية لابداء رأيها فيها ؛ فلذلك رأى سموه أن يتجنب بقدر الامكان إصدار قوانين من هذا القبيل .

فكل هذه المسائل لها أهمية عظيمة . وسموه يريد ألا تتخذ قرارات من هذا القبيل إلا بعد استشارته .

الرتب والنياشين : وفى ٢٥ منه أبرق رشدى لمحب يقول : « إن السردار استعلم

عما إذا كانت الرتب والنياشين التى تمنح عادة بمناسبة عيد الأضحى للعسكريين والملكيين فى الجيش يلزم عرضها على سموه، أو يكتفى بطلب منه.»

فرد عباس فى ٢٧ منه: «بناء على الحالة، أجلوا طلبات الانعام على العسكريين والملكيين برتب ونياشين» والسبب هو منع استمالة الضباط المصريين للانجليز.

وفى ٢٩ منه أرسل عباس برقية للقائم مقام جاء فيها: «برقيتك المهمة لم تقنعنى. سفير انجلترا حضر أمس ليبلغنى رغبة حكومته الأكيدة بسفرى إلى إيطاليا، فرفضت. وبعد كل ما حصل لى، فأنا أتساءل: كيف يمكننى أن أقبل حتى رجوعى إلى مصر؟ والتفصيلات[1] بالبوستة.

كنت أحب أن أراك هنا لو أمكنك عمل اللازم.

وفى ٤ اكتوبر قال الخديو لمحب باشا: إذا لم تحضر برقية بعد يومين أو ثلاثة بسفر رشدى باشا للاستانة كطلبنا، فتذهب أنت وتقنعه بذلك، ثم ترجع. وسأله عما إذا كان يمكنه الرجوع، فقال: إننى أفعل كل شىء حتى أرجع، ثم إن سموه أظهر تألمه أيضاً من عثمان مرتضى باشا؛ لأنه لم يوافه بأخباره.

وفى ٧ منه أبرق عدلى لصديق بأن الخطابات الواردة منه لم تغير من رأيه، وأنه يشارك القائمقام فى كل نظرياته حتى الآن.

فى ٨ منه توجهت إلى جبوقلى، فعلمت أن عدلى باشا ناظر الخارجية أرسل برقية مفتوحة ليوسف صديق باشا، يقول فيها إنه أخذ خطاباته ولكنه يخالفه فى رأيه، وأنه مقتنع بما أرسله رشدى باشا فى كل المخابرات حتى الآن؛ فكأن رشدى وعدلى، وطبعاً باقى إخوانهما من النظار — أى الحكومة — فى جانب؛ والخديو فى الجانب الآخر.

وقد تألم الخديو من فحوى هذه البرقية، وكان ألمه أشد لأنها جاءت مفتوحة (بدون شفرة)؛ وقد علل سموه ذلك بأنه إما أن يكون الانجليز أمسكوا خطابات يوسف صديق، وطلبوا من عدلى أن يبدى رأيه لهم، فقال إنه على غير رأى يوسف صديق، وحينذاك أملوا عليه البرقية؛ وإما أنه أرسلها من تلقاء نفسه، دون ضغط عليه، فيكون عمله إرضاء للانجليز — وما كان يعهد فيه أن يعمل هذا العمل.

وقرر سموه أن يسافر محب باشا لاقناع رشدى باشا وعدلى باشا بوجهة نظره.

---

(١) التفصيلات المنوه عنها موجودة تحت عنوان «قطع العلائق بين عباس والانجليز»

فى ١٢ منه سافر محب إلى مصر بعد أن تناقش مع الخديو فى موضوع مهمته، وهى إقناع رشدى باشا بالسير على الخطة التى اختطها سموه لنفسه ، أى الاتفاق مع الأتراك ضد الانجليز، الذين لم يرضوا برجوعه إلى بلده، ولا بما عرضه عليهم رشدى باشا من استقلال مصر ، مع إلحاحهم فى خروج سموه من الاستانة والتوجه لايطاليا ؛ وأن يقنع رشدى باشا بأن يتخذ خطة حازمة أمام المحتلين، بدلا من قبول كل ما يطلبونه منه، لأنهم مجبرون على موالاة المصريين الآن .

وفى ١٩ منه جاءت برقية من محب ، بجمل موضوعة لا يعرفها إلا يوسف صديق يقول فيها : « إن الانجليز منعوا رشدى باشا من إرسال برقيات » (شفرة طبعا) .

وفى ٢٠ منه سافر إلى مصر أحمد صادق بك وكيل الأوقاف الخديوية ، بعد أن قضى ليلتين فقط فى الاستانة ، مزوداً بتعليمات من أفندينا لرشدى باشا ، منها إرسال عدلى باشا ناظر الخارجية للاستانة للتفاهم مع أفندينا .

فى ٢٠ اكتوبر حضر سفير هولاندة ، وزار عباس ؛ وكان قبلا قنصلا جنراليا لهذه الدولة فى مصر ، وله صلات ودية قديمة مع سموه وعائلته . ودار الحديث بينهما فى منع الانجليز لأفندينا من الرجوع إلى مصر مع أنه كان يود ذلك ، فقال السفير إن سفره على يخت المحروسة كان خطراً عليه ؛ لأن الدوارع الانجليزية كانت تقوده إلى مالطة .

كنت عرضت أول أمس على أفندينا أنه لايحسن استمرار المؤيد المنسوب لأفندينا على اتخاذ خطة مخالفة لخطتنا ، لأن الأهالى يكونون متحيرين فى تصديق أى جانب ؛ فمنعاً لسوء التفاهم ، يجب أن يعدل المؤيد خطته ، وإننا نطلب حافظ عوض بك للاستانة ، وبناء على الأمر أرسلنا برقية لعثمان مرتضى باشا بذلك ؛ فجاء الرد أمس بأن حافظ بك يفضل عدم السفر لأسباب متعددة ، فساءنا هذا الرد . وبما أننا كنا أفهمنا أحمد صادق بك أسباب طلب حافظ عوض ، فقد قررنا الانتظار لمعرفة ما سيكون عند وصول المندوب لمصر .

وفى ٢٢ اكتوبر أرسل القائمقام برقية ، وصلت فى ٢٧ منه للياور النوبتجى ، ذكر فيها أن محب باشا وصل ؛ وليس لى إلا الرجوع إلى برقياتى السالفة ، وقد أوضحت فيها كل الوسائل المهمة التى اتخذتها . ولم أنفذ شيئاً مهماً إلا بعد إخطار سموه ؛ ومع ذلك فانه لم يصلنى منه أى اعتراض على أعمالى .

وأما تأجيل اجتماع الجمعية التشريعية شهرين ، فكان قبل حضور محب باشا ، ولم أتسلم البرقية التى قال محب بأن سموه أرسلها إلىّ بهذا الخصوص . »

وفى ٢٥ منه حضر من مصر عبد الله افندى سليم البشرى ومحمود خيرى افندى ، من المعية السنية ، وأخبرا بما يأتى :

أولا — رشدى باشا لا يثق بعهود الأتراك ووعودهم .

ثانياً — أنه مخلص لأفندينا ، ومستعد للاستقالة ، إذا رغب سموه ؛ وأن سبب عدم إجابته عن طلب بيان القوة العسكرية المحتلة، والتى حضرت ، وتوزيعها هو أنه لو سأل الانجليز عن هذا البيان ، لشكوا فى سؤاله ، وأولوه بأنه تجسس ؛ فضلا عن أنهم لا يصدقونه .

ثالثاً — قال إنه أرسل برقية عقب رجوع محب باشا

رابعاً — محب باشا لم يتمكن من إقناع رشدى باشا وعدلى باشا .

خامساً — عدلى باشا أرسل برقيته المفتوحة من تلقاء نفسه .

سادساً — بعض النظار قالوا عن أفندينا : « خليه هو هناك ونحن هنا نشتغل » أى أنهم مستغنون عنه .

سابعاً — الأهالى متذمرون من تسيطر الانجليز عليهم ، ولأخذ كل شىء بما فى ذلك الأساور والحلى الذهبية ؛ ومتضررون من أن المستشار المالى قرر أن يكون قنطار القطن بستة ريالات ، بعد أن كان يباع فى السنة الماضية بعشرين ؛ وأن كل من يأخذ مبلغاً من البنك الأهلى فى نظير تسليم قطنه ، يشترط عليه قبول الثمن الذى يبيع به البنك هذا القطن مهما كان منخفضاً .

ثامناً — الأهالى خائفون لأن الانجليز يهددونهم إذا قاموا ضدهم ، ومن جهة أخرى فانهم خائفون أيضاً من تذمر الأهالى ؛ والجواسيس منتشرون فى كل البلاد ، حتى على بواخر الشركة الخديوية ، لمراقبة الذاهبين والعائدين ؛ والتفتيش عليهم فى الجمرك ، حتى على السيدات صعب جداً .

* رسالة انتقاد من عباس على رشدى يعقبها ثقة وثناء .

علم الخديو بأن رشدى باشا قد انفعل من برقية سموه إلى سعد باشا ؛ وظن أن نتيجة ذلك تعيين سعد محله عند رجوع سمو الخديو إلى مصر ؛ فأراد الجناب العالى

أن يمحو أثر هذه البرقية بابداء ثقته فى قائمقامه ؛ فأرسل الخطاب الآتى بالفرنسية بتاريخ ٢٩ أكتوبر :

عزيزى القائمقام : لاحظت أن بعض قراراتكم اتخذت بحجة أنكم لم تصلكم منا أوامر بخصوصها ، فكان الواجب عليكم من باب الحيطة أن تتأكدوا من وصول برقياتكم لنا ، وكان عليكم إرسال صورة برقياتكم بالبريد أو برسول خاص . ولو أنكم استعملتم هذه الطريقة لما حصل سوء تفاهم ، مع أنه لم يصلنا منكم شىء من ٢٧ أغسطس إلى ٢٢ اكتوبر ، ففى هذه الظروف الصعبة ، كان من الواجب ، بالنسبة للمسائل المهمة ، ألا تتخذوا أى قرار قبل أن أعطيكم موافقتى عليه . فمثلا بخصوص تأجيل الجمعية التشريعية ، علمنا أن ردنا لكم بالبرق لم يصلكم ، فكان عليكم أن تطلبوا منا الرد تحريرياً . وكذلك بما أن الحالة الحاضرة لا تستدعى الاحسان برتب ونياشين ، فقد علمنا من برقية وردت لنا من السودان أنكم صرحتم ببعضها ، مع أننا فى ردنا لكم بخصوص ذلك ، أمرناكم بعدم منحها . فاحتياطاً لهذه الأحوال نلح عليكم أن تعلمونا بكل قرار مهم لأخذ رأينا ، خصوصاً فى المسائل الخطيرة التى سنواجهها . وقد سبق أن أعربنا لكم عن رضائنا بوجودكم على رأس حكومتنا ، وإننا ننتهز هذه الفرصة لتكرار هذا الرضاء والتنويه بثقتنا التامة بكم ، وإخلاصكم الوطيد لنا ولوطنكم . وإنا لا نشك فى صداقتكم وفطنتكم ، فعليكم أن تعملوا بشجاعة وثبات وصبر متواصل لصالح بلادنا العزيزة . واعتقدوا يا عزيزى القائمقام ، بأحسن عواطفنا *



حسين رشدى باشا

---

* وفى هذه اللحظة وصلتنا برقيتكم بخصوص مقالة طنين بتاريخ ٢٤ اكتوبر . ونحن لا نجد فيها ما يستحق الاهتمام ، فالجرائد فى مصر أو فى استنبول تنشر أخباراً كثيرة ليست صحيحة ، ولا تستوجب أن تعطوها هذا الاهتمام ، وعلى كل حال فاننا نستغرب كيف اطلعتم على هذه الجريدة ، لأنها لا يمكن أن تصلكم فى تاريخ برقيتكم .

* **منع الحج ومنع التضحية والاكتتابات للصليب الاحمر جبراً .** فى ٢٩ اكتوبر أرسـل رشدى للياور النوبتجى برقيـة قال فيهـا : « جريدة طنين (التركية) نشرت حوادث يلزمنى تصحيحها لأنها تمسنى شخصياً ، فادعاؤها منع الحج فى هذه السنة ومخالفة فتوى المفتى ، وإقفال أبواب الأزهر ، كل ذلك افتراء محض . فالحقيقة هى أن الممالك التى كانت تمون مصر بالدقيق ، منعت تصديره بسبب الحرب . ومن جهة أخرى فاننـا قررنا إنقاص زراعة القطن لزيادة زراعـة القمح فى سـنة ١٩١٥ لتموين البـلاد وللتقاوى اللازمة لزراعته ؛ ولأجل ذلك فان الحكومة منعت تصدير الكمية التى كانت ترسلها من القمح إلى الحجاز ، ممـا يؤدى إلى تعـدى العربان على الحجاج . وفضلا عن ذلك عـدم وجود وابورات صحية كافية لنقل الحجاج . وأخيراً فان الحكومة المصرية نظراً للحالة الحاضرة ترى نفسها غير قادرة على تنظيم خدمة كرنتينات لائقة، بحيث تقوم بمنع خطر الأمراض الوبائية عن البلاد ، الأمر الذى يستلزم وجود الحجاج تحت مراقبة طويلة ، بدلا من إخراجهم بمجرد إتمام الاجراءات الصحية وعليه فالحكومة عرضت كل هذه الملاحظات على المفتى، الذى أصدر فتوى بأنه فى هذه الحالة ينصح بعدم الحج فى هذه السنة . والحكومة أعلنت هذه الفتوى على الجمهور ، وتركت له الحرية فى اتباع النصيحة ، وطلبت فقط من المسافر ترك مبلغ كاف للانفاق عليه لرجوعه عنـد الحاجة كما حصل فى سنة ١٩١١ ؛ ومع ذلك فان الكسوة الشريفة أرسلت مع مخصصات مكة ، وكل ما أجرته الحكومة فى هـذه المسألة لم يثر استـياء الجمهور ، والبـــلاد استمرت وستستمر هادئة .

وكذلك ما قيل من أن الحكومة منعت التضحية .كذب وإنما بالنسبة لأن البلاد معرضة لقحط المواشى ، ونظراً للحالة الحاضرة ؛ فان الحكومة طلبت من كبار العلماء تحت رياسة المفتى إبداء النصيحة للجمهور بانقـاص الضحايا إلى أقصى ما يمكن ، وقد صدرت الفتوى بالموافقة . وعليه ، فان الحكومة اكتفت بنشر الفتوى دون أى تعليق عليها ، ولم تتخذ إجراءات أخرى .

ومن الافتراء أخيراً ما قيـل من فتح اكتتابات عامة للصليب الأحمر الانجليزى جبراً . والحقيقة أن بعض الاكتتابات القليلة التى حصلت كانت تقريباً كلها من أفراد ، حتى أنه أشير بالنهى عن ذلك . »

زيارة عباس لشكر الخليفة والعائلة السلطانية والسفراء . فى ٣١ أغسطس زار أفندينا الصدر الأعظم فى « ينى كوى » ، وهى أول زيارة عملها بعد الحادثة . وقد شكره على مساعيه الخاصة برجوعه لمصر ، وكانت الزيارة ودية للغاية .

ثم قابل السلطان فى قصر يلدز ، وكان بمعيتـه الباشوات محب ومرتضى وأباظه وصاحب المذكرات ، ويوسف صديق ، وغيرهم من الحاشية ، وكان ذلك فى الكشك المسمى « جادر » الذى بنـاه السلطان عبد المجيـد فى نقطة جميـلة لها منظر على البسفور كأنه بحيرة أمام الناظر ، وله منظر آخر على بحيرة صناعية فى الجنينة ؛ وقد نزل السلطان من يلدز إلى هـذا الكشك ليسهل على أفندينا مقابلته . وكان الترتيب أن سموه يحضر بالرفاص إلى سراى « جراغان » ومنها بالسيارة إلى الكشك المذكور ، مخترقاً الشارع من محـل خصوصى . وقد استقبله على السلم الباشمابنجى ورئيس التشريفات ورئيس الأطبـاء وغيرهم ، فدخـل أفندينا عنـد السلطان ؛ أما نحن فمكثنا مع حاشية جـلالته مدة ٤٥ دقيقة ، بعدها حضر رئيس التشريفات ودعانا إلى مقابلة جـلالته ؛ فخرجنا فى البهو الذى كان بين غرفة السلطان وغرفتنا ، فوجدنا أفندينا واقفاً ، ثم حضر السلطان ، فأدينا التحية بأخذ السلام ، وقدمنا سموه إلى جلالته .

ثم زار فى أول سبتمبر أيضاً سفير النمسا ، وقد رحب بسموه كثيراً ، وأظهر له ممنونيـة عظيمة لرؤيته فى صحـة تامة ، خصوصاً وأن الصلات الحبيـة بين الاثنين كانت كبيرة وقديمة .

ومن هناك ذهب لسفارة أمريكا ، فلم يجد السفير ومنها زار سفير ألمانيا ؛ وسمع منه أن الألمـانيين مصممون على سحق وتخريب الدولة البريطانية ، وعندهم مدافع برية ترمى إلى بعد ٣٢ كيلومتراً لاستعمالها بوضعها فى كاليه عند أخذها ، لمنع وصول المراكب التجارية من انجلترا ، لما هو معروف من أن المسافة بين كاليه وبين الشواطىء الانجليزية أقل من ذلك أو تقرب منه ، وكذلك عندهم الطيارات المسماة «زبلن» فسيكون لها شأن فى محاربة الانجليز ؛ وزار سفير إيطاليا ؛ ثم سفير روسـيا ، ولم يجده فترك له بطاقته .

أما سفير انجلترا فكان أفندينا قد أخر زيارته للغد ، فألح محب باشا فى أن يزوره اليوم ، وأرسل الباشا جواباً للترجمان بذلك . ولـكن هذا رد باعتذار السفير لعدم وجوده .

وزار أيضاً اليوم بعـد الظهر سـفير فرنسا ، فأبلغه أن الانجليز والفرنسيين لايفكرون فى اقتحام الدردنيل لمناعته ، بوضع الألمـان مدافع كبيرة فى الحصون ، وإلغام

البحر ، مما يصعب معه على الأسطول أن يخترق الدردنيل . ثم حضر حسن بك رئيس تشريفات ولى عهد السلطنة، للسؤال عن صحة أفندينا من قبل سموه الملوكى ، فشكره أفندينا وأمر بكتابة رسالة لطيفة لولى العهد ووقعها ، وانتدب محب باشا وعارف باشا لحملها وتقديمها ، ثم زيارة وحيد الدين افندى وغيره من العائلة السلطانية ، شكراً لهم من قبل أفندينا على سؤالهم عنه مدة مرضه ، والاعتذار لهم عن عدم إمكانه زيارتهم شخصياً .

وفى يوم ٤ منه حضر سفير روسيا لرد الزيارة لسموه ، وقال له : إن الأحسن وجوده بالاستانة ، لينصح المتهوسين من الأتراك بعدم خوض غمار الحرب الحالية كما تريد ألمانيا ، وهو يقبح عمل انجلترا من حيث طلب خروجه من الاستانه ، وقال السفير إن هذه الحرب تطول ستة أو سبعة أشهر .

وفى ٩ سبتمبر جاء سفير النمسا وقابل الخديو ، ففهم من حديثه أن حالة الجيش النمساوى ، سيئة وأنه ينتظر بفروغ صبر انتهاء القتال مع الفرنسيين ، حتى تتمكن ألمانيا من إرسال نجدة عسكرية لمساعدة النمسا .

عباس والصدر والحزب الوطنى . فى ٣ سبتمبر وردت للخديو رسالة من محمد فريد رئيس الحزب الوطنى يهنئه فيها بسلامته من التعدى وبحلول العيد ، ويظهر امتنانه من عطف سموه على رجال الحزب مثل الصوفانى وغيره ، وقال ما معناه : « إنه يلزمنا انتهاز الفرصة الثمينة الحاضرة للعمل معاً » .

وفى اليوم نفسه كنت تحدثت مع اسماعيل أباظه ويوسف صديق وعثمان مرتضى فى تنظيم برنامج للسير بمقتضاه ، ثم عرضه على أفندينا؛ ولكن علمت من الأول أنه لايبت فى شىء إلا بعد حضور محمد فهمى بك التشريفاتى من مصر ، وإطلاعنا على الأوراق التى يحملها من قبل رشدى باشا . وقال أباظه باشا : « إن أفندينا يفكر فى الذهاب والمكث فى الضلمان ، لأنه إذا ذهب إلى إيطاليا يدعى الحزب الوطنى أنه يسعى ضد صالح مصر . »

وفى ٧ منه ركبت مع أفندينا واسماعيل أباظه وذهبنا إلى ببك فى الصباح ، وبعد وصولنا إليها حضر يوسف صديق ، والدكتور سيد كامل ، وكانا منتدبين لمرافقة محمد فريد بك ، لأنه وصل من سويسرا للاستانة أمس الأول ، فأخبر يوسف صديق أنه لما تقابل مع فريد صباح اليوم فى الفندق ، رأى منه ميلا للتفاهم مع الخديو ، واعترف بأنه لايمكن للحزب ، ولا للأتراك عمل شىء بدون مساعدته .

ولما قابل فريد بك أفندينا أخذ ينفى عن نفسه تهمة التعدى ، ثم قال إنه يعتذر عما حصل منه من الخطأ ، لأنه كان مقتنعاً بأن أفعاله كانت فى صالح الوطن ؛ فطمأنه أفندينا ، وعرفه بأنه لم يخطر بباله أنه تدخل فى حادثة التعدى عليه ، وقبل اعتذاره بكل صفاء ، فى هذا الوقت الذى يلزم فيه جمع شمل المصريين .

ثم أمره أن يتوجه لطلعت بك وأنور باشا لمعرفة ماينوى الأتراك عمله فى مصر ، وتبليغه لنا . وبعدها بقليل حضر الشيخ البوريني يرافقه الشيخ عبد العزيز جاويش الذى نفى عن نفسه تبعة الحادثة ، وتبرأ منها ؛ فقال له أفندينا : « أنا لا أخليك من المسئولية ، لأنه كان يجب عليك أن تنصح لهؤلاء المتهوسين من الشبان أن يتبينوا الأمور ويعقلوها ؛ فان مصر لا تنتفع من ضررى . وعلى كل حال فان الوقت يقضى علينا أن نكون الآن كتلة واحدة ، للعمل لما فيه صالح مصر والمسلمين ، وأن نفكر فى العمل الذى تنويه الدولة فى مصر . »

فقال الشيخ جاويش : « أنا أعرف أنك يا أفندينا تحادثت مع أنور باشا ، وأعرف أنه متحقق من شىء ، وهو أن الدولة لا يمكن أن تعتمد فى عملها على شخص خلاف أفندينا ، وأنه أخبر الاتحاديين بذلك » . ثم خرج الشيخ جاويش مسروراً مما سمعه .

وفى ٩ منه حضر محمد فريد بك إلى اليالى (قصر ببك) ومعه اسماعيل لبيب بك من أركان الحزب الوطنى ، الذى حضر من مصر وأفضى لسموه بحالة البلاد وأعمال الانجليز .

وفى هذا اليوم قابل سموه على الشمسى بك عضو الجمعية التشريعية ، وتداولوا جميعاً فيما يجب عمله .

وفى ١٢ منه حضر محمد فريد بك واسماعيل لبيب بك ، وقابلا أفندينا ، وأعلماه بحديثهما مع أنور وطلعت .

وفى ٥ اكتوبر تقابل سموه مع محمد فريد بك واسماعيل لبيب بك فى قصر ببك بعد الظهر ، وكلفهما بكتابة أسماء الفدائيين الذين يعول عليهم من أعضاء الحزب الوطنى ؛ وذكر أن الواجب التفكير فى طريقة تحريض الطلبة المصريين على القيام بواجبهم نحو الوطن .

وفى ٧ اكتوبر قابل الجناب العالى فى ببك فريد بك واسماعيل لبيب ، وتحادثوا فى الشئون المصرية .

وفى ١٢ منه جاء محمد فريد بك واسماعيل لبيب ، فجمعنى الخديو بهما بحضور

يوسف صديق والسيد كامل ، وتباحثنا فى الحالة ، فتقرر تحضير منشور من سموه يوضح فيه الغرض من إخراج الانجليز ، والمحافظة على الأرواح ، من مصريين وأجانب ، والعفو عن المحكوم عليهم سياسياً ، والوعد باعطاء الدستور التام .

وفى ١٤ منه حضر لجبوقلى محمد فهمى رئيس جمعية أبى الهول فى جنيف مع على الشمسى بك وكيل هذه الجمعية والعضو فى الجمعية التشريعية ، ومعه أحد أصحابه مسيو فلاك مكاتب فرانكفورت روتنج ، وقابلوا الخديو .

وفى ١٧ منه قابل سموه بعد الظهر فى ببك محمد فريد بك ، واسماعيل لبيب ثم صاحب جريدة ألمانية كانت تطبع فى مصر (يجبتن ناخرختن) وعطلت عقب إعلان الحرب من انجلترا على ألمانيا ، ثم محمد فهمى بك وعلى الشمسى بك ، وأخيراً حضر أنور باشا ومكث مع سموه ساعة كاملة .

وفى ١٨ منه حضر محمد فريد بك واسماعيل لبيب بك لجبوقلى بعد الظهر ، وقابلهما سموه مع وجودى أنا ويوسف صديق باشا ؛ ومن المحادثة علمنا أن البرنس ابراهيم حلمى أخبر أفندينا بأن الصدر كلمه عن فريد ، وانتقده على وضع شارة مكتوب عليها مصر للمصريين ؛ وأنه سأله عن البرنامج الذى ينوى السير عليه ، فأجابه بأن لا برنامج عنده ، وعلى هذا حكم الصدر على الحزب الوطنى بأنه دجال ؛ فقال فريد : « نعم إننى توجهت لمنزل الصدر وقابلته ، ولم أرد أن أعلمه بشىء لأننى لا أثق به ، وإنه أرسل مع محمد راسم بك يقول : إن الصدر مستعد لمقابلته ليلا بمنزله ، ولكنه لم يتوجه إليه . فقال الخديو :

« إن الصدر لما رأى التفافكم حولى ، استشاط غضباً ؛



سعيد حليم باشا « الصدر الأعظم »

لأنه يرمى إلى غرض آخر ، يشتغل فى تنفيذه مع الشيخ عبد العزيز جاويش والدكتور احمد فؤاد وحلمى المسلمى افندى ومحمد عماد الدين ، فقال فريد : « بلغنا أن فى عزمهم تشكيل حزب وطنى آخر » .

فقال الخديو : « إن غرض الصدر هو أن يكون خديوياً على مصر . » فقال فريد واسماعيل لبيب : « هذا مستحيل ، وإن المصريين لا يرضون بأحد غير أفندينا » فأجاب سموه مقسماً ثلاثاً : « إننى لا أطمع إلا فى خلاص مصر من الاحتلال ؛ ثم إن أرادت الأمة غيرى ، فاننى أسلمه الأريكة » فكرر الحاضرون قولهم بأنهم لا يرضون عنه بديلا ؛ فقال سموه : « والذى يؤسفنى هو أن الصدر ملتف بمصريين منشقين يعلنون عداءهم لنا ، مع أنه لا يليق بصدر هو رئيس حكومة ، أنا موجود فى ضيافتها ، وهو من أسرتى ، أن يفتح بابه لمثل هؤلاء الناس . »

وفى ١٩ اكتوبر حضر إلى ببك الشيخ عبد العزيز جاويش وقابل الخديو ، ملتمساً منه أن يأمر محمد فريد بك باشراكه معه فى البرنامج الذى ينفذه ، مع أنه كان يبتعد عنا .

ولما خرج الشيخ جلس معى ومع الشيخ البوربنى ، وأخذ الشيخ جاويش يذكر معلومات عن الحركة القائمة فى فارس والأفغان وفى عدن وفى الهند ضد الانجليز ؛ ولما جاء ذكر مصر ، والأمل فى تحريرها ، ونشر التعليم فى جميع جهات القطر ، قال الشيخ البوربنى : « وعندها يعين الشيخ جاويش للاشراف على نشر التعليم . »

وفى ٢٠ اكتوبر حضر محمد بك فهمى ، وعلى بك الشمسى فى ببك ، وقابلا أفندينا وأخبراه بما دار من الكلام بينهما وبين سفير ألمانيا صباح اليوم .

وفى ٢٣ منه دعا سموه لتناول الغداء فى الكشك الكبير محمد فريد بك والشيخ عبد العزيز جاويش ، واسماعيل لبيب ، والأستاذ محمد فهمى ، وعلى الشمسى بك ، ثم جلال الدين باشا صهر سموه ، ويوسف صديق باشا وعارف باشا ، والدكتور السيد كامل افندى ، والشيخ البوربنى ، وابراهيم ادهم بك الياور ، وصاحب المذكرات ؛ وهى أول دعوة أقامها بعد شفائه ، وحضرها بنفسه ، وأكل فيها لحماً ؛ وكان الحديث فى أثناء الطعام ودياً ، والشيخ جاويش مسروراً ؛ وبعد شرب القهوة جلسنا مدة ساعة ، ثم انصرفوا ما عدا فريد بك واسماعيل بك .

وفى ١٣ نوفمبر سمعت من تصريحات الخديو ، أن حلمى المسلمى افندى الموظف

بالخارجية العثمانية، والذى ينتمى للصدر يجمع فى غرفته الشيخ جاويش، والدكتور احمد فؤاد وفؤاد سليم بك لتأليف حزب، يسمى حزب مصر العثمانية، يرمى إلى جعل القطر المصرى فى صف الولايات؛ ولاحظ سموه أن فريد بك غير قوى ولا نشيط؛ وكان من الواجب أن يجمع هؤلاء تحت جناحه، فهو غير قادر على مقاومتهم وهم خصوم، ويجب على فريد بك أن يكون يقظاً لهذه التدابير التى يحكمها الصدر.

وفى ١٤ منه قابلت، والسيد كامل افندى، واسماعيل لبيب بك، الجناب العالى، فأخبرنا أن البرنس ابراهيم حلمى باشا وسيف الله يسرى باشا حضرا عند سموه، وهما مكلفان من الصدر أن يبلغاه: —

أولا — أن الصدر بلغه خبر بأن أفندينا عين فريد بك رئيساً للمجلس النيابى.

ثانياً — أن فريد قال إنه يجب خروج العساكر التركية من مصر بعد دخولها فيها بأربع وعشرين ساعة.

ثالثاً — ينتقد على فريد بك ادعاءه بأن مصر للمصريين.

رابعاً — إذا كان الأمر كذلك فلا لزوم لتوجه أفندينا مع الحملة.

فقال سموه: « لو كان فريد بك يستهوى لهان الأمر من زمن بعيد » ثم شرح كيف أن فريد بك قد انضم إلى سموه بعد أن أرسل إليه خطاباً قال فيه: « إنه قد آن الأوان للاتحاد والوئام، وانتهاز هذه الفرصة لخلاص مصر. »

وقال فريد بك: « لقد قابلنى سيف الله يسرى باشا فعلا فى طوقاتليان وأخبرنى بما قاله الصدر عنى، فأظهرت عدم اكتراثى بهذا الكلام » فرد عليه الباشا قائلا. « يجب ألا تستخف بما أقوله لك، وإلا اضطر الصدر إلى اتخاذ إجراءات » فقلت: « إذا أراد الصدر أن أذهب إليه وأتفاهم معه فاننى مستعد لذلك. »

ولما سمع الخديو ذلك قال: « إننى أنوى زيارته لأبلغه جوابى عن هذا الكلام. »

وفى ١٤ نوفمبر قال لنا سمو الخديو: « لقد طلبت من البرنس ابراهيم حلمى أن يحمل إلى الصدر ردى على جميع النقط التى أبلغنى إياها، وقلت له إنه لا حق له فى انتقاد حاشيتى لقولها: إن مصر للمصريين؛ لأن هذا مطابق للفرمانات التى تخول لمصر استقلالها الداخلى، وما قلنا يوما بالانفصال عن تركيا فيما لها من السيادة الخارجية، والمصريون متعلقون بتركيا شديد التعلق، بدليل التبرعات الكثيرة التى جمعت فى زمن الحرب

الطرابلسية ، والحرب البلقانية . وأما ما أشيع عن فريد بك من قوله بعدم وجود الجيش التركى بمصر بعد دخوله فيها أكثر من أربع وعشرين ساعة ، فهذا غير صحيح ؛ لأن هذا الجيش لا بد أن ينتظر نتيجة انعقاد مؤتمر الصلح الذى تعرض عليه المسألة المصرية ؛ وذكر سموه أن البرنس ابراهيم قال له : إن الصدر ينتقد على كسوة سموه العسكرية ، فأجاب بأنها ليست كسوة انجليزية ، بل عملت بواسطة الأمريكيين الذين كانوا قد حضروا إلى مصر بصفة أركان حرب فى مدة جده ، وليس فى وجود كسوة عسكرية مخالفة لما هو فى الجيش العثمانى ما يستوجب النقد ؛ لأن لباس الجيش البافارى مخالف للباس الجيش البروسى ، فاذا كان رجال الدولة يريدون أن تكون مصر بالنسبة لتركيا مثل بافاريا لبروسيا ، فلا محظور حينئذ من أن تكون للجيش المصرى كسوة مخصوصة . وذكر سموه أن البرنس ابراهيم قال له : إن الصدر يهدد فريد بك بنفيه إلى سينوب ، فقال سموه : « إلا هذه المسألة فليس للصدر سلطة عليه . وإذا كان هذا الأمر جائزاً فى تركيا فانه لا يجوز فى مصر . »

وكان الصدر قد قال أيضاً إنه نبه على طلعت بك بألا يقابل فريد بك ، وكذلك على انور باشا ؛ فقال سموه . « إن الصدر يتكلم ضدنا من بعيد ، فيرسل إلينا كلاماً بواسطة البرنس ابراهيم ، وأنا لا أستطيع السكوت على ذلك ، فسأذهب إليه وأعرفه بأنى سأزور أنور باشا وطلعت بك وسفير ألمانيا ، وأبلغهم هذا الكلام . ثم كلف سموه فريد بك زيارة انور باشا والسفير ، ومخاطبتهما فى هذا الموضوع ، وليعمل ترتيباً بأن يطلب طلعت بك مقابلة فريد بك ، ويكون هذا بمثابة ترضية عن قول الصدر بأنه منع طلعت بك من مقابلة فريد . »

وفى ١٥ منه تقابل فريد بك مع طلعت بك ، ولما أخبره بما قاله الصدر فى حقه ، أجاب بأن أقوال الصدر لا قيمة لها ، والدليل على ذلك أنه تقابل معه . ثم أضاف : « لا تعيروا هذه الأقوال التفاتا ، ولكن من جهة أخرى يلزم أن تنصح للمصريين بأن يكموا أفواههم عن الكلام غير المناسب ، فبعضهم يقول برجوع الخديو لمصر ، وآخر يقول بعكس ذلك ؛ وتغالوا فقالوا بتعيين كل من يكون فى ولاية عهد السلطنة خديوياً على مصر ، حتى يكون سلطاناً فينتقل إلى الاستانة ، وولى عهده يذهب إلى مصر ؛ وهكذا من الأقوال الدالة على الغباوة . فالأحسن أن تتفقوا وتتحدوا » . فأجابه فريد بك : « إن المصريين جميعاً لا يريدون خديوياً غير عباس حلمى باشا » ولما سمع الخديو هذه الرواية ، قال : « هذه تدبيرة من عماد الدين وكيل الصدر ، والشيخ جاويش ، والدكتور احمد فؤاد

وحلمى المسلمى افندى ؛ والغرض من ذلك إيجاد التشويش فى الأذهان، والترويج لأن تكون مصر ولاية عثمانيـة ، واتفق فى الحال على أن ينشر فريد بك فى الجرائد خبر مقابلته لطلعت ، بك فيكذب بهذا ادعاء الصدر

وفى هذا اليوم حضر اثنان من المصريين، وهما (م . افندى و ى . بك)؛ فأخبرهما سمو الخديو بمسألة الصدر، وقال: « إننى لم أتعاقد مع فريد بك ولا تكلمنا فى تعيينه فى أية وظيفة ، وأن مصر لا يمكن أن تكون إلا للمصريين ، فاذا مت بعيداً عن مصر، فأرسلوا جثتى لتدفن فيها . فلا معنى لانتقاد الصدر على فريد بك، لأن هذا يقول إن مصر لأهلها ؛ نعم إنها ولاية ممتازة تابعة للسلطان وللدولة ؛ وقد قلت لعمى ابراهيم إننى أعترف بخلافة السلطان وأعترف بسيادة الدولة على مصر والعملة باسم السلطان ؛ وفى الجواز المصرى أن حامله من التبعية العثمانية . »

وفى ٢٢ منه ذكر فريد بك أنه لمـا كان على محطة حيدر باشا لتوديع جمال باشا وكان واقفاً مع الشيخ جاويش ، مر عليهما جاويد بك ، فحيا فريد بك أحسن تحية ، ولم يقرىء الشيخ جاويش السـلام ؛ فاذا قورنت هـذه الحادثة بما سمع مراراً من طعن الشيخ جاويش فى جاويد بك ، سواء أيام كان ناظراً المالية أو بعد استقالته ، استنتج من ذلك أن العـداء مستحكم بينهمـا ؛ ولمـا كان من المعروف أيضاً فى الاسـتانة أن خيرى افندى شيخ الاسلام فى الدولة هو الذى أخرج الشيخ جاويش من موضوع الجامعة الاسلامية فى المـدينة وأبعده عنهـا ، وأنه ترتب على ذلك وجود عـداوة بين الشيخ وخيرى افندى شيخ الاسـلام ؛ فحينئذ يكون من المحقق وجود عدوين من كبار رجال الدولة للشيخ جاويش : أولهما خيرى افندى وثانيهما جاويد بك .

وفى ٧ ديسمبر ارسـل سمو الخـديو عارف باشـا إلى الصـدر ليبلغه أن سموه سيحضر لزيارته غداً الساعة العاشرة صباحاً فى « بنى كوى » ، فأجابه الصدر بأنه وإن كان مريضاً اليوم ، حتى إنه لم ينزل لمقـابلة السفراء فى الباب العـــالى ، فانه سيستعد لاستقبال سمو الخديو فى الميعاد .

وفى اليوم نفسه ذهب الجناب العالى إلى ميركون وأخذ البرنس ابراهيم حلمى باشا معه ، وتوجها لزيارة الصدر .

وبعـد هذه الزيارة توجه سموه فقابل سفير ألمـانيا . وربما كان قد أطلعه على مادار من الحديث بين سموه والصدر، وما دار كذلك بينه وبين طلعت بك وخليل بك

أمس . ولما عاد من زيارة سفير ألمانيا تناول الغداء فى ببك ؛ وكان معه غير الحاشية كل من البرنس ابراهيم حلمى ، ومحمد عزت باشا .

وفى بداية تناول الطعام حضر الشيخ عبد العزيز جاويش ، فنزل الدكتور السيد كامل بأمر الخديو لدعوته ، فتناول الطعام مع سموه والحاضرين .

وفى ١٠ ديسمبر قابل على جلال باشا سمو الخديو بعد الظهر، ودار بينهما حديث عده الخديو جرأة وقحة ؛ إذ قال لسموه (معرباً طبعاً عن أفكار الصدر) بأن سفره إلى الخارج خطر جداً .

فسأل سموه : « ومن أى وجه ؟ » فقال جلال باشا ؛ إذ تكثر التقولات عن سموه . فقال سموه ، إنه يسمع كثيراً منها وهو فى الآستانة ، قال الباشا . ولكنها تتضاعف وتكثر عند سفره . فقال له : « لهذا أسافر حتى لا أسمع شيئاً من هذا » فقال الباشا بوقاحة إن سموه يعتمد على الأقاويل التى تحكى فى طوقاتليان .

فرد سموه : « إن تلك الأقاويل التى تحكى فى طوقاتليان تنقل إلى يني كوى » ثم أذن له سموه بالانصراف ، فاستأذنه جلال باشا بالانتظار فى الطابق الأسفل ، فأذن له . مع أن الواجب كان الخروج فى الحال من السراى .

وفى هذا اليوم ذكر يوسف صديق باشا أن سمو الخديو مهتم بمسألة انتداب البرنس ابراهيم حلمى باشا ، ليسير مع الحملة التركية ، حتى إذا وصلت إلى مصر، كان دولته قائمقام خديو . وقد قبلت ألمانيا هذه الفكرة ، أما الصدر الأعظم فقال إنه لايستطيع البت فى هذه النقطة إلا بعد محادثة أنور باشا . أما طلعت بك فقال إنه سيستشير الصدر .

الاتفاق الثلاثى بين ألمانيا وتركيا وعباس . فى ٨ سبتمبر زار أنور باشا أفندينا فى ببك ، ومكث عنده نحو ٤٥ دقيقة ؛ وعلمنا منه أنه قال بأن تركيا لايمكنها أن تدخل الحرب إلابعد شهر؛ وأن ألمانيا لاتنتهى من حربها مع فرنسا قبل عشرين يوماً ؛ وأن رومانيا مترددة فى دخولها الحرب مع تركيا وبلغاريا ضد روسيا .

وفى ١٠ سبتمبر سمعت من الخديو أن ألمانيا أرسلت للدولة ثلاثة ملايين جنيه وألفى بندقية ، و٤٥ بطارية مدافع وذخائر ، و ٦٠٠ ألمانى يحذقون الرمى والمدفعية ؛ ووعدت الدولة أنها إذا دخلت فى الحرب فانها تعطيها جزءا من الغرامة الحربية التى تأخذها من فرنسا ، تساعدها على دفع ديونها .

وفى ١٢ سبتمبر سمع الخديو بأن نجل أمبراطور ألمانيا المسمى يواقيم أصيب فى ميدان فردون بقطعة من قذيفة الشرنبل ، وجرحته ، فأرسل برقية لوالده يهنئه فيها بنجاة نجله ، ويسأل له الشفاء . فأجابه غليوم برقياً بعبارة لطيفة ، وكلف سفيره بالاستانة تبليغها . وقد حضر السفير فى هذا اليوم نفسه بصفة رسمية ، وقابل افندينا ، وسلمه نسخة من البرقية بعد أن قرأها عليه بالألمانية ؛ وقد لاحظ سموه أن السفير لما قرأ الجملة الأخيرة «سعادة مصر» نظر إليه كأنه يقول : افهم معنى هاتين الكلمتين جيداً .

أما البرقية فهى : « إننى أشكر لسموكم أحسن الشكر على برقيتكم التى أرسلتموها بمناسبة جرح ابنى يواقيم ؛ وأطمئنكم بأنه فى القريب العاجل يشفى من جراحه ؛ ويعود لساحة الفخر . وإنى أنتهز هذه الفرصة لتبليغ سموكم إحساساتى لشخصكم ، وتمنياتى لسعادة مصر . »

فقال الخديو : هذه البرقية ذات معنى ، لأننى فى برقيتى لم اتكلم عن المانيا ولا عن الحرب ، فكون الأمبراطور لا يقتصر فى الرد على الشىء الشخصى ، وقال « سعادة مصر » كأنه يقول : « إننى لا أنسى مصر » .

من خطاب سلمه عباس للصباحى فى ١٥ سبتمبر لرشدى باشا جاء فيه : أصدرت الحكومة العثمانية قراراً بالغاء الامتيازات الأجنبية ، وأبلغته للدول ؛ وقد حصلت مظاهرات فرح من الأمة ثلاثة أيام . ومجلس الوكلاء سيقرر فى جلسته المقبلة تبليغ الالغاء لمصر لتنفيذه ، فعندها يلزم على قائمقام الخديو أن يتروى جيداً ، ويظهر الشجاعة والشهامة ، وألا يقرر شيئاً إلا بعد عرضه على افندينا ، وأن يلقى المسئولية على سموه .

فى ٢٠ سبتمبر جاءت برقية فى المساء من رشدى ، بأن العساكر الهندية وصلت ، وعملت الاجراءات اللازمة كالتبخير وغيره لمنع الكوليرا ، فيما إذا كانوا حملوها من بلادهم .

وفى ٢١ منه أرسل افندينا عارف باشا لأنور باشا ناظر الحربية ، يعلمه بورود برقية حسين رشدى ، بوصول عساكر هندية إلى مصر .

وتقابل افندينا مع أنور باشا فى سفارة المانيا ، وتكلم معه ؛ وأظهر له كل الاستعداد لمساعدة الدولة ؛ وقد روى لى ذلك يوسف صديق باشا .

وفى ٢٨ منه أرسل الخديو برقية رداً على ما جاء من رشدى باشا بخصوص حضور عساكر هندية بمصر ، فقال إنه لم يعرف مقدارها ، ولا أنواعها ، ولا المحلات التى عسكرت فيها ، ولا التأثير الذى حصل للأهالى من حضورها ؛ وطلب تعريفه عن ذلك .

وفى ٣٠ منه حضر أحد رجال الحرس الخديوى من مصر ، ومعه أشياء لسموه وخطابات ؛ وأخبرنا أن الهنود ، وعددهم عشرة آلاف ، وزعوا بين رمل الاسكندرية ومصر الجديدة ، وبلبيس ؛ وأن نصف فرقة انجليزية فى السويس، وأخرى فى الاسماعيلية وثالثة فى بور سعيد ؛ وأن عدد العساكر الانجليزية فى القاهرة ألفان ؛ وسافر الباقى وعدده أربعة آلاف إلى مرسيليا ؛ أما القوة الهندية فبعد أن استراحت سافرت هى أيضاً إلى مرسيليا، وحلت قوة أخرى محلها، تقدر بثمانية آلاف وزعوا كالآخرين . وبين الرجال من هو مسلم ومن هو وثنى ، ومن هو حليق ومن هو بلحية .

ومعهم ثلاث بطاريات (ميدان) وفرقة مكسيم ، وأن العساكر الهندية تمر بشوارع مصر لارهاب أهلها ، ويقول الراوى إنهم ضعفاء ، حتى أن بعضهم وقع من تعب المرور فى المدينة .

وذكر أن كثيراً من السكان عرفوا أن سبب بقاء سموه خارج القطر هو منع الانجليز له من الرجوع لبلاده ، وأنهم خائفون عليه .

فى ٢ نوفمبر عرض الدكتور سيد كامل فكرة مؤداها أن سفر أحد المصريين إلى مصر مفيد فى الوقت الحاضر : أولا ليدل الناس المخلصين هناك إلى الانضمام إلى تركيا وحليفاتها ، بحيث تكون الحركة فى مصر موافقة لحركتنا فى الاستانة ؛ وثانياً ليقابل أعضاء الجمعية التشريعية الذين يعرفهم ، ويقنع العدد الممكن منهم بصواب خطة الخديو .

وفى ١٢ منه تكلم سمو الخديو عن مقدار نفوذ سفير ألمانيا فقال : « إننى إذا حادثته فى شىء مما يهمنا ، قال : بأنه ممتن لما وصل إليه من الاتفاق مع الأتراك ، وليس فى استطاعته التدخل فى التفاصيل ، ثم أضاف سموه : إننا فى بداية الأمر أظهرنا لسفير ألمانيا ما نقدر على عمله وما لا نقدر ، ليعلم كل ما يمكننا عمله ، ولو كانت لدينا قوة ذاتية يعتمد عليها ، لرأينا سفير ألمانيا هو الذى يسعى إلى مقابلتنا .

وفى ١٥ منه أمر أفندينا الزائرين المصريين م . افندى و ى . بك بالتوجه إلى سفير ألمانيا مع فريد بك ، وتفهيمه أنهم متفقون مع سموه فى كل شىء ، وأنهم يظهرون استياءهم من كلام الصدر .

وذكر (م . افندى) أنه اتفق منذ أسبوع مع السفير على أن يتوجه إلى جنيف ، ويكتب فى جرائدها لمصلحة التجريدة المصرية ، ويفهم العالم أن الأتراك هم الذين قرروا ذلك ، وليس لألمانيا دخل ، يعنى أنهم غير مسوقين ، أما (ى . بك) فقد تقرر أن

يرجع إلى مصر لافهام الناس ـ وخصوصاً أعضاء الجمعية التشريعية ـ بكل ما هو حاصل هنا من الاتفاقات بين ألمانيا ورجال الدولة بالنسبة للتجريدة ، وأن الغاية طرد الانجليز لا احتلال البلاد ، ويأخذ معه صورة من منشور الخديو وصورة من إعلان السلطان للجهاد (وسننشر صور هذه المنشورات فيما بعد)

أما مهمة (د . افندى) بسويسرا فهى أن يقيم فى جنيف ، ويتقابل مع موسيو زجرلر الألمانى ، الذى كان واسطة فى إرساله إلى الاستانة ، ويتفق معه على خدمة المسألة المصرية ، ثم ليعلمنا الأخبار غير السارة عن انهزام الجيوش الألمانية والنمساوية ، أو طلب مفاوضات الصلح مما لا تذيعه جرائد الاستانة ، وليكلم قنصل إيطاليا ويعطيه التأكيدات اللازمة بعدم التخوف من حركة المصريين وتركيا فى مصر ، ويفيدنا عما يصل إلى سويسرا من أخبار مصر ، أى أن مهمة (د . افندى) هى أن يقفنا على ما لا يمكن أن نقف عليه فى الاستانة ، وقد وضعنا لكل هذه الحالات اصطلاحات .

وقد أوصى أفندينا (م . افندى) بأن يكون كل ما يكتبه لمصلحة مصر قبل كل شىء ، وأخذ معه صورة فرنسية من المنشور الخديوى ، بحيث لا ينشرها إلا عندما تصل إليه برقية من عندنا ؛ كما نبهنا على اسماعيل لبيب بك بذلك ، وقد أخذ معه ألفاً وخمسمائة نسخة من المنشور باللغة العربية .

وفى ١٩ منه لم يستطع (ى . بك و م . افندى) السفر إلى أوربا ، وذلك لتأخرهما عن اليقظة مبكرين ، وقد حضر بعد ظهر اليوم ثانيهما إلى سراى ببك ، وعرض على الخديو أنه كتب حديثاً باللغة الفرنسية عن أحوال مصر ، وكان قد خصصه لمسيو شويدلر الألمانى ، باعتباره محرراً فى (عتما نيتشرلون) ، وباعتباره وكيلا لشركة وولف التلغرافية الألمانية ؛ ولكنه فكر فى إيصاله أيضاً إلى الشركة العثمانية التلغرافية ، فصرح وكيل هذه الشركة — وهو عثمانى — بأن فى هذا الحديث نقطة خطيرة ، وهى النص على ضرورة المحافظة على فرمان تولية الخديو الحالى؛ وفضل أن يرجع إلى الصدر الأعظم ، وطلعت بك فى قبول نشر أو رفض هذا الحديث بواسطة الشركة العثمانية . وقد أظهر أفندينا عدم الاهتمام بهذا التردد من جانب وكيل الشركة العثمانية .

فى ١٧ نوفمبر حضر إلى سراى جبوقلى (م . افندى و ى . بك) وقد أمر سموالخديو أن تؤلف جلسة منهما ومنى والدكتور سيد كامل لعمل شفرة يأخذ منها (د . افندى) نسخة لاستعمالها فى مهمته بسويسرا ، وتبقى أخرى عندنا . وقد وضعنا فعلاهذا القاموس

وفى ٢١ منه قال سموه : « لقد أعطيت كلمتى فى نفس سفارة ألمانيا أن أسير بالصراحة مع العثمانيين . »

ولايضاح هذا أذكر أن سموه اجتمع فى يوم من الأيام العشرة الأخيرة من شهر سبتمبر الماضى فى السفارة مع أنور باشا ، فتعاهدوا جميعاً على أن يسيروا بالاتفاق والصراحة ، إذ كان السفير قد عرض إرسال تجريدة عثمانية على نفقة الحكومة الألمانية إلى مصر . وقد قبل أنور باشا هذا العرض .

وحدث فى جلسة أخرى بين سمو الخديو ، وأنور باشا فى سراى بيك ، أن كشف سموه عن تحرشات الصدر ، وسعيه للاساءة إلى سموه ، فمد أنور باشا يده لجنابه العالى معاهداً له على أن يكون فى خدمته فى كل شىء ، وأنه وإن لم يكن ناظراً للداخلية أو الخارجية ، فان كل شىء يحتاج إليه سموه يكفى أن يخبر به أنور باشا وهو يقضيه له .

وفى ظهر ٢٥ منه حضر مسيو باول ، وهو الذى جاء بالأمس من برلين ، وقد كان ترجماناً أول بالسفارة الألمانية مع البارون مارشال سفير ألمانيا فى عهد السلطان عبد الحميد ، وقد تعين بعد قنصلا لدولته فى بيروت ، ثم تعين مديراً للبنك العقارى بمصر . وكان سموه يثق به تمام الثقة ، ويذكر أنه جاء إلى مصر ، فما خدم مصالح البنك الذى هو مديره أكثر مما خدم مصالح سموه ؛ أما سبب حضوره إلى الاستانة فهو أن سموه أمر يوسف صديق باشا بتكليف البنك الشرقى الألمانى باستدعاء المسيو باول هذا من ألمانيا ، فأرسل البنك المذكور تلغرافاً يخبره فيه بأن الجناب العالى يطلب حضوره إلى الاستانة ؛ ولكن هذا التلغراف لم يصل ، وقد ظن سموه من عدم وصول هذا التلغراف إليه ، أن الحكومة التركية أرادت أن تمنع وصول المسيو باول ؛ إن لم تكن قد أرادت أن تقطع علاقات سموه مع الخارج . أما حضور المسيو باول إلى الاستانة فكان لمجرد المصادفة ؛ ذلك لأن الحكومة عينته فى هذه الأيام قنصلا لدولته فى دمشق . ولم يعرف ما جرى من الحديث بين الخديو وبين مسيو باول فى هذه الزيارة ؛ ولكن سموه ذكر فى أثناء تناول الغداء ، أنه وجد مسيو باول لا يعرف شيئاً مما حدث له ، وأن سموه لم يرد أن يعلمه بشىء منه .

وفى أول ديسمبر قابل مسيو شويدلر مدير شركة وولف الألمانية بالاستانة الخديو ؛ ومما علمناه منه أنه كتب بالأمس قطعة فى جريدة « الأوسمانيشر » الألمانية عن زيارة سموه لسفير ألمانيا ، فرفضت المراقبة العثمانية على المطبوعات والجرائد نشر

هذه العبارة من الكتابة ، وهي عبارة « حقوق مصر » ، وأن الأتراك لايحبون أن يقرأ الشعب العثمانى اسم الخديو ؛ ومما رواه أيضاً أنه كتب بايعاز من سفير ألمانيا مقالة عن مهمة المارشال فون درجولتز ، وهذا المارشال تعين ليكون ياوراً لشخص السلطان ، وزكى باشا الذى كان قومنداناً للحملة الزاحفة على مصر تعين ليكون ياوراً لجلالة أمبراطور ألمانيا ، وهذا التعيين حسب التقاليد القديمة بين «دولتين متحالفتين» ، فآثرت مراقبة المطبوعات العثمانية حذفها برمتها أيضاً .

وأبدى مسيو شويدلر تخوفه من سياسة الأتراك بالنسبة لمصر ، فقال ، (وهو رأيه الشخصى بالطبع ؛ وربما كان أيضاً الرأى الذى يقال فى سفارة ألمانيا) : إن الأتراك متى دخلوا مصر ، فأول ما يعملون هو طرد الانجليز من وظائفهم ، وإحلال رجال الاتحاد والترقى من الأتراك فى هذه الوظائف ، وأن هذه الحالة ستكون سيئة لأنه يفضل أن يتعامل مع موظفين انجليز من أن يتعامل مع موظفين أتراك ؛ لأن الأولين وإن كانوا غلاظاً فى المعاملة إلا أنهم شرفاء ، أما الأتراك فتغلب عليهم الرشوة ، ثم قال : إن مركز الخديو بعد دخول الأتراك مصر لا يكون أحسن مما كان قبلا ، بل إنهم قد لا يرغبون فى الخديو ؛ وقد لبث المسيو شويدلر مع الخديو نحو نصف ساعة .

وفى ٣ منه سمعت من صديق باشا أن سمو الخديو افتكر فكرة هامة جداً ، ترضى الألمان وترضى الأتراك وترضينا ، وقال : « عسى أن يحضر اليوم طلعت بك والمسألة تنتهى فى عشر دقائق . »

وفى ٦ منه حضر يوسف باشا وأبلغ سموه أنه علم من جاويد بك أن طلعت بك وخليل بك سيزوران سموه « فى بحر هذا الأسبوع » ، وعند ذكر العبارة الأخيرة ضحك سموه ضحكة السخرية ؛ لعدم تحديد يوم . واستمر يوسف باشا فى روايته عن جاويد بك ، فقال : إن البك المذكور قال له بأن الغلطات الماضية لن تعود ، وأن الحالة تغيرت لأن سفير ألمانيا يتكلم الآن فى هذا الموضوع باسم حكومته .

وقد ذهب يوسف باشا لمقابلة عماد الدين بك فى منزله ، فأظهر له البك أنه من المصلحة والأوفق ألا يكون هناك حجاب بين الصدر وبين الخديو ؛ وأنه يحسن أن يتقابلا ويتزاورا ليزول كل سوء تفاهم .

وفى ٧ منه جاء طلعت بك ناظر الداخلية ، وخليل بك رئيس مجلس المبعوثان

وتشرفا بمقابلة الجناب الخديوى ، ولبثت الزيارة من الساعة الثالثة إلى الساعة الرابعة بعد الظهر .

وظهر فيما بعد أن موضوع المحادثة كان خاصاً بكدر سمو الخديو، فأكدا لسموه أن إحساسهما نحوه لايتغير ، وطلبا منه أن يزور الصدر .

وفى ٩ منه ذكر الدكتور سيد كامل لشويدلر أن طلعت بك ، وخليل بك زارا سمو الخـديو ، فأظهر سروراً عظيما وقال : إن مسيو باول الذى زار الخديو يتكلم مع سفير ألمانيا بشدة عظيمة ، ولمصلحة الخديو ؛ وأنا أرى أن زيارة طلعت بك ، وخليل بك هى نتيجة محادثة ومسعى مسيو باول لدى السفير .

الحملة التركية على مصر . فى ١٨ سبتمبر اجتمعنا مع سمو الخـديو ، فقال : «إن الأتراك يعملون أعمالا هامة اليوم لتجهيز الحملة على مصر ، ويمدون الخط الحجازى إلى حدود مصر ، ونحن إذا لم نقم بأى عمل ، فعند الحساب يقولون إنهم هم الذين قاموا وحدهم ، وطردوا الانجليز ، فنخسر كثيراً من امتيازاتنا . فيجب عمل برنامج للسير على موجبه ؛ وإننى آسف لخروج أركان الحزب الوطنى من مصر، وحضورهم إلى هنا ؛ مع أن العمل هناك ؛ ثم يحسن بنا أن نستدعى أحد أقطاب حزب الأمة للاتحاد مع رجال الحزب الوطنى لعمل هذا البرنامج .» فوافقنا جميعاً على ذلك ، فاقترح يوسف صديق باشا استدعاء سعد زغلول باشا ؛ ويكون حضوره بحجة الشكر لجناب الخديو على تعزيته ؛ ثم يحصل اجتماع تحت رياسة أفندينا لرسم الخطة اللازم اتباعها ، وتناقشنا فى الموانع التى تعوق حضور سعد باشا ، ومنها قرب موعد افتتاح الجمعية التشريعية ، ومنها أن الانجليز ربما يمنعونه من الرجوع لمصر بعد حضوره .

وحصل الكلام أيضاً فى عبد الحميد سعيد ، نجل ابراهيم سعيد باشا؛ لأن له نفوذاً بين الشبان المنتمين للحزب الوطنى ، وأن محمد فريد بك نفسه يحسب له حساباً ، وقد حضر من مصر مع آخرين من الحزب ، خوفاً من اضطهاد الانجليز لهم .

وفى ٢٠ منـه رأى محب باشا علامات التفـكير الشديد على الخديو ، فسأله عن السبب ؛ فقال : أفكر فى حالتنا الحاضرة ؛ أرى أن الأتراك يجـدون فى التحضيرات ، فان أنور باشا قال لى إنه سيطلب مد خط السكة الحديد الحجازية لغاية حدود مصر ؛ ولـكن بلغنى أن مجلس الوكلاء رفض ذلك لعدم وجود نقود ، فان الموجود منها يحتاج له الحال فى أمور أخرى أهم من ذلك .

وفى ٢١ منه بناء على أمر الخديو توجه عارف باشا لأنور باشا ، فعلم منه أن كل شىء سائر على ما يرام. وأن هيئة من ضباط أركان حرب تحت رياسة أحد ضباط ألمانيا الأكفاء سترسل إلى الشام ، لعمل المباحث والترتيباب للحملة على مصر ؛ وأن جميع الاتحاديين مع الجناب العالى قلباً وقالبا .

وفى ٢٤ منه قابل الخديو الشيخ عبد الحميد الزهراوى رئيس المؤتمر العربى فى باريس سابقاً ، وهو من أعضاء مجلس الأعيان بالاستانة ، وأصله سورى ، فسأله سموه عن سفر شكيب أرسلان بك ، وعبد الرحمن يوسف باشا ، فأجاب بأنهما سافرا براً ولم يعلم السبب ؛ وإنما قال إنهما غير مندوبين من طرف الحكومة ، وأن الأول لا يمكنه تحريك العربان ، اللهم إلا إذا كان إرساله لتهدئة خواطر الجبليين ؛ أما الثانى فلا علاقة له بقبائل البدو؛ وأما من جهة ما سمعه أفندينا بأن هؤلاء العربان تعهدوا باحضار عشرين ألف جمل ، فقد قال الزهراوى — هذا ممكن بسهولة ؛ وإن الدولة لا يمكنها أن تقوم بأعمال حربية جدية إلا إذا اشترك هؤلاء العربان مع جيشها .

وفى ٢٢ سبتمبر بلغنى أن سفير انجلترا لما تكلم مع الصدر الأعظم واعترض على تجاوز فرسان العرب حدود مصر، وتمضية يومين، ورجوعهم ثانياً، أجابه الصدر : أى حدود تتكلمون عنها ؟ أنا أعرف أن لا حدود بيننا وبين مصر .

وفى ٥ اكتوبر حضر محمد عزت باشا زوج فائقة هانم ؛ وأخبر الخديو أنه قابل سفير ألمانيا، وعلم منه أن الدولة تتباطأ فى الزحف بجيشها على مصر، فوجد سموه فى هذا الخبر مخالفة لما يقوله الاتحاديون ، من عزمهم على إخراج الانجليز من مصر .

وذكر أن السفير متذمر من عدم تسيير حملة عسكرية عثمانية بسرعة على مصر ويقول إن الوقت حان لسفرها ، وقد عرف سموه أن الحكومة الألمانية تود الاسراع فى هذه الحملة ، ليخف ضغط الجيش المحارب أمامها فى فرنسا .

وفى ١٢ اكتوبر حضر طلعت بك وزير الداخلية التركية فى بيك ، وزار الخديو فسأله عن الوقت الذى ستتحرك فيه الحملة على مصر، فأجابه : بعد ثلاثة أسابيع. فقال سموه : إذا كانت الدولة لا تنوى السير الآن، فأنا أتوجه للضلمان . فقال طلعت: لا مانع ، وعند تحرك الحملة نطلب سموكم للحضور .

وفى ١٧ اكتوبر حضر البرنس ابراهيم باشا حلمى ، وأخبر الخديو أنه تغدى

أمس عند الصدر، وحرك فيه دم أجداده، فقال له : إنك يا برنس هنا على رأس الحكومة العثمانيــة التى فقد فيها رأس جدنا، وها هم أولاء الانجليز محتلون القلعة التى فيهـا قبره، وما أمكنك أن تعمل فيها شيئاً .

فهاج هذا الـكلام إحساسه وقال له : أما قولة فاننـا فى مخابرة مع البلغـار على أن نستردها منهم مقابل جهة أخرى نأخذها من الأروام . وأما الانجليز فاننا سنعمل لا محالة على إخراجهم، ولـكن لم يحن الوقت لذلك . وعلم منه أنه إذا زحف الأتراك على مصر فانهم يحتلونها، ولا يخرجون منها كأنها ستتخلص من احتلال بريطانى، لتقع فى احتلال تركى؛ وهذا ما لا ترضاه الأمة المصرية .

وفى ٢٣ منه بعد انصراف المدعوين من المأدبة التى أقامها عباس لرجال الحزب الوطنى، عقد سموه جلسة من فريد بك واسماعيل لبيب ويوسف صديق وابراهيم أدهم الياور وصاحب هذه المذكرات . فقال محمد فريد : إن سفير ألمانيا قال له إن الجيش التركى مجهز تجهيزاً حسناً من ملابس وغيرها؛ ولـكن ينقصه التعليم العسكرى اللازم، ولذلك لا يرى فى الامكان عمل شىء قبل ثلاثة أسابيع، حتى تتمرن العساكر، وحتى يمكن القيام بعمل نافع .

وقد ظهر هذا النقص للميرالاى كريس الألمانى، رئيس أركان حرب الحملة . ومعه ستة ضباط ألمانيون آخرون .

تقرر سفر الشيخ محمد عثمان إلى خان يوسف، وهى قرية فى الأراضى العثمانية قريبة جداً من العريش .

ذهب عارف باشا على رفاص «مكوك الثـالث» الذى أهداه أفندينا إلى حرم أنور باشا لتسليمه، وقد تقابل مع ناظر الحربية، فسمعه يقول : إن الدولة تسعى لعمل اتحاد دولى إسلامى، فهى تعمل على تحرير العجم والأفغان من الروس والانجليز، وتحرير مصر من الانجليز، وإيجـاد رابطة أخوية إسلامية بين الدولة وهـذه الممالك، ويكون الخديو ملكا على مصر حراً فى الادارة .

قال أنور والذين يتساءلون : لمـاذا لا يتحرك الأتراك لتحرير مصر فى الحـال، نجيبهم أن مصر بلد متمدين وراق عامر بالبيوت الشامخة؛ فنريد نحن الأتراك ألا نتعجل فى أمر تحريرها بالتخريب، وأن نصل إلى ذلك بكل تأن حتى نتمكن من إرجاعها لخديويها كما كانت عند ما تركها بدون خسارة .

سأل سفير ألمانيا فريد بك عن فهمى بك بعد أن أثنى عليه ، فأجابه : بأننا كلنا متفقون مع أفندينا ، فقال السفير : أنا مسرور لاتحادكم جميعاً . وأكد أن ألمانيا تريد تحرير مصر ، ولا تريد أن تكون ولاية عثمانية .

وفى ٢٧ منه اجتمعت مع فريد بك بعد ظهر اليوم فى منزله ، وكان معنا اسماعيل لبيب بك ، والشيخ جاويش ، والدكتور سيد كامل ، فتحادثنا فى الحالة الحاضرة ، وخصوصاً فى ضرورة تفاهم الدولة العلية وألمانيا مع إيطاليا ، وفى ضرورة إصدار إرادة شاهانية للمصريين ، تعلن فيها أنها لا تنوى احتلال مصر ، بل إرجاع السلطة الخديوية كما كانت قبل الاحتلال الانجليزى ، وقال الشيخ : إن غاية الأتراك إيجاد اتحاد دولى إسلامى .

وفى ٢٨ منه لم يجد أفندينا الصدر فى منزله ، وزار سفير ألمانيا ، وسرّ عندما علم منه أن حكومته قبلت ما اقترحه أفندينا ، من أن قنصل ألمانيا العام فى مصر الذى طرده الانجليز ، يكون فى معية سموه عند دخول الحملة فى مصر ، لأن الخديو كان يخشى على نفسه لو احتل الأتراك مصر .

وكذلك حضر اليوم سفير ألمانيا لزيارة أفندينا فى ببك ، وأعلمه أن حكومته توافق على أن ممثلها فى مصر يكون فى معية سموه ، إذا لم تمانع الدولة العلية فى ذلك . وبالاختصار فان سموه كان منشرحاً جداً .

وقابل أيضاً فى ببك فريد بك واسماعيل بك ، والأستاذ محمد فهمى ، وعلى الشمسى بك بوجودى ، وعرفهم بحوادث مصر ، وبما قاله أنور باشا لسموه ، بأن الذخيرة المخصوصة بالماهونات (لقذف القنابل) اللازمة لعبور الأتراك من القناة لم تصل إلى المعسكر ، لأنها فى الطريق عند جبل طوروس ، وأن المنظور أن تبتدىء الحركة بعد أسبوعين أو ثلاثة .

وذكر فى هذه الجلسة ما يشاع من أن الانجليز سيختارون الأمير حسين كامل خديوياً على مصر ، عند زحف الأتراك عليها .

منشور الخديو لرعاياه مصريين وسودانيين . فى ٣١ اكتوبر اجتمعنا عند فريد بك بحضور الشيخ جاويش ، واسماعيل لبيب بك ، والدكتور سيد كامل ، وتكلمنا فى المسائل الحاضرة ، ومنها الدعاية اللازم تنظيمها ، وخصوصاً وضع المنشور الخديوى للمصريين ؛ فوعد الشيخ جاويش باعداد مشروع ، وكلفنا الدكتور سيد كامل بوضع مشروع من قلمه .

وفى أول نوفمبر أرسل الشيخ جاويش صورة مشروع للمنشور الخديوى، فاجتمع فريد بك، واسماعيل بك، ويوسف صديق باشا، وأنا، ونقحنا صورة أخرى كان الدكتور سيد كامل أعدها؛ وهى مرتبة، مكتوبة بطريقة سياسية.

وفى ٣ نوفمبر أقر أفندينا مشروع الدكتور سيد كامل، وأمر بترجمته إلى التركية وإلى الفرنسية.

وفى ٥ نوفمبر قابل فريد بك أنور باشا، فعلم منه أنه موافق على ما جاء فى منشور الخديو، وسأل فريد بك عما إذا كان يخشى أن يطلع زملاؤه عليه، فقال فريد بك إن اطلاعه هو كاف.

وفى ٧ نوفمبر اجتمعنا عند فريد بك، وكان معنا اسماعيل لبيب والدكتور سيد كامل، وتكلمنا فى المنشور الخديوى. فكان من رأيى واسماعيل لبيب أن ننتظر ورود الأخبار الصحيحة من مصر عن تعيين البرنس حسين كامل، حتى ندرج ذلك فى المنشور، واتفقنا على أن نتكلم مع أفندينا فى هذه النقطة.

وقلت «لا يمكننا أن نطبع منشور أفندينا وننشره» فقال فريد: «وأنا أرى من الضرورى العمل فى نشره وتوزيعه» فقال سموه: «وكيف يكون ذلك وفيه إشارة بأننى سأسير مع الحملة، مع أننى لا أعرف عنها شيئاً من ذلك للآن؟» وأخيراً اتفق على أن ينشر بلاغ نعلن فيه مسألة وجود أفندينا بالاستانة، ومنع الانجليز له من الرجوع لمصر، ومخابرة السفير له، ورد سموه؛ إنما تؤجل كتابة ذلك حتى يقابل الخديو أنور باشا، ويسأله أسئلة حاسمة.

وفى ٩ نوفمبر قابل فريد بك الخديو، وعرض عليه فكرتين: أولاهما طبع المنشور الخديوى حالا، وهو المنشور الذى تقرر إرساله باسم الخديو إلى مصر، وإلقاؤه بواسطة الطيارات، وغيرها

والثانية عمل حديث صحفى يتناسب مع الظروف الحاضرة، فقبل سموه. ولما كنا أحضرنا «ماكينة رونيو» لطبع المنشور ابتدأ الدكتور سيد كامل فى تجربتها، وعرض المسودة على الخديو

وفى ١١ نوفمبر كتب الدكتور سيد كامل أول نسخة من المنشور الخديوى، ولما أتمه قدمه للخديو بوجودى، فوقعه بالقلم الزجاج ثم قال ضاحكا: «ألا تخشى يا سيد،

وأنت الذى كتبت المنشور بخطك ، أن يقتلوك رمياً بالرصاص ؟ » فأجاب بالدعاء لسموه وللأمة المصرية بتحقيق الأمانى . ولما نزلت والدكتور سيد كامل لطبعه ، قلت : « إن أفندينا يفكر فيك وأنت كاتب المنشور » وقد استحييت أن أقول لسموه : « وأنت يا مولاى الذى وقعته؟ » إشارة إلى أن سموه بتوقيعه فى هذا اليوم ، أمضى مستنداً من الخطورة بمكان عظيم . أما القلم فأخذه اسماعيل لبيب تذكاراً لهذا الحادث العظيم .


الدكتور سيد كامل

وكان الخديو قد تردد فى التوقيع الذى وضعه الدكتور سيد كامل فى آخر المنشور ، وهو خديو مصر والسودان وتساءل: أهذا اللقب صحيح، أم أنه « حاكم السودان العام » كما جاء فى الفرمانات .

فقال الدكتور سيد : « نضع هذا اللقب مؤقتاً ، إلى أن يتحول قريباً إلى « ملك مصر والسودان » وهاك صورة المنشور :

إلى أبنائى الأعزاء من المصريين والسودانيين :

لا يخفى عليكم أن دولة أجنبية تحتل بلادى العزيزة منذ اثنتين وثلاثين سنة . وقد دنا الآن يوم الخلاص الذى طالما نشدتموه . . إن العهود الرسمية العلنية التى قطعتها انجلترا جعلت للاحتلال صبغة وقتية ، تزول بزوال الحجة التى توسلت بها إليه ، وهى توطيد عرش الخديو . ولكن هذه الحكومة لم تقتصر على تناسى وعودها المكررة بالجلاء عن البلاد ، بل تدخلت فى الشئون الادارية والسياسية ، فبددت أموال مصر ، وأنكرت حقوقنا الشرعية على السودان ، وأحلت فى وظائف الحكومة الانجليز محل أبناء البلاد ، وعبثت باستقلال القضاء ، وسنت قوانين قيدت بها الحرية الشخصية ، وحرية الأفكار والأقلام ، وعقلت الألسن ، ومنعت الاجتماعات ، وحالت دون رغائبنا ، وتمنيات شعبنا ودون نشر التعليم والتربية . ولم تقف عند هذا الحد ، بل أبت علينا التمتع بنظام دستورى يتفق مع مقتضيات النهضة العصرية .

ولما نشبت نار الحرب بين الدول الكبرى ، رأت الحكومة الانجليزية أن تمنعنا

من العودة إلى مصر التي هي قاعدة إمارتنا، مقترحة علينا أن نغادر الاستانة إلى إيطاليا، فرفضنا اقتراحها هذا؛ لأنه في اعتبارنا ماس بحقوق عرشنا، علاوة على أن تركيا صاحبة السيادة العليا على مصر، عدته عملا مخالفاً للفرمانات الشاهانية. ولما كان جلالة الخليفة وحكومته راغبين في جعل هذه الفرمانات الشاهانية محترمة مصونة، لخير أبناء مصر والسودان، رأى أمير المؤمنين أن يرسل إلى مصر جيشاً عثمانياً قوياً لاعادة الحالة فيها إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٨٨٢ .

أما نحن فقد وطنا النفس على الاشتراك في هذه الحملة التي هي الآن في الطريق، بحيث نظل ملازمين لها إلى أن يعقد الظفر بألويتها . فني استطاعتكم إذن أن تمهدوا السبيل إلى هذا الظفر باتحادكم ومساعدتكم . وينبغي لكم أن تهونوا الأمر على هذه الحملة، وتؤيدوها بكل وسيلة مستطاعة، وتقدموا لاستقبالها بالترحاب والحمية الوطنية المأثورة عنكم، مستمدين الوحي من روح التضحية الراسخة في نفوسكم، وتعلقكم الصادق الشديد بجلالة الخليفة، وصدق ولائكم لنا، وحبكم للوطن العزيز .

ولما كنا واثقين بالنجاح بفضل العناية الالهية، فنحن خديو مصر والسودان نعلن منذ الآن نظام الحكم الدستوري المؤيد لحقوق الشعب السياسية، وإلغاء القوانين المقيدة للحرية، وإعادة الضمانات اللازمة لاستقلال القضاء، والعفو العام الشامل عن الجنايات والجرائم السياسية. ونجاهر أيضاً بعزمنا على نشر التعليم بين طبقات الشعب، والسير بالبلاد في طريق النجاح الأدبي والمادي، وبالاجمال اتخاذ جميع الوسائل المؤدية إلى توفير أسباب الأمن والسعادة لجميع سكان مصر والسودان .

أبنائي الأعزاء من مصريين وسودانيين : لقد سنحت الفرصة، فاغتنموها؛ وليكن شعاركم خلاص مصر وصون أرواح الأجانب وممتلكاتهم ، فخصمنا الوحيد هو جيش الاحتلال وأعوانه . وليكن الله الكلي القدرة عوناً لنا على تحقيق أمانينا القائمة على الحق والعدل والحرية .

وفي ١١ نوفمبر جاء مسيو فايس الألماني، وقابل الخديو؛ وكان سموه قد كلفني ويوسف صديق باشا أن نضع صورة محادثة ننشرها في الجرائد الألمانية تلغرافياً، وقد كان، وتسلم الكتابة . وكذلك أخذ ترجمة المنشور الخديوي .

وفي ١٣ منه قال أفندينا لما كلمني فريد بك في موضوع المنشور : منذ أسبوع كنت ميالا للسرعة في كتابته حتى نعلم رأي الأتراك في النقط المذكورة فيه، لأنني كنت

أشك فى نياتهم وقتئذ ؛ ولكن الآن فهمت أنهم يريدون أن أرجع إلى مصر بشرط ألا يكون فى رجوعى مشاركة لهم فى الفخر الذى يريدونه لأنفسهم دون سواهم ، بتجريد الحملة العثمانية ، فالآن إذا لم تنجح ، وإذا لم تفز ألمانيا فى الحرب ، تكون النتيجة محاكمتنا على هذا المنشور ، ثم ضحك سموه ، وظهر أنه لا يعتقد كثيراً فى صحة الأنباء التى سمعها اليوم .

وكذلك صرح بضرورة سحب أربع نسخ كان قد أخذها فريد بك وإخوانه ، وقال إنه لا يشك فى طهارة ذمتهم ، ولكن الاحتراس واجب ، وشدد على الدكتور سيد كامل فى المراقبة على ما طبع من نسخ المنشور .

وفى اليوم نفسه قال سموه : إن الأتراك غير راضين عن منح الأمة المصرية الدستور الذى منحناه لها فى المنشور الخديوى ، لأنهم يرون الدستور أكبر معارض لهم . والواقع أن حرية الأمة هى أكبر معارض لاحتلال العثمانيين ؛ غير أن الأتراك إذا كانوا يعارضون فى حريتنا ، فنحن نكره ذلك منهم ؛ لأننا لا نحب أن يحل احتلال محل احتلال . ثم قال : إذا لم تنجح الحملة ، فليس من المستبعد أن نستطيع الحصول على استقلالنا الداخلى وحريتنا من جانب الحكومة الانجليزية .

وفى ١٤ منه قال الخديو إن هناك فكرة ترمى إلى إرسال عدد كبير من المنشور الخديوى للأمة المصرية والسودانية ، لتسليمها إلى اسماعيل لبيب بك ، حتى يذيعها على الحدود المصرية . ولكن سموه قال إن النيات هناك بالنسبة لنا غير ظاهرة تمام الظهور ، فيحسن أن ننتظر مدة من الزمن فلا نتعجل بتوزيع هذا المنشور ، لأنه من المحتمل أن تتم المفاوضات الجارية الآن بالصلح بين الدول المتحاربة ؛ وأصدر التعليمات إلى اسماعيل لبيب بك بأن يتأهب للسفر غداً .

وفى المساء تناول اسماعيل لبيب بك ، وفريد بك العشاء على المائدة الخديوية ، وبعد المناقشة فى الموضوع سلم سموه أولهما ألفاً وخمسمائة نسخة من المنشور .

وفى ٢١ منه لم يلبث الخديو أن غير فكره ، فصدر الأمر بارسال برقية إلى القائمقام توفيق فهمى بك الياور الخديوى ، بأن يتسلم الحقيبة التى بها نسخ المنشور الخديوى من اسماعيل لبيب بك ، وصدر إلى هذا الأخير أمر بتسليمها ، وبانتظار جمال باشا فى دمشق الشام ، والسير معه ، وتعريفه أن فريد بك سيلحق به قريباً .

وفى ٣٠ منه صدر الأمر تلغرافياً لتوفيق بك باحضار الحقيبـة التى فيها المنشور الخديوى ، وأمر الدكتور سيد كامل بأن يحرق ما فيها بمجرد وصولها ، وأن يحرق بقية نسخ المنشور ؛ لأن ما جاء فيه بالنسبة للسلطان حسين غير محقق ، ولأن للأتراك ملاحظات على بعض نقطه .

وفى ١٢ ديسمبر أحرق الدكتور سيد كامل النسخ الباقية بطرفه .

وفى ١٣ منه عاد فى المساء أحد ضباط المحروسة ، وكان فى بعثة توفيق فهمى بك ، ومعه الحقيبة التى بها الدعوة والتى كانت أعطيت لاسماعيل لبيب بك ، فأحرق الدكتور سيد كامل أوراق المنشور التى كانت بها .

تابع الحملة التركية على مصر : فى أول نوفمبر زار أفندينـا أنور باشا ، وعلم منه أنه حضرت برقية من الحـدود المصرية بأن الانجليز أخلوا العريش تمـاماً ، وأن قائد الجيوش العثمانية يطلب التعليمات لاحتلال هذه المدينة ؛ إنما قال أنور باشا : إننا للآن غير مستعدين للزحف ، ويلزمنا أسبوعان أو ثلاثة .

وسمعت الخـديو يقول إن الانجليز يستعملون كل الوسـائط لـكى يترك جانب الدولة ، فأرسلوا رومياً يدعى أنه نمساوى الأصل ، وأنه متوطن منذ ثلاثين سنة فى الاسـتانة ، ليقول لسموه إن الأتراك يريدون به الشر عندما يترك الاستانة ، قاصداً الالتحاق بالجيش (يعنى أنهم عازمون على قتله) ؛ وأرسل الانجليز أيضاً فضيلة جميل منلا لاستمالته نحوهم ، ولـكن أفندينـا لم يصغ لهـذه الأقوال ، وصمم على الخطـة التى رسمها ، وهى الاتفاق مع رجال الدولة .

وفى ٢ نوفمبر ، فى أثناء وجودى ووجود الدكتور سيد كامل والشيخ البوريني لدى الخديو ، أبدى الدكتور سيد كامل أمنية ، هى أن يرى سموه فوق رأس الجيش بصفته قائداً عاماً له . فقال سموه : إن الفـكرة خطرها أكثر من نفعها ، لأنه إذا حصل فشل ، — لا قدر الله لها — فينسب ذلك إلىّ .

وفى ٣ منـه أخبرنا فريد بك ، نقلا عن أنور باشا ، أن القوات التركية احتلت العريش ؛ لـكن سمعنا من جهة أخرى أن الانجليز احتلوا العقبـة ، بأن أرسلوا إليهـا مركباً حربياً أنزل مائتى عسكرى ، وهـذا الخبر كدر أفندينا ؛ لأن العقبة نقطة هامة ، وسبق أن لفت نظر أنور إليهـا ؛ لأنهـا تهدد الحملة التركية التى ستسير من جهـة

العريش . وقد قطع التلغراف البرى والبحرى من العريش قبل انسحاب القوى المهددة منها ، وهدم الانجليز بالديناميت البئر الكبيرة هناك .

وقابل عارف باشا فى هذا اليوم أنور باشا لمعرفة المأمورين الذين سينقلون عفشنا ورجالنا الآتين من الضلمان إلى محطة آيدين ، والذين سيسافرون من الاستانة إلى الحدود المصرية ، وقد عزم أفندينا على أن يرسل الشيخ عثمان ورسمى افندى للحدود هذين اليومين ؛ ليستطلعا الأخبار المصرية ، ويخابرانا حتى تزحف العساكر التركية .

وفى ٥ نوفمبر التمس البرنس ابراهيم حلمى باشا من الجناب العالى أن يأخذه فى فى معيته عند السفر إلى مصر مع الحملة التركية ، وقبل التماسه ، وقد أوصى على بدلة عسكرية ؛ كما قبل التماس على جلال باشا وسيف الله يسرى باشا لمرافقة سموه .

فى أثناء الانتقال فى الرفاص بين جبوقلي وبيك عرض الدكتور سيد كامل فكرة ، مؤداها أن سفر أحد المصريين لمصر مفيد فى الوقت الحاضر : أولا ، ليدل الناس المخلصين هناك على حالتنا هنا ، ويبين لهم الطريق المستقيم ، أى الانضمام والاتحاد مع تركيا وحليفاتها ، بحيث تكون الحركة فى مصر موافقة كل الموافقة للحركة التى أقمناها فى الاستانة ؛ ومن جهة أخرى ليقابل أعضاء الجمعية التشريعية الذين يعرفهم ، ويقنع العدد الممكن إقناعه منهم ليحضروا إلى الاستانة ، ويصاحبونا فى الحملة السائرة على مصر ، فأظهر سموه عدم ثقته بحضور جماعة من هذه الجمعية ، لا للشك فى إخلاصهم ، ولكن لضيق الوقت . وحينئذ بين الدكتور سيد كامل ، كيف أننا نكسب كثيراً فى حركتنا لو كان معنا على شعراوى باشا ، وعبد العزيز فهمى بك ، وعلوى الجزار بك .

فقال سموه : هذا صحيح ، ولكن أظن أن الثانى مريض لا يمكنه الحضور ، وشعراوى باشا ربما استصغر أن يحضر مع علوى الجزار بك ، مع أن علوى بك رجل عامل ومخلص .

فقال الدكتور سيد كامل : وعلى كل حال نحن فى حاجة أن يكون معنا جماعة آخرون من غير الحزب الوطنى ، لأننى أخشى متاعبنا فى مصر ، وأن يقول فريد بك فى كل وقت : أنا الذى خلصت البلاد من الاحتلال . وفوق هذا فانه وأعوانه شديدو التعنت ، لا يرون الأمور إلا من وجهة واحدة ، ويتعصبون لها .

فقال سموه : صحيح أن فريد بك متعصب ، وأنا أصدق أنه سيكون رئيساً

للحزب الوطني مدة عشرة أعوام ، ولكن ماذا تكون قوته عندما تكون هناك أحزاب في مجلس النواب المصرى الجديد ؟

وفى ٧ نوفمبر اجتمعنا أنا وفريد ولبيب والبوريني عند أفندينا ، فقال لنا سموه إنه غير مطمئن على التجريدة ، لأنه لا يعرف عنها شيئاً أكيداً حتى الآن ، ولا يعلم إن كانت العساكر التركية حقيقة احتلت العريش ، ويخشى أن الخمسين ألف هندى ، الذين وردت برقية باستعدادهم فى بمباى للسفر إلى مرسيليا ، يقصدون ينبع وجده ، فيسيرون ويحتلون « معان » فى سكة حديد المدينة . « وأنا حتى الآن لم أعلم هل سأرافق الحملة ؟ وبأية صفة أرافقها ؟ هل مثل (شرابة الخرج) أو بصفتى عاملا ؟ وقد سمعت من الصدر أننى سأرافق الحملة ، وقلت لطلعت بك : إذا كان الوقت لم يحن فأسافر للضلمان ، قال: عند اللزوم نرسل لك للحضور . وأنور باشا يقول إن كل شىء سائر سيراً طيباً ؛ ولكن كل هذا الكلام لا يعتمد عليه ؛ لأنه غير رسمى ، فلا وجود لارادة سنية ، وليس هناك قرار من مجلس الوكلاء ، ولا من جمعية الاتحاد والترقى ؛ وسفير ألمانيا لا يتدخل فى المسائل العسكرية . »

وفى ٨ نوفمبر نشرت الجرائد التركية بلاغاً رسمياً قالت فيه : إن الجنود العثمانية اجتازت أمس الحدود المصرية فى جهة العريش ، وأن خمس مراكب حربية انجليزية حضرت للعقبة بقصد إنزال عساكر، فصدتها الجندرمة التركية ورجال العشائر ، بعد أن قتل منهم ضابط ونفر ، وبعدها انسحبت .

ولما كان المنتظر زيارة الخديو لأنور باشا بمنزله اليوم ، أمر سموه يوسف صديق باشا بوضع الأسئلة الآتية :

١) الاستعلام عن إشاعة تعيين البرنس حسين كامل حاكما عاماً لمصر .

٢) ما هى التدابير التى اتخذتها الحكومة فى ذلك ؟

٣) ما هو مركز سموه إزاء الحملة العثمانية وموعد قيامها للحدود ؟

وقد اجتمعت بسموه بعد ذلك مع فريد بك واسماعيل لبيب بك ، فأخبرنا بأن طلائع الجيش اجتازت الحدود المصرية من ثلاث نقط ، وهى العريش والعقبة ونقطة أخرى بينهما ، وأن الطريق الوسطى ظهر أنها صالحة لسير السيارات . ولما سأله سموه عن وقت القيام مع حاشيته للحدود قال إن الوقت لم يحن ؛ لأن الجيش لا يبلغ

الحدود إلا فى ٢٠ أو ٢٥ نوفمبر ، وأنه يريد أن يتأخر أفندينا عن السفر الآن حتى يجتاز الجيش قناة السويس ؛ وذلك من باب الاحتياط لذاته الكريمة، فقال سموه : إن الأوفق أن يكون دخوله مع الجيش . وإعلانه للدستور والحرية للأمة المصرية .

ولما علمنا احتمال سفر الجناب الخديوى على رأس الحملة العثمانية التى ستزحف على مصر لاخراج الانجليز منها ، تحادثنا مع سموه فى الأشخاص الذين سيرافقونه ، فتقرر أن يكون من بين حاشيته دولة البرنس ابراهيم حلمى ، والدكتور سيد كامل وأنا ، واتفقنا على تفصيل بذلات عسكرية ، وبالفعل تسلمت اليوم من محل « اشتين » بدلة عسكرية من قماش لونه رمادى كاكى سميك ، اتقاء للبرد .



شفيق باشا ببذلته العسكرية

وفى مساء اليوم أبدى سموه رأيه فى إشاعة تعيينه قائداً ، بأنه يجب ألا تكون له القيادة لخطورتها، ولأن هذه الحملة مكونة من عناصر غير متجانسة : ففيها مندوب من جمعية الاتحاد ، وهو اسماعيل حقى بك ، وضباط موالون لهذه الجمعية ، وآخرون معارضون لها ، وضباط ألمان . فاذا أضيف إلى ما تقدم أن مدافع الأسطول الانجليزى ، على ما يظهر أقوى من مدافع الحملة ، اتضح أن قيادة الحملة أشد ما تكون خطراً ، ثم قال : يلزم أن نكون إزاء هذه الحملة بحيث لا تكون لنا قيادة العربة ، ولا نكون عجلة خامسة ، ولكن نكون بين بين .

وفى ٩ نوفمبر توجه سمو الخديو إلى الصدر الأعظم يهنئه بتعيين شقيقه الأمير عباس حليم ناظراً للأشغال . فلما بدأ الصدر الكلام ، سأل أفندينا عن الوقت الذى سيسافر فيه للالتحاق بالحملة ، فأجابه بما قال أنور باشا ، فقال الصدر : إن تأجيل السفر حتى يعبر الجيش القناة ، إنما هو من باب الاحتياط ؛ ولما فاتحه الخديو فى إشاعة تعيين الأمير حسين كامل على مصر ، قال : إن الاستعلام من السفارات أمر لا يفيد . ثم قال : «انتظر يا جناب الخديو ما يحصل من حسين باشا» ، وانتقد الصدر الأمير حسين انتقاداً مراً . وقد قال لنا الخديو : إن الصدر — بهذه المناسبة — لعن أجدادنا ، قائلا : «إن هذا الفرع بطال» . (يعنى فرع اسماعيل) .

تقابل يوسف صديق باشا مع شوكت باشا ، وتكلم معه فى صدد تكوين هيئة من كبار الاتحاديين لتعضيد الخديو ، فوعد بالتفكير فى ذلك وقال : إن فى إمكانه الحصول من السلطان على أمر تعيين الخديو قائداً للحملة العثمانية .

وفى يوم ١٠ نوفمبر . قال يوسف صديق باشا : إن عارف باشا توجه يوم الثلاثاء لمقابلة مدحت شكرى بك سكرتير جمعية الاتحاد والترقى ، وتكلم معه فى شأن إهمال التكلم مع الخديو فى مسألة الحملة على مصر ، والاتفاق معه على نتائج هذه الحملة ، فرد البك قائلا : صحيح صحيح ، إن هذا إهمال ، وسأجمع الجمعية لهذا الغرض

وفى ١١ نوفمبر اجتمع الخديو بفريد بك ولبيب بك وبى ، وأظهر استياءه من رجال الدولة ، وتركهم إياه والتجريدة سائرة بدون علمه ؛ وتساءل عما إذا كان مايشاع عن العمل لتعيين الصدر خديوياً بدله صحيحاً .

وفى ١٢ منه قابل يوسف صديق باشا شوكت باشا ، فقال له : ما على الخديو إلا أن يحدد اليوم الذى يرغب فيه السفر إلى الحدود ، وهو يحصل لسموه على الأمر الشاهانى ، بتوليته قيادة الحملة . ولكن الخديو غير ميال بتحديد اليوم ، ويقول : إن الأمر بين يدى الحكومة العثمانية ، فان أرادت فعلت ؛ أما السلطان فليس بيده شىء .

وقد حضر فى الساعة الخامسة مدحت شكرى بك سكرتير جمعية الاتحاد ، ومعه الدكتور ناظم ، إلى قصر بيك ، بناء على الكلام الذى حصل بين الأول وعارف باشا ويوسف صديق ، وتقابلا مع أفندينا ، وأعطياه أخبار الحرب فى قفقاسيا ، وبما أن سموه قد سمع انتقاداً على سكون المصريين ، وعدم قيامهم ضد الانجليز ، ولما يعلمه من أن الأتراك أرسلوا كثيراً مما يسمونه عصابات وأسلحة وذخائر ، سألهما : ولماذا لم يحصل

ثورة من الجراكسة؟ فأجاب مدحت بك، بأن الأهالى والعصابات فى سكون حتى يدخل الجيش التركى فى بلادهم، لئلا يصيبهم ضرر.

قال أفندينا : كما يفعل المصريون؟

فقال مدحت بك : نعم!

ولما حدثهما سموه عن مسألة مصر، قالا إنهما تكلما مع طلعت بك، فقال لهما إنه لا ينسى أن يتكلم مع أفندينا عندما يأتى الوقت، ويقرب سفر سموه للعودة إلى بلاده.

وفى ١٣ نوفمبر، نشرت جرائد الآستانة حديثاً لسمو الخديو مع المسيو فايس، ولكن لاحظنا أن الجملة المختصة بمرافقة سموه للحملة، قد حذفت بأمر الحكومة العثمانية، كما أنها حذفت فى تلغراف فايس الذى أرسله إلى جريدته.

أما ما يتعلق بسير سموه مع التجريدة، فأفندينا يقول : الظاهر يدل على أن الحكومة العثمانية لا تريد أن يكون دخول سموه مع الجيش العثمانى. ومن حديث سموه مع السيد افندى، يعلم أنه يعتقد بأن قيامه من الآستانة لا يكون إلا عقب اجتياز قناة السويس.

وفى ١٥ منه تقرر، بناء على إلحاحى، أن يسافر يوسف صديق للالتحاق بالأمير محمد على باشا فى أوربا، والمرور على روما وبرلين؛ لاستطلاع آراء الدول الثلاث بالنسبة للتجريدة، والوثوق التام بأنها لا تمس الفرمانات الشاهانية.

قابل الصدر دولة والدة الخديو، وقد جاء ضمن حديثه معها ما يأتى :

إنه بعد إعلان الجهاد، لا يصح أن الأمير محمد على يبقى فى البلاد الأجنبية، وإلا فاننا نصادر أملاكه فى مصر. وهذه جرأة متناهية، وخصوصاً لسيدة يجب احترامها.

ولما سمع أفندينا ذلك قال : وبأى حق يمكن الصدر أن ينفذ ما يقول؟

ومما قاله الصدر كذلك للبرنس ابراهيم : إن الجيش الزاحف على مصر جيش عربى؛ فاذا كان المفهوم عند الخديو وعند فريد بك أن مصر للعرب، فانى أخشى حينئذ من اتفاق يحصل بين العساكر الشامية والخديو والمصريين؛ ولهذا لا يصح أن يكون الخديو مصاحباً للجيش العثمانى، وإنى أبذل جهدى الآن فى المدافعة عن الخديو. ولكن إذا كانت أفكاره هى هذه، فلا يمكن الاستمرار على هذه المدافعة — وقال الصدر للبرنس ابراهيم : من هم المصريون؟ إنهم فى نظرى «دمبرباش» (أى حيوانات جفلك) وقد نسى أنه مصرى.

وفى زيارة (ى . بك و م . افندى) لسفير ألمانيا بتاريخ ١٦ نوفمبر قال السفير إن الخديو يطلب أن يكون هو القائد العام ، وهـذا يجرح إحساسات الأتراك ، وأن سموه ينتقد الجيش العثمانى . فسأل « ى بك » السفير عما إذا كان يلزم إخبار سمو الخديو بذلك ، فقال : هى مسألة دقيقة ، ثم قال إنه فى أول فرصـة سيطمئن سموه على هـذه المسائل ، وودعهما السفير قائلا : مع السلامة ، أعلنـا أهل بلدكما قرب وصولنا . ولما سمع أفندينا هذا الـكلام قال له :

« إننى ما تشبثت مطلقاً بقيادة القوة العثمانية الزاحفة على مصر ؛ لأننى لم أتعلم التعليم الحربى الألمـانى ، ولا التعليم الحربى العثمانى ؛ والكلام الذى سمعناه كان من جانب الاتراك أنفسهم ، فقلت : أضيف إلى ذلك أن أفندينـا لا يريد أن يتحمل تبعة هزيمة هذه التجريدة ، فقال سموه : « هذا الـكلام يقوله بعضنا لبعض ؛ لأننا نتوهم احتمال هزيمتهم فى مصر » . ثم استمر سموه قائلا : صحيح . إن يوسف باشا صديق قد أخطأ فى اختياره الكلام فى هذا الموضوع مع شخص غير ثقة (يقصد سموه شوكت باشا) ، ولـكنى على أى حال ما تشبثت ، وما أعرت إسناد قيادة التجريدة العثمانية إلى أية أهمية ، ثم إننى لم أنتقد على الجيش ولا غيره شيئا ، وإننى أحضر من جبوقلى الى ببك ، وأقوم من ببك إلى جبوقلى ، وفى كل أسبوع أو عشرة أيام أركب سيارة مقفلة لزيارة سفير من السفراء ، فمن أين رأيت الجيش التركى حتى أسمح لنفسى أن أنتقده ؟ »

وفى ١٧ منه قال أفندينا: إنه سمع من الألمانى صاحب جريدة (إيجبتن ناخرختن) أن الجيش العثمانى غير مستعد للزحف الآن ؛ لأن السكة الديكوفيل اللازمة لمدافع الهاون الضخمة لم تتم .

وفى ١٨ منه كان سمو الخديو قد كلف البرنس ابراهيم حلمى، بأن يبلغ الصدر أجوبة سموه على تبليغاته ، فتوجه أمس هو وعزت باشا إلى الصدر ، وقال الصدر له : يلزم تحديد برنامج قبل سفر الخديو عما يجب عمله عند دخول الجيش العثمانى فى مصر ، فقال : يجب ألا يسافر الخديو ليلا ، كأنه هربان ؛ بل يتوجه نهاراً عند السلطان ، ثم يسير إلى المحطة بالعز والاكرام.

سافر اليوم من الآستانة إلى الحدود المصرية عبد الحميد سـعيد بك ، واسماعيل كامل افندى، ومحمد عوض البحراوى افندى، ومحمد على افندى، وهم من رجال الحزب الوطنى؛ وبقى منهم عبد الملك افندى حمزة المحامى والدكتور احمد طاهر افندى ، لانتظار القيام

مع شقيق الأول من أوربا . وقد جاء اليوم ستة من الطلبة المصريين فى جامعة لندرة ، وتقدموا إلى نظارة الحربية ، طالبين منها التطوع فى القسم الطبى العثمانى ، فقبلت النظارة طلبهم ؛ وفى أثناء مرورهم فى هولانده كتبوا احتجاجاً على الحكومة الانكليزية فى مصر بالنسبة لخطتها ، قالوا فيه : إن مصر تعيش حرة أو تموت . وهذا بعد ذكر قيام الجيش العثمانى لتخليص مصر من الاحتلال الانجليزى

وفى ١٩ منه أوفد يوسف صديق باشا إلى سفير ألمانيا ، فعرفه أن سموه لم يطلب مطلقاً لنفسه رياسة الحملة التركية ، ولم ير الجيش فى حالة عمل ولا فى الثكنات حتى ينتقده بشىء ، فقال السفير : إن الاتراك لايتحملون جرح إحساساتهم ؛ لأنهم يظنون فى أنفسهم القدرة التامة ، مع أنه يوافق كل الموافقة على ماقاله يوسف باشا من أن القيادة إذا كانت فى يد الخديو ، فمهمة الحملة تكون سهلة ؛ لأن المصريين ينضمون إلى الجيش العثمانى بسهولة

وفى ٢١ نوفمبر وصلت ورقة من وصفى افندى ، أحد مستخدمى السراى ، فحواها أنه تقابل مع فريد بك الذى أخبره بأن جمال باشا ناظر البحرية قد عين قائداً عاماً للحملة ؛ وأنه سيسافر بعد ظهر اليوم من محطة حيدر باشا ، ومعه الشيخ جاويش وفؤاد سليم بك ، والدكتور احمد فؤاد ، وآخرون ممن يريدون السفر معه .

ولما اطلع سمو الخديو على هذه الورقة غضب لسفر أولئك مع جمال باشا ، وقال : إنهم متى دخلوا مصر سعوا فى جعلها عثمانية ، بحيث يصبح المصريون عبيداً كما كانوا فى عهد الاحتلال الانكليزى ، ثم قال : إن هذه الحركة مقصودة ، وإنها من تدابير الحكومة العثمانية .

وفى الساعة الحادية عشرة صباحاً حضر محمد فريد بك ، وتشرف بمقابلة الجناب العالى ، وروى أنه سعى لمقابلة جمال باشا أمس ، فسأل عنه فى منزله مراراً بالتليفون حتى علم بوجوده بعد تناول العشاء ، فذهب إليه تحت وابل من المطر ، وقابله فى منزله ، فقال له جمال باشا إن تعيينه جاء بغتة وأنه يأسف ، لأنه لايستطيع مقابلة الجناب العالى ، وكلفه أن يبلغ سموه أسفه على ذلك . ثم سأله فريد بك عما اذا كان صحيحاً أن بعض المصريين سيسافرون معه ، وخص بالذكر الشيخ جاويش والدكتور فؤاد ، فقال جمال باشا : نعم . وزاد على ذلك قوله : « ويمكن لمن يشاء من المصريين أن يسافروا معى » ؛ وقد أظهر أنه لا يهتم بالملكيين السائرين معه ؛ وإنما يوجه اهتمامه إلى الجيش

وحده ؛ وطلب من فريد بك أن يسأل الخديو عما إذا كانت لديه معلومات وخرائط ، وقال فريد بك إنه علم من المصادر العثمانية أن سبب تعيين جمال باشا قائداً للحملة ، بدلا من زكى باشا العربى ، أن هذا الأخير مكلف أن يؤدى مهمة لدى إمبراطور ألمانيا ، نظراً إلى معرفته للغة الألمانية ، وإنه لما كان جمال باشا هو قائد أوردى الشام ، كلف القيادة بدلا من زكى باشا

وفى اليوم نفسه أمر سموه أن يقول فريد بك لجمال باشا عند توديعه إنه سيلحق به قريباً ، كما أمر عارف باشا أن يذهب مندوبا من سموه ، ليبلغ جمال باشا تحيته وأسفه لعدم وجود خرائط . وقد ركب كلاهما يخت المحروسة إلى محطة حيدر باشا ؛ وفى الساعة الثالثة بعد الظهر جاء سراى جبوقلى يوسف صديق باشا ؛ وقد روى أنه كان ليلة أمس مع جماعة من كبار رجال الدولة ، يتكلمون فيما بينهم على مائدة واحدة ؛ وأن جمال باشا حضر إلى الكلوب ، واختلى فى غرفة من غرفه برفعت باشا ، سفير الدولة فى باريس ؛ وأن يوسف صديق باشا قابل جمال باشا عند خروجه من الغرفة ، وبادله وهو واقف جملا قليلة فى موضوع تهنئته بتعيينه قائداً عاماً للتجريدة ؛ وقابل صديق باشا فى الكلوب نفسه سفير ألمانيا قائلا له : هل يصح ألا يأتى جمال باشا وقد عين قائداً للتجريدة لزيارة الجناب الخديوى ؟ فقال السفير : إن هؤلاء الناس لا يعرفون الواجبات ، حتى لقد شكا إلىّ معتمد حكومة الصرب أنه أرسل تهنئته بالعيد إلى جميع النظار ، فلم يرد عليه أحد منهم .

وفى الساعة الخامسة رجع عارف باشا إلى جبوقلى ، وأخبر أنه ودع جمال باشا باسم الجناب الخديوى ، وأن المسافرين معه من المصريين هم : فؤاد سليم بك والدكتور احمد فؤاد ؛ وأن الشيخ جاويش لم يكن من المسافرين ؛ وأنه قد ودعه جميع النظار ما عدا أنور باشا المريض . وكان مع جمال باشا كثير من الضباط الألمان ، فأظهر سموه استياءه لسفر بعض المصريين ، وخصوصاً الدكتور احمد فؤاد وقال عنه : إنه متهم فى قضية التعدى علىّ ، وأن الحكومة وجدت فى مصر أوراقاً تثبت اشتراكه فى هذه الجناية ، حتى أنها طلبت القبض عليه .

وقال سموه : إن جمال باشا قد اعتذر عن عدم زيارته لى ، وقبلت اعتذاره . وقد رأى سموه بادىء ذى بدء أن يذهب صديق باشا وعارف باشا إلى مدحت شكرى بك ، والدكتور ناظم بك ، فى مركز الاتحاد والترقى ليقولا له : أيصح أن يسافر الدكتور

احمد فؤاد وهو متهم بوجود علاقة له بحادث الاعتداء ؛ فاقترح يوسف صديق باشا أن يذهب مباشرة ، ويتفاهم هو وطلعت بك ، فقال سمو الخديو : ولكن لا أحب أن تذهبوا إليه ، لأنه يوقفكم كثيراً قبل أن يقابلكم ؛ ولا أحب أن يعاملكم هذه المعاملة . وأخيراً انتهى رأى سموه بأن يذهب فى اليوم التالى لمقابلة جاويد بك ، وأخذ رأيه فى هذا الموضوع .

وفى ٢٢ نوفمبر قابل يوسف صديق باشا ، ومحمد عارف باشا ، جاويد بك المستقيل ، فأعرب له الأول عن ثقة سمو الخديو به ، ثم قال له إن القاعدة التى حصل الاتفاق عليها هى قاعدة الصراحة التامة بين سموه ورجال الدولة ، وأن جنابه قد سار عليها من بداية الأمر ؛ ولكن يظهر من بعض حوادث أخيرة ما لا ينطبق عليها .

ومن هذه الحوادث أن نسب إلى الجناب الخديوى رغبته أن يكون قائداً للتجريدة العثمانية ؛ مع أن سموه ما رغب فى هذا قط ؛ وإنما هذه فكرة قال بها بعض المصادر العثمانية . ولو فرض أن الخديو يرغب فيها ، لكان نجاح التجريدة أعظم بوجوده على رأسها ، بعد أن منعته انجلترا من الرجوع إلى بلاده ؛ وذلك لما يترتب على وجوده من قيام المصريين بمساعدتها .

ومن هذه الحوادث أن سمو الخديو لم يكلمه أحد قط فى موضوع تعيينه قائداً للتجريدة ، وقد عين جمال باشا فى هذا المنصب دون أخذ رأى سموه فيه ؛ وبعد تعيينه ، وقبل سفره إلى مصر ، لم يكلف نفسه زيارة سمو الخديو للوداع قبل السفر — كأن جنابه بعيد عن هذه المسألة غاية البعد .

ومن هذه الحوادث أيضاً أن القائد العام جمال باشا قد استصحب معه عنصراً من المصريين غير مرغوب فيه ، ومنه الدكتور أحمد فؤاد ؛ وعندئذ قطع جاويد بك الحديث قائلا : « صحيح أنا الآن أفهم معنى إرسال هذا الشخص مع جمال باشا » ثم استمر يوسف صديق باشا فى الحديث قائلا : إن الدكتور فؤاد هذا متهم بوجود علاقة



جمال باشا

له بحادثة الاعتداء على شخص الجناب العالى ، فارساله جارح وغير موافق للمصلحة . ولاعتقاد الخديو فى معارفكم وفى ذكائكم ، رأى أن يأخذ رأيكم فيما تقدم ؛ ولو لم تكونوا فى الحكومة الآن .

فقال جاويد بك : صحيح أننى لست فى الحكومة ، ولكنى أشتغل مع أعضائها كما كنت أشتغل فى النظارة ، وأننى مشترك مع أفندينا فى أنه ما كان يحسن بالقائد أن يسافر قبل أن يقابل سموه ، كما أنه لم يكن يحسن به أن يأخذ معه شخصاً بتلك الصفة (مشيراً إلى الدكتور فؤاد) . ثم قال إنه سيقابل طلعت بك ، ويكلمه فى موضوع الدكتور ويخبر سمو الخديو بالجواب .

ثم إن يوسف باشا قال لجاويد بك : إننا واثقون أن المسألة المصرية مسألة دولية وليس للدولة العلية وحدها حق الاستئثار بها ، فقاطعه جاويد بك قائلا له : وأنا أعرف أكثر من ذلك ، وهو أن الدول لا تتأثر بكلام الدولة — ولو كانت منتصرة — فى هذا الموضوع.

قال يوسف باشا : ولا تنس أن سفير انجلترا لما عرض على أفندينا ذهابه إلى إيطاليا ، قائلا إنها أقرب إلى مصر من الآستانة — وفى ذلك معنى كبير — أجابه الخديو بأنه لذلك يفضل البقاء فى دار الخلافة ؛ وقطع علاقاته به ،لأنه تعهد وإياكم على أن يكون مع الدولة وألمانيا .

فقال جاويد بك : ونحن نشكر الجناب العالى على هذه الاحساسات .

وقال يوسف باشا : فاذا استمرت هذه المعاملة الماسة للخواطر من قبل رجال الدولة ، فان أفندينا يترك الآستانة ويتوجه إلى سويسرا ، حتى تنتهى الحرب ، ويعقد الصلح ، ويبت فى مسألة مصر .

فقال جاويد بك : هذا أمر فات أوانه (يريد السفر).

فرد عليه يوسف باشا بأن الوقت لا يزال منفسحاً .

فقال جاويد بك : لا لا يا يوسف باشا ، لا تقل ذلك .

وأخيراً قال جاويد بك : إنه من الصعب حقيقة أن يسافر جمال باشا من غير أن يقابل الجناب العالى ، ولم يكن يليق إرسال الدكتور احمد فؤاد ؛ أما بالنسبة للاتفاق على ما سيعمل فى مصر عند دخول الجيش العثمانى عاصمة البلاد ، فانه كان يظن أن طلعت بك وأنور باشا قاما بهذا الواجب ؛ وعلى كل حال فانه وعد بالتكلم فى هذه المسألة .

وفى ٢٣ نوفمبر كنا جميعاً فى سرور ؛ لأن البرقيات الرسمية أنبأتنا أن مقدمة الحملة العثمانية قد وصلت إلى القناة ، بعد أن حصلت واقعة بالقرب من القنطرة ، فى جهة القطا ، أى على بعد ثلاثين كيلومتراً من شرقى القنطرة ، وأن الهجانة المصريين انضموا إلى العثمانيين ، وأنه قتل قائد فئة من قواد الانجليز ، وملازم ، وكثير من الأنفار ، وأسر جملة منهم .

وفى هذا اليوم أرسل أفندينا يوسف باشا ، إلى البرنس عباس حليم ناظر النافعة للتكلم معه فى إرجاع الدكتور فؤاد إلى الاستانة ، ومنعه من مصاحبة القائد العام

وقد كنت أبحث مع فريد بك فى نقط ضرورية وهى :

(١) مسألة الوفد الذى يجب أن ينوب عن الجناب الخديوى ، ويرافق التجريدة العثمانية إلى مصر بهذه الصفة .

(٢) إذا كانت الوزارة موجودة عند وصول الجيش العثمانى إلى مصر ، فهل تحترم ؟ وهل للقائمقام الخديوى أن يبدل من أعضائها ؟ وإذا طلبت الحكومة العثمانية شيئاً من هذا ، فكيف يكون الحل ؟

(٣) عند إعلان الاحكام العرفية ، كيف يكون تشكيل المحاكم ؟ وباسم من تنفذ الأحكام

(٤) ماهى القشلاقات التى تخصص للجيش العثمانى ، والتى تخصص للجيش المصرى ؟

(٥) من أين ينفق على تموين الجيش العثمانى مدة وجوده فى مصر ؟

(٦) ماذا يكون الحال إذا أراد الاتراك تغيير المديرين ، أو إلغاء البوليس ، أو الجيش المصرى ؟

وبينما كنت أتكلم مع فريد بك فى هذه النقط فى ردهة الدور الأرضى من سراى بيك ، نزل سمو الخديو من الدور الأول ، وسألنا فيما نتكلم ، فأخبرته بالموضوع بصفة عامة . فقال : إن شاء الله نعقد فى الغد جلسة هنا للمناقشة فى ذلك .

ثم ذكر سموه أنه لايحسن الدخول مع رجال الحكومة العثمانية فى مناقشة النقط والتفاصيل ؛ لأنهم ليسوا رجال قواعد . ونحن اذا فتحنا باب هذه المسائل ، دخلوا فيها متعمقين ؛ وتكون النتيجة أنهم يظنوننا خصوماً لهم ؛ فيكفى الآن أن نسعى فى مسألة إرجاع الدكتور فؤاد إلى الاستانة . فقال الدكتور سيد كامل : إنه يحسن الاتفاق من

الآن مع العثمانيين ، على مبدأ أساسى ، وهو أن يبقى الجيش العثمانى بعيداً عن التدخل فى شئوننا الادارية الداخليـة ؛ ومتى تم الاتفاق على هذا المبدأ ، ترتب عليـه المسائل الفرعية الأخرى ، التى لا يصح الكلام فيها الآن .

وفى ٢٤ منه حضر يوسف باشا ، وقال إنه قابل أمس البرنس عباس حليم (وزير الأشغال) فى صدد الدكتور فؤاد ، فأظهر البرنس أنه لا قيمة لهذا الشخص ، وأنه يحسن بالخديو ألا يهتم بالجزئيات ، ولـكنه مع هذا وعد بأن يتكلم مع طلعت بك فى موضوعه

وفى هذا اليوم نفسه ، نشرت جريدة « طنين » نبذة ترجمتها جريدة « لاتوركى » إلى الفرنسية ، ومؤداها . إرسال موظفين أتراك من موظفى الجرك إلى مصر ، لاعتبارها من بعض الوجوه مشابهة لولايات الدولة .

وفى ٢٥ منه كان أفندينـا كلف يوسف صديق باشا أن يذهب إلى سفير ألمانيـا ويعلمه بمسألة الدكتور احمد فؤاد ، وما نشر فى الجرائد من أن جمال باشا أخذ معه ١١٨ شخصاً لاستخدامهم فى جمارك البلاد التى يحتلها الأتراك فى مصر ، وأن هذا القائد قد سـافر دون أن يقابل أفندينـا ؛ فاعترف له السفير بأن كل هذا لا يليق ومخـالف للاتفاق ، وأنه سيتكلم مع أنور باشا فى الأمر ، واعترف له أيضاً بأن الأتراك يدسون للخديو فيما يتعلق بمركزه

وفى ٣٠ منه تقابل صديق باشا وعارف باشا مع جاويد بك ، ولم تدم هذه الزيارة أكثر من خمس دقائق ، لأنه أخبرهما بمقابلته طلعت بك ، وعرف منه أن لا شىء عندهم مطلقاً ، وأنه إذا كان طلعت بك لا يزور سموه ، فلأن عنده مشاغل كثيرة ، وكذلك بقية رجال الدولة

وقد اعتبر يوسف صديق باشـا هذا القول مبهماً ، وغير دال على حسن النيـة ، ولـكن لم يصرح بذلك لجاويد بك ؛ وعلى العكس من ذلك عارف باشا ، فقد اعتبر هذا الجواب مهماً ، وقام فقبل جاويد بك

تحرير مهمة الحملة . وفى ١٥ اكتوبر حضر أنور باشا وتقابل مع عبـاس ، ومكث معه مدة طويلة ؛ وبعد خروجه علمنا أن سـموه تكلم معه بخصوص دسـائس الصـدر ضده ؛ ومما جاء فى الحديث أيضاً ، أن أفندينا سأل أنور باشا عما إذا كان يليق بالصـدر أن يرسـل قرار الحكومة العثمانية للحكومة المصرية ، بخصوص طرد متولى

أعمال ألمانيا والنمسا ؛ ولا يرسل لسموه صورة القرار ، كأن ذلك لا يهمه ، وكأنه ليس موجوداً فى الآستانة ؛ فتعجب أنور لذلك ، وانتقد فعل الصدر . ثم قال سموه ما يفهم منه أنه مد يده لأنور ، وتعاهد معه على ألا يخفى أحدهما عن الآخر شيئاً ، وأن يسيرا فى خطة واحدة ؛ فأكد له أنور باشا أنه يأمل أن يرى سموه حراً فى بلده ، مستقلا فى إدارتها ، كما كانت الحالة قبل الاحتلال الانجليزى ؛ ووعد بزيارته فيها ؛ فشكره سموه ، وأوصله عند نزوله إلى باب حديقة « يالى بك » .

وفى ١٩ منه تقابلت مع محمد عزت باشا ، فأخبرنى أن سفير ألمانيا تغدى عنده أخيراً ؛ ومن كلامه أن رغبة الأمبراطور التى أبلغها للدولة العلية ، هى أن طرد الانجليز من مصر لا يترتب عليه جعلها إيالة عثمانية ، بل تكون مستقلة فى أعمالها الداخلية ؛ وإنما فى بعض المسائل الخارجية ، يجب على مصر أن تستأذن الباب العالى ، وأن تحفظ امتيازات الخديوية المصرية كما هى الآن ؛ وهذا مطابق لما قاله أنور باشا لأفندينا

وفى ٣١ منه أكد طلعت بك لفريد بك ، أن الحملة التى تسير إلى مصر ليس من شأنها أن تمس شيئاً مما فى داخلية مصر ، فانه يعلم أن إدارتها منظمة ، وكل شىء مرتب ؛ ثم أضاف « حتى أننا نرى أن نرسل لكم بعض المأمورين الأتراك . لأخذ ما يهمنا فى تحسين إدارتنا فى الآستانة . »

وكنت سمعت من مدة أن أفندينا اجتمع بأنور باشا عند زيارة سموه لسفير ألمانيا فى المساء ، وتعاهد الثلاثة على أن يتحدوا على طرد الانجليز من مصر ، وأن تبقى مصر للمصريين مع حفظ امتيازاتها . وأن تكون مصر بالنسبة للدولة كبافاريا لألمانيا .

وفى ١٠ نوفمبر لاحظ ابراهيم حلمى باشا أن الجيوش العثمانية اجتازت الحدود المصرية ؛ مع أن الحكومة العثمانية لغاية الآن لم تخاطب الخديو رسمياً فيما يلزم اتباعه . فأجابه الصدر الأعظم بأنه مستعد للتكلم مع سموه قبل سفره فى أحوال مصر ، ثم قال إن الجيش سائر إلى مصر ، ومهمته طرد الانجليز ، وإرجاع الخديو إلى أريكته .

وفى ١٣ نوفمبر تقابل الخديو مع فريد بك ولبيب بك ، وقال لنا إن رجال الدولة عديمو الادارة ، فلا ينظرون إلى الأمام ؛ ونحن لا يمكننا أن نغير ما تعودوا عليه . فقال فريد بك ولبيب بك إنهما قابلا أنور باشا أمس ، وسألاه عما يراه فى مسألة مصر وأفندينا والحزب الوطنى فقال : نحن تعاهدنا مع الخديو ، وكررنا له القول بأننا لا نريد مطلقاً التدخل فى داخلية حكومته ؛ ولا نرغب إلا فى أن نراها

حرة وقوية ؛ وأننا نؤيد سموه فى مركزه ، ونسير بالاتفاق معه ، ومع الحزب الوطنى .

قال أنور : نحن نساعد حكومة إيران وأهاليها كما نساعد مصر والمصريين . فهل معنى ذلك أننا سنأخذ العجم ؟ هذا لا يكون .

وحصلت اليوم مظاهرة من الايرانيين فى الآستانة ؛ وقرروا طلب دخول إيران فى الحرب ضد روسيا ؛ وهذه المظاهرة حصلت بايعاز من أنور باشا .

وفى ١٦ منه حضر إلى جبوقلى فى هذا الصباح (ى . بك) أحد المصريين الذين كلفهما الخديو بمقابلة سفير ألمانيا . وأخبر أفندينا أنه هو وزميله (م . افندى) تقابلا أمس مع السفير ، وأخبراه بحديث البرنس ابراهيم حلمى مع الصدر ، وحديث سيف الله باشا لفريد بك ، فرفع يده مستهزئاً وقال : لا تعبأوا بهذه الأقاويل ، فانها لا قيمة لها من الوجهة السياسية ، وخصوصاً أنى سبق أن أخبرت الصدر بأن ألمانيا ستساعد الدولة فى حملتها على مصر ، بشرط ألا تمس فرماناتها ، ولا المعاهدات الدولية ؛ وأن تبقى مصر للمصريين (وكرر هذه العبارة مرتين) ؛ فأجابه الصدر بأنه باعتباره مصرياً يحافظ على الفرمانات ، وعلى حقوق الخديوية ، وامتيازات مصر .

الصباحى يحمل الأوامر للقائمقام بخصوص الحملة : وفى ٢٤ منه أمرنى الخديو أنا ويوسف باشا أن نحرر مذكرة إلى حسين رشدى ، تحتوى على ملخص الحالة السياسية بيننا وبين الأتراك ، وما يجب عمله عند دخول الجيش التركى إلى مصر ، ومعاملة القائد ونحو ذلك . وكانت الفكرة أن تكتب المذكرة على حرير بالشفرة المعروفة لرشدى باشا ، أو بالكتابة المكشوفة ، ويخاط هذا الحرير بين البطانة والقماش . وأعرب سمو الخديو عن رأيه فى أن ينتخب رشدى رجلا مصرياً لنظارة الحربية ، وتكون مهمته تسهيل العلاقات بين الحكومة المصرية والجيش العثمانى المحتل ؛ ورأى سموه تعيين السرياور خديوى اسماعيل مختار باشا فى هذه الوظيفة . لأنه يحمل أكبر رتبة عسكرية فى مصر ، ولأنه مخلص لسموه . وقد عرض على سموه اسم حسنى باشا ، فقال : لا ، لا ، دعنا من هذا الرجل ، فانه تنحى عن السير معنا فى حركتنا .

وقد كتبت المذكرة التى طلبها أفندينا ، وعرضها عليه يوسف صديق باشا ، فأدخل بعض زيادات عليها ؛ وأمر بنسخها وتسليمها إلى محمد عبد الرحمن الصباحى افندى ، على أن يسافر اليوم لتسليمها لحسين رشدى باشا ، وها هى ذى صورتها .

« حصل الاتفاق شفهياً بين الجناب العالى ، وأنور باشا ، وسفير ألمانيا فى سفارتها ، على إرسال تجريدة عثمانية لمصر ؛ على شرط أن تبقى الادارة الداخلية مستقلة كمنطوق الفرمانات . وقد علمنا أن أمبراطور ألمانيا أرسل تلغرافياً إلى السفير بأن مساعدته للحملة هى بهذا الشرط ، وألا يقبل مطلقاً أن تكون مصر ولاية عثمانية ، كباقى الولايات .

« تحسنت العلاقات بيننا وبين رجال الدولة ، وخصوصاً أنور باشا . إنما ظهر لنا أن للصدر أغراضاً وآمالا ، وقد التف حوله جماعة تنادى بأن مصر للدولة ، وليست للمصريين . ولما لم تنجح هذه الفئة فى مسعاها ، قالت بتعيين ولى عهد السلطنة العثمانية للخديوية المصرية ، وعلم الجناب العالى من السلطان بأن يوسف عز الدين افندى طلب من جلالته ذلك . ولكن هذا الطلب لم ينظر إليه بعين الأهمية ، وأن رجال الدولة لا يرغبون فى تغيير شىء فى الخديوية المصرية . وبعد أن كانت رياسة الجيش الزاحف على مصر للجنرال زكى باشا ، العربى الجنس ، صدرت الارادة بتعيين جمال باشا ناظر البحرية ، بدلا عنه ؛ وإرسال زكى باشا لمهمة أخرى .

عود الى الحملة . « سافر قائد الحملة يوم ٢١ نوفمبر بدون مقابلة الجناب العالى ، وأرسل يعتذر بواسطة فريد بك بضيق الوقت ؛ ويلاحظ أنه استصحب معه فؤاد سليم بك ، والدكتور احمد فؤاد ، وحلمى المسلمى ، وبعد قليل يلحق بهم عبد العزيز جاويش ، فتتم بذلك الجماعة المنتمية للصدر ، والتى تقول بأن مصر للدولة ؛ فضلا عن أن أحدهم ، وهو الدكتور احمد فؤاد الموظف بالبوليس السرى فى نظارة الداخلية ، هو المشتبه فى اشتراكه مع مظهر المعتدى على جناب الخديو . ولهذا طلبنا من طلعت بك ناظر الداخلية إرجاعه .

« وعلى كل حال فاننا لعدم ثقتنا تمام الثقة بعهود رجال الدولة ، الذين ربما كانت لهم أغراض خفية ، لا تظهر إلا بعد احتلالهم البلاد ، فان أفندينا عزم على إرسال من يعتمد عليه ، للسفر إلى ألمانيا والنمسا وإيطاليا ، للتحقق من تنفيذ وعود سفير ألمانيا لسموه ، وبأن تبقى مصر مستقلة فى إدارتها بدون تدخل الدولة كما كانت .

« والدائر على الألسنة أنه بمجرد دخول الجيش العثمانى ، تعلن الأحكام العرفية ؛ ونظراً لأن المشهور عن القائد أنه قوى الشكيمة ؛ فانه يحسن أن تستعدوا لذلك وتفكروا من الآن فى الخطة الواجب اتباعها معه .

« ومن رأى الجناب العالى :

أولا ـ أن تقيموا فى سراى عابدين عند دخول الجيش العثمانى ، باعتباركم قائمقام الخديو ، وتقابلوا قائده على الدوام هناك .

ثانياً ـ أن تخصص للقيادة العامة المقر الذى فيه إدارة جيش الاحتلال .

ثالثاً ـ أن تقيم العساكر التركية فى القشلاقات التى كانت مخصصة لجيش الاحتلال الانجليزى ، ولا يرخص لهم فى أخذ أى قشلاق من قشلاقات الجنود المصرية .

(والعبارة الأخيرة أضافها الخديو بخطه)

رابعاً ـ أن يرحب بالجيش بدون مبالغة ، وتحفظ الحكومة كرامتها إزاءه .

خامساً ـ يستمر القضاء المصرى طبعاً كما كان ، ولو أعلنت الأحكام العرفية .

سادساً ـ تنتدب الحكومة مندوب إيطاليا فى صندوق الدين مستشاراً مؤقتاً للمالية ، على ألا يعتدى على الأنظمة الجارية فى المالية المصرية .

سابعاً ـ أن تتفق الحكومة وبعض المتعهدين، على توريد حاجات الجيش العثمانى من المأكولات ، وتصرف قيمة ذلك مما كان مخصصاً لجيش الاحتلال الانجليزى .

ثامناً ـ بمجرد انسحاب الموظفين الانجليز ، يعين فى الحال من يخلفهم من المصريين ، وخصوصاً فى رياسة البوليس المصرى .

تاسعاً ـ لا يعمل أى احتفال رسمى حتى يشرف الجناب العالى ، وإذا اضطررتم لتقديم بعض كبار المأمورين المصريين ، فيكون ذلك على الانفراد ، وبواسطتكم

ثم أضاف أفندينا بخطه ما يأتى : يراعى عدم تدخل القائد العثمانى فى أمور الادارة ، وخصوصاً فى مصلحة التلغرافات ، وبمجرد خروج الانجليز من مصر ، تجمع العساكر المصرية . إن أمكن فى القاهرة . وإن أمكن أيضا يجمع الجيش العثمانى فيها ، بدلا من توزيعه فى المديريات .

طلب الاتحاديين اعانات مالية من عباس . فى ٢٥ أكتوبر رأيت سمو الخديو فى حالة عصبية ، و علمت أنه أوفد ماهر افندى المحامى، وعارف باشا لطلعت بك ، ليرجواه أن يتخذ الاجراءات للعفو عن سجين من ضمن خدم سموه « سلاحشور » وهو متهم بالقتل ، فطلب طلعت بك إعانة مالية من سموه لمشترى ملابس تركية للجندرمة التركية ، فغضب لهذا الطلب ، وقال إننى ما حصلت على عرشى برشوة ، حتى أستبقيه برشوة .

وفى ٩ نوفمبر عقد سموه جلسة ، قال فيها بضرورة تكوين جماعة من حزب الاتحاد والترقى ، يعملون فى مصلحة مصر ؛ وأن تستخدم كل الوسائل لتكوين هذه الهيئة من سبعة وعشرين عضواً ، لتعمل لنا فى هذا الطريق ، بحيث لا نعطى نقوداً الآن ، بل نعد باعطائها بعد دخولنا مصر ؛ ويكون مثلنا فى هذا مثل الشخص الذى يقول للسمسار : إذا اشتريت العقار الفلانى بواسطتك ، أعطيك كذا كذا ؛ وقال إنه لا يضر خزانة مصر، دفع مائة ألف جنيه لتحقيق أغراضنا .

وذكر فى هذه الجلسة بعض أسماء رجال الدولة ؛ وأمن يوسف صديق باشا على كلام سموه ،قائلا إن الدكتور ناظم أحد كبار الحزب ، وطلعت بك نزيهان ، وأن الأول يعيش بعشرة جنيهات فى الشهر ، ولا يمكن أن يشترى ؛ وذكر أنه تقابل مع شوكت باشا ،ووعده بالكلام معه غداً لتمهيد الطريق .

وفى ٢١ نوفمبر روى سموه ، أنه لا ينسى يوم حضوره إلى الآستانة فى أول سنة للدستور ، وحضوره جلسة من جلسات مجلس المبعوثين :

قال سموه : وقد حضر لدى فى « اللوج » الذى كنت فيه طلعت بك، وثلاثة آخرون معه ، فبعد أن حيونى، وشكرونى على حضورى جلسة من جلسات المبعوثين ، طلبوا منى أن أساعدهم مساعدة مالية . وقد كنت أفهم هذه المساعدة وهم خارج بلادهم ؛ ولكن الذى لا أفهمه . هو مساعدتهم مساعدة مالية وهم داخل بلادهم . فلما قلت : « إن شاء الله ننظر فى الموضوع » ، انصرفوا بشكل مدهش ، كأنهم لم يجيئونى إلا لطلب المساعدة المالية ، ولكنهم بعد انصرافهم جاءنى جاويد ، واعتذر إلى عما وقع من زملائه .

وفى ٢٤ منه قال يوسف باشا ، إنه قابل فخر الدين بك سفير الدولة فى بطرسبرج ، وفهم منه أنه يلزمنا نحن المصريين ، أن نتأكد من الاتفاق مع ألمانيا بخصوص نتائج الحملة المصرية ؛ ولا نعتمد إلا على وعدها ، وأنه مستعد لأن يسافر ، ويتخذ ما يجب فى هذا الصدد ، مقابل مكافأة مالية طلبها .

وقال يوسف باشا إن عارف باشا قابل اسماعيل حقى بك ، القوميسير العثمانى فى مصر ، وروى عنه أنه من اللازم أن يكون عند سمو الخديو الآن مائة ألف جنيه، لصرفها على من يساعدنا للوصول إلى غايتنا . فقال سموه : « لا بأس بايجاد الأشخاص الذين يساعدوننا ؛ ووعدهم بالمكافأة عندما نبلغ غايتنا » .

تركية تعلن الحرب على الروسيا وانجلترا وفرنسا . فى ٣٠ اكتوبر توجهت مع أفندينا لتشريفات العيد فى سراى ضولمه بغجه ، ورافقنا أيضاً يوسف صديق باشا ، وعارف باشا ، وابراهيم أدهم بك ، واثنان من الضباط . فيوسف وعارف مرا أمام السلطان ، مثل باقى المأمورين العثمانيين ؛ وأما أنا ، فلأنى مرتد ردنجوت بدلا من الاسلامبولية ، تفرجت مع الضباط من فوق صالة العرش . وكان الخديو واقفاً مع الأمراء العثمانيين ، ومنهم ولى العهد عن يمين السلطان ؛ والوكلاء — ما عدا الصدر الذى قيل عنه إنه مريض (والحقيقة أنه كان غاضباً لما سمعه من تعدى الوابورات الحربية العثمانية على الموانىء الروسية دون علمه) — وقفوا عن يسار الخليفة . وقبل انتهاء التشريفات بقليل ، جاء يوسف وعارف لنا ، وأخبرانا بأن دارعتين من الأسطول العثمانى تلاقتا مع مركبين « طوربيدو » ومدفعيتين من الأسطول الروسى ، كانت تخفر وابورات وضع الألغام ، على بعد خمسين ميلا من بوغاز البحر الأسود ، فالدراعتان العثمانيتان أطلقتا النيران على هذه المراكب ، فأغرقتاها ، وأسرتا سبعين نفراً ، وخمسة ضباط ، أحدهم ربان وأحضروهم إلى الآستانة ؛ ثم توجه الأسطول العثمانى إلى الموانىء الروسية ، ومنها سواستبول وأودسا ، وأحرق ما بها من مخازن البترول ، والمخازن العسكرية ، وأغرق ما فى الموانىء من الوابورات الروسية النقالة ، وعددها واحد وعشرون .

ولما خرجنا مع أفندينا ، أخبرنا بأن السلطان أعلمه بذلك ، وكان الخبر منتشراً فى بيوغلى أمس بعد الساعة الخامسة مساء ، من برقية وردت من قنصلية انجلترا فى أودسا إلى السفارة فى الآستانة ؛ وسأل السفير الصدر فى المساء عن هذا الخبر ، فقال إنه لا يعرف شيئاً ؛ ولما سأل الصدر أنور باشا ، قال الأخير : نعم إننى سمعت بهذه الاشاعة . فيكأن الألمانيين هم الذين دبروا هذا الأمر بدون أوامر .

وفى ٣١ منه حضر أنور باشا ، وأخبر الخديو بما حصل من تخريب الأسطول التركى للموانىء الروسية ، فأخبره سموه بأنه لما زار الأمير سعيد باشا الصدر ، علم منه ما يفيد أن الحرب لا تكون بين الدولة وروسيا . ولهذا فانه استرجع الأسطول العثمانى ، وأشار من النافذة إلى « جوبن » الألمانية ، وقال ها هو ذا الأسطول . وإن الصدر يلقى تبعة ما جرى فى البحر الأسود على الألمان ، فقال أنور باشا إنه أعد جوازات السفراء الثلاثة (سفراء الروسيا وانجلترا وفرنسا) ، وأكد لأفندينا أنهم سيسافرون .

وبالفعل أنى لما كنت عند فريد بك — ومسكنه أمام السفارة الروسية — وجدت جموعاً كثيرة أمام السفارة تنتظر خروج السفير

ولما كان أنور باشا وأفندينا يتحادثان، حضر جمال باشا ناظر البحرية؛ ولهذا لم يتمكنا من الاستمرار فى الكلام . وقد خطر ببال أنور باشا أن الخديو ربما يظن أنه متفق مع زميله على أن يحضرعقب زيارته، حتى لايدع وقتاً للمكالمة ؛ فأقسم أنور باشا بأن زيارة جمال باشا الآن هى من المصادفة ، وأنه لامانع من قبوله بوجود أنور باشا ؛ لأنهما على وفاق تام ـ وقد كان ذلك .

وفى ٢ نوفمبر حضر الصدر، وزار أفندينا فى بيك، وعلم سموه أن الروس تجاوزوا الحدود العثمانية قاصدين أرضروم ، فسأله أفندينا عما إذا كانت الدولة فى حالة حرب مع روسيا وانكلترا وفرنسا . فقال : لا . وقد حضر البرنس ابراهيم حلمى ، فقال إنه سمع الصدر يقول : مادمت فى الصدارة ، فلا أعلن حرباً . وقال عن الألمانيين الذين أحدثوا واقعة البحر الأسود: سأؤدبهم (يعنى يهددهم) . ولكن سموه قال بأن هذا يخالف قبوله نقود ألمانيا ، ووجود سبعة آلاف ألمانى فى الجيش العثمانى : البرى والبحرى ، وأربعمائه مدفع ؛ وهذه المساعدات كلها لدخول تركية فى الحرب .

وقد زار الخديو سفير ألمانيا ، ومن المحادثة ظهر له أن الصدر لايرغب فى دخول الدولة فى الحرب ، وإلا فسيستقيل ؛ وهذا يطابق ماقاله سفير النمسا . وأضاف سفير ألمانيا أن معتمد أمريكا طلب من أنور باشا وطلعت بك وجمال باشا أن يجتهدوا فى منع الاستقالة . ولهذا اجتمع مجلس الاتحاد والترقى ، وقرر باتحاد الآراء تأييد مافعلته الحكومة بدخول الحرب ، وعدم قبول استقالة الصدر ، مع تغيير بعض الوزراء غير الموافقين على الحرب، وهم جاويد بك وزير المالية، ومحمود باشا وزير النافعة، والبستانى بك وزير الزراعة والبريد . ثم أثنى السفير الألمانى على طلعت بك ، وقال إنه أتى وتعاهد معه على السير مع ألمانيا ، قائلا : « إن كسبت كسبنا، وإن خسرت خسرنا » . وقال إنه يوجد وعد واتفاق بين انجلترا والصدر — على ماهو ظاهر من الأحوال — على ألا تحصل حرب ؛ ومع هذا حصلت واقعة البحر الأسود . فأكد الصدر للسفير المذكور أنه اذا دخلت الدولة فى الحرب ، فانه لابد أن يستقيل ؛ فلما طلب السفير جواز السفر لقطع العلائق، طلب أيضا من الصدر الاستقالة قبل خروجه ، ولكن الصدر أرغم على البقاء من جمعية الاتحاد ، كما تقدم

وفى ٣ نوفمبر بلغنا أن الأسطول الانجليزى أطلق النار مدة عشر دقائق على استحكامات الدردنيل ، التى ردت عليه ؛ ويقال إنها أصابت المراكب الانجليزية الكبيرة بعطب ، فشبت النار فيها .

وبلغنا أن الجيوش التركية اجتازت حدود الروسيا ، وتوغلت فيها مقدار عشرين كيلو متراً ، وأن عدد الأتراك ثلاثون ألفاً ، وأن الروس مائة وخمسون ألفاً .

وفى ١٣ منه كان سمو الخديو قلق البال ، لأنه سمع من السفراء خبر اندحار الألمان فى روسيا ، وأن ألمانيا عرضت الصلح على الدول المتحاربة ، فقبلته روسيا وفرنسا ، ولكن انجلتره رفضته . وقد قال سموه إننا حتى الآن لم نأت بعمل يعتبر عدائياً نحو انجلتره التى طلبت ألا نرجع إلى مصر ، فقبلت طلبها ؛ وموقفنا على العموم موقف شهامة .

وفى ٢٥ نوفمبر زار الجناب العالى سفير الولايات المتحدة ، فعلم منه أن لأمريكا مركبين حربيين : أحدهما يمر بشواطىء سوريا ، والآخر فى جزر الأرخبيل ؛ وأن رفاصاً أمريكياً كان يريد دخول أزمير ، وعليه قائد المركب الحربى ، فأطلقت عليه الحصون العثمانية طلقتين بدون رصاص ، ثم طلقاً ثالثاً محشواً بالرصاص ، فرجع القائد ، وأرسل برقية إلى سفيره فى الاستانة ، طالباً منه الاذن فى ضرب حصون أزمير ، فمنعه السفير ، فاغتاظ القائد وشكاه إلى حكومته ، فاضطر السفير أن يطلب من أنور باشا تقريراً يبرر به أوامر المنع ، فتم له ما أراد .

وقال السفير إن الضباط البحريين بين الأمريكيين جميعاً ، حتى الذين يقيمون منهم فى أمريكا ، هم فى جانب انجلترا ، وأن رأيه أن الحرب العامة لا تستمر أكثر من ثلاثة أشهر ، ومن المحتمل عقد الصلح بين ألمانيا وفرنسا . ولكن ليس مع انجلترا إلا إذا كانت ألمانيا تحاصر ولو جزءاً من سواحل انجلترا ، لقطع المواصلات عنها ؛ وعند ذلك تضطر أن تطلب منازلة ألمانيا بحرياً . فاذا أمكنها أن تمحو الأسطول الألمانى ، ولو أفقدها ذلك ثلث مراكبها الحربية ، فعندئذ تقبل الدخول فى الصلح .

البعثات الخديوية للحاق بالحملة التركية . فى ٥ نوفمبر أبدى الخديو كدره من عارف باشا ؛ لأنه كلفه بمهمة ، هى الحصول على بعض استعلامات ، فلم يقم بها ؛ وقد أملى سموه الأسئلة التالية ليحضر أجوبتها عارف باشا ، وهى : —

١) المدة التى يقطعها القطار المخصوص من الاستانة إلى « بوزانتى » ، وهل يسير ليلا ونهاراً ، أو نهاراً فقط ؟ وأين يكون المبيت ؟

٢) المسافة بين بوزانتى وقولاق بوغاز ، وبأية صفة تقطع ؟ وهل توجد سيارات أو عربات ؟

٣) ماهى المسافة بين قولاق بوغاز واسكندرونة بالسكة الحديد ؟ وهل تقطع نهاراً وليلا، أو نهاراً فقط ؟ وأين يكون المبيت ؟ وماهو الأفضل : طريق اسكندرونة ـ حلب ، أو طريق معمورة ـ حلب ؟

٤) المسافة بين اسكندرونة لحلب ٢٤٠ كيلو متراً على مايقال ؛ فهل المسير على عربة أو سيارة ؟ وكم يستغرق قطعها ؟ وأين يكون المبيت ؟

٥) من حلب لنابلس ، من أى طريق يكون المسير ؟ وهل توجد عربات للتغيير ؟ وماهى المسافات والساعات اللازمة لقطع كل مسافة ؟

٦) من بعد نابلس إلى الحدود المصرية ، هل يوجد طريق للعربات والسيارات ؟ ومعرفة المسافات والساعات ؟

٧) ما كيفية نقل العفش ؟ هل يكون على عربات، أو على دواب ؟

وقد تقرر أن تكون التجريدة إلى الحدود من قبل الخديو مؤلفة من الشيخ محمد عثمان ، واليوزباشى محمد افندى زكى ، والملازم الثانى أحمد سلام افندى ، من ضباط المحروسة ؛ وعسكريين سودانيين ، وسايس ؛ ومعهم من الركايب أربعة خيول

وهذه هى الأوامر التى صدرت مساء اليوم :

١) تجهز ثلاثة خيول للركوب، ورابعها الحصان الأبيض، وعليها أربعة سروج، منها اثنان خصوصيان ، واثنان عاديان؛ وأدوات نظافة وعليق وتبن لمدة ثلاثة أيام. تشحن الساعة الخامسة من صباح يوم الجمعة ٦ نوفمبر ، ومع الكل سايس واحد وعسكريان سودانيان

٢) عند الوصول لنابلس تترك الخيول وأدواتها والسايس وعسكرى سودانى والملازم سلام ، ويترك مع الأخير خمسون جنيها عثمانياً ، ومثلها انجليزياً ، ويخصص من كل من المبلغين خمسة جنيهات للصرف على الملازم والسايس والعسكرى، لحين وصول عبد الله افندى البشرى ؛ وحينئذ يسلم المبلغ الباقى ، ثم يقوم الشيخ عثمان ، ورسمى

أفندى ، وعسكرى سودانى للعريش، ويتخذونها مركزا

٣) بواسطة الشيخ القالوجى والشيخ كريم من أهالى العريش، يبحث عن الأشخاص الذين كانوا مستخدمين فى الحكومة المصرية ، وفصلوا منها . وبعد ذلك يؤخذ من كل فرد منهم على حدة ماعنده من المعلومات ، وذلك فى محل أمين محكم ؛ ثم يعمل عنها ملخص فى رسالة ترسل مع مخصوص للحكومة العثمانية هناك ، ويكتب عليه « مهم » ليسرع فى أرساله لجبوقلى بالبريد السريع ؛ أما الأخبار المهمة التى يلزم إرسالها بالبرق ، فترسل بالشفرة .

٤) إذا رفض مأمور التلغراف تسلم البرقيـة ، يخابر قومندان عموم الجيش فى الشام بذلك ؛ وإذا لم يرد منه ترخيص ، فيرسل لنا برقية مفتوحة بذلك .

٥) عند قيام أى بوستة من طرفهم ، يرسلون برقية مضمونها : « اليوم بوستة مهمة » مثلا .

٦) عند الوصول إلى العريش ، يلزم جمع من كانوا فى خدمة الحكومة وفصلوا ، من عساكر ، وسعاة ، وعمال تلغراف ، ومخبرين ويسلمون لرسمى افندى ، لترتيبهم حسبما كانوا قبل فصلهم ؛ إلا الذين يكونون فى خدمة الجيش العثمانى .

٧) يقيم الشيخ عثمان فى العريش ، ويكون رسمى افندى مع الدوريات التركية ، بعد الاتفاق مع ضباط الجيش ، بحيث لا يكونون مشمئزين من ذلك .

٨) يكون البوليس فى العريش مع رسمى افندى فى الدوريات .

٩) تتحقق من الأشخاص الذين يتجسسون لحساب الانجليز ، ويخبر عنهم .

١٠) عند الوصول إلى طوروس ، يستفهم بطريقة غير محسوسة عما عمل من الاستعداد لترحيل حملة الخديو .

١١) ترسل برقية من آخر نقطة يصلون إليها ، إن كان بالعريش تلغراف .

١٢) يرسل من كل محطة كارت بوستال ، كتقرير مختصر عن كل ما يرى .

١٣) أخذ عليقة ثلاثة أيام من أطنه ، وخمسة أيام من نابلس ، بمعرفة سلام افندى

١٤) مقابلة قومندان الجيش بالشام ، والتكلم معه فى شأن إرسال التلغرافات الشفرة وغيرها مجاناً عند النقطة المركزية للحملة ، ويؤخذ منه جواب للمركز بذلك ، ويستعلم منه عن آخر نقطة فيها تلغراف .

١٥) يرسل تلغراف من أطنه لعبد السلام الحسيني بالقدس، للحضور لنابلس؛ ويستفهم منه عما إذا كانت توجد هناك خيام جاهزة، وما نوع قماشها، وما حجمها؟ ويكتب بذلك مذكرة.

١٦) يبحث عن الخيام بالشام، ويعلم حجمها، وعدد خاناتها، وثمنها، وجنس قماشها؛ ويرسل بها مذكرة.

١٧) يبحث فى العريش عن محل للمعسكر الخديوى، وهل جرى فى القلعة شيء؟

١٨) إذا كانت الحكومة لم تحتل العريش للآن، فيكون مركز الحملة خان يوسف بالليل، ونهاراً بالعريش؛ مع الحذر.

١٩) عند وصول الحملة إلى النقطة النهائية، يرسل تقرير لعبد الله افندى البشرى صورة منه لسلام افندى؛ وصفاً للرحلة.

٢٠) الاقامة بالعريش تكون بمنزل كريم أو القالوجى أو بالقلعة، إن كانت سليمة.

٢١) عند الوصول إلى غزة يستعلم عن كيفية ورود المخابرات التى كانت جارية بين قنصل انكلترا بها ومحافظ بور سعيد، ومن هم الذين كانوا رسلهما.

٢٢) يجمع العربان والمشايخ، ويخطب فيهم بالواقع، لتفهيمهم سوء معاملة الانجليز للخديو، واستعداد سموه للدخول لمصر عن طريق البر... الخ.

وقد سمع عارف باشا من نظارة الحربية (ولعله من سليمان نعمان باشا الحكيم) أن سمو الخديو سيكون قومنداناً عاماً للحملة التركية.

وفى ٦ نوفمبر جاء طاهر رمزى باشا رئيس الياوران الخديوى سابقاً، وطلب من أفندينا أن يكون فى خدمته عند الزحف على مصر، كما أن الدكتور رؤوف باشا التركى الذى توطن فى مصر، وحضر للاستانة، طلب ذلك.

وفى ١٥ منه سافرت البعثة الثانية إلى الحدود، وكانت مؤلفة من القائمقام توفيق فهمى بك ياور الجناب الخديوى، ومسعود افندى عمر الملازم، والصول موسى محمد، وهما من السودانيين، وسبعة خفراء من الأتراك (قوروجية)، وأربعة من العساكر المصريين، وتركيين من سائقى السيارات، وثلاثة خيمية، وأربعة سياس من المصريين؛


توفيق فهمي بك

ومع هذه البعثة عشرون خزاناً من الصاج للمياه ، و١٨ حصاناً و ٤ بغال وخيام ، ومنها اثنتان جليتان لسمو الخديو ، و١٢ للكبراء والياوران ، و ١٠ خيام للخدم والعساكر و٢ للمطبخ و٢ للمراحيض و٣٠ سرجاً للخيل. و١٠ بطانيات صوف للكبراء ، ولوازم الراحة والنظافة والنور . وقد انضم فى أفيون قره حصار إلى هذه البعثة جزء منها كان قد سافر قبلها ، مؤلف من طبيب ، وصيدلى ، و٣ من الملازمين الثوانى ، و٤٣ صف ضابط وعساكر سودانيين ومصريين ومعهم تعيينات ومهمات وخلافه . وكان يرافقهم اسماعيل لبيب بك ، حاملا نسخ المنشور الخديوى (١) ، ومعه ٥ من الشبان المصريين الذين كانوا يدرسون الطب فى لوندره .

وفى غروب يوم ١٦ منه ، وردت برقية بالشفرة من الشيخ محمد عثمان بدمشق الشام ، يقول فيها إنه تقابل بكريس بك رئيس أركان الحرب الألمانى مع قائد القوة هناك ، وأن كريس بك أجابه إلى كل طلباته ، وبالطبع منها إرسال تلغراف بالشفرة ؛ وقد علم الشيخ أن التجريدة العثمانية لا ينتظر سيرها على مصر قبل سبعة أسابيع ، وذلك لاتمام المعدات اللازمة لهذه الحملة ؛ وأن ألفى عربى ، بقيادة ممتاز بك (صديق أنور باشا ، وكان معه فى طرابلس ، ومندوبه على الحدود المصرية) قد تحركوا على سكة العريش ؛ وأن ألفى عربى آخرين تحركوا بقيادة ضابط آخر من جهة طريق العقبة . والمهم فى هذه البرقية هو أن الجناب العالى يستطيع الآن أن ينتظر مدة فى الاستانة إلى أن يقرب تحرك الجيش الحقيقى بعد سبعة أسابيع ؛ وهذا ما يفسر أن أنور باشا كان على الدوام يدعو أفندينا إلى الانتظار .

(١) لم يكن المنشور قد أعدم حتى هذا التاريخ ، كما سبق فى المذكرات

وفى ١٧ منه وصلت برقية ثانية بالشفرة من الشيخ عثمان ، هذا نصها :

« كريس بك غير موافق على إرسال بعثة عبد الله فوراً إلى العريش ، ويستحسن بقاؤها فى دمشق أو بيت المقدس ، حتى يعمل ترتيب ؛ لأنه يخشى أن إرسال حملة الجناب العالى من ينبع إلى العريش ، ومعها باشجاويش وثمانية أنفار ، يلتفت إليها . أما نحن فلا مانع من وجودنا بالعريش ؛ وهو يلح فى رجاء المحافظة على كتمان سر حركاتهم ، وينصح ألا يقوم الجناب العالى من جبوقلى ، إلا بعد أن يخبركم هو بذلك ، لأنه أعلم من غيره .

وفى ١٨ منه رأى الخديو عمل يومية عن تنقلات البعثة من أفراد ومهمات ، وأمر بجمع الأوراق المتعلقة بذلك ، كما أمر رمزى طاهر باشا بمراجعتها .

وفى ١٩ منه سافر من الاستانة إلى أزمير ، ومنها إلى الضلمان ، سواق السيارة الفرنسى مسيو ليفاسور ، ليكون هناك فى الضلمان ، ويرحل سيارتين إلى الاسكندرونة ، فينتظر بها الأوامر ليقوم إلى جهة تعين له فيما بعد ، انتظاراً لمرور الجناب العالى بها .

وفى ٢٣ منه وصل القائمقام توفيق بك فهمى قائد البعثة الثانية إلى الاسكندرونة ؛ وكان المقرر أن تبقى بها بقية البعثة حتى يصل إليها الجناب الخديوى .

وفى ١٠ ديسمبر انتقد سموه على محمود افندى رسمى الضابط الذى أرسله إلى غزه ، لأنه أطاع جمال باشا ؛ وذهب إلى دمشق بدون إذن سموه .

فى ١١ منه ، فى أثناء انتقال سموه من جبوقلى إلى ببك ، أخرج من جيبه ثلاث برقيات من القائمقام توفيق فهمى بك ، قومندان البعثة الخديوية ، يقول فيها : إنه صدر أمر من جمال باشا بواسطة قومندان الجهة ، أن يقوم فى الحال من بيلان ، وهى الجهة التى هو بها ، ويرجع إلى الاستانة ؛ وأن أحد الضباط المصريين الذين هم تحت أمره فى قولاق بوغاز ، صدر له أمر بهذا المعنى . فأجابه توفيق بك على ذلك بأنه لا يستطيع أن يتحرك إلا بأمر من الجناب الخديوى ، وأنه كتب إلى مرءوسيه بهذا المعنى . وبعد هذا طلبت السلطة المحلية أن تنقل الأشياء والحيوانات من بيلان إلى الاسكندرونة ، وأن يبقى هو فى بيلان إلى أن يصدر أمر الجناب الخديوى بالقيام ، فرفض توفيق بك أن يصدع بهذه الاشارة بالمثل ، وأبى أن يتحرك إلا إذا صدر له أمر أفندينا .

وفى ١٢ منـــه توجه سموه إلى ببك ، وقابل البرنس ابراهيم حلمى باشا ، وسيف الله يسرى باشا ، ومحمد عزت باشا ، ثم محمد فريد بك ؛ وقد أطلعه سموه على

البرقيات الواردة من توفيق فهمى بك ، فكان وقعها سيئاً جداً على فريد بك .

شعور الخديو فى ظروف مختلفة . تحت هذا العنوان سجلت حالات الخديو النفسية ، وشعوره فى بعض الظروف التى كانت تحيط به فى الآستانة ، وبالقضية المصرية :

ففى ٤ نوفمبر كان سموه يفكر كثيراً فى المصريين بعد إعلان الحرب ، ويتساءل عن حالهم مع الانجليز ، ويقول إن الموجودين الآن خارج القطر من السعداء . فالحمد لله على وجودنا فى الآستانة . وقال أيضاً : وأظن حالة رشدى باشا على الخصوص صعبة حرجة ؛ وأظهر التأسف والحنان على رجاله ، وعلى المصريين عموماً .

وفى ٥ نوفمبر قال الخديو : إننى أشعر أن علىّ واجباً سأؤديه دائماً متى رجعنا إن شاء الله لمصر ، وهو أن أمنع تدخل الحزب الوطنى أو أى حزب آخر فى أمور الجيش ، بل أجعله بعيداً عن السياسة ؛ وأجعله فى الوقت نفسه مطيعاً لى .

وقال سموه : إن ملك أسبانيا موجود فى وسط أحزاب ثورية ، وديمقراطية ، وجمهورية ؛ ولكن القوة التى يعتمد عليها فى بقاء ملكه هى قوة الجيش ؛ فانها فى قبضة يده .

وفى ١١ نوفمبر كنت بحضرة الخديو مع فريد بك ولبيب بك . فتأثرت مما فاه لنا به سموه ، خصوصاً قوله : « إننى أهتم بالمسألة المصرية ؛ لأننى أعرف أن دم الأهالى نشيط ؛ ويجب أن يعمل ، ويتقدم ، ويأخذ بالعلوم العصرية ، ويسير فى طريق النجاح . وحرام أن تترك أمة لها هذه الصفات التى لولاها لما كنت أهتم بها ، وأشتغل لمساعدتها ، ولاكتفيت بالثلاث والعشرين سنة فى الحكم ، وقعدت فى بيتى . فاهتمامى بالحملة واجب علىّ ، كما يجب منع كلّ شقاق يحصل بين الأهالى . نعم إنه توجد أحزاب ، ولكنها ترمى إلى غاية واحدة ، وهى خلاص البلاد من أى احتلال أجنبى . فأنا أساعد الجميع ؛ لأن غايتهم غايتى . »

وفى ٢١ نوفمبر بعد أن تناول سموه الغداء ، أعرب عن أسفه ، لأن الأمة المصرية ليست بقادرة على إثبات حقوقها ، وحفظ كرامتها بقوتها الذاتية ؛ وروى أنه لما كان ولياً للعهد ، كان يقرأ بعض أشياء ووقائع فى الصحف ، فلا تعجبه بعض التصرفات التى يقرأ عنها ، ويفضى باحساسه هذا إلى المرحوم والده ، فكان يصغى لما يقول ؛ إلا فى مرة من المرات ، دعاه فيها أن يسكت قائلا له : إن من يقول بقولك يجب أن يعتمد على قوة من الأمة ، والأمة — مع الأسف — ليست بذات روح . ومما قاله سموه فى هذه

الجلسة فى سياق الكلام عن حياته السياسية : إننى لما توليت الحكم كنت صغير السن ، وأقمت ثلاثا وعشرين سنة أنتقل فيها من شدة إلى أخرى : فقابلنى فى أول أمرى مسألة إسقاط نظارة مصطفى فهمى باشا ، وبعدها حادثة رياض باشا فى الفيوم ، وطلب منى التوقيع على بلاغ رسمى باستحسانى لما شاهدته من نظام الجيش ، فسألته الانتظار حتى نبلغ القاهرة ، وربما تكلمت مع قنصل انجلترا الجنرال فى ذلك . وطلبت منه أن يعدل عن خطته ، فصور لى أنه لابد من التوقيع قبل دخول القاهرة وإلا حدث ما لا تحمد عقباه ، فوقعت . وما قصد الانجليز بذلك إلا أن يمسوا نفوذى ، وينقصوا من سلطتى . وقد بقيت بعد هذا الحادث فى حياة كلها صراع ، ودخلت البلد ولم يكن فيه غير مستشار الداخلية ، ومستشار الحقانية من الموظفين الانجليز ؛ ثم ما لبثوا أن ملئوا المصالح المصرية بهم . والمصلحة الوحيدة التى بقيت بأيدينا ، وهى مصلحة الأوقاف ؛ وكنا نظن أنها تبقى دون أن يمسها الاحتلال ؛ لأن لها علاقة بالدين ، ولكنهم فى السنة الماضية أخذوها منا . وقد بلغ من تأثرى المترتب على هذا الصراع الدائم أنى اعتقدت أن شتاء السنة الماضية هو آخر شتاء لى فى مصر ، وأن الانجليز سيمنعوننى فى صورة من الصور من العودة إلى بلادى . هذا فضلا عن التهديدات التى كانت موجهة إلى شخصى . ثم انتقل سموه إلى فكرة أخرى ، قائلا : لقد عشنا طول مدة الاحتلال الانجليزى ونحن نقول: يجب ألا نعمل هذا حتى لا يغضب الانجليز . وإنى لأخشى أن نقول من جديد متى دخل الجيش العثمانى مصر ، يجب ألا نعمل هذا حتى لا يغضب العثمانيون ، فنبقى على الدوام عبيداً لغيرنا . إنى لست رجل مصلحة ، وإنما أنا أبحث عن مصلحة مصر ، قبل كل شىء .

فاذا كان دخولنا مصر لا يحقق مصلحتها ، فماذا يفيد دخولنا إياها ؟ وماذا تجدى عليها عودتنا إليها ، إذا كنا نجد فيها جماعة قد حولوا المصريين من كونهم عبيداً للانجليز إلى كونهم عبيداً للعثمانيين ؟ وكيف يضمن أى منا سلامته ، إذا دخل مصر فى هذه الظروف ؟

ثم وجه الكلام إلى فريد بك قائلا : لا يبعد أن هؤلاء الناس يأخذونك أنت وغيرك للاعدام أو للسجن ، فهذه حالة سيئة .

وسكت سموه ثم قال : إننى رجل إذا قلت كلمة شرف ، تمسكت بها ، وإنى أحمد الله على هذا الخلق . وقد أعطيت السفارة الألمانية كلمتى : أن أكون صريحاً مع العثمانيين ،

وصافيت رجال الحكومة العثمانية ؛ ولكن هؤلاء الرجال لم يظهروا لنا صفاء يقابل صفاءنا .

وقد اقترحت فى نفس هذه الجلسة ثلاث اقتراحات :

١) أن يسافر فريد بك مع الحملة العثمانية .

٢) أن يرسل معها قوميسيرا يمثل السلطة الخديوية ، وذلك لأنه عند دخول الجيش يجب أن يعلم الناس أن هذه السلطة لازالت قائمة ، ولأنه من الواجب اشتراك هذه السلطة مع الجيش العثمانى فى القيام بالأعمال التمهيدية اللازمة لحين رجوع الجناب العالى إلى مقر ملكه .

قلت إن هذه الخطة كان قد اتبعها المرحوم توفيق باشا فى الحوادث العرابية ، إذ أوفد سلطان باشا وبعض ضباط المعية مع الجيش المحتل (وهنا قال فريد بك : وكان مع سلطان باشا والدى أيضاً)

وفوق هذا فان على الحملة مندوباً يمثل جمعية الاتحاد والترقى ، وهو اسماعيل حق بك ؛ ومندوباً آخر يمثل ناظر الحربية أنور باشا ، وهو ممتاز بك . فمن الواجب أن يسير معها مندوب يمثل السلطة الخديوية

أما الخديو فلم يبد رأياً فى هذا الموضوع .

٣) أن يسافر أحد رجال الجناب العالى كيوسف صديق باشا مثلا إلى أوربا ، لتعرف الحالة هناك بالانضمام إلى الأمير محمد على ، وتكوين هيئة منها للحصول على التأكيدات من بعض الملوك بعدم مس امتياز مصر .

وفى هذا اليوم قال سموه : إن بدرى بك ، الذى تولى التحقيق من قبل الدولة فى حادثة الاعتداء ، كان يعارض فى القبض على الدكتور فؤاد ، ويقول : إنى أقبض على كل من يطلبون القبض عليه إلا الدكتور ، فلماذا ذلك ؟ وهل بعد كل هذا يسمحون له بدخول مصر ؟ وقال سموه : ولا شك أن دخوله علامة على نيات لانعرفها ، فهم سيولونه إدارة الضبط ، وعند ذلك تصبح البلد سيئة الحال . ثم سكت سموه قليلا ، وقال : ماذا تكون الحال إذا أمرنا ناظر الحقانية فى مصر بالقبض على الدكتور فؤاد ومحاكمته ؟ وحينذاك يكون أول إشكال بيننا وبين العثمانيين .

ثم قال سموه على أثر إشارة أبداها جلال الدين باشا : إنى رجل عشت مرفوع

الرأس ، وأفضل أن أعيش فرداً فقيراً على أن أكون خديوياً فى ظروف لا أستطيع فيها أن أخدم بلادى .

وبالجملة فقد كان الخديو فى غاية التأثر اليوم من هذه الحوادث ، وكان كلما أبدى أحد رجال الحاشية أن هذه تدابير الشيخ جاويش أو الصدر الأعظم ، يقول : لا ، هذا عمل رجال الاتحاد والترقى .

وفى ٢٢ منه قال الخديو عن خطة الانجليز إزاء سموه : إنهم ينتظرون قيامى من الاستانة إلى مصر بطريق البر ، ليعتبروا هذه الحركة عصياناً لحكومتهم ، فيشرعوا بعد ذلك فى تعيين البرنس حسين كامل . وفى وضع أيديهم على أملاكى الخاصة .

وفى ٢٤ منه ذكر سموه أن الأتراك يفكرون فى الطرق والوسائل الواجب اتباعها لمنع المظاهرات لسموه فى أثناء مرور ركابه العالى فى البلاد السورية . ومما فكروا فيه أن يجعلوا جلالة السلطان محمد الخامس يصاحب سموه بطول الطريق . حتى إذا حدثت مظاهرات تكون معتبرة كأنها موجهة لجلالته لا لسموه .

وفى ٢٥ منه ظهرت وطنية سموه بأجلى مظاهرها فى أثناء تناول الغداء ، وكان الكلام دائراً على الوطنية ، فقال : كيف لا تكون لى وطنية مصرية ؟ إنى لو رفضت عائلتى هذه الوطنية لتبرأت منها . وكان هذا بمناسبة قول الدكتور سيد كامل ، بأنه عمل بدلة نفر عسكرية ، ووضع له أزراراً مصرية . فقال أفندينا « نعم » ، وفاه بالعبارة المتقدمة .

فى أول ديسمبر بعد مقابلة عباس لسفير ألمانيا ، وكلام سموه له بشدة عن معاملة الأتراك السيئة له ، روى لنا ما جرى بينهما وهو متألم أشد الألم ، حتى أنه قال :

إننى لم أخطىء مرة فى عمرى مثل هذا الخطأ ، ولم أقع على بوزى (وجهى) مثلما وقعت فى هذه المرة . وأنا لا أدرى بأى وجه أقابل الناس بعد وقوعى فى هذا الفخ (أى بعد الثقة فى رجال الدولة العثمانية ، وعدم مقابلتهم المثل بالمثل) . بأى وجه أقابل حسين رشدى باشا ، وقد أرسل يقول لى أن سياستى عظيمة الخطأ ؟ وعدلى يكن باشا وهو الذى كتب تلغرافاً مفتوحاً بأنه لا يوافق على هذه السياسة ؟ والمسكين محب باشا الذى بقينا نقنعه بصواب سياستنا حتى قال « ها إنى معكم » ؟ وأباظه باشا الذى كنا نقول دائماً إنه لا يلبث على مبدأ ؟ وعثمان مرتضى ؟ هؤلاء الناس محقون ونحن المخطئون !

وذكر الدكتور سيد كامل لسموه أنه من الضرورى ترك الأستانة فى أقرب وقت ، والاقامة فى الخارج إلى أن تنتهى الحرب ، وأن ما يجب أن يعنوا به فى الوقت الحاضر هو الخروج من أرض الدولة .

فقال الخديو : المسألة أن نخرج سالمين . ثم قال : لستم أنتم الذين أصابكم الرصاص الذى أصابنى .

وذكر الدكتور سيد كامل أنه يجب بعد الخروج من حدود الدولة ، أن تصبح سياستنا قويمة ، بحيث لا الانجليز ولا الأتراك يستطيعون أن يعيبوا علينا خطتنا ، لأننا مخلصون لمبادئنا فى خدمة مصر ، من أول الأمر إلى النهاية .

فقال الخديو : إن الاتراك أظهروا اشمئزازهم لفكرة مصاحبة سموه للجيش العثمانى إلى مصر ، حتى أن ولى العهد عز الدين أفندى طلب أن يرافق هو هذا الجيش بدلا من الخديو الذى هو أجنبى ، على قول ولى العهد . والخلاصة أن سموه كان يتألم لأنه وثق بالاتراك ، وتعاهد معهم ، فخانوا عهده؛ حتى أنه قال :

« إننى لا أكاد أصدق أن هؤلاء الاتراك وهم مسلمون مثلى يخدعوننى هذه الخديعة »

فى ٧ ديسمبر توجه الجناب الخديوى إلى ببك ، حيث زاره فيها الدكتور خيرى باشا الطبيب الخاص لجلالة السلطان ومعه ثابت بك ، ودار الحديث بينهما وبين سموه فى مسألة زواج الأمير عبد المنعم من إحدى كريمات السلطان ، فأظهر سموه نفوره وعدم ارتياحه لحادثته فى مثل هذه الظروف الحاضرة . ثم قال بالفرنسية : كنت أرضى أن أصفح ، ولا أكلم فى مسألة زواج . هل هذا الوقت وقت زواج ؟ وفى أثناء تناول الطعام اليوم ، صرح الجناب العالى بشدة ميله إلى فرنسا ، وأسفه على المصائب العظيمة التى تحيق بها فى الوقت الحاضر .

وفى ١٠ منه حادث سموه حاشيته كالمعتاد ، فظهر أن ينظر إلى مستقبل القطر عند دخول الأتراك نظرة سوداء ، فقد طعن فى إدارة الأتراك ، وتكلم عن عدم كفاءتهم للحكم ، وذكر خطبة لسعد باشا زغلول عن حكم المصريين لأنفسهم وقال « إننى أحمد الله لأنه لا طريقة للمواصلة بينى وبين سعد باشا . وسيعلم الأتراك من كلام سعد باشا أن هذا هو إحساس المصريين بدون تأثر منى . أما الفريق الدينى المتطرف من الحزب الوطنى وعامة الشعب فسيمجد الأتراك ، ويظهر سروراً لتوليهم الحكم فى القطر . »

ثم أبدى سموه تخوفه الشديد من أعمال الأتراك فى مصر ، وأنه يتوقع منهم التخريب ؛ ولكن الذى يخافه أكثر هو ليس التخريب المادى ، بل إفساد الأفكار وتسميمها ، حتى أن سموه يتوقع أنهم متى دخلوا القطر، هيأوا ثورة فى البلاد سيئة العاقبة.

وكان دائماً يقول : إن الأتراك بمجرد دخولهم ينشئون فى طول القطر وعرضه جمعيات للاتحاد والترقى ، فيقسمون الشعب أحزاباً غير مفيدة للبلد ؛ وكذلك يستعمل القائد جمال باشا سلطته ، ويمتص دم المصريين ؛ ويجلس أحد المصريين المعادين لنا على بابه كتشريفاتى ، ليدخل العمد والأعيان ، فيأتونه بالمال والعقار . ثم قال سموه : ومن يدرينا إذا كانوا يستعملون ضدى السلاح من جديد (مشيراً بذلك إلى حادثة الاعتداء). واستشهد سموه على ما تقدم بأن الأتراك أدخلوا إلى مصر كمية عظيمة من الديناميت ؛ ثم عاد فأبدى خوفه الشديد من أن ينقاد المصريون إلى الأتراك انقياداً أعمى ، وقال : إن الأتراك ينوون إبقاء جيش منهم فى القطر (وهذا ما سمعته أنا أيضاً عندما كنت فى روما من السفير العثمانى) يقدر بثمانية آلاف عسكرى ، لتعليم الجيش المصرى . ثم عاد سموه فأظهر أن الحزب الداخل إلى مصر مؤلف من فؤاد سليم بك ، والدكتور احمد فؤاد ، وحلمى المسلمى افندى ، وأمثالهم ، سيشتغلون باعداد حركة ثورية فى مصر .

وقد حاول جميع الحاضرين تخفيف هذه الصورة السوداء التى رسمها سموه . ولكنه لم يقتنع ، وقال : سأذكركم بكلامى هذا فيما بعد ، فلا تنسوه .

وفصل سموه سياسة الاتراك نحوه فى هذه الأيام الأخيرة ، قائلا : إن رجال الحكومة هنا كانوا يريدون أن يدخلوا مصر ، ثم يضطروا مجلس النظار إلى قبول شروط يضعونها له ، ثم يعودوا فيقولوا لى ها قد قبل مجلس النظار شروطاً كيت وكيت ، فاقبلها أنت بالمثل ، ويجعلوا دخولى إلى مصر معلقاً على قبول هذه الشروط . ولما علمت أن هذه ألعوبتهم ، عمدت إلى طريقة لا قبل لهم بها ، فلم يستطيعوا مجاوبتى . وسنسافر من هنا حيث نحبط سياستهم القاضية بالزامنا قبول شروط يتوقف عليها دخولنا مصر .

وقال جنابه العالى بخصوص مانقله محمد راسم بك عن قول محمد سعيد باشا : « أنا أرفض رياسة مجلس النظار ؛ لأن خديو مصر ليس هو الذى يعيننى ، بل يقول : لأن الخلافة فى حرب مع انجلترا . وهذا كلام كاذب يقصد به التملق بادىء ذى بدء إلى رجال الحكومة العثمانية . » .

وفى ١٤ منـه قال سموه إننى قـد انتهيت من دورى فى الخديوية المصرية ؛ لأن الانجليز إذا انتصروا فلا أستطيع أن اشتغل معهم .

قلق إيطاليا من الحملة التركية والتأمينات واشتراء القلق لإعلانه الجهاد .

فى ٦ نوفمبر بناء على تمهيد يوسف صديق باشا لدى سفير إيطاليا ، وبناء على أمر الخديو ، زار اليوم فريد بك السفير المذكور ، وأكد له بصفته رئيساً للحزب الوطنى أن الأهالى لا يبغضون إيطاليا ؛ وأنه فى حالة دخول الحملة إلى مصر ، لا تقوم الأهالى بأى عمل عدائى ضدها ، وأنه يرجو أن تتحسن طرق المواصلات بحراً بين طرابلس ومصر ، ويتسع نطاق التجارة ؛ فأظهر السفير ارتياحه لقول فريد بك .

وقد قال الخديو إن بعضاً من رجال الحزب الوطنى جرى مع الطليان على خطة تجعلهم لا يحسنون الظن بهم ، لأنهم طلبوا مبلغ مليون فرنك عن كل أسير من الطليان عند السنوسى ، وكانوا أربعين ألفاً ، ونزلت المساومة إلى ألف فرنك عن كل واحد ، وقال عبد الله طلعت بك لسموه بأنهم طلبوا مبلغاً كبيراً فى البداية ، حتى يصلوا إلى المبلغ الصغير فى النهاية

وفى ٧ منه اجتمعنا عند فريد بك ، وكان معنا اسماعيل لبيب والدكتور سيد كامل .

وافتتحت الجلسة بالحديث عما نشرته الجرائد التركية والألمانية فى سياسة الدولة مع إيطاليا ، وأن الأتراك لا يضمرون لها سوءاً من تجريدتهم على مصر . فقلت إنهم عملوا ما يجب عليهم ، كما أن فريد بك روى الحديث الذى حصل بينه وبين سفير إيطاليا

وفى ٢٥ نوفمبر زار سمو الخديو سفير إيطاليا ، فقال له السفير إن سفيرى ألمانيا والنمسا حضرا ، وأكدا لى أن التجريدة التركية لا تغير شيئاً فى حالة مصر السياسية ، ولا فى الخديوية . ولكنى أسمع الآن أقوالا كثيرة ، منها أن الأتراك ينوون ردم القناة ، فأين تذهب مصالح إيطاليا فى هـذه القناة ؟ ثم أسمع أنهم يريدون جعـل مصر ولاية عثمانية ، وهذا يخالف ماسمعته أولا ؛ وأنه يوجد خلاف بينكم وبينهم . فقاطعه سمو الخديو قائلا : لا . ليس بيننا خلاف .

فأجاب السفير : إننى سمعت أنهم أرسلوا الدكتور احمد فؤاد إلى مصر . فاستغربت هذا الخبر . قال أفندينا : كل هذا إن شاء الله يزول ، وأؤمل أن الايطاليين يكون لهم حظ وافر ، ومناصب بمصر أرقى مما هم فيها . فسر السفير من هذا الكلام ، وقال : إننى لا أعلم

كيف تتمكنون من نزع السلاح من أعوان السنوسى إذا حضروا لمصر ، وتسلحوا ، وأخذوا مايلزمهم من الذخيرة (وهى فكرة سياسية تقوم لها إيطاليا وتقعد ، وتلح فى عدم مكث الأتراك فى مصر حتى لايشتد ساعد السنوسيين) .

وفى ٢٧ منه وردت إشارة تليفونية على سراى ببك من يوسف صديق باشا ، يقول فيها بأن السفارة الايطالية أرسلت برقية بالأمس تبلغ كلماتها ألفى كلمة ، وشملت المسائل التى تهمنا وتهمها ، وذكر أن سفير ألمانيا تكلم مع طلعت ، وأنور باشا ، وخليل بك رئيس مجلس المبعوثان ، لاعطاء التأمينات لسفير إيطاليا بخصوص الحملة التركية على مصر

اشتداد القلق لاعلان الجهاد : وقد أعلنت الدولة الجهاد الدينى ، فكان ذلك سبباً فى اشتداد قلق الايطاليين(*) :

فتوى إعلان الجهاد :

إذا هوجم الاسلام من قبل أعدائه هجوماً ما ، يهدد كيانه ، ويجعل البلاد الاسلامية عرضة لغضبهم وغارتهم ، حتى خيف على النفوس الآمنة بها أن تقع فى ذل الأسر والاستعباد ، ودعا الخليفة إزاء هذه الحالة جميع المسلمين فى مختلف الأقطار للذود عن حوزة الاسلام ، والدفاع عن عرينه . فهل يفرض عليهم أجمعين ، شباناً كانوا أوشيوخا ، مشاة أو فرسانا ، المبادرة إلى إجابته بأن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ؟ عملا بقوله تعالى « انفروا خفافاً وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم » . الجواب : الله أعلم ، يفرض عليهم ذلك فرض عين كتبه الفقير اليه تعالى

خيرى بن عونى الأركوبي
عفى عنهما

هل يفرض والحالة هذه على المسلمين القاطنين فى البلاد التابعة للدولة الانجليزية والفرنسية والروسية وغيرها من الحكومات التى قد أظهرت الآن عداءها الكامن نحو الخلافة الاسلامية ، وأرادت أن تطفىء نور الاسلام ـ لا قدر الله ـ بأن هاجمت مقر الخلافة ، وسائر بلادها بخيلها ورجلها وأساطيلها ، أن يشقوا عصا طاعتها ويبادروا إلى قتالها ؟ الجواب الله أعلم . يكون ذلك فرضاً عليهم . كتبه الفقير إليه تعالى

خيرى بن عوني الأركوبي
عفى عنهما

(*) هذه الصورة مترجمة من اللغة التركية

وإذا تخلف ، والحالة هذه ، بعض المسلمين عن أداء واجبه ؛ فى حين أن الغرض لا يتم إلا بتنبيه الكل لنداء : « انفروا جميعاً » . هل يقترف بتخلفه هذا إثماً عظيما ، يجلب غضب الله عليه ، ويستحق العقاب ؟ الجواب : الله أعلم ، يستحق ذلك .

كتبه الفقير إليه تعالى
خيرى بن عونى الأركوبى
عفى عنهما

وإن قاتل ، والحالة هذه ، المسلمون القاطنون فى البلاد التابعة للحكومات المحاربة جيوش الدولة الاسلامية ، ولو كان ذلك باكراه من الحكومة المذكورة ، بأن تقتلهم أنفسهم أو أقاربهم ؛ هل يحرم ذلك عليهم قطعاً ، ويعتبرون قتلة يستحقون نار الجحيم ؟ الجواب : الله أعلم ، يكونون مستحقين له .

كتبه الفقير إليه تعالى
خيرى بن عونى الأركوبى
عفى عنهما

ولو حارب ، والحالة هذه ، المسلمون الذين تحت إدارة الحكومات المعادية للدولة الاسلامية وحليفتيها ألمانيا والنمسا ؛ وهى انجلترا وفرنسا وروسيا والصرب (يوغسلافيا الآن) وقره طاغ الموالية لها ؛ هل يأثمون بذلك وينالون أليم العذاب ؟ الجواب . الله أعلم . يأثمون لأن الدولة تتضرر من عملهم هذا .

كتبه الفقير إليه تعالى
خيرى بن عون الأركوبى
عفى عنهما

وفى ٢ ديسمبر بينما كنت فى القطار فى ميلانو قاصداً روما وجدت طليانياً يظهر عليه أنه من السياسيين ، إذ تبين لى فى محادثة دارت بيننا ، تخوف إيطاليا من إعلان تركيا الحرب الدينية ، فقلت له إن الدولة لا تعنى البلاد الاسلامية الواقعة تحت حماية إيطاليا ، وأنها أعطت التأكيدات القوية بذلك ، فقال: ولكن كيف يمكن منع التعصب الدينى ، وقد قام العرب الآن بمحاربة الايطاليين ؟ والخلاصة أنى فهمت منه أنهم لا ينظرون إلى حرب الدولة فى مصر بعين الارتياح .

وفى أثناء وجودى أيضاً فى روما ، ظهر لى أن القلق سائد فيها من جراء الحملة التركية على مصر ، ومن إعلان الجهاد ، سواء كان ذلك فى دوائر الحكومة ، أو بين الأفراد . فليراجع القارىء ذلك فى محله .

كيف تخابر عباس مع مصر بعد دخول تركية الحرب ومع المنفيين في مالطة . لما دخلت تركية الحرب انقطعت المراسلات بين عباس والقائمقام ، وأعد الانجليز للموقف عدته ، وتيقظوا لخطورة الساعة ، ونشروا عيونهم فى أرجاء البلاد ، تراقب وتتجسس وتعمل ؛ وكان الذين يفدون من الخارج ، وعلى الأخص من بلاد الأعداء ، أو من البلاد التي تماثلها — موضع تفتيش دقيق ، ومراقبة صارمة ؛ فكيف استطاع سمو الخديو أن يدخل إلى مصر — وهو على هذه الحال — رسائله ؟ هاك الجواب :

فى ١٩ نوفمبر سافر الباشجاويش على إلى الضلمان . وكان الغرض أن يندس بين العمال السنوسيين الذين فيها ، ويرحل معهم إلى مصر ، باعتباره بحاراً ممن كانوا يشتغلون بجهة رودس ، وأوقف عمله ، فيرجع إلى مصر ؛ ومتى وصل إلى الاسكندرية يقابل بعض المصريين ، ويعلم منهم أخبار مصر ، ويكتبها فى ورقة ، ويضعها بين شق لوح خشب ، من صندوق يحمل فيه ملابسه ، ويهربها ، ويحضر بها إلى الأستانة .

وفى هذا اليوم تشرف (ف . افندى) بمقابلة الخديو فى جبوقلى ، وأمر أن تكون عودته إلى مصر ، ونفقاته فى الطريق ، على الجيب الخاص .

وقد كلف (ف . افندى) بأن يقابل عند وصوله إليها أحمد صادق بك ، ويعرفه بأن الأخبار مقطوعة عنا ، وألا يترك بوستة تسافر إلا يرسل شخصاً معها إلى جبوقلى ، يودعه أخبار مصر ، وأن يرسل احمد قبودان ، وابرهيم قبودان فى بريدين متواليين ، ويستمر على إرسال الرسل ؛ وأن تكتب الأخبار — بالحبر أو الرصاص — على حرير أبيض يخاط داخل بطانة معطف أو جاكتة أو سروال ، وألا يكون الرسول من المعروفين بعلاقتهم مع السراى ، ولا تؤخذ له تذكرة إلى الأستانة مباشرة ؛ وإنما إلى رودس أو إلى حيفا ، بحجة الذهاب إلى المدينة المنورة .

وكان فى الاستانة محمد افندى أبو نافع ، أحد المنتمين إلى الخديو ، وهو معروف بالجرأة والاقدام ، فكلفه الخديو بادخال رسائله إلى مصر ، ودفعها إليه ، وقال له : « هذا وقتك يا أبا نافع » فأجابه باستعداده لتنفيذ أوامره ، ثم قال : « هذه هى الرسائل وادفعها بيديك لأصحابها » وكتب هذه الرسائل فى جبوقلى محب باشا ، وصاحب هذه المذكرات ، ويوسف صديق باشا ، وعبد الله البشرى بك ، والدكتور سيد كامل — باملاء سموه . وقد وقع على بعضها ، ووقعنا نحن على الآخر .

وكان الدردنيل مقفلا فى ذلك الوقت ، والأتراك يعملون على ملئه بالألغام ، وتحصينه ، فأخذ « ابو نافع » القطار إلى دده أغاج ، ومنها استقل الباخرة الأمريكية التابعة لشركة الحاج داود إلى مصر . فلما وصل إلى بيريه ، أرسل عيون الانكليز برقية مستعجلة إلى السلطات الانجليزية بمصر ، يلفتون نظرها إلى مصرى قائم مع هذا الوابور.

وقد علمنا فيما بعد أن الباخرة وصلت فى المساء ، وفى صباح اليوم التالى ، صعد على ظهرها بعض الضباط الانجليز ، وحصلت مشادة كبيرة بينهم وبين القومندان ، فكانوا يصرخون فيه بالانجليزية التى لا يعرفها ، وهو يصرخ فيهم باليونانية التى يجهلونها . وجاء المسيرى بك إلى المركب فى الساعة العاشرة ، واجتمع بأبى نافع ، ونصح إليه أن يعدم الرسائل التى يحملها ، وأفهمه بأن موظفى السراى أوصدوا أبوابهم حين علموا بقدومه ، خيفة أن يمر برسائله عليهم ، وسافروا إلى مصر . ولكن الموقف كان يتطلب رجلا كأبى نافع حقاً . . . فانه أعطى كلمته لمولاه بأنه يوصل الرسائل لأربابها ، وكان عليه أن يعمل الممكن وغير الممكن لتحقق الارادة السنية . وكيف كان يستطيع إعدام الرسائل والجند تحيط بالمركب من أسفل ، والضباط يملأونها من أعلى؟ وهو إذا حاول حتى إحراقها ، أوقع نفسه فى شبهة جسيمة ! فلما انتصفت الساعة الحادية عشرة كانت المشادة بين ربان المركب والضباط الانجليز قد بلغت أشدها . فانتهز « أبو نافع » الفرصة ، ونقل حقيبته إلى الغرفة التى تجاور غرفته ؛ وكانت لقنصل الروسيا فى بيروت ، ومعه أسرته ؛ ثم أسرع فتدخل فى المناقشة بين القومندان والضباط الانجليز ، وترجم بينهما من الانجليزية وإليها باليونانية ، ففرح الطرفان بوساطته ، وزال سوء التفاهم من بينهما . ثم دعاهما للبدء بتفتيش غرفته ، ولما فرغوا منها وجاوزوها لغيرها ، أعاد حقيبته إليها . وبهذه الحيلة نجح فى اجتياز العقبة الأولى من مخاطرته .

وكان أبو نافع (حماية اسبانيولى) ، والخبر الذى وصل السلطات كان عن مصرى يحمل الرسائل ؛ فلما دفع إلى الضباط بجوازه أخلوا سبيله ، على أن يقصد إلى الجمرك ليفتش مرة أخرى . وفى ذلك الوقت وصل منيب افندى من موظفى السراى الخديوية ، ومعه فلوكة من فلائك المحروسة ، يسيرها ستة من البحارة المصريين الأشداء ، فنزل معهم ، واستقلها إلى ناحية الجمرك . فلما غاب عن المركب ، ودنا من الجمرك ، أمر البحارة فاتجهوا بسرعة وبخفة لناحية الحوض الذى ترسو المحروسة فيه ، ثم خرج من رصيفها إلى السراى ؛ ولما لم يجد أحداً بها توجه إلى المحطة رأساً . وهناك وجد كبار

الموظفين ، وكان أباظه باشا معهم ، يقصدون الرحيل بقطار الساعة السادسة مساء إلى القاهرة ، فركب معهم ؛ وكان الذعر من وجوده بينهم يقرأ على جباههم ، وسلمهم الرسائل التي تخصهم . ثم استقل هو قطار الركاب إلى القاهرة ، وسلم الرسائل إلى أصحابها. ذلك تفصيل وصول رسائل سمو الخديو إلى أصحابها ؛ أما مضمون هذه الرسائل فكانت توصية من سموه لكبار مملكته بأن يقفوا فى صف بلادهم ، وألا يأمنوا خصومها ، وبأنه اعتزم على أن يعمل على تحرير بلادهم ؛ وطلب إليهم أن يكونوا عند حسن ظنه بهم .

قبض الانجليز على بعض المصريين الموالين للخديو ونفيهم إلى الخارج : لما سافر عبد الله البشرى افندى بالأمر إلى دده أغاج ، اتصل ببحارة الباخرة سعيدية . وقد علم من التحريات التي أجراها :

أولا — أن الحالة فى مصر على ما هى عليه ، وأن مصلحة الخاصة الخديوية والمعية السنية تشتغلان كالمعتاد .

ثانياً — أنه قبض على بعض المصريين ، وأودعوا سجن القلعة أو طره ، ومن بينهم محمد ابراهيم افندى رئيس القسم التلغرافى فى المعيـة السنية ، وحسن حلمى بك ، وحامد العلايلى بك من رجال التشريفات ، وياور آخر ، والمظنون أنه حسن حسنى شفيق افندى — وقد أرسلوا إلى مالطة .

ثالثاً — أن البرنسات : محمد على ، وعزيز حسن ، وكمال الدين ؛ ومحب باشا ، قد أخرجهم الانجليز من مصر ، على أن يقيموا فى إيطاليا .

فقال سموه عندما علم بهذه الأخبار ما يأتى :

« إن حامد العلايلى بك كثير الكلام ، فهو يتنقل من فنـدق إلى آخر ويتكلم ؛ ولـكن الذى لا أفهم له معنى هو القبض على حسن حلمى بك الغلبان . » ثم قال سموه إنه من الغريب لما كان فى الاستانة ، كان يقول إن المصريين يقاومون عن آخرهم هجوم الأتراك على بلادهم ، ولما دخل عند الانجليز قبضوا عليه .

وقد قبض الانجليز على أبى نافع لتسليمه الرسـائل لأصحابهـا . وقد كتب سمو الخديو كتاباً للمعتقلين المصريين ، هذا نصه :

« عزيزى حسن :

« علمت بخبر اعتقـالك ، وأمين حلمى ، وأبى نافع ، والصـباحى ، والعـلايلى ،

وعبد الرحيم صبحى ، وإرسـالكم إلى مالطة ؛ فبقدر ما ساءنى الحجر على حريتكم ، قد سرنى إخلاصكم وحميتكم . إننى أعطف من قلبي عليكم ، وأقدر تضحيتكم . ولا شك أنكم تحتملون الأسر بالشجاعة المعهودة فيكم . إن الله أعظم من أن ينسى لبلادنا مظالم خصومنا . وإذا كان من ألمى أن أعرف بما أصابكم فى سبيل البـلاد ، وفى سبيلى ؛ فانى مبتهج فى الواقع لمضى الانجليز فى التنكيل بالبـلاد ، وبأهلها ؛ ليعلم من يحسن الظن بهم أن هـذه فعـالهم . ولمـا تصح البـلاد لهم فما يفعلون غداً إذا تحقق لاقدر الله حكمهم بضمها للأملاك الانجـليزية ؟ أقبلكم فرداً فرداً ، وأرسل إليكم تحيـة ممزوجة بشوق وعطف وسلام ».

عباس حلمى

وفى ٢٣ نوفمبر حصلت مباحثة أمام أفندينا ، كان موضوعها كيفية إرسال تعليمات إلى رشدى باشا عند دخول الجيش التركى إلى العاصمة ، خوفاً من أن جمال باشا يستأثر بأعمال مصر الداخلية ، وربما ارتمى الأهالى على أقدامه ، وتملقه رجال الحكومة أكثر من اللازم . فأجاب أحدنا بأن (ى . بك) ينوى دخول مصر ، فيمكن أن ترسل إليه أوامر أفندينا ، وهو يبلغها إلى رشدى باشا ؛ فقال سموه إنه لا يمكننا الاعتماد على البك المذكور ، لأنه ربما منعه الانجليز من دخول مصر ؛ واقترح إرسال المسيو سمناتى المهندس المعمارى ، وابنه الموجود فى إيطاليا . وفكر ابراهيم أدهم بك فى تكليف الشيخ حازم الموجود بالمدينة المنورة بهذه المهمة . وطلبنا حضوره إلى حيفا ، وهو مقدم المحمل المصرى ، ومعروف عند الحكومة ، وذكى ، وله معاملة مع المـالية المصرية . فلاحظ أفندينا أنه ربما منع من دخول مصر ، ولم يتقرر شىء .

وفى ١٤ ديسمبر بينما كان عباس فى الرفاص ، قاصداً المحطة للسفر منها إلى فينا ، وجه كلامه إلى الشيخ البورينى إمام سموه ، فقال إنه مكلف بمأموريتين ليقضيهما بمجرد وصوله إلى مصر :

الأولى : عليه أن يسعى ، ولو بالواسطة ، لتعريف احمد صادق بك بتوصيل نقود سموه ، ذهباً كانت أم ورقاً مصرياً ، إلى إيطاليا ، باسم احمد شفيق باشا ؛ ويكون التوصيل إما بواسطة رسول لا يعرف أنه من السراى ، سواء كان وطنياً أو أجنبياً ، أو بواسطة بنكو دى روما .

الثانية : هى أن يأخذ معه أوراق التوكيل الرسمية ، ويضعها تحت بطانة الحقيبة .

وبمجرد وصوله، يتفق مع عثمان مرتضى باشا، واحمد صادق بك فى عمل الوقفية اللازمة بحضور مأذون العقود فى المحكمة الشرعية.

وكان سموه اشتغل منذ عشرة أيام فى إعداد توكيل شرعى للشيخ البوربنى، يخول له حق وقف جميع أملاك الجناب العالى فى مصر. وقد وضع فى التوكيل جميع شروط هذا الوقف بالتفصيل.

عرش مصر بين عباس وعز الدين وسعيد حليم. فى يوم ٢٠ نوفمبر توجه سمو الخديو، ومعه يوسف صديق باشا، وعارف باشا، وتوجهت معهم لتهنئة جلالة السلطان بالسنة الهجرية الجديدة. فعلم سموه من جلالته، أن جمال باشا عين قائداً عاماً للحملة المصرية، ثم قال جلالته: « إنه يوجد مناظر لسموك، وهو الأمير يوسف عز الدين افندى ولى عهد السلطنة؛ وقد توجه إلى الصدر وقال له: بما أنه غير معترف بولاية عهده، فهو يطلب تعيينه خديوياً على مصر. » ثم إن جلالته قال لسموه إن الأحسن الانتظار فى الاستانة، وعدم الاستعجال فى الالتحاق بالحملة. وقد كان الخديو يعتقد فى تعيين جمال باشا، أن الحكومة العثمانية تريد بذلك أن يكون بمصر رجل قادر على العمل عند دخول الجيش العثمانى؛ ويظهر سموه تخوفه، وخصوصاً أنه كان يحسن أن يتقابل القائد مع سموه قبل سفره للتفاهم معه. ولكن جمال باشا مسافر غداً، ويقول سموه إن هذا القرار لابد أنه صدر اليوم، وهكذا فان قرارات الحكومة تستصدر فى آخر لحظة.

أما عن طلب ولى العهد أن يكون خديوياً، فان سموه أجاب السلطان بأنه إذا صدرت إرادته بهذا التعيين، فان سموه يرافقه إلى مصر، ويجلسه على الأريكة؛ كما علمنا أن يوسف عز الدين طلب أن يرافق الحملة الزاحفة على مصر. أما قول جلالة السلطان بعدم الاستعجال للالتحاق بالحملة، فظن سموه أن رجال الحكومة العثمانية طلبوا من السلطان أن يفهمه ذلك.

وقد جاء البرنس ابراهيم حلمى، وقال إنه سمع من الصدر بأن جمال باشا تعين قائداً للحملة بدلا من زكى باشا؛ لأن الأخير عين مندوباً عثمانياً لدى إمبراطور ألمانيا. ويقال إن فون ادرغرايز باشا سيعين مندوباً ألمانياً لدى جلالة السلطان. وسأل الصدر الأعظم البرنس ابراهيم عما إذا كان مستعداً للسفر. فقال: نعم؛ ولكن فى أى وقت نسافر؟ فقال الصدر: إننا لا نريد أن يتوجه الجناب الخديوى قبل عبور الجيش العثمانى

قناة السويس ؛ لأنه لو انتصر الانجليز على العثمانيين هناك ، مع وجود الخديو ، فالتأثير يكون سيئاً . وقال البرنس ابراهيم للخديو ، إنه يرى أن معنى ذلك هو أن الأتراك يريدون أن يظهروا أنهم هم الذين فتحوا مصر وحدهم ؛ وبعد دخولهم عاصمة البلاد يقولون لسموه : « اتفضل ادخل » .

أما بالنسبة لمطامع الصدر سعيد حليم باشا فان كل من يقرأ هذه المذكرات يجد فيها شعور الخديو بأن الصدر راغب كل الرغبة فى عرش مصر ، وهذه الرغبة كان يحسها أيضاً سفير ألمانيا ورجال الاتحاديين . ومن ذلك أنه فى يوم ١٤ نوفمبر سمع فريد بك أنور باشا ، فى حديث دار بينهما بخصوص معاكسة الصدر للخديو ورجال الحزب الوطنى يقول : « إن الصدر يحلم بالخديوية المصرية حتى صار متهوساً بهذا الحلم » .

مهمتى السياسية فى ايطاليا ومحادثات هامة ومقابلتى مع الملك ومادار بيننا من الحديث ومحادثات أخرى مع المصريين وغيرهم . فى ٢٥ نوفمبر تقرر سفرى إلى إيطاليا لمهمة سياسية لدى ملكها ؛ ومن الأوامر التى تلقيتها :ـــ

١ ـــ إبلاغ الملك تحيات عباس واحتراماته له ؛ وأنه لا ينسى الصداقة الموجودة بينه وبين العائلة الخديوية من قديم .

٢ ـــ التماس نقله من الضلمان إلى إيطاليا على مركب حربى ، إذا أضمر الأتراك سوءاً .

٣ ـــ مساعدة جلالته لو انتصرت انجلترة لتسوية حالته المادية .

٤ ـــ أخذ رأيه فى إمكان نجاح الحملة التركية من عدمه ؛ والسعى فى أن تطلب إيطاليا ألا تمس الفرمانات الخديوية .

٥ ـــ التأكيدات له بأن مصر تحافظ على صلاتها الودية مع إيطاليا إذا نجحت الحملة .

ومن الأوامر أيضاً ، استطلاع الحالة فيها وفى سويسرة . وقد أمر باستخراج الجواز ، ووضعت شفرة مع سموه بجمل متنوعة متفق على معانيها ؛ وودعته كما كنت ودعت أسرتى مساء ؛ ثم نزلت إلى بيك لهذه الغاية ؛ وأخذت من الوالدة خطابات للأميرين محمد على ، وكمال الدين ؛ وخطاباً لابنتها الأميرة نعمت هانم ، وآخر لمحب باشا من حرمه ؛ ونزلت ، وقضيت الليلة فى فندق شاهين باشا ، بالقرب من محطة سركة جى

وأخيراً أمرني الخديو بمعرفة أسباب خروج الأمراء ، ومحب باشا ؛ وعلى أى شرط تم ذلك ، ومعرفة أخبار مصر الحقيقيــة ، وأفكار رجال الحكومة المصريين والمحتلين والأخبـــار العسكرية والجيش المصرى وأفكار ضباطه — يعنى الحـالة العسكرية والادارية والسياسية .

وفى أول ديسمبر ، وصلت إلى لوزان ، وقابلت هكسيوس ، وعلمت منه أن سويسرة ملأى بالجواسيس لحساب ألمـانيا ، وانجلترا وفرنسا ؛ وقد أفصحت له عما أعلمه عن حالة أفندينا مع الأتراك والألمان . ثم حضر فهمى أفندى قبل منتصف الليل ، فاخـبرته كذلك بما أعلمه وقص على ما يعلمه ؛ ومن ذلك أنه باق على قرارنا الذى قررناه فى الآستانة بخصوص إرسال مندوب سرى لمصر . ثم سلمته صورة من الأوامر المطلوب توصيلهـا إلى حسين رشـدى باشا ، بالاحتياطات اللازم اتخاذها عنـد دخول الجيش العثمانى مصر .

وفى ٢ ديسمبر سـافرت من لوزان فى الساعة السابعة ، ووصلت إلى ميلانو فى الساعة الرابعة .



محب باشا

محادثتى مع محب باشا : وفى ٣ منه وصلت فى السـاعة التاسـعة والنصف إلى روما ونزلت فى فندق الـكنتننتـال أمام المحطة ؛ وكان فى انتظارى هناك محب باشا ، فتحادثت معـه إلى الظهر وأبلغته تحيـات الخديو وأن ثقته به كما كانت ، وأنه آسف لخروجه من مصر وحضوره إلى إيطاليا ؛ فقال إنه كان متخوفاً من الوشايات به عند أفندينا ، حتى أنه كان ينتظر أن يستدعى إلى الاستانة ؛ فلما لم يأته خبر بذلك توهم أن سموه غير راض عنه ، وخصوصاً أن ذلك قد انتشر فى مصر عقب البرقيـة التى أرسلت إلى القائمقام الخـديوى ، بألا يحضر إلى الاستانة حتى يصـل أحمد صـادق بك . فأفهمته أن السبب هو أنه كان قد تقرر استدعاء عدلى باشا لاقناعه بأن يقنع رشدى باشا بتفصيل الخطة التى رسمها أفندينا ، ولم

يوافق عليها رشدى باشا . وبناء على ذلك كان من المستحيل استدعاؤه مع عدلى باشا . وقال لى محب باشا : إن رجال الحزب الوطنى كانوا قد ظنوا أننى غير مخلص ، وإننى انجليزى ؛ ولكن لما علموا بمعاملة الانجليز السيئة لى ، جاءنى ليلا محمود فهمى حسين بك ، وقال لى إن الحزب الوطنى كان يظن بك السوء ؛ ولكنه تحقق الآن من وطنيتك . ثم قال إنه يعلم بوجود دكريتو على بياض بتعيين الأمير عزيز حسن رئيساً لمجلس النظار ، بدلا من رشدى باشا ، لاصداره وقت اللزوم ؛ وبوجود منشور من أفندينا للأمة المصرية لتحريضها على الثورة ؛ وآخر من قائد التجريدة العثمانية . وأنه يوجد كشف بأسماء مائة وخمسين شخصاً ـ منهم محمد سعيد باشا ـ منوى إعدامهم . قال محب باشا وإن بدر الدين بك أخبره بأن المقابلات بين أفندينا وفريد بك والشيخ عبد العزيز جاويش كانت سرية ، ثم حدثنى عن خروجه من مصر ، قائلا إنه تكلم مع الانجليز بأنفة ، وأفهمهم بأنهم أخطأوا بمنع أفندينا من الرجوع إلى مصر ، لأنهم أجبروه بذلك ، على أن ينحاز إلى الأتراك ؛ فاشمأز الانجليز من هذه اللهجة ، وقالوا لرشدى باشا بأنى أتفوه بأشياء لا يصح التفوه بها . ومن جهة أخرى فان القائمقام الخديوى قد نفر منى لمناقشاتى له فى بعض المسائل الاقتصادية ، فتهور علىّ ، وألجأنى إلى الخروج من مصر . قال محب باشا : ثم قابلنى رشدى باشا فى اليوم الثانى على انفراد ، وسألته عن سبب هذه المعاملة ، فاتهمنى بأنى أسعى لاحتلال مركزه ، إذ كنت أخالفه فى كل مسألة ، اتباعاً لأوامر أفندينا . فأقنعته بعدم صحة ذلك ، فخفت سورة غضبه .

ثم قال : وكان الانجليز يرغبون أن يأخذوا منى معلومات عن حركات أفندينا وسكناته وأفكاره ، فبخلت بها . فلهذا ، وللسببين المذكورين ، قرروا عدم وجودى فى مصر وقال أحدهم أن أقصد مالطة .

ولما قابلنى شيتهم قال لى إنه يرى منحى أجازة أقضيها فى الخارج ؛ وطلب منى تعيين البلد . فقلت أذهب إلى لندن ، فرفض . فسألته أن يختار لى بلداً آخر ، فتقرر سفرى إلى إيطاليا . ثم طلبت مساعدة مالية فأعطونى ثلاثمائة جنيه قرضاً وضمنوا لى راتبى (والذى أعلمه من آخرين أنه أخذ ثلاثمائة جنيه ثم احتسبوا له ثلاثة جنيهات عن كل يوم قضاه فى الاستانة ؛ مع أنه كان فى أجازة ، وضمنوا له راتبه فى مدة الحرب .)

وأبلغنى محب باشا ، أن النظار جميعاً ضد الأتراك ، ما عدا حلمى باشا ناظر المعارف ؛ ثم قال : والانجليز يقولون إنه ليس فى إمكان عباس حلمى باشا أن يرى

جو مصر مطلقاً ، لأنهم يعتقدون أن له يداً قوية فى تجريدة مصر ، وأنه خانهم ، وأنه سائر مع الحملة .

وقد دعانى البرنس عزيز حسن للعشاء عنده ، وكان معنا نابى بك سفير تركيا ، ومحب باشا ، ومحمد يكن باشا ، واثنان آخران ، أحدهما يسمى فنسى من السفارة التركية وكان فى مصر ويعرف العربية والألمانية .

محادثتى الأولى مع البرنس محمد على باشا : وفى ٤ منه ، قابلت البرنس محمد على باشا وسلمته خطاب والدته ، وطمأنته على صحتها ، وأخبرته بالحوادث التى دارت بين شقيقه والانجليز والأتراك ، وطلبت منه أن يرافقنى إلى سراى جلالة ملك إيطاليا لتبليغ جلالته سلام أفندينا واحتراماته ، فرفض قائلا : إننى عزمت على ألا أتدخل فى شىء ما . لأنه لم يرسل لى بطاقته رداً لزيارتى للسراى ؛ ولو أن رئيس الوزراء أرسل إلىّ بطاقته رداً على بطاقتى لفعلت ! ومن ذلك استدللت على أن رجال الحكومة لا يريدون خرق الحياد حتى فى هذه الأمور ؛ وإلا لكان الملك استدعانى لزيارته . ثم طلبت من البرنس أن يرافقنى إلى برلين لمقابلة الأمبراطور أو من ينتدبه جلالته لتقديم احترام أفندينا وشكره له على عنايته بتجريدة مصر ، فأجابنى البرنس بالرفض أيضا .

محادثتى الأولى مع مسيو بتشيلى : وفى ٥ منه قابلت مسيو بتشيلى رئيس مجلس إدارة بنك دى روما ؛ وكان معى محمد يكن باشا وعبد الحميد شديد بك ؛ فبلغته سلام أفندينا ، وتوصية سموه لى أن يكون كل أمر أريد عمله بعلمه ونصيحته ؛ وأخبرته أن المطلوب استحضار نقود من مصر إلى هنا لتوصيلها إلى أفندينا فى الاستانة ، فقال : إن ذلك صعب ، وإننا ننظر فى تقديم نقود لأفندينا من هنا ، وفهمت أنه لا يدرى شيئاً كثيرا من معاملات البنك . وعلى كل حال فقد وعد بالنظر فى المسألة مع عبد الحميد شديد بك ؛ ثم كلمته فى الحالة السياسية بين إيطاليا والدولة بالنسبة للتجريدة العثمانية على مصر ، وبأن الأتراك وأفندينا وسفيرى النمسا وألمانيا أعطوا التأكيدات لسفير إيطاليا بأن غرض الحملة هو إخراج الانجليز فقط ، وإرجاع حالة مصر إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٨٨٢ ؛ أعنى أن تستمر مصر حافظة لامتيازاتها ، وبعد الصلح تخرج العساكر التركية منها . قلت : إنه ربما كان هذا التصريح الشفهى غير كاف ؛ فيمكن إيطاليا أن تطلب استصدار إرادة سلطانية بهذا المعنى ؛ فتكون حجة قوية على الأتراك .

فقال المسيو بتشيلي : لست سياسياً ، ولا يمكن أن أبدى أية نصيحة فى هذا الموضوع . ولما علم منى أننى أعرف مسيو دومرتينو ، الذى كان قنصلا عاماً فى مصر ، ويشغل الآن وظيفة فى وزارة الخارجية ؛ طلب أن أتكلم معه فى هذه المسألة أو مع رئيس مرافقى الملك ؛ وفهمت من مسيو بتشيلي أن لهذا الرئيس كلمة مسموعة عند جلالته .

وقد أرسلت خطاباً إلى كبير أمناء الملك ، طلبت فيه مقابلته لتبليغ رسالة من الجناب الخديوى لجلالة الملك ، فأجاب بأنه يقابلنى غداً صباحاً :

محادثتى مع كبير الأمناء : وفى ٦ منه توجهت صباحاً إلى سراى الملك وقابلت كبير الأمناء وأبلغته سلام الخديو وأفهمته أننى حضرت للاستعلام عن حالة البرنس محمد على ، وباقى البرنسات والبرنسيسات ؛ وأن دولة الوالدة هى التى طلبت من سمو الخديو ذلك ، فأرسلنى لهذا الغرض ، وأمرنى أن أحضر إلى السراى لتقديم واجبات الاحترام من لدن سموه لجلالة الملك ؛ لأنه لا ينسى مطلقاً الوفادة الحسنة التى لقيها فى السنة الماضية ؛ وأن سموه يبذل كل جهده فى تأييد هذه الرابطة الودية ؛ وذكرت أن علاقات سموه بسفير إيطاليا فى الاستانة متينة جداً . فقال : نعم إنى أعلم ذلك . ثم قلت : إنى تحت أوامر جلالة الملك فى كل ما يريده من الاستعلامات عن الحالة السياسية فى الاستانة ومصر . فأخذ الجنرال مذكرة بذلك ، وسألنى عن مدة مقامى فى روما ، فعرفته بأنى عازم على التوجه إلى نابولى ، لمقابلة الأمير كمال الدين (*) على أن أرجع فى المساء ، وأنى ربما أقمت بروما أيضاً يومين أو ثلاثة . ثم شكرته على حسن استقباله .

محادثتى مع نابى بك : وزرت نابى بك سفير الدولة ، فأبلغته تحية أفندينا فشكر . ثم تكلمت معه فى الأحوال الحاضرة ، فعرفنى أن الايطاليين متخوفون من التجريدة على مصر ، فطمأنهم كثيراً . وأنه لما جاء (ع . بك) أخيراً طلب من البرنس محمد على أن يصرح للطليان من قبل الخديو بذلك ، فرفض ، فقلت له : إنى مستعد لاجراء اللازم فأرشدنى إلى دومرتينو ، وقال : إن علاقاته به طيبة جداً . وفهمت من كلام السفير أنه بعد إخراج الانجليز من مصر ستبقى فيها حامية تركية ، وهى التى ستحافظ على قناة السويس ، وأن امتيازات مصر لا تمس . وبعد دخول الجيش العثمانى مصر يسافر

(*) وقد سافرت فى اليوم نفسه إلى نابولى ، وتقابلت مع البرنس والبرنسيس ، وعلمت منهما أن سبب خروجهما من مصر هو عدم اتفاقه مع والده فى المسائل السياسية ، ففضل البرنس الابتعاد عن مصر ، وقد سلمت لهما خطابات الوالدة .

الخـــديو إليهـا ، كأنه احتـلال عثمانى بدل الاحتـلال الانجليزى ؛ قال : وليطمئن الطليان على طرابلس الغرب ، اتفقنـا على أن نائب السلطان فيها يصدر منشوراً يقول فيـه : إن إيطـاليا حليفة لحلفائنا ، وإنه على المسلمين أن يعتبروها محبـة للخليفة ، حتى يهدأ العرب ويخلدوا إلى السكون ؛ لأن إعلان الجهـاد حرك فيهم التعصب الدينى كما يدعى الطليان .

وقال السفير : إننى على العموم مجتهد فى إزالة سوء التفـاهم بيننا ، حتى نصل إلى غايتنا من التجريدة .

أما السنوسى ، فان الأخبـار الواردة من مصر تقول بأن المخـابرات جارية بينه وبين الانجليز .

وفى هـذا اليوم أرسلت إلى أفندينـا برقية رمزية أقول فيها : يقيم محب باشا فى نابولى حراً بعـد أن أعطى عهداً ؛ ويقال إنه جاء بمهمة من قبل الانجليز ، ويعتقد أن الحالة فى مصر سيئة بالنسبة للانجليز ، وأن الرأى العام فى جانب حملة تركـيا ، وأن رشدى وبقيـة النظار ضد ذلك ، وأن الأحكام العرفية أعلنت فى مصر ، وأن الجنود المصريين لا يحاربون ، لأن عدد الجنود الانجليز يبلغ سبعين ألفاً .

وفى ٦ ديسمبر أرسلت برقية إلى محمد فهمى افندى بجنيف أستعلم منه عن الخطاب الذى كنت سلمته إليه ، ليحمله أحـد المســافرين المصريين إلى مصر ، لتوصيله إلى صاحب العطوفة حسين رشدى باشا ؛ فوردت لى يوم ٧ منه برقية يقول فيها :

« أعيـد إليك الخطاب داخل مظروف موصى عليه ، نظراً لسفر الشخص الذى كان سيحمله إلى مصر . » وفى اليوم نفسه تسلمت المظروف المنوه عنه .

وفى ٧ منه وصلنى كتاب من الجنرال تيمونى رئيس مرافقى جلالة ملك إيطاليا ، ينبئنى فيه بأن جلالته سيقابلنى مقابلة خصوصية فى الساعة الثانية والثلث بعد ظهر يوم ١٠ ديسمبر .

وفى اليوم المذكور ذهبت إلى قصر جلالة الملك فى الميعاد المحدد للمقابلة ، وكنت أرتدى الريدنجوت كنص الدعوة ، وفى أثناء انتظارى حضر نابى بك سفير الدولة من لدن جلالتـه ، وأفهمنى أن جلالتـه سأل عنى ، فأخبره بما يعلمـه عن وظيفتى وعلاقتى بالجناب الخديوى .

محادثتي مع الملك . وقد تشرفت بالمثول بين يدى جلالة الملك ، ولم يكن فى المقابلة شيء من أبهة الملك ، وقد دعانى إلى الجلوس بجانب جلالتـه . وبعد أن أبلغته تحيات وتعظيمات الجناب الخديوى، شكر أولا ؛ ثم سألني عن حادثة الاعتداء ، وعن المعتدى ، وعن التحقيق ، وعن صحته ؛ فأفهمته بكل معلوماتى ؛ فلم يبد أية ملاحظة. وامتد الحديث إلى علاقات الخديو بالأتراك ، وإلى التجريدة التركية التى سيرت إلى مصر ؛ فأعربت لجلالتـه عن تأكيدات الجنـاب الخديوى لجلالتـه بأن لا خوف على علاقات الجوار الحبية بين مصر وطرابلس؛ وبعد ذلك أبلغته أوامر الخديو ، فأجابنى بأنه لاينساه ، وأنه مستعد لطلباته ، وقال : إن الحملة التركية إن كانت منظمة ، يمكنها اختراق سينا وعبور القناة .



فكتور عمانويل

وقد كان شعورى بعد هذه المقابلة الملكية ، أننى ألفيت جلالته على جانب عظيم من الدعة واللطف ، وأنه يذكر مصر والأسرة المحمدية العلوية خير ذكرى .

محادثتى الثانية مع نابى بك : وفى ١١ منه زرت نابى بك وأعلمته بنتيجة مقابلتى لجلالة الملك ، وكذلك ما قلتـه بالنسبة للصلات الحبية التى بين مصر وإيطاليا ، حيث أكدت لجلالته ألا محل لما يبدو من التخوف على طرابلس من هذه التجريدة .

وفى هذا اليوم كنت أرسلت برقيات إلى يوسف صديق باشا بكل ما أقوم به من الأعمال التى كلفت القيام بها ، فوردت لى اليوم برقية من بيك فى الاستانة يقول فيها :

« البرقيات الثلاث المرسلة منكم وصلت ، وهذه البرقية هى أولى برقياتنا . انتظروا فى روما حتى تصلكم تعليمات جديدة » .

محادثتى الثانية مع بتشيلي : فى ١٢ منه كنت تكلمت مع عبد الحميد شديد بخصوص

عمل ترتيب لاستيراد نقود من الخاصة الخديوية بمصر للجناب الخديوى ، ولاستيراد نقود لى خاصة ، فانتهيت معه على ما يأتى :

أولا — حسابى الخصوصى : يكتب جواب منى (وقد حصل) لبنكو دى روما فى مصر ، أن يحول مبلغ ألفى جنيه ، ثم ألفين آخرين على روما ، وأنه من أول يناير الآتى يحول كل أسبوع ٢٥٠ جنيهاً ، حتى ينتهى الحساب .

ثانياً — بأن يعرف عثمان مرتضى باشا، بأن يدفع كل ما أمكنه من النقود الموجودة فى الخاصة ، لتوصيلها لأفندينا ، بواسطة بنكو دى روما ؛ على أن يكون هذا باسم عثمان باشا إلى أحد تجار الاستانة ، وربما يكون نافع زاده .

محادثتى الثانية مع البرنس محمد على : وفى ١٣ منه تحادثت مع البرنس محمد على ؛ وكان من رأيه أن تأخر الأتراك عن التقدم لمصر ، سبب ضرراً كبيراً ؛ لأن المصريين كانوا فى غاية الحماسة لما علموا بالتجريدة على مصر ، وكانوا يظنون أن الأتراك سيدخلون البلاد بعد بضعة أيام (خمسة عشر أو عشرين يوماً) حتى أن بعض المشيعين له فى المحطة قالوا : إنه لا يصل إلى إيطاليا حتى يقفل راجعاً ، عندما يسمع بدخول الأتراك مصر .

محادثتى الثالثة مع مسيو بتشيلى : وفى ١٤ منه قابلت مسيو بتشيلى مع شديد بك فى الموعد المحدد ، فكانت مقابلة ودية ، محت سوء الظن به الذى حصل عندما قابلته أول مرة ؛ لأننى كنت وجدته متحفظاً جداً . أما فى مقابلتنا اليوم فانه كان صريحاً ، فهو أولا : أبدى إحساساً شريفاً نحو الخديو ، وقال إنه محب له ويتمنى له كل خير ، ويود أن يراه على تخت الخديوية قريباً فيتوجه للتهنئة . ثانياً : قال بأنه يعتبرنى بالنسبة له صاحباً ، ولا دخل للباشوية ولا للرياسة فى البنك ؛ وما نتكلم فيه يكون لغرض الوصول إلى ما يرغبه الجناب العالى . ثالثاً : قال : لا أخفى عليك أن الحالة السياسية هنا مضطربة جداً ، وأن الأفكار ميالة للحرب أكثر من السلم ، ولكنى أنا شخصياً بصفتى فرداً من أفراد المحافظين ، لا أود الحرب ؛ إلا أن الأفكار متجهة ضد الدولة ، وهى لم تحسن صنعاً فى دخول هذه الحرب ؛ لأنه يرى أن النمسا ستقع على رأسها خسائر الحرب ، وانجلترا تتمنى أن نسير وراء نصائحها ؛ فانها تمنينا بالجزر ، وبجزء من آسيا ؛ وفرنسا تعدنا بتريستا وترنتينو ؛ ومن جهة أخرى فان ألمانيا والنمسا تعداننا بالسافواى وجهات أخرى ؛ وكل فئة تطلب دخولنا فى الحرب معها ، حتى أن انجلترا تطلب أن نرسل جيشاً إلى مصر ؛ ولكن هل من صالحنا أن نعمل بنصيحة أحد الطرفين ؟

للمستقبل وحده الحكم فى هذا ؛ لأننا نفعل ما تجبرنا الحوادث على عمله ، فكل حادث اعتدائى من الدولة العثمانية يهيجنا . فمن ذلك مسألة إعلان الحرب الدينى (الجهاد) والتجريدة على مصر ، وخوفنا من أن الأتراك يغيرون على الحدود الطرابلسية ، وحادثة الحديدة — كل هذه الحوادث لها أثر سيء .

فأجبته بأن سوء التفاهم بالنسبة لاعلان الجهاد الحربى من قيام طرابلس ، وبالنسبة للتجريدة على مصر ، أمره واضح ؛ والدولة العلية وحلفاؤها أعطت التأكيدات بأن ذلك لا يمس طرابلس الغرب ؛ أما مسألة الحديدة ، فلم يكن لها من الأهمية مثل المسألتين الأوليين .

فقال : من يضمن لنا أن الدولة تنفذ وعودها ، وهى مشهور عنها أنها لا تفى بوعودها ؟ أما بالنسبة للجناب الخديوى ، فاننى — بكل أسف — أعلم بأن فى حاشيته من الرجال من يتكلمون ضده ، وهم أقرب الناس إليه ؛ فليحذر هؤلاء الناس .

فسألته عن الطرق الموصلة لتهدئة الخواطر فى إيطاليا ، حتى نتجنب الحرب معها ، فنصحنى بأن أتقابل مع مسيو دومرتينو ، وأحادثه فى الموضوع أولا ، ثم أرجع إليه ، وننظر فيما يقوله ، وفيما يلزم إجراؤه .

محادثتى مع محمد يكن : واجتمعت بمحمد يكن بك وأخبرته بحديثى مع بتشيلى ، فقال لى إنه سمع أن دومرتينو قال لشخص بمناسبة الحالة الحاضرة وتجريدة مصر ، وعلاقة الخديو مع إيطاليا : إن الانسان لا يمكنه الاعتماد على ما يظهره سموه من المودة والاخلاص لايطاليا ، والشاهد على ذلك هو أنه أبعد عنه رجالا إيطاليين كانوا يقومون بخدمات جليلة له . فأجابه محدثه : إن سموه معذور فى إبعادهم ؛ لأنهم كانوا خائنين ، وليس ذلك دليلا على عدم إخلاصه لايطاليا ؛ فاننا نعرف مقدار الخدمات الجليلة التى بذلها لنا فى طرابلس . لهذه الأسباب ، قررنا أن نستشير مسيو بتشيلى فيما إذا كان يحسن أن نتكلم مع دومرتينو صراحة بعد أن يعلم ما قاله بالنسبة للجناب العالى ، ولو أن بتشيلى لما سأله عما إذا كان دومرتينو يحفظ السر فيما أقوله ، ولا يعلم به أحداً من السفراء ، قال لى : اطلب منه كلمة شرف ، واحك له كل ما بدا لك . ولو أن كلام بتشيلى شخصى ؛ إلا أننى فضلت أن أحتاط لذلك ، وأسأله مرة ثانية ، فجاءنى الرد بواسطة شديد بك أن دومرتينو رجل عاقل ، ولا يضيع مصالح أمة لأجل شخص واحد ، مثل فرديناند دومرتينو(*).

(*) فرديناند دومرتينو هو ابن جاك دومرتينو باشا ، الذى كان رئيس الديوان الخديوى الافرنجي . ومن أسرة دومرتينو الذى كان بوزارة الخارجية . وقد فصله الخديو لمنازعات مالية مع الخاصة .

محادثتى الثالثة مع نابى بك : وفى ١٥ منه توجهت مع محمد يكن باشا لزيارة سفير الدولة العثمانية ، وقلت له : إن الايطاليين متذمرون من الدولة العثمانية ، وأفكارهم متهيجة ؛ ويقولون : إذا دخلت إيطاليا الحرب ، فيكون ذلك ضد الدولة ، وفى إمكانها أن تسوق مليوناً ونصف مليون من عساكرها . فقال السفير : أعرف أن الأفكار متهيجة ، ولكن أعرف أيضاً أن الذين يريدون الحرب هم رئيس أركان حرب إيطاليا ، ومسيو مارتينى ناظر المستعمرات .

فقال محمد يكن باشا : وأن الأخير مدين ، ويريد أن يصطاد فى الماء العكر ، حتى يتمكن من تسديد ديونه ، من أموال فرنسا وانجلترا ؛ إنما علم الباشا ممن يوثق بكلامه أن الملك طلب بياناً بالموجود فى مخازن الجيش ، ليعلم إن كان ينقصه شىء ؛ لأنه قال : إننى مسئول عن نتيجة الحرب ، فلا أوافق على الدخول فيها إلا إذا تحققنا من أنه لا ينقصنا شىء ؛ ولما اطلع على البيان وجد كثيراً من النقص .

ثم قال الباشا : يقولون إن استعداد إيطاليا ينتهى فى أبريل القادم ، ولكن الرجل الذى أخبرنى بعدم استعداد إيطاليا ، يؤكد أن الاستعداد لا ينتهى قريباً ، بل يكون فى سنة ١٩١٦ .

قال السفير : أؤمل أن تصلنى برقية من الصدارة ، ترضى الايطاليين فى مسألة الحديدة ، فينتهى الأمر بسلام .

محادثتى مع البرنس عزيز حسن : وفى ١٥ منه قابلت البرنس عزيز حسن ، وعلمت منه أنه ترد رسائل على البرنس جميل من شقيقته حرم فخامة الصدر ، وفيها أخبار مهيجة عن مصر وأفندينا ، وتذاع هنا بين المصريين وغيرهم . وقد قال البرنس عزيز باشا إنه لما كانت هذه الأخبار ضارة ، ولا سيما إذا وصلت إلى مصر . فقد خاطبت سفير الدولة العثمانية فى هذا الشأن ، فوافق على رأيى ، ووعد بأن يكتب للصدر لمنع إرسال مثل هذه الخطابات المشوشة . وكذلك ذكر البرنس عزيز أنه تكلم مع الملحق العسكرى فى سفارة ألمانيا ، وطلب منه أن يرسل الخبر للسفارة الألمانية بالاستانة لمنع هذه الخطابات .

وبهذه المناسبة قال الملحق : إن ألمانيا لم تساعد الدولة العثمانية فى التجريدة على مصر ، إلا بشرط أن تخرج منها بعد انتهاء مأموريتها ، وألا تمس الامتيازات ، وأن يرجع الجناب الخديوى لعرشه ؛ وكذلك علم البرنس من السفير العثمانى أن مجلس الوكلاء قرر هذا الأمر ، وأبلغ القرار المذكور إلى إيطاليا ، وهذا يؤيد ما قاله نابى بك من قبل ،

فاذا صح ذلك كان خطوة إلى الأمام . أما مقابلات السفير المتعددة للملك ، وتردده على وزارة الخارجية ، فيرجع إلى ما حصل فى قنصلية إيطاليا بالحديدة(*) .

وفى هذا اليوم تلقيت برقية من يوسف صديق باشا يقول فيها : عرجوا على فندق الأمبريال بفينا مع (ى . بك) إذا كان ذلك لا يزال ممكنا ؛ وإلا فأخطروه تلغرافياً ، وقبل أن يجتاز حدود رومانيا .

وفى ١٦ منه حادثت البرنسين محمد على ، وعزيز حسن ؛ ومن رأيهما أن يكتب أفندينا خطاباً للبرنس حسين كامل ، يقول فيه إنه يعتمد عليه فى المحافظة على العرش الخديوى ، كما أنه هو (أفندينا) حينما يرجع لمصر لا ينسى خدماته .

البرنس جميل : وقد حضر البرنس جميل عند البرنس عزيز ، وقال له : إن انجلترا قررت إعطاء مصر استقلالها التام ، وستكون سلطنة ، والبرنس حسين يكون سلطاناً ؛ وتعطى مصر دستوراً ؛ فيكون فيها مجلس أعيان ، ومجلس نواب ، وحرية تامة ؛ وتشمل السلطنة السودان والشام وجزيرة العرب .

مقابلتى مع دومرتينو : وقد توجهت فى الساعة الحادية عشرة لوزارة الخارجية ، فلم أجد دومرتينو ، لأنه كان توجه إلى مجلس النظار . وبعد انتظاره ساعة رجع ؛ فقابلنى مقابلة حسنة ، وأبلغته تحية الجناب العالى له ، وأنه يذكره دائماً بالخير ، حتى أن سموه عازم على إسناد وظيفة المستشار المالى لجنابه ، إذا تيسر خروج الانجليز من مصر ؛ فشكر سموه على إحساساته نحو شخصه . ولكنه امتنع عن الكلام معى فى المسائل السياسية ؛ فأدركت من هذا أن إيطاليا تميل إلى دخول الحرب فى جانب فرنسا وانجلترا .

محادثتى الرابعة مع نابى بك : سبق أن قال لى نابى بك : إن محمد يكن باشا توجه لوزارة الخارجية ، وأعلن بالنيابة عن أفندينا أن لا خوف على الطليان من التجريدة العثمانية ؛ ولكن إذا سمحت الفرصة فانى أؤكد ذلك للحكومة الطليانية ، فوعدته بذلك . وبالفعل لما قابلت الملك أكدت له ذلك ، ولما قابلت دومرتينو فعلت ذلك أيضاً ، وإنما اعتقادى أن الخوف سائد بين الطليانيين الرسميين وغير الرسميين .

وفى ١٧ ديسمبر تلقيت تلغرافاً من محب باشا فى نابولى يقول فيه : « ما زلت مريضاً ولا أستطيع الحضور . أرسلت مخصوصاً بقطار الساعة السادسة لتسليمك النقود والخطابات لحرمى بالفندق . أشكركم . »

(*) وكان قد وقع خلاف بين السلطة التركية ورجال قنصلية إيطاليا بالحديدة .

وتلقيت تلغرافاً من الأستاذ فهمي من لوزان يقول فيه : « أرسلت تلغرافياً إلى (ى. بك) بانتظار صديق باشا بفينا ، وقد علمت بصفة سرية بأنه سيكون مصحوباً (والظاهر أنه أراد أن يقول بأن سيكون مع سمو الخديو) . سأبلغكم الرد . »

سافرت فى منتصف الليل من روما إلى فينا ، وكنت مدعواً للغداء عند نابى بك السفير ؛ وكان البرنس عزيز باشا مدعواً هو ويكن باشا وحرمه . ولما علم بعزمى على السفر . رجانى أن أعرب للصدر عن حقيقة الأخبار فى إيطاليا ، والأفكار السائدة فيها ، وتخوف الحكومة من الحملة ورجالها ؛ حتى أن المسيو دومرتينو لما وردت برقية الصدر بخصوص الحديدة ، وقدم السفير للمذكور صورة بالتركى ، سأله دومرتينو : كيف يمضى الصدر على البرقيات ؟ كأنه فى شك من البرقية الواردة بشأن مسألة الحديدة . وكلفنى أن أقدم احتراماتى للجناب الخديوى .

وقد رافقنى للمحطة البرنس عزيز حسن ويكن باشا .

المساعى لخروج الخديو من الاستانة واقامته فى فينا . فى أول ديسمبر ، روى يوسف صديق باشا ، أن سفر سمو الخديو الذى تجرى عنه المخابرات الآن ليس إلى سويسرا ، وإنما إلى فينا ؛ وأن سموه حادث سفير ألمانيا فى موضوع سفره إليها ، وأن السفير وافق على ذلك ، وأنه على أثر مقابلة سموه ، تقابل السفير مع طلعت بك ناظر الداخلية ، الذى أبدى أنه غير معارض فى سفر الخديو إلى فينا ؛ وذكر يوسف باشا أن السفير ذاهب اليوم لمقابلة أنور باشا ، ومحادثته فى هذا الخصوص .

وفى هذا اليوم نفسه شرف سمو الخديو ببك ؛ وقد ذكر أنه لما قابل أمس سفير ألمانيا ، لم يلبث فى جلسته طويلا ؛ لأنه كان فى جلسة مع سفير النمسا ، فاضطر سموه أن ينتظر بضع دقائق ، إلى أن انتهت جلستهما ؛ ولم تطل الجلسة بعد ذلك بينه وبين السفير أكثر من عشر دقائق ؛ ولكن سموه فى هذه الدقائق القليلة تكلم بشدة مع السفير ، حتى أنه لم يجد جواباً غير الموافقة على جميع ما قاله سموه ؛ وقد كانت شدة كلام سموه بالغة الحد ، مما جعل السفير يقوم من فوق كرسيه ، ويبالغ فى التلطف معه .

وقد أبان له سموه تصرفات رجال الحكومة العثمانية ، حتى جعله يقر بأنها تصرفات غير حميدة فى حق الجناب العالى ؛ ثم ذكر السفير بالكلمة التى قالها لسموه فى أول زيارة قابله فيها ، بأن باب السفارة الألمانية مفتوح فى كل وقت لسموه ، عند حصول أى شىء من الأتراك ؛ فلم ينكر السفير قوله ، بل قال : نعم إننى قلت هذا حقيقة . وعندئذ قال

له سموه : « وإذن هذا هو الوقت ، وقد جئت إليك » فلم يستطع أن يجاوبه بشيء غير المصادقة على أقواله . ثم قال : إن التجريدة العثمانية القائمة إلى مصر ، إنما هى قائمة بنفقات ألمانية . فقال له سموه : إننى لا أطلب منكم أن تعدلوا عن التجريدة العثمانية ، لأنى أعلم أن مصلحتكم فى ذلك ، وأنكم لا تعدلون عنها لأجل خاطر واحد اسمه عباس حلمى .

وعلى أثر ذلك أبان السفير أنه لم يكن مقصراً بالنسبة للخديو قائلا :

إن الأتراك أصبحوا يشمئزون منى ، لأنهم يظنوننى متغالياً فى الكلام معهم عن سموكم ، وقد قال لى خليل بك رئيس المبعوثان إنى لست وصياً عليهم ، وأنه يرانى أزعجهم كثيراً بشأن سموكم .

وقد فهم سمو الخديو صراحة من السفير أن خليل بك هذا صرح له فعلا بأن الأتراك لا يرغبون فى الخديو .

وفى ١١ منه زار طبيب الخديو الدكتور كاوتسكى سفير النمسا ، وحادثه فى ضرورة سفر الجناب العالى من الاستانة . وعلمت أن الخديو كان يكره أن يجعل من أسباب خروجه صحته وحاجته إلى الراحة .

وفى اليوم نفسه حضر مسيو بادل إلى سراى ببك ، وحمل إلى الجناب العالى خبراً مؤداه أن حكومة ألمانيا وافقت على سفر سموه ، على شرط أن يكون ذلك إلى فينا أو برلين فقط ؛ وأنها عينت المسيو بادل لمرافقته ، ووافقت على تعيين البرنس ابراهيم حلمى باشا ليكون نائباً عن سموه مع التجريدة العثمانية، وقائمقامه عند دخولها مصر ؛ وبناء على أمر سموه حررت الارادة السنية ، ووقع عليها الجناب العالى ، ثم أبقاها عنده لوقت اللزوم . وقد فرح الجميع لهذه الأخبار ، وظهر على وجه الخديو الارتياح ؛ وأمر الدكتور كاوتسكى أن يكتب رسالة شكر لسفير ألمانيا . ثم عين يوم الاثنين القادم لسفره إلى فينا . فوافق الدكتور كاوتسكى على ذلك . وفى هذا اليوم أرسلت أوامر باحضار توفيق فهمى بك إلى الاستانة ، وإرسال ابراهيم أدهم بك إلى الضلمان .

وفى ١٣ منه صدر الأمر باعداد الجوازات لمن سيسافرون مع الجناب العالى ؛ وفى أثناء اشتغال سموه بهذا قال أمام السيد خيرى افندى الضابط إنه أعد ألعوبة للصدر يتجاوز بها عن الشرط القاضى بوجود سموه فى النمسا أو ألمانيا فقط .

وكان سموه يريد أن يسافر من محطة كوجك جكمه ، بدلا من أن يأخذ القطار

من الاستانة . ولهذا أمر الدكتور سيد كامل وعبد الله البشرى افندى باكتراء سيارة واختيار الطريق .

وفى هذا اليوم تقابل سموه مع الصدر بعد الظهر ؛ وقال لنا بعد ذلك إنه نجح فيما يطلبه ، فقد بادر الصدر بقوله : إننى لكى أثبت للحكومةالعثمانية أنى فى سفرى من هنا لا أزال غير راض عن تصرفات الحكومة الانجليزية ، فانى لا أنوى السفر إلى إيطاليا حسب رغبتها .

وقال سموه : « إننى سأبلغ ذلك للسلطان ، ثم لسفير ألمانيا ؛ وبعدها أكون حراً فى الذهاب إلى أية جهة أرغب فيها » . فقال الدكتور سيد كامل : « ما عدا إيطاليا » فسكت سموه .

وفى ١٤ منه توجه الخديو إلى بيك بقصد المبيت فيها ، والسفر منها غداً صباحاً إلى المحطة ؛ وبمجرد تحرك الرفاص من جبوقلى ، قال سموه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، توكلت على الله » ، وشفع هذه العبارة بما يأتى : « هذه هى بداية السفر » .

وبعد ظهر اليوم ذهب بملابسه السوداء الرسمية (الردنجوت) لزيارة جلالة السلطان فى سراى ضولمه باغجه مودعاً ، وقال جلالته لسموه : إن شاء الله تعود إليها قريباً.

ثم زار سموه سفير ألمانيا فى الساعة الخامسة بعد الظهر .

وفى المساء حضر من جبوقلى البرنسان عبد المنعم وعبد القادر ، لقضاء الليلة فى بيك مع سموه ، استعداداً للسفر .

وذهب الجناب العالى مساء إلى جبوقلى ؛ وراقب إحضار الحقائب ، وما يتبعها ، وإنزالها فى بيك ؛ وبات فيها هذه الليلة رمزى طاهر باشا ، ويوسف صديق باشا ، والدكتور كاوتسكى ، والدكتور سيد كامل ، والدكتور مورو ، وعبد الله البشرى افندى ، وابراهيم أدهم بك ، ومحمود خيرى افندى ؛ والجميع يرجون أن يخرج سموه من الاستانة بخير . وقد اتخذ جنابه العالى الاحتياطات اللازمة ؛ ومنها إعطاء المسافرين معه مسدسات يحملونها فى أثناء سير سموه إلى المحطة .

وفى ١٥ منه استيقظ الجميع فى الساعة الرابعة صباحاً ؛ وتناولوا طعام الفطور ثم انضم إليهم جلال الدين باشا (القبوكتخدا) . وقبل الساعة الخامسة نزل سموه من الحريم ؛ وكانت قد استحضرت عربتان من عربات الأجرة لركوب سموه سراً ؛

ولكنه أمر باعداد عربة الوالدة ؛ بالرغم من معارضة يوسف صديق باشا الذى قال إنه يجب أن تتبع عربة الخديو عربة أخرى . فقال سموه : لا لزوم لذلك ؛ ويكفى أن يركب بجوارى رمزى طاهر باشا ، وأمامى فخر الدين أغا (وهو حارس سموه الشخصى) والباقون ذهبوا بحراً إلى سركجى .

وفى ١٩ منه رجعت من مهمتى فى إيطاليا إلى فينا ، فوجدت مع الخديو البرنسين عبد المنعم ، وعبد القادر ، ومسيو بادل الألمانى ، ويوسف صديق باشا ، و (ى . بك) وخيرى افندى الضابط .

وفى المساء سافر البرنسان مع خيرى افندى ، للانتساب فى مدرسة « لانسى » بضواحى « جنيف » ، وتديرها « مدام برونل » كريمة « هكسيوس » ، مؤسس المدرسة ، وأخت « شارل هكسيوس » صديق .

وفى ١٩ منه زار الخديو الكونت برشتولد ، وزير خارجية النمسا ، وسفير ألمانيا ، رداً لزيارتهما له .

ولما اختليت بالخديو ، قال لى إنه كان واثقاً من أن فى وجوده بالاستانة خطراً على حياته ، وذكر أنه لا يرجع إليها مطلقاً ؛ ولهذا اتفق الرأى على أن ينوب عنه البرنس ابراهيم حلمى باشا لمرافقة الجيش التركى ؛ وليكون قائمقام خديو مدة غياب سموه عن مصر ؛ وعلمت أن الأتراك كانوا لا يرغبون فى ترك سموه الاستانة . ولكن المسيو بادل من جهة ، وسفير ألمانيا من جهة أخرى ، سهلا له السفر ؛ وقد وعد أفندينا الأول بأن يكون مستشاراً مالياً عند رجوعنا لمصر ، وقد عين الآن قنصلا عاماً لألمانيا فى دمشق .

تهديد سفير ألمانيا للاتحاديين : وقد علمنا فيما بعد أن الجدل اشتد بين سفير ألمانيا وخليل بك عندما لمح له بأن الأتراك ليسوا تحت الوصاية . وذلك عند الكلام على مسألة خروج الخديو ؛ فأجابه السفير قائلا : « حينئذ أنا آمر بسحب جنودى وضباطى فى البحر والبر ، وأطلب أن تدفعوا لى السبعة الملايين من الجنيهات التى أقرضتها ألمانيا للدولة » فأجاب خليل بك وهو مرتبك : « أنا لا أقول بأننا لا نسمع نصيحة ألمانيا » فرجا منه السفير ألا يحرجوه فى معاملاتهم لدرجة تضطره لاجبارهم على عمل الواجب .

حديث عباس بفينا مع جريبارس عن حادثة الاعتداء . وفى ٢٠ ديسمبر زار سمو الخديو مسيو جريبارس وزير اليونان المفوض لدى حكومة النمسا ، وكان قنصلا جنرالا لدولته فى مصر مدة طويلة ، وبينه وبين الخديو صداقة قديمة ، فأظهر سموه له كدره من معاملة الأتراك له ؛ واقتناعه بأن الاعتداء الذى وقع له كان مدبراً ؛ لأن المهمندار الذى كان على يسار العربة زج بنفسه داخلها ، بحيث عرض الخديو لرصاص الجانى ؛ ولأن سائق العربة أوقفها عند أول طلقة ، مما سهل له الأمر فى إطلاق الرصاص. قال الخديو : وهذا ليس بعيداً على الأتراك ؛ لأنهم سعوا أيضاً فى اغتيال حياة ملك اليونان بوساطة يونانى استأجروه ، وتوصلوا لغايتهم ؛ كما أنه اتضح أن الطليانى الذى أراد قتل ملك إيطاليا فى سويسرا ، كان للترك أصبع فى إقدامه على هذا الفعل . قال : وملك إيطاليا أخبرنى بأنه لم يسعنا إلا أن نعلن أن الجانى مجنون ؛ وأن شفيق لما تقابل معه سأله الملك عن القاتل وجنسيته . وقيام رجال الجندرمة بقتله فى الحال ؛ ولعل هذا معنى لم يفهمه شفيق ؛ ولكنى أنا فهمته ! فكأنه يقول : كما حصل لى حصل للخديو ! ثم أضاف : وهذه أسرار أعطانيها الملك .

ثم إن أفندينا أفهم جريبارس بأنه ليس فى نيته مقابلة أمبراطور ألمانيا ؛ وأنه حضر لاستشارة بعض الأطباء فى أمر الاصابات التى أصيب بها .

رأى عباس فى حل مسألة السودان . فى ٦ ديسمبر كان بعض الحاشية فى حضرة الجناب الخديوى ، ودار الحديث فى مسألة الرى فى مصر والسودان ، فقال سموه :

« إن الذى يريد أن يحكم مصر ، ويوفر لها أسباب السعادة والهناء ، يجب أن يكون قابضاً على السودان »

ومع هذا فان سموه لم يكن يتخوف من إنشاء الخزانات التى تمكن إقامتها فى السودان ؛ لأن النيل الأبيض كاف لرى الجزيرة ؛ وإنما كان يخشى أن تنمو زراعة القطن فى السودان ، فتتحول السوق إلى هذه الجهات ؛ وينخفض سعره فى مصر .

« ولاحظ سموه أن المصريين نسوا شرطاً من شروط الاتفاقية بين مصر وانجلترا بخصوص السودان . وهذا الشرط يقضى بألا يزرع فيه القطن . وعليه كان يرى سموه أن الواجب الاهتمام بالمحافظة على هذا الشرط .

ثم انتقل إلى مصر فقال إنه يرى أن تقام قنطرة تشبه الخزان فى مديرية جرجا ، فتضمن للوجه القبلى ريه الصيفى . وأشار أيضاً إلى إيجاد قنطرة أخرى فى شمالى زفتى . يوفر بها الرى للجهات النائية ؛ وثالثة على الفرع الغربى ؛ بحيث لا تكون المناوبات صعبة بالدرجة التى هى عليها الآن ؛ وبحيث تتوافر المياه اللازمة لرى جميع أراضى القطر بالراحة ؛ وكان يتكلم فى كل ذلك كخبير عارف بحاجات القطر .

ثم رجع إلى مسألة السودان ومستقبله ، وقال :

« يجب أن تتفق مصر مع انجلترا على أن تبقى المنطقة الشمالية فى السودان ، والتى بها المسلمون للمصريين ؛ أما المنطقة الجنوبية منه ، والتى لم يدخلها الاسلام فتبقى للانجليز ؛ وبذلك تحل مسألة السودان . »

ثم قال :

« صحيح أن فى هذا الاتفاق غرامة على مصر ؛ ولكن هذا هو كل ما يمكننا عمله لذريتنا . وعلينا أن نربيها على أن تكون فى المستقبل قادرة على استرداد الجزء الجنوبى من السودان ؛ لأن النيل كله يجب أن يكون فى قبضة مصر . »

كيف استقبل عباس خبر عزله وتولية السلطان حسين . فى ١٠ ديسمبر ذكر يوسف صديق باشا لسمو الخديو ، أن محمد راسم بك ، حضر من إيطاليا ؛ وروى أن الانجليز عرضوا مراراً على رشدى باشا أن يستقيل ، وهو يماطلهم ورفض الاستقالة . وروى أيضاً أنهم عرضوا على محمد سعيد باشا أن يكون رئيساً لمجلس النظار ، فقال إنه لايستطيع تولى هذا المنصب ، والخلافة فى حرب مع الدولة الانجليزية ؛ وأظهر سموه ارتيابه فى الخبر الأخير ؛ ثم روى راسم بك أن سعد باشا ألقى فى مصر خطبة أو كتب مقالة ، أو عمل حديثاً صحفياً ؛ فقال : إنه كان يطعن على الدوام فى السياسة الانجليزية فى مصر ؛ ولايزال يرى أن أعمال الانجليز غير مرضية ؛ ولكنه مع هذا لا يحب مطلقاً أن يرى مصر تحت حكم الأتراك .

وقد ذكر صديق علاوة على ذلك أن الانجليز أذاعوا فى فرنسا وفى الخارج حديثاً لسعد زغلول باشا ؛ وأن جريدة الطان نشرته . وقال أيضاً : إن الانجليز أعلنوا عزل الخديو . وأن جريدة الطان كتبت مقالا افتتاحياً فى هذا الموضوع ، قالت فيه : « إن انجلترا قد أحسنت فى عزل الخديو ؛ لأنه لم يكن صديقاً لانجلترا أو لفرنسا . »

وفى يومى ٢٠ و ٢١ ديسمبر جاءت أخبار برقية ، تنبىء بأن الحماية الانجليزية

أعلنت على مصر ؛ وأنها صارت سلطنة ؛ وأن البرنس حسين كامل عين سلطاناً عليها بلقب صاحب السمو ؛ وأنه احتفل به أمس بموكب خرج من سراى نعمت الله هانم افندى زوجة نجله كمال الدين باشا ؛ وأن الأهالى تلقوا هذا الانقلاب بدون اهتمام ؛ وأن جلالة ملك انجلترا أنعم على البرنس بنيشان الحمام ، وعلى حسين رشدى باشا بوشاح ميشيل وسان جورج ؛ وأن الوزارة الجديدة شكلت كما كانت قبلا ، ما عدا محب باشا فقد حل محله فى الأوقاف عدلى باشا ، الذى كان فى الخارجية ، وهذه النظارة ألغيت .

وأنه بالنظر لكون الخديو انضم إلى أعداء الملك ، فقد حرم من الرجوع لمصر ؛ ولكن حفظت له أملاكه الخصوصية .

هذا هو ملخص أخبار مصر .

قرأت حاشية الخديو هذه البرقيات ؛ وترددت فى إبلاغها لسموه ؛ ولكنى مثلت بين يديه وعرفته بالانقلاب ، بطريقة مناسبة ؛ فكانت إحساسات سموه بالنسبة للانقلاب ما يأتى :

أولا — أنه لم يظهر كدره لقبول البرنس حسين كامل باشا منصب السلطنة . وقال : « فى محله وأنا أميل لهذا الحل » .

ثانياً — أنه يأسف لكون مصر صارت تحت حماية أجنبية ؛ وكان يود أن تكون حرة .

ثالثاً — أنه تكدر جداً من قبول النظار — وخصوصاً قائمقامه حسين رشدى باشا — بعد أن حلفوا يمين الطاعة له أن يتركوه . ويشتغلوا مع خلفه ؛ وذكر أن هذا يدل على أنه لا يوجد مصرى واحد ، يفضل الاستقالة ، ويرفض النيشان الانجليزى ؛ ليحفظ كرامته (مشيراً بذلك إلى رشدى باشا) . ثم قال : « الحمد لله إننى لم أخطىء فى رفض وجودى بإيطاليا ؛ فلو أننى ذهبت لرغب الانجليز الآن فى عودتى إلى مصر ، وإرغامى على قبول الانقلاب ، أو معاملتى معاملة لا أرضاها

قلق عباس بعد الانقلاب فى مصر . لم يمض إلا القليل بعد أن علم عباس بخلعه وتولية عمه السلطان حسين كامل حتى ظهر على وجهه القلق والتفكير . فأردت الترويح عنه بأن عرضت على سموه الخروج فى رياضة : إراحة لأعصابه ، فوافق

ولما كنت أعلم عن الخديو أنه يعتقد بالتفاؤل والتشاؤم من بعض الأقدام والأشخاص، وكانت هناك سيدة التحقت به أخيراً ولم أكن مستريحاً لالتحاقها به — انتهزت هذه الفرصة وعرضت بشؤم هذه السيدة على سموه، لأنها لم تكد تلتحق به حتى أعلن عزله! ولكن هذا التعريض لم يفلح، لأن سموه رد عليّ قائلا: « ولكنها ساعدتني مادياً فى هذه الظروف الحرجة » ناسياً أن هذه المساعدة إنما هى من أمواله فى الحقيقة.

وبعد ذلك سألته عن أسباب قلقه، ففهمت أنه لم يكن لضياع عرشه؛ فانه كان يتوقع هذا الحادث الخطير قبل إعلان الحرب العظمى بسبب العداوة التى كانت بينه وبين اللورد كتشنر. إنما كان قلقه لسببين آخرين:

الأول — تخوفه من مصادرة الانجليز لأملاكه؛ بسبب انضمامه لأعدائهم، والعمل على إرسال حملة تركية لمصر.

والثانى — عدم صدور إرادة شاهانية بتحديد مهمة هذه الحملة، والتصريح فيها برجوع سموه إلى عرشه، وحفظ امتيازات مصر كما كانت قبل الاحتلال الانجليزى.

أما السبب الأول فقد سمعته يقول عنه: « هأنذا قد تركت الاستانة وصرت بعيداً عن الأتراك والحملة، ولم ألتحق بها؛ فليس هناك ما يحمل الانجليز على مصادرة أملاكى » فرد عليه الدكتور سيد كامل قائلا: « وهل هم لم يكونوا يعرفون حتى قبل قطع علاقات سموكم بهم أنكم تشجعون على إرسال الحملة وترفضون السفر لايطاليا؟ »

فقال: « على كل حال أنا لا أتوقع السير مع الحملة كما يظهر لى.. »

وقد فكر سموه فى القيام بمساع أخرى لحفظ أملاكه بوساطة ألبير ملك بلجيكا.

ثم لما انتدبنى عباس للذهاب إلى الأستانة عند تولية طلعت باشا الصدارة، قمت بمساع لضمان تعويض الخديو عن أملاكه إذا صودرت.

وسيرى القارىء فى الجزء الثالث تفصيلات عن هاتين المخابرتين.

أما السبب الثانى فقد علم القارىء بالاتفاق الذى تم بين عباس وأنور باشا وسفير ألمانيا بأن يعملوا معاً مسترشدين بآراء سموه فى الحملة العثمانية الزاحفة على مصر.

وإتماماً للفائدة أثبت ما رواه لى يوسف صديق باشا عما حصل ليلة هذا الاتفاق،

قال . , قلت لأفندينا إنه يجب قبل الكلام فى هذا الاتفاق أن تعترف بما فعلته مع السنوسيين والايطاليين ضد الأتراك، وأن تشرح الأسباب التى دعتك إلى ذلك ، وتذكر أنور باشا بكل ما فعله الأتراك ضدك ؛ وبعدها تتصافحون وتتعاهدون على السير معاً . فوافق الخديو على ذلك ، وتم فى هذه الجلسة الاعتراف من الطرفين بكل ما حدث فى فى الماضى ، والاتفاق على نسيانه ، والعمل بالاتحاد . وتقرر كذلك أن يدبر الخديو فى مصر حركة ثورية ؛ حتى إذا ما دخل الجيش العثمانى، قام الأهالى بالثورة ضد الانجليز ،

غير أن هذا الاتفاق لم يطمئن عباس، فانه كان يرى أن سير الحملة بطىء جداً ، وأنه لا يوجد قرار رسمى يعتمد عليه فى نتيجة الحملة ؛ ولهذا فكر فى عمل المساعى لمقابلة الامبراطور شخصياً أو بانتدابى لهذه المهمة .

وقد علم القارىء فيما سبق ، أننى عندما كنت فى روما تحدثت مع البرنس محمد على فى أن أرافقه فى هذه المهمة ، وأنه تنحى لالتزامه خطة الحياد . عندئذ تخابرت مع الأستاذ فهمى فى « جنيف » ليتصل بسفير ألمانيا فى « برن » ، ويعمل ما يلزم فى « برلين » لتحديد موعد مقابلتى مع الامبراطور؛ وأن يكون الأستاذ برفقتى . وقد قام بهذه المساعى؛ وجاء الرد بأن الامبراطور ترك برلين إلى ساحة القتال ، وأنه كلف ناظر الخارجية بأن يقابلنى بالنيابة عن جلالته وبصحبتى الأستاذ فهمى . وقد طلبت منى السفارة أن أخبرها بيوم قيامى إلى برلين، وبالطريق الذى أتخذه للوصول إليها . وفهمت أن الحكومة الألمانية تعلق أهمية على هذه الزيارة . وكانت مهمتى لدى الامبراطور هى أن أقدم لجلالته تحيات الخديو واحتراماته ، وأن أشكره على عنايته ورعايته للحملة التركية على مصر ، وأن المصريين لا ينسون هذه المساعدة ، ثم أتأكد من جلالته أن الحملة لا تمس الامتيازات التى نالتها مصر من تركيا ، وأن تعود الحالة إلى ما كانت عليه قبل الاحتلال مع عودة سموه إلى عرشه .

هذا ولما كنت إذ ذاك على وشك السفر من روما ، لم أرسل الرد للسفارة ريثما أعرض المسألة على الخديو الذى علمت بحضوره إلى فينا . وعند وصولى إليها ومحادثتى معه اتفقنا على أن يقوم محمد بك فريد بالسفر إلى ألمانيا مع الأستاذ محمد فهمى ؛ وقد تقابل مع سفير ألمانيا فى فينا وأعلمه باعتذارى عن السفر ، وانتدابه هو وزميله للذهاب إلى برلين ، فسلمه خطاباً لوزير الخارجية الألمانية بخصوص هذه المقابلة .

وقد تأكدنا أن الحكومة الألمانية تعلق أهمية كبرى على المحادثة مع الوطنيين

خشية أن يعتبر سفر الخديو من الأستانة اختلافاً بين سموه و بين العثمانيين ؛ ولهذا أرسلت سفارة ألمانيا فى الأستانة إلى القنصل فى جنيف بأن سفر سموه كان لأشغال خصوصية ، وأنه على وفاق تام مع الاتحاديين .

وقد عمل فريد بك حديثاً مع مكاتب جرنال « النيوفراى بريسيه » فى فينا عن مطالبنا التى نرجو تحقيقها فى الارادة

أما الخديو فانه لم يكتف بمقابلة فريد وفهمى لوزير الخارجية ، بل كان يرغب كل الرغبة فى مقابلة الامبراطور ليحادثه : لا فى مسألة مصر فقط ، بل فى القيام بمساع لتقريب فرنسا من ألمانيا . وسيرى القارىء تفصيلات هذه المساعى فى الجزء الثالث

الحفاوة بالخديو فى فينا . بعد خروج الخديو من الأستانة والسفر لفينا اهتمت الدوائر الحكومية باستقباله والحفاوة به ، وكذلك سفير ألمانيا وتركيا

وقد أرسل برشتولد وزير خارجية النمسا إلى سموه فى ٢٤ ديسمبر يهنئه بعيد الميلاد ، ويقدم له لوجين فى الأوبرا وفى تياترو البرج ، وقال فى خطابه : « أرجو أن تجيئنا السنة الجديدة بسلام مشرف وطيد الدعائم ، وأن يتاح لسموكم العودة إلى بلادكم الجميلة »

وقد رد عليه الخديو شاكراً ثم قال : « إننى من جهتى أدعو الله دعاء حاراً أن تكون سنة ١٩١٥ سنة سعيدة لنا جميعاً ، وأن يتوج النجاح جيوش صاحب الجلالة الامبراطور وحلفائه . وإننى أمام علائم العطف التى لم ينقطع جلالة الامبراطور عن إبدائها نحوى ، أجد من واجبى أن أبتهل إلى الله القدير أن يحفظ حياته الثمينة زمناً طويلا ، وأن يهب شعبه المجد والرخاء » وختم الخديو الخطاب بتهنئة وزير الخارجية بعيد الميلاد والعام الجديد

وقد دعا سفير الدولة سموه وحاشيته للغداء يوم ٢٩ الجارى ؛ وكنت أنا ويوسف صديق باشا بين المدعوين

وفى يوم ٢٩ منه ذهبنا تلبية للدعوة ؛ وكان من بين المدعوين وزير خارجية النمسا وزوجته ، وسفير ألمانيا وزوجته ، والكونت تولجاش من رجال وزارة الخارجية والكونتس زوجته ، والكونت ماكيو سفير النمسا فى روما

وبعد انصراف المدعوين اختلى السفير ووزير الخارجية بالجناب الخديوى مدة نصف ساعة ، دار الحديث خلالها عن الانقلاب الذى حصل فى مصر ؛ ثم قال وزير

الخارجية: «وعلى ذلك لا بد أن المخصصات انقطعت» فرد سموه بالايجاب، فقال السفير: «وماذا ستفعلون؟ نعم المعروف أنكم من الأغنياء، ولكنكم الآن فى خارج مصر» فرد سموه قائلا : الحمد لله فاننى غنى وعلى رغم أننى فى خارج بلادى، فاننى قد لا أحتاج لشىء»

وقد لاحظنا نحن على الخديو اعترافه بأنه غنى! فقال: «أنا أعرف بأفكار هؤلاء الناس، والقاعدة عندهم أن الغنى هو الذى يعتنى به، أما الفقير فلا يؤبه له. وهذا مثلا ناظر الخارجية، فهو رجل عادى من حيث كفاءته، ولكن ثراؤه وانتماؤه لولى العهد هو الذى أوصله لهذا المركز.»

شئون مختلفة. فى ٤ أغسطس جاءت الأوامر من لندرة بوضع المراقبة على البرقيات من مصر وإليها.

وفى ٥ منه رجع رجال الوكالة الانجليزية إلى مصر؛ وقنصل جنرال انجلترا فى الاسكندرية عرف رشدى باشا باعلان انجلترا الحرب ضد ألمانيا رسمياً. فأخذت النظارة تبحث فى ضرورة إعلان نوع من الأحكام العرفية، خوفاً من وقوع اعتداء من الخارج، وأخذت الجنود الانجليزية فى إقامة استحكامات أمام الواجهات الخارجية لسراى رأس التين. وكذلك أمام الثكنات الحكومية، وثكناتهم؛ وأحضروا المواد من طرفهم.

وفى ١٤ منه أبرق مرتضى لرشدى بأن المصريين بأوربا خابرونا بالصعوبات التى يلاقونها من البنوك لأخذ نقودهم؛ والمرجو إخبارنا برقياً عن الاجراءات التى سيتخذها.

وفى ٢٥ منه اجتمع الشيخ سليم البشرى شيخ الأزهر، والشيخ محمد حسنين مخلوف، والشيخ ابو الفضل الجيزاوى، عند رشدى باشا. ودار الحديث فيما إذا كان من المناسب تأخير افتتاح الدراسة فى الأزهر، وفى المعاهد الدينية الآن، خوفاً من حصول هياج بين الطلبة؛ خصوصاً إذا أعلنت تركيا الحرب على انجلترا. وبعد المداولة، تقرر افتتاح الدراسة. على أنه إذا حصلت أية مشاغبة تأمر الحكومة بتأجيل الدراسة فى كل المعاهد. وجرى البحث فى شأن سفر الحجاج فى هذه السنة؛ ويرجو رشدى أن يكون الخديو فى مصر حين الفصل فيها.

وفى ٣١ أغسطس أبرق يوسف صديق باشا للقائمقام يرجوه تبليغ الخاصة الخديوية تسليم كل المبالغ الذهبية، والباقى من المخصصات؛ بعد تنزيل ما يلزم منها

لادارة الخاصة إلى محمد فهمى بك ، ليحضرها معه عند سفره إلى الاستانة ؛ وكذلك يسلم له مراسلاته ومراسلات السراى .

وفى ١ سبتمبر أبرق إليه يرجوه أيضاً تسليم محمد فهمى بك الوقائع الرسمية التى نشرت الديكريتات الخاصة بقرارات الحكومة المصرية عن حالة الحرب ؛ وكذلك مجموعة الوقائع من أول أغسطس .

وفى ١٠ منه أرسلت برقية إلى القائمقام ، بأن قومندان المحروسة أخبر بحصول ضجة من رجاله بسبب عدم دفع رواتبهم ؛ وطلب سموه سرعة إرسالها ؛ كما طلب أيضاً استعلامات عن حالة المصريين فى أوربا .

فرد على سموه فى ١٤ منه بأن المصريين رجعوا لمصر فى ٩ سبتمبر ، ما عدا البرنس عمر طوسون .

وفى ١٦ سبتمبر جاء الدكتور خيرى باشا حكيم السلطان ؛ وثابت بك أثوبجى باشى لدعوة أفندينا من طرف السلطان ، لحضور حفلة توزيع الجوائز على متخرجى مدرسة البحرية ؛ ومشاهدة استعراض المراكب الحربية ، ومن ضمنها المدرعة « جوبن » و « برسلاو » الألمانيتان ؛ فأرسل أفندينا تلغرافاً لجلالته صباح ١٧ منه بالاعتذار لتوعك مزاجه (والحقيقة لعدم استحسانه وجوده فى جم غفير فى الخيمة التى سيكون فيها المدعوون) . ولكن التلغراف لم يصل قبل قيام جلالته ، مع أنه أرسل قبله بثلاث ساعات ، لاهمال حصل من الجندى (مراسلتنا) الذى أوصل البرقية لمكتب التلغراف أو من مأمور التلغراف ؛ فأرسل جلالته يستعلم عن سبب التأخير ضابطاً من الجندرمة برفاص ؛ وقال إن جلالته انتظر ربع ساعة على يخت إرطغرل (وكان عليه السلطان ، وولى العهد وحيد الدين افندى ، وعبد المجيد افندى ؛ وهم الذين يأتون بعد ولى العهد) . فأفهمته أن سموه أرسل تلغرافياً اعتذاره للسلطان ؛ وأعطيت له صورة منه .

وفى ١٧ منه أرسل رشدى يقول إن وطسن باشا يلتمس من أفندينا أن يصرح له بأجازة للحاق بألايه فى فرنسا ؛ وأن الحكومة المصرية أجازت مثل ذلك لغيره ؛ وبما أن وطسن باشا من الموظفين فى خدمة سموه ، رأيت من الواجب على أن أعرض طلبه ؛ وأنا متأكد أن سموه لا يرفض هذا الطلب ، فماذا حصل ؟

وفى ١٩ سبتمبر علمنا أنه حصل شقاق بين الوزراء العثمانيين ؛ فالبعض يطلب الدخول فى الحرب ، والبعض الآخر لا يقول بها ؛ فالذين لا يطلبون هم جاويد بك ؛

وطلعت بك، وجمال باشا. أما الصدر فيصوره أفندينا أنه فى الظاهر مع الألمانيين؛ وأما فى الباطن فهو مع الانجليز.

فى برقية من صديق فى ٢٨ سبتمبر، رجا فيها القائمقام باعطاء التعليمات لأحمد صادق بك، لسحب أسهم البنك العقارى المحفوظة فيه باسم الدائرة الخاصة، وإرسالها إلينا، بعد وضعها فى غلاف، وختمه بالشمع الأحمر.

وفى هذا التلغراف تعليمات عن كيفية إرسالها؛ وأن كشف النمر يحفظ بطرف أحمد صادق بك، وسيرسل له خطاب منا بصحة هذه البرقية، لتقديمه للبنك إذا وجدت صعوبات.

فى ٤ اكتوبر دعى سفير أمريكا وزوجته لتناول الشاى فى كشك صاحب منلا وحضر يوسف صديق باشا ومحب باشا.

فى ٥ اكتوبر اشتغل الخديو باعطاء التعليمات اللازمة لمحمد فهمى بك التشريفاتى قبل سفره لمصر.

وأهم هذه التعليمات نقل الاشياء الثمينة التى بالقصور إلى تفتيش أدفينا؛ مع وضع نظام لحراستها؛ وإرسال الأشياء الثمينة الأثرية منها من سيوف الأسرة الخديوية وخلافها للاستانة.

وفى ٧ اكتوبر نزلت لشراء خزانة كبيرة ليضع فيها الخديو الأوراق الثمينة كالعقود والأسهم وغيرها. وقد أمر سموه باستحضار كل ذلك من مصر ليكون فى مأمن.

وفى ٣٠ منه هرع إلى سراى ببك كثير من الزائرين لتهنئة أفندينا بالعيد، وكلهم تقريباً من المصريين؛ وفيهم فريد بك، والشيخ جاويش، وباقى أركان الحزب الوطنى، ويوسف ضيا باشا رئيس الياوران سابقاً، وكان قد قطع العلائق مع السراى من وقت انفصاله منها؛ وكان الجناب العالى مسروراً.

وفى ٥ نوفمبر كان الخديو أوفد يوسف صديق باشا إلى سفارة إيطاليا؛ ليستعلم عما إذا كان شقيقه البرنس محمد على موجوداً بمصر؛ وهل عين البرنس حسين حاكماً عليها؟ وهل ضمت لانجلترا؟

والسفارة الايطالية وردت لها معلومات من حكومتها، تقول إن الانجليز عينوا البرنس حسين كامل مستشاراً لهم، وأن التعيين المذكور أثر تأثيراً سيئاً فى المصريين.

ثم ورد خبر آخر بواسطة هذه السفارة ينبىء بأن البرنس محمد علي والبرنس عزيز حسن يستعدان لترك مصر .

فى ١٢ نوفمبر كانت خزانة الساحلخانة بجبوقلى فى عسر مالى ؛ وقد حضر لى من مصر مبلغ من النقود الذهبية ، فسلمت منه خمسمائة جنيه انجليزى للخزانة سلفة أستردها من الخاصة بمصر وقت رجوعى إليها .

فى ١٩ منه كان جمال باشا ناظر الحربية قد استأذن من الجناب العالى أن يتفضل ويأذن باستخدام المحروسة مع الأسطول العثمانى لسرعتها ، لمعاونة المدرعات . فأجابه سموه بالقبول ؛ كما كان قد أذن باستعمال التلغراف اللاسلكى . فأرسلت البحرية بعض المهندسين للكشف على المحروسة ؛ ولكن لما وجدوها غير صالحة للاستعمال كمدرعة ، أرسلت الحكومة جواباً بالشكر وبعدم لزومها ؛ والجواب مؤرخ بتاريخ اليوم .

سافر اليوم إلى دده أغاج عبد الله البشرى افندى ليقابل هناك بعض المستخدمين فى الباخرة سعيدية الآتية من الاسكندرية ؛ ويعلم منهم بعض أخبار مصر ؛ أو يصاحب بعض ركابها ، ويعلم منهم شيئاً عن الحوادث المصرية .

وفى هذا اليوم سافر من الاستانة اثنان من مهندسى المحروسة الوطنيين ، قاصدين دده أغاج ومنها إلى الاسكندرية . ولكن الوابور المخصوص تأخر سفره إلى المساء ، فاضطرا إلى الانتظار إلى غد أو بعد غد وكذلك تأخر سفر (الدكتور ر . افندى) عن ميعاده اليوم .

فى ٢٢ منه تشرف بمقابلة الجناب العالى فى سراى ببك ، محمد فريد بك ؛ وقدم لسموه أبا سعيد الهندى صاحب جريدة « جهاد إسلام » التى تصدر فى الاستانة باللغات الثلاث : العربية والتركية والأوردية ؛ وقدم لسموه أربعة من الطلبة المصريين الذين جاءوا من لندرة أخيراً .

فى أول ديسمبر جاء فى سراى ببك قبل الظهر ياور من نظارة الحربية ، اسمه غالى عاطف ، ومعه جواب بامضاء أنور باشا ، يطلب فيه من سمو الخديو تسليم آلة التلغراف اللاسلكى التى فى الباخرة المحروسة ، فأبلغه سموه بأنه سيصدر الأوامر اللازمة فى هذا الموضوع .

وبعد الظهر أمر سموه عارف باشا بالذهاب إلى نظارة الحربية ، لابلاغ أنور باشا

بموافقة سموه على نقل هـذه الآلة من البـاخرة « المحروسة » ، ووضعها تحت تصرف الجيش وإدارته .

وفى هذا اليوم أيضاً أمر سمو الخديو بتحضير بيـان بأسماء جميع الموجودين فى سراى جبوقلى ، لترحيل من يلزم ترحيله منهم إلى مصر بالباخرة سعيدية ، من بواخر الشركة الخديوية ، التى أرسلت اليوم أنها ستقوم .

فى ٨ ديسمبر ذكر سموه أن الحكومة العثمانية عثرت على أوراق فى نادى العرب بالاستانه تدل على أن جماعة منهم يحرضون العرب من أهل سوريا ، على ألا يسيروا فى هذه الحرب التى يرونها مشئومة . قال هذا سموه ، والظاهر أنه كان يرمى إلى إشـعار السـيد عبد الحميد الزهراوى بأن يترك الاستانة مؤقتاً ويهرب منهـا . ولـكن سموه خشى أن يبلغه ذلك مباشرة ، ثم يسأل عمن أوعز له بالهرب ، فيقولون : سمو الخديو .

فى ١٤ منه عند ظهر اليوم خرج سموه لابساً ملابسه الرسمية العسكرية ؛ وكذلك رمزى طاهر باشـا ، والميرالاى ابراهيم أدهم بك ، والصـاغ محمد خيرى افنـدى ؛ ثم يوسف صديق باشا ، وعارف باشا . وقصد سموه سراى مجلس المبعوثان لحضور حفلة الافتتاح ؛ ثم عاد سموه وحاشيته لتناول طعام الغداء .

كلمة شكر

لا يفوتنى أن أتقدم بالشكر إلى حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون على ملاحظاته القيمة وعلى تفضله ببعض الصور النادرة ، وكذلك إلى حضرة الدكتور حسين بك هيكل الـكاتب القـدير على مقدمته النفيسة التى صدرت بها القسم السابق ، وإلى الدكتور محمد عبد الله عنان على تنسيقه المذكرات ، كما أشكر الصحافة العربية والأفرنجية وبعض الـكتاب البارزين على تقريظهم الجميل لها

كلمة ختامية

لم يبق من مذكراتى سوى الجزء الأخير ، ومما سيحويه : الجمعيـات السرية الجهنمية لاثارة الفتن والقلاقل بمصر ضد الانجليز ، بولو باشا والعمل لصلح فرنسا وحدها مع ألمانيا ، المخابرات بين عباس وانجلترا بوساطة ملك البلجيك ، رجوع عباس إلى الاستانة بعد اتفاق مع الاتحاديين

وأنا أرجو الله أن يوفقنى لاخراج هـذا الجزء الأخير ، وكشف هـذه الخبايا للحقيقة والتاريخ ، والله ولى التوفيق

تصويب الأخطاء التى وقعت فى هذا الجزء

صفحة	سطر	الخطـــأ	الصواب
٩	٢٤	شكى	شكا
١٨	١٥	اسطبل	اصطبل
١٩	٢٤	أثمانه	أثمانها
٢١	١	كانت أن العلاقات	كانت العلاقات
٦٤	١٩	احمد شوقى افندى	احمد شوقى بك
٧٩	١١	عنهما	عنها
٨٢	١٣	جبهة	جهة
٨٢	١٨	لمصر	مصر
٨٣	١١	هو	هى
١٠١	٢٤	للمدافعة عن شناعة	للتنديد بشناعة
١٥٩	٤	أخر نى	أخبرنى
١٦٩	١	محمد القاضى جمال الدين افندى	محمد جمال الدين افندى قاضى مصر
١٨١	٩	وأديت	وأدت
١٩١	١	ووصل	وصل
١٩٥	١١	بيغرغد	بيغرد
١٩٨	١	فيه	فيها
٢٠٥	٢	لجمعية	الجمعية
٢٢٦	٤	التواصى	التوصيات
٢٢٨	٥	تنتهى	ينتهى
٢٢٩	١٧	تخريجه	تخرجه
٢٤٣	١٤	تنشأ	تنشىء
٢٤٥	١٢	تتنابذ تنابذاً	تتنابز تنابزاً
٢٤٧	٦	المنابذة	المنابزة
٢٥٣	١	وقيم	وقسم
٢٦٠	٢٥	مما	بما

صفحة	سطر	الخطـــأ	الصواب
٢٦١	١٤	أرا.	آراء
٢٦٦	٢٣	السمكرية	العسكرية
٢٦٧	١٢	الأخرة	الأخيرة
٢٧٦	٢١	أحداً	أحد
٢٦٧	٢٦	أخذ يوزع منها الهبات	أخذ يوزع من مخالى الأوقاف الهبات
٢٧٩	٤	. باشا	يا باشا
٢٨٠	١٠	عينه	تعيينه
٢٨٣	١٩	لمدن	بالمدن
٢٩٣	٩	بمجرد أن التماسها	بمجرد التماسها
٢٩٩	٢٦	لانتخابات	الانتخابات
٣١٣	٢٤	محمد حلمى باشا	احمد حلمى باشا
٣٢٥	١٧	الطليانين	الطليانيين
٣٣٠	٢	. ن	يمن
٣٣٣	٦و٧	التى التى وضعناها	التى وضعناها
٣٤٧	١٥	خامس	خامسة
٣٧٥	٢٣	المتميين	المنتمين
٣٨٥	٣	نوفبر	نوفمبر
٣٨٥	٥	الـ كية	التركية
٤٠٠	١٢	المبعوثين	المبعوثان
٤٠٠	١٤	المبعوثين	المبعوثان
٤٠٤	١	بوزاز	بوزاتى
٤٠٧	١٣	لملازمين	الملازمين
٤١١	٣	ثلاث	ثلاثة
٤١٢	١٦	له	لها
٤١٧	١٧	عون	عونى
٤٢٩	١٨	ف واللط	واللطف


Bibliotheca Alexandrina
0471657
